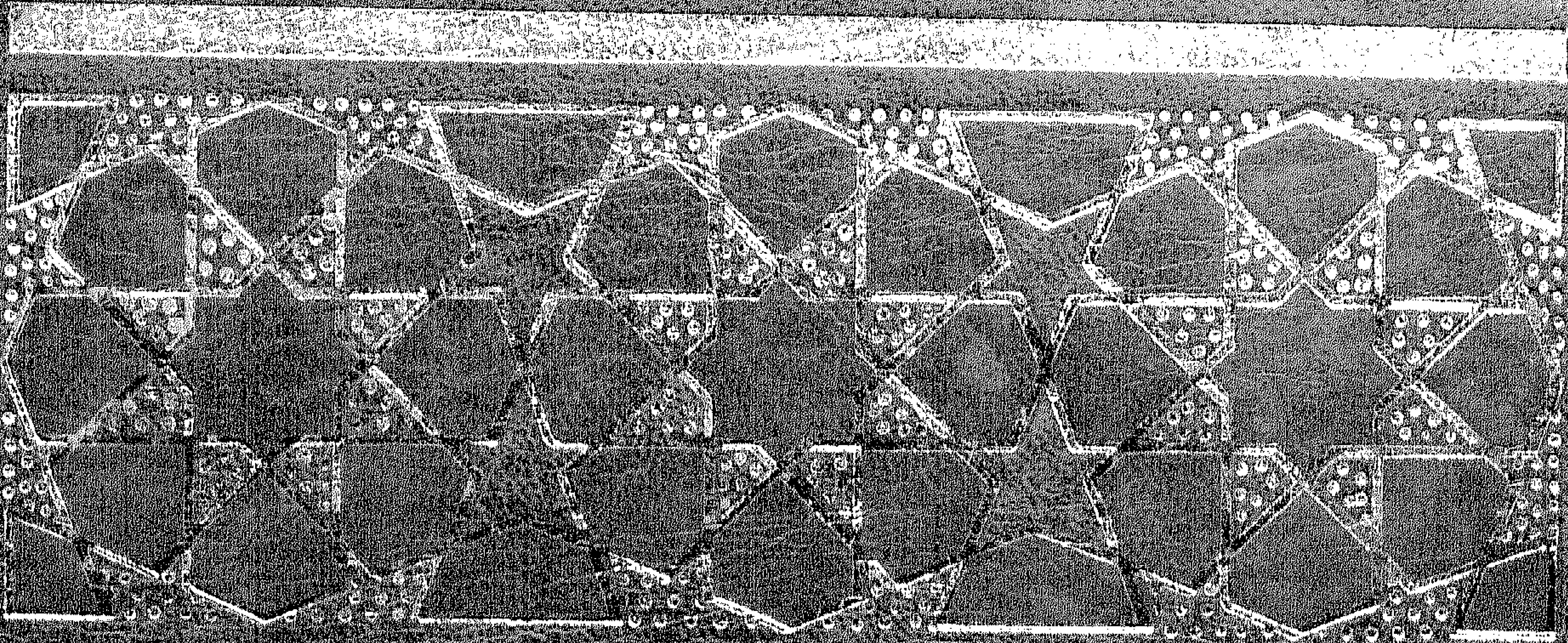




دار الفكر المعاصر

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الرازي

تفسير الرازي

المسمّى بـ

أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل

تأليف

محمد بن أبي بكر الرازي

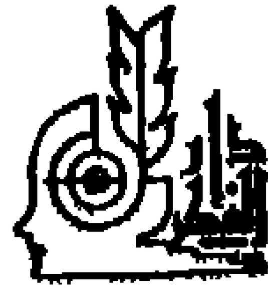
حقّقه

الدكتور محمّد رضوان الداية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي : ٩١٩
الرقم الموضوعي : ٢٢٠
الموضوع : القرآن وعلومه
العنوان : تفسير الرّازي
التأليف : محمد بن أبي بكر الرّازي
تحقيق : د. محمد رضوان الداية
الصف التصويري : دار الفكر ـ دمشق
التنفيذ الطباعي : مطبعة العلوم ـ بيروت
عدد الصفحات : ٦٠٠ صفحة
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم (فني)
عدد النسخ : ١٠٠٠



الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

دار الفكر المعاصر

لبنان ـ بيروت ـ ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون
س.ت ٥١٤٩٧ ، ص.ب (١٣٦٠٦٤)
هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس :
FIKR 44316 LE



مُقَدِّمَةُ الطبعة الثانية

مؤلف هذا الكتاب من أعلام القرن الهجري السّابع ، اشتهر بكتابه (مختار الصّحاح) حتى غلبت هذه الشهرة على سائر مُؤلّفاته ؛ وقد رزق هذا الكتاب سيرورة وشيوعاً قديماً وحديثاً ؛ فقد أحياه من جديد اعتماد وزارة المعارف بمصر في مطلع القرن الرابع عشر الهجري هذا الكتاب وتقريره على تلامذة المدارس العموميّة ؛ وأسهم في تسهيل فائدة الطلاب منه أن قلبه الأستاذ محمود خاطر فجعله على أوائل الأصول (بعد أن كان في أصله على منهج الجوهري صاحب الصحاح الذي اعتمد في ترتيب موادّ المعجم : أَواخِرَ الأُصول اللغوية لا أوائلها) .

والمؤلف هو زين الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن شمس الدين أبي بكر بن عبد القادر الرّازي (نسبة إلى الريّ : وهي أَصلهُ) وقد حلّي في ترجمته باللّغوي الفقيه الصّوفيّ المفسّر الأديب المصنّف ؛ ويدل ثبت مؤلفاته الباقية ، والمفقودة على متابعة في عدد من الفنون والعلوم والآداب .

ونقرأ في أخباره القليلة أنه دخل مصر « وأقام بها زماناً ، وجال في ربوعها وأخذ عن بعض مشايخها » كما أخذ عنه بعض طلبتها ؛ وذكره المقريزي . ونقل وصفه لبركة الحبش المشهورة التي في القاهرة وذلك قوله :

إذا، زيّن الحسناء قرطٌ فهذه يـزيّنهـا من كل نـاحيـة قرطُ
ترقرق فيهـا أدمع الطلّ غـدوةً فقلت لآلٍ قـد تضمّنهـا قرطُ !

وقصد إلى دمشق والشام ، وطاف في أرجائها :

ودخل بلاد الأناضول ، وأقام في قونية ؛ وفيها صحب الشيخ العالم المحقق صدر الدين القونوي ، وسمع منه ، وكان صوفيّاً كبيراً ومؤلفاً كثير التآليف .

وصدر الدين هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي المتوفّى سنة ٦٧٣ ، وكان صدر الدين ربيب محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ بدمشق) وكان الشيخ محيي الدين تزوّج من أمّ صدر الدين .

ولم تثبت لنا التواريخ سنة ولادته ولا سنة وفاته ، وفي خبر أنه سمع من صدر الدين القونوي كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ لابن الأثير إلى سنة ٦٦٦ هـ ؛ فهو عاش - على الأقلّ - إلى هذه السَّنة .

وفي مقالة لعبد الله مخلص في مجلة المجمع العلمي العربي (٤١٨/٢٢ - ٤٢٦) تعريف بمخطوطة من تأليف زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي عنوانها (روضة الفصاحة) ألّفها برسم السلطان منصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان الأرتقي ملك ماردين (تولى ٦٩١ ، وتوفي سنة ٧١٢) ؛ قال صاحب المقالة المذكورة :

« وأراني بعدما اطلعت على كتاب روضة الفصاحة الذي أُلّف برسم السلطان منصور ... ملك ماردين أنني مضطر بحكم هذه الوثيقة إلى تصحيح تاريخ وفاة المؤلف والقول إنه قد توفّي بعد سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) ... » .

وقد ترجم بروكلمان (الملحق ٢ : ٥٦٨ - ٦٥٩) للرازي وذكر مصادر ترجمته ، وأسماء مؤلفاته كما التقط أسماءها من فهارس الكتب في دور الكتب المعروفة ، وكما وردت في فهارس المطبوعات أيضاً ؛ وهذه الكتب هي :

١ ـ تحفة الملوك (ويرد بعنوان منحة السلوك ، وهدية السُّلوك ونخبة الملوك) .

٢ ـ أسئلة جميع أسرار مشكلات القرآن العظيم (ويرد بعنوان : أنموذج جليل في بيان أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل ؛ وأسئلة القرآن وأجوبتها) .

٣ ـ مُختار الصحاح .

٤ ـ شرح المقامات الحريريّة .

٥ ـ شرح بدء الأمالي .

٦ ـ حدائق الحقائق في مواعظ الخلائق .

٧ ـ الأبيات المعتمد عليها (؟) .

٨ ـ روضة الفصاحة ، عَرضه عبد الله مخلص في مقالته في (مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٢٣) ، وفي حاشية ترجمة الرازي في الأعلام أن من الكتاب نسخة في جامعة الرّياض من ٣٢ ورقة .

٩ ـ الأمثال والحكم .

والكتابان السّابع والتاسع كأنهما كتاب واحد . وسنعرض للمطبوع بشيء من التعريف .

وزيد على هذه الكتب في تراجم الرازي في مجلة الرسالة (مقالة الأستاذ حسن السندوبي) وفي الأعلام للزركلي .

١٠ ـ الذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز (في التفسير) .

١١ ـ كنز الحكمة (في الحديث النبوي) .

١٢ ـ زهر الرّبيع في (اختصار ؟) ربيع الأبرار .

وأورد الرازي لنفسه في أثناء كتاب روضة الفصاحة كتاباً بعنوان : « دوحة البلاغة » ألّفه في التشبيه والاستعارة والتورية ؛ نبّه إلى ذلك عبد الله مخلص في آخر مقالته عن كتاب روضة الفصاحة للرازي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

١٣ ـ وذكر في مقدمة (أنموذج جليل) الذي ننشره كتاباً آخر في التفسير لم يسمّه لكنه نبه إلى عنايته فيه بإعراب القرآن وبالمعاني الدّقيقة .

● ومن كتبه الباقية ممّا سبق من المطبوع :

أ ـ « كتاب أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل » وقد طبع هذا الكتاب طبعة قديمة .

ويدخل كتاب الرّازي (أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل) عموماً في جُملة الكتب والرسائل التي أُلّفت لكشف ما يلتبس من القرآن الكريم ممّا يُحتاج في بيانه أو تبيّنه إلى معرفة بوجوه متعددة من علوم اللغة والبلاغة والنحو والصرف وعلوم القرآن على اختلاف فنونها ، وإلى معرفة واسعة وثقافة متميزة مما يتهيأ به المتصدّي لتفسير كتاب الله الكريم .

ومن هنا تعدّدت في المكتبة الإسلامية الكتب التي تعرض للمتشابه والمُشكل ، وتقصد إلى تنزيه القرآن الكريم عن ظنّ الجاهل أو دعوى المدّعي أو تشكيك المشكّك ، والتي تهدف إلى إيضاح المسائل ومقارنتها بما يُماثلها في كتاب الله ، وتستفيد من أحاديث رسول الله ﷺ ، وتستأنس بعرض المسائل على لغة العرب وأشعارها وتراثها ليزداد المؤمن إيماناً ومعرفة ، وليتوضّح للغافل والجاهل ما كان غائباً عنه ، وليرتدّ المُغرض وكيدُه في نحره .

ونذكر في هذه العُجالة من الكتب المقاربة في المقصد والمنهج كتاب ابن قتيبة : (تأويل مشكل القرآن) ، وكتاب الخطيب الإسكافي : (درة

التنزيـل وغرة التـأويـل) ، وكتـاب الشريف المرتضى : (غرر الفـوائـد ودرر القلائد) المشهور بأمالي المرتضى ، وكتـاب الشريف الرضيّ : (حقـائق التـأويل في متشابه التنزيل) ، وكتاب الكرمـاني : (البرهـان في متشـابـه القرآن لما فيـه الحُجّة والبيان) ، وكتاب القـاضي عبـد الجبّـار الهمـذاني : (متشـابـه القرآن) ، وكتابه الآخر : (تنزيه القرآن عن المطاعن) .

ب ـ وكتاب مختار الصّحاح ، وقـد طبع عشرات المرات ؛ وأكثر مـا طبع عن نشرة جيدة في دار الكتب المصريّة .

وهذا الكتاب مختصر من صحاح الجوهري على ترتيبه ، وأضـاف المؤلف إليـه فـوائـد يسيرة من تهـذيب اللغـة لـلأزهري وديـوان الأدب للفـارابي والمجمـل لابن فارس والمصـادر للبيهقي ، والمفضّل للزمخشري ، والفصيح لثعلب ، والمغرب للمطرزي ، والغريب المصنَّف لأبي عبيد ، والغريبين للهروي .

وأتمّ الرازي تأليف كتابه سنة ٦٦٠ هـ .

ج ـ وكتاب الأمثال والحكم : طبع في نحو مئتي صفحة ، وعرّف به مؤلفـه في مقدمته بأنه مختصر جمع فيـه مـا تفرّق من الأبيـات المفردة وأنصـاف الأبيـات التي ما زال الفضلاء يتمسكون بها في مكاتبـاتهم ومخـاطبـاتهم في المعـاني المختلفـة والمتفقـة والمبـاني المؤتلفـة والمتفرقـة من الحكم الـدينيـة والـدنيويـة وجـوامـع الكلم العقليـة والنقليّـة حتى صـارت أمثـالاً سـائرة ونجومـاً في أفـلاك البـلاغـة دائرة ، وأَلِفَتْهـا الأسماع وجُبلت على الميـل إليهـا القلـوب والطبـاع ، وسـارت بهـا الركبـان في البلدان ، وأجمع على اختيارها أرباب البلاغة والبيـان فطرّزوا بها حواشي كتبهم ورصّعُوا بها جواهر فضلهم وأدبهم وفضّلوهـا على سـائر أبيـات القصـائـد وفصّلوهـا تفصيل الدرر اليتيمة في القلائد ... وسمّيتهُ : كتاب الأمثـال والحكم ، ورتبتـه على عشرة فصول ..

والحق أن الكتاب جاء في قسمين اثنين : الأول في الأبيات التامة والثاني لأنصاف الأبيات ، والقسم الأول مقسوم على فصول هي عشرة ، وفي كل فصل أبيات مفردة مختارة في موضوع عنوان الفصل والقسم الثاني مقسومٌ على ثمانية فصول في كل فصل أنصاف أبيات مناسبة للعناوين المذكورة .

ويلحق الكتاب بما سبقه ولحق به من كتب الأمثال ، والأبيات المُفردة .

هذا الكتاب

يعدّ كتاب الرازي المسمى بـ (أُنموذج جليل . في أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل) في كتب التّفسير ، وإن لم يلتزم المؤلّف الوقوف عند آيةٍ آيةٍ من كل سورة من سور الكتاب الكريم ؛ فإن مقصد الكتاب هو حَلّ بعض الوجوه التي يرد حولهاْ سُؤال أو يقع فيها إشكال أو يُحتمل أن تكون محل نظر لسبب من الأسباب المتعلقة بأسباب النزول أو بالأحكام أو باللغة أو بالبلاغة أو بغير ذلك مّما يكون التفسير أو التوضيح جواباً له .

ويشبه هذا الكتاب من حيث منهج التّناول وشكل المعالجة كتاباً من مؤلفات القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي ، أحد أئمتهم ومن كبار المصنفين على منهجهم ومبادئهم ، وهو كتاب : (تنزيه القرآن عن المطاعن) على أن بينهما فرقاً في كثير من المواقف والآراء ووجوه الإجابة ومواقع التوقّف والتساؤل .

وكان المؤلف يقف عند السُّورة من القرآن الكريم ، ويثبت الموضع الذي يقع السّؤال عنه في الآية الكريمة ويجيب عن ذلك التساؤل بإجابة واحدة إن كانت كافية أو مقنعة . وبأكثر من إجابة أو وجه إن اقتضى الأمر التّفريع ، أو التّنويع ؛ أو الأخذ بأكثر من وجهة نظر واحدة أو بأكثر من جواب واحد .

وقال المؤلف ـ رحمه الله ـ في مقدمة الكتاب إنه وضع هذا الكتاب اعتماداً على جانبين اثنين :

أحدهما : ما نقله ـ أو أخذه واقتبسه واستفاده ـ من كتب العلماء والمفسّرين الذين سبقوه على طريق الاختيار والانتقاء .

والثاني : ماتفتق عنه ذهنه بعد الْمُدَارسة والبحث والتنقيب والمذاكرة مع صديق له من أهل العلم ـ لم يذكره باسمه ـ بل اكتفى بوصفه فهو أخ له « من إخوان الصفاء في دين الله ومحبّة كتابه ، وكان صالحاً تقيّاً سليم الفطرة وقّاد الذهن » ؛ وكان هذا الصّديق المعين على إثارة القضايا والأسئلة ، المفيد في الإجابة عنها اقتباساً أو اجتهاداً شديد العناية بمعاني كتاب الله الكريم « كثير البحث والسؤال عنها ، قد هداه الله إليها وفتح عليه فيها بغرائب لم نسمعها من العلماء ولا رأيناها في كتبهم » ومن هنا انقدحت في ذهن الرَّازي أن يصنف هذا الكتاب على طريقة إثارة السؤال واستحضار الجواب . واجتمع للمؤلف أزيد من ألف ومئتي سؤال . واكتفى المؤلف ـ في هذا الكتاب ـ بالأسئلة العامّة التي يحتاج إليها أكثر الناس لتقريب الفهم وتبيين معاني النص القرآني ، أما « الأسئلة التي تتعلّق بوجوه الإعراب وبالمعاني التي هي أدقُّ على الأفهام وأخفى » فقد وضع لها المؤلف كتاباً آخر سماه (مختصراً) أي على شاكلة هذا الكتاب ، وأحال القارئ الذي يطلبها عليه (راجع مقدّمة المؤلف) .

ويتكرّر في صفحات الكتاب ، وعلى وتيرة واحدة أن يبدأ المصنف المسألة بعبارة « فإن قيل » ويبدأ الإجابة بعبارة « قلنا » ثم يأتي الجواب ، أو تتوالى الأجوبة على السؤال الواحد ، كما أسلفت .

ولا يلتزم المؤلف بذكر مصادره أو مراجعه التي استفاد منها ؛ وتتكرر أسماء معينة بكثرة في هذا الكتاب مثل الجوهري صاحب الصحاح والزجاج صاحب معاني القرآن ، والزمخشري صاحب الكشاف والفرّاء صاحب إعراب القرآن ...

واقتضى منهج المؤلف القائم على الإيجاز والاختصار ألاّ تكثر الشّواهد والأمثلة ، ولكن الكتاب مطرّز بشيءٍ يسير منها يتطلّبها المعنى ؛ وأكثر الأمثلة والشواهد منقول من المصادر التي ينقل عنها الفقرة أو جواب المسألة المطروحة .

وأكثر المصنّف من اعتماد أُسلوب تفسير القرآن بـالقُرآن وهـو أسلـوب قـديمٌ معروف ، وهو مفيد جـداً في الإيضـاح ومقـارنـة المعـاني والإجـابـة عن كثير من الأسئلة .

وقد أُتيح لكتاب الرازي هذا مَن اختار معظم فقراته فاختصرهـا واختزلهـا ، وهو شيخ الإسلام زكريـا الأنصـاري أحـد علمـاء زمـانـه (تـوفّي سنـة ٩٢٦ هـ) وأودعها كتابه المسمّى « فتح الرحمن بكشف ما يلتبسُ في القرآن » وقد صـدر هـذا الكتاب سنة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م عن مكتبة الرياض الحديثة بتحقيق : عبد السميع محمـد أحمـد حسنين . وجمهرة مـا في كتـاب فتح الرحمن إنّما هي من كتـاب الرّازي الذي نقدّمه إلى القارئ .

تحقيق الكتاب

اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسختين خطّيتين محفوظتين بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق :

إحداها بالرقم ١٤٨٠٠

والثانية بالرقم ١٤٨٠ (ورقمها السابق ٥٩ في المكتبة العثمانية بحلب) .

- **تقع النسخة الأولى** في ١٧٠ مئة وسبعين ورقة وهي منسوخة سنة تسع وخمسين وألف للهجرة ؛ وكانت موقوفة لأحد المساجد بالقاهرة ، وعلى صدر الورقة الأولى :

« وقف وحبس وتصدّق مولانا الشيخ عمر الدّوقري الحنفي الإمام بالمسجد الكائن بخان الخليلي المعروف بخان الفسقية ، وقف المرحوم السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري طاب ثراه جميع هذا الكتاب على طلبة العلم ينتفعون به قراءة ونسخاً ، وشرط مولانا الواقف المشار إليه أن يكون مقرّه بالخزانة التي بالمسجد المذكور ، على يسار الإمام ، وأن يكون تحت يد كلّ من يكون إماماً بالمسجد المذكور . وشرط أيضاً مولانا الواقف شروطاً منها :

- ألا يعير كتاباً ولا كرّاساً إلا برهن يفي بثمن ذلك .

- ومنها ألا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يُستبدل ، ولا يمكث عند المستعير أكثر من عشرين يوماً .

فمن بدّله بعدما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم .

جرى ذلك ، وحرّر في خامس عشر شهر رمضان المعظم قدره سنة ست وستين وألف من الهجرة النبوية ضمن تاريخ الحجة المسطّرة بجامع الحاكم » .

وعبارة الختام ، بعد تمام الكتاب : « تم الكتاب بحمد الله وفضله والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين » .

وكان الفراغ من تعليقه يوم الخميس المبارك الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ١٠٥٩ من الهجرة » .

وتقع النسخة الثانية في ١٧٠ مئة وسبعين ورقة ، وعلى صدر الورقة الأُولى ـ وهي مضافة حديثاً ـ ما نصه : « رقم المكتبة العثمانية ٥٩ ، كتاب أسئلة القرآن وأجوبتها للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي رحمه الله تعالى » وتحت هذا خط كاتب هذه الكلمات « المحقق والمدقق أحمد محمد سردار مدير المكتبات الوقفية بحلب » . وهو آخر مسؤول عن المخطوطات في حلب ، ثم انتقلت إلى حيازة المكتبة الوطنية بدمشق .

وعبارة ختام النسخة : « تم الكتاب بعون الله وحسن توفيقه على يد العبد الضعيف المذنب المحتاج إلى رحمة الرحمن عثمان بن طيّب بن عثمان الخراساني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . برحمتك ياأرحم الراحمين » .

وقد دخلت النسخة إلى مكتبة الأسد الوطنية برقم ١٤٨٠ .

والنسختان الاثنتان تتطابقان إلا في مواضع يسيرة جداً : كلمة هنا وكلمة هناك . وقد اعتمدتها معاً ؛ وأكتب الفُروق على ندرتها ، إلا ما كان سهواً من النّاسخ فلم أثقل الحواشي به .

وأضفت إلى النّص التعليقات الضرورية والحواشي المناسبة دون إطالة ولا استغراق ؛ فالكتاب لا يحتاج إلى اتّساع في الحواشي في معظم صفحاته .

وقد رقّمت الآيات من كل سورة في داخل النّص وميّزتها بقوسين معقوفين وخرجت الآيات المستشهد بها من سورة أُخرى في الحواشي ، وخرّجت الأحاديث النبوية والأشعار والأقوال باختصار وإيجاز .

أدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يثيبنا على صنعته ، وأن يجزي مؤلفه الرحمة والغفران .

والحمد لله رب العالمين

أ. د. محمد رضوان الداية

أبو ظبي : جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ
كانون الثاني ١٩٩٠ م
روجع للطبعة الثانية في :
ربيع الآخر ١٤١٦ هـ
أيلول ١٩٩٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه ثقتي

قال الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي؛ عفا الله عنه، وغفر له، ولجميع المسلمين:

هذا مختصرٌ جمعت فيه أُنموذجاً يسيراً من أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها:

- فمنه ما نقلتُه من كتب العلماء إلاّ أنّني نَقَّحْتُه ولَخّصْتُه؛
- ومنه ما فتح الله تعالى عليَّ بِهِ بسبب مذاكرةِ أخٍ من إخوان الصَّفاء في دين الله ومَحَبَّةِ كتابه، وكان صالحاً تقيّاً سليم الفِطْرَةِ وقّاد الذِّهن، جامعاً لجملةٍ من مكارم الأخلاق وصفات الكمالِ الإنسانيّ؛ أنعم الله تعالى عليَّ بصحبته ومذاكرته في معاني كتابه، وكانَ شديد العناية بها كثيرَ البحث والسؤال عنها، قد هَداه الله إليها وفتح عليه فيها بغرائب لم نَسمعها من العُلَماء، ولا رأيناها في كُتبهم؛ فحَملتني فكرتُه القادحة ونيّتهُ الصّالحة على جَمْعِ هٰذه الصُّبابة وهي تزيد على ألفٍ ومئتي سؤال. وإن كانت بالنسبة إلى ما في القرآن من العجائب والغرائب كالقَطرة من الدَّأماء، والسُّها من نُجوم السَّماء(*).

(*) الدّأماء: البحر. والسُّها: كويكب صغير خفيّ الضوء في بنات نعش الكبرى؛ والناس يمتحنون به أبصارهم.

ولكنّي قصدت اختصار هذا الأُنموذج منها، وتقريبه إلى الأَفهامِ ليكثر الانتفاع به، ولا يُهْجَرَ لدِقَّتِهِ وغُموضه.

وأمّا الأسئلة التي تتعلّق بوجوه الإعراب، وبالمعاني التي هي أَدَقُّ على الأَفهامِ وأَخْفَىٰ فإني وضعتُ لها مختصراً آخر وأودعته أنموذجاً منها أيضاً فلتُطلب منه.

وبالله أستعين، وعليه أتوكّل، وإليه أتضرّع في أن يَجْعَل عِلمي وعملي خالصاً لوجهه الكريم، ويتغمّدني وأَخي الصالح بمغفرته ورحمته؛ إنه غفورٌ رحيم.

سُورَةُ فَاتِحَةِ الكِتَاب

فـإن قـيل: (الرَّحْمَنُ) أَبلغُ في الوصف بالرحـمة من (الرَّحـيم) بالنَّقل عَنِ الزَّجّـاج وغيره؛ فكـيف قَدّمَهُ؛ وعـادَةُ العـرب في صفـاتِ المدح التَّـرقِّيُّ من الأَدْنى إلى الأَعـلى؟

قُلنا: قـال الجوهـريُّ وغيرُه[1]: إنّهـما بمعنىً واحـد؛ كـ: نَدِيـم ونَدْمَان، ؛ فعَلى هذا لا يَرِدُ السُّؤال.

وعـلى القـول الأَوّل: إنَّـما قَدّمـه لأن (الله) تعـالى اسمٌ خـاصٌ بالباري لا يُسَمَّـى به غيرهُ لا مفرداً ولا مُضَافاً فقدّمه. و(الرَّحـيم) يوصفُ به غيرهُ مُفرداً ومضافاً فأَخّـره. و(الرَّحـمن) يوصـف به غيرهُ مضافاً، ولا يُوصَفُ بِهِ مُفرداً إلا الله تعـالى، فوسَّطه.

فـإن قـيل: كيفَ قَدَّمَ العِبَـادةَ على الاستِعـانة، والاستعانـةُ مُقَدَّمـة؛ لأن العَبْد يستعين الله على العبادة فيعينه عليها؟

قُلنا: الواو لا تَدُلُّ على الترتيب؛

أَو المُرادُ بهـذه العبادة التَّوحـيد، وهو مقدّمٌ على الاستعـانة على أَداء سـائر العبادات؛ فـإنّ مَنْ لم يـكن موحّـداً لا يـطلبُ الإعانَـة على أَداء العبادات.

فـإن قيل: المُرَادُ بالصّراط المستقيم: الإسلام، أَو القُرآن، أو طريـق الجَنّـة؛ بالنَّـقل؛ والمؤمنـون مُهْتَدُون إلى ذلك فمـا معنى قـوله: «اِهْدِنا الصِّرَاطَ المُستقيم»، وإنّـه تحـصيل الحـاصل؟

---

(١) الصحـاح مادة (رح م).

قُلْنَا: معناهُ: ثَبِّتْنَا عَليه، وأَدِمْنَا على سُلوكه خَوفاً من سُوءِ الخاتمة ـ نعوذ بالله من ذلك ـ كما تقولُ العربُ للواقف: «قِفْ حَتَّى آتِيكَ» معناه: دُمْ على وقُوفكَ، واثْبُتْ علَيه؛

أوْ معناه طلبُ زيادة الهُدى كما قال تعالى(٢): ﴿وَالَّذِيْنَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ وقال(٣): ﴿وَيَزِيْد الَّذِيْنَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

فإنْ قيل: ما فائدةُ دخول (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلاَ الضَّالِّيْنَ﴾. وقَوْلُهُ: «غير المغضوب عليهم و الضَّالين» كافٍ في المَقْصود؟

قُلْنَا: فائدته تأكيدُ النَّفي الذي دلَّ عَلَيْه «غَيْر».

---

(٢) محمد: ١٧/٤٧
(٣) مريم: ٧٦/١٩

سُورَةُ البَقَرة

فإن قيل: كيف قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [٢/٢] على سبيل الاستغراق؛ وكم ضالٍّ قد ارتاب فيه؟ ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنَا﴾ [٢٣/٢].

قلنا: معناه: لا رَيب فيه عند الله ورسوله والمُؤمنين؛

أو هو نفيٌ معناه النَّهي؛ أي: لا ترتابوا فيه؛ إنّه من عند الله. ونظيره قوله تعالى[1]: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢/٢] والمُتَّقون مُهتدون؛ فكان تحصيلَ الحاصل؟

قُلنا: إنّما صاروا مُهتدين بما استفادوا به من الهدى؛

: أو أراد أنّه ثباتٌ لهم على الهُدَى، وزيادة فيه؛

: أو خَصَّهم بالذِّكر لأنَّهم هُم الفائزون بمنافعِه حيث قَبِلوه، واتّبعوه كقوله[2]: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾.

: أو أراد الفريقين[3]، واقتصر على أحدهما، كقوله تَعالى[4]: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾.

---

(١) سورة الحجّ: ٧/٢٢
ـ وقدّر المعنى على تقدير فعل أمر(والأمر والنّهي من الطَّلَب) قال في التفسير الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٥، أي وليعلموا أنّ السّاعة آتية لا ريب فيها.

(٢) سورة النازعات: ٤٥/٧٩

(٣) أي أراد: المتّقين للمعاني التي ذكرها المؤلف؛ وغيرهم لأن فيه هدايتهم لو اتّقوا وكانوا من المُسلمين.

(٤) سورة النّحل: ٨١/١٦
ـ في تفسيرها: أنّ العرب في بلادهم ـ في القديم ـ كانوا أهل حَرّ، ولم يكونوا أهل برد، فذكر لهم نعمه التي تختصّ بهم... =

فـإن قِيْلَ: المُخَـادَعَـةُ إنَّـما تُتَصَوَّرُ في حَقّ مَنْ تَخْفَى عليه الأُمورُ لِيَتِمّ الخـداع في حـقّه. يُقـال: خدَعـه؛ إن أَراد به المكـروه من حـيث لا يَعـلم، والله تعـالى لا يَخْـفَى عليه شيء. فـكيف يُقـال: ﴿يُخَـادِعُـونَ الله﴾ [٢/ ٩]؟

قلنـا: معنـاه: يُخَـادِعُوْنَ رسـولَ الله ؛ كقـوله تعـالى(٥): ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّـمَا يُبَايِعُـوْنَ الله﴾، وقـوله(٦): ﴿مَن يُّطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَـد أَطَاعَ الله﴾.

أو: سمّـى نِفاقَهُـم خِدَاعـاً لِشبهـه بفعل المُخَـادِع(٧).

فـإن قـيل: كـيف حـصَر الفسـادَ في المُنافقِـين بقـوله: ﴿أَلَا إِنَّهُـمْ هُمُ المُفْسِدُونَ﴾ [٢/ ١١] ومعـلومٌ أَن غيرهم مُفْسِد؟

قُلنـا: المُرادُ بالفَـساد: الفَسادُ بالنِّـفاق، وهـم كانُوا مخـصوصين به.

فـإن قـيل: كـيف قـال: ﴿الله يَسْتَهْزِئُ بِهِـمْ﴾ [٢/ ١٥] والاستهـزاءُ من بـابِ العَيْبِ والسُّخْرِيَةِ، وهـو قبيحٌ، والله تعـالى مُنَزَّهٌ عن القـبيح؟

قُلنـا: سُمّـي جَزاءُ الاستهـزاءِ استهـزاءً كقـوله(٨): ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَـا﴾، فالمعنـى: الله يُجـازيهـم جزاءَ استِهْزَائهـم.

فـإن قـيل: ما الفائدةُ في قـوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمـاءِ﴾ [٢/ ١٩] ومعـلومٌ أن الصَّيِّبَ لا يـكونُ إلَّا مِنَ السَّمـاء؟

= : وقيل إن ذكر أحدهما ـ وهو الحرّ ـ يُغني عن الآخر ـ وهو البرد ـ ويدلّ عليه ومثله قول الشاعر:

وما أدري إذا يمّمتُ أرضاً أريد الخيرَ أيّهما يَليني...
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشرّ الذي هو يبتغيني!

(٥) سورة الفتح: ١٠/٤٨

(٦) النساء: ٨٠/٤

(٧) وقيل في التفسير؛ أي:
ـ يخادعونه عند أنفسهم، وعلى ظنّهم.

(٨) سورة الشورى: ٤٠/٤٢

قلنا: فائدته أنَّه ذكر السَّماءَ مُعَرَّفةً وأضافه إليها لِيَدُلَّ على أنَّه مِنْ جميع آفاقها لا مِن أُفقٍ واحد؛ إذْ كلّ أُفقٍ يسَمَّى سَماءً؛

قال الشاعر(٩):

.... ومن بُعد أَرْضٍ بَيننا وسَماءِ

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢/٢٢] والمشركون لم يكونوا عالِمين أنه لا نِدَّ له ولا شريكَ له، بل كانُوا يعتقدونَ أَنَّ له أَنداداً وشُركاء؟

قُلْنا: معناه: وأنتم تعلمون أَنَّ الأندادَ لا تقدرُ على شيءٍ مِمّا سَبَقَ ذِكرهُ في الآية

أو(١٠): وأنتم تعلمون أنه ليس في التوراة والإنجيل جَوازُ اتخاذ الأنداد.

فإن قيل: كَيْفَ عَرَّفَ النَّار، ونَكَّرها في سورة التَّحْرِيم(١١)؟

قُلنا: تلك الآية نزلت بمكة قبل هذه الآية، فلم تكن النّار: التي وقودها الناس والحِجارة معروفة فنكّرها. ثم نزلت هذه الآية بالمدينة مُشاراً بها إلى ما عَرفُوهُ أَوّلاً.

---

(٩) البيت من شواهد المُفسّرين والنّحويّين (القرطبي ٨: ٢٧٦)،
وتمام البيت:
فأَوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتُها ومن بُعد أرضٍ بيننا وسَماءِ!

(١٠) وقيل المعنى: وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوّة والإمكان لو تدبّرتم ونظرتم.

(١١) الكلامُ هنا على آيتين من سورة البقرة، وسورة التحريم فيهما دعوة إلى الوقاية من النّار (أو من نار) وقودها الناس والحجارة.
- في سورة البقرة [٢٤]: ﴿... فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾.
- وفي سورة التَّحريم [٦٦/٦]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُوْنَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

فإن قيل: قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾[٢/٤٢] لَيْسَا فِعْلَين مُتَغايِرَيْن لِيُنْهَوْا عن الجمع بينهما بل أحدهما داخلٌ في الآخر.

قلنا: هما فِعلان مُتَغايِران لأنَّ المرادَ بلبسهم الحقّ بالباطل: كتابتهُم في التّوراة ما ليس منها؛ وبكتمانهم الحقّ قولهم: لا نجد في التّوراة صفةَ محمّد عَليه الصَّلاةُ والسَّلام!

فإن قيل: قوله: ﴿الَّذِيْنَ يَظُنُّوْنَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ﴾ [٢/٤٦] ما فائدة الثّاني والأوّل يدلُّ عليه؟

قلنا: قولُه: ﴿مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: مُلاقُوا ثَواب رَبِّهم، وما وعدهم على الصَّبر والصَّلاة. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ﴾ أي: موقنون بالبَعْث.

فصار المَعْنَىٰ أنّهم: موقنون بالبعث، وبحُصول الثواب الموعود. فلا تكرار فيه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيْلَ لَهُمْ﴾ [٢/٥٩] وهم إِنَّما بَدَّلُوا القول الّذي قيل لهم؛ لأنهم قيل لهم قولوا: حِطّة، فقالوا حِنطة!؟

قُلنا: معناه: فبَدّل الّذين ظَلَمُوا قولاً قيل لهم، فقالوا قولاً غيرَ الذي قيل لهم(١٢).

---

(١٢) ورد في المقصود بقولهم: حِطّة أقوال؛ منها (كما في تفسير القرطبي ١: ٤١٠): قال الحسن وعكرمة: حطّة: بمعنى حُطّ ذنوبنا؛ أُمروا أن يقولوا لا إلّه إلّا الله ليحط بها ذنوبهم. وقال ابن جبير: معناه الاستغفار. وقال ابن فارس: حطة: كلمة أُمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحُطّت أوزارهم. وقال الزجّاج «معناه: وقولوا مسألتَنا حِطّة؛ أي حُطّ عنّا ذنوبنا...» ١: ١٣٩
وروى مُسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قيل لبني إسرائيل: ادخُلوا البابَ سجّداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم، فبدّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم =

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ﴾ [٢/ ٦٠]؛ العَثْوُ: الفَسَاد، فيصير المَعْنى: ولا تُفسدوا في الأرض مُفسدين!

قلنا: معناه: ولا تعثوا في الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بسائرِ المَعاصي[١٣].

فإن قيل: كيف قال: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [٢/ ٦١] وطعامُهم كانَ المَنَّ والسَّلوى وهما طعامان؟

قُلنا: المُراد أَنَّهُ دائمٌ غير مُتَبَدِّل، وإنْ كانَ نوعَين.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَيَقْتُلُوْنَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [٢/ ٦١] وقَتْلُ النبيّين لا يكونُ إلّا بغير الحقّ!

قُلنا: معناه بغير الحقِّ في اعتقادهم،

ولأَنَّ التَّصريح بصفةِ فعلهم القبيح أَبلغ في ذَمِّهم، وإن كانت تلك الصِّفة لازمةً للفِعل؛ كما في عكسهِ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ﴾[١٤] لزيادةِ معنىً في التَّصريح بالصِّفة؛

ولأَنَّ قتل النَّبِيِّ قد يكون بحقٍّ، كقتل إبراهيم عَليه الصَّلاةُ والسَّلام ولده، لو وُجِدَ، كانَ بحقّ[١٥].

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا قِرَدَةً خَاسئين﴾ [٢/ ٦٥]

= وقالوا حبّة في شعرة. وأخرجه البخاري وقال: فبدّلوا وقالوا: حِطّة حبّة في شعرة. وفي غير الصحيحين: «حِنطة في شعر».
وكان قصدهم خلاف ما أُمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزؤوا فعَاقبهم الله بالرِّجز وهو العَذاب.

(١٣) وفي تفسير القرطبي: العيث: الفساد، و(مفسدين) حال. وتكرّر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ.

(١٤) سورة الأنبياء: ٢١/ ١٢٢

(١٥) أي لو حدَث وتَمّ.

وانتقالهم من صُوَرِ البَشر إلى صُوَرِ القردة ليسَ في وُسْعِهم؟

قُلنا: هٰذا أمْرُ إيجادٍ لا أمْرُ إيجاب، فهو مِن قوله تَعالى(١٦): ﴿كُنْ فَيَكُوْن﴾.

فإن قيل: «بَيْنَ» تَقْتَضِي شيئين فصاعداً؛ فكيفَ جاز دُخولُها على «ذٰلك» وهو مُفرد؟

قُلنا: «ذلك»، يُشار به إلى المفرد والمثنّى والمجموع؛ ومنه قوله تعالى(١٧): ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وقوله(١٨): ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾، وقوله(١٩): ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال(٢٠): ﴿ذٰلِكَ مَتَاعُ الحَياةِ الدُّنْيَا﴾.

فمعناهُ: عَوانٌ بين الفارض والبِكر.

وسيأتي تمامُه في قوله(٢١): ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ﴾ إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: قولُه: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ [٢/٧٤] كلاهما في المعنى واحد، فما فائدة الثّاني؟

قلنا: فائدته: تحقيقُ مباشرتهم ذلك التَّحْريف بأَنفسهم، وذلك زيادة في تقبيح فِعلهم؛ فإنّه يُقال: كتب فلانٌ كذا وإن لم يُباشِره بنفسه بل أَمر غيره به مِن كاتبٍ ونحوِ ذلك.

---

(١٦) سورة النحل: ١٦/٤٠

(١٧) يونس: ١٠/٥٨.

(١٨) آل عمران: ٣/١٨٦.

(١٩) آل عمران: ٣/١٤.

(٢٠) مِن الآية ١٤ من سورة آل عمران: ٣؛ وهي قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهواتِ من النِّساءِ والبنينَ والقَناطِيْرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأَنعامِ والحَرْثِ، ذلكَ متاعُ الحَياةِ الدُّنيا، والله عندهُ حُسْنُ المَآبِ﴾.

(٢١) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

فإنْ قيل: التَّولِّي والإعْراضُ واحد، فكيف قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيتُمْ إلاّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُوْنَ﴾ [٢/٨٣]؟

قُلنا: معناه: ثُمّ تَوَلَّيْتُمْ عَنِ الوَفاءِ بالمِيثاقِ والعَهد وأنتم مُعرضون عن الفِكر والنظر في عاقبة ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِيْنَ أَشركوا﴾ [٢/٩٦] ما فائدة قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِيْنَ أَشْرَكوا﴾ وهم من جُملة النَّاس؟

قُلنا: إنّما خُصّوا بالذِّكر بعد العُموم لأنّ حرصهم على الحياة أشدّ لأنهم لا يؤمنون بالبعث.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ﴾ [٢/١٠٢] يدلُّ على أن الله تعالى أنزل علمَ السِّحر على المَلكين فلم يكن حَراماً.

قُلنا: العَملُ بِهِ حَرامٌ لأنهما كانا يعلّمان النّاس السِّحر ليجتنبوه كما قال تعالى(٣٢) ﴿وَما يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ..﴾ الآية؛ نظيرهُ لو سأل إنسانٌ: ما الزّنا؟ لوجَب بيانُه له ليعرفَهُ فَيجتَنِبَه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَقَد عَلِمُوا لَمنِ اشْتَرَاهُ ما لَهُ في الآخِرَةِ مِن خَلَاقٍ وَلبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُم لو كَانُوا يَعْلَمُوْنَ﴾ [٢/١٠٢] أثبت لهم العلم أوّلاً مؤكداً بلام القسم؛ ثم نفاه عنهم.

قُلنا: **المُثْبَتُ** لهم أنّهم علموا أنَّ مَن اختار السِّحْرَ ماله في الآخرةِ من نَصيب؛ **والمنفيُّ** عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصير إليه مَنْ يخسر الآخرة ولا يكونُ له نصيبٌ منها. فالمنفيُّ غيرُ المُثبت؛ فلا تنافي.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ من اللهِ خَيْرٌ لَو كانُوا

(٣٢) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

يَعْلَمُوْنَ﴾ [١٠٣/٢] وإنّما يستقيمُ أَن يقال: هذا خيرٌ من ذلك إذا كان في كلّ واحدٍ منهما خيرٌ، ولا خيرَ في السحر؟

قُلنا: خاطبَهُم على اعتقادهم أَنّ في تعلّم السّحر خيراً نظراً منهم إلى حُصول مقصودهم الدُّنيوي به.

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هذا بلَداً آمناً﴾ [١٣٦/٢] وقال في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام[٢٣]: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هٰذا البَلَدَ آمِناً﴾؟

قُلنا: في الدَّعوة الأُولى كانَ مكاناً قَفْراً فطلَب منه أن يجعَلَهُ بلداً وآمناً. وفي الدَّعوة الثَّانية كان بلداً غير آمِن، فعرَّفه، وطلب له الأمن؛ أَو كان بلداً آمناً فطلب له ثَبات الأَمن ودوامه.

وكون هذه السورة مدنيّة وسورة إبراهيم مكيّة لا يُنافي هذا لأنّ الواقع من إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام بلغته على الترتيب الذي قُلنا: والإخبار عنه في القُرآن على غير ذلك التَّرتيب.

ما نزلَ بعد فتح مكّة فيكون متأخّراً عن المدنيّ؛ فَلِمَ قُلتم إنَّ سورة إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام من المَكّي الذي نزَل قبل الهجرة؟

فإن قيل: أيُّ مدحٍ وشرفٍ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ [١٣٠/٢] مع مالَه من شرَف الرِّسالة والخُلَّة؟

قُلنا: قال الزَّجَّاجَ: المُراد بقوله ﴿مِنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ أَي من الفائزين[٢٤].

---

(٢٣) سورة إبراهيم: ٣٥/١٤.
(٢٤) في تفسير القرطبي (١٣٣:٢): الصالح في الآخرة هو الفائز.

فإن قيل: المَـوْتُ ليس في وُسع الإنسان وقدرته حتى يصحَّ أَن يُنْهَى عنهُ على صفةٍ أو يؤمر به على صفة؛ فكيف قال: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُون﴾ [٢/١٣٣]؟

قُلنا: معناه: اثْبُتوا على الإسلام حتى إذا جاءَ أَحَدكم الموتُ متّم على دين الإسلام. فالمعنى أَمرٌ بالثّبات على الإسلام والدّوام عَليه، أَو نهيٌ عن تَركه[٢٥].

فإن قيل: قولُه تعالى[٢٦]: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [٢/١٣٧].

- إن أُريد به الله تَعالى فلا مثلَ له؛
- وإن أُريد به الإسلامُ فلا مثلَ له أَيضاً؛ لأنَّ دينَ الحقّ واحد.

قُلنا: كلمة «مثل» زائدة: معناه: فإن آمنوا بما آمنتم به يعني بمن آمنتم به، وهو الله تعالى؛ أَو بما آمنتم به وهو دينُ الإسلام.

و «مثل» قد تُزادُ في الكلام كقوله تعالى[٢٧]: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وكقوله[٢٨]: ﴿كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

و: مِثْل و: مَثَل بمعنىً واحد.

وقيل الباء زائدة؛ كما في قوله تعالى[٢٩]: ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

أي: مثل إيمانكم بالله أَو بِدين الإسلام.

---

(٢٥) قال القرطبي: أتى بلفظ موجز يتضمن المقصود، ويتضمّن وعظاً وتذكيراً بالموت.

(٢٦) المعنى: فإن آمنوا بنبيّكم وبعامّة الأنبياء ولم يفرّقوا بينهم كما لم تفرقوا فقد اهتدوا. الجامع لأحكام القرآن (٢: ١٤٣).

(٢٧) الشورى: ٤٢/١١.

(٢٨) الأنعام: ٦/١٢٢.

(٢٩) سورة مريم: ١٩/٢٥.

فإن قيل: كيف قال ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُوْلَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ﴾ [١٤٣/٢] وهو لم يَزل عالماً بذلك؟

قُلنا: لنعلَمه واقعاً موجُوداً. أو أَراد بالعلم: التّمييز للعِباد؛ كقوله تعالى(٣٠): ﴿لِيميزَ اللهُ الخَبِيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [١٤٤/٢] وهذا يدلّ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن راضياً بالتوجُّه إلى البيتِ المقدّس مَع أن التوجّه إليهِ كان بأمرِ اللهِ تعالى وحُكمه؟

قلنا: المرادُ بهذا الرِّضا رضا المحبّة بالطبعِ، لا رضا التّسليم والانقياد لأَمرِ الله(٣١).

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [١٤٥/٢] ولهم قِبلتان: لليهودِ قبلة وللنَّصارى قبلة؟

قلنا: كلتا القِبلتين باطلةٌ مخالفةٌ لقبلة الحقّ فكانتا بحكمِ الاتّحاد في البُطلان قبلةً واحدة.

فإن قيل: كيف يكونُ للظّالمين من اليهود أو غيرهم حُجّة على المُؤمنين حتّى قال: ﴿لِئَلاّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [١٥٠/٢].

قلنا: معناه: إلاّ أن يقُولوا ظُلماً وباطِلاً؛ كقول الرجل لصاحبه: مالكَ عندي حقّ إلا أن تظلمَ وإلاّ أن تقُول البَاطل. وقيل معناه: والذين ظلموا منهم؛ فـ (إلاّ) هنا بمعنى واو العطف كما في قوله تعالى(*): ﴿إنّي لاَ يَخَافُ

(٣٠) الأنفال: ٣٧/٨.

(٣١) في الجامع لأحكام القرآن (١٥٨/٢) معنى تَرْضاها: تُحبّها. وفي جامع البيان (تفسير الطبري) ١٣/٢: وكان يهوى قبلة البيت الحرام فولاّه الله قبلة يهواها.

(*) النمـل ١٠/٢٧.

لَدَيَّ المُرْسَلُوْنَ إلاّ مَنْ ظَلَمَ﴾ وقيل: «إلاّ» فيهما بمعنى: ولكن؛ وحُجّتهم أنهم كانوا يقولون لمّا توجّه النبـي ﷺ إلى البيتِ المقدس: ما درى محمّد أين قِبْلَتُه حتى هَديناه! وكانوا يَقُولون أيضاً: يُخالِفنا محمّدٌ في ديننا ويتبع قِبلتنا! فلمّا حَوّله الله تعالى إلى الكعبةِ انقطَعت هذه الحُجّة. فعادوا يقولون: لِمَ تركتَ قِبلة بيتِ المقدس؟ إن كانت باطلةً، فقد صلّيتَ إليها زماناً، وإن كانَت حَقّاً فقد انقلبت عنها! فهَذا هو المُراد بقوله ﴿إلاّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا﴾ [٢/١٥٠].

وقيل المراد به قولهم: ماتَرك محمد قبلتنا إلاّ ميلاً إلى دين قومه وحُبّاً لوطنه.

وقيل المراد به قولُ المشركين: قد عاد محمّد إلى قِبلتنا لِعلمه أنّ ديننا حَقٌّ فسوفَ يعُود إلى ديننا. وإنّما سمَّى باطلهم حُجّة لمشابهتِهِ الحُجّة في الصُّورة[٣٢] كما قال[٣٣]: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ وقال[٣٤]: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ﴾.

فإن قيل: ما الفائدةُ في قوله ﴿وَلا تَكْفُرُون﴾ [٢/١٥٢] بعد قوله ﴿واشكروا لِـي﴾ والشُّكر نقيضُ الكفران فمتى وُجِد الشّكر انتفَى الكُفران؟

قلنا: قوله ﴿وَاشْكُرُوْا لي﴾ [٢/١٥٢] معناه: استعينُوا بنعمتي على طاعتي. وقوله ﴿وَلاَ تَكْفُرونِ﴾ [٢/١٥٢] معناه: لا تستعينوا بنعمتي على مَعصيتي. وقيل: الأوّلُ أمرٌ بالشكر، والثّاني أمرٌ بالثّبات عليه.

---

(٣٢) في تفسير القرطبي ٢:١٦٩: «الحجة بمعنى المحاجّة التي هي المخاصمة والمجادلة، وسمّاها الله حجّةً وحكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمة» وللمفسّرين والنحويين أقوال في توجيه (إلاّ) فقيل هو استثناء متصل، وقيل هو استثناء منقطع، وقيل إلاّ بمعنى الواو، وقيل هي بمعنى لكنْ. وقيل في الناس: هم المشركون، وقيل اليهود. (ينظر تفسير الطبري ٢:١٩ ـ ٢٢، والقرطبي ٢:١٦٩ - ١٧٠).

(٣٣) الشورى: ٤٢/١٦.

(٣٤) غافر: ٤٠/٨٣.

فإن قيل: كيف قال(٣٥): ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ﴾ [٢/١٦١] وأَهلُ دينه لا يلعنونه إذا مات على دينهم؟

قلنا: المراد بالنَّاسِ المُؤمنون فَقط. وهو على عُمومه. وأهلُ دينه يلعَنُونه في الآخِرة. قال تعالى(٣٦): ﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ وقال(٣٧): ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾(٣٨).

فإن قيل: ما الفائدة في قوله(٣٩): ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [٢/١٦٣] وهلاّ قال: «وإلٰهُكم واحد» فكان أخصر وأوجز؟

قلنا: لو قال: وإلهكم واحدٌ، لكان ظاهرُه إخباراً عن كونه واحداً في الإلٰهيّة يعني: لا إلٰه غيرُه، ولم يكنْ إخباراً عن توحّده في ذاتِه، بخلاف ما إذا كرّر ذكرُ الإلٰه. والآية إنما سِيقت لإثبات أَحَدِيّته في ذاتِه، ونفيِ ما يقوله النّصارى أنّه واحدٌ والأَقانِيمُ ثلاثة؛ أي الأُصول. كما أنّ زيداً واحدٌ وأعضاؤه متعدّدة، فلو قالَ إلٰهٌ واحِدٌ دلّ على أحديّة الذّاتِ والصّفة. ولقائلٍ أن يقول قولُه: واحد يحتمل الأَحدِيّة في الذّاتِ، ويحتملُ الأحدِيَّة في الصِّفة سواء كرّر ذكر الإلٰه أو لم يكرّر فلا يتمّ الجواب.

فإن قيل: كيف وجّه صحّة التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا

---

(٣٥) من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِيْن كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفّارٌ أُولئِك عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ﴾.

(٣٦) العنكبوت ٢٩/٢٥.

(٣٧) الأعراف ٧/٣٨.

(٣٨) في تفسير القرطبي ٢: ١٩٠: فإن قيل: ليس يلعنهم جميعُ الناس لأنّ قومهم لا يلعنونهم؛ قيل عن هذا ثلاثة أجوبة:
أحدها: أن اللعنة من أكثر الناس يُطلق عليها لعنة الناس تغليباً لحكم الأكثر على الأقل.
الثاني: قال السّدي: كل أحدٍ يلعن الظالم؛ وإذا لعن الكافرُ الظالمَ فقد لعن نفسه.
الثالث: قال أبو العالية: المراد به يوم القيامة يلعنهم قومُهم مع جميع الناس...

(٣٩) من الآية الكريمة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

كَمَثلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ [٢/١٧١] وظاهرهُ تشبيهُ الكفّار بالرّاعي.

قلنا: فيه إضمارٌ: تقديرُه ومثلك يا محمد مع الكُفّار كَمثلِ الرّاعي مع الأنعام. أو تقديرُه: ومَثل الذين كفروا كمثل بَهائمِ الرّاعي. أو: ومثَلُ واعظِ الّذين كَفروا كمثَل الرّاعي. أو: ومَثل الّذين كفروا في دُعائهم الأَصنام كَمَثل الراعي[٤٠].

فإن قيل: كيفَ خَصّ المنعوت به بأنّه لا يسمعُ إلا دعاءً ونداءً مع أن كلّ عاقل كذلك أيضاً لا يسمعُ إلا دُعاءً ونداء؟

قلنا: المُراد بقوله: لا يسمع: لا يَفهم؛ كقولهم[٤١] «أساءَ سَمْعاً فأَساء جَابةً» أي: أساءَ فَهْماً.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [٢/١٧٤] وقال في موضع آخر[٤٢] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾؟

قلنا: المنفيُّ كلامُ التلطُّفِ والإلزام، والمُثبت سؤالُ التّوبِيخ والإهانة؛ فَلا تَنافي.

فإن قيل: كيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى﴾ [٢/١٧٨] أي فُرِضَ. والقصاص ليس بفرض، بل الولي مخيّرٌ فيه بل مندوبٌ إلى تركه؟

قلنا: المُراد به: فُرِضَ على القاتل التمكينُ لا أنه فُرِضَ على الوَليّ الاستيفاء[٤٣].

---

(٤٠) وردت الوُجوه في تفسير القرطبي ٢: ٢١٤؛ وفيه: شَبّه تعالى واعظ الكفّار وداعيهم وهو محمد ﷺ بالرّاعي الذي ينعق بالغنم فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول.

(٤١) هذا مَثَلٌ مشهور (أمثال العسكري ١: ٢٥): يُضربُ للرجل يُخطىء السَّمعَ فيُسيء الإجابة. والجابةُ اسمٌ مثل الطّاعة والطاقة والمصدر هو: الإجابة.

(٤٢) الحِجر: ١٥/٩٣.

(٤٣) وفي القرطبي ٢: ٢٤٥: أي فُرِض على أُولي الأَمر: النّهوض بالقِصاص وإقامة الحدود وغير ذلك.

فإن قيل: كيف قال(٤٤): ﴿الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ﴾ عطف «الأَقربين» على «الوالدين» وهُمَا أَقربُ الأَقرَبين؛ والعطفُ يقتضي المغايرة؟

قلنا: الوالدان ليسا من الأَقربين لأنّ القريب من يُدلي إلى غيره بواسطة كالأخِ والعمّ ونَحْوهما. والوالدان ليسا كذلك ولو كانا مِنهم، لكنْ خُصّا بالذِّكر؛ كقوله تعالى(٤٥): ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [٢/١٨٣] وصومُ هذه الأمّة ليسَ كصومِ أمّة موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسلام؟

قلنا: التّشبيهُ في أَصل الصَّوم لا فِي كيفيّته أو كيفية الإفطار فإنّه كان في أوّل الأمر: الإفطارُ مباحٌ من غروب الشمس إلى وقت النَّوم فقط، كما كان في صوم مَن قبلنا، ثم نُسِخَ(٤٥) بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ [٢/١٨٧] الآية. أو في العَدد أَيضاً على ما رُوي عن ابن عَبّاس أنه فُرض على النَّصارى صَومُ رَمضان بعينِه فقدّموا عشرة وأَخّروا عشرة لِئلا يَقع في الصّيف وجَبَروا التّقديم والتّأخير بزيادةِ عشرين فصار صومُهم خمسِين يوماً بين الصَّيف والشِّتاء(٤٧).

(٤٤) من الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُتَّقِيْنَ﴾ البقرة ٢/١٨٠.

(٤٥) من الآية الكريمة ﴿مَنْ كانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ فَإنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ البقرة: ٢/٩٨.

وفي القرطبي ٢/٣٦ أن جبريل وميكال خُصّا بالذكر تشريفاً لهما، وإن كان ذِكُر الملائكة قد عَمَّهما.

(٤٦) تنظر كتب التفسير، وكتاب الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه لأبي محمد مكي بن أبي طالب: ١٤٥ ـ ١٥٤.

(٤٧) الكلام على هذا الموضوع مستوفى في كتب التفسير، ينظر مثلاً تفسير القرطبي ٢: ٢٧٢ ـ ٢٩٠.

فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى﴾ [٢/١٨٥] بعد قوله: ﴿هدى لِلنَّاسِ﴾ [٢/١٨٥]؟

قلنا: ذكَر أوّلاً أنه هُدًى، ثم ذكر أنّه تبيانٌ من جُملة ما هَدى الله به عبيدَه وفرَق به بين الحقِّ والباطل من الكتُبِ السماويّة الهادية الفارقة بين الحق والباطل. فلا تَكرار.

فإن قيل: ما فائدةُ إعادة ذكر المَريض والمُسَافر(٤٨)؟

قلنا: فائدته أنّ الآية المتقدمة نسخ مما فيها بتخيّر الصَّحِيح(٤٩) [وكان فيها تخيير المريض والمسافر أيضاً فأُعيد ذكرهما لِئلا يتوهَّم أن تخييرهما لم ينسخ بتخيّر الصَّحِيح](٥٠).

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فإني قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [٢/١٨٦] يدلّ على أنّه يُجيب دعاءَ الدّاعين، ونحنُ نَرى كثيراً من الدّاعين لا يُستجاب لهم!

قلنا: روي عن النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنه قال(٥١): ما من مُسلم دعا

---

(٤٨) ورد ذكر المريض والمسافر في الآية: ١٨٤، ثم ذُكرا في الآية: ١٨٥. قال تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ مِنكُمْ مَرِيْضاً أو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أَيام أُخَر﴾ ٢/١٨٣، وقال: ﴿وَمَنْ كانَ مَرِيْضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أَيّامٍ أُخَر﴾: ٢/١٨٥ وورد تفصيل لأحكامهما.

(٤٩) ما بين معقوفتين من (ب) فقط. وينظر تفسير «وعلى الّذين يطيقونه...».

(٥٠) ينظر تفسير الطبري ٢: ٨٧ - ٩٠ والقرطبي ٢٢: ٢٨٧ - ٢٨٩ وفيه تفصيل.

(٥١) أورده الطرطوشي في كتابه: الدعاء المأثور وآدابه: ١١٨؛ وهو حديث أخرجه الترمذي في الدُّعاء، في باب ما جاء في أنّ دعوة المسلم مستجابة. وفي لفظه خلاف يسير. وفي تفسير القرطبي: قال قوم: إن الله يُجيب كلَّ الدعاء فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكّفر وإما أن يعجل له دعوته وإما أن يدّخر له في الآخرة؛ لِمَا رواه أبو سعيد الخدري (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن يعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخر له وإما أن يكفّ عنه من السُّوء بمثلها»، قالوا: إذن نكثر؟ قال: لله أكثر. خرّجه أبو عمر بن عبد البرّ، وصحّحه أبو محمد عبد الحقّ بن عطيّة. وهو في الموطّأ منقطع السَّند. قال أبو عمر: .=

الله بدعوةٍ ليس فيها قطيعةُ رَحِم ولا إثم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال:

إمّا أن يعجّل دعوته؛
وإمّا أن يَدّخِرَها له في الآخِرة؛
وإمّا أن يدفع عنهُ من السُّوء مثلها.

ولأن قبول الدُّعاء شرطُه الطّاعة لله، وأكلُ الحلال، وحضورُ القلب وقتَ الدعاء: فمتى اجتمعت هذه الشُّروط حصلت الإجابة. ولأنَّ الدَّاعي قد يعتقد مصلحتَهُ في الإجابة والله يعلمُ أنَّ مصلحته في تأخيرِ ما سَأل أو في منعه عنه فيجيبه إلى مقصودِه الأصليّ وهو طلبُ المصلحة فيكون قد أُجيب وهو يعتقد أنه منع(٥٢).

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ [٢/١٩٦] ومعلومٌ أن ثلاثة وسبعة عشرة، ثم ما فائدة قوله﴿كَامِلَةٌ﴾ [٢/١٩٦] والعشرة لا تكون إلا كاملة. وكذا جميع أسماءِ الأعداد لا يصدُق على أقلّ من المذكور ولا على أكثر منه؟!

قُلنا: فائدةُ قوله: تلك عشرة، أنَ لا يتوهّم أن الواو بمعنى (أو) كما في قوله تعالى(٥٣): ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ ولا يحلّ التّسع جملةً. فنَفى بقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ ظنّ وجودِ أحدِ العددين فقط: إمّا الثّلاثة في الحجّ أو السَّبعة بعد الرجوع، وأن يعلم العدد من جِهَتين جملةً وتفصيلاً، فيتأكّد العلمُ به. ونظيرُه: فذلكَةُ الحِساب، وتنصيفِ الكِتاب.

= وهذا الحديث يخرج في التفسير المسند لقول الله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ فهذا كله من الإجابة.

(٥٢) ينظر كتاب: الدّعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (ط دار الفكر).

(٥٣) النساء ٤/٣

وأمّا قوله تعالى: ﴿كَامِلَةٌ﴾ فتأكيدٌ(٥٤) كما في قوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ [٢/٢٣٣] أو معناه: كاملة في الثَّواب، مع وقوعها بدَلاً عن الهدى، أو في وُقوعها موقع المُتتابع مع تفرقها، أو في وقوعها موقع الصّوم في الحجّ مع وقُوع بعضها بعدَه، أو في وقوعها موقع الصّوم بمكّة مع وقوع بعضها في غيرِ مكّة. فالحاصِلُ أنّه كمالُ وَصْفاً لا ذاتاً.

فإن قيل: ما فائدة تكرار الأمر بالذِّكر في قوله تعالى(٥٥): ﴿فإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [٢/١٩٨].

قُلنا: إنّما كرّره تنبيهاً على أنّه أراد ذكراً مُكَرّراً لا ذكراً واحداً بل مرّة بعد أخرى، ولأنّه زاد في الثّاني فائدةً أُخرى وهي قوله: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ يعني اذكُرُوه بتوحيدِه كما ذكركم بهدايته، ولأنّه أُراد بالذكر الأوّل الجمعَ بين الصَّلاتين بمزدلفة وبالثّاني الدّعاء بعد الفَجر بها، فلا تكرار.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [٢/١٩٩] وأراد به الإفاضة من عَرَفات بلا خلاف وبعد المجيء إلى مُزدلفة، والذكر فيهما مَرّتين كما فسّرنا كيف يُفيضون من عَرفات؟

قلنا: فيه تقديمٌ وتأخير؛ تقديره: «مِن ربكم ثم أُفيضوا من حيث أفاض الناس فإذا أفضتم من عرفات».

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّر

---

(٥٤) قال الزّجّاج (القرطبي ٢: ٤٠٢): لمّا جاز أن يتوهم متوهم التخيير بين ثلاثة أيام في الحج أو سبعة إذا رجع بدلاً منها ـ لأنه لم يقل: وسبعة أخرى ـ أزيل ذلك بالجملة من قوله «تلك عشرة» ثم قال «كاملة»...

(٥٥) والآية الكريمة بتمامها: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [٢/٢٠٣] ومعلومٌ أن المتعجّل التّارك بعضَ الرَّمي إذا لم يكن عليهِ إثم لا يكونُ على المتأخّر الآتي بالرَّمي كاملاً؟

قلنا: كان أهل الجاهليّة فريقين:

منهم مَن جعل المتعجّل آثماً، ومنهم من جعَل المتأخّر آثِماً، فأخبر الله تعالى بنفي الإثم عنهما جميعاً.

أو معناه: لا إثم على المتأخّر في ترك الأخذ بالرُّخصة مع أن الله تعالى يحب أن تُؤتى رُخَصُهُ كما تُؤتى عزائمه(٥٦).

أو معناه: أنّ انتفاءَ الإثم عنهما موقوفٌ على التّقوى لا على مجرّد الرخصة أو العزيمة في الرَّمي.

ثم قيل المراد به: تقوى المعاصي في الحجّ.

وقيل: تَقوى المَعاصي بعد الحجّ في بقيّة العمر بالوفاء بما عاهدَ الله تعالى عليه في عرفة وغيرها من مواقيت(٥٧) الحجّ من التّوبة والإنابة.

والمُشكل في هذه الآية قوله تعالى(٥٨) ﴿فِيْ يَوْمَيْنِ﴾ [٢/٢٠٣]

---

(٥٦) في حديث ابن عمر، وابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله تعالى يُحب أن تؤتى رُخَصه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه» (الفتح الكبير ١: ٣٥٥) وعن ابن عمر رضي الله عنه: «إن الله تعالى يحبّ أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته». (الفتح الكبير ١: ٣٥٥، ومسند الإمام أحمد ٢: ١٠٨).

(٥٧) في (أ): موافق، ولعلها مواقف، أو هي مصفحة عن مواقيت (كما أثبتها).

(٥٨) فصّل المفسرون والفُقهاء في هذه المسألة؛ وفي تأويل الآية أقوال، يُنظر تفسير الطبري ٢: ١٧٨ ـ ١٨١ وتفسير القرطبي ٣: ٤ ـ ١٤

ـ والذي اختاره الطّبري «من تعجل في يومين من أيام منى الثلاثة فنفر في اليوم الثاني فلا إثم عليه لحط الله ذنوبه إن كان قد اتقى الله في حجة فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمره الله بفعله وأطاعه بأدائه على ما كلّفه من حدوده. ومن تأخر إلى اليوم الثالث منهن فلم ينفر إلى النفر الثاني حتى نفر من غد النفر الأول فلا إثم عليه لتكفير الله ما سلف من آثامه وإجرامه إن كان اتقى الله في حجة بأدائه بحدوده» ٢: ١٨٠

والتعجيل المرخّص فيه إنما هو التعجّل في اليوم الثّاني من أيّام التّشريق فكيفَ ذكر لفظ اليَومين وأراد بهما اليَوم الثّاني فقط؟

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُوْرُ﴾ [٢/ ٢١٠] وهو يدل على أنها كانت إلى غيره. كقولهم: رجع إلى فلان عبده، ومنصبه؟

قلنا: هو خطابٌ لمن كان يعبدُ غيرَ الله، وينسب أفعاله إلى سواه. فأخبرهم أنّهم إذا كشف لهم الغطاء يوم القيامة ردّوا إليه ما أضافوه إلى غيره بسبب كُفرهم وجهلهم؛ ولأنَّ (رجع) يستعمل بمعنى (صار) و(وصل) كقولهم: رجع عليّ من فلانٍ مَكروه. ومنه قولُ لَبِيْد(٥٩):

وما المَرْءُ إلّا كالشِّهابِ وضوئِه يَحُورُ رَماداً بعد إذ هو ساطع(٥٩)

ولأنها كانت إليه قبل خَلق عبيده. فلمّا خلقهم ملّكهم بعضها خلافةً ونيابةً، ثم رجعت إليه بعد هلاكهم. ومنه قولُه(٦٠): ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾ وقوله(٦١): ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ﴾ وإنما قال: وإلى الله تُرجع الأمور، ولم يقل: وإليه، وإن كان قد سبق ذِكرُه مرّة لقصدِ التَّفخيم والتعظيم. وذلك يُنافي الإيجاز والاختصار.

فإن قيل: كيفَ طابَقَ الجوابُ السّؤال في قوله: ﴿يَسْأَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِيْنَ﴾ [٢/ ٢١٥] فإنهم سألوا عن بيانِ ما يُنْفِقُونَ وأجيبوا ببيانِ المَصرف؟

قلنا: قد تضمّن قوله تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بَيان ما يُنفقونه وهو كل خَيرٍ. ثم زِيدوا على الجَواب ببيانِ المصرف. ونظيره قولُه

---

(٥٩) ديوان لبيد: ١٦٩. والشاهد في قوله يحورُ رماداً أي يعود ويصير.
ـ والشهاب: النار. ساطع: مشتعل.
(٦٠) غافر: ٤٠/١٦
(٦١) الفُرقان: ٢٥/٢٦

تعـالى(٦٢): ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِيْنِكَ يَا مُوْسَىٰ﴾ الآيـة. وقـوله عليه الصلاة والسـلام وقد سئل عن الوضوء بماء البحـر(٦٣): هو الطَّهور ماؤه، الحِلّ مِيتَتُه.

فـإن قـيل: كـيف جـاز: يـسألونـك، ثـلاث مـرات بغير واو(٦٤): ﴿يَسْأَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُـونَ﴾، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ﴾(٦٥) ﴿يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ﴾(٦٦) ثـم جـاء ثلاث مـرات بالواو: ﴿وَيَسْأَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُـوْنَ﴾(٦٧) ﴿وَيَسْـأَلُـوْنَـكَ عَنِ اليَتَـامَىٰ﴾(٦٨)، ﴿وَيَسْـأَلُـوْنَـكَ عَنِ المَحِيْـضِ﴾(٦٩).

قـلنا: لأنّ سؤالَهـم عن الحـوادثِ الأُوَل وقَع مُتَفَرّقاً، وعـن الحوادثِ الأُخَرِ وَقَع في وقتٍ واحـدٍ؛ فجـيء بحـرفِ الجـمع دلالةً على ذلك.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاق فـإنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيْمٌ﴾ [٢/٢٢٧] وعزمُهـم ممّا يعلَم لا ممّا يَسمع.

قلنـا: الغالبُ أنّ العازِم علىَ الطَّلاق وتركِ الفيء لا يخـلو عن مُقَاولة ودَمْدَمـةٍ وإن خلاَ عنهـما فلا بـد له أن يحـدّث نفسه ويُناجـيها بما عزَم عليه. وذلك حـديثٌ لا يسمَعُه إلا الله تعَـالى كما يسمعُ وسوسَة الشَّيطان.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿وَبُعُولَتُهُـنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنّ﴾ [٢/٢٢٨] ولا حـقّ

---

(٦٢) طه: ٢٠/١٧

(٦٣) الحديث مشهـور، وأخـرجه أحـمد في مسنده من حـديث أبي هـريرة رضـي الله عنه عن رسـول الله ﷺ أنـه قـال في مـاء البحـر: هـو الطهـور ماؤه الحـلال ميتتـه. ٢: ٢٣٧ وروي بصيغة الحِـلّ، (الفتح الكـبير ٣: ٢٩٣ عن أبـي هريرة وغيره).

(٦٤) البقـرة ٢/٢١٥

(٦٥) البـقرة ٢/٢١٧

(٦٦) البقـرة ٢/٢١٩

(٦٧) البقرة ٢/٢١٩

(٦٨) البقرة ٢/٢٢٠

(٦٩) البقـرة ٢/٢٢٢

للنساء في الرَّجعـة. و ﴿أَفْعَلُ﴾ تَقتضي الاشتـراك.

قـلنا: المُـرادُ أَن الزّوج إن أراد الرّجعـة وأبـت المرأةُ وجَـب إيثـارُ قوله على قولهـا أَنّ لها حَقّاً فِي الرَّجعـة[٧٠].

فـإن قيل: كيف قـال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾ [٢/٢٢٨] والزَّوج أحـقُّ بالرَّجعة سواء أرادَ الإصلاح أو الإضرار بها بتطويلِ العِدّة؟

قـلنا: المـراد أن الرجعة أصوبُ وأَعـدلُ إن قصدَ الزَّوج بها الإصلاح وتركُهـا أصوبُ وأعـدلُ إن قـصدَ الإضـرار بهـا.

فـإن قيل: كيف الجـمعُ بين قوله تعـالى: ﴿فَقَـال لَهُمُ الله مُوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [٢/٢٤٣] وقـوله[٧١]: ﴿لاَ يَذُوْقُـوْنَ فِيْهَـا المَوْتَ إلاّ المَوْتَةَ الأُوْلى﴾؟

قـلنا: المـراد بالآيـة الأولى إمـاتـة العُقوبة مع بـقاءِ الأَجـل وبالآيـة الثانية الإمـاتة بانتهـاء الأَجـل. نظيرُه في قـوله تعـالى في قصّة مُوسى علَـيه الصَّلاةُ والسَّلام: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٧٢] لأنهـا كـانت إماتـة عقوبة أو كـان إحـياؤهـم آيةً لنبيّهـم على ما عُـرف في قصّتهـم. فـصار كإحـياء العُزَيْر حـين مَرَّ على القرية. وآياتُ الأَنـبياءِ نوادرُ مُستثنـاة. فـكان المـراد بالآيـة الثّانـية الموتـة الّتي ليست بسبب آيـة لنبيّ من الأنـبياء. وإحـياء قـوم موسى آيةً

(٧٠) في نسخة ب: لأنّ لهـا حـقاً في الرجعـة.
- وفي تفسير القرطبي ٣: ١٢٠ «وأجـمع العلمـاء على أن الحُـرّ إذا طـلّق زوجته الحـرّة، وكـانت مدخولاً بهـا تطليقة أو تطليقتين أنه أحـقّ برجعتهـا مـا لم تنقض عدّتهـا وإنْ كرهـت المرأة. فـإن لم يُراجعها المطلّق حـتى انقضت عدّتها فهي أحـق بنفسها وتصير أجـنبية منه لا تحـلّ له إلا بخطبـة ونكاح مستأنف بوليٍ وإشهـاد ليس على سنّـة المراجعة. وهـذا إجـماع من العلماء».
(٧١) الدخـان: ٤٤/٥٦
(٧٢) البقـرة: ٢/٥٦

له أيضاً فكان هذا جواباً عامّاً مع أنّ في أصل السُّؤال نظراً؛ لأن الضمير في قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ للمتّقين؛ وفي قوله ﴿فيها﴾ للجنّات على ما سيأتي بيانه في سورة الدُّخان إن شاء الله تعالى على وجهٍ يندفعُ السُّؤالُ من أصلِه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [٢/٢٤٧] والله تعالى لا يؤتي ملكه أحداً؟

قلنا: المرادُ بهذا المُلك السَّلطنة والرِّياسة التي أنكروا إعطاءها لِطالُوت وليسَ المُرَادُ أنّه يُؤتي كلّ ملكه لأحدٍ لأنّ سياق الآية يمنعه.

فإن قيل: كيفَ قال: في الماء: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ [٢/٢٤٩] ولم يقلْ: ومن لم يَشربه. والماء مشروبٌ لا مأكول؟

قلنا: طَعِمَ بمعنى أكل؛ وبمعنى ذاق. والذَّوق هو المُراد هنا، وهو يَعُمّ(٧٣).

فإن قيل: كيف خَصّ مُوسى وعِيسى من بين الأنبياء بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ [٢/٢٥٣].

قلنا: لِمَا أُوتيا من الآياتِ الظَّاهرة والمُعجزات الباهرة، مع الكِتَابَين العظيمين المشهورين.

فإن قيل: كيف قال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [٢/٢٥٤] وفي يوم القيامة شَفاعةٌ للأنبياء وغيرهم بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِيْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلّا بِإِذْنِهِ﴾ [٢/٢٥٥] وقوله(٧٤): ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وقوله(٧٥): ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

(٧٣) زاد في القرطبي ٣: ٢٥٢ «... لأن من عادة العرب إذا كرّروا شيئاً أن يكرّروه بلفظ آخر. ولغة القرآن أفصح اللغات. فلا عبرة بقدح من يقول: لا يقال طعمت الماء».

(٧٤) الأنبياء: ٢٨/٢١

(٧٥) سبأ: ٢٣/٣٤

قلنا: هٰذه الآيات لا تدلّ على وُجود الشّفاعة يومَ القيامة بل تدلّ على أنّها لا توجد ولا تنفع بغير إذنه، ولا توجد لغير مرضيٍّ عنده. وهذا لا يُنافي نفيَ وجودها بل المُنافي له الإخبار عن وُجودها لا الإخبار عن إمكان وُجودها. ولو سلم فالمُرَادُ به نفيُ شَفاعة الأَصنام والكواكِب التي كانوا يعتقدُونها. ولهٰذا عَرّض بذكر الكفّار بقوله تعالى: ﴿وَالكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢/٢٥٤] وقيل: المُراد أنّه لا شفاعةَ في إثم ترك الواجبات؛ لأَنّ الشفاعة في الآخرة في زيادة الفضلِ لا غير. والخطاب مع المُؤمنين في النّفقة الواجبة وهي الزَّكاة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾ [٢/٢٥٤] على جهة الحصر وغيرهم ظالم أيضاً؟

قلنا: لأنّ ظُلمهم أشدّ فكأنّه لا ظالم إلاّ هم. نظيره(٧٦): ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ...﴾ [٢/٢٥٧] بلفظ المضارع ولم يقل أَخرجهم بلفظ الماضي. والإخراج قد وُجد لأَنّ الإيمان قد وُجد؟

قلنا: لفظُ المُضارع فيه دلالةٌ على استمرار ذلك الإخراج من الله في الزمن المُستقبل في حقّ مَن آمن بزيادةِ كشف الشُّبَهِ ومضاعَفة الهِدَاية، وفي حَقّ مَن لم يُؤمن ممن قضى الله أنه سَيُؤمن بابتداء الهداية وزيادتها أيضاً. ولفظُ الماضي لا يدلُّ على هٰذا المَعنى.

فإن قيل: متى كان المؤمنون في ظُلمَاتِ الكفرِ، والكافرون في نُور الإيمان ليخرجوا من ذلك؟

---

(٧٦) فاطر: ٣٥/٢٨

قلنا: الإخراج يُستعمل بمعنى المَنع عن الدُّخول. يقال لمن امْتَنع عن الدخول في أمرٍ: خَرَج منه، وأَخْرَج نفسه منه، وإن لم يكن دخلَ فيه.

فعصمةُ الله تعالى المؤمنين عن الدُّخول في ظلمات الضَّلال إخراجٌ لهم منها.

وتزيين قُرَناء الكفار لهم الباطل الذي يَصُدُّونهم به عن الحقِ إخراجٌ لَهُم من بَعْدِ الهدى.

ولأن إيمانَ أهل الكتاب بالنبيّ ﷺ قبل أن يظهر كان نُوراً لهم وكُفرهم به بعد ظُهوره خروجٌ منه إلى ظُلمات الكُفر.

ولأنَّه لمّا ظهرت مُعجزاته ﷺ كان مُوَافِقهُ ومُتَّبِعُه خارِجاً من ظُلمات الجَهل إلى نُور العلم، ومُخالِفُهُ خارجاً من نُور العلم إلى ظلمات الجهل.

فإن قيل: كيف انتقَل إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام إلى حُجَّةٍ أُخرى وعدَل عن نُصرة الأُولى مع أنّه لم ينقطع بما عارضَه به نُمروذ(٧٧) من قَتل أحد المحبُوسين وإطلاق الآخر؛ فإنّ إبراهيم عليه السَّلام ما أَراد هٰذا الإحياء والإماتة؟

قُلنا: إمّا لأنّه رأى خصمَهُ قاصرَ الفَهم عن إدراك معنى الإحياء والإماتة التي أضافها إبراهيم عليه السَّلام إلى الله تعالى حيثُ عارَض معارضةً لفظيّةً وعَمِي عن اختلاف المَعنيين؛ أو لأنّه فهم الحُجّة لكنه قصد التّمويه والتّلبيس على أتباعِه وأشياعه فعَدل إبراهيم عليه السَّلام إلى أمرٍ

(*) في (ب): حجج أُخرى.

(٧٧) في القُرطبي ٣: ٢٨٣: النُّمروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح: ملك زمانه؛ نقله عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسدّي وابن إسحاق وزيد عن أسلم وغيرهم.
- وخبر النّمروذ في تاريخ الطبري ١: ٢٨٧

ظاهرٍ يفهَمُه كُلّ أَحدٍ ولا يقعُ فيه تمويهٌ ولا تَلبيس.

فإن قيل: كيف طَبَع الله على قلبه فلم يُعارض بالعكسِ في طُلوع الشَّمْسِ؟

قلنا: لأنّه لو عارض به لم يأتِ الله بها من المغرب لأنّ ذلك أمارة قيام السَّاعة فلا يُوجد إلا قريباً من قِيامها، ولأنّه وأتباعه كانوا عالِمين أنّ طُلوعَها من المَشرق سابقٌ على وجودِه فلو ادّعاه لكَذَّبُوه.

فإن قيل: كيف قال عُزَير منكراً مُستَبْعِداً ﴿أَنَّى يُحْيِيْ هٰذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [٢/٢٥٩] وهو نبيّ والنبي لا يخفى عليه قدرة الله تعالى على إحياء قرية وإعادة أهلها إليها؟

قلنا: ما قالَهُ مُنكراً مستبعداً لعظيم قُدرة الله بل متعجّباً من عَظيمِ قُدرته تَعالى أو طَلباً لرؤية كيفيّة الإعادة؛ لأنَّ (أَنَّى) بمعنى كَيْفَ أيضاً. وقد نُقل عن مجاهد أنَّ المارّ على القريةِ القائل ذٰلك كانَ كافراً شاكّاً في البعث، وإن كان الأوّل هو المشهور.

فإن قيل: كيف قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ...﴾ [٢/٢٦٠] وقد عَلِمَ أنّه أثبَتُ النَّاسِ إيماناً؟

قلنا: ليجيبَ بما أجاب بهِ فتحصلَ الفائدة الجليلةُ للسّامعين مِن طَلب إحياءِ المَوْتى.

فإن قيل: كيف يجوزُ أن يكونَ النبيُّ عليه السَّلام غير مطمئنّ القَلب بِقُدرة الله تعالى على إحياءِ المَوتى حَتَّى قال إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِيْ﴾؟ [٢/٢٦٠]؟

قلنا: معناه: ١ليطمئنّ قَلبي بِعلم ذٰلك عياناً كما اطمئن بُرهاناً.

أو ليطمئنّ بأنك اتّخذتني خليلاً،

أو بأنـي مستجـاب الدَّعوة.

ولقـائلٍ أن يـقول على الوجـه الأول: كيف يزداد يقيناً بالمشاهـدة، وقد رُوِيَ عن عليّ رضـي الله عنه أنـه قـال: لو كُشِفَ الغِطَاءُ ما ازدَدْتُ يَقيناً؟ وإبـراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام أعـظم رتبـةً وأَجَلّ.

وجـوابُه أن عليّاً رضـي الله عنه أراد بـذلك قوّة يقينـه قبلَ العبادة حـتّى كأن الزيادةَ الحـاصلة له بالعيان يسيرةٌ لا يُعْتَدُّ بهـا.

فـإن قـيل: ما فائـدة قـوله: ﴿فَصُرْهُـنَّ إِلَيْكَ..﴾ [٢/٢٦٠] أي فَضُمَّهُنّ: ولَفظُ الأَخْذ مُغْنٍ عنـه؟

قلنا: الفائدةُ فيه زيادةُ تأمّلهـا ومعرفةُ أشكالها وصفاتهـا لئلاّ تلتبس عليه بعد الإحـياء فيَتوهّـم أنّهـا غيرها.

فـإن قيل: كيف مدحَ المتّقين بتركِ المَنّ[٧٨]، ونَهىٰ عن المنّ أيـضاً مع أنـه وصفَ نَفْسَـهُ بالمَنَّـان.

قلنا: مَنّ بمعنى أَعطى، ومنه المنّـان في صِفـات الله تَعـالى؛ وقوله[٧٩]: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ وقوله[٨٠]: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ..﴾ أي أنعـم وقـوله[٨١]: ﴿فَإِمّـا مَنّاً بَعْدُ..﴾ أي إنعامـاً بالإطلاق بغير عِوَضٍ.

ومَنّ بمعنى اعْتَدّ بالنّعمـة وذكرَها واستَعْظَمَهـا؛ وهو المَذْمُوم.

فـإن قيـل: قوله تعـالى[٨٢]: ﴿بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُم أَنْ هَدَاكُمْ للإِيْمَانِ﴾ من القسم الثّاني.

---

(٧٨) يشير إلى الآيـة ٢٦٢ من سورة البقرة، وفيها: ﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقُـونَ أَمْوَالَهُـمْ فِي سَبِيْلِ الله ثُمَّ لاَ يُتْبِعُـوْنَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذًى لَهُـمْ أَجْرُهُـمْ عِنْدَ رَبِّهِـمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِـم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾.

(٧٩) سورة ص: ٣٨/٣٩

(٨٠) آل عـمران: ٣/١٦٤

(٨١) سورة محـمد (ص): ٤٧/٤

(٨٢) سورة إبـراهيم: ١٤/١١

قلنا: ذلك اعتدادٌ بنعمةِ الإيمان، فلا يكونُ قَبيحاً بخلافِ نعمة المال. ولأنّه يجوزُ أن يكون من صفاتِ الله ما هو مَدحٌ في حَقّه ذمٌّ في حقِّ العبد كالجَبّار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف قال ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِن نَّخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [٢/٢٢٦] ثم قال ﴿لَهُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [٢/٢٢٦].

قلنا: لمّا كان النخيلُ والأعنابُ أكرمَ الشَّجر وأكثَرها منافعَ خصَّهابالذِّكر وجعلَ الجنّة منهما، وإن كان فيهما غيرهما تَغليباً لهما وتفضيلاً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْأَلُوْنَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [٢/٢٧٣] يدلُّ بمفهومه على أنهم كانوا يسألونَ برفقٍ، فكيف قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [٢/٢٧٣].

قلنا: المراد نفيُ السؤال والإلحافِ جميعاً كقوله تعالى: ﴿لاَ ذَلُوْلٌ تُثِيْرَ الأَرْضَ﴾ [٢/٧١] وكقول الأَعشى(٨٣):

«لا يغمزُ السَّاقَ من أَينٍ ولا وَصَبِ».

معناه ليسَ بساقِه أَيْنٌ ولا وَصَبٌ فيغمزها(٨٤)!

فإن قيل: كيف قال: ﴿الَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ الرِّبا﴾ [٢/٢٧٥] الآية. ألْحَق الوعيدَ بآكِلِه مع أنّ لابسَه ومُدَّخِرَهُ وواهِبَه أيضاً في الإثم سَواء؟

قلنا: لماّ كان أكثر الانتفاع وأهمّه بالمال إنما هو: الأَكلُ، لأنّه مقصودٌ لا غنى عنه، ولا بدَّ منه، عَبَّر عن أنواع الانتفاعِ بالأكلِ. كما يُقال:

---

(٨٣) ليس الشعر في ديوان الأعشى؛ وظاهر أن المُثبت شطر بيت من البَسِيط.
(٨٤) الأَيْن: الإعياء والتّعب.
والوَصَبُ: الوجع والمرض؛ وهو: شدّة التعب أيضاً.

«أَكـلَ فلانٌ مـالَه كلَّه» إذا أَخـرجه في مصالح الأَكـلِ وغيرِه.

فـإن قيـل: كـيف خـصَّ الأكـل بـذكر الوعيدِ دون المَطعـم وكـلاهـما إثـم؟

قلنا: لأن انتفاعَـه الدُّنيوي أكثرُ من انتفاعِ المَطعـم.

فـإن قيل: كـيف قـال(٨٥): ﴿إِنَّـمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبـا﴾ والكـلام في الرِّبـا ومقصودُهـم تشبيههُ بالبَيع؛ فقياسُه: إنما الرِّبـا مِثْلُ البيع؟

قلنـا: جاؤوا بالتّمـثيل على طريقِ المُبَالغة وذلكَ أنّـه بلغَ من اعتقادِهـم استحـلاَلَ الرِّبـا أنّهـم جَعلُوه أصْلاً في الحِـلّ، والبَيع فرعـاً، كقـولهـم: القمر كوجـه زيدٍ، والبحـرُ كَكَفِّه؛ إذا أَرادُوا المُبـالغة!

فـإن قيل: كـيفَ قُـلتم إنّ أَهـل الكَبَـائر لا يَخْلُدُونَ في النّـار، وقَد قـالَ الله تعـالى في حَقّ آكـلي الربـا ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَـابُ النَّـارِ هُمْ فِيْهَـا خَالِدُونَ﴾ [٢/٢٧٥].

قـلنا: الخـلودُ يُستعـمل بمعنى طولِ البقـاء وإن لم يـكن بصفـةِ التَّأبيد. يقـال خَلّد الأمـير فُـلاناً في السِّجـن إذا أطال حـبسه(٨٦).

أو قـولُه: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن عاد إلى استحـلال الربـا بـقوله: ﴿إِنَّـما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبـا﴾ بعد نزولِ آيـةِ التَّحـريم. وذلك يـكون كافراً والكافِرُ مخـلّدٌ في النَّـار.

فـإن قيـل: إنظـار المُعـسر فَرْضٌ بالنَّـص والتصدّق عليه تَطوّع، فـكيف قـال: ﴿وَأَنْ تَصَدّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [٢ / ٢٨٠].

قلنـا: كـلّ تطوّع كـانَ محصِّـلاً للمقصُود من الفَرض بوصفِ الزِّيـادة

(٨٥) في الآيـة ٢٧٥ من سُورة البقرة، وفيهـا: ﴿قَالُوا إِنَّـما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَـا﴾.
(٨٦) في (ب): أخـلد الأمـير فلاناً في الحـبس.

كـانَ أفـضل من الفَرض؛ كما أنّ الزُّهـد في الحَـرام فرضٌ وفي الحـلال تطوُّع. والزُّهـد في الحـلال أفـضلُ لِمـا بَيَّنّـا كـذلك هُـنا.

فـإن قيل: ما فائدةُ قـوله تعـالى(٨٧): ﴿بِدَيْنٍ﴾ [٢/٢٨٢]. وقـوله ﴿تَدَايَنتُمْ﴾ [٢/٢٨٢] مُغنٍ عنه؟

قـلنا: فائـدته رجوع الضّمير إليه في قـوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ [٢/٢٨٢] إذ لو لَمْ يَـذكر الدَّيْن لقـال(٨٨): «فاكْتُبوا الدَّين» والأول أحـسنُ نَـظماً.

الثّـاني: أن: تَدَايَنَـا؛ مُشتـرك بين الإقـراض والمُبَايَعَـةِ وبين المُجـازاة وإنّـما يُمَيَّزُ بينهـما بفتح الدّال وكسرهـا(٨٩). ومنه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾(٩٠)، ﴿يَسْأَلُوْنَ أَيَّـانَ يَوْمُ الدِّيْنِ﴾(٩١). فـذكر الدَّين ليتعيَّن: أيُّ المَعنَيَيْن هو المُـراد.

فـإن قيل: كـيف شرطَ السّفـر في الارتهـان بقـوله تعـالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [٢/٢٨٣] الآيـة، وجَوازُ الرّهـن لا يخـتصُّ بالسّفر؟

قـلنا: لم يـذكره لتخـصيص الحُـكم به؛ بـل: لمّـا كان السفرُ مظنّـة عوَز(٩٢) الكاتـبِ والشّاهـد الموثـوق بهـما أمـر على سبيل الإرشـاد بحـفظِ مـال المُسـافرين بأخـذ الرّهـان.

فـإن قـيل: ما فـائدةُ ذِكـر القلب في قـوله: ﴿فَإِنَّـهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [٢/٢٨٣] مع أنّ الجـملة هـي الموصوفة بالإثـم لا القـلب وحـده؟

---

(٨٧) في صـدر الآيـة ٢٨٢ من سورة البقرة، وفي أوّلهـا ـ وهو موضع الاحتجـاج ـ: ﴿يـا أيُّهـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوْهُ...﴾.

(٨٨) في أ: «إذ لو لم يُذكره يـقال»، وأثبت عبارة (ب)؛

(٨٩) يـريد الدَّيْن، والدِّين.

ـ وفي تفسير القرطبي ٣: ٣٧٧: قـوله تعـالى (بِدَيْنٍ) تأكـيد مثـل قـوله تعـالى: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.

(٩٠) الفاتحـة (الحـمد): ١/٤

(٩١) الذاريـات ٥١/١٢

(٩٢) في (ب): مظنَّة إعـزاز، وأظنهـا مصحّـفة عن إعـواز.

قلنا: كتمان الشّهادة هو أن يُضمرها ولا يتكلّم بها؛ فلمّا كان ذلك إثماً مقترفاً بالقلب ومكتَسباً به أُسند إليه؛ لأن إسناد الفعلِ إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغُ؛ كما يقال: هٰذا ممّا بصرتْهُ عَيني وسمعتْهُ أُذني، وعَلِمَهُ قَلبي.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [٢/٢٨٤] وما يحدّث به الإنسانُ نفسه لا يأثم بهِ، ما لم يفعله: إمّا أنّه لا يدخل الاحتراز عنه في الوُسع والطاقة، أو بالحَديثِ المَشْهُور(٩٣).

قلنا: قِيل أُريد بالآية العُموم ثم نُسِخ بقوله تعَالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [٢/٢٨٦] وقيل لا نَسْخَ فيه لأنّه خَبَرٌ لا أَمْر أو نَهي، بل العُموم غير مراد وإنّما المُراد ما يُمكن الاحترازُ عَنه؛ وهو العَزْمُ القاطع والاعتقادُ الجازم لا بمجرّد حديثِ النّفس والوَسوسة ولأنّه أَخْبَرَ عن المحاسَبة لا عن المُعاقبة. فهو يوم القيامة يُخبر العباد بما أَبْدَوا وأَخْفَوا ليعلموا إحاطة علمه بجميعِ ذلك. ثم يغفرُ لمن يشاء فضلاً ويعذّب من يشاء عَدْلاً كما أَخْبَر في الآية.

فإن قيل: أيُّ شرف للرّسول عليه الصّلاة والسلام في مدحهِ بالإيمان مع أنّه في مرتبةِ الرّسالة ودرَجتها، وهي أعلى من درجةِ الإيمان؟ فما فائدة قوله ﴿آمَنَ الرَّسُوْلُ﴾ [٢/٢٨٥]؟

قلنا: فائدتُهُ أن يبيّن للمؤمنين زيادةَ شرفِ الإيمان حيثُ مدحَ به خواصَّه ورسُله. ونظيرُه في سورة الصّافات قوله تعالى في خاتمةِ ذِكر كلِّ

(٩٣) الإشارة هنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله تَجاوز لأمّتي عَمّا حدّثت به أنفُسَها ما لم تتكلّم به أو تعمل به» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الفتح الكبير ١: ٣٢٨).

- ويُنظر في موضوع النسخ - مثلاً - القرطبي ٣: ٤٢٠ - ٤٣٤.

نبيٍّ (٩٤) ﴿إِنَّـه مِنْ عِبَادِنَـا المُؤْمِنِيْنَ﴾.

فـإن قـيل: روي عن ابن عـباس أنّـه قـرأ(٩٥): «ومَلاَئِكَتِهِ وَكِتَـابِهِ»(٩٦) فسُئِلَ عن ذلك فقـال: «كتـاب» أكبـر من «كُتُب» فما وَجهُه؟

قـلنا: قِيـل فيه إنّـه أراد أنّ الكتـاب جِنـس والكُتـب جَمع، والجنسُ أكبر من الجـمع؛ لأنّـه حقيقة في الكُلّ على ما ذهـبَ إليه بعضهُـم.

ويـرد على هـذا أن يـقال: الكلامُ في الجـمعِ المُضاف والفردِ المُضَـاف للاستغراق عُرفاً وشَرعاً كقـوله لعبده: أكرمْ أصدقائي وأَهِـنْ أعـدائي. وقـولهُ: زوجـاتي طوالقُ وعَبِيدي أحـرار بخـلاف قـوله: صَدِيقي وعدوّي وعَبدي وامرأتي. فظهـر أنّ الجـمع المضـاف أكثر.

فـإن قـيل: «بين» لا تُضاف إلاّ إلى اثنين فصاعـداً، فـكيف قال: ﴿لا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِن رُسُلِهِ﴾ [٢/٢٨٥]؟

قـلنا: «أحـد» هُـنا بمعنى الجـمع الذي هـوآحـاد، كـقوله تعـالى(٩٧): ﴿فَمـا مِنْكُـمْ مِنْ أَحَـدٍ﴾ فإنـه ثَمّ بمعنى الجـمع بـدليل قـوله ﴿حاجـزين﴾ فكأنّـه قـال: لا نفرّقُ بين آحـادٍ من رُسُلِه كقـوله: المـال بين آحـاد الناس؛ ولأن «آحـاداً» يـصلحُ للمُفـرد المذكر والمؤنـث وتثنيتهـما وجمعهـما نفياً وإثـباتاً تقـول: ما رأيت أحـداً إلا بني فـلان، أو: إلاّ بنات فلان؛ سواء. وتقـول: إن جـاءك أحـدٌ بكتـابي فأعـطهِ وَديعـتي. يستوي فيه الكُلّ. فالمعنى: لا نُفَرِّق بين

(٩٤) الصـافات: ٨١/٣٧، ١١١، ١٣٢. وفي ١٢٢ ﴿إِنَّهُمَـا مِنْ عِبَادِنَـا المُؤْمِنِينَ﴾: والمقصـود موسى وهـارون (ع).

(٩٥) من الآيـة ٢٨٥ من سورة البقـرة، وفيهـا: ﴿آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَـا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّـهِ والمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ آمَنَ بالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾.

(٩٦) ينـظر معجـم القراءات القُرآنـيّة ١: ٢٣١. وهـي قراءة حـمزة والكسـائي وخـلف والأعـمش وابن عـباس، وابن مسعـود.

(٩٧) الحـاقة: ٤٧/٦٩: ﴿فَمَـا مِنْكُم مِّنْ أَحَـدٍ عَنْهُ حَـاجِزِيْنَ﴾.

اثنين منهم، أو بينَ جماعةٍ منهم. ومنه قوله تعالى(٩٨): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾.

فإن قيل: من أين دَلّ قولُه تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [٢/٢٨٦] على أنّ الأوّل في الخَير والثّاني للشر؟

قلنا: قيل: هو من كَسَبَت واكْتَسَبت؛ فإن الأول للخَير والثاني للشَّرّ، وليس بسديد؛ لقوله تعالى(٩٩): ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً﴾، وقوله(١٠٠) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وقوله(١٠١): ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾، وقوله(١٠٢): ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾، والاقتراف والاكتساب بمعنىً واحد.

وقيل وهو من اللام وعلى؛ وليسَ بسديد أيضاً؛ لقوله تَعالى(١٠٣): ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وقوله تعالى(١٠٤) ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وقوله(١٠٥): ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ من رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [٢/١٥٧] اللَّهم إلا أن يدّعى أن اللام وعلى عند الإطلاق يقتضيان ذلك، كما في هذه الآية لا مَقرونتين بذكرِ الحَسنةِ والسّيئةِ والحَسَنِ والقَبيح. ويدلّ عليه قوله تعالى(١٠٦): ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّ عَلَيْهَا﴾ أَطْلَقَهُ وأرادَ به الشرّ؛ بدليل ما بعده(١٠٧). وقولهم: الدَّهْرُ يَوْمَان: يومٌ لَكَ

---

(٩٨) الأحزاب: ٣٣/٣٢
(٩٩) النساء: ٤/١١٢
(١٠٠) المدّثر: ٧٤/٣٨
(١٠١) الشورى: ٤٢/٣٤
(١٠٢) الشورى: ٤٢/٢٣
(١٠٣) الرعد: ٤٢/٢٥
(١٠٤) الإسراء: ١٧/٧
(١٠٥) البقرة: ٢/١٥٧
(١٠٦) الأنعام ٦/١٦٤
(١٠٧) بعدها في الآية نفسها: ﴿وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وَيَومٌ عَلَيك! وقولهم: فلانٌ يشهد عَليك. ويقول الرجل لصاحبِه: هذا الكلامُ حجّةٌ عليك لا لك!

وقال الشّاعر(١٠٨):

على أنّني راض بأنْ أحمِلَ الهوى وأَخْلُصَ منهُ لا عَليَّ ولا لِيَا(١٠٩)!

وأما قوله تعالى(١١٠): ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ وإن كانَ مقيّداً إلّا أنّ فيه دلالةً أيْضاً من جهة اللام وعلى؛ لأن القيدَ شاملٌ لَطرفَيْه.

(١٠٨) من البحر الطّويل. ونقله الشيخ زكريا في (فتح الرحمن..) ص: ١٩٦ برواية
على أنّني راضٍ بأنْ أحملَ الهوى وأخلُصَ يوماً لا عليَّ ولا ليا!
ولم ينسبه إلى قائل.

(١٠٩) ومثله قول الآخر:
ألا ليتَ حظّي من غُدانة أنّه يكونُ كفافاً لا عَليَّ ولا ليا

(١١٠) فصّلت: ٤١/٤٦

سورة آل عمران

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ [٣/٣] ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ﴾ [٣/٣].

قلنا: لأنّ القُرآن نَزَل منجّماً، والتّوراة والإنجيل نَزَلا جملةً واحدة. كذا أجابَ الزَّمخشري وغيرُه[١]. ويردّ عليه قولهُ تعالى بعد ذلك: ﴿وأَنزل الفرقان﴾ [٤/٣]، فإن الزمخشري قال: أراد به جنسَ الكُتب السّماويّة لا الثلاثةَ المذكورة خُصوصاً. أو أراد به الزَّبُور، أو أراد بِهِ القُرآن؛ وكرّر ذِكْرَهُ تعظِيماً[٢]. ويردّ عليه قولُه تعالى[٣]: ﴿وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقوله تعالى[٤]: ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلَةً واحِدةً﴾.

والَّذي وَقع لي فيه - والله أعلم - أن التّضعيف في «نَزّل» والهمزة في «أنزل» كلاهما للتّعدية؛ لأنّ نَزَلَ فعلٌ لازم في نفسه، وإذا كانا للتعدية لا يكونان لمعنىً آخر وهو التّكثير أو نحوه؛ لأنَه لا نظير له، فإنّما جمع بينهما والمعنى واحد وهو التّعدية جَرياً على عادة العرب في أَقْسَامِهِمْ في الكلام وتصرّفهم فيهِ على وجوهٍ شَتّى. ويؤيّد هذا قوله تعالى في موضع آخر[٥] ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَّبِّهِ﴾.

فإن قيل: كيف قَال ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ [٧/٣]. و «من» للتَّبعيض؛

---

(١) الكشّاف ١: ٤١١؛ وتفسير القرطبي ٤: ٥
(٢) هذا ملخّص من قول الزمخشري ١: ٤١١. وفيه: أو كرّر ذِكرُه إلخ...
(٣) البقرة: ٤/٢
(٤) الفُرقان: ٣٢/٢٥
(٥) يونس: ٢٠/١٠

وقـال في موضع آخـر(٦): ﴿كِتَـابٌ أُحْكِمَـتْ آيَاتُهُ﴾ وَهَـذا يقتضي كـونَ جـميع آياتِه مُحـكمة؟

قـلنا: المرادُ بـقوله: ﴿مِنْـهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [٣/٧] أي: ناسخـاتٌ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَـاتٌ﴾ [٣/٣] أي منسُوخَـات.

وقـيل: المحكمـات: العقليّات، والمتشابهـات: الشّرعـيات.

وقـيل: المُحـكمات: ما ظهـرَ مَعنـاها، والمُتَشابهـات ما كَانَ في معناها غموضٌ ورقّـة.

والمرادُ بقـوله(٧): ﴿كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أنّ جـميعَ القُرآن صحيحٌ ثـابتٌ مَصُونٌ عن الخَللِ والزَّلل. فلاَ تَنـافي.

فـإن قـيل: كـيف قـال هنـا: ﴿وَأُخَـرُ مُتَشَابِهَـاتٌ﴾ [٣/٧] جعـل بعضَه مُتَشابهـاً؛ وقـال في موضع آخـر(٨): ﴿كِتَـاباً مُتَشَابهـاً﴾(٢) وصـفه كـله بـكونه متشابهـاً؟

قـلنا: المـراد بقـولـه تعـالى: ﴿وَأُخَـرُ مُتَشَابِهَـاتٌ﴾[٣/٧] ما سـبق ذِكـره. والمرادُ بـقوله: ﴿كِتَـاباً مُتَشَابِهـاً﴾ أنّـه يشبهُ بعضُـه بعضَاً في الصحّـة وعَدم التَّنَاقض، وتـأييد بعضِه لبعضٍ. فَلاَ تَنافي.

فـإن قـيل: ما فائدةُ إنـزال المُتَشَابِه بالمعنى الآخـر والمقصودُ من إنـزال القرآن إنّـما هو البيانُ والهُدَى؟ والغموضُ والدّقةُ في المَعـاني ينافي هٰـذا المَقـصود أو يُبعـده؟

قـلنا: لمّـا كان كـلامُ العرب ينقسمُ إلى ما يُفهم معناه سريعاً ولا يُحـمل

(٦) هـود: ١١/١
(٧) هـود: ١١/١
(٨) الزُمـر: ٣٩/٢٣

على غير ظاهره، وإلى ما هو مَجازٌ وكنايَةٌ وإشارةٌ وتلويحٌ؛ والمعاني فيه مُتَعارضة مُتزاحمة؛ وهذا القسم هو المُستحسن عندهم والمُستبعَدُ في كلامِهم نَزَل القرآنُ بالنَّوعين تحقيقاً لمعنى الإعجاز كأنّه قال: عارِضُوه بأي النَّوعين شِئتم؛ فَإِنَّهُ جامعٌ لَهُما.

أو أَنزله الله مُحكماً ومُتَشابهاً ليختبر مَن يؤمن بكلّه ويَرُدّ علمَ ما يتشابهُ مِنه إلى الله فَيُثيبه. ومَن يرتاب فيه ويشكّ - وهو المنافق - فيعاقِبه. كما ابتلَى عباده بنهرِ طالُوت(٩) وغيره.

أو أَراد أن يشتغل العلماءُ بردّ المتشابه إلى المحكم بالنّظر والاستدلال والبحث والاجتهادِ، فيُثابون على هذه العبادة. ولو كان كلّه ظاهراً جليّاً لاستوى فيه العلماءُ والجُهّال ولمَاتت الخواطِرُ لعدم البَحث والاستنباط. فإنّ نار الفكر إنما تُقدح بزنادِ المُشكلات. ولهذا قال بعضُ الحكماء: عيبُ الغِنى أنه يورثَ البَلادة ويميت الخاطر، وفضيلةُ الفقر أنّه يبعثُ على إعمال الفِكر واستنباط الحِيَل في الكَسب(١٠).

فإن قيل: قولُه تعَالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِم رَأْيَ العَيْنِ﴾ [١٣/٣] أي ترى الفئةُ الكافرةُ الفئةَ المُسلمةَ مِثلَيْ عدد نفسِها أو بالعكس، على اختلافِ القَولين(١١). وكيف ما كان فهو مُنَافٍ لقوله تعالى في سورة الأنفال(١٢): ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُم إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلاً وَيُقَلِّلُكُمْ في

---

(٩) إشارة إلى الآية ٢٤٩ من سورة البقرة.

(١٠) في كتب التفسير كلام مفصل هنا، يُنظر مثلاً، تفسير الطبري ٣: ١١٢ - ١١٧، والقرطبي ٤: ٨ - ١٩، والكشاف ١: ٤١٢ - ٤١٣

(١١) الرؤية هنا بَصَريّة، رُؤية عين. والكلام عن المسلمين والمشركين يوم بدر. و ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ «يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين أو مثلي عدد المسلمين ستة مئة ونيفاً وعشرين، أراهم الله مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم...» عن الكشاف.

(١٢) الأنفال: ٤٤/٨

أَعْيُنِهِمْ﴾ لأنّـه يدلّ على أنّ الفئتـين تسَاوَتـا في استِقـلال كـلّ واحـدة منهـما للأخـرى.

قـلنا: التّقليلُ والتّكـثيرُ في حـالَين مُخـتلفين:

قَلّل الله المُشركـين في نظر المؤمنـين أوّلاً والمُؤْمنين في نَظر المُشركين حـتى اجْتَرأت كـل فئةٍ على قِتـالِ صاحِبتها فلمـا التقيـا كثّر الله المؤمنين في نـظر المُشركين حـتى جَبُنوا وفَشِلُوا فَغُلِبوا. وكـثّر الله المشركـينَ في نظـرِ المُؤمنين وأَراهـم إيّاهـم على ما هُـم عليه. وكـانوا في الحـقيقة أكثرَ من المؤمنين ليعلَمُوا صدق ما وَعـدهم الله بقـوله(١٣): ﴿فـإن يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ﴾ الآيـة. فـإنّ المؤمنين غَلبوهـم في هـذه الغَزاة وهـي غزاةُ بَدر مع أنهـم كانوا أضعـافَ عَددِ المؤمنـين.

وقيل: أرى الله المسلمينَ المشركينَ مثلَيْ عـدد المُسلمين وكانوا ثلاثةَ أمثالهـم لكنّـه قَلّلهـم في أعـين المُسلمين وأَراهم إيّاهـم بـقدر ما أعلمهـم أنّهـم يغلبونهـم لِتَقْوى قلوبُهـم بما سبَق من الوعـد أن المـئة من المؤمنـين تغلبُ المئتـين منهـم.

فـإن قـيل: ما فـائدة تـكرار قـوله: ﴿لاَ إِلَهَ إلاّ هُـوَ﴾ [٣/١٨] في قـوله ﴿شَهِـدَ الله أَنَّـهُ لا إلَهَ إلاّ هُوَ والمَلائِكَـةُ وَأُولُوا العِلْمِ قائمـاً بالقِسْطِ لا إلَه إلاّ هُوَ﴾ [٣/١٨].

قـلنا: الأوّل قـولُ الله تعـالى والثّـاني حكايةُ قولِ الملائكـة، وأولي العلم.

وقـال جعفر الصادق رضي الله عنـه: الأول وصفٌ والثاني تَعـليم. أي قُولُوا واشهـدوا كما شَهِدوا.

(١٣) الأنـفال: ٨/٦٦

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٣/٢٣] في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ﴾ [٣/٢٣] والتّولّي والإعراض واحد كما سبق مرة؟

قلنا: معناه يتولّون عن الدّاعي ويُعرضون عمّا دَعاهم إليه، وهو كتاب الله ويتولّون بأبدانِهم ويُعرضون عن الحقّ بقُلوبِهم.

أو: كان الّذين تولّوا: عُلَماءَهُم، والذين أعرضوا: أتْبَاعَهم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿بِيَدِكَ الخَيْرُ﴾ [٣/٢٦] خَصّ الخير بالذِّكر وبيده تعالى الخيرُ والشرُّ والضّرُّ والنّفع؟

قلنا: لأنّ الكلام إنّما ورَد ردّاً على المُشركين فيما أنكروه بما وعد الله به نبيّه على لسان جبريل عليهما الصلاة والسلام: من فتحِ بلادِ الرُّوم وفارس، ووعد النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة بذلك. فلمّا كان الكلام في الخير خصّه بالذكر باعتبار الحال.

أو: أراد الخيرَ والشرَّ فاكتفى بأحدهما لدلالته على الآخر؛ كقوله[١٤] ﴿سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمُ الحَرَّ﴾.

وإنّما خصّ الخير بالذكر لأنّهُ المرغوبُ فيه المطلوبُ للعِباد من الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهار وَيُوْلِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ﴾ [٣/٢٧] وإيلاجُ الشيءِ في الشيء يقتضي اجتماع حقيقتهما بعد الإيلاج كإيلاج الخيط في الإبرة والإصبع في الخاتم ونحوهما. وحقيقةُ اللّيل والنّهار لا يجتمعان؟

(١٤) النحل: ١٦/٨١

قلنا: الإيلاج قد يكون كما ذكرتم وقد يكونُ مع تبدّل صفة أحدهما بغلبةِ صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه كإيلاج يسيرٍ من خبز[١٥] في لبن كثيرٍ أو بالعكس فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتاً؛ وصِفَةُ أحدهما غالبةٌ على الأُخرى. كذلك الليل والنهار إذا كان الليل والنهار أربعَ عشرة ساعة بالنسبة إلى زمنِ الاعتدال ففيه من النّهار ساعتان قَطعاً، وكذلك على العكس.

أو معناه: ويولج زمن الليل في زمن النهار وبالعكس.

أو يُولج اللّيل في النّهار وبالعكس؛ باعتبار أنّ ليل قومٍ هو نهارُ قومٍ آخرين وبالعكس.

أو معناه أنّه خلق ليلاً صرفاً خالصاً، ونهاراً خالصاً، وخلق ما هو ممتزج منهما وهو ما قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

والجواب الثالث والرابع يعمّان جميع السنة.

فإن قيل: ما فائدةُ قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثى﴾ [٣/٣٦] وهو معلومٌ من غيرِ ذِكر.

قلنا: هي ظنّت أن ما في بطنها ذكر؛ ولهذا نذرت أن تجعله خادماً للبيت المقدس. وكان من شريعتهم صحّة هذا النَّذر في الذكور خاصة. فلما وضعت أُنثى استَحْيَتْ حيث خاب ظنُّها ولم يتقبل نَذرها؛ فقالت ذلك معتذرةً. يعني: ليست الأُنثى بصالحةٍ لما يصلح له الذّكر من خِدمة المسجدِ لا أنّها أرادت أنّ الأُنثى ليست كالذكر صورةً أو قوّةً أو نحوَ ذلك. فلمّا قالت ذلك مُنكسرةً خَجِلةً مَنَّ الله عليها بتخصِيص[١٦] مريم بقبولها في النَّذر دون غيرها من الإناث؛ وقال: ﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

---

(١٥) في (ب) يسير من الخبز.
(١٦) في (ب) بتخصيص ؛ وفي (أ) بتخصّص. وسترد الكلمة فيما بعد كما في (ب).

فإن قيل: المُستعمل في مثله إدخال حرف النَّفي على القاصر وحَرف التشبيه على الكامل كقولهم: ليسَ الفِضّة كالذهب، وليسَ العبدُ كالحُرّ فَوِزَانُهُ: وليس الأنثى كالذكر.

قلنا: لمّا كانَ جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً في النسبة في حالة الإثبات يقتضي المبالغة في المُشَابهة كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفّه، كان جعل الأصل فَرعاً والفرع أصلاً في حالةِ النّفي يقتضي نفيَ المُبالغة في المشابهة لا نفي المُشَابهة. وذلك هو المقصودُ هنا؛ لأن المُشَابهة واقعةٌ بينَ الذكر والأنثى في أعم الأوصاف وأَغلبها، ولهذا تعادل(١٧) أحدهما بالآخر. وإنّما أرادت أمُّ مريم نفي المشابهة بينهما في صِحّة النَّذريّة خادماً للبيت المقدس لا غير. فلذلك عكست.

الثّاني: أنَّ ذلك قولُ الله تعالى. والمعنى: ليس الذكر الذي طَلبت أن يكونَ خادماً للكنيسة كالأنثى التي وهبت، لما علم الله تعالى من جعلها وابنها آية للعالمين. وهو تفسيرٌ للتّعظيم والتّفخيم المجمل في قوله تعالى: ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [٣/٣٦] وهي لا تعرفُ مقدار شرفه. واللام في الذّكر والأنثى للعهد. هذا كلُّه قولُ الزمخشري(١٨) وتمامُه في الكشاف .وقال الفقيه أبو الليث: «قال بعضُهم هذا قول الله تعالى لمحمّد عليه الصلاة والسلام؛ أي: وليس الذكر كالأنثى يا محمّد». وقال بعضُهم: هو من كلام أمّ مريم.

فإن قيل: كيفَ نادت الملائكة زكريّا وهو قائمٌ في المحراب، وأجابها وهو في الصلاة كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [٣/٣٩]؟

---

(١٧) في الأصلين: ولهذا نعاد أحدهما بالآخر.
- وقرأتها على هذا الوجه من سياق المعنى.

(١٨) الكشّاف ١: ٤٢٥. والمقصود هنا الوجه الثّاني.

قلنا: المُراد بقوله (يصلي) أي يَدْعُو؛ كقوله تعالى[١٩]: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، أي: بدعائك.

فإن قيل: ما فائدةُ تخصيص يحيى عليه الصَّلاة والسلام بقوله: ﴿إِنَّ الله يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ من الله﴾ [٣/٣٩] وكلّ واحدٍ من المؤمنين مصدّق بجميعِ كلماتِ الله تعالى؟

قلنا: معناه مصدّقاً بعيسى الذي كان وجودُه بكلمةٍ من الله، وهي: ﴿كُنْ﴾ [٣/٤٧] من غير واسطة أبٍ. وكان تصديق يَحْيَى بعيسى أسبقَ من تصديق كلّ أحدٍ من الوجودِ أو في المَرتبة.

فإن قيل: زكريا سأل الله الولدَ بقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنْك ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [٣/٣٨] والله تعالى بَشَّرهُ بيحيى على لسان الملائكة. فكيف أنكر بعد هذا كلّه قدرةَ الله على إعطائه الولد حتى قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [٣/٤٠]؟

قلنا: إنّما قاله على سبيل الاستفهام والتعجّب من عظيمِ قُدرة الله تَعالى لا على طريقِ الإنكار والاستبعاد.

أو اشتبه عليه: هل يُعطى الولَد وهو شيخٌ وامرأته عاقرٌ، أو تزولُ عنهما هاتان الصّفتان. فسألَ لكشفِ الحال. فتقديره: أنى يكونُ لي غلام وقَدْ بلغني الكبر وامرأتي عاقر..

فإن قيل: ما فائدةُ تكرار ذكر الاصطفاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ...﴾ [٣/٤٢]؟

قلنا: الاصطفاء الأوّل: للعبادة التي هي خدمةُ البَيت المقدّس

(١٩) الإسراء: ١٧/١١٠

وتخصيصُها بِقَبُولها في النَّذر مع كونها أُنثى. والاصطفاء الثاني: لولادة عيسى عليه الصلاة والسلام.

أو أُعيد ذكر الاصطفاء ليفيدَ بقوله تعالى: ﴿عَلَى نِسَاءِ العَالَمِيْنَ﴾ [٣/٤٢] فيندفع وهم أنها مصطفاة على الرجال.

فإن قيل: كيف نفى حُضور النبيّ عليه الصلاة والسلام في زمن مريم بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُوْنَ أَقْلاَمَهُمْ﴾ [٣/٤٤] الآية؛ وذلك معلومٌ عندهم ولا شكَّ فيه؛ وتَرَك نفيَ استماعه ذلك الخبرَ من حُفّاظه وهو الذي كانُوا يتوهَّمُوْنَه؟

قلنا: كان معلوماً أيضاً عندهم علماً يقيناً أنّه ليس من أهل القراءَةِ والرّواية؛ وكانُوا مُنكرين للوَحي؛ فلم يبقَ إلا المُشَاهدة والحُضور وهي في غايَةِ الاستِحالة فَبقيت على طريقِ التَّهكم بالمُنْكِرين للوحي، مع علمهم أنّه لا قراءةَ له ولا روايةَ. ونظيرُهُ قوله تعالى[٢٠]: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيّ﴾، ﴿وَمَا كُنْتَ بجانب الطُّوْرِ﴾[٢١].

فإن قيل: كيف قال ﴿اسْمُهُ المَسِيْحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ﴾ والخِطاب مع مَريم، وهي تَعلم أنّ الولد الذي بُشّرت بهِ يكونُ ابْنَها؟

قلنا: لأنّ الأبناء يُنْسَبُونَ إلى الآباء لا إلى الأُمّهات فأُعلمت بنسبته إليها أنه يُولد من غيرِ أَبٍ فَلا يُنسب إلاّ إلى أُمّه.

فإن قيل: أيُّ معجزةٍ لعيسى عليه الصّلاة والسَّلام في تَكليم النَّاس[٢٢] كَهْلاً وأَيُّ خُصوصيّةٍ له في هٰذا حتّى قال: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً﴾ [٣/٤٦].

---

(٢٠) القصص: ٢٨/٤٤

(٢١) القصص) ٢٨/٤٦

(٢٢) من كلمة «الناس» هنا إلى كلمة «الناس» بعد عبارة «قلنا»، لم يرد في (أ) بسهو الناسخ من نقلة عين.

قلنا: ويكلّم الناس في هاتين الحالتين كلامَ الأنبياءِ من غير تَفاوتٍ بين حالِ الطُّفوليّة وحالة الكُهوليّة التي يَستحكم فيها العقل، وتُنَبَّأُ فيها الأنبياء. فكأنه قال: وتُكلّم الناس في المهد كما تكلّمهم كهلاً.

وقال الزجّاج: هذا أُخرج مخرجَ البِشارة لمريم أنه عليه الصّلاة والسلام يَبقى إلى زَمن الكُهولة فهو بشارةٌ لهَا بطُول عُمره.

وقيل: المقصُود منه أن الزّمان يؤثّر فيه كما يؤثر في غَيره، ويُنْقَلُ من حالٍ إلى حال، ولو كان إلَهاً لم يَجْرِ علَيه التَّغيير.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنِّيْ مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ [٣/٥٥] والله تعالى رَفعه ولم يَتَوفَّه؟

قلنا: **لمّا هدّده اليهود** بالقتل بشَّره بأنه إنّما يَقبض رُوحه بالوَفاة لا بالقَتْلِ. والواو لا تُفيد التّرتيب ليلزم من الآية موته قبل رفعه.

الثّاني: أنّ فيه تقديماً وتأخيراً؛ تقديره: إنّي رافعك ومُتَوفّيك.

الثّالث: أن معناه: قابضُك من الأرض تاماً وافياً في أعضائك وجَسدك لم يَنالوا منك شيئاً. من قولهم: توفّيت حقّي على فلان إذا استَوفيته تاماً وافياً.

الرّابع: أن معناه: مُتَوفّي نفسِك بالنّوم، من قوله تعالى(٢٤): ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُس حينَ مَوْتِها وَالَّتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ورافِعُك إليّ وأَنتَ نائم حي لا تخاف، بل تستيقظُ وأنت في السَّماء آمِنٌ مُقَرَّب.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [٣/٥٩].

---

(٢٣) تنظر كتب التّفسير المطوّلة كتفسير الطبري ٣: ٢٠٢ ـ ٢٠٥ فإنّ فيها تفصيلاً.
(٢٤) سورة الزّمر: ٣٩/٤٢

وآدم خُلِقَ من التُّراب، وعيسى من الهَـواء. وآدَمُ خُلق من غيرِ أبٍ وأُمٍّ وعيسى خُلِق من أُمّ؟

قلنا: المُراد به التَّشبيه في وجودِه بغير واسطةٍ، والتَّشبيه لا يَقتضي المُمَاثلة من جميع الوُجوه بل من بعضِها(٢٥).

فإن قيل: كيف خصّ أهل الكتاب بأنّ منهم أميناً وخائناً بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾ [٧٥/٣] الآية والمُسلمون وغيرُهم من أهل المِلَل كذلك: منهم الأمين والخائن؟

قلنا: إنّما خَصّهم باعتبار واقعةِ الحال؛ فإن سبب نُزول الآية(٢٦) أنّ عبدَ الله بن سَلّام أُودِع ألفاً ومئتي أُوقيّة من الذّهب فأدّى الأمانة فيها. وفنحاص بن عازُوراء أُودِعَ ديناراً فخانَه. ولأنّ خيانة أهلِ الكتاب المُسلمين من استحلالِ [ظلم مَنْ خالفهم](٢٧) - بدليل آخر الآية(٢٨) - بخلاف خِيانةِ المُسلم؛ فلذلك خَصَّهم بالذكر.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ طَوْعَاً وَكَرْهَاً﴾ [٨٣/٣] وأكثرُ الجِنّ والإِنس كفَرَة؟

قلنا: المُرَاد بهٰذا الاستسلامُ والانقيادُ لِمَا قضاه عليهم وقَدّره من الحَياةِ والمَوت والمَرض والصحّة والشَّقاء والسَّعادة ونحْو ذلك.

---

(٢٥) وهذا معروف؛ مبسوط في كتب البلاغة.

(٢٦) يراجع تفسير الطبري ٣: ٢٢٥ - ٢٣١، والقرطبي ٤: ١١٥
- وقد ذُكرت أسماء أُخرى.
- ونصُّ المؤلف يُجاري ما في الكشاف: ١: ٤٣٨

(٢٧) لم تتم عبارة المؤلّف. وقد أتممتُها من سياق كلام مقارب في الكشاف ١: ٤٣٨

(٢٨) الآية ٧٥ من آل عمران: ﴿وَمِنْ أَهلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ومِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إلاّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قَائماً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا في الأُمِّيِّينَ سَبِيْلٌ وَيَقُولُوْنَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فإن قيل: كيفَ قال: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بعدَ إيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُم..﴾ [٣/٩٠] ومعلومٌ أنّ المرتدّ كيفَ ما ازدادَ كُفراً فإنّه مَقبولُ التَّوبة؟

قلنا: الآية نَزلت في قَومٍ ارتدُّوا ثم أظهروا التَّوبة بالقَول لستر أحوالهم؛ والكفرُ في ضَمائرهم؛ قاله ابنُ عبّاس.

وقيل: نزَلت في قومٍ تابُوا من ذُنُوبِهم غير الشّرك.

وقيل: معناه لن تُقبل توبتهم وقتَ حُضور الموت.

فإن قيل: كيفَ قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [٣/٩٦] وكَم من بيت بُنِيَ قَبل الكَعبةِ مِن زَمن آدم إلى زمن إبراهيم عليه السّلام؟!

قلنا: معناهُ أنّ أوّل بيت وُضع قبلةً للناس، ومكانَ عبادةٍ لهم.

أو: وُضع مُباركاً للناس. ولأنَّ ابن عباس قال أوّل مَن بَناه آدم عليه الصَّلاة والسلام لمّا أُهبط من السَّماء أوحى الله إليه: ابنِ لِي بَيتاً في الأرض، واصْنَع حَوله نَحْو ما رأيتَ الملائكةَ تصنعُ حَول عرشي. فبَناه وجعلَ يَطُوف حَوله.

فإن قيل: كيف قَال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [٣/١١٠] ولم يَقُل: أنتم خيرُ أُمّة؟

قلنا: معناه: كُنتم في سابِقِ علم الله.

أو: كنتم يومَ أُخِذَ الميثاقُ على الذُّرّية. فأراد الإعلام بكون ذلك صفةً أصليّةً منهم لا عارضيّةً مُتجددة.

أو: معناه: خُلِقتم ووُجِدْتُم فهي (كانَ) التّامّة. وخَيْرَ أُمّةٍ نصب

على الحال. وتمام الكلام في (كان) ذكرناه في قوله تعالى(٢٩): ﴿إِنَّهُ كانَ فَاحِشَةً ومَقْتاً﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ [٣/ ١١٠] ولا يصِحُّ أن يُقال: هذا خيرٌ من ذلك إلاّ إذا كانَ في كُلِّ واحدٍ خير؟

قلنا: معناه إيمانهم بمحمّد صلى الله عليه وسلم مع إيمانهم بموسى عليه الصَّلاة والسلام، وعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، خيرٌ من إيمانهم بموسى وعيسى فقط.

فإن قيل: كيف قال: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيْحٍ فِيْهَا صِرٌّ﴾ [٣/ ١١٧] الآية. **والمقصودُ**: تشبيه نفقةِ الكُفّار وأموالهم في تحصيلِ المَفاخر وطلب الصِّيت والسُّمعة.

أو: ما ينفقون في الطَّاعات مع وُجود الكُفر.

أو: ما يُنفقونه في عَداوة رسول الله ﷺ: بالزَّرعِ الذي أصابَتْهُ ريحٌ شديدةُ البَرد، فأهلكته، فضاع ولم يُنْتَفَع به. فالتّشبيه في الحقيقةِ بالزَّرع وفي لفظ الآيةِ بالرِّيح؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: مَثل إهلاك ما يُنفقون كمَثَلِ إهلاك ريح فيها صِرٌّ.

أو: مثل ما يُنفقون كمَثل مَهلك ريح. ونظيرُه قوله(٣٠): ﴿مَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُم فِي سَبيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ...﴾، الآية. وقوله تعالى(٣١): ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾، الآية. وقال ثعْلب: فيه

(٢٩) النساء: ٤/ ٢٢
(٣٠) البقرة: ٢/ ٢٦١
(٣١) البقرة ٢/ ١٧١

تقديم وتأخير تقديره كمثَل حَرْثِ قَومٍ ظَلَمُوا أنفسهم أصابته ريحٌ فيها صِرٌّ فأهلكته(٣٣).

فإن قيل: كيف قال: ﴿إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [٣/ ١٢٠] فوصف الحسنة بالمَسّ والسَّيِّئَةَ بالإِصَابَة؟

قلنا: المسُّ مُستعارٌ بمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله تَعالى(٣٤): ﴿إِنْ تُصِبكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإن تُصِبْكَ مُصِيْبَةٌ﴾ وقوله(٣٥): ﴿مَا أَصَابَكَ مِن حَسنة فَمِنَ الله وَمَا أَصابَكَ من سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وقوله(٣٦): ﴿إنّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَسَارِعُوا...﴾ [١٣٣/٣] والنبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام يقول(٣٧): «العَجَلةُ من الشَّيطان، والتَّأَنّي من الرَّحْمٰن»؟

---

(٣٣) روى الطبري في تفسيره (٤: ٣٩) عن السُّدّي: «مَثَلُ ما يُنفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أصابت حَرْث قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته».

(٣٤) التَّوبة: ٩/ ٥٠

(٣٥) النساء: ٤/ ٧٩

(٣٦) المعارج: ٧٠/ ٢٠ ـ ٢١

(٣٧) أخرجه البَيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس رضي الله عنه، بلفظ: التأني من الله والعجلة من الشيطان (الفتح الكبير ٢: ٤٠).

وأورده العجلوني في كشف الخفا (١: ٣٥٠) بلفظ البيهقي، وفيه، رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن منيع والحارث بن أبي أسامة في مسانيدهم عن أنس رفعه. وأخرجه البيهقي عنه أيضاً وله شواهد عند الترمذي، وقال حسن غريب بلفظ: الأناة من الله والعجلة من الشيطان...

قال العجلوني: وقد ورد تقييد ذلك ببعض الأعمال؛ إلى أن قال:

وللغزالي عن حاتم الأصم قال: العَجلة من الشيطان إلاّ في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الطّعام، وتجهيز الميّت، وتزويج البكر، وقضاء الدَّين، والتوبة من الذّنب. وفي حرف العين في كشف الخفا (٢: ٧٢): العَجلة من الشيطان، رواه الترمذي مرفوعاً وقال حديثٌ حسن.

ومما روي في هذا المعنى: التبيّن من الله والعجلة مِن الشيطان فتبيّنوا. (كشف الخفا ١: ٤٠).

قلنا: قد استثنى النبيّ عليه الصلاة والسلام خمسةَ مواضع فقال: إلّا في التّوبة من الذَّنب، وقَضاء الدَّين الحالّ، وتزويج البِكر البالغة، ودَفن الميّت، وإكرام الضيف إذا نزَل.

والمُسَارعَةُ المأمورُ بها في الآية هي المُسَارعة إلى التَّوبة وما في مَعناها من أسباب المغفرة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالَّذِيْنَ إِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [٣/١٣٥] عطَف عليه بكلمة (أو)؛ وفِعْلُ الفاحِشة داخلٌ في ظُلم النّفس، بل هو من أبلغ أنواع ظلم النفس؟

قلنا: أريدَ بالفاحشة نوعٌ من أنواعِ ظُلم النفس وهو الزِّنا؛ أو كل كبيرة. فخصّ هٰذا الاسم تنبيهاً على زيادةٍ قبيحةٍ. وأُريد بظلم النفس ما وراءَ ذلك من الذنوب.

فإن قيل: كيف قال هنا ﴿ وَمَن يَّغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [٣/١٣٥] وقال في موضعٍ[٣٨] ﴿ وَإِذَا ما غَضِبُوا هُمْ يَغفِرُونَ ﴾؟

قلنا: معناه ومن يسترُ الذنوبَ من جميع الوجوه إلّا الله. ومِثل هذا الغُفران لا يوجد إلّا من الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال ﴿ أَفإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [٣/١٤٤] وهلّا اقتصر على قوله ﴿ أَفإِنْ مّاتَ ﴾، وكانَ القتلُ يدخلُ فيه، فإنّه موت؟

قلنا: القتلُ وإن كَانَ مَوتاً لكنْ إذا أُطلق الميت في العرف لا يُفهم منه المقتول؛ فلذلك عَطف أَحدهما على الآخر.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ ومَن يغلُلْ يَأتِ بما غَلّ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾

---

(٣٨) الشُّورى: ٤٢/٣٧.

[٣/١٦١] وقال في موضعٍ آخر(٣٩): ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمونَا فُرادَى كَما خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟

قلنا: معناه يأتي به مكتوباً في ديوانِه أو يأتي حاملاً لإثمه. ومعنى (فُرَادَى) مُنفردين عن الأموالِ والأهل، أو عن الشُّركاء في الغيّ، أو عن الآلهةِ المعبودة من دُون الله. وتَمامُ الآيةِ يشهدُ لِلكُلّ(٤٠).

فإن قيل: قد جاء في الصّحيحين عن النبي ﷺ «أن الغالّ يأتي يومَ القيامة حاملاً عَيْنَ ماغَلّه على عُنقِه صامتاً كان أو ناطقاً»(٤١). وهذا معنى الحديث فانْدفَع الجَواب.

قلنا: على هٰذا يكون المُراد بالآية الأخرى(٤٢): ﴿ فرادى ﴾ عن مالٍ وأهلٍ يعتزون بهما ويَستنصرون. ويشهد بصحته تَمامُ الآية(٤٣).

فإن قيل: كيف قال: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ الله ﴾ [٣/١٦٣] والعبيد ليسوا من أَهل الدرَّجات؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: هم ذَوُو دَرجات؛ أو أهلُ درجات. فحذف المضاف لعدم الالتباس.

---

(٣٩) الأنعام ٦/٩٤.

(٤٠) الآية ١٦١ من سورة آل عمران: ﴿وَمَا كانَ لِنَبِيٍّ أَن يغُلَّ وَمَن يَغْلُل يَأتِ بِمَا غَلَّ يوم القِيامةِ ثُمَّ تُوَفىّ كُلّ نفسٍ مّا كسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾.

(٤١) في سنن الترمذي (٢: ٣٩٦) عن معاذ بن جبل قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سِرت أرسل في أثري فَرُددت فقال: أتدري لِمَ بعثتُ إليك؛ قال: لا تصيبَنَّ شيئاً بغير إذني فإنه غُلول، ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة - لهذا دعوتك؛ فَامْضِ لعملك».
وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن الحباب الأنصاري، أن عبد الله بن أنيس حدثه أنهم تذاكروا هو وعمر بن الخطاب الصّدقة، فقال عمر: ألم تسمع رسول الله ﷺ حين ذكر غلول الصّدقة أنه من غلّ فيها بعيراً أو شاة أتى به يحمله يوم القيامة، قال عبد الله بن أنيس: بلى. (المسند ٣: ٤٩٨). وفي هذا المعنىٰ أحاديث كثيرة.

(٤٢) الأنعام: ٦/٩٤.

(٤٣) والآية بتمامها: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمونا فُرَادى كما خَلَقْنَاكُم أَوَّل مَرَّة وتَركْتُمْ ما خَوَّلْناكُم وَراءَ ظُهورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعكُم شُفَعَاءَكُمُ الَّذِيْنَ زَعَمْتُم أَنَّهُم فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَد تقطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلّ عَنكُم مّا كُنْتُم تَزْعُمونَ ﴾.

وقيل: المُراد بالدّرجات الطَّبقات فلا يكونُ فيهِ إضمار؛ بل معناه: أَنَّهُمْ طَبقات عند الله تعالى، متقاربون كتقارُبِ الدَّرجات.

فإن قيل: كيف جعل لكلٍّ دَرجات؛ وأَحدُ الفريقين لهم دَركات لادرجات(٤٤)؟

قلنا: الدَّرجات تُستعمل في الفريقين(٤٥) بدليل قوله تعالى في سورة الأحقاف بعد ذكر الفريقين(٤٦): ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾

وتحقيقُه: أن بعض أهل النار أَخفُّ عذاباً، فمكانُه فيها أَعْلى، وبعضهُم أشدُّ عذاباً، فمكانه فيها أسفل. ولو سلم اختصاصُ الدرّجات بأَهل الجنةِ كان قوله: ﴿ هم دَرَجَات ﴾ [٣/١٦٣] راجعاً إليهم خاصّة؛ تقديره "أفمن اتَّبَعَ رضوانَ اللّه، وهُم درَجات عند الله كمن باءَ بسخط من الله وهم دَرَكات؟ إلاّ أنّه حذف البَعض لدلالة المذكور عليه.

فإن قيل: ﴿الَّذِيْنَ قَالُوا: إنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [٣/١٨١] كانوا في زمن النبي ﷺ، قالوا ذلك لمّا سمعوا قوله تعالى(٤٧): ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ فكيف قال: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ ﴾ [٣/١٨١] وهم لم يقتُلوا نبيّاً قط؟

قلنا: لمّا رَضُوا بقتل أَسلافهم الأَنبياء كان(٤٨) كأَنّهم باشَرُوا ذلك فأُضيف إليهم. وقد تكرر هذا المعنى في القُرآن كثيراً.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾

---

(٤٤) الدَّرْك والدَّرَك لأسفل والدَّرَجُ إلى فوق.
(٤٥) أي استعمل العرب الدرجات للصعود (على الأصل) وللنُّزول حَمْلاً عليها.
(٤٦) الأحقاف ١٩/٤٦.
(٤٧) البقرة ٢/٢٤٥.
(٤٨) أي كان الشأن، وكانت الحال.

[١٨٢/٣] و(ظَلّام) صيغةُ مبالغة من الظُّلم. ولا يلزمُ من نَفي الظَّلّام نفي الظّالم؛ وعلى العكس يلزَمُ. فهلّا قال: ليس بظالمٍ[٤٩] ليكون أبلغَ في نفي الظُّلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: صيغة المبالغة جيء بها لكثرة العَبيد لا لكثرة الظُّلم، كما قال تعالى[٥٠]: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ وقال[٥١]: ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ ﴾ و﴿ عَلّام الغُيُوب ﴾[٥٢] لما أفرد المفعول لم يأتِ بصيغة المُبالغة، ولمّا جَمعه أتى بصيغة المُبالغة. ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده، وعمرو ظَلّام لعبيده؛ فَهُما في الظُّلم سيّان. وكذا قال تعالى[٥٣] ﴿ مُحَلِّقِيْنَ رُؤُوسَكُمْ ﴾؛ فشدّد لكثرة الفاعِلين لا لتكرّر الفعل.

الثاني: أنّ العذاب من العَظِيم القَدْر وكثير العَدل لولا سَبْقُ الجناية يكونُ أفحش وأقبح من الظُّلم ممّن ليس عظيم القدر كثير العدل. فَيُطلق عليه اسم الظَّلّام باعتبار زيادةِ قُبح الفعلِ منه لا باعتبار تكرّره. فحاصِلُه: أنّ صِيغَة المبالغة، تارةً تكونُ باعتِبار ذاتِ الفعل، وتارةً باعتبار زيادةِ صِيغته. فأَصلُ الظُّلم ـ لو وُجد من الله، تعالى وتَقَدّس ـ لكان أعظم من أَلْفِ ظُلم يُوجد من عبيده باعتبارِ زيادة وصفِ القُبح. نظيرهُ قوله تَعالى[٥٤]: ﴿ وَحَمَلَها الإِنْسَانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُوْلاً ﴾ على ما يأتي بَيانُه في موضعه إن شاءَ الله تَعالىٰ.

فإن قيل: في قوله تعالى[٥٥]: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن

(٤٩) في الأصلين «بظلام»، وصوابه: بظالم؛ وهو المقصود، والمفهوم من السّياق.
(٥٠) الكهف: ٤٩/١٨.
(٥١) الأنعام ٧٣/٦، ووردت في سور أُخر.
(٥٢) المائدة: ١٠٩/٩، و١١٦، وسور أُخر.
(٥٣) الفتح ٢٧/٤٨.
(٥٤) سورة الأحزاب: ٧٢/٣٣.
(٥٥) سورة فاطر: ٤/٣٥.

قَبْلِكَ ﴾ من حقِّ الجَزاء أن يتعقَّب الشرط وهذا سابقٌ له!

قلنا: معناه وإن يكذّبوك فتأسَّ بتكذيبِ الرُّسل قَبْلَكَ. وضْعاً للسَّبب - وهو تكذيبهُم - موضعَ المُسبّب، وهو التّأسّي بهم.

فإن قيل: ما فائدةُ قوله تَعالى: ﴿ وَلا تَكْتُمُوْنَهُ ﴾ [١٨٧/٣] في قوله: ﴿ وإذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذِيْنَ أُوتوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمونَهُ ﴾ [١٨٧/٣] والأَوّل مُغنٍ عن الثّاني؟

قلنا: مَعناه: لَيُبَيِّنُنَّهُ في الحال، ويَدُومون على ذُلك البَيان فَلا يكتمونه في المُستقبل.

الثّاني أنّ الضمير الأَوّل للكتاب، والثّاني لِنَعت النبيّ ﷺ وذكره؛ فإنّه قد سَبق ذِكرُ النّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قَبل هذا.

فإن قيل: مَتَى بَيَّنُوا الكتابَ لزم من بيانِه بيانُ صفة النبي ﷺ وذكره لأنّه من جُملة الكِتَاب الذي هو التَّوراةُ والإنجيل. فقولُه بعد ذلك ﴿ وَلا تكتُمونَهُ ﴾ تكرار.

قلنا: على هذا يكونُ تأكيداً.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [١٩٢/٣] وقال في موضع آخر(٥٦): ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾. ويلزم من هٰذا أن لا يُدخل المُؤمنين النَّار كما قالت المعتزلة والخارجيّة؟

قلنا: «أخزيته» بمعنى: أَذْلَلته وأَهَنته؛ من الخِزْي وهو الذُّلّ والهَوان. وقوله(٥٧) ﴿ يَوْمَ لا يُخزِي الله النَّبيَّ والَّذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ من

(٥٦) التّحريم: ٨/٦٦.
(٥٧) التّحريم: ٨/٦٦.

الخـزاية وهـو النّكـال والفَضِيحـة. فكـلُّ مَن يَدخـل النّـار يذلّ، وليس كلُّ من يدخلها يُنَكّـل به ويُفْضَح.

أو المـرادُ بالآيـة الأُولى إدخـالُ الإقـامة والخُلـود لا إدخـال تَحِلَّـة القَسم المدلُـول عليها بقوله تعـالى(٥٨): ﴿ وَإِن مِنكُمْ إلاّ وَارِدُها ﴾؛ أرادَ إدخـال التَّطهير الـذي يكـون لبعض المُؤمنين بقـدر ذُنوبهم(٥٩).

وقيـل إن قولـه تعـالى: ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي الله النَّبِيَّ ﴾ كـلام تـام؛ وقوله: ﴿ وَالَّـذِينْ آمَنُـوا مَعَـهُ﴾، كـلام مبتـدأ غيرُ معطـوف على ما قبلـه.

فإن قيـل: كيف قال ﴿سَمِعْنَـا مُنَادِياً﴾ [١٩٣/٣] والمسمُوع: نـداءُ المنـادي وقولُـه لا نَفْسُ المُنـادي؟

قلنـا: لمـا قـال ﴿ مُنَادِياً يُنَـادِي ﴾ [١٩٣/٣] صـار تقـديرُه: نـداء منـادٍ؛ كمـا يقـال: سمعت زيـداً يقُول كـذا. أي سمعتُ قـولَ زيـد.

فإن قيـل: مـا فـائدة قـوله: ﴿ رَبَّنَـا فَـاغْفِـرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وكَفِّـرْ عَنّـا سَيِّئاتِنَا ﴾ [١٩٣/٣] وتكفيـر السيّئات داخـلٌ في غفـران الـذنوب؟

قلنـا: الغُفـران مجـرّد فضـل، والتّكفيرُ محـوُ السَّيِّئـاتِ بالحَسنات.

فإن قيـل: مـا فائـدة قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [١٩٣/٣] مع أنَّهم لا ينفعهم تَوَفِّيهِمْ مع الأَبرار بل النّافعُ لهم كونُهم من الأَبْـرار سواءٌ توفّاهم مَعهم أَو قبلهم أَو بعـدهم؟

---

(٥٨) مريم. ٧١/١٩.

(٥٩) في كتب اللغة: خَزي خِزْياً وخزًى ومَخْزاة: وقع في بليّة وشرّ وشهرة فـذلّ وهـان.
- وخزي خِزياً: افتضح، وتحير.
- وخزي خَزَاية وخزًى (من فلان) استَحيًا.
- وأخزاه الله: فضحه، وأهـانه، وألزمه حجّة ذَلَّله بها، وجعله يستحي في تقصيره. وأخـزاه: أوقعه في الخـزي. (لخّصه في المتن).

قلنـا: معنـاه: وتوفنـا مخصُوصين بِصُحبتهم، معدُودين في جُملتهم، كما يقـال: أَعطـاني الأَميـر مع أَصحـاب الخِلَع والجَـوائز؛ أَي جعلني في جُملتهم؛ وإنْ تقـدّم إعطـاؤه عنهم أو تأخَّـر.

فـإن قيل: كـيف قـالُوا: ﴿وَآتِنَـا مَا وَعَدْتَنَـا عَـلَى رُسُـلِكَ﴾ [١٩٤/٣] أي عـلى لسان رُسلك؛ دعـوه بإنجـاز الوعـد مع علمهـم وقـولهـم أيـضاً: إنّـه لا يخـلف الميعـاد.

قلنـا: **الوعـدُ** من الله تَعـالى على ألسنة الـرُّسـل للمؤمنين عـامٌّ يحتمـل أن يـراد به الخُصـوص كما في أكثر عُمومـات القـرآن. فسـألوا الله تعـالى أن يجعلهم من الـدّاخلين في حُكم الـوعد.

الثّـاني: أنّهم سـأَلوا تعجيـلَ النَّصـر الـذي وُعِـدُوا؛ فإنه تعـالى وَعَدَهُـم النّصـر على أَعـدائهم غير مؤقّت بوقتٍ خـاصّ.

فإن قيـل: كيف يجـوز أن يغترّ الـرسول بنعم الـذين كفـروا حتى نُهي عن الاغترار بقوله: ﴿ لَا يَغُـرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّـذِيْنَ كَفَـرُوا فِي البِـلَادِ ﴾ [١٩٦/٣] أي تصـرفّهم فيها بالتّجـارات متنعِّمين؟

قلنـا: معنـاه لا يغرَّنّكم أيّها المؤمنـون رئيسُ القَوم ومُقَدَّمُهم يخاطب بشيء والمراد به أتباعُه وجَماعته.

الثاني: أنّه عليـه الصّـلاة والسلام كان غير مُغتر بحـالهم، فقيـل له ذلك تأكيـداً لِما كان عليه وتَثبيتـاً على الـدّوام عليه، كما قيل له: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيْراً لِلْكَـافِرِيْنَ ﴾(٦٠)، ﴿ وَلَا تَكُـوْنَنَّ مِنَ المُشْرِكِيْنَ ﴾(٦١)، ﴿ وَلَا تُـطِعِ المُكَذِّبِيْنَ ﴾(٦٢).

(٦٠) القصص: ٨٦/٢٨
(٦١) الأنعام: ١٤/٦.
(٦٢) القلم: ٨/٦٨.

فإن قيل: كيف ينهى عن التقلّب وهو ليَس ممّا يُنهى عنه؟

قلنا: معناه لا تغترّ بتقلّبهم فيكون تقلّبهم قد غرّك. وهذا من تنزيل السّبب منزلة المسبّب؛ لأنّ تقلبهم لو غرّه لاغترّ به. فَمنع السبب وهو غرور تقلُّبهم إيّاه ليمتنع المسبب وهو اغترارُه بتقلّبهم.

فإن قيل: كيفَ قال: ﴿ لا يَغُرَّنّكَ تَقَلُّبُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا فِي البِلَادِ ﴾ [١٩٦/٣] ولم يقل: لا يغرنك نعمُهم وأموالُهم؛ والذي يُحتمل أن يغر الرسول والمؤمنين النّعمُ والأموالُ لا التقلب في البلاد؟

قلنا: المُرَاد بتقلّبهم: تصرّفهم في التّجارات والتّنعُّم والتّلَذّذ بالأَموال. والفقيرُ إنما يتألم وينكسرُ قَلبه إذا رأى الغَنِيّ يتقلّبُ في النِّعمة ويتمتَّعُ بها. فلذلك ذكر التقلب.

قيل: معناه: لا يغرّنّك تقلّبهم في المَعاصي غير مأخوذين بذنوبهم.

فإن قيل: كيف قَال(٦٣): ﴿ أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَرِيْعُ الحِسَابِ ﴾ [١٩٩/٣]. وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [١٩٩/٣] موضع البِشارة بالثّواب؛ و«سُرعةُ الحِسَاب» إنّما تُذكر في موضع التهديد والعقاب؟

قلنا: مَعناه لا يَشْتَرُون بآياتِ الله ثمناً قليلاً خَوفاً من حسابِه فإنّه سريعُ الحِساب. فهو راجعٌ إلى ما قَبله.

(٦٣) المصنّف هنا في تفسير الآية ١٩٩ من سورة آل عمران: ﴿ وَإِنَّ مِن أهلِ الكتاب لمَنْ يُؤمنُ بالله وما أُنزلَ إليكم وَمَا أُنزل إليهم خاشِعين لِلَّهِ لا يَشْتَرُون بآياتِ اللَّهِ ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند رَبّهم إنَّ الله سريعُ الحساب ﴾.

سُورة النِّساءِ

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [٤/١] إذا كانت حَوّاء مخلوقةً من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضاً تكونُ نسبة حوّاء إلى آدم نسبة الولد[١] لأنّها متفرّعة منه؛ فتكون أُختاً لنا لا أُمّاً!

قلنا: بعض المفسّرين جعلوا (مِنْ) لبيان الجِنس لا للتّبعيض. فَمعناه: وخلَق من جِنسها زوجَها؛ كما في قَوله تعالى[٢]: ﴿لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

الثاني: وهو الّذي عليه الجُمهور: أنّها للتّبعيض؛ ولكنّ خَلْقَ حوّاء من آدم لم يكن بطريق التّوليد كخَلْقِ الأولاد من الآباء، فلا يلزمُ منه ثُبوت حكم البِنتيّة والأُختيّة فيها.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [٤/٢] واليتيمُ لا يُعْطى مالَه حتّى يبلغَ؛ اتّفاقاً؟

قلنا: المراد: إذا بلَغُوا؛ وإنّما سُمُّوا يَتامَى لِقُرب عهدهم بالبُلوغ باعتبار ما كان؛ كما تُسَمَّى النّاقة عُشَراء[٣] بعد الوَضع. وقد يُسَمَّى البالغُ يتيماً باعتبار ما كان كما يُسَمَّى الحَيُّ مَيتاً، والعنب خمراً باعتبار ما يكون؛ كما قال الله تعالى[٤]: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُوْنَ﴾ وقال[٥]: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾.

---

(١) أي نسبة الولد إلى الوالد.

(٢) التوبة: ٩/١٢٨

(٣) في (ب): كما يقال. والعُشَراء: الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر، فإذا وضعت لتمام سنة فهي عُشَراء أيضاً.

(٤) الزمَر: ٣٩/٣٠

(٥) يوسف: ١٢/٣٦

ومنه قولُهم للنَّبِيِّ عليه السَّلام بعدما نبّأه الله تعالى: يتيم أبي طالب(٦).

فإن قيل: أكل مال اليتيم حرام وحده، ومع أموال الأوصياء، فَلِمَ وَرَد النّهي مخصوصاً عن أكله معها بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلوا أَمْوَالَهُم إِلىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [٤/٢] أي: مَعها؟

قلنا: لأنَّ أكل مالِ اليتيم مع الاستغناء عنه أقبحُ؛ فلذلك خُصّ بالنَّهي؛ ولأنهم كانوا يأكلُونه مع الاستغناء عنه. فجاءَ النَّهيُ على ما وقع منهم.

فإن قيل: لما قال: ﴿مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ﴾ [٤/٧] دَخل فيه القَليلُ والكثير، فَمَا فائدةُ قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَو كَثُرَ﴾ [٤/٧]؟

قلنا: إنَّما قال ذلك على جهة التّأكيد والإعلام أنَّ كلّ تركة يجبُ قسمتها لئلاّ يُتَهاون بالقليل من التَّركات ويُحتقر فلا يُقْسَم وينفرد به بعضُ الورثة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ مِمّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [٤/١١] مع أنه لو كان الولد بنتاً فللأب الثُّلث؟

---

(٦) في اللسان (ي ت م): أصل اليُتم: الانفراد ـ وقيل الغفلة ـ والأُنثى يتيمة؛ وإذا بلغا زال عنهما اسمُ اليتم حقيقة. وقد يُطلق عليهما مجازاً بعد البلوغ؛ كما كانوا يسمون النبي ﷺ وهو كبير: يتيم أبي طالب؛ لأنه رَبّاه بعد موت أبيه.

(٧) في تفسير القرطبي (٥: ٧١) في بيان هذه المسألة من المواريث، عند قوله تعالى: ﴿لكلّ واحد منهما السُّدس﴾: فرضَ تعالى لكل واحد من الأبوين مع الولد السُّدُس، وأبهم الولد فكان الذكر والأُنثى فيه سواء. فإن مات رجلٌ وترك ابناً وأبوين فللأبويه لكل واحد منهما السُّدس، وما بقي فللابن. فإن ترك ابنةً وأبوين فللابنةالنّصف، وللأبوين السدسان، وما بقي فلأقرب عصبةً وهو الأب، لقوله ﷺ: «ما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر» فاجتمع للأب الاستحقاق بجهتين: التعصيب والفَرض.

قلنا: الآية وردت لبيان الفَرض دونَ التَّعصِيب؛ وليسَ للأب مع البنت بالفَرض إلّا السُّدُس.

فإن قيل: كيفَ قطعَ على العاصي بالخُلود في النّار بقوله: ﴿وَمَن يَّعْصِ الله ورَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُوْدَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيْهَا﴾ [٤/ ١٤].

قلنا: أراد به: مَن يعص الله بِرَدّ أحكامِه وجُحودها؛ وذلك كُفر؛ والكافرُ يستحقّ الخلودَ في النَّار.

فإن قيل: كيف قال: ﴿حَتَّى يَتَوَفّاهُنَّ المَوْتُ﴾ [٤/ ١٥] والتَّوفّي والموت بمعنًى واحد، فصار كأنّه قال: حتى يُميتهن الموت؟

قلنا: حتى يتوفاهُنّ ملائكةُ الموت.

الثّاني معناه: حتّى يأخذهن الموتُ ويستوفي أزواجهن.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إنَّما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ [٤/ ١٧] ولم يقل إنّما التوبة على العَبد مع أن التّوبة واجبةٌ على العبد؟

قلنا: معناه إنّما قَبُول التّوبة على الله؛ بحذف المُضاف.

الثّاني: أن معنى التّوبة من الله رجُوعه على العبدِ بالمَغفرة والرّحمة؛ لأنّ التوبة في اللغة الرُّجوع.

فإن قيل: كيف قال ﴿بجهالة﴾ [٤/ ١٧] ولو عمل بغير جهَالة ثم تاب قُبلت توبته؟

قلنا: **معناه**: بجهالةٍ بقدر قُبح المعصية وسُوء عاقبتها لا بكونها معصيةً وذنباً. وكلُّ عاصٍ جاهل بذلك حالَ مباشرةِ المَعصية.

الثاني: معناه أنه مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى وتَزيين الشَّيطان.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيْبٍ﴾ [١٧/٤] مع أنهم لو تابوا بعد الذَّنب من بعيد قُبلت توبتهم؟

قلنا: معناه قبل مُعَاينة سلطان الموت. كذا قاله ابن عباس رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً﴾ [٢٠/٤] الآية. مع أنّ حرمةَ الأخذ ثابتةٌ وإن لم يكن قد أعطاها المهر بل كان في ذمّته أو في يده؟

قلنا: المُرَادُ بالإتيانِ الضَّمانُ والالتزامُ؛ كما في قوله تَعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ﴾[٨] أي: ما ضمنتم والتزمتم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً﴾ [٢٠/٤] وأَخْذُ مهر المرأة ظُلم وليس ببهتانٍ لأنّ البُهتان الكَذب؟

قلنا: قال ابنُ عَبّاس وابن قُتيبة: المُرَاد بالبُهتان الظُّلم. وقال الزَّجّاج: المُرَاد به البَاطل[٩]. والمشهورُ في كُتب اللُّغة أنّ البُهتان أَنْ يقول الإنسان على غيره ما لم يفعله. قالُوا فالمراد به أنّ الرجل ربّما رمى امرأته بتُهمة لِيَتَوَصَّل بذلك إلى أن يأخذَ منها مَهرها ويُفارقها. وقيل: المراد به إنكاره أنّ لها مَهراً في ذِمّته.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلاّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [٢٢/٤] و«لا تنكحوا» نَهيٌ عن الفِعْل في المُستقبل و«إلاّ ما قد سلف» ماضٍ؛ فكيف يصحُّ استِثناء الماضي من المستقبل[١٠]؟

(٨) البقرة: ٢٣٣/٢

(٩) عبارته، كما نقلها في اللسان: الباطل الذي يُتَحَيَّرُ من بُطلانه.

(١٠) المصنف هنا في سياق تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فاحِشَةً ومَقْتاً كَبِيْراً﴾.

قلنا: قيل «إلا» هنا بمعنى (بعد) كما في قوله تعالى(١١): ﴿لاَ يَذُوْقُوْنَ فِيهـا المَوْتَ إِلاّ المَوْتَةَ الأُوْلى﴾ وقيل هو استثناء من محذوف تقديره: فإنكم تعذبون به إلا ما قد سلف. وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره: إنه كان فاحشةً إلا ما قد سلف.

فإن قيل كيف قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [٤/٢٢] بلفظ الماضي مع أن نكاح منكوحةِ الأبِ فاحشةٌ في الحال، وفي الاستقبال إلى يوم القيامة؟

قلنا: «كان» تارةً تُستعمل للماضي المُنقطع كقولك: كان زيد غنياً، وكان الخزفُ طيناً. وتارةً تُستعمل للماضي المستمرّ المتّصل الحال كقول أبي جندب الهُذَلي(١٢):

وكُنت إذا جاري دَعا لِمَضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حَتّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئزري(١٣)

أي: وإنّي؛ لأنّه إنما يتمدّح بصفةٍ ثابتةٍ له في الحال لا بصفةٍ زائلة ذاهبة. والمَضُوفة، بالفاء: الأمر الذي يُشْفَق منه؛ والقافُ تصحيف. ومنه قوله تعالى(١٤): ﴿وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْماً﴾ و(١٥) ﴿وكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْراً﴾ وما أشبه ذلك. وما نحنُ فيه من هٰذا القبيل. وسيأتي تمام الكلام في «كان» بعد هذا إن شاء الله تعالى في قوله(١٦): ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ كِتَاباً مَوْقُوْتاً﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَرَبائِبُكُمُ اللاَّتِيْ فِيْ حُجُورِكُمْ﴾ [٤/٢٣] قَيَّدَ

---

(١١) الدّخان: ٤٤/٥٦
(١٢) في (ب) كقول أبي الجندب الهذلي.
(١٣) البيت في ديوان الهذليين (٣: ٩٢).
(١٤) الأحزاب: ٣٣/٤٠
(١٥) الفتح: ٤٨/٢١
(١٦) النساء: ٤/١٠٣

التحـريم بكون الرَّبيبة[١٧] في حجـر زَوج أُمّهـا. والحُـرمة ثابتـةٌ مُطلقاً وإنْ لـم يكنّ في حِجـره؟

قـلنا: خـرج ذلك مخـرج العادة والغالب لا مخـرج القيـد والشرط. ولهـذا اكتُفي في موضع الإحـلال بنفي الدخـول، فتأمَّـل.

فـإن قيل: لمـا قال: ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [٤/٢٣] ثم قـال في آخـر الآيـة[١٨]: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [٤/٢٤] عُلِمَ من مجـموع ذٰلك أَنَّ الربيبة لا تحـرم إذا لم يدخـل بأُمّهـا فمـا فائِدَةُ قَوله: ﴿فَإِن لَمْ تَكُوْنُوا دَخَلْتُمْ بِهِـنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [٤/٢٣]؟

قـلنا: فـائدته أن لا يُتَوَهَّـم أَنّ قَيـد الدّخـول خَرج مخـرج العادة والغالب لا مخـرج الشَّرط كما في قَيد الحجـر.

فـإن قيل: كيف قـال في نكاح الإمـاء: ﴿فَانْكِحُوْهُنّ بِإِذْنِ أَهْلِهِـنَّ وَآتُوْهُنَّ أُجُـوْرَهُنَّ﴾ [٤/٢٥] والمهـرُ مِلك المولى وإنّـما يجـبُ تسليمُه إلى المولى لا إلى الأَمَـة.

قـلنا: لما كانت الأمـة ومـا في يـدها ملك المولى كـان أَداؤه إليهـا كأدائه إلى المولى.

الثّاني: أَنّ معناه: وآتُوهـنّ. أي آتوا مَواليهـنّ أُجـورهن. بـطريق حذفِ المضـاف.

فـإن قيل: كـيف قـالَ: ﴿ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ مِنْكُمْ﴾ [٤/٢٥] وجوازُ نكـاح الأَمـة ثابتٌ من غير خـوفِ العَنـت عند بعض العلمـاء؟

---

(١٧) الربيبـة: بنت امرأة الرجـل من غيره؛ سـمِّيت بـذلك لأنـه يربّيهـا في حِجـره، فهـي مربوبة. (وزن فعيلة بمعنى مفعولة). وفي تفسير القرطبي: اتفق الفقهـاء على أن الربيبة تحـرم على زوج أمّهـا إذا دخـل بالأم، وإن لـم تـكن الربيبة في حجـره.

(١٨) في الآيـة التالية.

قلنا: فيه إضمار تقديره: ذلك أَصْوَبُ وأَصلحُ لمن خشي العنَت منكم. فيكون شرطاً لما هو الأرشد والأصلح؛ كما في قوله تعالى[١٩]: ﴿وَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [٤/٢٦] والإرادة إنّما تُقرن بـ: أن؛ يُقال: أُريد أن تفعل[٢٠]. وقال الله تعالى: ﴿يُرِيْدُ الله أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [٤/٢٨]؟

قلنا: قد ورَد في الكتاب العَزيز اللّام بمعنى (أن) كثيراً. قال الله تعالى[٢١]: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وقال[٢٢]: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ وقال[٢٣]: ﴿يُرِيْدُونَ لِيُطْفِئُوا نُوْرَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وقال في موضع آخر[٢٤]: ﴿يُرِيْدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾؛ كذلك هذا.

فإن قيل: كيف خصّ التّجارة بالذكر في قوله: ﴿إِلّا أَن تَكُوْنَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾ [٤/٢٩] مع أن الهبة والصَّدقة والوصِيّة والضّيافة وغيرها تقتضي[٢٥] الحِلَّ أيضاً كالتجارة؟

قلنا: إنّما خَصّها بالذِّكر لأنَّ مُعظم تَصَرُّف الخلقِ في الأموال إنّما هو بالتّجارة؛ أو لأنّ أسباب الرِّزق أكثرها متعلقة بها.

فإن قيل: كيف قال: قولُه تعالىٰ: ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾

---

(١٩) النور: ٢٤/٣٣

(٢٠) في (ب): والإرادة تقرن بـ (أن). وفي الحاشية تعليق من الناسخ على سبيل الإشارة إلى مضمون العبارة: «لِمَ لم يقل يريد الله أن يبيّن».

(٢١) الشورى: ٤٢/١٥

(٢٢) الأنعام: ٦/٧١

(٢٣) الصف: ٦١/٨

(٢٤) التوبة: ٩/٣٢

(٢٥) سقطت كلمة «تقتضي» من أ؛ وهي ضرورية.

[٤٢/٤] قالوا: معناه أَنَّهم يتمنَّون يوم القيامة أن يُجعلوا تراباً كما جاءَ في آخر سورة النبأ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾. وظاهرُ اللَّفظ يقضي أنَّهم يتمنّون أن تجعل الأرض مثلهم ناساً كما تقول: سَوّيتُ زيداً بعمرو، ومعناه: جعلتُ زيداً وهو المُسَوَّى مثل عمرو وهو المُسَوَّى به.

قلنا: «سَوَّيْتُ هٰذا بِهٰذا» له مَعنيان:

أحدهما: إجراء حُكم الثَّاني على الأوّل؛ كقولك: سوّيت زيداً بعمرو. وكما تقول: ساوَيْت.

والثاني: أن يكون المسوّى مفعولاً والمُسَوّى به آلةً كقولك: سَوَّيْتُ القَلم بالسّكين، و: الثّوب بالمِقْرَاض، بمعنى أَصلحته به. فقولُه تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾[٤٢/٤] يحتمل الوجهين: أن يكونَ بمعنى ساويت ويكون من المقلوب أي: لو يسوّون بالأرض بِجعلهم تُراباً، كَقَوْلِهِ تعالى(٢٦): ﴿لَتَنُوْءُ بِالعُصْبَةِ﴾ وقوله(٢٧): ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ في قَوْلِ من لم يجعل الباء زائدة، وقولهم: أَدخلت الخاتم في إصبعي ونحوه. وأن يكون بمعنى الآلة معناه: ودّوا لو تُمَهَّدُ بهم الأرض وتُوَطَّأ بأَنْ يُجعلوا تراباً ويُبَثُّوا في وِهادها وحضيضها لِتتساوى بقاعُها وآكامها؛ وقوله تعالى(٢٨): ﴿لاَ تَرَى فِيْهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ أي: لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً، وإن كانَ يدلّ على أن الأرض يومَ القيامة مُتَساوية السُّطوح، فجعْلها متساوية السُّطوح إن كان قبل البعث فإذا بعث الموتى من قُبورهم خلت منهم قبورهم وحُفَرهم فحصَل في الأرض تفاوتٌ وإن كان بعدَ البعث فيجوزُ أن يكون هٰذا التَّمنّي سابقاً على جَعْلِهَا متساوية السُّطوح.

---

(٢٦) القصص: ٧٦/٢٨
(٢٧) المائدة: ٦/٥
(٢٨) طه: ١٠٧/٢٠

فإن قيل: قولنا هٰذا خيرٌ من ذٰلك يقتضي أن يكون في كل واحد منهما خير حتى يصح[٢٩] تفضيل أحدهما على الآخر لأنّ «خيراً» في الأصل: أفعل التفضيل، فكيف قال: ﴿لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [٤/٤٦] بعدما سبق من قولهم في أوّل الآية؟

قلنا: المرادُ بالخير هنا الخَيْر الذي هو ضِدُّ الشر لا الذي هو أَفْعَلُ التّفضيل كما تقولُ: في فلانٍ خَير.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [٤/٤٧] والمفعولُ مخلوق وأمر الله قولُه، وقولُه غير مخلوق؟

قُلنا: ليسَ المراد بهذا الأَمر ما هو ضدّ النّهي بل المُراد به ما يُحدثه من الحَوادث فإن الحادثةَ تسمّى أيضاً أمراً، ومنه قولُه تعالى[٣٠]: ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾، وقوله[٣١]: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [٤/٤٨] مع أَنّ شرك السّاهي والمُكْرَهِ والتّائب مغفور؟

قلنا: المراد به شرك غير هؤلاء المخصُوصين من عموم الآية بأدلّةٍ من خارج؛ أو نقول: قيد المشيئة متعلّقٌ بالفعلين المنفيّ والمُثبت كأنّه قال: إن الله لا يغفر الشِّرك لمن يشاء ويغفر ما دُونه لمن يشاء.

فإن قيل: هٰذه الآية تدلّ على أَنّ غيرَ الشِّرك من الذُّنوب لا يقطع بانتفاء مغفرته بل تُرجى مغفرته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُم وَلاَ لِيَهْدِيَهُم طَرِيقاً. إِلاَّ طَرِيْقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيْهَا أَبداً﴾ [٤/١٦٨، ١٦٩] تدل على القَطع بانتفاءِ المغفرة في الكفر والظُّلم

(٢٩) في (ب): حتّى يصلح.
(٣٠) الطلاق ٦٥/١
(٣١) يونس ١٠/٢٤

وهـما غير الشِّرك والظُّلم، فـكيفَ الجمعُ بينهما؟

قـلنا: المُـراد بالظُّلم هُنـا الشّرك؛ قـاله مُقَاتِل(٣٢). والشِّرك يُسَمَّـىٰ ظلماً قـال الله تعـالى(٣٣): ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ﴾ فـكأنه قـال: إنّ الّذين أشركوا.

الثـاني: أَنّ قـوله تعـالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ﴾ [٤/١١٦] لـيس قطعاً بالمغفـرة لغير المُشرك بـل هـو للمغفرة له بالمشيئة. ثـم بَيّن بالآيـة الأُخـرى أنّ الكافـر ليس داخـلاً في من يـشاء المغفرة له فيتعيّن دخـولُه فيمن لا يغفر له لأَنّـه لا واسـطة بينهـما.

الثـالث: أنّـه عامٌ خُـصّ بالآيـة الثّـانية كمـا خـص قـوله تعـالى(٣٤): ﴿إِنّ الله يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيْعَاً﴾ بالآيـة الأولى، ويؤيّـد هـذا إجـماع الأُمّـة على أنّ الكافـر والمُشـرك سواءٌ في عـدم المَغفـرة والتّخـليد في النّـار. وقـولُه تعـالى(٣٥): ﴿إِنّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَـابِ والمُشْرِكِـيْنَ فِي نَـارِ جَهَنَّـمَ خَالِدِينَ فيهـا﴾.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ يُزَكُّوْنَ أَنْفُسَهُـمْ بَلِ الله يُزَكّـي مَن يَّـشَاءُ﴾ [٤/٤٩] ذَمَّهـم الله على ذٰلك. وقـال أيضاً(٣٦): ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اتَّـقَى﴾ وقد زكّـى النبـي عليه الصلاة والسلام نفسَهُ فقـال(٣٧): والله إنّـي لأمـينٌ في السَّمـاءِ وأَمينٌ في الأَرض. ويُوسـف عَليه الصّلاة والسَّلام(٣٨): ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّيْ حَفِيْظٌ عَلِيْمٌ﴾؟.

(٣٢) مقاتـل بن سليمان: أبو الحسن، من أعـلام المفسّرين (ت ١٥٠ هـ).
(٣٣) سورة لقـمان: ١٣/٣١
(٣٤) الزُّمـر: ٥٣/٣٩
(٣٥) البَيّنـة: ٦/٩٨
(٣٦) النجـم: ٣٢/٥٣
(٣٧) رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ.
وللحـديث ذِكـر في أسـباب النُّزول (يـراجع تفسير القُرطبي ١١: ٢٦٢).
(٣٨) يوسـف: ٥٥/١٢

قلنا: إنما قال ذلك حين قال المُنافقون: اعْدِلْ في القسمة؛ تكذيباً لهم حيثُ وَصَفُوهُ بخلاف ما كان عليه من العَدل والأمانة.

وأمّا يوسف عليه الصلاة والسلام فإنّما قال ذلك ليتوسل به إلى ما هو وظيفة الأنبياء: وهو أمانة العَدلِ، وبسطُ الحق، وإمضاء أحكام الله تعالى؛ ولأنّه علم أنّه لا أَحَد في ذلك الوقت أقومُ منه بذلك العَمل؛ فكان متعيّناً عليه. فلذلك طلبَه وأثنىٰ على نفسه.

ومع ذلك كُلّه فإنّه رُوي عن النبيّ عليه الصّلاةُ والسّلام أنّه قال(٣٩): رحم الله أخي يُوسف لو لم يقل اجعلني على خَزائِنِ الأرض لاستُعمل من ساعته ولكنه أخّر ذلك سَنة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤمنونَ بِالجِبْتِ والطَّاغُوتِ﴾ [٥١/٤] إلى أن قال: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ [٥٢/٤] حصر لعنته فيهم لأنّ هذا الكلام للحصر، وليست لعنة الله مُنحصرة فيهم بل هي شاملةٌ لجميع الكُفّار.

قلنا: قوله ﴿أُولٰئِكَ﴾ [٥٢/٤] إشارة إلى القائلين الّذين كفروا: أهؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. وهذا القولُ موجودٌ من جميع الكفار. فكانت اللّعنة شاملةً للجميع.

فإن قيل: كيف قال: ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾ [٥٦/٤]؟ أخبر أنه يُعَذِّبُ جلوداً لم تَعْصِ مكانَ الجُلودِ العاصِيَة. وتعذيب البريء ظلم!

---

(٣٩) قال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه آخر ذلك عنه سنة.
وينظر تفسير القرطبي ٩: ٢١٣

قلنا: الجلودُ المجدّدة وإن عُذّبت فالألم بتعذيبها إنّما يحصلُ للقلوبِ وهي غير مجدّدة بل هي العاصيةُ باعتقادِ الشِّرك ونحوه.

الثاني: أنّ المُرَاد بتبديلها إعادةُ النَّضِيج غير نَضيج. والجلودُ هي الجلودُ بعينها. وإنّما قال «غيرها» باعتبار صفةِ النُّضج(٤٠) وعدمه كما قال الله تعالى(٤١): ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيرَ الأرضِ والسّموات﴾، وأرادَ تبدّل الصّفات لا تبدُّلَ الذّات. وكما قال الشّاعر(٤٢):

ومـا النّـاسُ بالنّـاسِ الـذينَ عَهدتُهم   وما الدَّار بالدّارِ التي كنتُ أَعْهَدُ!

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَنُدْخِلُهم ظِلاًّ ظَلِيْلاً﴾ [٥٧/٤] وليس في الجنّة شمس ليكون فيها حَرٌّ يُحتاج بسببِهِ إلى ظِلٍّ ظليل أو غير ظليل!

قلنا: هو مجازٌ من المُستقر المستلذ المستطاب؛ لأنّ بلاد الحجاز شديدة الحر فأطيبُ ما عندهم موضع الظِّل. فخاطبهم بما يَعقلون ويَفهمون؛ كما قال(٤٣): ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيْهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ لكنْ لمّا كان في عُرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضراً مُهَيّأً في طَرفي النّهار عَبّر عن حُضوره وتهيئته بذلك.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَن يُّطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحَيْنَ﴾ [٦٩/٤] وهذا مدحٌ لمن يُطيع الله، والرسول. وعادَةُ العَرَب في صفاتِ المَدح الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا عكسُه؛ لأنه نزولٌ من الوصف الأعلى إلى الأدنى!

(٤٠) في المخطوطين: النضيج؛ وأثبتّ هذه القراءة الموجّهة.
(٤١) إبراهيم: ٤٨/١٤
(٤٢) رواية البيت في تفسير القرطبي (٥: ٢٥٤) باختلاف كلمة القافية:
فما النّاسُ بالنّاسِ الّذين عَهِدتهم   ولا الدَّارُ بالدّار التي كنتُ أعرفُ!
(٤٣) مريم: ٦٢/١٩.

قلنا: هذا ليسَ من الباب الذي ذكرتُموه بل هٰذا كلامٌ: المقصودُ منه الإخبار عن كون المطيع للهِ ورسُوله يكونُ يَومَ القِيامة مع الأَشرافِ والخواصّ. ثم كأن سائلاً سأل: من الأَشراف والخواصّ؟ فَفُصِّلوا له زيادةً في الفائدة بعد تَمام المعنى المقصود بالذِّكر بقوله: ﴿فأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم﴾ [٤/٦٩] وبدأ في تفصيلهم بذكر الأَشراف فالأَشراف، والأَخصّ فالأَخَصّ إذ هو الغالب في تقدير الأَشراف والخواص كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيْعُوا الله وأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [٤/٥٩] وقوله(٤٤): ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ﴾ الآية.

والدَّليلُ على أنّ المراد من الآية الإخبار جُملةً لا تفصيلاً: أنّه لما عَلَّم عبادهُ أَن يسألوه هذا المعنى أَرشدهم إلى طلبه مُجملاً بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيْمَ صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانَ كَانَ ضَعِيْفَاً﴾ [٤/٧٦] وقال في حَق النِّساء(٤٦): ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيْمٌ﴾ ومعلومٌ أن كيدَ الشَّيطان أَعظم من كيد النسوان؟

قلنا: المراد أَنّ كيد الشيطان ضعيفٌ في جنب نصرة الله وحِفظه لأَوليائه والمُخلصين من عباده، كما قال(٤٧): ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وقال حكايةً عن إبليس(٤٨): ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾. والمراد بالآية الأُخرىٰ أَنّ كيدَ النسوان عظيمٌ بالنسبة إلى الرِّجال.

---

(٤٤) آل عمران: ١٨/٣
(٤٥) الفاتحة: ٦/١، ٧
(٤٦) يوسف: ٢٨/١٢
(٤٧) سورة الحجر ٤٢/١٥
(٤٨) سُورة صٓ: ٨٣/٣٨

الثاني: أنّ القائل: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيْمٌ﴾ هو عزيزُ مِصر لا الله تَعالى فلا تَناقُضَ ولا مُعَارَضة(٤٩).

فإن قيل: كيفَ عاب على المُشركين والمُنافقين قولهم(٥٠): ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذا مِن عِنْدِ الله وإنْ تُصِبْهُم سَيِّئةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [٤/٧٨] وَردَّ عليهم ذلك بقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ الله﴾ [٤/٧٨] ثم قال بعد ذلك: ﴿مَا أَصابَكَ مِن حَسَنةٍ فَمِنَ الله وَما أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [٤/٧٩] أخبره بعينِ قولهم المردود عَليهم.

قلنا: قيل إن الثَّاني حكايةُ قَولهم أيضاً. وفيه إضمار تقديره: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، فيقولون: ما أصابك... الآية.

وقيل معناه(٥١): ما أصابك أيّها الإنسان من حَسنةٍ أي رخاء ونعمة فمن فضل الله، وما أصابك من سيّئة أي قحطٍ وشدّةٍ فَبِشُؤْمِ فِعلك ومَعصيتك لا بشؤم محمّد كما زعم المُشركون. ويؤيّده قوله تعالى(٥٢): ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُو عن كَثِيْرٍ﴾.

فإن قيل: كيف قال إنّ الشرّ والمعصية بإرادة الله تَعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [٤/٧٩]؟

---

(٤٩) ووجه ثالث ذكره القرطبي في التفسير، وفيه: قال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إنه كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كانَ ضَعِيْفَاً﴾ [النساء: ٤/٧٦] وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيْمٌ﴾.
- وفي تفسير «عظيم» في آية سورة يوسف، قال في الجامع لأحكام القُرآن: وإنما قال: (عظيم) لِعظَم فتنتهن واحتيالهنّ في التخلّص من ورطتهنّ.

(٥٠) يعني فيما وَرَدَ في كتاب الله تعالى عن أقوالهم؛ وإشارة المؤلف إلى الآيتين ٧٨ و ٧٩ من سورة النساء.

(٥١) ورد هذا التفسير، والذي قبله، في تفسير القرطبي ٥: ٢٨٥. وفيه تفسيرات أُخر، وآراء نقلها.

(٥٢) الشورى: ٤٢/٣٠

قلنا: لَيس المراد بالحسَنة والسيّئة الطّاعة والمَعصية بل القَحط والرّخاء، والنّصر والهَزيمة على ما اخْتَلف فيه العُلَماء. ألا ترى أنّه قال(٥٣): ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ [٤/ ٧٩] ولم يقل: ما عملتَ من حسنةٍ، وما عملتَ من سيّئة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيْهِ اخْتِلَافاً كَثِيْراً﴾ [٤/ ٨٢] السؤال فيه من وجهين:

أحدهما: أنه يدلُّ من حيث المفهومُ على أنّ في القُرآن اختلافاً قليلاً؛ وإلاّ لَما كان للتّقييد بوصف الكثرة فائدة.

الثاني: أنّه إنّما يَدُلُّ عدم الاختلاف الكثير في القُرآن على أنّه من عند الله أَنَّ كُلَّ كتاب من عند غير الله فيه اختلافٌ كثير، وليس الواقع كذلك؛ لأن المراد بالاختلاف إمّا الكذب أو التّناقض أو التّفاوت بين بعضه وبعضه في الجزالة والبَلاغة والحكمة وكثرة الفائدة.

قلنا: الجوابُ عن السؤال الأوّل أنّ التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن القليل، وليس فيه اختلافٌ قليل ولا كثير؛ فكيف يكونُ من عند غير الله؟ فهذا هو المقصود من التّقييد بوصف الكثرة لا أنّ القُرآن مُشتمل على اختلافٍ قليل.

وعن السُّؤال الثّاني إنّ كل كتاب في فَنٍّ من العلوم إنْ كان من عند غير الله يُوجد فيه اختلافٌ ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة. يُعرف ذلك

(٥٣) في الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٨٥: الخطاب للنبي ﷺ والمُراد أُمّته أي ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتّساع رزق فمن تفضل الله عليكم، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم؛ أي من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم، قاله السدّي والحسن البصري وغيرهما. ومثله في الخطاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ إذا طَلَّقتُمُ النِّساءَ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١].

بالاستقراء. والقُرآن جامعٌ لفنونٍ من العلوم شَتّى. فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه بالنّسبة إلى كل فنٍّ اختلافاً مّا. فيصيرُ مجموع الاختلاف اختلافاً كثِيراً.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيْلًا﴾ [٤/٨٣] استثنىٰ القليل على تَقدير انتِفاء الفضل والرّحمة مع أنّه لولا فضلُه بالهداية والعِصمة ورحمته لاتّبع الكلّ الشّيطانَ من غير استثناء؟

قلنا: الاستثناء راجعٌ إلى ما تقدّم تقديره: أَذاعُوا به إلا قليلاً(٥٤).

وقيل: لَعَلِمَهُ الّذين يستنبطونه منهم إلّا قليلاً.

وقيل معناه: ولولا فضلُ الله عليكم بإرسال الرّسول لاتّبعتم الشيطان في الكفر والضلال إلّا قليلاً منكم كانوا يهتدون بِعقولهم إلى مغفرة الله تعالى وتوحيده، كما فعل قسّ بنُ ساعِدَة(٥٥) ونحوه قبل بعث النبي ﷺ.

فإن قيل: على الجواب الأخير: إذا كان المراد من لوازم نفي الفَضل والرحمة ـ بالطريق الخاص وهو الرسول ـ اتّباع الشيطان؛ ونفي

---

(٥٤) هذا متعلق بتفسير الآية ٨٣ من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوْهُ إِلى الرَّسُولِ وإِلى أُوْلِي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلَ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إلَّا قَلِيلًا﴾.
وفي قوله تعالى: ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ ثلاثة أقوال من التفسير (القرطبي ٥: ٢٩٢):
ـ المعنى: أذاعوا به إلا قليلاً منهم لم يذع ولم يُفْشِ.
ـ والمعنى: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا منهم.
وقال الكلبي: استحسنتُ الاستثناء من الإذاعة.
وتفسير ثالث لا يأخذ بالمجاز كما في السّابقين: والمعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته بأن بعث فيكم رسولاً أقام فيكم الحجة لكفرتم وأشركتم إلا قليلاً منكم فإنه كان يوحّد.
فهذا تفصيل ما أجمله المؤلف رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

(٥٥) قسّ بن ساعدة الإيادي: أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، كان أسقف نجران، أدركه النبي ﷺ قبل الإسلام، ورآه في عكاظ (ت. نحو ٢٣ ق. هـ).

الفضل والرحمة بالطريق الخاص معدومٌ في حق الرسول لأنه لَمْ يُرْسَلْ إليه رسول، ومع هٰذا لم يتبع الشيطان.

قلنا: لا نسلم أنّه لم يرسل إليه رسول بل أرسل إليه الملك وإنه رسول.

الثّاني: أنّ التّقييد في الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون في حَقّ الأُمة. أما في حق المرسل(*) ومَنْ آمن بغير رسولٍ فيكون اللّفظ باقياً على ظاهره.

فإن قيل: هٰذه الآية تقتضي وجود فضله ورحمته المانع من اتّباع أكثر الناس الشَّيطان مع أَنّ الواقع خلافه فإنّ أكثر الناس كَفرة؛ يؤيّده قولهُ عليه الصلاة والسَّلام[٥٦]: «الإسلام في الكُفر كالشّعرة البَيضاء في الثَّور الأَسود».

قلنا: الخطاب في هذه الآية للمؤمنين لا لِكُلّ الناس.

فإن قيل: إن كان الخطاب خاصّاً للمؤمنين فما معنى الاستثناء؟ فإنه إن كان المراد به اتّباعه فيما يَدْعُو إليه ويُوَسوس من المَعاصي فأكثر المؤمنين متّبعون له في ذلك ولو في العُمر مرّةً واحدة في بعض الكبائر. وإن كان المُراد به اتّباعه في دعائه إلى الكُفر فأَحَدٌ من المؤمنين لم يتبعه في الكُفر.

قلنا: معناه: ولولا فضل الله عليكم أيُّها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرَّسول لاتّبعتم الشّيطان في الكُفر وعبادة الأَصنام وغيْر ذلك إلّا قليلًا منكم كقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل[٥٧] ونحْوهما، فإنّهم لولا الفَضْلُ والرَّحمة

(*) في (ب) الرسول.

(٥٦) مسند الإمام أحمد (١ : ٣٨٦) وفيه «ما أنتم في الشّرك إلّا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود..».

(٥٧) ورقة بن نوفل القُرَشيّ: حكيم جاهليّ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وتنصّر، وأدرك أوائل =

بالرَّسُول لاتّبعوا الشَّيطان، لفضلٍ ورحمةٍ خصَّهم الله تَعالى بها، غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونُور البصيرة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ [٤/٨٧] مع أنَّه لا تَفاوت بين صدق وصدق في كونه صِدقاً كما في القول والعلم، لا يقال هذا القول أَقْوَلُ، ولا هذا العلم أَعْلَم، ولا هذا الصدق أَصدق؛ لأن الصدق عبارة عن الإخبار المُطَابِق للواقع، ومتَى ثبت أنَّه مطابق للواقع لا يحتمل الزّيادة والنُّقصان.

قلنا: (أصدق) هُنا صفةٌ للقائل لا صفةٌ للقول، والقائلان يَتفاوتان في الصِّدق في نفس الأمر وإن تساوياً في قضيّة واحدة أَخْبَرا بها وكان كلّ واحد منهما صادقاً فيها. وحاصلُه أَنَّ هٰذا الاستفهام معناه النَّفي كما في قوله تعالى(٥٨): ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ أي لاأَحَدَ يغفرها إلا الله فبمعناه هنا لا أَحد أَصدق في حديثه من الله فيكون ترجيحاً للمحدّث على المحدّث في الصِّدق لا ترجيحاً لأحد الصِّدقين على الآخرَ. ولا شكَّ أَنه لا أحد أصدق في حديثه من الله لأنّ غيره يجوزُ عليه غيرُ الصدق عَقلاً ويقعُ منه أيضاً، ولو نادراً. والله تَعالى مُنَزَّهٌ عن الأمرين جميعاً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيْهَا﴾ [٤/٩١] أَركسَهُ: أي رَدَّه. فيصيرُ معناه: كلّما رُدُّوا إلى الفتنة رُدُّوا فيها وهو تكرار.

قلنا: جَوابُه أَنّ الفاعل مختلفٌ فانتفى التّكرارُ وصارَ المعنَى: كلّما دَعاهم قَومُهم إلى الشِّرك رَدَّهم الله إليه وقَلبهم بِشُؤم نِفاقهم. فالردّ الأَوّل بمعنى الدُّعاء، والرّكس بمعنى الردّ والنكس.

= عصر النبوّة، ولم يدرك الدَّعوة، سُئِل عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: «يُبعَث يوم القيامة أمّة وَحده» (ت. نحو ١٢ ق. هـ).

(٥٨) آل عمران: ٣/١٣٥

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً﴾ [٤/٩٢] مع أنّه ليس له أن يَقتله خَطأ؟

قلنا: بمعنى (ولا)[٥٩] كما في قَوله تعالى[٦٠]: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وقوله تعالى[٦١]: ﴿لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُم حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْهُم﴾.

الثاني: معناه أن ليس له أن يقتله مع تيقّن إيمانه بل له أن يقتله إذا غلب على ظنّه أنه ليس بمؤمن وهو في صَفّ المُشركين وإن كان في نفس الأمر مؤمناً.

فإن قيل: كيف يُقال إنّ أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يقْتُل مُؤمناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدَاً فيها وغَضِبَ الله عليْهِ وَلَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [٤/٩٣].

قلنا: معناه متعمِّداً قَتْلَهُ بسبب إيمانه، والذي يفعل ذلك يكون كافراً.

الثاني: أنّ المرادَ بالخُلود طولُ المكث لأنّ الخُلود إذا لم يؤكّد بالآية يُطلق على طُولِ المكث كما يقال: خَلّد السُّلطانُ فلاناً في الحَبس إذا طال حبسه.

---

(٥٩) في تفسير القرطبي (٥: ٣١٣): وقيل: المعنى ولا خَطَأً. قال النحّاس: ولا يجوز أن تكون إلا بمعنى الواو، ولا يُعرف ذلك في كلام العرب ولا يصحُّ في المعنى، لأن الخطأ لا يُحظر. قال: المعنى: ما ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأ. فقوله: «وما كان» ليس على النفي، وإنما هو على التحريم والنهي كقوله تعالى: ﴿وما كانَ لكم أن تؤذُوا رسول الله﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣] ولو كانت على النفي لما وُجد مؤمنٌ قتل مؤمناً قطّ؛ لأن ما نفاه الله فلا يجوز وجوده ـ وقيل (إلّا) بمعنى لكن، والتقدير: ما كان له أن يقتله البتّة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا. هذا قول سيبويه والزجاج رحمهما الله.

(٦٠) النَّمل: ٢٧/١٠.

(٦١) البقرة: ٢/١٥٠.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَضَّل الله المُجَاهِدِيْنَ بِأَمْوَالِهِمْ وأنْفُسِهِم عَلَى القَاعِدِيْنَ دَرَجَةً﴾ [٤/٩٥]. ثم قال: ﴿وَفَضَّلَ الله المُجَاهِدِيْنَ عَلَى القَاعِدِيْنَ أَجْرَاً عَظِيْماً. دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ [٤/٩٥، ٩٦]؟

قلنا: المراد بالأوّل التَّفضيل على القاعدين عن الغزاة بِعُذر فإنّ لهم فضلاً لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقَصْدِ الصّالح. ولهذا قال: ﴿وَكُلّاً وَعَدَ الله الحُسْنَىٰ﴾ يعني الجَنّة. أي: كُلّاً من المجاهدين والقاعدين بعذر. والمراد بالثّاني التَّفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عُذر. وأُولئك لا فضْلَ لهم بل هم مُقَصِّرُون مُسِيؤون. فَظَهَرَ فضلُ الغُزاة عليهم بِدَرَجاتٍ لانتفاءِ الفَضْل لهم(٦٢).

فإن قيل: كيف صحَّ قولُهم: ﴿كُنّا مُستَضْعَفِيْنَ فِي الأَرْضِ﴾ [٤/٩٧] جواباً لقول الملائكة: ﴿فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ [٤/٩٧] والجواب المُطابق أن يقولوا: كُنّا فِي كَذا، و: لم نكن في شَيء؟

قلنا: معنى ﴿فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ [٤/٩٧] التّوبيخ بأنهم لم يكونوا في شَيء من الدين حيث قدروا على المُهاجرة ولم يهاجروا. فصار قولهم: ﴿فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ [٤/٩٧] مَجازاً عن قوله: لِمَ تَركتم الهجرة؟ فقالوا: كنّا مستضعفين في الأرض؛ اعتذاراً عما وُبِّخُوا به تعلّلاً فردّت عليهم الملائكة ذلك بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيْهَا﴾ [٤/٩٧] يعني: إنكم إن كُنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لِبُعْدِهَا عنكم كُنتم قادرين على الخروج من مكّة إلى بعض البلاد القريبة منكم التي تقدرُون فيها على إظهار دِين الإسلام.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله﴾ [٤/١٠٠] أي

---

(٦٢) وقيل: التفضيل بالدرجة ثم الدرجات إنما هو مبالغة وبيان وتأكيد.

وَجَب. والعبد لا يستحقّ على مولاه أجراً لأنّه ليسَ بأجيرٍ له إنّما هو عبدٌ قِنّ؟

قلنا: معناه وجبَ من جهة أنّه وَعَدَ عباده(٦٣) أنه لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسن عملاً. والخُلْفُ في وعده عزّ وجَلّ مُحالٌ؛ فالوجوب من هذه الجهة أنّ ذلك الوعد ابتداءُ فضلٍ منه.

فإن قيل: كيف شرطَ في إباحة القصر للمُسَافر خوفَ العَدُو بقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُم﴾ [٤/١٠١] الآية(٦٤) والقصرُ جائزٌ مع أَمْنِ المُسَافر؟

قلنا: خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشّرط. وغالب أسفار رسول الله ﷺ وأصحابه لم تَخْلُ من خوف العدوّ. فصار نظير قوله تعالى(٦٥): ﴿فَكَاتِبُوْهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيْهِمْ خَيْراً﴾.

الثّاني: أن الكلام قَد تَمَّ عند قوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ [٤/١٠١]. وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ [٤/١٠١] كلام مُستأنفٌ وجوابُه محذوفٌ تقديره: فاحْتَاطُوا وتأهَّبُوا.

الثّالث: المُرَادُ به القَصْرُ من شُروطها وأركانها حالة اشتدادِ الخَوفِ بِتَرْكِ الرّكوع والسُّجود، والنُّزول عن الدابّة واستقبالِ القِبلة ونحو ذلك لا من عَدد الرّكعات. وذلك القصرُ مشروطٌ بالخَوف.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كانَتْ عَلى المُؤمِنِيْنَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [٤/١٠٣] و(كان) لفظٌ دالٌّ على المُضِيّ. والصَّلاةُ في الحالِ وإلى يومِ القِيَامة أيضاً على المؤمنين فرض مؤقت؟

---

(٦٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ١٨/٣٠].

(٦٤) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِن خِفْتُم أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِيْنَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيْناً﴾. ومعنى ضربتم: سافرتُم.

(٦٥) النور: ٢٤/٣٣.

قـلنا: (كـان) في القُرآن العـزيز على خَـمسة أَوْجُـه:

كـان بمعنى الأزل والأبـد كما في قـوله تعـالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيْمَاً حَكِيْماً﴾ [٤/١٧].

و (**كـانَ**) بمعنى المُضِيّ المُنْقطع كما في قوله تعـالى(٦٦): ﴿وَكَانَ فِي المَدِيْنَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ وهـو الأَصـل في معاني (كـان). كما تقـول: كان زيـد صالحـاً، أو فقـيراً، أو مريـضاً، ونحـو ذلك.

و (**كـان**) بمعنـى الحـال: كما في قـوله تعـالى:(٦٧): ﴿كُنْتُـمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ﴾ وقـوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ على المُؤْمِنِيْنَ كِتَـاباً مَوْقُوْتَاً﴾ [٤/١٠٣].

و (كان) بمعنى الاستقـبال: كما في قـوله تعـالى(٦٨): ﴿وَيَخَـافُوْنَ يَوْمَاً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيْراً﴾.

و (كـان) بمعنى صَـار: كما في قَـوله تعـالى(٦٩): ﴿وَكَـانَ مِنَ الكَافِرِيْنَ﴾.

فـإن قيـل: كـيف قـال: ﴿وَتَرْجُـوْنَ مِنَ الله مَا لَا يَرْجُـونَ﴾ [٤/١٠٤] والكـافرون أيـضاً يـرجُون الثّواب في مُجَـازاته المؤمنين لأَنّهـم يعتقـدون أنّ دينهـم حـق، وأنهـم يَنصرون دين الله ويَذُبُّون عنه ويُقَـاتلون أعـداءَه كما يعتقـد المؤمنـون؛ فالرّجـاء مُشتـرك!

قلنـا: قيل: إن الرجـاء هنـا بمعنى الخـوف كما في قـوله تعـالى(٧٠) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُوْنَ للهِ وَقَاراً﴾ وقـوله تعـالى(٧١): ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِيْنَ

(٦٦) النَّمل: ٢٧/٤٨.
(٦٧) آل عـمران: ٣/١١٠
(٦٨) الإنـسان: ٧٦/٧
(٦٩) سورة صّ: ٣٨/٧٤
(٧٠) نـوح: ٧١/١٣
(٧١) الجـاثية: ٤٥/١٤

لايَرْجُوْنَ أَيَّـامَ الله﴾ وقـول الشـاعر(٧٢):

إذا لسَعَتْهُ النحـلَ لـم يَرج لَسْعَها(٧٣)

وعـلى قول من قـال إنـه بمعنى الأمـل يـقول: قـد بشر الله المؤمـنين في القُرآن، ووعـدهم بإظهـار دِينهـم على الدِّين كـلّه. ومثلُ هـذه البشارة والوَعـد لم يُوجـد في سائر الكتـب فافترقـا. وقيل إنّ الرَّجـاء: مـا يكونُ مُستنداً إلى سَببٍ صحـيح ومقدّمـات حَقّه. والطَّمَع: ما يـكون مُستنـداً إلى خـلافِ ذلك. فالرَّجـاءُ للمُؤمـنين. وأمّـا الكَافِرُون فَلَهُـمْ طَمعٌ لا رجاء.

فـإن قيل: مـا فائِدَةُ قوله(٧٤): ﴿أَو يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [٤/١١٠] بعد قـوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوْءاً﴾ [٤/١١٠] وظلمُ النفسِ من عَمل السُّوء، فهـلاّ اقْتَصر على الأوّل لأنّ الثّـاني داخـلٌ فِيه؟

قـلنا: (أو) بمعنى الواو، فمعنـاه: وَيظلمْ نَفْسَهُ بـذلك السُّوء حـيث دَسَّاها(٧٥) بالمَعْصِـية.

وقـيل: المراد بعمـل السوء: ما دُون الشِّرك. وبِظُلْمِ النَّـفس: الشِّرك.

وقيل: المُرَاد بعمـل السوء: الذَّنـب المُتَعَدِّي ضَـرَرُهُ إلى الغَيْر. وبـظلم النفس: المقتصر ضَررُه على فاعله.

---

(٧٢) هـو أبو ذؤيـب الهُذَليّ، والشَّطر صدر بيت هـو في ديوان الهـذليّين (١: ١٤٣):

(٧٣) والبيت بتمامـه:

إذا لسَعَتْهُ النَّحـلُ لم يَرْجُ لَسْعَهـا وخـالفهـا في بيـت نُوْبٍ عَـواسِـلِ

(ورواية ديوان الهـذليّين: لسعته الدَّبرُ، وهـما بمعنى واحـد).

لم يرج لسعها: لم يخـف لسعها. خـالفها: أي جـاء إلى عسلهـا وهي غائبة تَرْعَىٰ. والنّوب: النحـل. ورُوي (عَوامِل) و(عواسِل). والعوامل من النحـل التي تعمل العسل والشمع.

ـ واستظهـر الفرّاء أن (الرجـاء) لا يدلّ على الخـوف إلا ومعه النَّـفي.

(٧٤) والآيـة الكريمة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سوءاً أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً﴾.

(٧٥) أي أخـملها وأخسَّ حَظَّهـا. ودَسَّىٰ نفسه خـلاف: زَكّـاها.

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُـم أَنْ يُضِلُّوْكَ﴾ [١١٣/٤] ظاهـره ينفي وجـود الهـمّ منهـم بإضلاله. والمنقول في التّفاسِير أنهـم هَمُّوا بإضـلاله، وزادوا على الهَمّ الـذي هو القَصْدُ القـولَ المضلّ أيـضاً. يُعرف ذلك من تفسير أوّل القصـة، وهـو قـوله تعـالى: ﴿إنّـا أنْزَلْنَـا إلَيْكَ الكِتَـابَ بِالحَـقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّـاسِ بِمَا أَراكَ الله وَلاَ تَكُنْ للخَـائِنِيْنَ خَصِيْمَاً وَاسْتَغْفِرِ الله﴾ [١٠٥/٤].

قلنـا: قوله: ﴿لَهَمَّـتْ﴾ [١٠٥/٤] لـيس جـواب (لولا) بل هـو كلامٌ مقدّم على لولا. وجوابها في التّقـدير. فيكون على طـريق القَسم، وجـواب (لولا) محـذوف تقديره: لقد هَمّت طائفة منهـم أن يُضِلُّوك؛ ولولا فضـلُ الله عليكَ ورحـمتُه لأضلّوك.

فـإن قيل: النـجوى فعل ومَنْ اسم فكـيف صحَّ استثنـاء الاسم من الفعل في قـوله تعـالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيْرٍ مِن نَجْوَاهُـمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ [١١٤/٤]

قلنـا: فيه إضمارٌ تقديره: إلاَّ نَجْوَى مَن أَمر بـصدقة. فـيكون استثنـاء الفِعْل من الفِعـل. ونظيره قولُه تعالى(٧٦): ﴿وَلكن البـر من آمن بالله واليوم الآخـر﴾ تقديره: بِرّ مَنْ آمَن بالله.

فـإن قيل: كيف قـالَ ﴿إلاَّ مَـنْ أَمَر﴾ [١١٤/٤] ثم قـال: ﴿مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾ [١١٤/٤].

قلنـا: ذكر الأمـر بالخـير ليدلّ به على خـيريّة الفاعل له بالطّريق الأَولى ثم ذكر الفاعل ووعده الأجـر العظيم إظهاراً لفضل الفاعل المُؤتمـر على الآمر.

الثـاني: أنـه أراد: «ومن يأمـر بذلك» فعبّر عن الأَمـر بالفعل كما يُعبّر به

---

(٧٦) البقـرة: ١٧٧/٢

عن سائر أنـواع الفعل. وإذا كان الآمِرُ موعوداً بالأجـر العظيم كان الفاعـل موعوداً به بالطريق الأولى.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿إن يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ إلاّ إنَاثاً﴾ [٤/١١٧] أي ما يعبُدون من دون الله إلا اللاّت والعُزّى ومناة ونحـوها، وهي مؤنّثـة. ثـم قال: ﴿وَإن يَدْعُوْنَ إلاّ شَيْطاناً مَّرِيْداً﴾ [٤/١١٧] أي ما يعبُدون إلا الشَّيطان؟

قـلنا: معنـاه أنّ عبادتهم للأصنـام هـي في الحـقيقة عبادةٌ للشّيطان: إمّا لأنهـم أطاعُوا الشَّيطان فيما سوَّل لهم وزيَّن مِن عبـادة الأصنـام بالإغـواء والإضْلال؛ أو لأنّ الشّيطان موكّـل بالأصنـام يدعُو الكُفّـار إلى عبادتها شفاهاً وَيَتَزَيَّا للسَّدنـة(٧٧) فَيُكلّمهـم لِيُضلّهـم!

فـإن قيل: كـيف يُقـال: إن العبد يُحـكم بكونه من أهـل الجـنة بمجـرّد الإيمـان، والله سبحـانه وتعـالى شرَط لذلك العمل الصالح بظاهـر قوله ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحـات سَنُدْخِلُهُـمْ جَنّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ﴾ [٤/١٢٢] وقـوله: ﴿وَمَن يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَـاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ﴾ [٤/١٢٤] وإلا لمـا كان للتّقييد فـائدة؟

قـلنا: قيل إنّ المـراد بالعَمـل الصّالح الإخـلاص في الإيمـان.

وقيـل: الثّبات عليه إلى المَوت وكـلاهما شرطٌ في كـون الإيمـان سَبباً لدخُولِ الجَنّـة.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿مَن يعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [٤/١٢٣] والتّائب المقبُول التّوبـة غير مجـزيّ بعمـله. وكـذلك من عمل سيّئة ثم أتبعها حَـسنة فإنّها مُذهِبَةٌ لهـا وماحِيَةٌ بنصّ القُـرآن؟

---

(٧٧) السدنـة الـذين كانوا يخـدمون بيوت الأصنـام في الجاهليّة.
- ويَتَزَيَّا أي يظهـر بصورة (بزيّ) بني آدم.

قلنا: المُراد: مَن يعمل سوءاً ويموت مُصِراً عليه.

الثَّاني: أن المُؤمن يُجازى في الدُّنيا بما يُصيبه فيها من المَرض وأنواع المصائب والمِحَنِ كما جاءَ في الحديث، والكافر يجازى في الآخرة(٧٨).

فإن قيل: كيف خصّ المُؤمنين الصّالحين بأنهم لا يُظلمون بقوله: ﴿وَمَن يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [٤/١٢٤] الآية، مع أنّ غيرهم لا يُظلم أيضاً؟

قلنا: ﴿وَلاَ يُظْلَمُوْنَ نَقِيْراً﴾ [٤/١٢٤] راجعٌ إلى الفريقين: عمّال السوء وعمّال الصّالحات بسبق ذكر الفريقين.

الثاني: أن يكون من باب الإيجَاز والاختصار فاكتفى بذكر عقيب الجُملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقيب ذكر الفَريق الآخر: فلا يُظلم المؤمنون بنقصان ثَواب أعمالهم، ولا الكافرون بزيادة عقاب ذُنوبهم.

الثّالث: أنّ المُراد بالظُّلم المنفيّ نقصان ثواب الطّاعات وهٰذا مخصوصٌ بالمؤمنين لأنّ الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه.

فإن قيل: طلب الإيمان من المؤمن تحصيل الحاصل، فكيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ﴾ [٤/١٣٦] الآية.

قلنا: يا أيُّها الَّذين آمنوا بعيسى آمِنوا بالله ورسُوله محمد.

وقيل: معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنُوا يوم الميثاق آمنوا الآن.

(٧٨) نقل القُرطبي قال، قال الجُمهور: لفظ الآية عامّ. والكافر والمؤمن مجازًى بعمله السُّوء. فأما مجازاة الكافر فالنّار لأنّ كُفره أوْبَقَهُ، وأمّا المؤمن فبنكبات الدُّنيا كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: لمّا نزلت ﴿من يعمل سوءاً يُجزَ به﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدّدوا ففي كل ما يُصاب به المسلمُ كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها».

وقيـل معنـاه: يـا أيهـا الـذين آمنوا علانـيةً آمِنُوا سِرّاً(٧٩).

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿الَّذِيْنَ يَتَرَبَّصُوْنَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ. وإنْ كانَ للكَافِرِين نَصِيْبٌ﴾ [٤/١٤١] لِمَ سَمَّـى ظفر المسلمين فتحـاً وظفـر الكافـرين نَصِيباً؟

قـلنا: تعظيماً لشـأن المُسلمـين وتَحـقيراً لحـظّ الكافـرين. لأنَّ ظَفر المُسلمين أمـرٌ عَظِيْمٌ لأَنّـه متضمّـن نُصـرة دينِ الله وعـزّة أهـله، ففتح له أَبواب السَّمـاء حـتى ينزل على أَوليـاء الله. وظفَرُ الكافـرين ليس إلّا حَظّاً دنياً وعرضاً من مَتـاع الدُّنيـا يُصيبونـه، وليس بمتضمّـن شيئاً ممّـا ذكرنـاه.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ للكَافِرِيْنَ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ سَبِيْلاً﴾[٤/١٤١] وقد نصرَ الكافرين على المؤمنيـن في يوم أُحُـد وغيره أيـضاً إلى يومنـا هـذا؟

قـلنا: المـراد به السبيل بالحُجّـة والبُرهـان، والمؤمنـون غالِبُون بالحُجَّـةِ دائمـاً(٨١).

فـإن قيل: كـيف [كـان] المُنـافق أشدُّ عذاباً من الكافِر حـتّى قـال الله

(٧٩) والمعنى الأول الـذي ذكره القُرطبي: «يـا أيُّهـا الـذين صَدّقوا أقيـموا على تصديقـكم واثبتوا عليه».

(٨٠) وتتـمّة الآيـة الكريمة: ﴿. . . قـالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤمِنِيْنَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ سَبِيلاً﴾.

(٨١) قـال القرطبي: للعلماء فيه خمسة تأويـلات؛ وهـذا مختصرها:
١ ـ معنى ذلك يوم القيامة: يوم الحُـكم.
٢ ـ معناه أن الله تعـالى لا يجعل لهـم سبيلاً يمحـو به دولة المؤمنين ويذهـب آثارهـم.
٣ ـ أي: إلّا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهـوا عن المنكر ويتقاعـدوا عن التوبـة فيكون تسليط العدوّ من قبلهـم.
٤ ـ إنّ الله تعـالى لا يجعل للكافرين على المؤمنين سـبيلاً شرعاً، فـإن وُجـد فبخـلاف الشرع.
٥ ـ أي حـجّة عقلية ولا شرعيّة يستظهـرون بهـا إلّا أبطلها ودحـضت.

تعالى في حقه: ﴿إِنّ المُنَافِقِيْنَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [١٤٥/٤] مع أنّ المُنافقَ أحسنُ حالاً من الكافر(٨٢) بدليل أنّه معصومُ الدَّم وغيرُمحكومٍ عليه بالكُفر؛ ولهذا قال الله تعالى في حقهم: ﴿مُذَبْذَبِيْنَ بَيْنَ ذٰلِكَ لا إلىٰ هٰؤُلاٰءِ وَلاَ إلىٰ هٰؤُلاَءِ﴾ [١٤٣/٤] فلم يجعلهم مُؤمنين ولا كافرين؟

قلنا: المُنافق وإن كان في الظّاهر أحسنَ حالاً من الكافر إلاّ أنه عند الله تعالى وفي الآخرة أسوأ حالاً منه، لأنه شاركه في الكُفر وزادَ عليه الإستهزاء بالإسلام وأهله والمخادَعة لله وللمُؤمنين.

فإن قيل: الجَهْرُ بالسُّوء غيرُ محبوب لله تَعالى أصلاً، بل المحبوب عنده العَفو والصَّفح والتَّجاوز. فكيفَ قال: ﴿لاَ يُحِبُّ الله الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ [١٤٨/٤] أيْ إلاْ جَهْرَ مَنْ ظُلِمَ...؟

قلنا: معناه: وَلاَ جَهْرَ مَنْ ظُلِمَ. فـ(إلاّ) بمعنى (ولا)؛ وقد سبق نظيره(٨٣)؛ وشاهده في قوله: ﴿وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ أن يَقْتُلَ مُؤمِناً إلاّ خَطأً﴾ [٩٢/٤].

فإن قيل: كيف جازَ دخولُ (بَيْن) على (أَحد) في قوله تَعالى: ﴿وَلَم يُفَرِّقُوْا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [١٥٢/٤] و(بين) تقتضي اثنين فصاعداً، يُقال فرقت بين زيدٍ [وعمرو].

قلنا: قد سَبق هذا السّؤال. وجوابُه في قوله تعالى(٨٤) ﴿عَوَانٌ بَيْنَ

---

(٨٢) في تفسير القرطبي (٥: ٤٢٤): المُنافق في الدرك الأسفل وهي الهاوية لغلظ كفره وكثرة غوائله وتمكّنه من أذى المُؤمنين.

(٨٣) هذا هو اختيار المؤلف رحمه الله. وقد ذكرت كتبُ التفسير وجوهاً من المعاني، وتفصيلات ومأثورات في ذلك.

(٨٤) البقرة: ٦٨

ذٰلِكَ﴾ وفي آخر سورة البقرة أيضاً(٨٥).

فإن قيل: ما فائدة إعادة الكُفر في الآية الثّانية بقوله تَعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ [٤/١٥٦] بعد قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيْثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [٤/١٥٥] الآية(٨٦).

قلنا: لأنه قد تكرّر الكُفر منهم؛ فإنهم كفروا بِمُوسَى وعيسى ثم محمّد. فعطف بعضَ كُفرهم على بعض(٨٧).

فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى يسمونه السَّاحِرَ بْنِ السّاحرة، والفاعل ابن الفاعلة. فكيف أَقرّوا أَنّه رسول الله بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيْحَ عِيْسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾ [٤/١٥٧].

قلنا: قالوه على طريق الاستهزاء، كما قال فرعون(٨٨): ﴿إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الَّذِي إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

فإن قيل: كيف وصفهم بالشكّ بقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِيْنَ اخْتَلَفُوا فِيْهِ لَفِيْ شَكٍّ مِنْهُ﴾ [٤/١٥٧]؟

ثم وصفهم بالظنّ بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [٤/١٥٧] والشكّ تساوي الطَّرفين. والظنّ رُجحان أَحدهما. فكيف يكونون شاكّين ظانّيْن. وكيف استثنى الظنَّ من العلم، وليس الظن فَرْداً من أفراد العلم بل هو قَسِيمُه؟

---

(٨٥) يشير إلى قوله تعالى (البقرة: ٢/٢٨٥): ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

(٨٦) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بآياتِ الله وقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِم فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيْلًا. وبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيْماً﴾ البقرة: ٢/١٥٥، ١٥٦

(٨٧) في القرطبي ٦/٨ «ثم كرّر ﴿وبِكُفرِهِمْ﴾ ليخبر أنهم كفروا كفراً بعد كفر. وقيل المعنى: وبكفرهم بالمسيح عليه السلام، فحذف لدلالة ما بعده عليه.

(٨٨) الشعراء: ٢٦/٢٧

قـلنا: استعـمل الظنّ بمعنـى الشكّ مجـازاً لِمَا بَينهـما من المُشابهـة في انتفـاء الجـزم. وأمـا استثنـاء الظنّ من العـلم فهـو استثناءٌ من غير الجـنس كما في قـوله تعـالى(٨٩): ﴿لاَ يَسمعـون فيهـا لغواً إلا سـلاماً﴾ وما أشبهه.

فـإن قيل: كـيف يكونُ للنّـاس على الله حُجّـة بعد الرُّسـل وهـم محجوجـون بما نصّه لهـم من الأَدِلّـة العقلية الموصـلة إلى معرفتـه؛ حـتى قـال: ﴿لِئَلّا يَكُونَ لِلنَّـاسِ عَلَى الله حُجَّـةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾ [٤/١٦٥].

قـلنا: الرُّسل والكُتـب منبّهـة من الغفلـة وباعثةٌ على النـظر في أدلة العقـل وتفصيله لِمُجـمل الدّين وأحـوال التّكـليف التي لا يستقلّ العقل بمعرفتهـا. فـكان إرسـالهم إزاحـةً للعِلّـة وتتميماً لإلـزام الحُجّـة لئلا يـقولوا: لولا أَرسـلت إلينا رسولاً فَيُوقظنـا من سِنَةِ الغَفـلة، وينبّهـنا لِما وجـبَ الانتبـاهُ له!

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿أَنـزله بعلمـه﴾ [٤/١٦٦] ولم يـقل: أنزله بـقدرته وبعـلمه وقـدرته مع أن الله تعـالى لا يغفل عن عـلم وقـدرة؟

قـلنا: معنـاه أَنـزله وفيه عِلمـه. أي معلومُه أو معـلمه من الشّرائع والأحكام. وقيل معناه: أنزله بعلمٍ منه أنّـك أولى بإنزاله عليك من سائر خَلقه.

فـإن قيل: كلامُ الله تعـالى صفةٌ قـديمة قائمـةٌ بـذاته. وعيسى عليه الصلاة والسلام مخـلوقٌ حـادِث. فـكيف صَحّ إطلاقُ الكلمـة عليه في قـوله تعـالى: ﴿رَسُولُ الله وكَلِمَتُهُ﴾ [٤/١٧١]؟

قـلنا: معنـاه: أنّ وجوده في بـطن أُمّـه كـان بكلمـةِ الله تعـالى وهـي قوله(٩٠): ﴿كُنْ﴾ من غير واسطة، بخـلاف غيره من البَشر.

---

(٨٩) مريـم: ١٩/٦٢ أي: لكن يسمعون سلاماً، فهو من الاستثناء المنقطع.
(٩٠) وردت في النحـل ١٦/٤٠ ومـريم: ١٩/٣٥، ويّس: ٣٦/٨٢، وغـافر: ٤٠/٦٨

وقيل: المُرادُ بالكلمة: الحُجّة.

فإن قيل: على الوجه الأول: لو كان صحّة إطلاق الكلمة على عيسى عليه الصلاة والسَّلام لهذا المعنى لصحّ إطلاقها على آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأنّ هذا المعنى فيه أَتَمّ وأكمل، لأنّه وُجِدَ بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أُمّ أيضاً.

قلنا: لا نسلّم أنه لا يصح إطلاقها عليه بهذا المعنى بل يصحّ.

فإن قيل: لو صحّ إطلاقها عليه لجاءَ به القرآنُ في حَقّ آدم عليه السلام.

قلنا: ما جاءَ به القُرآن في حقّ آدم عليه السلام؛ لأنّ بيان المجيء به في حقّ عيسى عليه الصلاة والسلام إنّما كان للردّ على مَن افترىٰ عليه وعلى أُمّه ونسبَهُ إلى أَب؛ ولم يوجد هذا المَعنى في حقّ آدم عليه الصلاة والسلام، لاتّفاق الناس كلّهم على أنّه غيرُ مضافٍ إلى الأَب ولا إلى الأُم.

سُورَةُ المَائِدَة

فإن قيـل: كيف الارتبـاط والمنـاسبة بين قولـه تعـالى: ﴿ يَا أَيُّها الَّـذِيْنَ آمَنُـوا أَوْفُـوا بالعُقُودِ ﴾ [١/٥] وقـوله ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَـةُ الأَنْعَـامِ ﴾ [١/٥].

قلنـا: المـراد بالعُقـود: عهـود الله تعـالى عليهم في تحليـل حـلاله وتحـريم حـرامه فبـدأ بالمُجمـل ثم أتبعـه بالمُفَصَّـل من قوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَـةُ الأَنْعَـامِ ﴾ [١/٥] وقـوله بعـده: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم المَيْتَةُ﴾ [٣/٥].

فإن قيـل: ما أَكلـه السَّبُع عُدِم[1] وتعـذَّر أكله. فكيف يحسُن فيه التَّحـريم حتى قـال: ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ [٣/٥]؟

قلنـا: معنـاه: وما أكَـل منـهُ السَّبع، يعني البـاقي بعـد أَكْـلِه.

فإن قيـل: قولـه تعـالى ﴿ اليَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْـلامَ دِيْناً ﴾ [٣/٥] يدلّ من حيث المفهومُ عُرفاً على أنّه لم يرض لهم بالإسلام ديناً قبـل ذلك اليـوم، وليس كـذلك؛ فإنّ الإسـلام لم يزل ديناً مَرْضِيّاً للنبيّ ﷺ وأصحـابه عند الله تعـالى منـذ أرسلـه عليـه الصـلاة والسـلام.

قلنـا: قولـه ﴿ الْيَوْمَ ﴾ [٣٥] ظـرفٌ للجملتين الأُولَيَيْن لا للجُملـة الثّـالثة؛ لأنّ الـواو الأُولى للعَطف والثّـانية للابتـداء فالجملـة الثّـالثة مطلقـة غيرُ مؤقّتـة.

فإن قيـل: قـوله تعـالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مـاذَا أُحِـلَّ لَهُم قُـل أُحِـلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَـاتُ ﴾ [٤/٥] كيف صـلح جَـواباً لِسُؤالهم، والطيّبـات غير معلـومة ولا متّفق عليها؛ لأنّها تختلف باختـلاف الطِّبـاع والبِقـاع؟

---

(١) أي ذهب وفني بأكل السبع له.

قُلنـا: المُراد بالطيّبات هنا الذّبائح. والعَربُ تُسَمّي الذَّبيحة طيباً، وتسمّي الميتة خَبيثاً. فصار المُراد معلوماً؛ لكنه عامّ مخصوصٌ كغيره من العُمومات.

فإن قيل: ما فائدة قوله ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ [٥/٤] بعد قوله ﴿ وَمَا عَلَّمتُم مِّنَ الجَوَارِحِ ﴾ [٥/٤] والمُكَلِّبُ هو معلم الكلاب الصَّيد؟

قلنا: قد جاء في تفسير المكلّب أيضاً أنه المُضَرّي للجارح والمُغري له. فعلى هذا لا يكون ذلك تكراراً. وعلى القول الأوّل يكون: إنما عمّم ثم خصص فقال: ﴿ مُكَلِّبِيْنَ ﴾ [٥/٤] بعد قوله ﴿وَمَا عَلَّمتُم مِّنَ الجَوارِحِ﴾ [٥/٤] لأنّ غالب صيدهم كان بالكلاب فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم.

فإن قيل: ظاهر قوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمتُم مِنَ الجَوَاحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [٥/٤] تقتضي إباحة الجوارح المعلّمة وهي حرام.

قلنا: فيه إضمار تقديرُه: ومَصِيْد ما عَلّمتم من الجَوارح. ويؤيّده ما في تمام الكلام من قوله ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيكُمْ ﴾ [٥/٤].

فإن قيل: المُؤمَنُ به هو الله تعالى لقوله[٢] ﴿ قُولُوا آمَنَّا بالله ﴾ فالمكفُور به يكون هو الله أيضاً؛ ويؤيده قوله تعالى[٣]: ﴿كيفَ تَكفُرُونَ بِالله ﴾ . وإذا ثبت هذا فكيف قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بالإيمَانِ﴾ [٥/٥] مع أنّه لا يصحُّ أن يُقال: آمَن بالإيمان، فكذلك ضِدُّه؟

قلنا: المرادُ به: ومن يرتدّ عن الإيمان؛ يُقال: كَفر فلانٌ بالإسلام: إذا ارتدّ عنه. فـ(كَفر) بمعنى ارتدّ، لأنّ الردّة نوعٌ من الكفر. و(الباء)

---

(٢) البقرة: ١٣٦/٢

(٣) البقرة: ٢٨/٢ .

بمعنى (عـن). كمـا في قـوله تعـالى[٤]: ﴿ سَأَلَ سَائِلُ بَعذَابٍ وَاقعٍ ﴾ وقـوله تعـالى[٥]: ﴿ فَاسأل بِهِ خَبِيراً ﴾

وقيـل: المـراد هنـا بالإيمـان المُؤمَن به تسميةً للمفعـول بالمَصْـدر كمـا في قـوله تعـالىٰ: ﴿ أُحِـلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ ﴾ [٥/٩٦] أي مَصِيدهُ. وقولهم: ضَرْبُ الأمير، ونَسْجُ اليَمن[٦].

فإن قيـل: كيف قـال: ﴿ وَعَـدَ الله الَّـذِيْنَ آمَنُـوا وَعَمِـلُوا الصَّـالِحَـاتِ لهُم مَّغْفِـرةٌ وَأَجرٌ عَظيمٌ﴾ ولم يقـل: «وعمـلوا السّيئات» مع أن الغُفران يكون لفـاعل السيّئات لا لفاعـلِ الحَسنات؟

قلنـا: كـل أَحَـدٍ لا يخـلُو عن سيِّئةٍ: صغيرة أو كبيرة. وإن كان مِمَّنْ يعمـل الصّالحـات وهـي الطـاعات. فالمعنى أَنّ من آمَن وعمـل الحسنات غُفِـرت له سيئاته؛ كمـا قـال تعـالى[٧]: ﴿ إِنَّ الحسنَاتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾.

فإن قِيـل: كيف قال في آخر قوله تعـالى: ﴿ وَلَقَـدْ أَخَـذَ الله مِيْثَـاقَ بَنِي إِسْرائيلَ ﴾ [٥/١٢] الآية: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَـلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [٥/١٢].

قلنـا: نعم، ولكن الضّـلال بعد ما ذكر من النّعم أقبح؛ لأن قبح الكفـر بقـدر عظم النعمـة المكفـورة، فلـذلك خَصّـة بالـذِّكـر.

فإن قيـل: كيف قـال: ﴿ وَمِنَ الَّـذينَ قـالُـوا إِنَّـا نَصَـارَى ﴾ [٥/١٤] ولم يقـل: ومـن النَّصـارى.

قلنـا: لأنّ هٰـؤلاء كانـوا كاذبين في دَعـواهم أَنّهم نصـارى؛ وذلك أَنهم

(٤) المعارج: ٧٠/١
(٥) الفرقان: ٢٥/٥٩.
(٦) والتقدير: دنانير مضروبة بأمر الأمير. وثياب منسوجة في اليمن.
(٧) هود: ١١/١١٤.

إنما سَمَّوا أنفسهم نصارى إدّعاءً لنصرة الله تعالىٰ، وهم الذين قالوا لعيسى(٨) ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ الله ﴾ ثم اختَلفُوا بعده نَسْطُوريّة ويعقُوبيّة وملكانيّة أنصاراً للشّيطان. فقال ذلك توبيخاً لهم.

فإن قيل: كيف قال ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُم تُخْفُونَ مِنَ الكتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ [٥/١٥]. يعني يتجاوزُ عن كثير مما كتمتموه من الكتاب فلا يظهره ولا يبين كتمانكم إيّاه. فكيف يجوز للنبيّ ﷺ أن يُمسك عن إظهار حق كَتَمُوه ممّا في كتابهم؟

قلنا: إنّما لم يبيّن البعض لأنّه كان يتبع الأَمر ولا يفعل شيئاً من الأُمور الدينية من تلقاء نفسه بل اتّباعاً للوحي؛ فما أُمِرَ ببيانه بَيَّنه، وما لم يُؤمر ببيانه أَمسك عنه إلى وقتِ أمرِه ببيانه. وعلى هذا الجواب يكونُ لفظ (العفو) مَجازاً عن: التَّرك. فيكون قد أعلمه الله تعالى به وأَطلعه عليه ولم يأمُره ببيانه لهم، فتَركَ بيانه لهم.

الثاني: أنّ ما كان في بيانه إظهارُ حكمٍ شرعيّ بصفته ونعتِه، والبشارة، وآية الرَّجم ونحوها بَيّنه، وما لم يكن في بيانه حكمٌ شرعيّ ولكنْ فيه افتضاحُهم وهتْكُ أَستارهم فإنه عَفا عنه.

الثّالث: أَن عَقد الذِّمة اقتضى تقريرهم على ما غَيَّروا وبدّلوا من دينهم إلا ما كان في إظهاره معجزة له وتصديق لنبوّته من صفته ونعته، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه كحكم الزّنا ونحوه.

فإن قيل: كيف قال ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ. يَهدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضوَانَهُ ﴾ [٥/١٥ - ١٦] مع أن العَبد ما لم يهده الله أَوّلاً لا يتبع رضوانه، فلزم الدَّور(٩).

(٨) الصفّ: ٦١/١٤.

(٩) يعني ما يقال فيه اليوم: الدائرة المُفرغة.

قلنـا: فيـه إضمـار تقـديره: يهـدي به الله من علم أنه يتبـع رضـوانه. أو يهـدي به الله من يريـد أن يتبـع رضـوانه. كمـا قـال(١٠): ﴿ وَالَّـذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهـدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي والـذين أرادوا سبـل المجـاهـدة فينـا لنهـدينهم سبـل مجاهـدتنـا.

فإن قيـل: لم نَـر ولم نسمع أَنّ قومـاً من اليهـود والنّصـارى قـالوا ﴿نَحْـنُ أَبنَـاءُ الله﴾[١٨/٥] فكيف أخبرهم الله تعـالى عنهـم بـذلك؟

قلنـا: المـراد بقولهم ﴿أَبْنَـاءُ الله﴾ [١٨/٥] خـاصّـة الله. كما يُقـال: أبنـاءُ الـدُّنيـا وأَبنـاءُ الآخـرة. وقيـل فيه إضمـارٌ تقـديره: أَبنـاء أَنبيـاءِ الله.

فإن قيـل: كيف يصـحّ الاحتجـاجُ عليهم بقوله تعـالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [١٨/٥] مع أنهم ينكـرون تعـذيبهم بذنوبهم، ويَدَّعـون أن ما يُذنبـون بالنهـار يُغفـر بالليـل، وما يُذنبـون بالليـل يُغفـر بالنهـار؟

قلنـا: هـم كانـوا مقـرّين أَنّه يعـذّبهم أربعين يومـاً، وهـي مـدة عبـادتهم العجـل في غيبـة موسى عليه الصـلاة والسلام لِميقـات ربّه. ولـذلك أَوقعـه ببعضهم في الـدُّنيا من مَسخهم قِـرَدة كمـا فعـل بأصحـاب السَّبْت، وخَسف الأَرض بهم كمـا فعـل بِقَـارُون. وهـذا لا ينكـرونه.

وعـلى هـذا الوجـه يكـون المُضـارع بمعنى المـاضي في قولـه ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ ﴾ [١٨/٥] والإِضـافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم كأنّه قـال: فَلم عـذّب آباءكم؟

فإن قيـل: قـوله تعالى ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّـن خَلَقَ يَغْفِـرُ لِمَن يَشَاءُ ويُعَـذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [١٨/٥] إن أريـد به: يغفـر لمن يشاء منكم أَيّها اليهـود

---

(١٠) العنكبوت: ٦٩/٢٩.

والنَّصارى ويُعذب من يشاء يلزم جواز المغفرة لهم. وإنه غيرُ جائز لقوله تعالى(١١) : ﴿ إنَّ الله لَايغفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ﴾.

وإن أُريد به: يغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذّب من يشاء لا يصلح جواباً لقولهم.

قلنا: المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر.

وقيل: يغفر لمن يشاء ممّن خلق وهم المؤمنون، ويعذب من يشاء وهُم المشركون.

فإن قيل: كيف قال ﴿ يا قومِ اذكرُوا نِعَمةَ الله عَلَيكُم إذْ جَعَلَ فِيكُم أنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً ﴾ [٢٠/٥].

قلنا: المراد جعل فيكم مُلوكاً، وهم ملوكُ بني إسرائيل، اثني عشر ملكاً لاثني عشر سبطاً. لكل سبط ملك.

وقيل: المراد به أنّه أنهم رزقهم المنازل الواسعة التي فيها المياه الجارية.

وقيل: المُراد به أنه رزقهم الصحّة والكفاية والزّوجة المُوافقة والخادم والبيت، فسمّاهم ملوكاً لذلك.

فإن قيل: من أين علم الرجال أنهم غالبون؟

قلنا: من جهة وثوقهم بإخبار موسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فذلك قوله: ﴿ ادخُلُوا الأرضَ المقدَّسَةَ التي كَتَبَ الله لَكُم ﴾ [٢١/٥].

وقيل: عَلِما ذلك بغلبة الظّنّ وما عَهِداه من صنع الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ [٢٣/٥] يدلّ على أنّ من لم يتوكل على الله لا يكون مُؤمناً وإلاّ لضاع

(١١) النساء ٤٨/٤ و١١٦.

التعليق(١٢)؛ وليس كـذلك.

قلنــا: (إنْ) هنـا بمعنى (لأنْ) فتكـون بمعنى التّعليـل كمـا في قوله تعـالى(١٣): ﴿ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾.

فإن قيــل: كيف التّـوفيق بين قـوله تعـالى ﴿ ادخلُـوا الأَرضَ المقدَّسَةَ التي كَتَبَ الله لَكُم ﴾ [٥/٢١] وبين قوله ﴿ فَـإنَّهَـا مُحَـرَّمَةٌ عَلَيهِمْ ﴾[٥/٢٦].

قلنـا: معنـاه كتبها لكم بشـرطِ أن تُجاهـدوا أهلها، فلمّـا أَبَوا الجهـادَ قِيـل: ﴿ فإنَّها مُحرَّمةٌ عَلَيهم ﴾ [٥/٢٦].

الثاني: أن كل واحد منهما عام أُريد به الخاص بالكتابة للبعض وهم المُطيعون والتّحريم على البعض وهم العاصُون.

الثالث: أن التحريم مؤقّت بأربعين سنة. والكتابة غير مؤقتة فيكون المعنى: أي بعد الأربعين تكون لهـم. وهذا الجواب تامّ على قـول من نَصب الأربعين بـ محرّمة و: ستة جعلها ظرفاً لها. فأمّا من جعل الأربعين ظرفاً بقوله: ﴿يَتِيهُون﴾. [٥/٢٦] مقدّماً عليه فإنه جعل التحريم مؤبّداً فلا تنافي على قوله هذا الجواب لأنّ التقدير عنده: فإنّها محرّمة عليهم أبداً يتيهون في الأرض أربعين سنة. وهو موضعٌ قد اختلف فيه المفسّرون. والفَرَّاء من جملة من جَوّز نصب الأربعين بـ محرمة، و: يتيهون.

والزجّاج من جُملة من مَنع جواز نصبه بمحرّمة. ونقل أنّ التحريم كان مؤبّداً، وأَنهم لم يَدْخُلوها بعد الأربعين.

ونقل غيرهُ أنّه دخلها بعد الأربعين مَنْ بقي منهم وذريّة من مات منهم.

ويعضدُ الوجه الأول كون الغالب في الاستعمال تقديم الفعل على الظرف الذي هو عدد لا تأخره عنه. يقال: سافر زيدٌ أربعين يوماً، وأقام أربعين يوماً وما أشبه ذلك... وقلّ ما يقال على العكس(١٤).

(١٢) يعني بالتعليق الشّرط؛ لأن بعض الكلام متعلّق ببعض.

(١٣) البقرة: ٢/٢٧٨.

(١٤) أطال المفسّرون في تفسير الآية الكريمة. يُنظر مثلاً تفسير القرطبي (٦: ١٢٩ - ١٣٣).

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ [٥/٢٧] ولم يقل قربانين، والذي قرباه كان قربانين لأنّ كل واحد منهما قرّب قرباناً.

قلنا: أراد به الجنس فعبّر عنه بلفظ المفرد كقوله تعالى(١٥): ﴿وَالمَلَكُ على أَرجائِهَا﴾.

والثاني: أنّ العرب تُطلق الواحد وتريد الاثنين، وعليه جاء قوله تعالى(١٦): ﴿عَنِ اليَمِيْنِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وقال الشّاعر(١٧):

* فإنّي وقَيّار بها لَغريبُ *

فإن قيل: كيف صحَّ قوله: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِيْنَ﴾ جواباً لقوله: ﴿لأَقتلنّك﴾ [٥/٢٨] قلنا: لمّا كان الحسد لأخيه على تقبّل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له ذلك كنايةً عن حقيقة الجواب. وتعريضُ معناه: إنّما أُتيتَ من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قِبَلي فَلِمَ تقتلني؟

فإن قيل: كيف قال هابيل لقابيل: ﴿إِنّي أُرِيدُ أَن تَبُوء بإِثْمِي وإِثْمِكَ﴾ [٥/٢٩]؟

قلنا: المعنى: إنّي أُريدُ أَلّا تبوء بإثمي وإثمك؛ فحذف (لا)؛ كما في قوله تعالى(١٨): ﴿وَأَلْقَى في الأَرضِ رَوَاسيَ أَن تَمِيدَ بِكُم﴾ أي أَن لا تميد، وقوله تعالى(١٩): ﴿تَاللهِ تَفْتَؤُ تذكُرُ يُوسُفَ﴾، وقول امرىء القيس(٢٠):

---

(١٥) الحاقّة: ٦٩/١٧.

(١٦) قٓ ٥٠/٧.

(١٧) هذا عجز بيت لضابىء بن الحارث البُرجميّ. و(قَيّار) اسمُ جَمله أو فرسه. وكان شاعراً بذيء اللسان. وحبسه عثمان رضي الله عنه. ويروى كلمة (قيار) بالرفع والنّصب. ينظر اللسان مثلاً (ق ي ر).

- والبيتُ من قصيدة أصمعية (الأصمعيات ١٨٤) تقع في سبعة أبيات.

(١٨) النحل: ١٦/١٥.

(١٩) يوسف: ١٢/٨٥

(٢٠) هذا صدر بيت لامرىء القيس، وتمامه (الديوان: ٣٢)

فقلتُ يمين اللهِ أَبرحُ قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأَوصالي!

فَقُلْتُ يمين الله أَبرحُ قاعداً

الثاني: أَنّ فيه حذف مضاف، تقديره: إني أُريد انتفاءَ (أَن تبوءَ بإِثمِي وإثمِكَ) كما في قوله تعالى[٢١]: ﴿وَأُشرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجلَ﴾ أَي حُبّ العِجل.

الثالث: أنّ معناه: إني أريد ذلك إن قتلتني، لا مطلقاً.

الرابع: أنّه كان ظالماً. وجزاءُ الظّالم يحسن إرادَتُه من الله تعالى فيحسن من العبد أيضاً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [٣١/٥] يدلّ على أن قابيل كان تائباً لقوله عليه الصلاة والسلام[٢٢] «النَّدَمُ تَوبة» فلا يستحقّ النار.

قلنا: لم يكن ندمه على قتل أخيه بل على حَملة على عنقه سَنة، أو على عدم اهتدائه إلى الّدفن الذي تعلمه من الغُراب. وعلى فقد أَخيه لا على المَعصية.

ولو سلّمنا أن ندمه كان على قتل أخيه؛ ولكن يجوز أن الندم لم يكن توبةً في شريعتهم بل في شريعتنا.

أو نقول: التّوبة تؤثّر في حُقوق الله تعالى لا في حُقوق العِباد. والدّمُ من حُقوق العباد فلا تؤثّر فيه التوبة.

فإن قيل: كيف يكون قتل الواحد كقتل الكُلّ، وإحياء الواحد كإحياء الكل؛ والدّليل يأباه من وجهين:

أحدهما: أن الخيانة كلّما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإِثم والعقوبة. هذا هو مقتضى العقل والحكمة؟

والثاني: أنّ المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوي قتل الواحد

(٢١) البقرة: ٩٣/٢.

(٢٢) مسند الإمام أحمد (١: ٣٧٦).

والكل في الإثم والعقوبة أو تقاربهما. وإنّما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثاني أو الثالث وهلمّ جرا لا يكون عليه إثم آخر ولا يستحقّ عقوبة أُخرىٰ لأنه أَثِمَ قَتْلِ الكُلّ واستحقَّ عقوبة قتل الكُلّ بمجرّد قتل الأوّل والثّاني، لأَنّ قتل الواحد إذا كان يساوي قتل الكل أو يقاربه فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكُلّ، وعقوبة قتل الكل، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرّابع وهلم جرا؟ ولو قَتل الكل لما ازداد على إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل ولا يجوز أن يستحقّ بقتل الواحد أو الاثنين إثم قتل الكُلّ، وبقتل الكلّ إثم قتل الكل!

قلنا: أقرب ما قيل فيه أنَ المراد: إن من قتل نفساً واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه في الدُّنيا إن لم يكن له ولي، وفي الآخرة مطلقاً. لأنّهم من أب [واحد] وأُمّ واحدة.

وقيل: معناه: مَنْ قتل نفساً: نبيّاً أو إماماً عادلاً فهو كمن قتل الناس جميعاً من حيث إبطال المنفعة على الكُلّ لأن منفعتهما عامة للكلّ.

وقيل: المراد بمن قَتل هو قابيل فإنّ عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل لأنه أَوّل من سنَّ القتل فَكُلّ قتل يوجد بعده يلحقه شيءٌ مِن وزره بعلّة التسبّب، لقوله عليه الصلاة والسلام(٢٣) «مَنْ سَنّ سُنَّة حَسَنَةً» الحديث. وهو أحسن في المعنى ولكنّ اللفظ لا يساعد عليه وهو قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسرائيلَ﴾ [٣٣/٥] لأنّ هذا المعنى إن أُريد به قابيل لا تختصّ كتابته ببني إسرائيل.

فإن قيل: كيف وجه قوله تعالى ﴿إنّما جَزَاءُ الَّذِيْنَ يُحَارِبُوْنَ اللهَ ورَسُولَهُ﴾ الآية [٣٣/٥]. وحقيقة المحاربة بين العبد والرب ممتنعة؟

(٢٣) قال رسول الله ﷺ «مَن سنّ في الإسلام سنّة حسنة فلهُ أَجْرُها وأجر مَن عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سنَّ في الإسلام سنة سيّئة كان عليه وزرُها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم.

قلنـا: فيـه إضمـارٌ تقـديره: يُحـاربون أَوليـاءَ الله.

وقيـل: أَراد بالمُحـاربة المخالفة.

فإن قيـل: كيف قـال: ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا لَو أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا به ﴾[٢٤] [٣٦/٥] ولم يقـل بهما؛ والمـذكـورُ شَيئـان؟

قلنـا: قـد سبق جـواب مثلـه قُبيـل هٰـذا في قـوله تعـالى: ﴿ إِذْ قَـرَّبَا قُـرْبَاناً ﴾ [٢٧/٥]. وهنا جـوابٌ آخـر وهـو أن يكـون وضـعُ الضمّير مع اسم الإشـارة؛ كأنه قـال: ليفتـدوا بذلك. و(ذلك) يشارُ بِهِ إلى الـواحـد والاثنين والجمـع.

فإن قيـل: ما فائـدةُ قوله تعـالى: ﴿ فإن جَاؤُوكَ فَاحكُم بَينَهُمْ أَو أَعْـرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [٤٢/٥] وحـالُ النبي عليه الصـلاة والسلام مع أهـل الكتـاب إذا تحاكمـوا إليـه لا يخلُـو عن هـذين القسمين لأنه إمـا أن يحـكُم بينهم أو يُعـرض عنهم؟

قلنـا: فائـدته تخيير النبي عليه الصـلاة والسـلام بين الحُكم بينهم وعـدمه، ليعلم أنه لا يجبُ عليه أن يحـكم بينهم كما يجبُ علَيه ذلك بين المُسلمين إذا تحاكمـوا إليـه.

وقيل: إنّ هذا التخيير منسوخٌ بقوله تعالى ﴿فَاحكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ الله ﴾ [٤٨/٥] يعني بما أنزل الله عليـكَ وهـو القـرآن. يدلُّ عليـه أوّل الآية: ﴿ ولاَ تَتَّبِع أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [٤٩/٥] في الحكم بالتَّـوراة.

فإن قيـل: لمّا أنزل الله تعـالىٰ القـرآن صـار الإنجيـل منسوخاً بـه. فكيـف قـال: ﴿ وَلْيَحكُمْ أَهْلُ الإنجِيـلِ بِمَـا أَنزَلَ الله فِيهِ ﴾؟ [٤٧/٥].

---

(٢٤) وتتمة الآية الكريمة: ﴿ ... وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قلنــا: المعنى[٢٥]: ليحـكـم أهـل الإنجيـل في ذلك الـوقت؛ أمّـا الآن فهو منسوخ.

وقيـل معنـاه: وليحكم أهـل الإنجيـل بمـا أنزل الله فيه مِمَّنْ صَـدّق بنبـوة محمـد عليه الصـلاة والسلام بعـلاماته المذكـورة في الإنجيـل وذلك غير منسوخ[٢٦].

فإن قيــل: كيف قـال: ﴿ فإن تَوَلَّـوا فَاعْلَـمْ أَنَّمَـا يُرِيـدُ الله أَن يُصِيبَهُم بِبَعضِ ذُنُوبِهِم ﴾ [٥/٤٩] مع أنّ الكفـار معـاقبـون بكل ذنوبهم؟

قلنـــا: أرادَ به عقوبتهم في الـدُّنيا وهـو ما عَجّلـه من إجـلاءِ بني النَّضير.

وقيـــل: بني قـريظة. وذلك جـزاء بعض ذُنوبهم لأنه جـزاءٌ منقطع. وأما جزاؤهم على شِركهم فهو الخُلـود في النـار، وذلك جـزاءٌ دائم لا يتصـوّر وجـودُه في الـدُّنيا.

وقيـــل: أراد بذلك البعض ذنب التـولّي عن الرِّضـا بحكم القـرآن. وإنّمـا أبهمه تفخيمـاً له وتعظيمـاً.

فإن قيــل: حُسْنُ حكم الله تعـالى وصحته أمـرٌ ثابت على العُمـوم بالنسبة

(٢٥) كـرّر الناسخ السَّطر السابق هنا في (أ).

(٢٦) «قرأ الأعمش وحمزه بنصب. ﴿وليَحْكُمَ﴾ على أن تكون اللام لام كي. وقـرأ الباقون بالجزم ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ فعلى قـراءة النّصب تكـون اللام متعلّقة بقوله ﴿وَآتَيْنَاه﴾ فلا يجوز الوقف؛ أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهلـه بما أنزل الله فيه. ومن قرأه على الأمر فهو كقوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فهو إلزامٌ مستأنفٌ يُبتدأ به أي ليحكم أهل الإنجيل في ذلك الوقت أما الآن فهو منسوخ. وقيل هذا أمرٌ للنصـارى الآن بالإيمان بمحمّد صلى الله عليه وسلم: فإن في الإنجيل وجوب الإيمان به. والنسخ إنما يُتَصَوَّر في الفروع لا في الأصول. قال مكيّ: والاختيار الجزم، لأن الجماعة عليه، ولأنّ ما بعده من الوعيد والتهـديد يدل على أنه إلزامٌ من الله تعالى لأهـل الإنجيـل. قال النّحاس: والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان لأن الله عز وجـل لم يُنزل كتاباً إلا ليعمل بما فيه؛ وأمـر بالعمل بما فيه، فصحّتا جميعاً».
من القرطبي ٦: ٢٠٩.

إلى المُوقنين وغير الموقنين؛ فكيف قـال: ﴿ وَمَنْ أَحَسنُ مِنَ الله حُكمـاً لِقَـومٍ يُوقِنُـونَ ﴾ [٥/ ٥٠]؟

قلنـا: لمّا كان الموقنـون أكثـر إيقـاناً به من غيرهم، بل هم الموقنـون به في الحقيقة لا غير كانوا أَخَصَّ به، فأضيفَ إليهم لـذلك(٢٧). ونظيـرُه قوله تعـالى(٢٨): ﴿ إنَّمَـا أنتَ مُنـذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾.

فإن قيــل: قوله تعالى ﴿ وَمَنَ يَتَـوَلَّهُم مِّنكُم فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [٥/ ٥١]- يقتضي أن يكـون مَنْ زار أهـل الكتـاب وصـادقهم كافـراً وليس كـذلك لقوله تعـالى(٢٩): ﴿ لاينهَاكُمُ الله عَنِ الَّـذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم في الـدِّين ﴾ الآية.

قلنــا: المـراد بقوله ﴿ وَمَن يَتَـوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾ [٥/ ٥١] المُنافقـون لأنّها نزلت في شأنهم وهم كانُوا من الكفّـار في الـدُّنيـا ضميـراً واعتقـاداً.

أو معنـاه: أنه منهم في الآخـرة جـزاءً وعقـاباً بل أَشدّ.

فإن قيــل: كيف قـال ﴿ إنَّ الله لا يَهـدِي القَـومَ الظالِمينَ ﴾ [٥/ ٥١]. وكم من ظالمٍ هَـداه الله تعـالى فتـابَ وأقلـع عن ظلمـه؟!

قلنــا: معنـاه: لا يهديهم ما دامُـوا مقيمين على ظُلمهم.

الثاني: أن معنـاه: لا يهـدي مَن قضى في سابق علمه أنّه يمـوت ضـالاً.

الثالث: أن معنـاه: لا يهـدي الظالمين يوم القيـامة إلى طـريق الجنّـة. أي المشركين.

فإن قيــل: كيف قـال: ﴿ أَذِلَّةٍ على المُـؤمِنينَ ﴾ [٥/ ٥٤] ولم يقـل أذلّـة للمـؤمنين. وإنمـا يقـال: ذلَّ له لا ذلَّ عَليـه؟

---

(٢٧) في القرطبي ٦: ٢١٦: هذا استفهامٌ على جهة الإنكار، بمعنى: لا أحـد أحسن. فهذا ابتداء وخبر. وإعـراب حكماً: تمييز؛ ومعنى لقوم يوقنون: أي عند قوم يوقنون.

(٢٨) النازعات: ٧٩/ ٤٥.

(٢٩) الممتحنة: ٦٠/ ٨.

قلنـا: لأنه ضمّن الذلّ معنى الحُنُوّ والعَطف، فَعـدّاه تعديته، كأنه قـال: حـانّين عـلى المُؤمنين عـاطفين عليهم.

فإن قيـل: كيف قال: ﴿وَمَن يَتَـوَلَّ الله وَرَسُـولَهُ والَّـذِينَ آمَنُـوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغَالِبُـونَ﴾ [٥/٥٦]؟

وكم مـرّة غُلِبَ حـزبُ الله تعـالى في زمن النبي عليه الصـلاة والسـلام وبعـده إلى يومنـا هـذا!

قلنـــا: المـراد به الغلبـة بالحُجّـة والبُرهـان لا بالـدَّولة والصَّولة . وحـزب الله ـ وهم المؤمنـون ـ غالبـون بالحُجّـة أبـداً.

فإن قيـــل: المَثُوبة مختصّـة بالإحسان فكيف قـال: ﴿قُـلْ هَـلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُـوبَةً عِنـدَ الله﴾ [٥/٦٠]. الآية؟

قلنـــا: لا نسلم أن الثـواب ـ والمثوبة ـ مختصٌّ بالإحسـان بل هو الجـزاء مطلقاً، بدليـل قوله تعـالى[٣٠]: ﴿هَـلْ ثُوِّبَ الكُفَّـارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي هـل جوّزوا، وقوله تعـالى[٣١]: ﴿فَأَثَـابَكُم غَمّاً بِغَمٍّ﴾. وهو كلفظ البشارة، لا اخْتِصاصَ له لغةً بالخَبر السّارّ بـل هو عـام شامل؛ قـال الله تعـالى[٣٢]: ﴿فَبَشِّرهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

فإن قيـــل: ما فـائدة إرسال الكتـاب والرّسـول إلى أُولئـك الكثيرين الـذين قال في حقهم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيـكَ مِن رَّبِّكَ طُغيَاناً وَكُفـراً﴾ [٥/٦٤]؟

قلنـــا: فائـدتُه إلـزام الحجّـة عليهم.

---

(٣٠) المطففين ٨٣/٣٦

(٣١) آل عمران ٣/١٥٣

(٣٢) وردت في آل عمران ٣/٢١ والتوبة ٩/٣٤ والانشقاق ٨٤/٢٤.

الثاني: تبجيلُ الكتاب والرسول، فإنّ الخطاب بالكتاب إذا كان عاماً، والرسول إذا كان مُرسَلاً إلى الخلق كلّهم كان ذلك أفخمَ وأعظمَ للرّسول والمُرْسَل.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَلَو أَنَّهُم أَقاموُا التَّوراَةَ والإنجِيلَ﴾ الآية [٦٦/٥]. تقتضي تعلق الرّخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعَمل بما فيه. وليسَ كذلك فإنّ كثيراً من المُؤمنين بالكتُب الأربعة العاملين بما فيها ممّا لم ينسخ: عيشُهم في الدنيا منكّد ورزقُهم مُضَيّق.

قلنا: هٰذا التعليق خاصٌ في حقّ أهل الكتاب لأنّهم اشتكوا من ضيق الرِّزق حتى قالوا: «يَدُ الله مغلولة». فأَخْبَرهم الله تعالى أن ذلك التّضييق عقوبة لهم لشؤم معاصيهم وكفرهم. والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقتيره نعمةً في حقّ بعض عباده ونقمةً في حق بعضهم، وكذلك الرخاء والسّعة؛ فيعاقب بهما على المَعصية ويُثيب بهما على الطّاعة. ويختلفُ ذلك باختلاف أحوال الأشخاص. فلا يلزم من توسيع الرّزق الإكرام ولا من تضييقه الإهانة، ولا يلزم عكسُه أيضاً. ولهذا ردَّ الله تعالى ذلك بقوله(٣٣) ﴿فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ﴾ إلى قوله ﴿كَلاَّ﴾ أي ليس الأمر كما ظنّ الإنسان وزعَم من أنّ توسيع الرّزق دليل الكرامة وتضييقه دليل الإهانة. بل دليل الكرامة هو الهدايَةُ والتّوفيق للطّاعات؛ ودليل الإهانة هو: الإضلال والخِذلان. وحرمانُ التوفيق.

فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِن رَّبِّكَ وإن لمْ تَفعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [٦٧/٥] ومعلومٌ أنه إذا لم يبلّغ المنزّل إليه لم يكن قد بلّغ الرّسالة؟

(٣٣) الفجر: ٨٩/ ١٥ ـ ١٧ ﴿فأمّا الإنسانُ إذا ما ابتلاهُ ربُّه فأكرمه ونَعّمه فيقول رَبّي أَكْرَمَنِ. وأما إذا ما ابتلاهُ فقدَر عليه رزقه فيقولُ رَبّي أهانَنِ. كلاّ....﴾.

قلنـا(٣٤): المـراد حَثُّـه على تبليغِ ما أُنزل إليـه من معايب اليَهُود ومثالبهم. فالمعنى بلّغ الجميـع فإن كتمتَ منـه كنت في الإثم والمخـالفة كمن لم يبلّغ شيئاً البتّـة . فجعَـل كتمـانَ البعضِ ككتمـان الكُلّ.

وقيـل: هـو أمرٌ يستعجل التّبليغ كأنّه عليه الصّـلاة والسّـلام كان عازماً على تبليغ جميـع ما أُنزل إليـه إلاّ أنه أخّر تبليغ البعض خوفـاً على بعضه وحذراً مع عزمه عل تبليغه في تأنّي الحـال فأُمِـرَ بتعجيـلِ التّبليغ. ويؤيّـد هـذا القول قولُه تعـالى : ﴿ واللّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ ﴾. [٥/٦٧].

فإن قيـل: كيف ضَمِن اللّـه تعـالى لـرسوله العِصمة بقولـه ﴿ واللّـهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [٥/٦٧] ثم إنه شُجَّ وَجهُه يومَ أُحـد وكُسِرت رَباعِيَتُـه؟(٣٥)

قلنـا: المـراد به العصمـة من القَتـل لا من جميـع أَنواع الأذى. فإنّ العصمـة من جميـع المَكاره لا تُنَاسب أخـلاق الأنبيـاء عليهم الصَّـلاة والسلام؛ لأنّهم جـامعون لمكـارم الأخـلاق. ومن أشرف مكـارم الأخـلاق تحمُّـل الأذى.

الثـاني: أنّ هـذه الآية نزلت بعد يوم أحـد . لأنّ سورة المائـدة من أَواخـر ما نزل من القـرآن(٣٦).

---

(٣٤) في القـرطبي (٦: ٢٤٢) في تفسير الآية الكـريمة: «بلغّ ما أنزل إليك. . .» أي أظهر التبليغ: لأنه كان في أول الإسلام يُخفيه خوفاً من المشركين، ثم أُمِرَ بإظهـاره في هـذه الآية، وأعلمـه الله أنه يعصمه من الناس. وكان عمر رضي الله عنه أول من أظهر إسـلامه وقـال: لا نعبـد الله سرّاً؛ وفي ذلك نزلت: ﴿ يا أَيُّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ الله وَمَن اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمنين ﴾ فدلّت الآية على ردّ قـول من قـال: إن النبي ﷺ كتم شيئاً من أمر الدين تقيّةً، وعلى بُطلانه، وهم الرافضة، ودلّت على أنه ﷺ لم يُسِـرّ إلى أحد شيئاً من أمر الدين؛ لأنّ المعنى: بلّغ جميع ما أُنزل إليك ظاهـراً. ولولا هـذا ما كان في قوله عز وجَلّ ﴿ وإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ فائدة.

(٣٥) الرَّباعية: إحـدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا بين الثنيّة والنّاب (تكون للإنسان وغيره) وانظر خبر غزوة أُحـد في السيرة (٢: ٧٩).

(٣٦) سورة المائدة مدنيّةٌ بإجمـاع، روي أنّها نزلت منصرفَ رسول الله ﷺ من الحُدَيبيـة، ومن هذه =

فإن قيل: كيف قال: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴾ [٥/٧٢] مع أنّ بعض الظّالمين وهم العُصَاة من المُؤمنين يشفع فيهم النّبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة فيكون ناصراً لهم؟

قلنا: المراد بالظّالمين هُنا المُشركون، يُعلم ذلك من أول الآية ووسطها.

فإن قيل: ما فائدة قوله ﴿ وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [٥/٧٧] بعد قوله ﴿ قَد ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ [٥/٧٧]؟

قلنا: المرادُ بالضّلال الأوّل ضلالهم عن الإنجيل؛ وبالضّلال الثاني: ضلالهم عن القُرآن.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [٥/٧٩] والنّهي عن المنكر بعد فِعله ووقُوعه لا معنى له؟!

قلنا: فيه حذفُ مضافٍ تقديرهُ: كانوا لا يتناهون عن مُعاوَدة مُنكر فعلوه أو عن مِثل منكر فعلوه. أو عن منكر أرادُوا فِعله. كما يرى الإنسان أَمارات الخَوض في الفِسق وآلاته تُسَوَّى وتُهَيأ فيُنكر.

ويجوزُ أن يريد بقوله ﴿ لَايَتَنَاهَونَ ﴾ [٥/٧٩] لا ينتَهُون ولا يَمتنعون عن مُنكر فَعلُوه بل يُصرّون عليه ويُداومون. يُقال: تَناهى عن الأمر، وانتهى عنه بمعنًى واحد؛ أي امتنع عنهُ وتركه.

فإن قيل: كيف قال ﴿ وَلَكِنَّ كَثيراً مِنهُم فَاسِقُونَ ﴾ [٥/٨١]. والمراد بقوله «منهم» المنافقون أو اليهود على اختلافِ القَولين، وكلّهم فاسقون؟

قلنا: المراد به فِسقُهم بموالاةِ المُشركين ودسّ الأخبار إليهم، لا

= السورة ما نزل في حجّة الوداع، ومنها ما أُنزل عام الفتح.
(يراجع القرطبي ٦: ٣٠- ٣١).

مُطلق الفسق. وذلك الفسق الخاصّ مخصوصٌ بكثيرٍ منهم، وهم المذكُورون في الآية في قوله تعالى: ﴿ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ ﴾ الآية [٥/٨٠] لا شاملاً لجميعهم(٣٧).

فإن قيل: كيف قال ﴿ إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ والأنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ ﴾ [٥/٩٠] وهذه الأعيانُ كلّها مخلوقاتُ الله تعالى؛ فأين عَمَل الشّيطان في وجودها؟.

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: إنّما تعاطي الخمر والميسر إلى آخره... أو مباشرته.

فإن قيل: مع هذا الإضمار كيف قال ﴿ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ ﴾ [٥/٩٠] وتعاطي الخَمْر والقمار ونحوهما من عَمل الإنسان حقيقةً؟

قلنا: إنّما أُضيف إلى الشّيطان مَجازاً لأَنّه هو السّبب في وُجود الفعل بواسطة وَسوسته وتزيينه ذلك للفُسّاق. وصارَ كما لو أغرىٰ رجَلٌ رجلاً فَضربَ آخرَ فإنّه يجوز أن يقال للمُغرِي: هذا من عملك!

فإن قيل: كيف جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام في الآية الأولى ثم خصّ الخمر والميسر بالذّكر في الآية الثّانية؟

قلنا: لأنّ العداوة والبَغضاء بين النّاس تقع كثيراً بسبب الخَمر والميسر وكذلك يشتغلون بها عن الطّاعة بخلاف الأنصاب والأزلام فإنّ هذه المَفاسد لا تُوجد فيها وإن كان فيها مفاسد أُخَر.

وقيل إنّما كرر ذكر الخمر والميسر فقط لأنّ الخطاب للمُؤمنين بدليل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [٥/٩٠] وهم إنّما كانوا يتعاطون

(٣٧) في القرطبي (٦: ٢٥٤): ﴿ وَلَكِنَّ كَثِيراً منهُمْ فاسِقُوْنَ ﴾ أي خارجونَ عن الإيمان بنبيّهم لتحريفهم، أو عن الإيمان بمحمّد ﷺ لنفاقهم.

الخمر والميسر فقط. وإنما جمع الأربعة في الآية الأولى ليبيّن للمؤمنين أنّ هذه الأربعة من أعمال الجاهلية، وأنّه لا فرق بين من عَبَد صنماً أو أشرك بالله بدعوى علم الغَيْب، وبين من شَرِبَ الخمرَ أو قامَر مُستحلاً لَهُما.

فإن قيل: كيف يحسُن أن يفعل الله تَعالى فعلاً يتوسّل به إلى تحصيل علم حتّى قال ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ الله بِشَيءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيدِيكُمْ ورِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ الله مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾(٣٨)؟ [٥/٩٤].

قلنا: ليميّز الله الخائف من غير الخائف عند النّاس.

وقيل معناه: ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب. وهو قريب من الأوّل.

وقيل معناه: ليعلم الخوف واقعاً كما علمه منتظراً.

فإن قيل: كيف قال ﴿ وَمَنَ قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْل مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ [٥/٩٥] ووصف العَمْدِيّة ليس بشرطٍ لوجوبِ الجزاء، فإنه لو قتله ناسياً أو مخطئاً وجب الجزاءُ أيضاً؟

قلنا: عند ابن عباس وجماعة من الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم وصف العمدية شرط لوجوب الجزاء فلا يَرِدُ عليهم السُّؤال.

وأمّا على قول الجمهور فإنّما قيّده بوصف العَمْدِيّة لأن الواقعة الّتي كانت سبب نزول الآية كانت عَمْداً على ما روي أنه عنّ للصحابة حمار وحشٍ بالحُدَيْبية وهم مُحرِمون فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله فنزلت الآية. فخرج وصفُ العَمديّة مخرج الواقع لا مخرج الشرط.

(٣٨) ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ يريد ببعض الصَّيد، فـ (مِنْ) للتّبعيض؛ وهو صيد البرّ خاصّةً؛ ولم يعمّ الصّيد كله لأنّ للبحر صيْداً. وأراد بالصّيد: المَصِيد؛ بدليل قوله تعالى ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيْكُمْ ﴾.

وقال الزُّهري: نزل الكتاب بالعَمْد ووردت السنّة بالوجُوب في الخطأ[٣٩].

فإن قيل: كيف قال ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾ [٥/٩٥] مع أنّ الشرط بلوغه إلى الحَرمِ ولا غير؟

قلنا: لمّا كان المقصود من بُلوغ الهدي إلى الحرم تعظيمَ الكعبة ذكر الكعبة تنبيهاً على ذلك.

وقيل معناه: بالغ حرم الكعبة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامِ وَالْهَديَ وَالْقَلاَئِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْمٌ﴾ [٥/٩٧].

أيّ دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما في السّموات وما في الأرض وبكل شيء؟

قلنا: ﴿ذٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كل ما سَبق ذكره من الغُيوب في هذه السُّورة من أَحوال الأنبياء والمُنافقين واليَهُود لا إلى المذكور في هذه الآية.

الثاني: أنّ العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال فإذا دخل الشهر الحرام ودخلوا إلى البلد الحرام كَفُّوا عن ذلك. فعلم الله تعالى أَنه لو لم يجعل لهم زماناً ومكاناً يقتضي كفّهم عن القتل ونهب الأَموال لهلكوا؛ فظهرت المناسبة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿مَا جَعَلَ الله مِنْ بَحِيْرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَحَامٍ﴾ [٥/١٠٣] والجعل هو الخَلْقُ بدليل قوله تعالى[٤٠]:

---

(٣٩) في كتب الفقه والتّفسير تفصيل، ينُظر مثاله في تفسير القرطبي ٦: ٣٠٧- ٣٠٩.
(٤٠) الأعراف: ٧/١٨٩.

﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وقوله(٤١) ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّـوْر ﴾. وخـالق هـذه الأشيـاء هو الله تعـالى؟

قلنـا: المـراد بالجَعْـل هنـا الإيجـاب والأمـر أي ما أَوجَبها ولا أَمـرَ بها(٤٢). وقيـل المـراد بالجَعْـل التّحريم(٤٣).

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُم أَنْفُسَكُم لاَ يَضُرُّكُم مَنَّ ضَلَّ﴾ [١٠٥/٥] يدلّ على عـدم وُجوب الأَمـر بالمعروف والنَّهـي عن المنـكر، وهـما واجـبان.

قلنـا: معنـى قوله: ﴿أَنْفُسَكُـم﴾ [١٠٥/٥] أَهـل دِينـكم؛ كمـا قال تعـالى(٤٤): ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾، أَي أهـل دينـكم.

وقيـل: المُـراد به آخـر الزمـان عند فـساد النّـاس وتعذُّر الأَمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنـكر، وهو زماننا هٰـذا(٤٥).

فـإن قيـل: كـيف تقول الرُّسل ﴿لا عِلْمَ لَنَـا﴾ إذَا قـال لهـم: ﴿مَاذا أُجِبْتُمْ﴾ [١٠٩/٥] وهـم عالمون بماذا أُجيبوا؟

قلنـا: هـذا جـواب الدَّهـشة والحـيرة حـين تطيشُ عُقـولهم من زَفـرة جهّـنم(٤٦). نعـوذ بالله منها، ومثلهُ لا يـفيد نفي العلم ولا إثـباته.

---

(٤١) الأنعام: ١/٦.

(٤٢) في القرطبي: جَعَـل هنا بمعنى سَمَّى. والمعنى في هـذه الآية: ما سمّى الله ولا سنّ ذلك، ولا تعبّـد به شرعاً، بيد أنه قضى به علمـاً وأوجـده بقدرته وإرادته خلقاً، فإن الله خـالق كل شيء من خير وشرّ، ونفع وضرّ. وطاعـة ومعصية.

(٤٣) يعني المؤلف أنَّ عبارة (ما جَعَلَ) تؤدّي معنى حَرَّم:

(٤٤) النّسـاء: ٢٩/٤

(٤٥) ذُكرت وجـوه أُخَـر من تفصيلات المفسّرين والفقهـاء، منها أنّ قوله تعـالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ معنـاه: احفظوهـا من المَعاصي.

(٤٦) قـال النحّـاس في هـذا الوجـه أنه لا يصحّ لأنّ الرسل صلواتُ الله عليهـم لا خَوْفٌ عليهـم ولا هـم يحـزنون.

الثاني: أنّهم قالوا ذلك تعريضاً بالتشكّي من قَومهم وإظهار الالتجاء إلى الله تعالى في الانتقام منهم. كأنّهم قالوا: أنت أعلم بما أجابُونا به؛ لأنّنا نعلم ظاهِرَهُ وأنت تعلم مُضمره. ويؤيّده ما بعده(٤٧).

فإن قيل: أيّ معجزة لعيسى عليه الصّلاة والسّلام في تكليم النّاس كهلاً حتّى قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ [٥/١١٠]؟

قلنا: قد سبق هٰذا السّؤال وجوابُه في سورة آل عمران مستَقْصًى(٤٨).

فإن قيل: كيف قال الحواريون: ﴿هَل يَسْتَطِيْعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِن السَّمَاءِ﴾ [٥/١١٢] شكُّوا فِي قُدرة الله تعالى على بعض الممكنات وذلك كُفر، ووصَفُوه بالاستطاعة، وذلك تشبيه؛ لأنّ الاستطاعة إنَّما تكون بالجَوارح والحواريُّون خُلَّصُ أتباع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام والمُؤمنين به بدليل قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [٥/١١١]؟

قلنا: هٰذا استفهامٌ عن الفعل لا عن القُدرة كما يقول الفقير للغنيّ القادر: هل تقدر أن تُعطيني شيئاً؟ وهذه تسمّى استطاعةَ المُطَاوعة لا استطاعةُ القُدرة.

فإن قيل: لو كان المُراد هذا المعنى لما أنكر عليهم عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿اتَّقُوا الله إن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾ [٥/١١٢].

قلنا: إنكاره عليهم إنّما كان لأنَّهم أتوا بلفظٍ يحمل المعنى الّذي لا يليقُ بالمؤمن المخلص إرادته وإن كانوا لم يُريدوه.

---

(٤٧) قال الماوردي: فإن قيل: لِمَ سألَهُم عمّا هو أعلمُ به منهم؟ فعنه جوابان: أحدهما أنّه سألهم ليعلمهم ما لم يعملوا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم. والثاني أنّه أراد أن يفضح الكفّار بذلك على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من العقوبة لهم.

(٤٨) يراجع ما أورده في تفسير سورة آل عمران.

فإن قيل: كيفَ قال عيسًى عليه الصّلاة والسَّلام: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [٥/١١٦] وكل ذي نفس فهو جِسم لأَنّ النفسَ عبارةٌ عن الجَوهرِ القائم بذاتِه المتعلّق بالجِسم تعلّقَ التّدبير، والله تعالى منزّه عن الجسم؟

قلنا: النَّفْسُ تُطلق على معنيين: أَحدهما هذا.

والثّاني: حقيقةُ الشّيء وذاته كما يقال: نَفْسُ الذَّهب والفِضّة محبوبةٌ أي ذَاتهما. والمرادُ به في الآية ثانيهما. هذا المعنى.

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿مَا قُلْتُ لَهُم إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ الآية [٥/١١٧] مع أَنه قال لهم كثيراً من الكلام المُباح غير الأَمر بالتّوحيد؟

قلنا: معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالإِلّه.

فإن قيل: إذا كان عيسى لم يَمُتْ وإنّما هو حيٌّ في السماء. فكيف قال: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [٥/١١٧]؟

قلنا: أَراد بالتَّوفّي إتمامَ مدّة إقامته بينهم في الأَرض. وتمامه قد سبق مرة في قوله تعالى(٤٩): ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيْسَى إِنّي مُتَوَفِّيْكَ﴾. والسؤال: إنما يتوجه على قول من قال إنّ السؤال والجواب وُجِدَ يَومَ رَفعه إلى السماء. وأَمّا مَنْ قال إن السؤال إنًما يكون يوم القيامة، وعليه الجمهور، فالجواب مطابقٌ ولا إشكال فيه.

فإن قيل: لو قال عيسى عليه الصلاة والسلام: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر فإنهم عبادك؛ كان أظهرَ مناسبة.

قلنا: معناه: إن تعذبهم فإنّهم عبادك. وتصرُّف المالك الحقيقيّ في

(٤٩) آل عمران: ٣/٥٥

عبيده مُباح أيَّ تصرّفٍ كان. وإن تغفر لهم فإنك أنت العَزِيْز الذي لا ينقصُ من عزّه شيء بترك العُقوبة والانتقام مِمّن عصاه، الحكيم في كل ما يفعله من العَذاب والمغفرة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿هَذَا يومُ يَنفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهم﴾ [١١٩/٥]. يعني يوم القيامة والصّدق نافعٌ في الدنيا والآخرة. ولفظ الآية في قُوَّة الحصر؟

قلنا: لمّا كان نفع الصدق في الآخرة هو الفوزُ بالجَنّة والنَّجاة من النّار، ونفعُه في الدُّنيا دون ذلك كان كالعدم بالنّسبة إلى نفعه في الآخِرة فلم يَعُدّه في مُقَابلته.

فإن قيل: قوله: ﴿هٰذا يَومُ يَنفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدقُهُم﴾ [١١٩/٥] إن أَراد به صدقهم في الآخرة فالآخرة ليست بدار عمل. وإن أراد به صدقهم في الدُّنيا فليس بِمُطابق لِما ورد فيه وهو الشّهادة لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام بالصّدق فيما يجيبُ به يوم القيامة.

قلنا: أُراد به الصدق المُستمرّ بالصّادقين في دُنياهم وآخرتهم.

وعن قتادة رضي الله عنه: مُتكلّمان صَدَقا يوم القيامة، فنفَعَ أُحدهما صدقه دون الآخر:

أُحدهما: إبليس قال(٥٠): ﴿إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُم فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية فصدق يومئذٍ ولم ينفعه صدقُه لأنّه كان كاذباً قبل ذلك؛

والآخر: عيسى عليه الصلاة والسّلام كان صادقاً في الدنيا والآخرة فنفعه صدقه.

فإن قيل: في السّمٰوات والأرض العقلاءُ وغيرُهم فهلاّ غلّبَ العقلاءَ

(٥٠) إبراهيم ٢٢/١٤

فقال: لله ما في السماوات والأرض ومَن فيهـن.

قلنـا: لأن كـلمة (مـا) تتنـاول الأَجـناس كـلّهـا تناولاً عـاماً بأصلِ الوضع و(مَنْ) لا تتناول غير العقلاء بأَصل الوضع؛ فـكان استعمـاله (مـا) في هـذا الموضع أُولى.

سُوْرَةُ الانعَامْ

فإن قيل: كيف جَمع الظُّلمة وأَفْرَد النُّور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور﴾ [٦/ ١]؟

قلنا: ترك جَمْعَهُ استِغْنَاءً عنه بجمع الظُّلمة قبله؛ فإنه يدلُّ عليه كما ترك جمع الأَرض أيضاً استغناءً عنه بجمع السَّماء قبله في قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرضَ﴾ [٦/١].

الثاني: الظُّلمة اسم والنور مصدَر نقله المفضّل. والمصادر لا تُجْمَع.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ [٦/٣] بعد قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [٦/٣] ومعلومٌ أن من يعلم السرّ يعلم الجَهْرَ بالطَّريق الأَوْلى؟

قلنا: إنما ذكره للمُقَابلة كما في قوله تَعالى[١]: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ في يَومَينِ فَلاَ إِثمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثمَ عَلَيْهِ﴾ في بعض الوجوه.

فإن قيل: كيف خصّ السُّكون بالذكر دون الحركة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ في اللَّيلِ والنَّهَارِ﴾ [٦/١٣]. على قول من فَسّره بما يُقابل الحركة؟

قلنا: لأن السّكون أغلب الحالتين على كل مخلوقٍ من الحَيوان والجَماد.

أو لأنّ السَّاكن من المخلوقات أكثر عدداً من المتحرك.
أو لأن كل متحرك يصيرُ إلى السُّكون من غير عكس.
أو لأنّ السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة.

---

(١) البقرة: ٢/٢٠٣

وقيل: فيه إضمار تقديره: ما سكن وتَحرّك؛ فاكتفى بأحدهما اختصاراً لدلالته على مُقابِله كما هو في قوله تعالى[٢]: ﴿سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمُ الحرَّ﴾ أي: والبَرْد.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [٦/١٤] ولم يقل: وهو يُنعم ولا يُنعم عليه. وهذا أعمّ لتناوله الإطعام وغيرَه؟

قلنا: لأنّ الحاجة إلى الرّزق أمَسّ فَخُصَّ بالذِّكر.

الثّاني: أنّ كون المعبود آكلاً متغوّطاً أقبحُ من كونه مُنْعَماً عليه، فلذلك ذكره.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ﴾ [٦/١٩] يقتضي أن يُسَمَّى الله تعالى شيئاً، ولو صحّ ذلك لصَحّ نداؤه به كالحَيّ والقَيُّوم ونَحْوِهما.

قلنا: صحّة ندائه تعالى مخصوصةٌ بما يدلّ على المدح وصفة الكمال كالحيّ والقَيُّوم ونحوهما لا بكلّ ما يصِحُّ إطلاقهُ عليه. ألا ترى أنّ الموجود والثابت يصحّ إطلاقُهُ عليه سُبحانه وتعالى ولا يصحُّ نداؤه به، كذا هذا.

فإن قيل: استشهاد المدّعي بالله لا يكفي في صحّة دعواه وثبوتها شرعاً حتى لو قال المدّعي: الله شاهدي لا يكفيه هذا. فكيف صحَّ ذلك من النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسلام حيث قال: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ﴾ [٦/١٩]؟

قلنا: إنّما لم يصحّ ذلك من غَير النَّبي صلَّى الله عليه وسلم لأنّه لا يقدر على إقامة الدّليل على أن الله تعالى يشهَدُ له. والنبيّ عليه الصَّلاة

---

(٢) النحل: ١٦/٨١

والسَّلام أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا القُرآنُ﴾ [٦/١٩] لأنّه مُعْجِز.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَم تَكُن فِتنَتُهُم إِلَّا أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشرِكِيْنَ﴾ [٦/٢٣] كيف يكذبون يوم القيامة بعد مُعَاينة حقائق الأُمور وقد بُعثر ما في القبور وحُصِّل ما في الصُّدور؟

قلنا: المبتلى يوم القيامة ينطق بِما ينفعه وبما يَضُرُّه لعدم التّمييز بسبب الحَيرة والدَّهش كحال المُبتلى المعذّب في الدُّنيا: يكذب على نفسه وعلى غيره، ويتكلّم بما يضرُّه! ألا تراهم يقولون(٣): ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾. وقد أَيْقَنُوا بالخُلود فِيها؟ وقالوا(٤): ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ وقد علموا أنَّه لا يقضي عليهم فيَمُوتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها.

فإن قيل: كيف الجمعُ بين هذه الآية وبين قوله تعالى(٥): ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيْثاً﴾.

قلنا: القيامة مواقفُ مختلفةٌ: ففي بعضها لا يكتمون، وفي بعضها يحلفُون كاذبين كما قال تعالى(٦): ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِيْنَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى(٧): ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾.

وقيل: إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم، ولا يكتُمون الله حديثاً.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [٦/٣٢]. وهي خيرٌ لغير المتّقين أيضاً كالأطفال والمَجانين؟

قلنا: إنّما خصَّهم بالذِّكر لأنَّهم الأَصل فيها من حيث أنّ درجتهم أَعْلى، وغيرهم تبع لهم.

(٣) المؤمنون: ٢٣/١٠٧
(٤) الزخرف: ٤٣/٧٧
(٥) النساء: ٤: ٤٢
(٦) الحجر: ١٥/٩٢ و٩٣
(٧) الرحمن: ٥٥/٣٩

فإن قيل: كيف قال لمحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِيْنَ﴾ [٦/ ٣٥] فخاطبَه بأفحشِ الخطابين. وقال لنوح عليه الصلاة والسلام(٨): ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُوْنَ مِنَ الجَاهِلِيْنَ﴾ مع أنّ محمّداً عليه الصلاة والسلام أعظمُ رُتْبَةً وأعلى منزلة؟

قلنا: لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان معذُوراً في جهله لأنه تمسّك بوعد الله تعالى وإنجاء أهله وظنّ أنَّ ابنه من أهله. ومحمّد عليه الصلاة والسلام كان معذُوراً لأنّه كَبُرَ عَلَيه كُفرهم مع علمه أنّ كفرهم بمشيئة الله وأنهم لا يهتدون إلّا أن يهديهم الله(٩).

فإن قيل: إذا بعث الله الموتى من قبورهم فقد رجعوا إليه بالحياة بعد الموت فما فائدة قوله(١٠): ﴿وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُم الله ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾ [٦/ ٣٦]؟

قلنا: المرادُ به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت؛ فلا تكرارَ فيه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ [٦/ ٣٧] لو صحّ من النبيّ عليه الصّلاة والسلام هذا

(٨) هود: ١١/ ٤٦

(٩) في تفسير القُرطبي: ﴿فَلَا تكوننّ من الجاهلين﴾ أي من الّذين اشتدّ حُزنهم وتحسّروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يحلّ: أي لا تحزنْ على كفرهمْ فتقارب حال الجاهلين.
وقيل الخطاب له والمُراد الأمّة؛ فإنّ قلوب المسلمين كانت تضيقُ من كفرهم وإذايتهمْ.

(١٠) قيل الموتى هنا كل من مات.
وقيل: هم الكفّار أي بمنزلة الموتى في أنّهم لا يقبلون ولا يُصغون إلى حُجّة. وقيل غير ذلك.
والآية الكريمة بتمامها: ﴿إِنَّما يَستَجِيْبُ الَّذِيْنَ يَسْمَعُوْنَ والمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ الله ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾.

الجواب لصحّ لكلّ من ادّعى النبوة وطُولب بآيةٍ أن يقول: إنّ الله قادرٌ على أن ينزّل آية.

قلنا: إذا ثبَتت نُبوءَتُه بما شاء الله مِن المُعجزة يصحّ له أن يقول ذٰلك بخلافِ ما إذا لم تثبت نُبوءته. والنبيُّ ﷺ كانت قد ثبتت نبوءته بالقُرآن وانشقاقِ القمَر وغيرهما.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ . . .﴾ [٦/٣٨]. والدَّابة لا تكونُ إلّا في الأَرض لأنّ الدابّة في اللُّغة اسمٌ لما يَدِبُّ على وجهِ الأَرض؟ وما فائدة قوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [٦/٣٨] والطَّيَرانُ لا يكونُ إلّا بالجناح؟

قلنا: فيه فوائد:

الأُولى: التّأكيد كقولهم: هذه نعجةٌ أُنثى، وقولهم: كلّمْتُهُ بلساني ومَشيت إليه برِجلي. وكما قال الله تعالى(١٨): ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقال(١٢): ﴿يَقُولُونَ بِأَلسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

الثانية: نفي تَوُهُّمِ المَجاز فإنّه يُقال: طار فلانٌ في أَمر كَذا، إذا أَسرع الجري.

الثالثة: زيادة التَّعميم والإحاطة، كأنّه قال جميعُ الدوابّ الدَّابَّةِ، وجميع الطيور الطّائِرة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إن أَتَاكُم عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [٦/٤٠] إلى أَنْ قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ﴾ [٦/٤١] ومن جملة ما ذكر الدّعاء فيه عذاب السَّاعة وهو لا يكشف عن المُشركين.

---

(١١) النّحل: ١٦/٥١
(١٢) الفتح: ٤٨/١١

قلنا: لم يُخبر عن الكشف مُطلقاً بل مقيّداً بشرط المَشِيئة وعذاب الساعة لو شاء كشفه عن المشركين لكَشفه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ﴾ [٦/ ٥٠] ذكر القول في الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره في الجُملة الثانية.

قلنا: لما كان الإخبار بالغيب كثيراً ما يَدَّعيه البَشر كالكَهنةِ والمُنَجِّمين وواضعي الملاحم، ثم إنّ كثيراً من الجُهّال يعتقدون صحّة أقاويلهم ويعملون بِمُقتضى أخبارهم بالغَ في سلبه عن نفسه بسلبِ حقيقته عنه بخلاف الإلَهيّة والمَلَكيّة فإنَّ انتفاءهما عنه وعن غيره من البَشر ظاهرٌ. فاكتفى من نفيهما بنفي القَول: إذْ عند الدّعوى فيهما لا يتصوّر في نفسِ الأمر، ولا في زَعم النّاس بخلاف علم الغيب؛ فافْتَرقا.

والمُراد بقوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُم عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ [٦/ ٥٠] أي لا أدّعي الآلَهيّة. كذا قال بعضُ المفسّرين.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَستَبِيْنَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ﴾ [٦/ ٥٥] ولم يذكر سبيل المؤمنين أيضاً.

قلنا: بالضرورة إن السبيل سبيلان لا غير.

الثّاني: إنّ سبيل المُؤمنين يُراد تقديراً وإنّما حذف اختصاراً لدلالة المذكور عليه كما في قوله تعالى[١٣]: ﴿سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمُ الحَرَّ﴾ أي: والبرد.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرحتُم بالنَّهَارِ﴾ [٦/ ٦٠] أي: ما كسبتم. وهو يعلم ما جرحوا ليلاً ونهاراً؟

قلنا: لأنّ الكسب أكثر ما يكون بالنّهار لأنّه زمان حركة الإنسان.

---

(١٣) النحل: ٨١/١٦

والليل زمان سكونه لقوله تعالى(١٤): ﴿وَمِن رَّحمَتِهِ جَعَلَ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿مَن إلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيْهِ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ﴾ [٦/٦٢] يعني جميع الخَلائق. وقال في موضع آخر(١٦): ﴿وَأَنَّ الكَافِرِيْنَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾؟

قلنا: المولى الأوّل: يعني المالك أو الخالق أو المعبود؛

والمولى الثاني: بمعنى النّاصر؛ فلا تَنافيَ بينهما.

فإن قيل: كيف خصّ: ﴿قَوْلُهُ الحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ﴾ [٦/٧٣] بيوم القيامة فقال: ﴿قَوْلُهُ الحَقُّ وَلَهُ المُلكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ﴾ [٦/٧٣] مع أنّ قوله الحقّ في كل وقت، وله المُلك في كل زمان؟

قلنا: لأنّ ذلك اليوم ليس لغيره فيه مُلك بوجهٍ من الوجوه، وفي الدُّنيا لغيره مُلْكٌ: خلافةً عنه، أو هبةً مِنْهُ وإنْعَاماً؛ بدليل قوله تعالى في حق داوود(١٧) ﴿وَآتَاهُ اللهُ المُلكَ وَالحِكْمَةَ﴾ وقوله تعالى(١٨): ﴿وَاللهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وقوله في ذلك اليوم هو الحقّ الذي لا يدفَعُه أحدٌ من العِباد، ولا يَشكُّ فيه شاكٌّ من أهل العِناد لانكشافِ الغطاء فيه للكلّ، وانقطاع الدّعاوى والخصومات. ونظيرُه قوله تعالى(١٩): ﴿وَالأَمرُ يَومَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وإن

(١٤) القصص: ٢٨/٧٣
(١٥) القصص: ٢٨/٧٢
(١٦) محمّد: ٤٧/١١
(١٧) البقرة: ٢/٢٥١
(١٨) البقرة: ٢/٢٤٧
(١٩) الانفطار: ٨٢/١٩

كـان الأمـر له في كـل زمـان، وكـذا في قـوله تعـالى(٢٠): ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾.

فـإن قيل: كـيف قـال في معرض الامتنـان: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [٦/٨٤] ولم يـذكر إسمـاعيل مع أنّـه كان هو الابْنَ الأكـبر؟

قـلنا: لأنّ إسحـاق وُهِبَ له من حُـرّة. وإسمـاعيل من أمـة. وإسحـق وُهِبَ له من عَجُـوز عقيم؛ فكانت المِنّـةُ فيه أظْهَـر.

فـإن قيـل: كـيف قـال في وصف القرآن: ﴿وَالَّذِيْنَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤمِنُون بِهِ﴾ [٦/٩٢] وكـثيرٌ ممّـن يؤمن بالآخـرة من اليهـود والنصارى وغيرهم لا يُؤمن بـه؟

قلنـا: معنـاه: والَّذِيْنَ يؤمنـون بالآخـرة إيمـاناً نافعاً مقبولاً هـم الـذين يؤمنون به إمّا تصديقاً به قبل إنزاله لما بشر به موسى وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام أَو اتّباعاً له بعد إنزاله. والأمر كذٰلك فإنّ مَنْ لم يُصَدّق موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام في بشارتهـما بمحـمّد والقرآن أو كـان بعد بعثه ولم يُؤمـن بهِ فإيمانـه بالآخـرة غيرُ معتدٍّ به ولا مُعتـبر.

فـإن قيل: كيـف أُفـرد قـولهُ تعـالى: ﴿أَوْ قَـالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ [٦/٩٣] بالـذكر بعد قـوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّـنِ افتَرَى عَلَى الله كَذِباً﴾ [٦/٩٣]. وذٰلك أيـضاً افْتِرَاء؟

قـلنا: لأنّ الأوّل عـام.

والثـاني: خـاصّ. والمقصود الإنـكار فيهـما. ولا يـلزم من وجـود العامّ وجـود الخـاص. قـلت في هـذا الجـواب مغالطة لأنـه مُسَلّم أنّـه لا يـلزم من وجـود العـام وجـود الخـاص، ولكنـه يـلزم من الذمّ على العـام الذمّ على

(٢٠) غافـر: ٤٠/١٦

الخاصّ وإنكاره لا محالة. وما نحنُ فيه من هٰذا القَبِيل فالجواب المحقّق أن يُقال: هٰذا الخاصّ لمّا كان مخصوصاً بمزيدِ قُبحٍ من بين أنواع الإفتراء خَصّه بالذِّكر تنبيهاً على مَزِيدِ العقاب، والإِثم.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿بَدِيْعُ السَّمٰوَاتِ والأَرضِ﴾ [٦/١٠١] الآية. ما فائدة قوله: ﴿خَالِقُ كُلّ شَيءٍ﴾ [٦/١٠٢] بعد قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [٦/١٠١].

قلنا: ذكره أولاً: استِدلالاً به على نَفي الولد؛ ثم ذكره:

ثانياً: توطئةً وتمهيداً لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوه﴾ [٦/١٠٢] فإنّ كونه خالقَ كلّ شيءٍ يقتضي تخصيصه بالعبادة والطّاعة؛ فكانت الإعادة لفائدةٍ جديدة.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [٦/١٠٣]. كيف خصّ الأَبصار بإدراكه لها، ولم يقل: وهو يُدرك كلَّ شيءٍ؛ مع أَنّه أَبلغُ في التمدّح؟

قلنا: لوجهين:

أحدهما: مراعاة المُقَابَلة اللَّفظية فإنّه نوعٌ من المُبالغة.

الثاني: أنَّ هٰذه الصفة خاصّة بينه وبَين الأَبصار أنه يُدركها بمعنى الإحاطة بها، وهي لا تُدركه. فأمّا غيرُه ممّن(*) يُدركُ الأَبصار فهي تُدركه أيضاً. فلهذا خَصَّها بالذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [٦/١١٤] ولم يقل: «وهو الّذي أنزل إليّ» مع أن الله تعالى قال(٢١) ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾.

---

(٢١) المائدة: ٥/٤٨

(*) في الأصلين: ممّا؛ ورجحت ما يخصّ العقلاء.

قلنا: لما كان إنزاله إلى النبيّ عليه الصَّلاة والسّلام ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به كان في الحقيقة مُنَزّلاً إليهم لكنْ بواسطة النّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فصحّ إضافة الإنزال إليه وإليهم.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤمِنِيْنَ﴾ [١١٨/٦].

كيف علّق الكون من المُؤمنين بأكل الذَّبيحة المسمّى عليها، والكون من المُؤمنين حاصل وإن لم تُؤكل الذّبيحةُ أصلاً؟

قلنا: المُراد اعتقادُ الحِلّ لا نَفْسُ الأكل؛ فإنّ بعضَ من كان يعتقدُ حِلّ المَيْتَةِ من العرب كان يعتقدُ حُرمَة الذّبيحة!

فإن قيل: كيفَ أبهم فاعل التّزيين هُنا فقال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكَافِرِيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢٢/٦] وقال في آيةٍ أخرى(٢٢): ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعمَالَهُم﴾ فهو مُزَيّنُ الأعمالِ للكُفّار في الحقيقة؟

قلنا: التّزيين من الشّيطان بالإغواءِ والإضلال والوسوسة، وإيراد الشُّبة؛ ومن الله تعالى بخلق جميعِ ذٰلك؛ فصَحّت الإضافتان.

فإن قيل: كيف قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم﴾ [٦/ ١٣٠]. والرُّسل إنّما كانت من الإنس خاصّة؟

قلنا: المُراد بِرُسل الجِنّ هم الّذين سَمِعُوا القُرآن مِن النبيّ عَليه الصَّلاة والسلام ثم وَلّوا إلى قومهم مُنذرين كما قال الله تعالى(٢٣): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفراً مِّنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ﴾ الآية.

---

(٢٢) النمل: ٢٤/٢٧

(٢٣) الأحقاف: ٢٩/٤٦

الثاني: أنه كقوله تعالى(٢٤): ﴿يَخرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ﴾. والمراد منه أحدهما لأنّه إنمّا يخرجُ من المِلْح.

الثالث: أنه بُعث إليهم رسلٌ منهم. قاله الضحّاك ومُقَاتل(٢٥).

فإن قيل: كيف كرّر ذِكر شهادتهم على أنفسهم في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنسِ﴾ [٦/ ١٣٠] الآية، والمعنى فيهما واحد؟

قلنا: المعنى في المشهود به متعدّد وإن كان في الشّهادة واحداً؛ لأنهم في الأُولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرُّسل وإنذارهم؛ وفي الثّانية شهدوا على أنفسهم بالكُفر في الدُّنيا؛ وهما مُتَغايران.

فإن قيل: كيف أَقرُّوا في هذه الآية بالكُفر وشهدوا على أَنفُسهم به، وَجَحدوا في قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٦/٢٣].

قلنا: مواقفُ القيامةِ ومواطنها مختلفةٌ، ففي بعضها يُقِرُّون، وفي بعضها يَجْحَدُون.

أو يكون المُراد هنا شهادة أَعضائهم عليهم حين يُختم على أفواههم كما قال تعالى(٢٦): ﴿اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيْهِمْ وَتَشهَدُ أَرجُلُهُم﴾.

فإن قيل: ما فائدةُ قولِهِ تعالى: ﴿سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٦/ ١٤٠] والسَّفَهُ لا يكون إلّا عن جَهالة؟

---

(٢٤) الرحمن: ٥٥/٢٢.

(٢٥) قال مقاتل والضحّاك: أرسل الله رُسلاً من الجنّ كما أُرسل من الإنس. وقال مجاهد: الرسول من الإنس والنُذر من الجنّ. وقال ابن عباس: رُسُل الجّن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي. قال القرطبي وهو الصّحيح. (ينظر تفسيره ٧: ٨٦ و١٦: ٢١٠) عند تفسير سورة الأحقاف، الآية ٢٩: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُوْنَ القُرآنَ فَلَمَّا حَضَرُوه قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ﴾.

(٢٦) يس: ٣٦/٦٥

قلنا: معنى قوله ﴿بغير علم﴾: بغير حُجّة.

وقيل: بغير علم: بمقدار قُبحه ومقدار العقوبة عليه.

وعلى الوجهين لا يكونُ مُسْتَفاداً من الأَوّل.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى[٢٧]: ﴿وَمَا كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [٦/ ١٤٠]. بعد قوله ﴿قَد ضَلُّوا﴾ [٦/ ١٤٠]؟

قلنا: فائدته الإعلام بأنهم بعدما ضلُّوا لم يهتَدُوا مَرَّةً أُخرى. فإنّ من الناس من يضل ثم يهتدي بعد ضلاله.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿إِذَا أَثمَرَ﴾ [٦/ ١٤١] بعد قوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [٦/ ١٤١].

ومعلومٌ أنه إنّما يؤكل من ثمره إذا أَثمر.

قلنا: فائدته نفي توهّم توقّف الإباحة على الإدراك والنُّضج بدلالته على الإباحة من أوّل إخراج الثّمر.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً﴾ [٦/ ١٤٥]. الآية. وفي القرآن تحريمُ أكل الرّبا ومال اليتيم ومال الغَير بالباطل وغير ذلك؟

قلنا: يعني كان محرماً ممّا كانوا يحرّمونه في الجاهلية.

وقيل: ممّا كانوا يستحلُّونه فيها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَإِنَّ كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُم ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [٦/ ١٤٧] والموضع موضع العُقوبة فكان يَحْسُن أن يُقال فيه: ذو عقوبة شديدة أو عظيمة أو نَحْو ذلك؟

---

(٢٧) قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِيْنَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بغير عِلْمٍ وَحَرَّموا ما رَزَقَهُمُ الله افْتِرَاءً عَلَى الله قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ﴾.

قلنا: إنّما قال ذلك نفياً للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته. وذلك أبلغُ في التّهديد؛ مَعناه لا تَغْتَرُّوا بسعة رحمته فإنّه مع ذلك لا يرّد عذابه عنكم.

وقيل: معناه: فقل ربكم ذُو رحمة واسعة للمطيعين ولا يردّ عذابه عن العاصِين.

فإن قيل: كيف قالَ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُم﴾ [٦/١٥١] ثُمَّ فسَّره بعشرة أحكام: خمسة منها واجبة؛ والتلاوة وصفٌ للّفظ لا للمعنى كي لا يُقال أضدادها محرّمة.

قلنا: قوله: ﴿أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُم﴾ [٦/١٥١] لا ينفي تلاوة غيره. فقد تلا ما حَرّم، وتلا غيره أيضاً.

الثاني: أن فيه إضماراً تقديره: أتْلُ ما حَرّم ربكم عليكم وأوْجَب.

فإن قيل: كيف خَصَّ مال اليتيم بالنَّهي عن قُربانه بغير الأحسن ومالُ البالغ كذلك أيضاً؟

قلنا: إنّما خَصّه بالنَّهي لأن طمع الطامعين فيه أكثر؛ لضعفِ مالكه وعَجزه وقلّة الحافظين له، والنّاصرين؛ بخلاف مال البالغ.

الثاني: أنَّ التخصيص لمجموع الحكمين وهما النَّهي عن قُربانه بغير الأحسن، أو جواز قُربانه بالأحسن بغير إذن مالكه. ومجموع الحكمين مخصوصٌ بمال اليتيم. وهذا هو الجواب عن كونه منْفِيًّا ببلوغ الأشُدّ؛ لأنّ المجموع ينتفي ببلوغ الأشُدّ لانتفاء الحُكم الثاني.

فإن قيل: كيف خصّ العدل بالقول فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا﴾ [٦/١٥٢] ولم يقل: وإذا فعَلتم فاعدلوا؛ والحاجَةُ إلى العَدل في

الفِعـل أَمَسُّ لأنّ الضَّرر النـاشيء من الجَوْرِ الفِعْلِيّ أقـوى من الضّرر النّـاشيء من الجَوْرِ القَوْليّ؟

قـلنا: إنما خصّه بالقـول ليعلم وُجـوب العدْل في الفِعـل بالطَّريق الأَوْلى كما قـال تعـالى(٢٨): ﴿فَلَا تَقُـل لَّهُـمَا أُفٍّ﴾ ولم يـقل: وَلَا تَشْتُمُهـما ولا تَضْرِبْهُما؛ لِمَا قلنا.

فـإن قيل: كـيفَ الجـمع بين قـوله تعـالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخـرى﴾ [٦/١٦٤]. وبين قـوله(٢٩): ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثقَالَهُـمْ وأَثقَالاً مَّع أَثْقَالِهِـمْ﴾ وقـوله(٣٠): ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُـم كامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُـم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وفي الحـديث المشهـور(٣١): «فَعَلَيْهِ وِزْرُهَـا ووزرُ مَنْ عَمِل بهـا».

قلنـا: المُـرادُ بالآيـة الأُولى: وزرٌ لا يـكونُ مضـافاً إليهـا بمباشرةٍ، أو بسببٍ تتحـقّقُ إضافـته إلى غيرهـا على الكمـال. أمّـا إذا لم يـكن كـذلك فهـو وزرهـا من وجـهٍ فتزره.

وقيل: معنـاه لا تـزره طوعـاً كما زعـم المُشركـون بقـولهم للنبي عليه الصلاة والسلام: «ارجعْ إلى ديننا ونحـن كُفَلاء بمـا يلحـقك من تبعةٍ في دينك». وقـول الّذين كفـروا للـذين آمَنُوا(٣٢): ﴿اتَّبِعُوا سَبِيْلَنَـا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾... إلى قـوله تعـالى(٣٣): ﴿عَمَّـا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ومعنـى باقي النُّصوص أنهـا تحـمله كرهـاً فلا تنافيَ بينهـما.

(٢٨) الإسـراء: ١٧/٢٣
(٢٩) العنـكبوت: ٢٩/١٣
(٣٠) النّحـل: ١٦/٢٥
(٣١) ورد الحـديث تامّـاً في الكتاب (انظر الفهارس).
(٣٢) العنـكبوت: ٢٩/١٢
(٣٣) العنـكبوت: ٢٩/١٣

سُورَةُ الاعْرَافِ

فإن قيل: النَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [٢/٧]. متوجِّهٌ إلى الحَرج فما وَجْهُهُ؟[١].

قلنا: هو من باب قولهم: لا أَرَيَنَّكَ هنا، معناه: لا تُقِمْ هنا؛ فإنَّك إن أقمت رأيتك. فمعنى الآية: فَكُنْ على يقينٍ منه ولا تَشُكّ فيه؛ لأنّ المراد بالحرج: الشكّ.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [٤/٧] والإهلاك إنّما هو بعد مَجيء البَأس؛ وهو العذاب؟

قلنا: معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى[٢]: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وقوله تعالى[٣]: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾.

فإن قيل: ميزان القيامة واحدٌ، فكيف قال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [٨/٧] ﴿وَمَن خَفَّت مَوَازِينُهُ﴾ [٩/٧].

قلنا: إنّما جَمعه لأنّه أراد بالميزان المَوْزُونات من الأَعمال.

وقيل: إنّما جمعه لأنه ميزانٌ تقوم مقامه موازين، ويفيد فائدتها لأنّه يوزن به ذَوات الأعمال وما كان منها في عِظَمِ الجبال[٤].

---

(١) قيل في تفسير الآية الكريمة: ظاهرُ النّهي ومعناه نفي الحرج؛ أي لا يضيق صدرك ألّا يُؤمنوا به، فإنّما عليك البلاغ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيءٍ من إيمانهم أو كفرهم. ومذهبُ مجاهد وقتادة أنّ الحرج هنا هو الشكّ، وليس هذا هو شكّ الكفر إنّما هو شكّ الضِيق. وقيل للإنذار: أي لتنذر به.
ويُراجع ما نقله القرطبي وفصَّل فيه (٧: ١٦٠ - ١٦١).

(٢) المائدة: ٦/٥

(٣) النّحل: ٩٨/١٦

(٤) وقيل يُمكن أن يكون ميزاناً واحداً عُبّر عنه بلفظ الجَمع، كما يقال خرجَ إلى البصرة في السُّفن؛ والراكب إنما يركب سفينة واحدة. (عن القرطبي ٧: ١٦٦) بمعناه.

فـإن قـيل: كيف تُوزن الأعـمال وهي أَعْرَاضٌ لا ثِقـل لها ولا جـسم، والوزن من خـواص الأجـسام؟

قلنـا: الموزون صحـائف الأعـمال وأَجسامٌ؛ تتصور أعـمال المُـطيعين في صورة حـسنة، وأعـمال العاصين في صـورة قبيحـة، ثم يزنهـا؛ والله على كـل شيءٍ قدير.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿وَلَقَـد خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرنَاكُـم ثُمَّ قُلنَـا لِلمَلَائِكَةِ اسجُدُوا لِآدَمَ﴾ [١١/٧] وكـلمة (ثُمّ) للتّرتـيب، وخـطاب الملائكـة عليهـم الصلاة والسلام بالسُّجـود سابقٌ على خَلْقِنـا وتصويرنـا؟

قلنـا: المـراد: ولقد خـلقنا أبـاكم ثم صوّرناه، بطريقِ حـذف المـضاف.

وقيل: المـراد ولقد خـلقنا أبـاكم ثـم صوّرنـاكم في ظهـره.

والقـول الأول أظهـر.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى لإبـليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَـا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيْهَـا﴾ [١٣/٧]. أي في السَّمـاء وليس له ولا لغيره أن يتكبّر في الأرض أيـضاً.

قلنـا: لمّـا كانت السّماء مقرّ الملائكـة المُطيعين الـذين لا يُوجـد منهم معصيةٌ أصـلاً كان وجـود المعصية بينهـم أقـبح، فلذلك خـصّ مقرهـم بالذكر.

فـإن قيل: كـيف أُجـيب إبـليس إلى الإنـظار(٥) وإنـما طلب الإنـظار ليفسد أحـوال عباد الله تعـالى ويُغويهـم؟

قـلنا: لِمَـا في ذلك من ابتـلاء العبـاد. ولِمَـا في مُخـالفته من عظيم الثَّواب. ونظيرُ ذلك ما خَلقـه الله تعـالى من أصنـاف الزّخـارف وأنواع الملاذّ

(٥) يـشير المؤلف رحـمه الله إلى الآيتـين ١٤ و ١٥: ﴿قَـال أَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قـال إِنَّـكَ مِنَ المُنْظَرِيْنَ﴾.

والملاهـي وما ركَّبَهُ في الأنفُس من الشَّهـوات لِيَمْتَحِنَ بهـا عبادَه.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَـا الشَّيْطَانُ لِيُبدِيَ لَهُمَا مَا وُوْرِيَ عَنْهُـمَا مِن سَوْءَاتِهِـما﴾ [٧ / ٢٠].

ولم يـكن غرضه من الوسوسة كـشف عورتهـما بـل إخـراجهـما من الجَنَّـة؛ ويؤيِّـده قولُه تعـالى في سورة البقـرة(٦): ﴿فَأَزَلَّهُمَـا الشَّيطَانُ عَنْهَـا فَأَخْرَجَهُمَـا مِمَّـا كَانَا فِيْهِ﴾.

قلنـا: اللام في قـوله ﴿لِيُبْدِيَ﴾ [٢٠/٧] لام العاقبة والصَّيرورة لا لام كَيْ، كما في قـوله تعـالى(٧): ﴿فَالتَقَطَهُ آلُ فِرعَوْنَ لِيَكُـوْنَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزَناً﴾. وقـول الشّاعـر(٨):

* لِـدوا لِلمَـوتِ وَابنُـوا لِلخَرَابِ *

فـإن قيل: أيّ آيةٍ لله في اللّبـاس والكسـوة حـتى قـال في آية اللّبـاس والكسـوة(٩) ﴿ذَلِكَ مِن آيَاتِ اللهِ﴾ [٢٦/٧].

قلنـا: معنـاه أنّ خـلق اللّبـاس والكسـوة للإنسـان خـاصّة علامـة من العلامـات الدّالة على أنَّ الله تعـالى فضّلـه على سائـر الحَيـوان.

وقـيل: معناه ذُلكَ من نِعَمِ الله.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى في حَقّ إبـليس: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَـا﴾ [٢٧/٧]. ونازع لباسهما هو الله تعالى؟

---

(٦) البقـرة: ٣٦/٢

(٧) القـصص: ٨/٢٨

(٨) الشّطر صدر بيتٍ لأبـي العَتاهية (ديوانـه ٣٣) وتـمامه:
لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

(٩) قـوله تعـالى: ﴿يَا بَنِيْ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَـا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءاتِكُـم ورِيْشاً ولِبَاسُ التَّـقْوَى ذَلِكَ خَـيرٌ ذَلِكَ مِنْ آيـاتِ الله لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُوْنَ﴾.

قلنا: لمّا كان ذلك بسببِ وسوسته وإغوائه أُضيف النَّزْعُ إليه. كما يقال أشْبَعني الطَّعام وأرواني الشراب. والمُشبع والمُروي في الحقيقة إنّما هو الله تعالى، وهما سببان.

فإن قيل: كيف قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُونَ﴾ [٧/٢٩].

وهو بدأنا أولاً نُطفة ثم علَقةً ثم مُضغة ثم عظاماً ثم لحماً كما ذكر. ونحنُ لا نعودُ عند الموت ولا عند البعث بعد الموت على ذلك التَّرتيب؟

قلنا: معناه كما بدأكم أوّلاً بعد العدم كذلك يُعيدكم بعد العدم. فالتّشبيه في نفس الإحياء والخَلق لا في الكيفيّة والتَّرتيب.

وقيل معناه: كما بَدَأكم سُعَداء وأشقياء كذلك تعودون؛ ويؤيده تمام الآية.

وقيل معناه: كما بدأكم لا تملكون شيئاً كذلك تعودون. كما قال تعالى(١٠) ﴿وَ لقَد جِئتُمُونَا فُرَادَى﴾ الآية.

فإن قيل: كيف قال تعالى مُخْبراً عن الزّينة والطَّيّبات من الرِّزق: ﴿قُل هِيَ لِلَّذينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا﴾ [٧/٣٢] مع أنّ الواقع المُشاهَد أنّها لغير الَّذين آمنوا أكثر وأدوم؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا لأنّ المُشركين شاركوهم فيها؛ خالصة للمُؤمنين في الآخرة(١١).

---

(١٠) الأنعام: ٦/٩٤.

(١١) ﴿قُلْ هي لِلَّـذِينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا خَالِصَةً يوم القِيَامَةِ﴾؛ قُرِىء: خالصةٌ (بالرفع)؛ وقرىء: خالصة (بالنَّصب) ويتوجه المعنى على القراءتين (القرطبي ٧: ١٩٩ - ٢٠٠).

فـإن قيـل: كيف قـال تعـالى ﴿وَنُـودُوا أَنْ تِلكُـمُ الجَـنَّـةُ أورِثتُمُوهَا بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ [٤٣/٧] والميـراث عبـارة عَمّـا ينتقـل من ميتٍ إلى حيّ؟

قلنـا: هـو على تشبيه أَهـل الجنـة وأَهـل النـار بالـوارث والموروث عنه؛ وذلك أنّ الله تعـالى خـلق في الجنّـة منـازل للكُفّـار على تقـدير الإيمـان فمن لم يُؤمن منهم جُعِـل منزلُه لأَهـل الجَنّة[١٢].

الثاني: أنّ نفس دُخـول الجنّة بفضل الله ورحمتـه من غير عِوَض فأَشْبَـه المِيراث وإنْ كانت الـدّرجات فيها بحسب الأَعمـال.

فإن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ أَلَا لَهُ الخَلقُ وَالأَمْـرُ ﴾ [٥٤/٧]. أما الخلق بِمَعنى الإيجـاد والإحـداث فظاهـرٌ أنّه مختصٌ به سبحانه وتعـالى. وأَمّا الأمـر فلغيـره أيضاً بدليـل قوله تعـالى[١٣]: ﴿ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ ﴾، وقولـه تعـالى[١٤]: ﴿ وَأمُـرْ بِالعُـرْفِ ﴾ [١٩٩/٧]، وقوله تعـالى[١٥]: ﴿ وَأمُـرْ أَهلَكَ بِالصَّـلَاةِ ﴾.

قلنـا: المـراد بالأَمـر هنـا قوله تعـالى[١٦] ﴿كُنْ﴾ عنـد خَلق الأشياء، وهٰـذا الأمـر الّذي به الخلقُ مخصوصٌ به؛ كالخَـلق.

الثـاني: أنّ المُـرَاد بالخَلْق والأَمـر ما سَبق ذكـرهما في هٰـذه الآية وهـو

(١٢) في صحيح مسلم: «لن يُدخـل أحـداً منكم عملُه الجنّة» قـالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قـال: «ولا أنا إلا أن يتغمّـدني الله برحمةٍ منـه وفضـل». وفي غير الصّحيح: ليس من كافرٍ ولا مؤمن إلّا وله في الجنـة والنـار منزل، فإذا دخـل أهـل الجنّةِ الجنةَ وأهـل النارِ النارَ رُفعت الجنّـة لأهـل النـار فنظـروا إلى منـازلهم فيها فقيل لهم: هـذه منـازلكم لو عملتم بطـاعة الله. ثم يُقـال: يا أهـل الجنّـة: رِثُوهم بمـا كنتم تعملون. فتقسم بين أهـل الجنة منازلهم. (القرطبي ٧: ٢٠٩).

(١٣) آل عمران: ١١٠/٣

(١٤) الأعراف: ١٩٩/٧.

(١٥) طه: ١٣٢/٢٠

(١٦) النحل ٤٠/١٦، ومريم ١٩: ٣٥، ويٓس ٨٢/٣٦، وغـافر ٦٨/٤٠.

خلق السموات والآرض، وأَمر تسخير الشّمس والقمر والنُّجوم كما ذكر؛ وذلك مخصوصٌ به عز وجل.

فإن قيل: لِم قال نُوح: ﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ [٧/٦١] بالتّاء، ولم يقل: ليس بي ضَلال، كما وصفه قومُه به وذلك أشدّ مناسبةً ليكون نافياً عينَ ما أثبتوه؟[١٧]

قلنا: الضّلالة أقلّ من الضّلال فكان نفيها أبلغَ من نفي الضَلال عنه. كأنه قال: ليس بي شيء من الضَّلال. كما لو قيل: ألك تمرٌ؟ فقلت: مالي تَمْرَة! كان ذلك أَبلغ في النّفي من قولك: ما لي تَمْر!

فإن قيل: كيف وصف الملأ بـ ﴿ الَّذِيْنَ كَفَرُوا ﴾ [٧/٦٦] في قصّة هُود دون قصّة نوح؟

قلنا: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم عند هذا القول فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [٧/٦٦] بخلاف قوم نوح فإنّه لم يكن فيهم مَن آمن به عند قولهم ﴿ إنّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ﴾ [٧/٦٠]؛ فكان كُلُّ الملأ قائلين ذلك. هكذا أجاب بعض العلماء. وهذا الجوابُ منقوضٌ بقوله تعالى في سورة هُود في قصة نوح: ﴿ فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَومِهِ ﴾[١٨] وكذا في سُورة المؤمنين وجواب هذا النّقض: أنه يجوز أن القول كانَ مَرّتين؛ المرة الثّانية بعد إيمان بعضهم.

فإن قيل: كيف قال صالح لقومه بعدما أخذتهم الرّجفة وماتوا: ﴿ يَا قَومِ لَقَد أَبلَغتُكُم رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُم وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [٧/٧٩]. ولا يحسنُ من الحَيّ مُخاطبة المَيت لعدم الفائدة؟

(١٧) يعني قولهم كما روى الكتاب الكريم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ﴾ [٧/٦٠].
(١٨) هود: ١١/٢٧.

قلنا: هـذا مُستعمـل في العُـرف فإنّ من نصح إنساناً فلم يَقْبـل منه حتى قُتِـل أو صُلب ومـرَّ به ناصِحُـه فإنه يقول له: كم نصحتُك يا أخي فلم تَقبـلْ حتى أصـابك هـذا؟!

وفـائدة هـذا القول حَثُّ السامعين له على قَبُـول النّصيحـة ممّن ينصحهم لئـلا يُصيبهم ما أصـاب المنصوح الـذي لم يَقبـل النّصيحـة حتى هَلك.

فإن قيـل: لِمَ قـال شعيب علية الصّلاة والسلام لقومـه: ﴿ وَلاَ تُفسِـدُوا فِي الأَرضِ بَعْدَ إِصلاَحِهَا ﴾ [٧/٨٥]، وَهُم ما زالـوا كافـرين مُـفسـدين لا مصـلحين.

قلنـا: معنـاه: بعـد أن أَصـلحها الله تعـالى بالأمـر بالعـدل وإرسـال الرُّسـل.

وقيـل معنـاه: بعـد أَن أصـلح الله تعـالى أهلها؛ بحـذف المضـاف.

وقيل: بعـد الإصـلاح فيها أي بعـد ما أَصـلح فيها الصّـالحون من الأَنبيـاء وأَتبـاعهم العاملين بشرائعهم. فإضـافته كإضـافة قوله تعـالى(١٩): ﴿ بَل مَكْـرُ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ ﴾ يعني بل مكـرهم في الليْـل والنهـار.

فإن قيـل: كيف خـاطبـوا شُعيباً عليـه الصّـلاة والسـلام بالعَوْدِ في الكفـر بقولهم: ﴿ لَنُخـرِجَنَّـكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّـذِينَ آمَنُـوا مَعَكَ مِن قَـرِيَتِنَـا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَـا ﴾ [٧/٨٨]. وهـو أَجـابهم بقـوله: ﴿ إِن عُـدنَا فِي مِلَّتِـكُمْ بَعْـدَ إِذ نَجَّانا اللهُ مِنْهَا﴾ [٧/٨٩] وهـو لم يكـن في ملّتهم قط؛ لأن الأنبياء عليهم الصّلاة والسـلام لا يجـوز عليهم شيءٌ من الكبائر(*)، خُصوصاً الكفر.

---

(١٩) سبأ: ٣٤/٣٣.

(*) ينظر كتاب (تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء) بتحقيقنا من طبع دار الفكر؛ (المقدّمة خصوصاً).

قلنــا: العَربُ تستعمل (عـاد) بمعنى (صـار) ابتـداءً؛ ومنـه قـوله تعـالى[٢٠]: ﴿ حَتَّى عَـادَ كَالعُـرجُونِ القَـدِيمِ ﴾.

الثاني: أنّهم قالوا ذلك على طـريق تَغليب الجمـاعة على الواحـد؛ كأَنهم عَطَفُوا على ضَمير الـذين آمنـوا منهم بعـد كُفـرهم فَجعلـوهم عـائدين جميعـاً؛ إجـراءً للكـلام على حُكم التغليب. وعـلى ذلك أَجـرى شعيب عليه الصّـلاة والسـلام جـوابه. ومُـراده عَوْد قومـه المعطُوفين عَليـه.

فإن قيـل: لِمَ قـال فـرعون: ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ [١٠٦/٧] بعـد قوله: ﴿ إِن كُنتَ جِئتَ بِآيَـةٍ ﴾ [١٠٦/٧].

قلنـا: إن كنت جئت من عنـدِ اللـه تعـالى بآية فأتني بها، أَي أحضِـرْها عنـدي.

فإن قيـل: كيف قـال تعـالى هنـا ﴿ قَـالَ المَلأُ مِن قَومِ فِرعَـونَ إِنَّ هَـذَا لَسَـاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٠٩/٧]. وقـال في سُورة الشعـراء[٢١]: ﴿ قَـالَ للمَلإِ حَوْلَـهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِـرٌ عَلِيمٌ ﴾ فنَسب هَـذا القـول إلى فـرعون.

قلنـا: قـاله هـو، وقـالوه هُـم؛ فحكـى قَولـه ثَمَّ، وقَوْلَهُم هُنـا.

فإن قيـل: السَّحـرة إنَّمـا سَجـدوا للـه تعـالى طَـوعاً لَمّـا تحقّقـوا مُعجـزة موسى عليـه الصـلاة والسـلام، فكيف قـال تعـالى: ﴿ وَأُلْقِـيَ السَّحَـرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ [١٢٠/٧].

قلنـا: لمّـا زالت كلُّ شبهة لهم بما عايَنُـوا من آيـات اللّه تعـالى على يد نبيـه اضطُرّهـم ذلك إلى مُبـادرةِ السُّجـود فصـاروا من غـايةِ المُبـادرة[٢٢] كأنهم أُلقـوا للسُّجـود تَصـديقاً لِلّـه ولـرسوله.

---

(٢٠) يٓس: ٣٩/٣٦.
(٢١) الشعراء: ٣٤/٢٦.
(٢٢) أي من سرعة مبادرتهم إلى السُّجود.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا حكايةً عن السَّحرةِ الّذين آمَنُوا وعن فرعون: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [١٢١/٧] إلى قوله تعالى ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [١٢٦/٧] ثم حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه وسورة الشّعراء[٢٣] بزيادةٍ ونُقصانٍ في الألفاظ المنسوبة إليهم. وهذه الواقعة ما وقعت إلّا مَرّة واحدةً فكيفَ اختلفت عبارَتُهم فيها؟

قلنا: الجواب عنه أنهم [٢٤] إنّما تكلموا بذلك بِلُغتهم لا باللّغة العربية. وحكى الله تعالى ذلك عنهم باللّغة العربية مِراراً لحكمةٍ اقتضت التكرار والإعادة نبيِّنُها في سورة الشّعراء إن شاء الله تعالى. فمرّة حكاهُ مُطابقاً لِلَفْظِهم في التّرجمةِ رعايةً لِلّفظ، وبعد ذلك حكاهُ بالمعنى جَرْياً على عادةِ العَرب التَّفَنُّنِ في الكلام، والمخالفة بين أساليبه لئلّا يُمَلّ إذا تَمحَّضَ تكرارُه.

فإن قيل: كيف قالوا: ﴿ مَهْمَا تَأتِنَا بِهِ من آيةٍ لِّتَسحَرَنَا بِهَا ﴾ [١٣٢/٧] فسَمَّوْها آية[٢٥]؟

قلنا: ما سموها آيةً لاعتقادهم أنها آية بل حكاية لتسمية موسى عليه الصلاة والسلام على طريق الاستِهزاء والسُّخرية!

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَدَمَّرنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرعَونُ وَقَومُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [١٣٧/٧] أي: أهلكنا وقوله تعالى[٢٦]: ﴿ فَأَخرجَناهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَلِكَ وَأَورَثْنَاهَا بَنِي إِسرَائِيلَ ﴾.

---

(٢٣) في سورة طه ٧٠/٢٠، وفي سورة الشعراء ٢٦/ ٤٦ ـ ٤٨.
(٢٤) في (أ) الجواب عنهم أنّما تكلّموا..
(٢٥) سقطت العبارة من (أ)، وفي ب: سمّوها آية لتسحرنا بها.
(٢٦) الشّعراء: ٥٧/٢٦ ـ ٥٩.

قلنـا: قيـل معنى ﴿ دَمَّـرْنَا ﴾: أي أَبْطَلنـا ما كان يصنـعُ فـرعون وقومـه من المكـر والكيـد في حـقّ موسى عليـه الصـلاة والسـلام. ﴿ وَمَا كانُوا يَعْرِشُوْنَ ﴾[٢٧] أي يبنُـون من الصَّـرح الـذي أَمَـر فرعـونُ هـامانَ ببنـائه ليصعـد بواسطته إلى السَّمـاء. لأنّ التـدمير بمعنى الإبطـال.

وقيـل: هـو على ظاهـره لأنّ اللهَ تعـالى أورث ذٰلك بني إسـرائيل مـدّة ثم دَمَّـره جميعـه.

فإن قيـــل: قـوله تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَنجيْنَـاكُم مِن آلِ فِـرعَونَ يَسُـومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ يُقَتِّـلُونَ أبنَـاءَكُم وَيَسْتَحْيُونَ نِسَـاءَكُم وَفي ذلِكُم بَلاَءٌ مِن رَّبِكُم عَظِيْمٌ ﴾ [٧/١٤١].

قـولـه ﴿ وَفِيْ ذٰلِكُمْ ﴾ [٧/١٤١] إنْ كان إشـارة إلى الإنجـاء فليس فيـه بـلاءٌ بل هـو محضُ نِعمـة، وإن كان إشارةً إلى القَتـل والأسر فإضـافَتُه إلى آ ل فِـرعـون بقولـه: ﴿ وَفِيْ ذٰلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ عَظِيْمٌ ﴾ أَشدُّ مناسبـة لسياق الآية وهو الامِتنـان. ولهـذا قـال: ﴿ يُقَتِّلُـونَ. . . . . . . وَيَسْتَحْيُوْنَ ﴾ [٧/١٤١]. فأضـاف إليهم الفِعلين.

قلنـا: البَـلاءُ مشترك بين النِّعمـة والمِحنـة ، لأَنّه من البَـلاء وهـو الاخِتبـار. يُقـال: بـلاه وابتـلاه أي اختبره. والله تَعالى يَختبـر شُكـر عبـاده بالنّعمـة، ويختبر صَبرهم بالمِحنـة. يؤيّـده قوله تعـالى[٢٨] ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالحَسَنَـاتِ والسَّيِّئَـاتِ﴾ وقـوله تعـالى[٢٩]: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بالشّرّ والخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فمعنى الآيـة: وفي ذلك الإنجـاء نعمـةٌ عظيمـة من ربّكم عَليكم.

فـإن قيـل: قوله تعـالى: ﴿وَوَاعَدْنَـا مُوسَى ثَلاَثِيْنَ لَيْلَةً وأَتممْنَاهَا

(٢٧) قُرِىء «يَعْرِشُون» بكسر الرّاء، و(يَعْرُشون) بضمّها.
(٢٨) الأعراف: ٧/١٦٨.
(٢٩) الأنبياء: ٢١/٣٥.

بِعَشْرٍ﴾ [١٤٢/٧] المُوَاعدة كانت أمره بالصَّوم في هذا العدد، فكيفَ ذكرَ اللّيالي مع أنّها ليست محلاً للصوم بل يقع في القلب أنّ ذكر الأيّام أولى لأنّها محل الصَّوم الذي وقعت فيه المُوَاعدة؟

قلنا: العرب في أغلب تواريخها إنّما تذكر الليالي وإنْ كان مُرادها الأيّام؛ لأنَّ الليل هو الأصل في الزّمان والنّهار عارضٌ، لأنّ الظُّلمة سابِقَةٌ في الوُجود على النُّور(٣٠).

وقيل: إنه كان في شَريعة موسى عليه الصّلاة والسلام جوازُ صَوم اللَّيْل.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيْقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً﴾ [١٤٢/٧]. وقد علم مجموع الميقات من قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوْسَى ثَلَاثِيْنَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [١٤٢/٧].

قلنا: فيه فوائد:

أحدها: التأكيد.

الثانية: أن يعلم أن العشر ليالٍ لا ساعات.

الثالثة: أن لا يتوهم أنّ العشر التي وقع بها الإتمام كانت داخلةً في الثّلاثين. يعني كانت عِشرين وأُتمّت بعشر كما في قوله تعالى(٣١): ﴿وَبَارَكَ فِيْهَا وَقَدَّرَ فِيْهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾. على ما ذكرناه مشروحاً في سورة حَم السَّجدة.

فإن قيل: لِمَ قال موسى عليه الصّلاة والسّلام: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ

---

(٣٠) اعتماد المسلمين إنّما هو على التّقويم القمري. ويبدأ الشهر برؤية الهلال (في أول ليلة يولد فيها الهلال) فلهذا أرّخ العرب والمسلمون بالليالي دون الأيّام. وقال ابن العربي: «حساب الشمس للمنافع وحساب القمر للمناسك». وهو تعبير حسن.

(٣١) فصّلت: ١٠/٤١

المُؤمِنِيْنَ﴾[١٤٣/٧]. وقد كان قبله كثير من المؤمنين وهم الأنبياءُ ومَن آمَن بهم؟

قلنا: معناه: وأنا أوّل المُؤمنين بأنك لا تُرى بالحاسَّة الفانية من الجَسدِ الفاني في دار الفَناء.

وقيل معناه: وأنا أوّل المؤمنين من بني إسرائيل في زماني.

وقيل أراد بالأول: الأقوى والأكمل في الإيمان؛ يعني لم يكن طلبي الرُّؤيَة لشكٍّ عندي في وجودك أو لضعفِ إيماني بل طلب مزيد الكرامة(٣٢).

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأْمُر قَومَكَ يَأْخُذُوا بِأَحسَنِهَا﴾ [١٤٥/٧]. وهم مأمورون بالعمل بكل ما في التَّوراة؟

قلنا: معناهُ بحسنها، وكُلّها حَسن.

الثاني: أنهم أُمروا فيها بالخير ونُهوا عن الشرّ فَفِعْلُ الخَيْرِ أَحسنُ من ترك الشر.

الثالث: أنّ فيها حَسناً وأحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر، والواجب والمندوب والمباح؛ فأُمروا بالأخذ بالعزائم والفَضَائل وما هو الأكثر ثواباً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوْسَى مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِم عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ﴾ [١٤٨/٧]. واتّخاذهم العِجل إنما كان في زمن مُوسى عليه الصلاة والسلام بالنّقل، وفي سياق الآية ما يدل على ذلك.

قلنا: بعد ذهابه إلى الجبل.

---

(٣٢) في (ب): بل لطلب مزيد الكرامة.

وقيل من بعدِ عهده عليهم أنّ لا يعبدوا غير الله .

فإن قيل: كيف عبّر عن الندم بالسُّقوط في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [٧/١٤٩]. وأيُّ مناسبة بينهما؟

قلنا: لأن من عادة من اشتدّ نَدَمُه وحزنه على فائتٍ أن يعضّ يده غَمّاً لتصير يده مسقُوطاً فيها؛ لأن فاهُ قد وقَع فيها. و «سُقِطَ» مُسْنَدٌ إلى قوله: ﴿فِي أَيْدِيْهِم﴾ [٧/١٤٩]. وهو من كنايات العرب(٣٣) كقولهم للنّائم: ضُرِبَ على أُذنه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿غَضْبانَ أَسِفاً﴾ [٧/١٥٠] وهما مُتَقاربان في المعنى

قلنا: الأَسِف: الحزين.

وقيل: الشديد الغضب؛ ففيه فائدةٌ جديدة(٣٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَخَذَ الأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ [٧/١٥٤]. ولم يقل: «وفيها» وإنما يقال: ﴿نسختها﴾ لشيءٍ كُتِبَ مرّةً ثم نقل. فأمّا أوّل مكتوب لا يُسَمّى(٣٥) نسخة. والألواح لم تُنقل من مكتوب آخر.

قلنا: لما ألقى الألواح قيل إنه انكسر منها لوحان فنسخ ما فيها في لوح ذهب وكان فيها الهُدَى والرَّحمة وفي باقي الألواح تفصيلُ كلّ شيء.

وقيل إنما قال: ﴿وَفِي نُسْخَتِها﴾ [٧/١٥٤] لأنّ الله تعالى لقّن

---

(٣٣) يقال: سُقِط، وأُسقط.

(٣٤) وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه: الأَسف منزلةٌ وراء الغضب أشدّ من ذلك.

(٣٥) كذا في المخطوطتين؛ والصواب من جهة النحو، فلا يُسمّى. ووجدت المؤلف ـ على ذمّة المخطوطتين ـ يترخّص في أشياء من اللغة والنّحو. وتركتُ الأصل على حاله دائماً من هذه الجهة.

موسى عليه الصلاة والسلام التّوراة ثم أمره بكتابتها فنقلها من صَدره إلى الألواح فسمّاها نُسخة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [١٥٧/٧] يعني القرآن، والقرآن إنّما أُنزل مع جبريل على النبيّ ﷺ لا مع النبي.

قلنا: معه: أي مقارناً لزمانه.

وقيل معه: أي عليه.

وقيل معه: أي إليه.

ويجوزُ أن يتعلّقَ (معه) بـ(اتّبعوا) لا (بما أُنزل): معناه: واتّبعوا القُرآن المنزّل مع اتّباع النبي عليه الصلاة والسّلام والعمل بسنته. أو اتبعوا القرآن كما اتّبعه هو مُصاحِبين له في اتّباعه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْهُم قَولاً غَيْرَ الَّذِي قِيْلَ لَهُم﴾ [١٦٢/٧]. وهم إنّما بدّلوا القول الّذي قيل لهم لأنّهم قيل لهم قولوا حِطّة، فقالوا: حنطة [١٦١/٧].

قلنا: قد سَبق هذا السّؤال وجوابه في سورة البقرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُلنا لَهُم كُونوا قِردَةً خَاسِئين﴾ [١٦٦/٧] وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس في مقدورهم؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.

فإن قيل: الحليم من صفات الله تعالى فكيف قال تعالى: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيْعُ العِقَابِ﴾ [١٦٧/٧]. وسُرعة العقاب تُنافي صفةَ الحِلم؛ لأنَّ الحليم هو الّذي لا يُعَجّل بالعُقوبة على مَن عَصاه؟

قلنـا: معنـاه شديد العِقـاب.

وقيل: معنـاه سريع العقـاب إذا جـاءَ وقتُ عقابه لا يرُّده عنه أحـد(٣٦).

فـإن قيل: التمسّك بالكتـاب يشتمـل على كـل عبادة ومنها إقـامةُ الصَّلاة فـكيف قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُوْنَ بالكِتَـابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ [٧/ ١٧٠].

قلنـا: إنـما خـصَّها بالذكر إظهـاراً لمزيّتهـا لكونها عمادَ الدين بالحَـديث(٣٧)، وناهـية عن الفحـشاء والمُنـكر بالآيـة.

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكَلبِ﴾ [١٧٦/٧] تمثيلُ لحـال بلعام، فـكيف قـال بعده: ﴿سَاءَ مَثَلاً القَومُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَـا﴾ [١٧٧/٧] والمثـل لم يُـضرب إلاّ لواحـد؟

قلنـا: المثل في السورة وإن ضُرِبَ لبـلعام، ولكـن أُريـد به كفّـار مـكة كـلّهم لأنّهـم صنعوا مع النبي ﷺ بـسبب ميلهم إلى الدُّنيا وشهواتها من الكيـد والمكر ما يشبه فعل بلعام مع مُوسى عليه الصَّلاة والسَّلام.

الثاني: أنّ ﴿سَاءَ مثلاً القَوْمُ﴾ راجـعٌ إلى قوله تعـالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ﴾ [١٧٦/٧] لا إلى أوّل الآيـة.

فـإن قيـل: كـيف قـال: ﴿إِن أَنَـا إِلاَّ نَذِيـرٌ وَبَشِيـرٌ لِّقَـومٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ [١٨٨/٧]. وهـو عليه الصلاة والسلام كـان نـذيراً وبـشيراً للنـاس كافة. كـما قـال تعـالى(٣٩): ﴿وَمَا أَرسَلنَـاكَ إِلاَّ كافَّة لِّلنَّـاسِ بَشِيْراً وَنَذِيْراً﴾؟

(٣٦) الآيـة الكريمـة: ﴿وَإِذْ تأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سوءَ العَذَابِ إِنَّ رَبّـك لَسَرِيْعُ العِقَـابِ وَإِنَّـهُ لَغَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾.

(٣٧) إشـارة إلى قَوْلِهِ عليه الصلاة والسـلام: «رَأْسُ الأَمرِ وَعَمُودُهُ الصَّلاة، وذِروَةُ سَنَامِهِ الجِهَـاد» (مسند الإمام أحمد ٥: ٢٣١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهى عن الفحشَاءِ والمُنْكَرِ﴾.

(٣٨) في كتـب التفسير، والقصص أنّـه بلعام بن بـاعوراء، من بني إسـرائيل كـان في زمن موسى عليه السّلام. وقيل فيه كـلامٌ وأخـبار (ينظر مثـلاً القرطبي ٧: ٣١٩ ـ ٣٢١).

(٣٩) سبأ: ٢٨/٣٤

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ [١٨٨/٧] لقوم كُتب لهم في الأزل أنّهم يؤمنون. وإنما خَصّهم بالذّكر لأنّهم هم المُنتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم. فكأنّه نذير وبشير لهم خاصة كما قال تعالى(٤٠): ﴿إنَّما أنت مُنْذِرُ مَن يَخشَاهَا﴾.

ويجوزُ أن يكون متعلق النّذير محذوفاً تقديرُه: إن أنا إلاّ نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر كما استغنى بالجملة عن التّفصيل في تلك الآية؛ لأنَّ المعنى: وما أرسلناك إلاّ كافة للنّاس بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى حكاية عن آدم وحواء: ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيْمَا آتَاهُمَا﴾ [١٩٠/٧] وقال ﴿فتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٩٠/٧]. والأنبياء مَعْصومون عن مُطلق الكَبائر فضلاً عن الشّرك الّذي هو أكبرُ الكبائر؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [١٩٠/٧] أي جعلَ أولادُهما؛ بطريق حذف المضاف. وكذا قوله تعالى: ﴿فِيْمَا آتَاهُما﴾ [١٩٠/٧] أي فيما آتى أولادهما. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٩٠/٧] حيث ذكر ضمير الجَمع ولم يقل يُشركان ومعنى إشراك أولادهما فيما آتاهما الله تسميتهم ألاودهم بعبد العُزّى وعَبد مَناف وعبد شَمس ونحو ذلك مكان عَبْدِ الله وعبد الرّحمن وعبد الرَّحيم.

وقيل الضّمير في (جعلا) للولد الصالح وهو السَّليم الخلق وإنّما

---

(٤٠) النازعات: ٤٥/٧٩

قال (جعَلا) لأنّ حواء كانت تلد في كُلّ بطنٍ ذكراً وأُنثى.

وقيل: المرادُ بذلك تسميتها إيّاه عبد الحارث. والحارث كان اسم إبليس في الملائكة. وسبب تلك التسمية تُعرف من تفسير الآية. وإنّما قال ﴿شُرَكَاء﴾ [٧/ ١٩٠] إقامة للواحد مقَام الجَمع. ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث رَبّه بل قصدا أنّه كان سبب نجاته[٤١].

وقال جمهُور المفسّرين قوله: ﴿فَتَعَالَىٰ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٧/ ١٩٠] في مشركي العرب خاصّة وهو منقطعٌ عن قصّة آدم وحواء.

---

(٤١) زاد في القرطبي: فسمّياه به كما يسمّي الرجلُ نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لا على أن الضيف ربّه، كما قال حاتم (ديوانه: ٤٤).

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما فيّ إلاّ تيك من شيمة العبد

سُورَةُ الانفَالِ

فـإن قيـل: قولُه تعـالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [٨/٢] إلى آخر الآيتين تـدلّ على أَنّ من لم يتصف بجميع تـلك الصّفـات لا يـكونُ مؤمناً؛ لأنّ كـلمة إنَّـمَا للحـصر.

قلنـا: فيه إضـمار تقديره: إنّـما المؤمنـون إيـماناً كامـلاً، أو: إنّـما الكامِلُوْ الإيمان، كمـا يقـال: الرَّجُل مَن يَصْبِرُ على الشَّدائد، يعني الرّجـل الكامـل.

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [٨/٤] ينفي إرادة ما ذكرتـم.

قلنـا: معنـاه أولئـك هـم المؤمنـون إيمـاناً كامـلاً.

وقيـل: إنّ ﴿حَقًّا﴾ [٨/٤] يتعلـق بما بعـدَهُ لا بِمَـا قَـبله. و ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٨/٤] تمـام الكـلام(١).

فـإن قيل: كـيف قـال إنّ الإيمـان لا يـقبل الزّيـادة والنُّقصان، وقـد قـال الله تعـالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَت عَلَيْهِـم آيَاتُهُ زَادَتْهُـم إِيْمَـاناً﴾ [٨/٢]؟

قلنـا: المُـراد بالإيمـان هنا آثـار الإيمـان من الطّمأنينة واليَـقين والخَـشية ونحـو ذلك؛ لأنّ تظاهـر الأَدلّة على المدلُول مّما يـزيد رُسوخـاً في العَقـائد وثبوتاً. فأَمّـا حـقيقة الإيمـان فهـو التّصـديق والإقـرار بوحـدانيّة الله تعـالى.

---

(١) قيـل في نَصب (حَقّاً) ثلاثة أقـوال: الأوّل أنّـه مصدَرٌ (مفعـولٌ مطلق) مؤكّـد، والتقدير: أُحِقُّ ذلكَ حـقّاً؛ والثـاني أنّـه صفةٌ للمصـدر المحـذوف، والتقدير: أُولئك هـم المؤمنون إيـماناً حـقّاً؛ والثـالث ما ذَكَرَهُ المؤلف هُنـا، وضَعّفَهُ أبو حـيّان في البحـر المحيـط (٤: ٤٥٨) لأنَّ (حـقّاً) علىٰ هـذا التقدير مؤكِّـدةٌ للجـملة التي بَعْدَهـا، ولا يجـوز تأكيد ما لَمْ يُذْكَر بَعْد، قـال: وقد أجـازه بعضُهـم، وهو ضعيـف.

وكما أنّ الإلٰهيّة والوحدانية لا تقبَلُ الزّيادة والنقصان فكذلك الإقرارُ بها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ﴾ [٥/٨]. تشبيه فأين المشبّه به؟

قلنا: معناه: امْضِ على ما رأيته صواباً من تنفيل الغُزاة في قِسمة الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت في خُروجك من بيتك للحرب بالحقّ وهم كارهون.

وقيل معناه: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم، وإن كرهتم كما كان إخراجك من بيتك بالحق خيراً لهم وهم كارهون.

وقيل معناه: أولئك هم المؤمنون حقّاً كما أخرجك رَبّك من بيتك بالحق(٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ البَاطِلَ﴾ [٨/٨] وكلاهما متعذر لأنَّه تحصيل الحاصل؟

قلنا: المراد بالحقّ الإيمان، وبالباطل: الشِّرك؛ فاندفع السؤال.

فإن قيل: ما فائدة التَّكرار في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيْدُ الله أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِيْنَ لِيُحِقَّ..﴾ [٧/٨ و٨]؟

قلنا: إنّما ذكره أولاً لبيان أنّ إرادتهم كانت متعلّقةً باختيار الطائفة التي كانت فيها الغنيمة، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التي في قهرها

---

(٢) وقيل: الكاف في ﴿كما﴾ كاف التَّشبيه، ومخرجه على سبيل المُجازاة كقول القائل لمن أنعم عليه: كما أحسنت إليكِ فاشكرني عليه. والمعنى: كما أخرجك ربّك من بيتك بالحق وغشّاكم النعاس أَمَنةً منه وأنزل من السماء ماءً ليطهركم به وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُردفين فأضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان.
(عن القرطبي ٧: ٣٦٨).

نُصرة الـدين. فذكـره أولاً للتَّمييز بين الإرادتين، ثم ذكـره ثانيـاً لبيـان الحـكمة في قـطع دابر الكافـرين.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُـم وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُـم وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى﴾ [١٧/٨] ومعـلوم أنّ المؤمنـين يوم بـدر قَتلوا الكـفار ورمـاهم النبيّ عليه الصلاة والسلام بكفٍّ من حَصَىٰ الوادي في وجوههم، وقـال: شاهـت الوجـوه! فلم يـبق مُشـرك إلا وقع في عينيه شيءٌ من ذلكَ فَشُغِلوا بعيونهـم وانْهَـزموا فَتبعهـم المؤمنون يقتلون ويـأسرون[٣]؟

قلنـا: لمـا كان السّبب الأَقـوى في قَتلهـم إنـما هو مـدد الملائكـة وإلقـاء الرُّعـب في قـلوب الكافـرين وتثـبيت قـلوب المُؤمنـين وأقـدامهم - وذلك كـلّه فِعْلُ[٤] الله تعـالى - نـفى الفِعـل عنهـم ونسَبه إليه. يعني إنْ كـان ذٰلك في الصُّورة منكم فهـو في الحـقيقة منّي. فسبيلك الشّكر دون العجـب والفخـر. وكـذلك الرّمـية أثبتهـا لرسـول الله ﷺ لأن صورتهـا وُجـدت منه ونَفاهـا عنه لأَنَّ أَثـرها الّذي لا يُوجـد مثله عن رَمـي البشر فعل الله تعـالى. ونظيرُ هٰـذا قـولك لمن يـصدر عنه قولٌ حَـسن أو فعـل مكروهٌ بتسْليط مَن هـو أعـلى رتـبةً منه: هـذا ليس قـولك ولا فعـلك!

وقـيل معنى قـوله تعـالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [١٧/٨] ومـا رميت الرُّعـب في قـلوبهـم إذْ رمَـيت الحـصَى في وُجـوههم ولكنّ الله رمَـى الرُّعـب في قُلوبهـم.

ولأهـل الحقـيقة[٥] في هـذه الآيـة وفي نظـائرهـا من الكتـاب والسُّنّـة

(٣) في النهـاية (٢: ٥١١) ونقـلة في اللّسـان: في حَـديث النَّبي ﷺ: أنّـه رمـى المشركـين يوم حُنَيْـنٍ بكفٍّ من حـصًى وقـال: شاهـت الوجـوه أي قَبُحَـت الوجـوه.
وانظرِ الخـبر في السيرة (١: ٦٢٨).

(٤) في (أ) فعـله. واخـترت رواية (ب).

(٥) يعني المتصوّفة.

مباحثُ لا يحملُها هذا المختصر وهي مُستقصاة في كُتب التصوّف.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيْعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوا عَنْهُ﴾ [٨/ ٢٠] ثنّى في الأمر ثم أفردَ في النّهي؟

قلنا: كما يذكر في لُغة العرب الاسم المفردُ، ويُراد به الاثنان والجَمع، فكذلك يُذكر ضمير المُفرد ويُراد به ضميرُ الاثنين، كقولهم: «إنعامُ فلان ومعروفُه نَعشني»(٦)، و«الإنعام والمعروف لا ينفعُ مع فُلان». وعَليه جاء قوله تعالى(٧): ﴿وَالله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرضُوْه﴾ أي: أن يُرضوهما فكذّا هذا معناه: ولا تولّوا عنهما.

الثاني: أن طاعة الله وطاعة رسوله لمّا كانتا سبَباً واحداً مُحكماً؛ لقوله تعالى(٨): ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله﴾ وقوله تعالى(٩): ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ الله﴾ كان الإعراض عن الرّسول إعراضاً عن الله تعالى؛ فاكتفى بذكره.

الثالث: أنّ معناه: ولا تَولّوا عن هذا الأمر وعن أمثاله، والضّمير للأمر لا للرّسول عليه الصّلاة والسّلام.

الرابع: أنّه إنما لم يقل: ولا تولّوا عنهما لئلاّ يلزم منه الإخلال بالأدب من النبيّ ﷺ عند نَهيه للكفّار في قراءته بينَ اسْمِه واسم الله تعالى في ذكرهما بلفظٍ واحدٍ من غير تقديم اسم الله؛ كما رُوي أن خطيباً خَطب فقال: مَنْ أطاع الله ورسوله فقد رشَد ومن عَصَاهُما فقد غَوَى؛ فقال له النبيّ

(٦) في (ب): إنعامُ فلانٍ ومعروف فلان نَعشني.
(٧) التوبة: ٦٢/٩
(٨) النساء: ٤/ ٨٠
(٩) الفتح: ٤٨/ ١٠

ﷺ(١٠) «بئس خطيبُ القوم أنت. هَلاّ قُلت: ومَن عصَى الله ورسوله فقد غَوى؟».

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَو عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأسمَعَهُم﴾ [٨/٢٣] الآية؟

قلنا: ولو علم الله فيهم تَصديقاً وإيماناً في المُستقبل لأنطق لهم المَوْتَىٰ يشهدون بتصديق نبوّتك كما طَلَبُوا.

وقيل: معنى لأسمعهم لرزقهم الفَهم والبَصيرة. ولو أسمعهم وحالهم هذه الحال، وهو أنه لم يعلم فيهم الخَيْر(١١)، لتولّوا وهُم مُعْرِضُون.

فإن قيل: التولّي والإعراض واحد فما فائدة قوله تعالى: ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ﴾ [٨/٢٣]؟

قلنا: معناه لتولّوا عن الإيمان وهُمْ معرضون عن البُرهان فلا تكرار.

فإن قيل: فما فائدة ذكر السماء في قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [٨/٣٢]. والمطرُ إنّما يكونُ من السماء؟

قلنا: المطر المُطلق إنّما يكون من السّماء، ولكن المطر المضاف هنا وهو مطر الحِجَارة قد يكون من رُؤوس الجبال ومن حِيطان المَساكن والقُصور وسُقوفها فكان ذكر السَّماء مُفيداً؛ لأنّ الحجارة إذا نزلت من السَّماء كان أشدّ نكايةً وأكثر ضرراً.

الثّاني: أنّه لمّا كانت الحجارة مُسَوّمة للعذاب وهي السِّجّيل معهودة

---

(١٠) في مسند الإمام أحمد: (٤: ٢٥٦): أنّ رجلاً خطب عند النبي ﷺ، فذكر نحواً ممّا أورد المصنّف، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعصِ الله ورسوله».

(١١) يريد: علم أنّه ليس فيهم خير.

النزول من السّماء، ذكر السماء إشارة إلى إرادة المفهومُ من الحجارة لأنه قال: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً من سِجِّيْلٍ﴾ فوضع قوله: ﴿مِن السَّماءِ﴾ [٨/٣٢] مَوْضِعَ قوله ﴿مِن سِجّيلٍ﴾(١٢) كما تقول: صبّ عليه مسرودةً من حديد، تعني درعاً!

فإن قيل: كيف قال تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُم وَأَنتَ فِيهِم﴾ [٨/٣٣]. ويوم بدر عَذّبهم الله تعالى بالقَتْل والأَسر وهو فيهم؟

قلنا: مَعناه وأَنت مقيمٌ بمكّة. وكان كذلك لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام ما دام بمكة لم يُعَذَّبوا؛ فلما أُخرجوه من مكّة وخرجوا لحربهِ عُذِّبوا.

وقيل: معناه وما كان الله ليعذبهم عذاب استئصال وأنتَ فيهم.

وقيل معناه وما كان الله ليعذّبهم العذاب الذي طلبُوه وهو إمْطَار الحجارة.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى أوّلاً: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُم وأَنتَ فِيهِمْ﴾ [٨/٣٣] الآية. ثم قال: ﴿وَمَا لَهُم أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ الله﴾ [٨/٣٤]. وهو يوهم التناقض؟

قلنا: معناه: وما لهم أن لا يعذبهم الله بعد خُروجِك من بَينهم، وخُروج المؤمنين المُستغفرين.

وقيل المراد بالعذاب الأَوّل عذاب الاستئصال. وبالثّاني عذاب غير الاستئصال. وقيل المراد بالأَوّل عذاب الدُّنيا وبالثاني عَذاب الآخرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُم عِنْدَ البَيْتِ إلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [٨/٣٥] والمكاء الصَّفيرُ، والتَّصدية: التصفيق. وهما ليسَا بصَلاة؟

---

(١٢) الحِجر: ١٥/٧٤ وهود: ١١/٨٢

قلنا: معناه أنهم أقاموا المُكَاء والتّصدية مقام الصَّلاة، كما يقول القائل: زرتُ فلاناً فجعلَ الجفاء صِلَتي، أي أقام الجَفاء مقام الصِّلة، ومنه قول الفَرَزْدَق(١٣):

أخافُ زياداً أن يكونَ عَطاؤهُ أداهمَ سُوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْراً

أراد بالأداهم القُيود والمُحَدْرَجَة السّياط، ووضعَهما موضعَ العَطاء!

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَر لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا﴾ [٨/٣٨] وهم لم ينتهوا عن الكُفر فكيف قال: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ [٨/٣٨]. والعَود إلى الشّيء إنّما يكون بعد تركه والإقلاع عنه؟

قلنا: معناه إن ينتهوا عن عَداوة رسول الله ﷺ ومحاربته يغفر لهم ما قد سلف من الكُفر والمَعاصي كماقال النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: الإسلام يَجُبّ ما قَبله(*). وإن يعودوا إلى الكُفر بالارتداد بعد ما أَسلموا فقد مضت سُنّة الأوّلين من الأمم في أخذهم بعذابِ الاستئصال.

فإن قيل الفائدة في تقليل الكُفّار في أَعْيُن المؤمنين ظاهرة وهي زوال الرعب من قلوب المُؤمنين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القِتال. فما فائدة تقليل المؤمنين في أَعْيُن الكُفّار حتّى قال تعالى:

(١٣) احتجّ في اللسان بهذا البيت في مادّة (ح د ر ج)، ومعنى حَدْرَجَه: فتَله وأحكمه. ويقال: سوط محدرج أي مجدول مفتول فتلاً حسناً. والبيت في ديوان الفرزدق (١ : ٢٢٧) وروايته فيه:

فلمّا خشيتُ أن يكون عطاؤه أداهم سوداً أو محدرجة سمرا

- وزياد المذكور في البيت هو زياد بن أبي سفيان والي العراق.
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قريش تطوفُ بالبيت عُراة (يعني في الجاهلية) يصفّقون ويصفرون، فكان ذلك عبادةً في ظنّهم.
- واغتنمها القرطبي فرصة ليعيب على الذّين يقترفون شيئاً مقارباً وهم الجهّال من الصوفيّة الذين يرقصون ويصفّقون ويصعقون، وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء!

(*) والحديث مشهور؛ وهو في النهاية (ج ب ب).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [٨/٤٤] مع أنّ في ذلك زوال الرُّعب من قُلوب الكَافِرين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال؟

قلنا: فائدته ألّا يستعدّ الكفّار كلّ الاستعداد وأن يَجترؤوا على المُؤمنين مُعتمدين على قِلّتهم ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيّروا، وأن يكون ذلك سَبباً يتنبَّهُ به المُشركون على نُصرة الحقّ إذا رأوا المُؤمنين مع قلّتهم في أعينهم منصورين عليهم. وفي التقليل من الطرفين معارضة تُعْرَف بالتَّأمُل.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم﴾ [٨/٤٦] يدلّ على حُرمة المنازعة والجَدل أيضاً لأنّه منازعة؛ فكيف تجوزُ المناظرة وهي مُنَازَعةٌ وجَدل؟

قلنا: المُراد بالمنازعة هنا المنازعة في أمر الحرب والاختلاف فيه لا المُنَازعة في إظهار الحق بالحجّة والبُرهان. والدّليل عَليه أنّ ذلك مأمورٌ به قال الله تعالى[١٤]: ﴿وجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لكنْ لجواز المُنَاظرة شروط يندُر وجودها في زماننا هذا:

أحدها: أن يكون كلّ المقصودُ منها ظهور الحقّ على لسان أيّ الخَصمين كان، كما كانت مُناظرة السَّلف. وعلامة ذلك أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه أكثر ممّا يفرح بظهوره على لسانِ خصمه.

فإن قيل: كيف قال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ [٨/٤٨] وهو لا يخافُ الله تعالى؛ لأنّه خَافَهُ لما خالَفه ثم أضلّ عبيده؟

قلنا: قال قتادة: صدق عدوُّ الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَونَ﴾ [٨/٤٨] يعني جبريل وملائكته معه نازلين من السَّماء لنصرة

---

(١٤) النحل: ١٦/١٢٥

المسلمين يـوم بـدر، وكذَب في قـوله: ﴿إِنّـي أَخَـافُ الله﴾ [٤٨/٨] واللهِ مـا به مخـافةُ الله، ولكنْ علمَ أنّـه لا قوّة له فيهـم.

وقيل: لمّـا رأى نـزول الملائكـة على صُورةٍ لم يرهـا قطّ خـاف قيـام السّاعة التي هـي غايةُ إنظـاره[١٥] فيحـلّ به العذابُ المَوعُود.

وقيل: معنى «أخاف الله» أعـلم تصديق وعـده لنبيه بالنصر وقد جـاء الخـوف بمعنى العلم ومنـه قـوله تعـالى[١٦]: ﴿إِلاَّ أَنْ يَخَـافَا أَلاَّ يُقِيْمَا حُدُودَ الله﴾.

ويُحـتمل عندي أن يـكون خـاف أن يحـلّ به من الملائكـة ما دون الإهـلاك من الأذى إنْ لم يخـف الإهـلاك. ثم أَقُـول كـيف يُؤخـذ عليه كـذبةٌ واحـدةٌ وهـو أفسَقُ الفَسقـة وأَكـفَرُ الكَفـرة؟ فلا عَجَـب في كَذِبـه، وإنّـما العَجَـبُ في صِدقه!

فـإن قيل: أيّ مناسبة بين الشّرط والجَـزاء في قـوله تعـالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّـلْ عَلَى الله فَإِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيْمٌ﴾ [٤٩/٨]؟

قلنـا: لمّـا أقـدم المؤمنون وهـم ثلاث مئة وبضعـة عَشر على قتـال المُشركين وهـم زهـاء ألف؛ متوكّلين على الله، وقـال المُنـافقون غرَّ هؤلاء دينُهـم حـتى أَقدموا على ثلاثة أمـثالهـم عَدداً أو أكثر؛ قـال الله تعـالى ردّاً على المُنافـقين وتثبيتاً للمؤمنين ﴿وَمَن يَتَوَكَّـلْ عَلَى الله فَإِنَّ الله عَـزِيزٌ حَكِيْمٌ﴾ [٤٩/٨] أي: غـالب يـسلّط القـليل الضّعيف على الكـثير القوّي وينصره عليه؛ حـكيم في أفعـاله.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلعَبِيْدِ﴾ [٥١/٨]

---

(١٥) في سورة الأعـراف ١٥/٧ (﴿قـال أَنْظِرْنِيْ إلى يـوم يبعـثون. قـال إنّـك من المُنْظَرِيْنَ﴾ ويـراجع ما في سورة الحـجر: ٣٧/١٥، وصٓ: ٨٠/٣٨ في هـذا المعنى.

(١٦) البقـرة : ٢٢٩/٢

ولم يقل: ليس بظالم، وهو أبلغُ في نفي الظُّلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: قد سبق هذا السُّؤال وجَوابه في سورة آل عمران.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعمَةً أَنعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفسهم. . .﴾ [٨/٥٣] وذلك إشارة إلى إهلاك كُفّار مكة وآل فرعون ولم يكن لهم حالٌ مَرضيّةٌ غَيَّرُوها.

قلنا: كما تُغَيَّرُ الحال المَرْضِيَّةُ إلى المَسْخُوطة تُغَيَّرُ المسخوطة إلى أَسْخَطَ منها وأسوأ؛ وأولئك كانوا ـ قبل بعثة الرَّسول إليهم ـ عُبَّاد أَصنام، فلمّا بُعِث الرَّسول إليهم بالآيات البيّنات فكذّبوه وعادَوه وسَعوا في قتله غَيَّرُوا حالهم إلى أسوأ منها، فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجَلهم بالعَذاب.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿فَهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٨/٥٥] بعد قوله: ﴿إِنَّ شرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٨/٥٥]؟

قلنا: مُراده أن يبين أنّ شر الكُفّار الذين كفروا واستمرّوا على الكفر إلى وقت الموت.

فإن قيل: ما فائدةُ تكرار المعنى الواحد في مُقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التّخفيف وبعده في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُم عِشْرون صَابِرُون يَغلِبُوا مِئَتَين﴾ [٨/٦٥] إلى قوله: ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٨/٦٦]؟

قلنا: فائدته الدلالة على أنّ الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت بل كما ينصر الله تعالى العِشرين على المئتين ينصر المئة على الألف. وكما ينصر المئة على المئتين ينصر الألف على الألفين.

فإن قيل: كيف أخبر الله تَعالى عن هذه الغَلبة ونحن نُشاهد الأمر بخلافها فإن المِئة من الكفّار قد تغلب المئة من المُسلمين بل المئتين في بَعض الأحوال؟

قلنا: إنّما أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة بشرط الصّبر الذي هو الثّبات في موقف الحَرب أو الّذي هو المُوَافقة بين المُسلمين ظاهراً وباطناً. فمتى وُجِدَ الشّرط تحقّقت الغَلبة للمُسلمين مع قلّتهم لا محالة. ولقائلٍ أن يقول: إنّ هذه الغَلبة مخصوصةٌ بطائفةٍ كان النبيّ عليه الصلاة والسلام أَحدهم، وسياق الآية يدل عليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالله يُريد الآخرةَ﴾ [٨/٦٧] مع أنّه أراد الدُّنيا أيضاً لأنّه لولا إرادته إيّاها لما وُجِدَت؛ فما فائدة هٰذا التّخصيص؟

قلنا: المُراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبّة لا إرادة الوُجود والكون. فالمَعنى تُحِبّون عَرَض الدُّنيا وتَختارونه والله يختارُ ما هو سبَبُ الجنّة؛ وهو إعزاز الإسلام بالإثخان في القَتل.

سُـورَةُ التـوبَـة[1]

فـإن قيـل :لأيّ سبَب تُـركت كتابةُ البَسمـلة في أوّل هٰـذه السُّورة بخـلاف سائـر السُّور[2]؟

قلنـا: لمّا تشابهـت هي والأنفـال واخْتَلفـت الصّحـابة في كونها سُورتـين أو سورة واحـدة نَزلت بينهـما فُرجـة عَمـلاً بـقول مَنْ قـال هُـما سورتان. وتُركـت البسملة بينهـما عمَلاً بقـول مَنْ قـال هـما سُـورة واحـدة. وممّن قـال بـذلك قـتادة.

الثـاني:. أن اسم الله تَعـالى سلامٌ وأمـان فلا ينـاسب كتابته النّبذ والمحـاربة.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿وَإِن نَكَثُـوا أَيمَانَهُـم مِنْ عَهْدِهِـم وَطَعَنُوا فِي دِينِكُـم فَقَـاتِلُوا أَئِمَّـةَ الكُفرِ﴾ [٩/١٢] : خـصَّ الأمـر بالقتـال بأئمّـة الكُفـر مع أنّ النّـكث والطعـن ليس مخـصوصاً بهـم بـل هو مُسنـد إلى جـميع المشركين؟

قلنـا: المُـراد بأئمّـة الكفر رؤسـاء المُشركـين وقادتهـم.

وقـيل كـفّار مـكة لأنّهـم كانُوا قدوة جـميع العـرب؛ فـكأن النّـكث والطعـن لم يوجـد إلاّ منهـم لمّـا كانوا هـم الأصـل فيه؛ فلذٰلك خَصَّهـم بالذِّكـر.

فـإن قيل: كيف قـال: ﴿وَقَـالَتِ اليَهُودُ عُزَيرٌ ابنُ الله وقَـالَتِ النَّـصَارَى

---

(١) وهـي سورة (بَراءة)؛ ولهـا أسمـاء أُخـر تقصّاهـا المفسّرون ومؤرّخـو علوم القُرآن. (ينـظر القرطبي: ٦١/٨).

(٢) نقل القرطبي في ذلك خـمسة أقـوال.

المَسِيحُ ابنُ الله﴾ [٩/٣٠] ونحن نسأل اليهود والنّصارى ذلك فَيُنكرونه ويَجْحَدُونه؟

قلنا: طائفةٌ من اليهود وطائفةٌ من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا كلهم فالألف واللام للعهد لا للجنس. وأطلق اسمَ الكُلّ وأراد البَعض كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ وإنّما قال لها جبريلُ وحده.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِم﴾ [٩/٣٠] وقول كلّ واحد إنّما يكون بفمه؟

قلنا: معناه أنّه قولٌ لا تَعْضُده حُجّةٌ وبُرهان إنما هو مجرّد لفظٍ لا أصل له.

وقيل: ذكر ذلك للمبالغة في الردّ عليهم والإنكار لقولهم كما يقول الرجل لغيره: أنت قلت لي ذلك بلِسانك.

فإن قيل: دين الحقّ هو من جُملة الهدى، فما فائدة عطفه على الهدى في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ﴾ [٩/٣٣]؟

قلنا: المُراد بالهدى هنا القُرآن وبدين الحق الإسلام، وهما متغايران.

الثاني: أنه وإن كان داخلاً في جُملة الهدى ولكنّه خصّه بالذكر تشريفاً له وتفصيلاً؛ كما في قوله تعالى(٣): ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسطَى﴾ وقوله تعالى(٤): ﴿وَمَلائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [٩/٣٣] ولم يقل

---

(٣) البقرة: ٢/٢٣٨

(٤) البقرة: ٢/٩٨

على الأَديـان كُلّهـا مع أَنّـه أظهـره على الأَديـان كلهـا؟

قلنـا: المـراد بالدّين هنـا اسم الجِنس، واسمُ الجِنْسِ المعرّف باللاّم يُفيـد معنـى الجَـمع كمـا في قـولهم: كَثُرَ الدِّرهَـمُ في أَيـدي النّـاس.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿وَلاَ يُنْفِقُونَهـا في سَبِيْلِ اللهِ﴾ [٩/ ٣٤] والمذكـور الذّهـب والفضّة فأعـاد الضّمـير عَلَى أَحـدهما؟

قلنـا: أَعـاد الضّمـير على الفِضّة لأنهـا أقربُ المذكورَين، أَو لأنّهـا أَكـثرُ وجـوداً في أَيـدي النـاس، فـيكون كنزُهـا أكثر. ونظيرُه قـوله تعـالى[٥]: ﴿وَاستعينوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وَإِنَّهـا لَكَبِيْرَةٌ﴾.

الثـاني: أَنّـه أعـاد الضمير على المعنى لأنّ المكنـوز دنانير ودراهـم وأمـوال. ونـظيرُه قـوله تعـالى[٦]: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَـانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾؛ لأنّ كُلّ طائفةٍ مشتمـلةٌ على عـدد كـبير، وكذا قولُه تعـالى[٧]: ﴿هَـٰذانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ يَعني المؤمنـين والكافرين.

الثـالـث: أَنّ العـرب إذا ذكـرت شيئين يشتركـان في المَعـنى تكتـفي بـإعادة الضّمير على أَحـدهما استِغْنَـاءً بـذكره عن ذكـر الآخـر لمعرفـة السّامـع واشتراكهـما في المعنى. ومـنه قـول حـسّان بن ثابت[٨]:

إنّ شرخَ الشَّبـاب والشَّعر الأَسـ... ...وَد ما لَمْ يُعَـاصَ كـان جُنونا

ولم يـقل: ما لـم يُعَاصَـيا، وقـول الآخـر[٩]:

---

(٥) البقـرة: ٢/ ٤٥

(٦) الحـجرات: ٤٩/ ٩

(٧) الحـج: ٢١/ ١٩

(٨) البيت في ديـوان حـسان ـ بتحـقيق وليد عرفات ـ (٢٣٦) من قـصيدة في سـبعة أبيـات.
ـ يُقـال: عاصاني فعصوتُه؛ أي: خـاشنني بهـا أو عارضني بهـا فغلبتُه.

(٩) البيت لضابىء البرجـمي وقد سبق الاحـتجاج به.

فَمـن يـك أمسىٰ بالمدينة رحْلهُ فـإنِّي وقَـيَّارٌ بِـهـا لَـغَـرِيـبُ!

ولم يـقل لغريبان. ومنـه قوله تعـالى(١٠): ﴿وَاللهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَـقُّ أَنْ يُرْضُوْهُ﴾. وقـولُه تعـالى(١١): ﴿يَا أَيُّهـا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيْعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَولَّوْا عَنْهُ﴾. وليس قـولهُ تعـالى(١٢): ﴿وَإذا رَأَوْا تِجَـارَةً أَو لَهْـواً انْفَضُّوا إلَيْهـا﴾ ولا قـوله تعـالى(١٣): ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيْئَةً أَوْ إِثْمَاً ثمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فقـد احْتَمَل بُهْتَـاناً وَإِثْمَـاً مُبِيْناً﴾ مِن هـذا القَـبيل؛ لأنَّ الإخـبار، ثَمّ(١٤) عن أَحـدهما لوجـود لفظة (أو) وهـي لإثـبات أحـد المذكورين. فـمن جعلـه نظير هذا فقد سها، إلّا إنْ ثبت أن «أو» في هـاتين الآيتين بمعنىٰ «الواو».

وفي هـاتين الآيتـين لطيفة، وهـي أنّ الكـلام لمّـا اقتضـىٰ إعـادة الضمير على أَحـدهما أعاده في الآيـة الأولى على التّجـارة، وإن كـانت أبعـدَ، ومؤنـثة أيـضاً؛ لأنهـا أجـذب لقـلوب العِبـاد من اللّهـو لأن المنشغلين(١٥) بهـا أكثر من المشتغلين باللهـو، أو لأنهـا أكثر من اللّهـو، أو لأنهـا كانت أصـلاً واللهـو تبعاً، لأنـه ضـرب بالطبل لقـدومها علىٰ ما عُرِفَ من تفسير الآيـة.

وأعـاده في الآيـة الثانية على الإثـم رعايةً لمرتـبة القُـرب والتذكـير.

فـإن قيل: ما فـائدة قـوله ـ تعـالىٰ ـ ﴿إنَّ عِدَّةَ الشُّهـورِ عندَ الله اثْنَـا عَشَر شَهْـراً﴾ [٩/٣٦] وهـي عند النّـاس كـذلك في كـل مـلّة سواء كـانت الشهـور قمريّة أو شـمسية؟

(١٠) التوبـة: ٩/٦٢
(١١) الأنـفال: ٨/٢٠
(١٢) الجـمعة: ٦٢/١١
(١٣) النسـاء: ٢/١١٢
(١٤) في (ب) ثمّـة؛ وهـما بمعنىً.
(١٥) في (ب) المشتغلين.

قلنا: فائدته أن يعلم أنّ هذا التقسيم والعدد ليس ممّا أحدثه الناس، وابتدعوه بعقولهم من ذَوات أنفسهم، وإنما هو أمرٌ أنزله الله ـ تعالىٰ ـ في كُتبه على ألسنة رُسله.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [٩/٣٦] خصّ الأربعة الحرم بذلك، وظُلم النفس منهيٌّ عنه في كل زمان؟.

قلنا: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الضمير في قوله تعالى: ﴿فيهنّ﴾ راجع إلى قوله: ﴿اثنا عَشَرَ شهراً﴾ لا إلى الأربعة الحُرم فقط. فاندفع السّؤال.

الثّاني: أن الضميرَ راجعٌ إلى الأربعة الحُرُمِ: إمّا لأنّها أقرب؛ أو لما قال الفَرّاء أن العَرب تقول في العشرة وما دونها: لثلاثٍ ليَالٍ خَلَوْنَ، وأيَّامٍ خلون، وهُنّ وهٰؤلاء؛ فإذا جاوزت العشرة قالت: خلَتْ ومَضتْ، للفَرْق بين القليل وهو العشرة فمَا دونها وبين الكثير وهو ما زاد عليها. ولهذا قال في الاثني عشر «مِنها» وقال في الأربعة «فيهن». فعلىٰ هذا يكون تخصيصُها بالذِّكر: إمّا لمزيد فضلها وحُرمتها عندهم في الجاهليّة فيكون ظلم النفس فيها أَقبح، ونظيره قوله تعالى[١٦]: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾؛ وإن كان ذلك مَنْهِيّاً عنه في غير الحج أيضاً؛

أو لأنّ المراد بالظّلم «النَّسِيء» وهو كان مخصوصاً بها، أو قتال الكفار فيها ابتداءً، وترك قتالهم إذا ابتدؤوا وكلّ ذلك مخصوصٌ بها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فيهنّ﴾ والشهر مذكّر، فقياسه «فيها»؟

(١٦) البقرة: ٢/١٩٧

قلنا: الضّمير بالهاء والنون لا يختصّ بالمؤنث، ولو اختصّ فالمراد بقوله تعالى: ﴿فيهن﴾ ساعات الأشهر وهي مؤنّثة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [٩/٣٦] والإنسان لا يظلمُ نفسه بل يظلمُ غيرَه؟

قلنا: لا نسلّم أنه لا يظلمُ نفسه، قال الله تعالى(١٧): ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾؛ وقال تعالى(١٨): ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

الثاني: أنّ معناه فلا يظلمْ بعضُكم بعضاً، كما قال تعالى(١٩): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ وقال(٢٠): ﴿فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ وقال(٢١): ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

الثالث: أن معناه فلا تنقصوا حظّ أنفسكم من الآخرة بالمعصية، فإن من عصىٰ فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها، وتوجيهه العقاب والذم إليها، وإليه أشار بقوله تعالى(٢٢): ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدودَ الله فَقَدْ ظَلَم نَفْسَهُ﴾.

الرابع: أن كل ظالم لغيره ظالمٌ لنفسه في الحقيقة لأنّ ضرر ظلمه في حقّ المظلوم ينقطع عن قريب، لأنه لا يتعدّى الدنيا، وضرر ظلمه في حق نفسه يراه في الآخرة حيث لا ينقطع أو يكون أشدّ وأدْوَم.

---

(١٧) النساء: ٤/١١٠
(١٨) الطلاق: ٦٥/١
(١٩) البقرة: ٢/٨٤
(٢٠) البقرة: ٢/١٥٤
(٢١) الحجرات: ٤٩/١١
(٢٢) الطلاق: ٦٥/١

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إنما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ﴾ [٩/٣٧] يدلّ على قبول الكفر بالزّيادة والنقصان، فكذلك الإيمان الذي هو ضدّه فيكون حجّة للشافعي - رحمه الله - في قوله: الإيمان يقبَلُ الزّيادة والنُّقصان(٢٣).

قلنا: معناه: زيادةُ معصيةٍ في الكفر.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَأذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤمِنُوْنَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ﴾ [٩/٤٤] إنْ كان نهياً فأين الجزم؟ وإن كان نفياً فقد وقع النّفي، لأنّ كثيراً من المُؤمنين المخلصين، استأذنوه في التخلُّف عن الجهاد لعذرٍ؛ ويعضده قوله تعالى(٢٤): ﴿إنَّمَا المُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا بالله وَرَسُوْلِهِ، وإذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأذِنُوه﴾.

وقيل: المراد به كلّ أمر طاعة اجتمعوا معه عليه كالجهاد والجمعة والعيد، ونحوها.

قلنا: هو نهيٌّ بصيغة النّفي كقوله تعالى(٢٥): ﴿فَلَا رَفَثَ وَلاَ فُسُوُقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾.

الثاني: قال ابن عباس - رضي الله عنهما - هي منسوخة بقوله تعالى(٢٦): ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتّىٰ يَسْتَأذِنُوْهُ﴾.

الثالث: أن المراد بقوله: ﴿يستأذنك﴾ الآية، الاستئذان في التخلف عن الجهاد من غير عذر، وكذا بالآية التي بعدها، وبقوله: ﴿لَمْ يَذهبوا حَتَىٰ يَسْتأذنوه﴾ إباحة الاستئذان في التخلف عن الأمر الجامع

(٢٣) وفي الكشاف (٢: ١٨٩): «جعل النسيء زيادة في الكفر لأنّ الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً... كما أن المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيماناً...».
(٢٤) النور: ٢٤/٦٢
(٢٥) البقرة: ٢/١٩٧
(٢٦) النور: ٢٤/٦٢

لعذر، فلا تنسخ لإمكان العمل بالآيتين، لأن محل الحكم متخلف، وهو وجود العذر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَقِيْلَ اقعُدُوا مَعَ القَاعِدِيْنَ﴾ [٤٦/٩] أخبر أنهم أُمروا بالقعود، وذمهم علىٰ القعود والتخلّف عن الخروج للجهاد والاستئذان في القُعود؟

قلنا: ليس في الآية ما يدلّ على أن الله ـ تعالى ـ هو الآمر لهم، فقيل: الآمر لهم بذلك هو الشّيطان بالوسوسة والتّزيين.

الثاني: أنّ بعضهم أمر بعضاً.

الثالث: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لهم ذلك غَضَباً عليهم.

الرّابع: أنه أمرُ توبيخٍ وتَهديد من الله تعالى لهم كقوله تعالى[٢٧]: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾؛ ويعضدُه قوله تعالى: ﴿مَعَ القَاعِدِيْنَ﴾ أي مع النّساء والصِّبيان والزَّمْنى[٢٨] الذين شأنهم القُعود والجثوم في البيت.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد علم أن المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين: ﴿مَا زَادُوْهُمْ إلاّ خَبَالاً﴾ [٤٧/٩] أي فساداً و﴿لأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ﴾ [٤٧/٩] أي: ولأسرعوا السعي بينهم بالنمائم فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين؟

قلنا: أمرهم بالخُروج لإلزامهم الحُجّة، ولإظهار نفاقهم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُل أنْفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ

---

(٢٧) في: فصّلت: ٤١/ ٤٠ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ يَأْتِيْ آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ﴾ وفي القرطبي: ١٥: ٣٦٦، ﴿اعملوا ما شئتم﴾: أمر تهديد، أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بدّ لكم من الجزاء.

(٢٨) الزّمنى جمع الزّمِن وهو المبتلى، وذو الآفة.

إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِيْنَ﴾ [٩/٥٣] يدلّ علىٰ أن الفِسق يمنع قبول الطّاعات.

قلنا: المراد بالفِسق هنا الفِسق بالكُفر والنّفاق لا مطلق الفسق، وذلك مُحبط للطّاعات ومانع من قَبُولها، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهم...﴾ [٩/٥٤] الآية.

فإن قيل: لِمَ عَدَلَ في آية الصّدقات من اللام إلى (في) في المصارف الأربعة الأخيرة؟

قلنا: للتّنبيه على أنهم أقوى في استحقاق الصَّدقة ممّن سبَق ذكره؛ لأن (في) للظّرفية والوعاء فَنبَّهَ عَلَى أَنّهم أحقّاء بأن تُوضع فيهم الصَّدقات، ويُجعلوا مَصباً لها، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة أو الرقّ أو الأسر؛ وفي فَكّ الغارمين من الدَّين من التخلّيص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج الفقير بين الفقر ومثل هذه العبادة الشاقة؛ وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، ولا ترد المؤلفة قلوبُهم لأنّ بعضهم كفّار وبعضهم مُسلمون ضعيفو النيّة في الإسلام فكيف يعارض به من ذكرنا؟ أو لأن الله تعالى عَلم أنّ وجوب إعطائهم سَيُنسخ، فلذلك جعَلهم في القسم المقدّم الذي هو أضعفهم.

فإن قيل: لمَ كرّر (في) في الأربعة الأخيرة، ولم يكرّر اللاّم في الأربعة الأولىٰ؟!

قلنا: للتّنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الأخيرين على الرّقاب والغارمين من جهة؛ على أن إعادة العامل تدل على مزيد قوّةٍ وتأكيد، كقولك: مررت بزيد وعمرو.

فإن قيل: لم عَدّى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء، وإلى المؤمنين باللاّم في قوله تعالى: ﴿يُؤمِنُ بالله ويُؤمِنُ لِلمُؤمِنِيْنَ﴾ [٩/٦١].

قلنا: لأنّه قصد التَّصْديق بالله الذي هو ضدّ الكفر به فَعَدّاه بالباء كما يُعَدَّىٰ ضده بها.

وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرونه به لكونهم صادقين عنده، فعَدّاه بما يعدّىٰ به التّسليم والانقياد، ويعضده قوله تعالى(٢٩): ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لنَا وَلو كُنّا صَادِقِينَ﴾ وقوله تعالى(٣٠): ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوْسَىٰ إلاّ ذُرِّيَّةٌ مِن قَوْمِهِ﴾. وقوله تعالى(٣١): ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُوْنَ﴾.

وأمّا قولُه تعالى(٣٢): ﴿قَالَ آآمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ فمشترك الدّلالة، لأنه قال في موضع آخر قال(٣٣): ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾.

وقال ابن قتيبة في الجواب عن أصل السؤال: إن الباء واللام زائدتان، والمراد بالإيمان التصديق، فمعناه: يصدق الله ويصدق المؤمنين.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ أَنّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فيها﴾ [٦٣/٩] يدل على تخليد أصحاب الكبائر في النار، لأنّ المراد بالمحادّة: المُخَالَفة والمُعَاداة.

قلنا: قوله تعالى: ﴿أَلم يعلموا﴾ خبرٌ عن المنافقين الذين سَبق ذِكرهم، فيكون المحادّة بالكُفر والنفاق، وذلك موجبٌ للتّخليد في النار.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ المُنَافِقُوْنَ أن تُنَزَّل عَلَيْهِمْ

(٢٩) يوسف: ١٧/١٢
(٣٠) يونس: ٨٣/١٠
(٣١) الشعراء: ١١١/٢٦
(٣٢) طه: ٧١/٢٠
(٣٣) الأعراف: ١٢٣/٧

سُورَةٌ. . . ﴾ [٩/ ٦٤] وسـور القرآن إنّـما تُنَزَّل فيهـم[٣٤]؟

قـلنا: قيل: معنـاه: أن تُنَزَّل فيهـم؛ فـ: «علىٰ» هُنـا بمعنىٰ: «في»؛ كما في قـوله تعـالى[٣٥]: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، وقـولهـم: كـان ذلك على عهـد فُلان.

الثـاني: أن الإنـزال هنـا بمعنىٰ «القراءة»: فمعنـاه أن تقـرأ عليهـم.

فـإن قيل: الحـذر في هٰـذه الآيـة واقع علىٰ إنزال السّورة فـكيفَ قـال تعـالى: ﴿قُـلْ اسْتَهْزِؤوا إنَّ الله مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُوْنَ﴾ [٩/ ٦٤]؟

قلنـا: أي مظهـرٌ ما تحـذرون ظهـوره من نفاقـكم بإنـزال السورة وهـو مناسب لقـوله تعـالى: ﴿تُنَبِّئُهُـمْ بِمَا فِيْ قُلُوبِهِـمْ﴾ [٩/ ٦٤].

الثـاني: أنّ معنـاه مظهـرٌ، ومُبـرزٌ ما تَحـذرون من إنـزال السُّورة.

فـإن قيل: كـيفَ قـال تعـالى: ﴿تُنَبِّئُهُـمْ بِمَا في قُلُوبِهِـمْ﴾ [٩/ ٦٤] وإنباؤهـم بما في قُلوبهـم تحـصيل الحـاصل، لأنَّهـم عالِمُونَ به، فما فائـدته؟

قلنـا: معنـاه تنبئهـم بأسرارهـم ـ وما كتـموه من النِّـفاق ـ شائعةً ذائعـة وتفضحهـم بظهـور ما اعتقدوا أنـه لا يعرفه غيرهـم، ولا يـطلع عليه سواهـم، وهـذا ليس تحـصيل الحـاصل.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿المُنَافِقُـونَ والمُنَافِقَـاتُ بَعْضُهُـمْ مِن بَعْضٍ﴾ [٩/ ٦٧] وقـال بعـده: ﴿والمُؤْمِنُوْنَ والمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُهُـمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ﴾ [٩/ ٧١] وكـلمة (مِن) دلت على المشابهـة والمُجَانَسَة من حـيث إنهـا تقتضي الجزئيّة والبعْضيّة؛ فكانـت بالمؤمنين أَولىٰ وأحـرىٰ؛ لأنّـه أشـد تشابهاً وتجانُساً في الصّفـات والأَخـلاق؟

---

(٣٤) في (ب): وسـور القرآن إنّما تنزّل على النبي ﷺ لا على المنافقين».
(٣٥) البقـرة: ٢/ ١٢

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿بعضُهم من بَعض﴾ أي دينُهم على دين بَعض، أي على عادتهم وخُلقهم، بإضمار لفظ (الدين) أو (الخلق) ونَحْوه، لأنّ «من» تأتي بمعنىٰ «علىٰ»، ومنه قوله تعالى(٣٦): ﴿وَنَصَرْنَاه من القَوْمِ الَّذين كَذَّبُوا بآياتِنا﴾؛ وقوله تعالى(٣٧): ﴿لِلَّذِيْنَ يُؤلُوْنَ مِن نِسَائِهم﴾؛ أي يحلفُون على وَطْءِ نسائهم، وهذا المعنىٰ هو المراد في قوله عليه الصلاة والسلام(٣٨): «فمن يرغب عن سنتي فليس مني» وقوله عليه الصلاة والسلام(٣٩): «من غَشّنا فَليس منا».

والمراد بقوله تعالى: «﴿بَعْضُهم أَولياء بَعض﴾ أي: أنصارهم وأعوانهم في الدين، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين، إلا أنه خصّ المنافقين بتلك العبارة تكذيباً لهم في حلفهم السابق في قوله تعالى(٤٠): ﴿وَيَحْلِفُوْنَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ وتقريراً لقوله تعالى: ﴿وَما هَم منكم﴾.

فإن قيل: أي فائدة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بخَلاقِهِمْ﴾ [٩/٦٩]، مع أنّ قوله تعالى: ﴿فاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا استَمْتَعَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ﴾ بوضعِ الظاهر موضعَ المُضمر مُغن عنه، كما قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كالَّذِيْ خَاضُوا﴾ [٩/٦٩] من غير تكرار؟

قلنا: فائدته تصوير التّشبيه بذم المشبه بهم لاستمتاعهم بما أُوتوا من حظوظ في الدُّنيا، واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، وتهجين حالهم وتقبيح صِفتهم، ليكون التّشبيه

---

(٣٦) الأنبياء: ٢١/٧٧
(٣٧) البقرة: ٢/٢٥٦
(٣٨) في مسند الإمام أحمد (٢: ١٥٨): «... فمن رغب عن سنتي فليس منّي...».
(٣٩) في مسند الإمام أحمد: (٢: ٥٠).
(٤٠) التوبة: ٩/٥٦.

بعد ذلك أَبلغَ في ذمّ المشبهين بأُولئك الأولين كما تريد أن تشبه بعض الظَّلمة على سماجة فِعله فتقول:

أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير حقّ، ويظلم، ويعسف وأنت تفعل مثل فعله.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وخُضْتُمْ كالَّذِيْ خَاضُوا﴾ فإنه لما كان معطوفاً على ما قبله وهو تشبيه المصدر بتلك المقدّمة، أغنىٰ ذلك عن إعادة تلك المقدمة المذكورة للتقبيح والتّهجين.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَت أَعْمَالُهُم في الدُّنيا والآخِرَة﴾ [٩/٦٩] حُبوط العمل إن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلك إنّما يكون في الآخرة؛

وإن كان عبارة عن بُطلان منفعته، فأَعمال المنافقين في الدّنيا ليست باطلة المنفعة؛ لأنهم ينتفعون بها في حقّ دمائهم وأموالهم وجريان أحكام المسلمين عليهم.

قلنا: المُراد بالأَعمال إن كان نوعي أعمالهم الدينية والدنيوية فالحُبوط في الدّنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية، وهي كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الّذي كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى ودفع آياته وبَيّناته، ويأْبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فلم ينالوا من ذٰلك ما أمّلوه وقصدوه من إبطال دين الله، وستر نبوة محمد ﷺ. والحبوط في الآخرة راجع إلى أعمالهم الدينية؛ فحبوطها في الدُّنيا هو عدم قبولها، لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا، ثم يُثيب عليها في الآخرة، فالمراد بحبوطها في الدنيا عدم قبولها، وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها كالعبادة والقُربىٰ والحَسنة، ونحو ذلك. وهذا ضدُّ قوله تعالى[٤١]:

(٤١) العنكبوت: ٢٧/٢٩

﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنيا، وإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين﴾، فدلّ أن للطاعات أجراً معجلاً في الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة، وهو القَبُول، وحُسن الثناء، والذِّكر وإلقاء المَحَبّة في قلوب الخلق، كما قال تعالى(٤٢): ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾؛ معناه: يحبّهم ويُحَبِّبُهم إلى عباده من غير سبب بينهم وبينهم يوجبُ المحبة، وكذلك على العكس حال العصاة والفُسّاق يبغضهم، ويبغّضهم إلى عباده من غير سبب بينهم وبينهم يوجب البغض.

فإن قيل: قولهُ تعالى: ﴿وَمَالَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نصيرٍ﴾ [٩/٧٤] لِمَ خصّ الأرض بالنّفي مع أنّ المنافقين ليس لهم وليٌّ ولا نصيرٌ من عذاب الله تعالى في الأرض ولا في السماء، في الدنيا ولا في الآخرة؟

قلنا: لمّا كان المنافقون لا يعتقدون الوحدانية، ولا يصدقون بالآخرة، كان اعتقادهم وجودَ الولي والنصير مقصوراً على الدنيا، فعبّر عن الدنيا بالأرض، وخصّها بالذكر لذلك.

الثاني: أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة، فكأنه قال: ومالهم في الدنيا والآخرة من وليّ ولا نصير.

فإن قيل: لم خصّ السّبعين بالذكر في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبعين مَرّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [٩/٨٠] مع أن الله تعالى لا يغفر للمُنافقين ولو استغفر لهم النبي عليه الصلاة والسلام ألف مرّة بدليل قوله تعالى(٤٣): ﴿سَواءٌ عَلَيهم أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَم لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ ولأنهم مشركون، والله تعالى(٤٤): ﴿لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾؟

(٤٢) مريم: ١٩/٩٦
(٤٣) المنافقون: ٦٣/٦
(٤٤) النساء: ٤/٤٨

قلنا: جرت عادةُ العرب بِضَرْبِ المثل في الآحاد بالسبعة وفي العَشرات بالسَّبعين وفي المئات بسبع مئة استِعظاماً لها واستِكثاراً، إلا أنهم لا يُريدون بذكرها الحَصْرَ، فكأنه قال: إن تستغفر لهم أعظمَ الأعداد وأكثرها فلن يغفر الله لهم. ويعضدُه ما ذكره بعد ذلك بيان الصادق عن المغفرة في قوله: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بالله وَرَسُولِهِ﴾ [٨٠/٩].

فإن قيل: لو كان المُرادُ ما ذكرتم لما خَفِي ذلك علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام وهو أفصحُ العرب، وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلاته حتىٰ قال لمّا نزلت هذه الآية إنّ الله تعالىٰ قد رخّص لي فسَأزيد على السَّبعين(٤٥).

وفي رواية أخرى: فسَأستغفر لهم أكثر من السبعين لعلّ الله أن يغفر لهم.

قلنا: لم يخفَ عليه ذلك، وإنّما أراد بما قال إظهار غاية رحمته ورأفته بمن بُعث إليهم كما وصَفه الله تعالى: ﴿لَقَد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنْفُسِكُمْ﴾ [١٢٨/٩] الآية. وفي إظهار النبي عليه الصَّلاة والسَّلام الرحمة والرأفة لطفٌ لأمته، وحثٌّ لهم على التَّراحم وشفقة بعضهم على بعض، وهذا دأبُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، ألا ترى إلى قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام(٤٦): ﴿وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ما علىٰ المُحسِنينَ مِن سَبيلٍ والله غَفُورٌ

---

(٤٥) فصّل المفسّرون في هذا، ومنه ما في القرطبي ٢١٨/٨
ـ قال: «واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى: ﴿استغفر لهم...﴾ هل هو إياسٌ أو تخيير. فقالت طائفة: المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى: ﴿فلن يغفر الله لهم﴾ وذِكر السّبعين وفاقٌ جَرى، أو هو عادتهم في العبارة عن الكثرة والإغياء، فإذا قال قائلهم: لا أكلمه سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله: لا أكلمه أبداً... وقالت طائفة هو تخيير... ثم نسخ هذا (التخيير) لما نزل قوله تعالى: ﴿سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم...﴾».

(٤٦) إبراهيم: ٣٦/١٤

رَحِيمٌ﴾ [٩١/٩] والمغفرة والرحمة إنّما تكون للمسيئين لا للمحسنين؟

قلنا: معناه والله غفور رحيم للمُسيئين إذا تابوا، فهو متعلّق بمحذوف، لا بالمُحسنين، لأنّهم قد سدّوا بإحسانهم طريق العقاب والذم؛ فليس عليهم سبيل فيها.

الثاني: أن المحسن من الناس وإن تَنَاهى في إحسانه لا يخلُو عن إساءةٍ بينه وبين الله تعالى أو بينه وبين النّاس. لكنه إن أحسنَ باجتناب الكبائر غفر الله له صغائر سَيِّئاته ورَحِمَه كما قال تعالى(٤٧): ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ الآية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَيَرىٰ الله عَمَلَكُمْ وَرَسُوْلُهُ﴾ [٩٤/٩] أي سيعلم، لأن السّين للاستقبال؛ والرّؤية من الله تعالى بمعنىٰ العِلم، والله تعالى عالم بعملهم حالاً ومآلاً.

قلنا: معناه سيعلمه واقعاً موجوداً كما علمه غيباً لأنّ الله تعالى يعلم كل شيء على ما هو عليه فيعلم المنتظر منتظراً، ويعلم الواقع واقعاً، وأما في حَقّ الرسول ﷺ فهو على ظاهِره.

فإن قيل: إن كان الله تعالى قد وصف العرب(٤٨) بالجَهل في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ﴾ [٩٧/٩] فكيف يصحّ الاحتجاج بألفاظِهم وأشعارهم على كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: هذا وصفٌ من الله تعالى لهم بالجهل في أحكام القرآن لا في

---

(٤٧) النساء: ٣١/٤

(٤٨) يريد قوله تعالى: ﴿الأعرابُ أشدُّ كُفراً ونفاقاً وأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُوْدَ ما أَنْزَل الله عَلَى رَسُولِه والله عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ﴾. قال القرطبي: العرب جيلٌ من النّاس وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية. وجاء في الشعر الفصيح أيضاً: أعاريب. (ينظر ٨: ٢٣٣).

ألفاظه، ونحن لا نحتجّ بلغتهم في بيَان الأَحكام، بل نحتج بلغتهم في بيان الألفاظ، لأنّ القرآن والسنة جاءت بلغتهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا في صفة المنافقين: ﴿مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [٩/١٠١] وقال في موضع آخر(٤٩): ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ﴾؟

قلنا: هذه الآية نزلت قبل تلك الآية، فلَا تناقُضَ؛ لأنه نفىٰ علمه بهم في زمان، ثم أثبته بعد ذلك في زمانٍ آخر.

فإن قيل: قولُه تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ [٩/١٠٢] قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً، فأَين المخلوط به؟

قلنا: كلّ واحد منهما مخلوط ومخلوط به، لأنَّ معناه: خلطوا كلّ واحدٍ منهما بالآخر، كقولك خلطت الماء واللّبن تريد خلط كلّ واحد منهما بصاحبه، وفيه من المُبَالغة ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن، لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطاً به؛ وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطَيْن، ومخلُوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء.

ويجوز أن تكون الواو بمعنىٰ الباء كما في قولهم: بعت الشاتين بدرهمين، يعنون كل شاة بدرهم(٥٠).

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالنَّاهُوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ [٩/١١٢] بالواو وما قبلها من الصِّفات بغير واو؟

---

(٤٩) محمد: ٤٧/٣٠

(٥٠) في (ب) بعتُ شاةً ودرهماً يعنون شاةً بدرهم.

قلنا: لأنّها صفة ثامنة، والعَربُ تُدْخِلُ الواو بعد السَّبعة إيذاناً بتمام العدد؛

فإنّ السبعة عندهم هي العقد التّام كالعشرة عندنا، فأتوا بحرف العطف الدالّ على المُغَايرة بين المَعطوف والمَعطوفِ عليه، ونظيره قوله تعالى[٥١]: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بعد ما ذكر العدد مرتين بغير واو، وقوله تعالى في صِفة الجنّة[٥٢]: ﴿وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو لأنها ثمانية، وقال في صفة النار ـ نعوذ بالله منها ـ[٥٣]: ﴿فُتحت أبوابُها﴾، بغير واو لأنّها سبعة.

وليس قوله تعالى[٥٤]: ﴿ثَيِّبَاتٍ وأَبْكاراً﴾؛ من هذا القَبيل لأنّ الواو لو سَقطت فيه لاسْتَحال المعنىٰ لتناقض الصّفتين.

وقيل: إنّما دخلت الواو على النّاهين عن المنكر إعلاماً بأن الأمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره بالمعروف، فهما صفتان متلازمتان بخلاف باقي الصفات المذكورة فإنها ليست متلازمة، ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُوْنَ﴾ [١١٢/٩] لأنهما ليستا صفتين متلازمتين لأن السجود يلزم الركوع، وأما الركوع لا يلزم السجود، بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر.

والزَّمخشري لم يتكلم على هذه الواو.

فإن قيل: كيف قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحسَنَ ما كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾ [١٢١/٩] أي بأحسن الذي كانوا يعملون بإضمار حرف الجر

---

(٥١) الكهف: ٢٢/١٨
(٥٢) الزّمر: ٧٣/٣٩
(٥٣) الزُّمر: ٧١/٣٩
(٥٤) التحريم: ٥/٦٦. وانظر تعليقه على الآية ثَمَّةَ.
ـ وللنحويّين كلامٌ على هذه الواو، وبعضهم يسمّيها واو ثمانية!

مع أنهم يجزون بحسنه أيضاً لقوله تعالى:(٥٥) ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾.

قلنا: معناه بحسن الذي كانوا يعملون، وهو الطاعات كلها لا بسيّئِهِ وهو المعاصي، فالأحسن هنا بمعنى الحسن. وسيأتي في سورة الروم في قوله تعالى(٥٦): ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ما يُوضِحُ هٰذا إن شاء الله تعالىٰ.

الثاني: أن معناه ليجزيهم الله أحسن من الذي كانوا يعملون.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذين آمَنُوا فَزَادَهُمْ إيماناً﴾ [٩/ ١٢٤] يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة(٥٧).

قلنا: قال مجاهد معناه: فزادتهم علماً لأن العلم من ثَمرات الإيمان فجعل مجازاً عنه، والله أعلم.

---

(٥٥) الزلزلة: ٩٩/٨

(٥٦) الروم: ٣٠/٢٧

(٥٧) للعلماء كلامٌ طويل في الإيمان هل يزيد وينقُص؟ وجمهرتهم على أنّ نفس الإيمان معنىً فردٌ لا يدخل معه زيادة إذا حصل ولا يبقى منه شيءٌ إذا زال؛ والزيادة والنقصان في متعلقاته دون ذاته.

سورة يونس
عليه السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعلَمُوْنَ﴾ [١٠/ ٥] والله تعالى فصّل الآيات للعلماء والجُهال أيضاً؟

قلنا: لمّا كان نفعُ تفصِيل الآيات مخصُوصاً بالعُلَماء، وانتفاعهم بالتّفصيل أكثر، أضاف التفصيل إليهم، وخصّهم به.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾ [١٠/ ١٠] مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخِرَ لها، لأنّ الجنة دارُ خُلود؟

قلنا: معناه وآخر دُعائهم في كل مجلس: دعاء أو ذِكرٌ أو تَسبيح، فإنّ أهل الجنَة يسبّحون ويَذكرون للتنعّم والتلذّذ بالتّسبيح والذكر.

فإن قيل: قد أنكر الله تعالى على الكُفّار احتجاجهم بمشيئته في قولهم[1]: ﴿لَوْ شَاء الله ما أَشْرَكْنَا وَلاَ آباؤُنَا﴾، ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتجّ في وُجود المعصية منه بقوله: لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية فلا تقيموا عليَّ حَدَّها، فكيف قال النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَوْ شَاءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيكُمْ﴾ [١٠/ ١٦]؟

قلنا: النبي عليه الصلاة والسلام قال هذه الحُجّة بأمر الله، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿قُلْ لَوْ شَاء الله ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾، وللعبد أن يحتجّ بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها، أمّا[2] ليس له أن يحتج بمجرّد المشيئة؛ وما أوردتموه كذلك.

---

(١) الأنعام: ٦/ ١٤٨

(٢) هكذا وردت العبارة في (أ) و(ب)؛ وكأنه استعمل أمّا بمعنى لكن، على سبيل الاستدراك؛ أو التقرير.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُوْنَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ﴾ [١٠/٢٣]، لأن البغي هو التعدي والفساد، كقولهم بغى الجرح إذا فسدَ، كذا قاله الأصمعي، فما فائدة التَّقييد؟

قلنا: قد يكون الفسادُ بالحق(٣) كاستيلاء المُسلمين على أرض الكفار، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم، وقطع أشجارهم، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قُرَيظة.

فإن قيل: كيف شبّه تعالى الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ﴾ [١٠/٢٤]؟

قلنا: لأنّ ماء السماء هو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه ولا حيلة، كما أن الحياة كذلك لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها.

الثاني: أنّ ماء السماء تستوي فيه جميع الخلائق، الوضيع والشريف، والغني والفقير وغيرهما أيضاً، كالمَدَر(٤) والحَجَر، والشوك والثمر، كما أنّ الحياة كذلك، فكان تشبيه الحياةِ بماء السَّماءِ أشدّ مناسبةً ومُطَابقة.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيْعاً ثُمّ نَقُول لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكم﴾ [١٠/٢٨] وقال في موضع(٥): ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؟

قلنا: يوم القيامة مواقف ومواطن، ففي موقف لا يكلّمهم، ونظيره

(٣) في تفسير القرطبي: بغير الحقّ، أي بالتكذيب. وقال في تفسير الآية الكريمة: أي يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي.
(٤) المَدَر: قطع الطين اليابس.
(٥) البقرة: ٢/١٧٤

قولُه تعـالى(٦): ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ ولا جَانٌّ﴾، وقـوله(٧): ﴿فَوَرَبِّـكَ لَنَسْأَلَنَّهـم أَجْمَعِيْنَ عَمّـا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾.

الثـاني: أن المـراد أنه لا يكلمهـم كـلام إكـرام، لا كـلام توبيخ وتقريع(*).

فـإن قيـل: قـولـه تعـالى: ﴿قُل مَن يَـرْزُقُكُـمْ مِنَ السَّمـاءِ والأَرْض...﴾ [٣١/١٠] إلى آخـر الآيـة، يـدلّ على أنهـم معترفون بأن الله تعـالى هـو الخـالق والرازق، والمدبـر لجـميع المخـلوقـات فكيف يعترفون بـذلك كـلّه ثم يعبدون الأصنـام؟

قلنـا: كانوا في عبـادة الأصنـام يتأوّلون عبادةَ الله. وطائفةٌ كـانت تقول: نحـنُ لا نتأهـل لعبادة الله تعـالى بغيـر واسطة لعظمـته وجلالته، ونقصِنا وحقـارتنا، فجعلوا الأصنـام وسـائط كما قالوا(٨): ﴿مَا نَعْبُدُهُـمْ إلاّ لِيُقَرِّبُوْنَـا إلى الله زُلْفىٰ﴾.

وطائفـة كانت تقـول: الأصنـام قِبلـة لنا في عبادة الله تعـالى كما أن الكَعـبة قبلةٌ في عبادته!

وطائـفةٌ وهي الأكـثر كانت تقـول: على كل صَنـمٍ شَيـطان مُوَكَّـلٌ به من عند الله تعـالى فمن عبد الصنـم حـق عبادته قـضى الشيـطان حـاجَته على وَفْق مُـراده بأمر الله، ومـن قَصّر في عبادة الصنـم أصـابه الشّيطان بنكـبةٍ بأمـر الله. فـكُلّ الطوائـف من عَبـدة الأَصنـام كانوا يعتقدون بعبادتهـم الأَصنـام عبادةَ الله، والتقرّب إليه، ولكنْ بـطريق مُخـتلفة.

فـإن قـيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿قُلْ هَل مِنْ شُرَكائِكُـمْ مَن يَّـبْدؤُ الخَلْقَ

(٦) الرحـمن: ٣٩/٥٥
(٧) الحـجر: ١٢/١٥
(*) في (ب) كلام الإكرام لا كلام التّوبيخ والتّقريع.
(٨) الزُمـر: ٣/٣٩

ثُمَّ يُعِيْدُهُ﴾ [١٠/٣٤] وهـم غير معترفين بوجـود الإعـادة أصـلاً من الله ولا من غيره؟

قلنـا: لمـا كانت الإعـادة ظاهـرة الوجـود لظهـور برهـانها وهو القـدرة عـلى ابنداء الخَـلق؛ والإعـادة أهـونُ بالنّسـبة إلينـا لَزِمَهُـم الاعتـراف بهـا، فصـار(٩): كأنّهـم مسلّمون وجـودها من حـيث ظهـور الحـجة ووضوحهـا.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿فَإِلَيْنَـا مَرْجِعُهُمْ ثُمّ الله شَهِيْدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُوْنَ﴾ [١٠/٤٦] رتّـب كونـه شهـيداً على أفعـالهم على رجوعهـم إليه في القيـامة مع أنـه شهـيد على أفعـالهـم في الدنيا والآخـرة؟

قلنـا: ذكر الشهـادة وأراد مُقتـضاها ونتيجـتها وهـو العِقَـاب والجَـزاء، كأنـه قـال: ثم الله معاقبٌ على ما يفعـلون أو مُجـازٍ على ما يفعـلون كما قـال(١٠): ﴿وَمَا تَفْعَـلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ الله﴾ ونَظَائِرُه في القرآن العزيز كـثيرة.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿بَياتاً أَو نَهَاراً﴾ [١٠/٥٠] ولـم يقل: ليلاً أو نهـاراً وهو أَظهر في المطابقة، وأكثر استعمالاً مـع النهـار في القرآن العزيز، وغيره؟

قلنـا: المعهـود المألُوف من كـلام العرب عند ذكر البطـش والإهـلاك والوعـيد والتهـديد ذكر لفـظ البيات سواء قُرِنَ به النهـار أو لا، فـلذلك لم يـقل ليلاً.

فـإن قيـل: كـيف قـال تعـالى: ﴿مَـاذَا يَـسْتَـعْجِـلُ مِـنْـهُ المُجْرِمُـونَ﴾ [١٠/٥٠] ولم يـقل: «ماذا تستعجـلون منه»(١١) وأَوّل الخـطاب للمُواجهَـة؟

(٩) أي فـصار الأمـر، وصـارت الحـجة...

(١٠) البقـرة: ٢/١٩٧

(١١) في المخـطوطتين هنـا: «ماذا يستعجـل منه». ولا يـجري بهـا الكـلام. وأَصلحـتها بما هـو مثبت.

=

قُلنا: أراد بذكر المُجرمين الدّلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويفزع من مجيئه؛ وإن أبطأ، فضلاً عن أن يستعجله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [١٠/٥٨] ولم يقل: فَبِذَيْنِكَ فليَفرحوا، والمشار إليه اثنان: الفضل والرحمة؟

قلنا: قد سَبَقَ مثل هذا السُّؤال وجوابُه في سُورة البقرة في قوله تعالى(١٢): ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِيْنَ يَفْتَرُونَ على الله الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [١٠/٦٠] تهديد لأنّ فيه محذوفاً تقديره: وما ظنّهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم، فكيف يُناسبه قوله تعالى بعده: ﴿إنَّ الله لَذُو فَضلٍ عَلىٰ النَّاسِ﴾ [١٠/٦٠]؟

قلنا: هو مناسبٌ لأن معناه: إنّ الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل والوحي والهداية وتأخير العذاب، وفتح باب التَّوبة، فكيف يفترون عليه الكذب بعد توافر نعمه عليهم؟

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا تَكونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنَ قُرآنٍ﴾ [١٠/٦١]. فأفرد، ثم قال: ﴿وَمَا تَعْمَلُوْنَ مِنَ عَمَلٍ﴾ [١٠/٦١] فجمَع، والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: قال ابن الأَنباريّ إنّما جمع في الفعل الثالث لِيَدُلّ على أن الأُمة داخلون مع النّبي عليه الصلاة والسلام وحده، وإنما جمع تفخيماً

= - ثم وجدت في الكَشّاف «فإن قلت: فهلّا قيل: ماذا تستعجلون منه؟ قلت أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال...» وعبارة المؤلف مقاربة، وعنه أخذ.

(١٢) البقرة: ٢/٦٨

له وتعظيماً كما في قوله تعالى(١٣): ﴿أَفَتَطْمَعُوْنَ أَنْ يُؤمِنُوا لَكُمْ﴾ على قول ابن عباس، وكما في قوله تعالى(١٤): ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ والمراد به النبي عليه الصلاة والسلام. كذا قال ابن عباس والحسن وغيرهما، واختاره ابن قُتَيبة والزَّجَّاج.

فإن قيل: كيفَ قدّم تعالى الأَرض على السماء هنا(*)، وفي قولهِ تعالى في سورة سبأ(١٥): ﴿عَالم الغَيْبِ لا يَعْزُب عَن عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾.

قلنا: حَقُّ السَّماء أَن تقدّم علىٰ الأرض مُطلقاً لأنّها أشرف، لكنّه لمّا ذكر هنا في صدر الآية شهَادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم، ثم أردفه بقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّك﴾ ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء.

الثاني: أن العطف بالواو نظير التثنية، وحكمه حكمها فلا يعطىٰ رتبة كالتثنية.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إنَّ العِزَّةَ لله جَمِيْعاً﴾ [١٠/٦٥] وقال في موضع آخر(١٦): ﴿وَلله العِزَّةُ وَلِرَسُوْلِهِ وَللمُؤمِنِيْنَ﴾؟

قلنا: ثَبت الاشتراكُ في نفسِ العزّة التي هي في حق الله تعالى القدرةُ والغَلبة؛ وفي حق الرسول عليه الصلاة والسلام عُلوّ كلمته وإظهارُ دينه؛ وفي حق المؤمنين نصرُهم على أعدائهم، وقوله تعالى: ﴿إن العزّة لله جميعاً﴾ أراد به العزّة الكاملة التي تندرج فيها الإلٰهيّة والخَلْق والإماتَةُ

(١٣) البقرة: ٢/٧٥
(١٤) المؤمنون: ٢٣/٥١
(*) يعني في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلاَ في السَّمَاءِ﴾ [يونس ١٠/٦١].
(١٥) سبأ: ٣٤/٣
(١٦) المنافقون: ٦٣/٨

والإحياء، والبقاء الدّائم، وما أشبه ذلك، فلا تنافي.

فإن قيل: إن كانت السّموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما وراءهما، كل ذلك لله تعالى ملكاً وخَلْقاً، فَمَا فائدةُ التخصيص في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [١٠/٦٦]؟

قلنا: إنّما خصّ العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثّقلان ليعلم أنّ هؤلاء إذا كانوا عبيداً له، وهو رَبّهم ومولاهم، ولا يصلح أحدٌ منهم للرُّبوبية ولا للشّركة معه فما وراءهم ممّا لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما أحقّ ألّا يكون له نِدّاً ولا شريكاً.

فإن قيل: كيف قال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَتَقُوْلُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذا﴾ [١٠/٧٧] على طريق الاستفهام، وهم إنّما قالوا ذلك على طريق الإخبار والتحقيق المؤكد بـ إنّ، واللّام لا على طريق الاستفهام. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا: إِنْ هـذا لَسِحْرٌ مُّبِيْنٌ﴾ [١٠/٧٦]؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: أَتَقُولون للحقّ لمّا جاءكم إنَّ هذا لسحر مبين، ثم قال: ﴿أَسِحْرٌ هٰذا﴾ [١٠/٧٧] أنكر ما قالوه، فالاستفهام من قول موسى عليه الصلاة والسلام لا مفعول لقولهم.

فإن قيل: كيف نَوّع الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ مُوسىٰ وَأَخِيْه أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوِمِكُما بِمصْرَ بُيوتاً، واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وأَقِيْمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّر المُؤمِنِيْنَ﴾ [١٠/٨٧] فثنّىٰ أوّلاً ثم جمَعَ ثم أفرد؟

قلنا: خُوطب أوّلاً موسىٰ وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتاً، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يُفَوَّض إلى الأنبياء؛ ثم سِيق الخطابُ عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنَّ ذلك واجبٌ علىٰ الجمهور،

ثم خص موسىٰ عليه الصلاة والسلام بالبِشارة تعظيماً لهما، أو تعظيماً له عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [١٠/٨٩] أضافها إليهما، والدّعوة إنما صدرت من موسىٰ عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً...﴾ [١٠/٨٨] إلى آخر الآية؟

قلنا: نُقِلَ أَنَّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يدعُو، وهارون كان يُؤَمِّن على دُعائه، والتَّأمين دعاءٌ في المعنىٰ، فلهذا أضاف الدعوة إليهما.

الثاني: أنّه يجوز أن يكون هارون قد دعا مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلا أَنَّ الله تعالى خصّ موسى عليه الصلاة والسلام بالذِكر، لأنه كان أسبقَ بالدعوة وأحرصَ عليها، أو أكثر إخلاصاً فيها.

فإن قيل: لو كان كذلك لقال تعالى: ﴿دَعْوَتاكما﴾.

قلنا: لما كانت الدّعوة مصدراً اكتفىٰ بذكرها في موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغةٍ واحدة كسائر المصادر، ونظيره قوله تعالى[١٧]: ﴿خَتَمَ الله عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [١٠/٩٤] و «إن» إنما تدخل على ما هو مُحْتَمَل؛ وشَكُّ النبيّ ﷺ في القرآن مُنتفٍ قطعاً؟

قلنا: الخطاب ليس للنبيّ ﷺ؛ بل لمن كان شاكاً في القرآن وفي نبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكأنه قال: فإن كنت أيُّها الإنسان في شَكٍّ.

---

(١٧) البقرة: ٢/٧

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يدل على أنّ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام لا لغيره.

قلنا: لا يدلّ، قال الله تعالى(١٨): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَد جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَّبِّكُمْ، وأَنْزَلْنَا إِليكُمْ نُوراً مُبِيْناً﴾؛ وقال(١٩): ﴿يَحْذَرُ المُنَافِقُوْنَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُوْرَةٌ﴾.

الثاني: أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد غيرُه، كما في قوله تعالى(٢٠): ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ الله وَلاَ تُطِعِ الكافِرِيْنَ والمُنَافِقِينَ﴾، ويعضده قوله تعالى(٢١): ﴿إِنَّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْراً﴾، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده: ﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إن كُنْتُمْ في شَكٍّ من دِيْنِي﴾ [١٠/١٥٤].

الثالث: أن تكون «إن» بمعنى «ما».

تقديره: فما كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل؛ المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك لأنّك فِي شَكٍّ منه، بل لتزدادَ بصيرة ويقيناً وطمأنينة.

الرّابع: أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام مع انتفاء الشك منه قطعاً، والمراد به إلزام الحجة على الشاكّين الكافرين، كما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام(٢٢): ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ من دُوْنِ الله...﴾ وهو عالمٌ بانتفاء هذا القول منه؛ لإلزام الحجة على النّصارى.

(١٨) النساء: ١٧٤/٤

(١٩) التوبة: ٦٤/٩

(٢٠) الأحزاب: ١/٣٣

(٢١) الأحزاب: ٢/٣٣

(٢٢) المائدة: ١١٦/٥

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيْعاً﴾[١٠/٩٩] ما فائدة قوله «جميعاً» بعد قوله «كلهم» وهو يفيد الشمول والإحاطة؟

قلنا: (كُلّ) تفيد الشمول والإحاطة ولا تدلّ على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع، و (جميعاً) تدلُّ على وجودِه منهم في حالة واحدة كما تقول: جاء القومُ جميعاً أي: مُجتمعين. ونظيرُه قولُه تعالى[٢٣]: ﴿فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجمَعُوْنَ﴾.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُل انْظُروا مَاذَا في السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ [١٠/١٠١] كيف يصحّ هذا الأمر مع أنا لا نعلم جميع ما بينهما، ولا نراه؟

قلنا: هو عامّ أُريد به ما نُدركه بالبصر أو البصيرة، مما فيها كالشمس والقمر والنّجوم والجبال والمعادن والنبات والحيوان ونحو ذلك، مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته، فنستدلّ بِه على ما وَراءه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ...﴾[١٠/١٠٧] الآية، ما الحكمة في ذكر المسّ في أحدهما والإرادة في الآخر[٢٤]؟

قلنا: إنّما عدل عن لفظ المَسّ المذكور في سورة الأنعام[٢٥] إلى لفظ الإرادة لأنّ الجزاء هنا قوله تعالى: ﴿فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ...﴾ [١٠/١٠٧] والردّ إنّما يكون فيما لم يقع بعد، والمس إنما يكون فيما وَقع، فلهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾، فمعناه: فإن شاء أدام ذلك الخير وإن شاء أزاله، فلا يُطْلَبُ دَوامُه وزيادَتُه إلّا منه.

---

(٢٣) الحجر: ١٥/٣٠

(٢٤) يعني في قوله تعالى ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ...﴾ [يونس ١٠/١٠٧].

(٢٥) الأنعام: ٦/١٧

سورة هود
عليه السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [١١/٣] مع أن التّوبة مقدّمة على الاستغفار؟

قلنا: المراد استغفروا ربّكم من الشِّرك ثم ارجعوا إليه بالطّاعة، كذا قاله مُقاتل. وهذا الاستغفار مقدم على هٰذه التوبة.

الثاني: أن فيه تقديماً وتأخيراً.

الثالث: قال الفَرَّاء «ثم» هنا بمعنى «الواو» فلا يفيد ترتيباً، فاندفع السؤال.

فإن قيل: من لم يستغفر ولم يتب فإن الله تعالى يمتّعه متاعاً حسناً إلى أجله، أي يرزقه، ويوسّع عليه كما قال ابن عباس؛ أو يعمره كما قال ابن قتيبة، فما فائدة قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [١١/٣]؟

قلنا: قال غيرهما المتَاع الحسَن المشروط بالاستغفار والتّوبة هو الحياة في الطّاعة والقَناعة، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقي.

فَإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾ [١١/٣] كيف لم يقل: «عَلَى الأَرْضِ» مع أنّه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة، فإنها ما يدبّ على وجه الأرض؟

قلنا: «في» هنا بمعنى «على» كما في قوله تعالى[1]: ﴿فِي جُذُوعِ

---

(١) طه: ٧١/٢٠

النَّخْلِ﴾، وقوله تعالى(٢): ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾.

الثاني: أن «في» أعمّ وأشمل لأنها تتناول كلّ دابة على وجه الأرض، وكل دابة في باطن الأرض بخلاف «على».

فإن قيل: كيف خَصّ الدابّة بذكر ضمان الرّزق؛ والطيرُ كذلك رزقُه على الله تعالى وهو غير الدابّة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [٦/١١]؟

قلنا: إنما يخصّ الدابة بالذكر لأن الدواب أكثر من الطيور عدَداً، وفيها ما هو أكبر جثّة من كل فَرد من أفراد الطيّر كالفيل والحوت، فيكون أحوج إلى الرّزق، فلذلك خصّه بالذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إلاّ عَلَىٰ الله رِزْقُها﴾ [٦/١١] و «على» للوجوب، والله تعالى لا يجب عليه شيء، وإنّما يرزقنا تفضّلاً منه وكرماً؟

قلنا: «علىٰ» هنا بمعنى «من» كما في قوله تعالى(٣): ﴿الَّذِيْنَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النّاسِ يَسْتَوْفُوْنَ﴾.

الثّاني: أنه ذكره بصفة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سُكون وطمأنينة في حصوله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [٧/١١] والخطاب عامّ للمؤمنين والكافرين فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة، والنّهي عن المعصية، وأعمال المؤمنين هي الّتي تتفاوت إلى حَسن وأحسن. فأمّا أعمال الفريقين فتفاوتهما إلى حَسنٍ وقبيح.

(٢) الطور: ٢٨/٥٢
(٣) المطفّفين: ١/٨٣

قلنا: قوله تعالى: «لِيَبْلُوَكُمْ» عام أريد به الخاص، وهم المُؤمنون تشريفاً لهم وتخصيصاً، فصح قوله «أَحْسَنُ عَمَلاً».

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [١٢/١١] ولم يقل: «وضَيِّق»؟

قلنا: ليدلّ على أنه ضِيْقٌ عارِضٌ غيرُ ثابت، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان أفسح الناس صدراً. ونظيرُه قولك: زيد سائد وجائد، إذا أردت أن السّيادة والجُود حادث فيه وعارض له. فإنْ أردت وصفه بالسّيادة والجود الثّابِتَيْن المُسْتَقِرّين قلت: زيدٌ سيّد وجَواد؛ كما قال الزَّمخشري(٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [١٣/١١] أمرهم بالإتيان بمثله، وما يأتون به لا يكون مثله، لأنّ ما يأتون به مفترًى، والقرآن ليس بمفترًى؟

قلنا: أراد به مثله في البلاغة والفصاحة وإن كان مُفترى.

وقيل: معناه مُفْتريات، كما أن القرآن مفترًى في زعمكم واعتقادكم فيتماثلان.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ فأفرد ثم جَمع فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَكُمْ فاعْلَمُوا﴾ [١٤/١١]؟

قلنا: الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في الكل، ولكنه جمع في قوله: «لَكُم فاعْلَمُوا» تفخيماً له وتعظيماً.

الثاني: للنبيّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه كانوا يَتَحَدَّوْنهم بالقُرآن. وقوله تعالى في موضع آخر(٥): ﴿فَإِن لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾ يعضد الوجه الأول.

(٤) الكشاف ٢: ٢٦١
(٥) القصص: ٥٠/٢٨

الثالث: أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمُشركين، والضمير في «يَستجيبوا» لِـ «مَن اسْتَطَعْتُم»، يعني: لعجزهم، فاعْلَمُوا أيّها المشركون أنّما أنزل بعلم الله. وهذا وجه لطيف.

فإن قيل: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيْهَا﴾ [١١/١٦] يدل على بطلان أَعمالهم، فما فائدة قوله بعده: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾ [١١/١٦]؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيْهَا﴾، أي بطل ما صنعوا من الطّاعات في الدنيا وباطل ما كانوا يعملون من الرِّياء فيها.

فإن قيل: قال نُوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [١١/٢٩] بالواو، وقال هود عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [١١/٥١] بغير واو.

قلنا: لأنّ الضمير في قولهما «عَلَيه» لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأوّل الكلام في القصّتين، ولكن في قصة نوح عليه الصلاة والسلام وقع الفصل بين الضمير وما هو عائد عليه بكلام آخر فجيء بواو الابتداء، هذا ما وقع لي فيه، والله تعالى أعلم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِن أَمْرِ اللهِ﴾[١١/٤٣] لا يناسبه المستثنىٰ في الظاهر، وهو قوله: ﴿إِلاّ مَنْ رَحِمَ﴾ [١١/٤٣] لأنّ المرحوم معصومٌ فظاهره يقتضي: لا معصوم إلاّ من رحم، أي لامعصوم من الغَرَقِ بالطّوفان إلا من رحمه الله بالإنجاء في السَّفينة.

قلنا: عاصم هنا بمعنى معصوم، كقوله تعالى[٦]: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي

(٦) الطارق: ٨٦/٦

مَدْفُوق. وقـوله(٧): ﴿فِي عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾؛ أي مَرْضِيّة، وقـول العرب: سِرّ كاتِم؛ أي: مكتوم.

الثـاني: أن معنـاه لا عـاصم اليَوم من أَمـر الله إلا مَن رحـم، أي إلاّ الرَّاحـم، وهـو الله تعـالى وليسَ معنـاه إلاَ المَرْحُـوْم، فكأنّـه قـال: لا عاصِمَ إلاّ الله.

الثالث: أن معناه: لا عاصم اليوم من أَمر الله إلا من رحم المُؤمنين ونَجّاهم، وهو السّفينة. ويناسب هذا الوجه قولـه تعالى: ﴿وَقَـال ارْكَبُوا فِيْهَـا بِسْمِ الله مَجْرَاهـا ومُرْساها إنّ ربِّـي لَغَفُـورٌ رَحِـيْمٌ﴾ [١١/٤١] وهـذا لأن ابن نوح لمّا جعـل الجـبل عاصمـاً من المـاء، ردّ نوح عليه ذلك ودلـه على العاصـم وهو الله تعـالى أو المكـان الـذي أَمـره الله تعـالى بالالتجـاء إليه وهو السّفينـة.

فـإن قيل: كيـف صحّ أمـر السّمـاء والأرض بقـوله تعـالى: ﴿وَقِيْلَ يَا أَرْضُ ابْلعي ماءَكِ وَيَـا سَمَاءُ أَقْلِعِـي﴾ [١١/٤٤] وهـما لا يَعْقِلان، والأَمـرُ والنّهـي إنـما يـكون لمن يعـقل ويفهـم الخـطاب؟

قلنـا: الخـطاب لهـما في الصُّورة، والمـراد به الخـطاب للملائكـة الموكـلة بتدبيرهـا.

الثـاني: أَنّ هـذا أمر إيجـادٍ لا أمر إيجـاب؛ وفي أمـر الإيجـاد لا يُشترط العقل والفهم، لأنّ الأشياء كلهـا بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعـة مُنقادة لله تعـالى ومنه قوله تعالى(٨): ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أن نَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنَ﴾ وقوله تعالى(٩): ﴿فَقَالَ لَهَـا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعَاً أَوْ كَرْهـاً﴾. كـل ذلك أمر إيجـاد.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى هنا: ﴿وَنَـادَى نُوْحٌ رَبَّـهُ فقَـالَ:

(٧) الحـاقّة: ٦٩/٢١
(٨) الأنعـام: ٦/٧٣
(٩) فصّلت: ٤١/١١

رَبِّ﴾ [١١/٤٥] بالفاء، وقال في قصة زكريا: ﴿إِذْ نَادىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً، قَالَ رَبِّ﴾ بغير فاء؟

قلنا: أراد بالنداء هنا إرادة النداء، فجاء بالفاء الدالة على السّببية، فإن إرادة النّداء سبب للنداء، فكأنه قال: وأراد نوح نداء ربه فقال: كيت وكيت. وأراد به في قصة زكريا حقيقة النّداء، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضي السّببية.

فَإن قيل: هود كان رسولاً ولا يظهر معجزة، ولهذا قال له قومه: ﴿يَا هُوْدُ ما جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [١١/٥٣] فبأي شيء لزمتهم رسالته؟

قلنا: إنما يحتاج إلى المعجزة من الرسل، مَنْ يَكون صاحب شريعة لتنقاد أُمّته إلى شريعته، فإنَّ في كل شريعة أَحكاماً غير معقولة فيحتاج الرسول الآتي بها إلى معجزة تشهد بصدقه.

فأما الرَّسُول الذي لا يكون له شريعة ولا يأمر إلا بالعقليّات فلا يحتاج إلى مُعجزة، لأنّ الناس ينقادون إلى ما يأمرهم به لموافقته للعقل، وهودٌ كان كذلك.

الثّاني: أنه نُقِلَ أَنّ معجزة هود كانت الرِّيحَ الصَّرْصَر فكأنّها كانت المُسَخَّرة.

فإن قيل على الوجه الأول: لو كان أَمرُ هودٍ لهم مقصوراً على العقليّات لما خالَفُوه، وكذبوه، ونسبوه إلى الجُنون بقولهم: ﴿يَا هُود ما جئتَنا ببيّنة﴾.

---

(١٠) مريم: ١٩/٣

(١١) في (أ) أمره لهم.

(*) وتمامُ كلامِهِمْ له: ﴿قَالُوا: يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾ [هود: ١١/٥٣ ـ ٥٤].

قلنا: إنما صدر ذلك القول من قاصري العقول أو المُعاندين المكابرين، كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات، والآيات الباهرات.

فإن قيل: هلّا قال: «إني أشهد الله وأشهدكم» لتتناسب الجملتان؟

قلنا: لأن إشهاد الله تعالى على البراءة من الشِّرك إشهادٌ صحيحٌ، مُفِيْدٌ تأكيدَ التَّوحيد وشَدَّ مَعاقِده. وأما إشْهَادُهم، فما هو إلا تهكّم بهم وتَهاون، ودلالة على قلة المبالاة لأنهم ليسوا أَهلاً للشهادة. فعَدَل به عن اللفظ الأول، وأتىٰ به على صُورة التهكّم والتّهاون، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاجَّهُ[12]: اشْهَدْ أني لا أحبك؛ تهكماً به واستهانة له!

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوا فَقَد أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [١١/٥٧] جعل التولي شرطاً والإبلاغ جَزاءً، والإبلاغ كان سابقاً على التَّوَلّي.

قلنا: ليس الإبلاغ جَزاءً للتولّي، بل جزاؤه محذوف تقديره فإن تولّوا لم أُعَاتَبْ على التّفريط في الإبلاغ أو التقصير فيه، ودَلّ على الجُزء المحذوف قوله: «فقد أبلغتكم».

الثاني: قال مقاتل تقديرُه: فإن تولَّوا فقُلْ لهم قد أبلغتكم.

فإن قيل: ما فائدة تكرار التّنجية في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوْداً وَالَّذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجّيناهُمْ من عَذَابٍ غَلِيْظٍ﴾ [١١/٥٨]؟

قلنا: أراد بالتّنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدُّنيا الذي نزل بقوم هود، وهو سَمُوم أَرْسَلها الله عليهم فقطعتهم عضواً عضواً.

---

(١٢) في (أ): إذ لا حجة؛ وفي (ب) إذ لا حج. وأظنّ العبارة: «إذا لاجَّهُ» من اللّجج. والإشارة إلى قوله تعالى ﴿.. قال إنّي أُشهد الله واشْهَدُوا أنّي بريءٌ ممّا تُشركونَ. مِن دونِه فكيدوني جَميعاً ثمّ لا تُنظرونِ﴾.

(١٣) في (ب) على تفريط في الإبلاغ أو تقصير فيه.

وأراد بالتّنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقّه قوم هُود بالكُفر، ولا عَذاب أغلظ منه وأشد.

فإن قيل: ﴿بُعْدَاً﴾ [١١/٦٠] معناه عند العرب الدُّعاء بالهَلاك، كذا نقله الزَّمخشري، فما مَعنىٰ الدّعاء عليهم بالهلاك بعد هَلاكهم؟

قلنا: معناه الدّلالة على أنّهم مستأهلون له، وحقيقون به. ونقيضُه قول الشاعر[١٤].

إِخْوَتي لا تَبْعَدُوا أَبداً وَبَلىٰ واللهِ قَد بَعَدُوا

أراد بالدعاء لهم بِنَفْي الإهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له، ولا حقيقين به.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيْزَانَ﴾ [١١/٨٤] نهى عن النقص فيهما، والنهي عن النقص أَمْرٌ بالإيفاء، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ والمِيْزَانَ بِالقِسْطِ﴾ [١١/٨٤]؟

قلنا: صرّح أولاً بنهيهم عن النّقص الذي كانوا يفعلونه لزيادة مبالغة في تقبيحه، وتغييرهم إياه، ثم صرّح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذي هو حَسنٌ عقلاً لزيادة الترغيب فيه والحثّ عليه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ﴾ [١١/٨٥].

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سُورة البقرة(*).

وجوابٌ آخر: معناه: ولا تَعثوا في الأرض مفسدين بالكُفر، وأنتم مُفسدون بنقصِ المكيال والميزان.

---

(١٤) البيت في الكشاف ٢: ٢٧٦، وهو لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية من قطعة حماسية، (الحماسة بشرح المرزوقي ٢: ٩١٢).
والمؤلف ينقل عن الزمخشري في هذا الموضع. كما أشار في صدر جوابه.
(*) وذلك في تعليقه على الآية (٦٠) من سورة البقرة.

فإن قيل: كيف قيل: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ [١١/٨٦] شرط الإيمان في كونِ البقيّة خيراً لهم، وهي خيرٌ لهم مطلقاً، لأنّ المراد ببقيّة الله ما يَبقىٰ لهم من الحَلال بعد إيفاء الكَيل والوَزن؛ وذلك خيرٌ لهم وإن كانوا كفّاراً لأنهم يَسلمون معه من عقَابِ البخسِ والتّطفيف؟

قلنا: إنّما شَرط الإيمان في خيرية البقيّة، لأن خَيريّتها وفائدتها مع الإيمان أظهر، وهو حُصول الثواب مع النّجاة من العقاب، ومع فقَد الإيمان أخفىٰ لانغماس صاحبها في عَذاب الكُفر الذي هو أشدّ العذاب.

الثاني: أن المراد إن كنتم مُصَدّقين لي فيما أقول لكم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوْطٍ مِنْكُم بِبَعِيْدٍ﴾ [١١/٨٩] ولم يقل «ببعيدين» والقوم اسمٌ لجماعة الرجال؛ وما جاء في القرآن الضّمير عائد إليه إلا ضمير الجماعة؛ وقال الله تعالى(١٥): ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أن يَأْتِيَهُم عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾ وقال: ﴿لايَسْخَرْ قَومٌ مِن قَومٍ عَسَىٰ أن يكونُوا خَيْراً مِنْهُم﴾؟

قلنا: فيه إضمارٌ، تقديره وما إِهْلَاكُ قوم لوط، أو: وما كان قوم لوط، ومكانُ قوم لوط كان قريباً منهم، وإهلاكُهم أيضاً كان قريباً من زَمَانِهم.

الثاني: أنّ (فَعِيلاً) يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، قال الجوهري(١٧): يقال: ما أنتم منّا ببعيد، وقال الله تعالى(١٨) ﴿وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ وقال(١٩): ﴿عَنِ اليَمِيْنِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيْدٌ﴾.

---

(١٥) نوح: ٧١/١
(١٦) الحُجرات: ٤٩/١
(١٧) الصحاح: مادّة (بعد).
(١٨) التّحريم: ٦٦/٤
(١٩) ق: ٥٠/١٧

فإن قيل: قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيْزٍ﴾ [٩١/١١] كلامٌ واقع فيه وفي رهطه وأنّهم الأعزّة عليهم دونه، فكيف صحّ قوله: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيكُمْ مِنَ اللهِ﴾ [٩٢/١١]؟.

قلنا: تهاونهم به وهو نبيُّ الله تهاون بالله، فحين عزّ عليهم رهطه دونه كان رهطه أعزّ عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى(١٨): ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾، وقوله(١٩): ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ﴾.

فإن قيل: قد ذكر عملهم على مكانتهم(٢٠)، وعمله على مكانته، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان المطابق والموافق في ظاهرِ الفهم أن يقول: «مَن يأتيه عذابٌ يخزيه ومن هو صادق» حتىٰ ينصرف «من يأتيه عذاب يخزيه» إليهم، و«من هو صادق» إليه.

قلنا: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ [٩٣/١١] يعني في زَعمكم ودَعواكم تجهيلاً لهم.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿إِذَا أَخَذَ القُرىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [١٠٢/١١] والقُرىٰ لا تكون ظالمة، لأنّ الظلم من صِفات مَن يعقل، أو من صفات الحيوان دون الجماد؟

قلنا: هو من الإسناد المجازي، والمراد به أهلها كما قال تعالى في موضع آخر(٢١): ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾؛ لكن لما

---

(١٨) النساء: ٨٠/٤

(١٩) الفتح: ١٠/٤٨

(٢٠) إشارة إلى قوله تعالى (هود ٩٣/١١): ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيْبٌ﴾.

(٢١) النساء: ٧٥/٤

أمِنَ اللَّبْس أسند الظلم إلى القرية لفظاً كما في قوله تعالى(٢٢): ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾.

فإن قيل: كيف التّوفيق بين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [١١/١٠٥] وقوله(٢٣): ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾؛ وقوله(٢٤): ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

فإن الآية الثالثةتناقض الآية الأولى بنفي الإذن وتُناقض الآيتين جميعاً بنفي النّطق؟

قلنا: أما التوفيق بين الآيتين الأُولَيين فظاهر، لأنّ معناه: «تجادل عن نفسها بإذنه» فتوافقت الآيتان.

وأما الآية الثالثة فإنها لا تُناقض الآية الأولى بنفي الإذن إن قُلنا إن الاستثناء من النفي ليس بإثبات لأن الآية الأولى لا تقتضي وجود الإذن حينئذٍ بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن.

فأمّا إن قُلنا إن الاستثناء من النفي إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى، ولا تُناقض الآيتين بنفي النطق، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن؛ ففي بعضها يُجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يَكُفّون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يُختم على أفواههم وتكلّم أيديهم، وتشهد أرجلهم.

وهذا جوابٌ عامٌّ عن مِثل هذه الآيات.

ويرد على هٰذا أن يقال: قوله تعالى(٢٥): ﴿هَٰذَا يَوْمُ لا

(٢٢) يوسف: ١٢/٨٢
(٢٣) النحل: ١٦/١١١
(٢٤) المرسلات: ٧٧/٣٥، ٣٦
(٢٥) المرسلات: ٧٧/٣٥

يَنْطِقُوْنَ﴾ نفـى النطق عنهم يـوم القيامة فيقتـضي انتفاؤه في جـميع أجـزاء ذلك الزمـان عمـلاً بعـموم النفي كما يعـمّ النفي جـميع أجـزاء المكـان في قـولنا: لا وجـودَ لـزيدٍ في الدار، فاندفـع الجـواب بخـلاف المواقـف والمواطن، فـيكون الجـواب: أنّ الآيـة الثالثة أريدَ بهـا طائفةٌ خـاصّة عن الطائفتـين الأولَيين فلا تناقض.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ﴾ [١١/١٠٥] وكـلمة «مِن» للتبعـيض، ومعـلوم أن النـاس كلّهـم إمـا شـقي أو سعيد، فمَـا معنىٰ التّبعيض هنـا؟

قلنـا: التبعيض هنـا على حـقيقته لأن أهـل القيامة ثـلاثة أقـسام:

شقيٌّ؛

وسعيدٌ، وهـم: أهـل النـار والجـنة كما ذكـر في هـذه الآيـة مفصلاً؛

وقسمٌ: لا شقيٌّ ولا سعيدٌ وهُـم أهـلُ الأعـراف.

الثـاني: أنّ معنىٰ الكـلام: فمنهـم شقي ومنهم سعيـد. وهـذا يقتضي أن يـكون الشقيّ بعض النـاس والسّعيد بعض النـاس؛ والأمـر كـذلك.

وهٰـذا لا يَقتضي أن يـكون الشّقي والسّعيـد كلاهـما بعضَ النـاس، بـل كلُّ واحـدٍ منهمـا بعض، وكلاهـما كـلّ، كمـا تقـول: من الحـيوان إنسـان، ومن الحـيوان غير إنسـان، وكـل الحـيوان: إمَّـا إنسـان أو غير إنسـان.

فـإن قـيـل: كيـف قـال تعـالى: ﴿مَـا دَامَتِ السَّمٰـوَاتُ والأَرْضُ﴾ [١١/١٠٧] وأراد به بيـان دوام الخـلود، لأنَّ أهـل الجـنة وأهـل النـار مخـلّدون فيهـا خـلوداً لا نهايةَ له؛ والسموات والأرضُ دوامُهـما منقطعٌ لأنهمـا يوم القيامة ينهدمان؛ قال الله تعـالى(٢٦): ﴿كَـلَّا إِذَا دُكَّـتِ الأَرْضُ دَكّـاً دَكّـاً﴾، وقـال(٢٧): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾؛ وقـال(٢٨): ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ

(٢٦) الفجـر: ٨٩/٢١

كَطَيّ السِّجلِّ لِلكتب﴾؛ ونظائره كثيرةٌ مِمّا يدلّ على خرابِ السَّموات والأرض؟

قلنا: للعرب في مَعنىٰ الأبد أَلفاظ:

منها هذا، يقولون لا أَفعل كذا ما اخْتَلَف اللّيْلُ والنَّهار، وما دامت السَّماء والأرض، وما أَطّت الإبل[٢٩]، ويريدون بذلك: لا أَفْعَلَهُ أَبداً؛ مع قَطع النظر عن كَون الموقت به له نهاية أو لا نهاية له.

الثاني: أنّه خاطبهم على مُعتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير.

الثالث: أنّه أراد به كون الفريقين في قُبورهم إمّا مُنَعّمين أو معذبين كما جاء في الحديث إن القَبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، ومَنْ كان في روضة من رياض الجنة فهو في الجنّة، ومن كان في حُفرةٍ من حُفر النّار فهو في النّار، فعلىٰ هذا يكون المُراد بالتّأقيت بدوام السموات والأرض مُدّة الخلود إلى يوم القِيامة.

الرابع: أنّ المراد سموات الآخرة وأَرضها، قال الله تعالى[٣٠]: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰوات﴾.

وتلك دائمةٌ لا تزولُ ولا تفنىٰ، ولأنّه لا بد لأهل الجنّة مما يُظِلّهم ويعلوهم[٣١] إما سماء يخلقها الله تعالى أو العرش، كما جاءَ في الأَخبار أن أَهل الجنّة تحت ظِلّ العرش[٣٢]. وكل ما أَظلّك فهو سماء.

---

(٢٧) الانفطار: ١/٨٣
(٢٨) الأنبياء: ١٠٤/٢١
(٢٩) أطّت الإبل: أنّت حنيناً.
(٣٠) الرّعد: ٤٨/١٤
(٣١) في (ب): يقلّهم؛ ومعناه يحملهم.
(٣٢) في الحديث القدسيّ أن الله تعالى قال: «المُتَحَابُون بِجَلاَلي في ظلّ عرشي يوم لا ظلّ إلاّ ظِلّي» (مسند الإمام أحمد ٤: ١٢٨).

وجـاء في الأخـبار أيـضاً في صـفة الجـنة أنّ ترابهـا من زَعفـران، فـدلّ علىٰ أنّ لهـا أرضاً، فالمـراد تـلك السماء، وتـلك الأرض.

فـإن قيل: إن كـان المـراد بهـذا التأقيت دوام الخـلود دواماً لا آخـر له فـكيف يصحّ الاستثنـاء في قـوله تعـالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [١١/١٠٧]؟

قلنـا: قـال الفَرّاء «إلا» هُنـا بمعنىٰ غير وسوىٰ؛ فمعنـاه خـالدين فيهـا ما دامت السّمـوات والأرض سوىٰ ما شـاء الله من الخُـلود والزيادة، فكأنّـه قـال: خـالدين فيهـا قـدر مـدة الدنيا غير مـا شاء الله من الزيـادة عليهـما إلى غير نهاية. وهـذا الوجـه إنـما يصحّ إذا كـان المـراد سمـوات الـدنيا وأرضهـا.

قـال ابن قُتَـيبة: ومثـله في الكـلام قـولك لأُسكِنَنَّـكَ في هٰـذه الدار حـولاً إلاّ ما شئـت، يـريد سـوىٰ ما شئت أن أزيـدك على الحـول.

الثّـاني: أنـه استثنـاءٌ لا يفعـله، كمـا تقـول: لأهجـرنَّـك إلاّ أن أرىٰ غير ذلك، وعزمُـك على هجـرانه أبـداً. أو هـو معنىٰ قـول ابن عـباس: إلاّ مـا شاء رَبّـك، وقـد شاء أن يخـلُدوا فيهـا.

قـال الزّجـاج: وفـائدة هـذا الاستثنـاء إعلامُنـا أنـه لو شـاء أن لاّ يخـلدهـم لمَا خَلّدهـم، ولكنـه ما شاء إلا خـلودهـم.

الثـالث: أنـه استثنـاء لزمـان البعث والحـشر، والوَقْف للعرض والحـساب، فـإنّ الأشقيـاء والسعـداء في ذلك الزمـان كـلّه ليسوا في النّـار، ولا في الجـنة.

الرّابع: أن «مـا» بمعنـى «من» والمستثنـىٰ مَن يـدخل النـار من الموحـدين، فيعـذّب بقـدر ذنوبه، ثـم يخـرج من النّـار، ويـدخل الجـنة. وهـذا الوجـه يخـتصّ بالاستثنـاء من الأشقيـاء فقط.

الخـامس: أن المستثنـى زمـان كون أهـل الأعـراف على الأعـراف،

قبل دُخولهم الجنة، وهذا الوجه يختصُّ بالاستثناء من السُّعداء فقط، وأهل الأعراف من السّعداء، لأنهم لم يدخلوا النار، ولأنّ مصيرهم إلى الخُلود في الجنة.

السادس: أنه استثناءٌ من الخلود في عذاب النّار، ومن الخُلود في نعيم الجنّة، لأنّ الاستثناء: لا يخلّدون في عذاب النار؛ بل يُعذّبون بالزّمهرير وغيره من أنواع العذاب سوىٰ النار. وكذلك السّعداء لهم سوىٰ نعيم الجنة ما هو أجلّ منها وهو الزّيادة التي وعَدهم الله إيّاها بقوله تعالى(٣٣): ﴿لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوا الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ ورضوان الله، كما قال تعالى(٣٤): ﴿وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ورِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ﴾؛ وقوله تعالى(٣٥): ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾؛ فهو المراد بالاستثناء.

ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعدَ ذكر الاستثناء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ﴾ [١٠٧/١١] وقوله تعالى بعد ذكر السّعداء: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [١٠٨/١١] يعني أنه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب، ويعطي أهل الجنة أنواع العطاء الذي لا انقطاع له(٣٦).

فاختلاف المقطعين يؤكّد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا. فتأمل كيف يفسّر القرآنُ بعضُه بعضاً.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنَّا

(٣٣) يونس: ٢٦/١٠
(٣٤) التوبة: ٧٢/٩
(٣٥) السجدة: ١٧/٣٢
(٣٦) عطاءً غير مجذوذ؛ أي غير مقطوع.

لَمُوفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [١١/١٠٩] والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافياً أي تاماً، نقله الجوهري، وغيره. والتام لا يكون منقوصاً؟

قلنا: هو من باب التأكيد.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [١١/١١٩] إشارة إلى ماذا؟

قلنا: هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حالي الاختلاف والرّحمة، فمعناه أنَّه خَلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة، وقد فسّره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: خَلقهم فريقين، فريقاً رحمهم فلم يختلفوا، وفريقاً لم يرحمهم فاختلفوا.

وقيل: هو إشارة إلى الاختلاف، والضمير في «خلقهم» للمختلفين؛ واللام على الوجه الأوَّل والثالث: لام العاقبة والصَّيرورة لا لام كي، وهي التي لام العَرضِ والمقصود؛ لأنّ الخلق للاختلافِ في الدّين لا يليقُ بالحكمة.

ونظير هٰذه اللام قوله تعالى(٣٧): ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُوْنَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾.

وقول الشاعر(٣٨):

لِدُوا للموتِ وابْنُوا للخَرابِ(٣٩)...

وقيل: أنها لام التمكين والإقدار كما في قوله تعالى(٤٠): ﴿جَعَلَ

(٣٧) القصص: ٢٨/٨

(٣٨) هو أبو العتاهية، والبيت في ديوانه (٣٣).

(٣٩) تمام البيت:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكُمُ يصيرُ إلى تبابِ!

(٤٠) يونس: ١٠/٦٧

لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ﴾؛ وقوله تعالى(٤١): ﴿وَالخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيْرَ لِتَرْكَبُوْهَا﴾؛ والتمكين والإقدار حاصل وإن لم يسكن بعض الناس في الليل، ولم يركب بعض هذه الدواب. ومعنىٰ التّمكين والإقدار هُنا أنّه سبحانه وتعالى أَقْدَرهم على قَبُول حكم الاختِلاف، ومكّنهم منه.

وقيل: اللام هنا بمعنى «علىٰ» كما في قوله تعالى(٤٢): ﴿وَتَلَّهُ لِلجَبِيْنِ﴾ وقوله تعالى(٤٣): ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجّداً﴾.

فإن قيل: كيفَ الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [١١/ ١٢٠] وقوله تعالى(٤٤): ﴿وَرُسُلاً قَد قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ، وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؟

قلنا: معناه وكلّ نَبَأ نقصُّه عليك من أنباء الرسل هو ما نثبّت به فؤادك، فـ «ما» في موضوع رفع خبر لمبتدأ محذوف، فلا يقتضي اللّفظ قصّ أنباء جميع الأنبياء. فلا تَتناقض الآيتان.

الثّاني: أنّ المراد بالكلّ هنا البَعض، كما في قوله تعالى(٤٥): ﴿ثُمّ اجْعَلْ عَلَى كُلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾.

وقوله تعالى(٤٦): ﴿وَجَاءَهُم المَوْجُ مِن كُلّ مَكَانٍ﴾.

وقوله تعالى(٤٧): ﴿وَأُوتيت مِن كُلّ شَيْءٍ﴾.

---

(٤١) النحل: ٨/١٦
(٤٢) الصافات: ١٠٣/٣٧
(٤٣) الإسراء: ١٠٩/١٧
(٤٤) النساء: ١٦٤/٤
(٤٥) البقرة: ٢٦٠/٢
(٤٦) يونس: ٢٢/١٠
(٤٧) النمل: ٢٣/٢٧

وقـوله تعـالى(٤٨): ﴿وَكُلَّ إنسـانٍ أَلْزَمْنَـاهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، وقول لبـيد(٤٩):

ألا كـل شيء ما خـلا الله باطلُ   وكـلُّ نعيـمٍ لا محـالـةَ زَائِـلُ

وكـثير من الأشـياء غير الله تعـالى حـقّ كالنبي عليه الصلاة والسلام، والإيمـان، والجَنّـة، وغير ذلك، وكـذلك نعيم الجـنة والآخـرة ليس بـزائل، ولـبيد صـادق في هـذا القـول لقـوله ﷺ: أَصْدَقُ كلمـةٍ قـالها شاعـر قـول لبـيد(٥٠): ألا كـل شيء... إلخ.

فإن قيل: ما فائدةُ تخـصيص هذه السُّورة بقـوله تعـالى: ﴿وَجَـاءَكَ فِي هٰـذه الحَقُّ﴾ [١١/١٢١] مع أن الحـقّ جـاءه في كـل سور القرآن؟

قلنـا: فـائدة تخـصيص هذه السُّورة بـذلك زيادة تشريفهـا وتفضيلها مع مشـاركة غيرها إيّـاها في ذلك كما في قـوله تعـالى(٥١): ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله﴾.

وقـوله(٥٢): ﴿وَجِبْرِيل وَمِيْكَال﴾ بعد قـوله «وملائكـته».

وقـوله(٥٣): ﴿وَالصَّلاةِ الوُسْطىٰ﴾؛ بعد قـوله «الصّلوات» ووجـه المشابهـة بينهـما أنّـه كما حـمل قـوله تعـالى: ﴿وَجِبْرِيْلَ، ومِيْكَالَ﴾ على التَّشـريف والتَّفـضيل عند تعـذر حـمله على تعـليق العَدَاوة بـه لئـلا يلـزم تحـصيل الحـاصل، وكـذا في المثـال الآخـر تعذّر حـملُه على إيجـاب المُحَـافَظة لِمَا قلنـا.

---

(٤٨) الإسـراء: ١٧/١٣
(٤٩) من مشهـور شعـر لبيد، وهو في ديوانه (٢٥٦).
(٥٠) مسنـد الإمـام أحـمد (٢: ٢٤٨).
(٥١) الجنّ: ٧٢/١٨، يعني حين أضاف المَسَاجِدَ للهِ اكتسبت شرفاً.
(٥٢) البقـرة: ٢/٩٨
(٥٣) البقـرة: ٢/٢٣٨

وهنا تعذر حملُه على حقيقته وهو الجِنس أو المعهود؛ لأنّ حقيقته انحصار كلّ حقٍّ في هذه السّورة؛ وهو مُنتفٍ؛ أو حمل الحق على معهود سابقٍ، وهو مُنتفٍ، وحمله على بعض الحقّ يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السُّور، وأنه لا يحسن كما لو قال: «وجَاءك في هذه آيات، أو كلام الله، أو كلام معجز»؛ فَجُعِلَ مجازاً عن التفضيل والتشريف.

وقيل: الإشارة بـ(هٰذِهِ) إلى الدُّنيا، لا إلى السُّورة[٥٤]، والجمهور على القول الأول. ولا يقال: إنما خصت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [١١/١١٢] والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين؛ لأن نقول: الأمر بالاستقامة جاء أيضاً في سورة ﴿حم عسق﴾ الشُّورى؛ قال الله تعالى[٥٥]: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم﴾ فلا يصلح هذا علّة للتّخصيص.

---

(٥٤) في سورة هود: ١١/١٢٠ ﴿... وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي في هذه السّورة، عن ابن عَبّاس وأبي موسى وغيرهما. وقال قتادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا يريد النبوّة. (عن القرطبي ٩: ١١٦).

(٥٥) الشورى: ٤٢/١٥

سُوْرَةُ يُوسُفْ
عَليه السلام

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِيْ سَاجِدِيْنَ﴾ [٤/١٢] ولم يقل، ثلاثة عشر كوكباً، وهو أوجَزُ وأخْصَر؟ والذي رآه: أحد عشر كوكباً غير الشمس والقمر؟

قلنا: قصد عطفهما على الكواكب تخصيصاً لهما بالذكر، وتفضيلاً لهما على سائر الكواكب لِمَا لهما من المَزِيّة والمرتبة على الكُلّ. ونظيره تأخير جبريل وميكال عن الملائكة ثم عطفهما عليهم إن قلنا إنهما غير مُرَادَيْن بلفظ الملائكة. وكذا قولهُ تعالى[1]: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الوُسْطَىٰ﴾ إن قلنا إنها غير مُرادة بلفظ الصَّلوات.

فإن قيل: ما فائدة تكرار «رَأَيْتُ»؟

قلنا: قال الزّمخشري[2]: ليس ذلك تكراراً بل هو كلام مستأنف وقع جواباً لسؤالٍ مقدّر من يعقوب عليه السلام كأنه قال له بعد قوله: ﴿وَالشَّمْسَ والقَمَرَ﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها فقال مُجيباً له: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِيْنَ﴾. وقال الزَّجّاج: إنما كرّر الفعل توكيداً لمّا طالَ الكلام كما في قوله تعالى[3]: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، و[4] ﴿هُم بالآخرة هم كافرون﴾. وقال غيره: إنّما كرر تفخيماً للرؤية وتعظيماً لها.

فإن قيل: كيف أُجريت مَجرىٰ العقلاء في قوله: «رأيتهم»، وفي

---

(١) البقرة: ٢٣٨/٢

(٢) أورده الزمخشري في الكشاف ٢: ٣٠٢

(٣) الروم: ٧/٣٠

(٤) فصّلت: ٧/٤١

قوله «ساجدين»، وأصله رأيتها ساجدة(٥)؟

قلنا: لما وصفها بما هو من صفات من يعقل وهو السّجود أجرىٰ عليها حكمه كأنها عاقلة، وهذا شائعٌ في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطىٰ حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة. ونظيره قوله تعالى(٦): ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾. وقوله تعالى في وصف السماء والأرض(٧): ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

فإن قيل: كيف قالوا: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾(٨) [١٢/١٢] وكانوا عاقلين بالِغِين، وأنبياء أيضاً في قول البعض؛ وكيف رضي يعقوب عليه السلام لهم بذلك؟

قلنا: على قراءة الياء لا إشكال لأن يوسف عليه الصلاة والسلام كان يومئذٍ دون البُلوغ فلا يحرم عليه اللّعب.

وعلى قراءة النّون نقول: كان لَعبهم المسابقة والمناضلة ليعوّدوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا لِلَهْوٍ، وذلك جائز في الشرع، ويعضد هذا قولُهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[١٧/١٢] وإنّما سموه لعباً لأنه في صُورة اللعب.

ويَرِد علىٰ أَصل السؤال أن يقال: كيف يتورعون عن اللعب، وهم قد فعلوا ما هو أعظمُ حرمةً من اللعب وأشد، وهو إلقاءُ أخيهم في الجبّ على قصد القتل!

فإن قيل: كيف اعتذر إليهم يعقوب (ع) بعذرين أحدهما:

(٥) ورد السؤال عند المفسّرين (القرطبي ٩: ١٢٢، والكشّاف ٢: ٣٠٢ ـ ٣٠٣) وآثر المؤلف رحمه الله سياق عبارة الزمخشري.

(٦) النّمل: ١٨/٢٧

(٧) فصّلت: ١١/٤١

(٨) قرىء «يرتَعْ ويلعب» وهي قراءة أهل الكوفة والمدينة (حجّة القراءات ٣٥٦). و«نَرتَعْ ونلعبْ» وهي قراءة أهل البصرة.

قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [١٢/١٣] لأنه كان لا يصبر عنه ساعةً واحدة؛

والثاني: خوفه عليه من الذئب، فأجابُوه عن أحد العذرين دون الآخر؟

قلنا: حبّه إياه، وإيثاره له، وعدم صبره على مُفارقته هو الذي كان يَغِيظهم ويُؤلمهم، فأضربوا عنه صفحاً ولم يجيبوه عنه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [١٢/١٥] وهو يومئذٍ لم يكن بالغاً، والوحي إنّما يكون بعد الأربعين؟

قلنا: المراد به وحي الإلهام لا وحي الرسالة الذي هو مخصوصٌ بما بعد الأربعين ونظيره قوله تعالى(٩): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وقوله تعالى(١٠): ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [١٢/٢٢]، وقال في حقّ موسى عليه الصلاة والسلام(١١): ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾.

قلنا: المراد ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلافٍ في مقداره.

والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو السِّتين، وكان إتيان كلّ واحد منهما الحكم والعلم في ذٰلك الزّمان فأخبر عنه كما وقع.

فإن قيل: كيفَ وحدّ الباب في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا

(٩) القصص: ٢٨/٧
(١٠) النحل: ١٦/٦٨
(١١) القصص: ٢٨/١٤

البَابَ﴾ [١٢/٢٥] بعـد جـمعه في قـوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ [١٢/٢٣]؟

قلنـا: لأنّ إغلاق البـاب للاحـتياط لا يـتم إلا بإغـلاق جـميع أبـواب الدّار؛ سـواء كـانت كـلهـا في جـدار الدار أو لا. وأمـا هـربه منهـا إلى البـاب فـلا يـكون إلا إلى بـابٍ واحـدٍ إن كـانت كلّهـا في جـدار الدّار، لأن خـروجه في وقت هربه لا يُتَصَوّر إلا من بـابٍ واحـد منهـما.

وإن كـان بعض الأبـواب داخـل بعض فـإنّـه أول ما يقـصد الباب الأَدنىٰ لِقُربه، ولأنّ الخـروج من الباب الأَوسط، والبـاب الأقصـىٰ موقوفٌ على الخُـروج من البـاب الأدنـىٰ؛ فلذلك وَحّـد البـاب.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِـدٌ مِن أَهْلِهَـا﴾ [١٢/٢٦] ولم يـكن قـولُه شهـادةً؟

قلنـا: لمـا أدىٰ معنىٰ الشهـادة في ثـبوت قـول يوسف عليه السلام، وبُـطلان قولها سُمّـي شهـادة. فالمـراد بقـوله «شهـد» أَعْلَم وبَيَّـن وحَـكم.

فـإن قيل: قدّ قميصه من دبر يـدل على أنّهـا كاذبة، وأنهـا هي التي تبعـته، وجذَبـت قميـصه من خـلفه فقَدَّته، فأمـا قَدُّه من قُبُلٍ كـيف يدلُّ على أنهـا صادقة؟

قلنـا: يدلّ على وجهـين.

أَحـدهما: أنه إذا كـان طالبهـا وهي تدفعه عن نفسها بيدهـا أو برجـلها قـدت قميصه من قـبل بالدَّفع.

الثـاني: أنّـه يُـسرع خلفهـا وهـي هاربـة منه فيعثـر في مقادم قـميصه فيشقّـه.

ويـرد على الوجـه الثـاني أنـه مشتـرك الدلالة من جهـة العِثـار الـذي هـو

نتيجة الإسراع، لأنه يحتمل أن يكون إسراعاً في الهَرب منها وهي خلفه فيعثر فيقدّ قميصه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَت اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [٣١/١٢]. وإنّما يقال: خرجتُ إلى السوق، وطرقتُ عَلَيه الباب فخرج إليّ؟

قلنا: إذا كان الخروجُ بقهرٍ وغلبة، أو بِجَمال وزينة، أو بآيةٍ وأمرٍ عظيم، فإنما يعدّى بـ «علىٰ» ومنه قولهم: خَرَج علينا في السَّفر قُطّاع الطريق، ومنه قوله تعالى[١٢]: ﴿فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ فِي زِيْنَتِهِ﴾، وقوله تعالى[١٣]: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ﴾.

فإن قيل: كيف شَبَّهْنَ يوسفَ عليه الصلاة والسلام بالمَلَكِ فَقُلن: ﴿إِنْ هٰذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيْمٌ﴾ [٣١/١٢] وهنَّ ما رأينَ الملائكة قط؟

قلنا: إن كنّ ما رأينَ الملائكة فقد سمعنَ وصفها.

الثاني: أن الله تعالى قد ذكر في الطباع حُسن الملائكة، كما ذكر فيها قُبح الشياطين. وكذلك شبّه كل مُتَناهٍ في الحسن بالمَلَك، وكلّ متناهٍ في القبح بالشّيطان.

فإن قيل: كيفَ قال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنّي تركتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُوْنَ بالله وَهُمْ بالآخِرَةِ هُم كَافِرُوْنَ﴾ [٣٧/١٢] وتركُ الشّيء إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه، ويقال: ترك فلانٌ شرب الخمر، وأكل الرّبا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أَقْلَع عنه، ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يكنْ على مِلّة الكُفّار قط؟

قلنا: التَّرك نوعان.

---

(١٢) القصص: ٧٩/٢٨
(١٣) مريم: ١١/١٩

ترك بعد المُلابَسة ويسمىٰ ترك انتقال؛ وترك قبل المُلابَسة، ويسمىٰ تَرْك الإعـراض، كقـوله تعـالى في قـصة موسى عليه الصلاة والسَّلام(١٤): ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، وموسى عليه الصلاة والسلام ما لابسَ عبادة فِرعـون، ولا عبادةَ آلهـتِه في وقتٍ من الأوقـات؟

ومـا نحـن فيه من النّوع الثاني، وسيأتي نظير هـذا السؤال في سورة إبـراهيم عليه الصلاة والسلام في قـوله تعـالى(١٥): ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَـا﴾.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿أَمَرَ أَنَّ لَا تَعْبُـدوا إِلَّا إِيَّـاهُ﴾ [١٢/٤٠] فسّر الأمـر بالنهـي، أو بـما مَرَدُّه النّهـي؛ وهـما ضدّان؟

قلنـا: فيه إضـمارُ أَمـر آخـر تقديرُه: أمـر أمراً اقتضىٰ أن لاّ تعبـدوا إلا إيّـاه، وهو قـوله تعـالى(١٦): ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾.

الثـاني: أَن فيه إضـمار نهيٍ تقديره: أمـر ونهـىٰ. ثم فسّر الأمـرين بقـوله تعـالى: ﴿أَن لاّ تَعْبُدوا إلا إيـاه﴾.

الثـالث: أن قـوله تعـالى: ﴿أَن لاّ تَعبـدوا﴾ وإن كـان مضادّاً للأَمـر من حيث اللفظ فهـو موافقٌ له من حـيث المعنى. فلم قـلتم إنّ تفسير الشيء بمـا يـضادّه صورةً، ويوافقـه معنىً غير جـائز؟

وبيان موافقته معنى من وجهين:

أحـدهما: أنّ النهـي عن الشيء أمـرٌ بضدّه. وعبادة الله تعـالى ضـد عبادة غير الله.

الثـاني: أنّ معنىٰ مجـموع قـوله تعـالى: ﴿أن لاّ تعبـدوا إلا إيـاه﴾: اعبـدوه وَحْدَهُ. فيـكون تفسيراً للأمر المطلق بفردٍ من أفـراده؛ وإنـه جـائز.

(١٤) الأعـراف: ١٢٧/٧
(١٥) الأعـراف: ٨٨/٧
(١٦) الفاتحـة: ٥/١

فإن قيل: الأَنبياء عليهم الصّلاة والسلام أَعظمُ الناس زهداً في الدّنيا، ورغبةً في الآخرة، فكيف قال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ [١٢/٥٥] طلب أن يكون مُعتمداً على الخزائن متولّياً لها وهو من أكبر مَناصب الدُّنيا؟

قلنا: إنّما طلب ذٰلك ليتوصّل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحقّ، وبَسط العدل ونحْوه مما يُبعث له الأَنبياء، ولعلمه أنّ أَحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك. فطلبَ التّولية ابتغاءً لوجه الله تعالى وسعياً في منافع العِباد ومصالحهم، لا لحبّ المُلك والدنيا. ونظيره قوله تعالى[١٧]: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ﴾ يعني: لو كنت أعلم أي وقت يكون القَحط لادّخرت لزمن القحط طعاماً كثيراً لا للحرص لكن لأتمكّنَ من إعانة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والضائقة.

ويُحتمل أن يكون علم تعيّنه لذلك العمل[١٨] فكان طلبُهُ واجباً عليه.

فإن قيل: كيف جاز ليوسف عليه الصلاة والسلام أن يأمر المؤذن أن يقول: ﴿أَيَّتُها العِيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُوْنَ﴾ [١٢/٧٠] وذلك بُهتانٌ، وتسريق بالصُّواع لمن لم يسرقه، وتكذيبٌ للبريء واتّهام له؟

قلنا: قوله: «﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُون﴾ توريةٌ عَمّا جرىٰ منهم مجرىٰ السّرقة، وتصوّر بصورتها من فعلهم بيوسف ما فعلوه أولاً.

الثاني: أن ذلك القول كان من المُؤذن بغير أمرِ يوسف عليه الصلاة والسلام. كذا قاله بعض المفسّرين.

---

(١٧) الأعراف: ٧/١٨٨
(١٨) في (ب): بعثه لذلك الفعل.

الثالث: أن حكم هذا الكيد حكم الحِيَل الشّرعية التي يُتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيّوب عليه الصلاة والسلام(١٩): ﴿خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حق زوجته(٢٠): «هي أُختي» ليسلم من يد الكافر وما أشبه ذلك.

فإن قيل: كيف تأسَّف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله: ﴿يَا أَسَفَى عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [١٢/٨٤] والرزء الأَحْدَثُ أَشدّ علىٰ النفس، وأعظم أثراً؟

قلنا: إنّما يكون أشدّ إذا تساوت المُصيبتان في العِظَم، ولم تتسَاويا هنا بل فَقْدُ يوسف كان أعظمَ وأشد من فقد أخيه. فإنّما خصّه بالذكر ليدلّ على أن الرُّزء فيه مع تَقادُمِ عهده ما زال غَضّاً طرياً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ﴾ [١٢/٨٤] والحزن لا يحدث بياض العين لا طباً ولا عرفاً؟

قلنا: قال ابن عَبّاس: من الحُزْنِ: أي من البُكاء، ولأنّ الحزن سبب للبكاء، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبَّب. وكثرة البُكاء قد تحدث بياضاً في العين يغشىٰ السواد، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام.

وقيل: إذا كثرت الدموع مَحقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر!

فإن قيل: كيفَ قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إلّا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ [١٢/٨٧] مع أنّه من المؤمنين مَنْ يَيأس من روح الله، أي من فَرجِه وتَنفيسه؛ أو من رحمته؛ علىٰ اختلاف القولين إما لشدة مصيبته،

---

(١٩) ص: ٣٨/٤٤

(٢٠) صحيح مسلم (٤: ١٨٤٠).

أو لكثرة ذنوبه كما جاء في الحديث[٢١] في قصّة الذي أمرَ أهله إذا ماتَ أن يحرقوه ويَذروا رمادَهُ في البرّ والبَحر ففعلوا به ذلك، ثم إنّ الله تعالى غفر له كما جاءَ مشروحاً في الحدِيث المشهور، وهو من الصِّحاح مع أنه يئس من روح الله تعالى، وضم إلى يأسه ذنباً آخر وهو اعتقاده أنّه حرق وذري رماده لا يقدر الله تعالى على إحيائه وتعذيبه، ومع هذا غفر له، فدلّ على أنه لم يَمُت كافراً.

قلنا: إنما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملاً بظاهر الآية، وكل مؤمن تحقق منه الإِياس من روح الله فهو كافر في الحال حتىٰ يعود إلى الإِسلام ويعود إلى رجاء روح الله تعالى.

وأما الرجل المغفور له في الحديث فلا نسلّم أنه لم يكفر، ثم إن الله تعالى لما أحياه في الدنيا عاد إلى الإسلام بعودته إلى رجاء روح الله تعالى فلذلك غفر له، أو يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موتته الأولى، ولم يتّسع له الزمان أن يرجع عن وصيّته التي أوصى أهله بها فمات مسلماً، فلذلك غفر له.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجّداً﴾ [١٢/١٠٠] وكيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟

قلنا: كان السّجود عندهم تحية وتكرمة، كالقيام والمُصَافحة عندنا.

وقيل: كان انحناء كالركوع، ولم يكن وضع جبهةٍ على الأَرض، إلاّ أن قوله تعالى: ﴿خَرّوا﴾ يأبىٰ ذلك، لأن الخرور عبارة عن السُّقوط.

ولا يرد عليه قوله تعالى[٢٢]: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً﴾؛ لأنهم قالوا: أراد به

---

(٢١) مسند الإمام أحمد (٥: ٤).
(٢٢) ص: ٢٤/٣٨

ساجداً؛ فعبر عن السجود بالركوع كما عبّر به عن الصلاة في قوله تعالى(٢٣): ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾؛ أي صَلّوا مَع المصلين.

وقيل: «له» أي لأجله؛ فاللّام للسببية لا لتعدية السُّجود إلى يوسف عليه الصَّلاة والسلام، فالمعنى: وخَرّوا لأجل يوسف سُجّداً لله تعالى شكراً لله تعالى على جمع شملهم به.

وقيل: الضَّمير في «له» يعود إلى الله تعالى وهذا الوجه يدفعه قوله: ﴿يَا أَبَتِ هٰذا تَأْوِيْلُ رُؤيَايَ مِن قَبْلُ قَد جَعَلَها رَبِّي حَقّاً﴾ [١٢/١٠٠].

فإن قيل: كيفَ ذكر يوسف عليه السَّلام نعمة الله عليه في إخراجه من السِّجن فقال: ﴿وقد أَحسنَ بِي إِذْ أَخرجني مِنَ السِّجْنِ﴾ [١٢/١٠٠] ولم يذكر نعمته عليه في إخراجِهِ من الجُبّ وهو أعظم نعمة، لأنّ وقوعه في الجبّ كان أعظم خطراً؟

قلنا: إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه:

أحدها: أنّ محنَة السْجن ومصيبته كانت أعظم لطول مدتها، فإنّه لبث فيه بضعَ سِنين، وما لبث في الجبّ إلا مدة يسيرة.

الثاني: أنّه إنما لم يذكر الجب لا يكون في ذكره توبيخ وتقريع لإخوته بعد قوله: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ﴾ [١٢/٩٢].

الثالث: أن إخراجه من السجن كان مقدّمة لملكه وعزه، فلذلك ذكره، وخُروجه من الجبّ كان مقدمة الذل والرق والأسر، فلذلك لم يذكره.

الرابع: أن مصيبة السجن كانت أَعظَمَ عنده لمصاحبة الأوباش والأَراذل، وأعداء الدّين، بخلاف مُصيبة الجبّ فإنّه كان مؤنسه فيه

(٢٣) البقرة: ٢/٤٣

جِبريل وغيره من الملائكة عليهم الصلاة والسلام(٢٤).

فإن قيل: كيفَ قال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ [١٢/١٠١] وهو يعلم أن كل نبيٍّ لا يموتُ إلاّ مُسلماً؟.

قلنا: يجوز أن يكون قد دعا بذلك في حال غلبة الخوف عليه غلبةً أذهلته عن ذلك العلم في تلك الساعة.

الثاني: أنه دعا بذلك ـ مع علمه ـ إظهاراً للعبودية والافتقار، وشدّة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة، وتعليماً للأُمّة.

فإن قيل: كيف يجتمع الإيمانُ والشِّرك وهما ضدان حتى قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [١٢/١٠٦]؟

قلنا: معناه: وما يؤمن أكثرهم بالله خالقه ورازقه، وخالق السموات والأرض قولاً إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً.

الثاني: أن المراد بها المنافقون: يؤمنون بألسنتهم قولاً، ويشركون بقلوبهم اعتقاداً.

الثالث: أن المراد بها تلبية العرب، كانوا يقولون:

لبَّيك لا شريك لك
إلا شريكاً هو لك
تملكه وما ملك(٢٥)،

---

(٢٤) في القرطبي أنه قال: (من السجن) ولم يقل من الجبّ استعمالاً للكرم، لئلاّ يذكّر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم؛ ونقل عن مشايخ الصوفية عبارتهم: «ذكر الجفَا في وقت الصَّفا جَفا».
وذكر وجوهاً أُخَر استوفاها المؤلّف.

(٢٥) التلبية جارية على وزن مجزوء الرَّجز.
ـ والعبارة مشهورة مثبتة في كتب السِّير، والتّواريخ واللّغة.

فكانوا يؤمنون بأول تلبيتهم بنفي الشّريك، ويشركون بآخرها بإثباته.

فإن قيل: هذه التّلبية توحيد كلّها ولا شرك فيها، لأن معنىٰ قولهم «إلا شريكاً هو لك» إلا شريكاً هو مملوكٌ لك موصوفاً بأنّك تملكه، وتملك ما ملك.

قلنا: فاللّام هنا للملك لا لعلامة الشّركة. وهذا الاستثناء يُحتمل أن يكون حقيقيّاً، ويُحتمل أن يكون مجازيّاً.

بيان الأول: أنا إن قلنا إنّ اللام حقيقية في المعنى العام في مواردها وهو الاختصاص يكون قولهم «لا شريك لك» عامّاً في نفي كلّ شريك مضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما فيدخل في النّفي من جهة اللفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهما، ثم يقع عليه الاستثناء فيكون استثناءً حقيقياً.

وإن قلنا إنّها مُشتركة بين المعاني الثّلاثة الموجودة في موارد استعمالها وهي: الملك والاستحقاق، ويقال الاختصاص والغلبة فقولهم: «لا شريك لك» يكون عاماً أيضاً عند من يجوّزُ حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة، فيكون الاستثناء حقيقياً كما مرّ.

وأما على قول من لا يجوّز ذلك يكون النّفي وارداً على أُحد مفهوماته وهو علاقة الشّركة، فيكون الاستثناء بعده مجازياً من باب تأكيد المدح بما يشبه الذمّ؛ وهو نوع من أنواعِ البلاغة، مذكورٌ في علم البيان. وشاهده قول الشاعر(٢٦):

ولا عَيبَ فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُم بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ

معناه: إن كان هذا عيباً ففيهم عيب، وهذا ليس بعيب، فلا يكون

(٢٦) البيت شاهد مشهور للنابغة الذّبياني (ديوانه بشرح الأعلم: ٤٤).

فيهم عيب. فكذا معناه هنا: إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكاً لك فلَك شريك، وهو لا يصلح شريكاً لك فلا يكون لك شريك؛ لأن كل ما يدّعي أنه شريك لك فهو مملوك لك. وهذا المعنىٰ هو المراد بقوله تعالى(٢٧): ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية.

فإن قيل: على الوجه الأول إنّه ليس بصحيح لأنا لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام، وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد نفي الشريك من غير استثناء لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما وهو كفر. واللازم منتفٍ لأنه إيمان محض بلا خلاف.

قلنا: إنّما لم يكن كُفراً مع عمومه لأن حقيقته العُرفية عند عدم الاستثناء نفي كل شريك مضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشركة، لا نفي كل شريك مضاف إليه بجهة ما فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء.

والجواب عن أصل السؤال أنه سؤال حسن محقق، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين. فإن صح النقل أن النبي عليه الصلاة والسلام نهىٰ عنها، فإنما نهىٰ عنها لأنها توهم إثبات الشريك بمقتضىٰ الاستثناء عند قاصري النّظر، وهم عَوامّ الناس، فلهذه المفسدة نهىٰ عنها.

---

(٢٧) الرّوم: ٢٨/٣٠

سورة الرعد

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [١٣/ ١٠] ولم يقل: «ومن هو سارب بالنهار» ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب أي ظاهر، وليتناسب لفظ الجملة الأولىٰ والثانية، فإنه قال في الجملة الأولى: ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [١٣/ ١٠].

قلنا: قوله تعالى «وسارب» معطوف على «من» لا على «مستخف»، فيتناول معنىٰ الاستواء اثنين.

الثاني: أنه وإن كان معطوفاً على «مستخف» إلا أن «من» هنا في معنى التثنية كقوله[١]:

نكن مثلَ مَن يا ذئبُ يصطحبانِ!

فكأنه قال: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل وسارب بالنهار.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِيْنَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [١٣/ ١٤] أي في ضياع وبطلان، والكفار يدعون الله تعالى في أوقات الشدائد والأهوال، ومشارفتهم الغرق في البحر، فيستجيب لهم.

قلنا: المراد: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال؛ ويعضده قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ﴾ [١٣/ ١٤] أي يعبدون.

فإن قيل: كيف طابق قولهم[٢]: ﴿لَولَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَّبِّهِ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ

---

(١) هذا عجز بيت للفرزدق، (ديوانه ٢: ٨٧٠)، وتمامه:

تعشّ فإن واثقتني لا تخونني   نكن مثل من يا ذئب يصطحبانِ!

والحوار قائم هنا بين الشاعر والذئب.

(٢) الآية بتمامها: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أُنزل عليه آية من رَبّه قُلْ إنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾.

الله يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [١٣/٢٧].

قلنا: هو كلامٌ جرىٰ مجرىٰ التعجّب من قولهم لأنَّ الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبيٌّ قبله وكفىٰ بالقرآن وحده آيةً وراء كل آية. فإذا جحدوا آياته ولم يعتدّوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط كان موضعاً للتعجب. فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم، وما أشد تصميمكم على كُفركم.

فإن قيل: كيف المطابقة بين قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [١٢/٣٣] وقوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ﴾ [١٢/٣٣].

قلنا: فيه محذوف تقديره: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر ويعدّ لكلٍ جزاءه كمن ليس كذلك وهو الصنم، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلُوا لله شُركاء﴾. أو تقديره:

أفمن هو بهذه الصّفة لم يوحّدوه، وجعلوا لله شركاء.

أو تقديره: أفمن هو بهذه الصفة يغفل عن أهل ملكه وأقوالهم وأفعالهم؟ وجعلوا لله شركاء.

فإن قيل: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ [١٣/٣٦] بما قبله بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَه﴾ [١٣/٣٦].

قلنا: هو جواب المنكرين، معناه: قل إنما أمرت فيما أُنزل إليّ أن أعبد الله ولا أشرك به. فإنكاركم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده، كذا أجاب الزمخشري(٣)، وفيه نظر.

---

(٣) الكشاف ٢: ٣٦٢

فـإن قيل: كيفَ قـال تعـالى: ﴿وَقَدْ مَكَر الَّذِيْنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [١٣/٤٢] أثبـت لهـم مكـراً ثـم نَفـاه بقـوله تعـالى: ﴿فَلِلَّهِ المَكْـرُ جَمِيْعاً﴾ [١٣/٤٢].

قلنـا: معنـاه أن مـكر الماكـرين مخـلوق له ولا يضرّ إلا بإرادته. فبهـذه الجهـة صحّـت إضافـة مكرهـم إليه.

الثّاني: أنه جعـل مكرهم كَلاَ مـكرٍ بالإضافة إلى مَكْرِهِ لأنّـه يأتيهـم من حـيث لا يعلمـون، وهـم في غفلةٍ عَمّـا يُـراد بهـم، فيعـكس مكرهـم عليهـم.

سُورَةُ إبْراهِيْم
عليه السلام

فإن قيل: قولهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [١٤/٤] هذا في حق غير النبي ﷺ من الرسل مناسب لأن غيره لم يُبعث إلى الناس كافة، بل إلى قومه فقط، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة، ولا يبقى لهم حجّة: بأنّا لم نفهم رسالتك.

فأمّا النبي[١] عليه الصلاة والسلام فإنه بُعث إلى الناس كافّة[٢]: ﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إنّي رَسُولُ الله إليكمْ جَمِيْعاً﴾؛ و[٣]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ كَافَّةً للنّاسِ﴾؛ فإرسالُه بلسان قومه إن كان لقطع حُجّة العرب فالحجة باقيةٌ لغيرهم من أهل الألسن الباقية، وإن لم يكن لغير العرب حجّة، فلو نزل القرآن بلسان غير العرب لم يكن للعرب حُجّة.

قلنا: نزوله على النبي ﷺ بلسانٍ واحد كاف، لأن الترجمة لأهل بقيّة الألسن يُغني عن نزوله بجميع الألسن، وتكفي مؤونة التطويل كما جاء في القرآن العزيز.

الثاني: أنّ نزوله بلسانٍ واحد أبعد عن التحريف والتّبديل، وأسلم من التنازع والخلاف.

الثالث: أنه لو نزل بألسنة كل الناس، وكان معجزاً في كل واحدٍ منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمراً قريباً من العُسر والإلجاء؛ وبعثة الرسول لم تُبن على

(١) في (ب) نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام.
(٢) الأعراف: ١٥٨/٧
(٣) سبأ: ٢٨/٣٤

العسر والإلجاء، بل على التمكين من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافياً كان أولى الألسنة قوم الرسول، لأنّهم أقرب إليه وأفهم عنه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في سورة البقرة(٤): ﴿يُذَبِّحُوْنَ﴾؛ وفي سورة الأعراف(٥): ﴿يُقَتِّلُوْنَ﴾ بغير واو فيهما، وقال هنا ﴿وَيُذَبِّحُوْنَ﴾ [٦/١٤] بالواو والقصّة واحدة؟

قلنا: حيث حذف الواو جعل التذبيح، والتقتيل تفسيراً للعذاب وبياناً له.

وحيث أثبتهما جعل التّذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب؛ لأنه أوفى على بقيّة أنواعه، وزاد عليها زيادةً ظاهرة، فعلى هذا يكون زيادة الواو أبلغ.

فإن قيل: ما معنى التّبعيض في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِر لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [١٠/١٤].

قلنا: ما جاء هكذا إلاّ في خطاب الكافرين كقوله تعالى في سورة نوح(٦): ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ وقوله تعالى في سورة الأحقاف(٧): ﴿يَا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعيَ اللهِ وآمِنُوا به يغفرْ لَكُمْ من ذُنُوبِكُمْ﴾.

وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة الأحزاب(٨): ﴿يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وكذا في الآيات في خطاب الفَرِيقين إذا تتبعتها، وما ذلك إلا للتّفرقة

(٤) البقرة: ٤٩/٢
(٥) الأعراف: ١٤١/٧
(٦) نوح: ٤/٧١
(٧) الأحقاف: ٣١/٤٦
(٨) الأحزاب: ٧١/٣٣

بين الخطابين لئلا يسوى بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبهما لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم. والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه في سورة نوح عليه الصلاة والسلام وفي سورة الأحقاف وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان.

وقيل: معنى التبعيض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها.

وقيل: «من» زائدة.

فإن قيل: كيف كرر الله تعالى الأمر بالتوكل، وكيف قال أولاً: ﴿وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾ [١٤/١١] وقال ثانياً: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ﴾ [١٤/١٢]؟

قلنا: الأمر الأوّل لاستحداث التوكل والثاني لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم، فلهذا كرره، وقال أولاً: المؤمنون؛ وثانياً: المتوكلون.

فإن قيل: كيف قالوا لرسلهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [١٤/١٣] والرُّسل لم يكونوا على ملّة الكفار قطّ، والعَود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان؟

قلنا: العود في كلام العرب يُستعمل كثيراً بمعنىٰ الصَّيرورة، يقولون: عاد فلانٌ لا يكلّمني وعاد لفلان مالٌ، وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى(٩): ﴿حَتَّىٰ عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيْمِ﴾.

الثاني: أنّهم خاطبوا الرسول بذلك بناءً على زعمهم الفاسد، واعتقادهم أنّ الرّسل كانوا أوّلاً علىٰ مِلل قومهم، ثم انتقلُوا عنها.

(٩) يس: ٣٦/٣٩

الثالث: أنهم خاطبوا كلّ رسول، ومَنْ آمن به فغلّبوا في الخطاب الجماعة على الواحد.

ونظير هذا السؤال ما سَبَق في سورة الأعراف من قوله تعالى[١٠]: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وفي سورة يوسف عليه الصلاة والسلام من قوله[١١]: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ الآية.

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيْعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُوْنَ عَنّا مِن عَذَابِ الله من شَيْءٍ، قالُوا لَوْ هَدَانا الله لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [٢١/١٤].

قلنا: لما كان قول الضعفاء توبيخاً وتقريعاً وعتاباً للّذين استكبروا على استتباعهم إياهم، واستغوائهم أحالوا الذّنب على الله تعالى في ضَلالِهم، وإضلالهم كما قالوا[١٢]: ﴿لَو شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آباؤُنَا﴾، و[١٣]: ﴿وَلَوْ شَاء الله مَا عَبَدْنَا مِنْ دُوْنِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، يقولون ذلك في الآخرة، كما كانوا يقولونه في الدنيا، كما حكى الله تعالى عن المُنَافِقِيْن[١٤]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيْعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية.

وقيل: معنىٰ جوابهم: لو هدانا الله في الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النّجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة في الدُّنيا.

فإن قيل: كيف اتّصل وارتبط قولُهم ﴿سَواءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ [٢١/١٤] بما قبله؟

---

(١٠) الأعراف: ٨٨/٧
(١١) يوسف: ٣٧/١٢
(١٢) الأنعام: ١٤٨/٦
(١٣) النحل: ٩/١٦
(١٤) المجادلة: ١٨/٥٨

قلنا: اتصاله به من حيث أن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جَزَعاً مِمّا هُم فيه، وقلقاً من ألم العذاب، فقال لهم رُؤساؤهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ يريدون أنفسهم وإيّاهم لاجتماعهم في عقاب الضّلالة التي كانوا مُجتمعين عليها في الدنيا كأنهم قالُوا للضُّعفاء: ما هذا الجزع والتّوبيخ[١٥]، ولا فائدة فيه كما لا فائدة في الصبر، فإنّ الأمر أطمّ[١٦] من ذلك وأعمّ..

فإن قيل: كيف قال الله ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ [٢٢/١٤] عبر عنه بلفظ الماضي، وذلك القول من الشّيطانِ لم يقع بعد، وإنما هو مُترقّب مُنْتَظَر بقوله يوم القيامة؟

قلنا: يجوز وضع المضارع موضع الماضي ووضع الماضي موضع المضارع إذا أُمِنَ اللّبس، قال الله تعالى[١٧]: ﴿واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِيْنُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: ما تلت.

وقال الله تعالى[١٨]: ﴿فَلِمَ تَقْتُلونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ وقال الحطيئة[١٩]:

شَهِدَ الحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقىٰ رَبَّهُ   أنّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ!

فقوله: «عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ» نفىٰ اللبس، وكذا قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾، وكذلك قول الحطيئة «يَوْمَ يلقىٰ ربه»، وقوله تعالى: ﴿لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾، لأن قضاء الأمر إنما يكونُ يوم القيامة.

---

(١٥) في (ب) الجزع والنوح. وما في (أ) أقوى، وأجرى مع السّياق.
(١٦) أطمّ: أشمل؛ من الطمّ وهو الماء الكثير، يقال طمّ الماء :علا وغمر.
(١٧) البقرة: ١٠٢/٢.
(١٨) البقرة: ٩١/٢
(١٩) ديوان الحطيئة: ٢٥٩

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِيْنَ﴾ [١٤/٢٨] وقد رأينا كثيراً من الظالمين هداهم الله بالإسلام، وبالتوبة، وصاروا من الأتقياء؟

قلنا: معناه أنه لا يهديهم ما داموا مُصِرِّين على الكُفر والظلم، مُعْرِضين عن النّظر والاستدلال.

الثاني: أن المراد منه الظالم الذي سبق له القضاء في الأزل أنّه يموت على الظلم، فالله تعالى يثبّته على الضّلالة بخذلانه، كما يثبّت الذين آمنوا بالقَول الثّابت، وهو كلمةُ التّوحيد.

الثالث: أن معناه أنّه يُضِلُّ المُشركين عن طريقِ الجَنّة يومَ القيامة.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَن سَبِيْلِهِ﴾ [١٤/٣٠] والضلال أو الإضلال لم يكن غرضهم في اتّخاذ الأنداد وهي الأصنام؛ وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهم بقوله(٢٠): ﴿وَمَا نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيَقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفىٰ﴾، وقد شرحنا ذلك في سورة يونس عليه الصلاة والسلام(٢١).

قلنا: هذه لام العاقِبَة والصَّيرورة، والمَقْصُود كما في قوله تعالى(٢٢): ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُوْنَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾؛ وقول الشاعر(٢٣):

لِدُوا للمَوْتِ وَابْنُوا للخَرابِ!...

وقول الآخر(٢٤):

---

(٢٠) الزّمر: ٣٩/٣
(٢١) سبق في سورة يونس.
(٢٢) القصص: ٢٨/٨
(٢٣) هو أبو العتاهية (ديوانه ٣٣) وقد سبق الاحتجاج به في تفسير سورة يونس.
(٢٤) السِّخَال: جَمْعُ السَّخْل، وهو الولد المحبّب إلى والديه.

فللموت تغذُو الوالداتُ سِخَالَها كما لخرابِ الدّهر تُبْنى المساكنُ!

والمعنىٰ: فيه أنّه لما أفضىٰ بِهم اتخاذ الأنداد إلى الضّلال أو الإضلال صار كأنهم اتخذوها لذلك؛ وكذا الالتقاط والولادة والبناء. ونظائره كثيرة في القرآن العزيز وفي كلام العَرب.

فإن قيل: كيف طابق الأمر بإقامة الصلاةِ وإنفاق المال وصف اليوم بأنّه: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [١٤/ ٣١].

قلنا: معناه: قل لهم يُقيموا من الصلاة والصدقة مَتْجَراً يجدون ربحه يوم لا ينفعهم متاجرُ الدنيا من المعاوضات والصدقات التي يجلبونها بالهدايا والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية؛ فجازت المطابقة(٢٥).

فإن قيل: كيف قال: «لا بيع فيه ولا خلال» أي لا صداقة، وفي يوم القيامة خلال لقوله تعالى(٢٦): ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِيْنَ﴾؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام(٢٧): «المَرءُ مع من أحب».

قلنا: لا خلال لمن لم يُقم الصلاة، ولم يؤدّ الزكاة، فأما المُقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء، وبينهمُ الخلال يوم القيامة، لِمَا تَلونا من الآية.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ دَائِبَيْنِ، وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ﴾ [١٤/ ٣٣] والمسخّر للإنسان هو الذي يكون في طاعته يصرّفه كيف يشاء في أمره ونهيه كالدابّة والعبد والفُلك، كما قال تعالى(٢٨): ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هذا﴾؛ وقال

(٢٥) في (أ) و(ب): فجاءت المطابقة؛ وقرأتها بالزّاي؛ فجازت.
(٢٦) الزخرف: ٤٣/ ٦٧
(٢٧) مسند الإمام أحمد: (١: ٣٩٢).
(٢٨) الزخرف: ٤٣/ ١٤

تعالى(٢٩): ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَسَخَّر لَكُمُ الفُلْكَ﴾ [٣٥/١٤] ويقال: فلانٌ مُسَخَّر لفلانٍ، إذا كان مُطِيعاً له ممتثلاً لأوامره ونَواهيه؟

قلنا: لمّا كان طلوعُها وغروبُها، وتَعاقُب الليل والنهار لمنافعنا متّصلاً مستمرّاً اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة، ولا تنخرم سواء شاءت هذه المخلوقات أم أَبَت أشبهت المسخّر المقهور في أيدينا كالعبد؛ والفُلك ونحوهما.

الثاني: أن معناه أنها مسخّرة لله لأجلنا، ولمنافعنا، فإضافة التّسخير إلينا بمعنىٰ عَوْدِ نفع التسخير إلينا؛ فصحت الإضافتان.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوه﴾ [٣٤/١٤] والله لم يُعطنا كل ما سألناه، ولا بعضاً من كل فردٍ ممّا سألناه؟

قلنا: معناه وآتاكم بعضاً من جميع ما سألتموه لا من كل فَردٍ فرد.

فإن قيل: لا يصحّ هذا المَحْمَل، لوجهين:

أحدهما: أنه لا يحسنُ الامتنان به.

الثاني: أنه لا يناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوْهَا﴾ [٣٤/١٤].

قلنا: إذا كان البعض الذي أعطانا هو أكثر من جميع ما سَأَلناه، وهو الأَصلح والأنفع لنا في معاشنا ومعَادِنا بالنسبة إلى البعض الذي منعه عنا لمصلحتنا أيضاً لِمَ لا يَحْسُن الامتنان، ويكون مناسباً لما بعده؟!

وجواب آخر عن أُصل السّؤال: أنه يجوز أن يكون قد أَعْطَىٰ جميع

(٢٩) الزّخرف: ٣٢/٤٣

السائلين بعضاً من كل فردٍ ممّا سأله جميعُهم، وبهذا المقدار يصحّ الإخبار في الآية، وإن لم يعطِ كل واحد من السائلين بعضاً من كل فرد ممّا سأله.

وإيضاح ذلك أن يكون قد أعطىٰ هذا شيئاً مما سأله ذاك، وأعطىٰ ذاك شيئاً مما سأله هذا، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقّهما. كما أُعْطِي النبي ﷺ الرُّؤية ليلة المعراج وهي مَسؤول موسى عليه الصلاة والسلام؛ وما أشبه ذلك.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوْهَا﴾ [١٤/٣٢] والإحصاء والعدّ بمعنى واحد، كذا نقله الجوهري، فيكون المعنى: وإن تعدوا نعمة الله لا تعدّوها، وأنّه متناقضٌ كقولك: «إن تَرَ زيداً لا تبصره!»، إذ الرُّؤية والإبصار واحد؟

قلنا: بعض المفسّرين فسر الإحصاء بالحَصر، فإن صحّ ذٰلك لغةً اندفع السؤال، ويؤيد ذلك قول الزمخشري[٣٠]: لا تُحْصُوهَا أي لا تحصُروها، ولا تطيقُوا عَدّها، وبلوغَ آخِرها.

وعلى القَول الأوّل فيه إضمارٌ تقديره: إن تريدوا عَدّ نعمة الله لا تعدُّوها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لا تُحْصُوها﴾ وهو يوهم أنّ نعم الله غيرُ متناهية، وكل نعمة يُمتَنّ بها عَلينا فهي مخلوقةٌ، وكل مخلوقٍ مُتَناه؟

قلنا: لا نسلّم أنه يوهم أنها لا تتناهىٰ؛ وذلك لأنّ المفهوم منه منحصرٌ في: أنّا لا نطيق عَدّها أو حصر عددها. ويجوزُ أن يكون الشيء متناهياً في نفسِه، والإنسانُ لا يطيق عَدّه كرَمْلِ القِفَارِ، وقطَرِ البِحَارِ، وورَقِ الأشجار، وما أشبه ذلك.

(٣٠) الكشّاف (٢ : ٣٧٩).

فإن قيل: كيف قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [١٤/٣٥] وعبادة الأصنام كفر، والأنبياء معصومُون عن الكفر بإجماع الأُمّة، فكيف حَسُنَ منه هذا السؤال؟

قلنا: إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعلمُ الناس بالله فيكونون أخوفَهم منه. فيكون معذوراً بسبب ذلك.

وقيل: إنّ في حكمة الله تعالى وعلمه أن لّا يبتليَ نبيّاً من الأنبياء بالكُفر بشرط أن يكون متضرّعاً إلى ربه طالباً منه ذلك فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ربِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ﴾ [١٤/٣٦] جعلَ الأصنام مضلة، والمضل ضارّ، وقال في موضع آخر(٣١): ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ ونظائره كثيرة، فكيف التوفيقُ بينهما؟

قلنا: إضافةُ الإضلال إليها مجازٌ بطريق المشابهة، ووجهه أنّهم لما ضَلُّوا بسببها فكأنّها أضلّتهم؛ كما يقال: فتنتهم الدنيا وغرّتهم أي افتتنوا بسببها واغترّوا. ومثله قولهم: دواءٌ مسهل وسيفٌ قاطع، وطعامٌ مشبع، وماء مُرْوٍ، وما أشبه ذلك؛ معناه حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء، وفاعل الآثار هو الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: ﴿أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ [١٤/٣٧] ولم يقل: أفئدة الناس، وقوله: «قلوب الناس» أظهر استعمالاً من قوله «قلوباً من الناس».

---

(٣١) يونس: ١٠/١٨

قلنا: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما لو قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه «أفئدة النّاس» لحجّت جميعُ الملل، وازدحَم عليه الناس، حتى لم يبقَ لمؤمنٍ فيه موضع! مع أن حج غَير الموحدين لا يُفيد.

والأفئدة هنا القلوب في قول الأكثرين وقيل: الجمَاعة من النّاس.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد فَلِمَ سأل إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام الرِّزْقَ لِذُرّيته فقال: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [١٤/٣٧]؟

قلنا: الله تعالى ضَمِنَ الرّزق والقُوت الذي لا بدّ للإنسان منه ما دام حيّاً أمّا(٣٢) لم يضمن كونه ثمراً أو حباً أو نوعاً معيناً، فالسُّؤال كانَ لطلب الثّمر عيناً(٣٣).

فإن قيل: قوله: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَىٰ الكِبَرِ إِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ﴾ شكر على نعمة الولد؛ فكيف يُناسبه قوله بعده: ﴿إِنّ رَبِّي لَسَمِيْعُ الدُّعَاءِ﴾ [١٤/٣٩].

قلنا: لمّا كان قد دَعا ربّه لطلب الولد بقوله(٣٤): ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِيْنَ فَاسْتَجَابَ لَهُ﴾؛ ناسب قوله بعد الشكر «إنّ ربّي لسميع الدُّعاء» أي مجيبه، من قولهم: «سمع الملك كلام فلان» إذا أجابه وقبله، ومنه قولهم في الصّلاة: «سمع الله لمن حمده»، أي أجابه وأثابه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [١٤/٤١] استغفرَ لوالديه وكانا كافِرَيْن، والاستغفار للكافر لا يَجُوز، ولا يقال إنّ هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى(٣٥): ﴿وَمَا كَانَ استِغْفَارُ إِبْرَاهِيْمَ لأَبِيْهِ

(٣٢) هي هنا بمعنى (لكن)؛ وقد وردت عند المؤلّف في هذا الكتاب.
(٣٣) في (ب) معيّناً.
(٣٤) الصّافات: ٣٧/١٠٠
(٣٥) التوبة: ٩/١١٤

إلّا. . .﴾؛ الآيـة، لأنّ المـراد بـذلك استغفـاره لأبـيه خـاصة بقـوله[٣٦]: ﴿واغْفِرْ لأَبِي إنّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّيْنَ﴾، والموعـدةُ التي وعـده إيـاها كانت له خـاصة بقوله[٣٧]: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، ولِهَـذا قـال الله تعـالى[٣٨]: ﴿إلّا قَوْل إبْراهِيْمَ لأَبِيْهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

قلنـا: هـذا الاستغفـار لهـما كان مشروطاً بإيـمانهـما تقديراً؛ كأنـه قـال: ولوالديَّ إنْ آمَنـا.

الثـاني: أنـه أراد بهـما آدم وحـوّاء عليهـما الصلاة والسلام، وقـرأ ابن مسعـود وأُبَيّ والنَّخْعِيّ والزُّهـري: «وَلِوَلَدَيَّ»[٣٩] يعني إسمـاعيل وإسحـاق. ويعضدُ هـذه القِرَاءَة سَبْقُ ذِكرهـما. ولا إشكـال على هذه القراءة.

وقيـل: إنّ هـذا الدعاء على القراءة المشهـورة كـان زَلّةً من إبـراهيم عليه الصلاة والسلام وإليهـا أشـار بقـوله[٤٠]: ﴿وَالّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيْئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

فـإن قيل: الله تعـالى مُنَزَّهٌ ومُتَعَالٍ عن السَّهـو والغفـلة، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام أَعْلَمُ النّـاسِ بصفـاتِ جـلالِه وكمـالِه، فكـيفَ يحسـبه النبي ﷺ غافـلاً حـتّى نهـاه عن ذلك بقـوله تعـالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمّـا يَعْمَلُ الظَّالِمُوْنَ﴾ [٤٢/١٤]؟

قلنـا: يجـوز أن يـكون هـذا نهـياً لغير النبي عليه الصلاة والسلام مِمّـن يجـوزُ أن يحـسبه غافِلاً لجهـله بصفـاته، وقـوله تعـالى بـعده: ﴿وَأَنْذِرِ

---

(٣٦) الشعـراء: ٨٦/٢٦

(٣٧) مريـم: ٤٧/١٩

(٣٨) الممتحـنة: ٤/٦٠

(٣٩) قَرَأ ﴿وَلِوَلَدَيَّ﴾ ابنُ يعـمر، والزهـري، وإبـراهيم النخـعي، والحسين بن عليّ، ومحـمّد بن عليّ (معجـم القراءات القرآنية ٣: ٢٤١).

(٤٠) الشعـراء: ٨٢/٢٦

النَّـاسَ﴾ [١٤/٤٣] لا يدلُّ قطعاً على أَنَّ الخـطاب الأول للنبي عليه الصلاة والسلام لجـواز أن يـكـون ذلك النّهـي لغيره، مع أنّ هـذا الأمـر له.

الثـاني: مجـاز، معنـاه: ولا تحـسبن الله مُهْمِلَ الظَّالمـين، وتـاركهـم سُدىً، لـكون هـذا من لوازم الغفلة عنهـم.

الثـالث: أنّ النهـي وإنْ كـان حـقيقة، والخـطاب للنبي عليه الصلاة والسلام فالمـراد به دوامـه وثـباته على مـا كان عليه من أنّـه لا يحـسب الله غافلاً كقـوله تعـالى(٤١): ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ وقـوله تعـالى(٤٢): ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ الله إِلَهـاً آخَرَ﴾.

ونظير هـذا النهي من الأمـر قـوله تعـالى(٤٣): ﴿يَـا أَيُّهـا الَّذِيْنَ آمَنُوا آمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ﴾.

وقَول بعض المفسّرين: إن معنىٰ الآيـة يـا أَيُّهـا الـذين آمنـوا بموسى أو بعيـسى آمِنوا بمحـمد، لا يخـرج الآيـة عن كونهـا نظيراً بأن(٤٤) الاستـدلال بالإيمـان بالله باقٍ، فتأمـل.

---

(٤١) الأنعـام: ١٤/٦

(٤٢) القـصص: ٨٨/٢٨

(٤٣) آل عـمران: ١٣٦/٣

(٤٤) في (ب) لأنّ الاستـدلال...

سُورَةُ الحِجْر

فإن قيل: كيف قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [١٥/٦] اعترفوا بنبوته بأن الذكر وهو القرآن نُزِّل عليه، ثم وصَفُوه بالجنون[١]؟

قلنا: إنما قالوا ذلك استهزاءً، وسُخرية، لا تصديقاً واعترافاً، كما قال فرعون لقومه[٢]: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ وكما قال قومُ شعيب له[٣]: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيْمُ الرَّشِيد﴾؛ ونظائره كثيرة.

الثاني: أن فيه إضماراً تقديره: يا أيها الذي يدّعي أنه نزل عليه الذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيْتُ وَنَحنُ الوَارِثُونَ﴾ [١٥/٢٣] والوارث هو الَّذي يتجدّد له الملك بعد فناءِ المُورث، والله تعالى إذا أمات الخلائق لم يتجدّد له ملك لأنه لم يزل مالكاً للعالم بجميع ما فيه ومن فيه؟

قلنا: الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غَيره سواء تجدّد له ملك بعده أو لا. ولهذا يصح أن يقال لمن أخبر أنّ زيداً مات وترك ورثة: هل ترك لهم مالاً أو لا؟

فيكون معنىٰ الآية: ونحن الباقون بعد فناء الخَلائق.

الثّاني: أنّ الخلائق لما كانوا يعتقدون أنّهم مالكون ويسمّون بذلك

---

(١) قاله كفّار قريش لمحمّد ﷺ على جهة الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه! (القرطبي ١٠: ٤).
(٢) الشعراء: ٢٦/٢٧
(٣) هود: ١١/٨٧ قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية؛ أو قالوا أنت كذلك عند نفسك بزعمك!

أيضاً إمّا مجازاً أو خلافةً عن الله تعالى كالعبد المأذون والمُكَاتِب، ويدلّ عليه قوله تعالى(٤): ﴿وَاللهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَن يشَاءُ﴾ فإذا مات الخلائق كلهم، سَلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلّق، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة.

ونظير هذا قوله تعالى(٥): ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾ والملك له: أزَلاً وأبداً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَسَجَد المَلاَئكَةُ كُلُّهُمْ﴾ [١٥/ ٣٠] دلّ على الشمول والإحاطة، وأفاد التأكيد، فما فائدة قوله تعالى: ﴿أجمعون﴾ [١٥/ ٣٠]؟

قلنا: قال سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد، فيفيد زيادةَ تمكين المعنىٰ، وتقريره في الذّهن، فلا يكون تحصيل الحاصل، بل يكون نسبة «أجمعون» إلى «كلهم» كنسبة «كلّهم» إلى أصل الجملة.

وقال المبرّد: قوله تعالى: «أجمعون» يدلّ على اجتماعهم في زمان السُّجود، و«كلهم» تدلّ على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معاً في زمان واحد.

واختار الأنباري هذا القول.

واختار الزجّاج: وأكثر الأئمة قول سيبويه وقالوا: لو كان الأمر كما زعم المبرّد لكان «أجمعون» حالاً لوجود حدّ الحال فيه، وليس بحال لأنه مرفوع، ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التأكيد.

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُم عَن ضَيْفِ

---

(٤) البقرة: ٢/ ٢٤٧

(٥) غافر: ٤٠/ ١٦

إبْرَاهِيْمَ﴾ [١٥/٥١] بما قبله من قوله تعالى: ﴿نَبِّىء عِبَادِي﴾ [١٥/٤٥] الآيتان؟

قلنا: لمّا أنزل الله تعالى: ﴿نَبِّىء عِبَادِي أَنِّي أنا الغَفُورُ الرَّحِيْمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَاب الأَلِيْمُ﴾ [١٥/٤٩ ـ ٥٠]، ولم يعيّن أهل المغفرة، وأهل العذاب غلبَ الخوف على الصّحابة رضي الله عنهم؛ فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم ليزول خوف الصحابة، وتسكن قلوبهم؛ فإنَّ ضيفَ إبراهيم جاؤوا ببشارة للوليّ وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعُقوبة للعدوّ، وهم قوم لوط عليه الصلاة والسلام. فكذلك تنزيل الآيتين المتقدمتين، على الوليّ والعَدُوّ، لا على الوليّ وحده.

الثاني: أن وجه الارتباط، أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخَطَايا غير طامع في المغفرة لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعد ما شاخ وبلغ مئة سنة أو قريباً منها.

فإن قيل: كيف قالت الملائكة: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغَابِرِينَ﴾ [١٥/٦٠] أي قضينا. والقضاء لله تعالى لا لهم؟

قلنا: هو مجازٌ كما تَقُولُ خواصُّ الملك: دَبّرنا كذا، وأَمَرنا بكذا، ونهَينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك الملك لا هُم، وإنّما يُظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالمَلِك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَقَد كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِيْنَ﴾ [١٥/٨٠] وأصحاب الحِجر قوم صالح، والحجر: اسمُ واديهم أو مدينتهم على اختلاف القولين؛ وقوم صالح لم يُرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبونه؟

قلنا: من كذّب رَسُولاً واحداً فكأنّما كذب الرسل، لأن كل الرسل متّفقون في دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا[٦]: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمّا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾ [١٥/٩٢] وقال في سورة الرحمن: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عن ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾.

قلنا: الجوابُ عنه من وجهين:

أحدهما: قد ذكرناه في مثل هذا السُّؤال في سورة هود.

والثاني: أنّ المراد هنا أنهم يسألون سؤال توبيخ، وهو سؤال: لِمَ فعلتم؟ والمراد ثم أنهم لا يسألون سؤال استعلام واستخبار، وهو سؤال هل فعلتم؟.

(٦) الرحمن: ٣٩/٥٥.

سورة النحل

فإن قيل: لِمَ قدّمت الإراحة وهي مؤخرة في الواقع على السّرح وهو مقدم في الواقع في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيْهَا جَمَالٌ حِيْنَ تُرِيْحُوْنَ وَحِيْنَ تَسْرَحُوْنَ﴾ [١٦/٦][1].

قلنا: لأنّ الأنعام في وقت الإراحة وهي ردّها عَشِيّاً إلى المراح يكون أجمل وأحسن؛ لأنها تُقبل مَلأى البطون، حافلة الضروع، متهادية في مشيتها، يتبع بعضها بعضاً، بخلاف وقت السرح وهو إخراجها إلى المراعي، فإن كل هذه الأمور تكون ضد ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُونُوا بَالِغِيْهِ إلاّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ [١٦/٧] إن أريد به لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس فلا امتنان فيه. وإن أريد به لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس وهو مشقّتها فما فائدة ذلك؟

قلنا: معناه: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ» أي أجسامكم وأمتعتكم إلى بلدٍ بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعتكم إلا بجهد ومشقة، فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم؟

والمراد بالمشقّة: المشقّة التي تنشأ من المشي أو من المشي مع الحَملِ على الظهر، لا مطلق مشقّة السفر، وهذا مخصوصٌ بحال فقد الإبل. فظهرَ فائدة ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَالخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيْرَ لِتَرْكَبُوْهَا وَزِيْنَةً﴾ [١٦/٨] يقتضي حُرمة أكل لحم الخيل، كما اقتضاه في البغال والحمير من حيث إنّه لم ينصّ على منفعة أُخرى فيها غير الركوب

---

(١) وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيْهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُوْنَ﴾. والأنعام هي الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال نعم وأنعام للإبل.

والزّينة، ومن حيث إنّ التعليل لعلّة تقتضي الانحصار فيها كقولك: فعلت هذا لكذا؛ فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره، أو له مع غيره، إلاّ إذا كان أحدهما جهة في الآخر.

قلنا: ينتقض بالحمل عليها، والحراثة بها؛ فإنّ ذلك مُبَاحٌ مع أنّه لم ينصّ عليه.

فإن قيل: إنّما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام، فإنهّ منصوص عليه فيها، بقوله تعالى: ﴿والأَنْعَامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيْهَا دِفْءٌ ومنافع﴾ [٥/١٦] والمراد به كلّ منفعة معهودة منها عُرفاً لا كلّ منفعة. فثبَت مثل ذلك في الخَيل والبغال والحمير.

قلنا: لو كان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته في الأنعام لثبتَ حلُّ الأكل في الخيل والبغال و[الحمير] على ثبوته في الأنعام(٢).

قلنا: لم يثبت؛ لأنّه لو ثبت في الخَيل لثبت في البغال والحمير، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتاً شاملاً للكُلّ، بالقياس على ثُبوته في الأنعام.

والجَوابُ من جهة ثانية في أَصل السُّؤال أَنّ هذه [اللاَّم في: ﴿لِتَرْكَبُوْهَا﴾(٣)] ليست لام التّعليل بل لام التمكين، كقوله تعالى(٤): ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ﴾، ومع هذا يجوز في الليل غير السُّكون.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف ماء السَّماء: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ

(٢) في الكشاف ٢: ٤٠٢، ﴿والخَيلَ والبغالَ والحمير﴾ عطف على الأنعام أي وخلق هؤلاء للركوب والزّينة. وقد احْتُجَّ على حُرمَةِ أكل لحومهنّ بأن علّل خلقها بالركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام.
(٣) زيادة على الأصلين.
(٤) يونس: ٦٧/١٠

الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيْلَ والأَعنـابَ وَمِنْ كُل الثَّمَرَاتِ﴾ [١٦/١١] ولم يـقل «كـل الثمرات» مع أن كـلّ الثـمرات تنبت بمـاء السماء؟

قلنـا: كـل الثَّمـرات لا تـكون إلا في الجـنة، وإنـما ينـبت في الدنيا بعضٌ منهـا أنموذجـاً(٥) وتـذكرةً، فالتبعيض بهـذا الاعتـبار. فيـكون المـراد بالثـمرات ما هـو أعـم من ثـمرات الدنيا.

ومن يـجّوز زيادةَ «مِن» في الإثـبات يحـتمل أن يجعـلها زائـدة هنـا.

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقْ﴾ [١٦/١٧] المـراد بِمَنْ لا يخـلُق الأَصنـام بـدليل قـوله تعـالى بـعده: ﴿وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِن دُوْنِ الله لا يَخْلُقُونَ شَيئاً وهُم يُخْلَقُوْنَ﴾ [١٦/٢٠] فـكيف جـيء بـ«مَنْ» المخـتصة بأولي العـلم والعقـل؟

قلنـا: خـاطبهـم على مُعتقـدهم، ولأنهـم سمّوهـا آلهـة وعبَدوهـا فأَجْرَوهـا مجـرىٰ أولي العـلم. ونـظير هـذا قـوله تعـالى في الأَصنـام أيـضاً(٦): ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُوْنَ بِهَـا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُون بِهَـا أَمْ لَهُم آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَـا﴾ أُجـرى عليهـم ضـمير أُولي العـلم والعقـل لِمَـا قُلنـا.

ويـرد على هـذا الجـواب أن يُقـال: إن كـان معتقـدهم خـطأ وبـاطلاً فالحـكمة تقتضي أن ينـزعوا عنـه، ويُقلعـوا لا أَن يـبقوا عَليه، ويُقرّروا؛ وفي خِطَابِهـم على معتقدهـم إيهـام لهـم أن معتقدهـم حـق وصـواب.

وجـوابه: أنّ الغرض من الخـطاب الإفهـام، ولو خـاطبهـم على خـلافِ معتقدهم ومفهومهم فقال: «أَفمن خلق كما لا يخلق»(٧) لاعتقدوا أن المراد بالثاني غير الأَصنام من الجَماد.

(٥) في (ب) نموذجـاً. وورد في الكـلمة الوجهـان، نـموذج وأنـموذج.
(٦) الأعـراف: ٧/١٩٥
(٧) في الأصلين (أ) و(ب): كَمنَ لا يخـلق؛ وهـو خـلاف مقـصود السّياق. وقـرأتُ المـُثبت.

الثاني: قال ابن الأنباري: إنما جاز ذلك لأنّها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه في اقتضاء «مَنْ»، كما غلب على الدوابّ في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَنْ يَمْشِيْ عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ الآية، وكما في قول العرب: اشتبه عليّ الراكب، وحمله، فما أدري من ذا ومَنْ ذا!

فإن قيل: هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام، وسمَّوها آلهة تشبيهاً بالله تعالى فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فظاهر الإلزام يقتضي أن يقال لهم: «أفمن لا يخلق كمن يخلق».

قلنا: لما سوَّوا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى في تسميتها باسمه، وعبادتها كعبادته، فقد سوَّوا بين خالقها وبينها قطعاً، فصحَّ الإنكار بتقديمهم أيّهما كان، وإنما قدّم في الإنكار عليهم ذكر الخالق، إما لأنه أشرف، أو لأنه المقصود الأصلي من هذا الكلام تنزيهاً له، وإجلالاً وتعظيماً.

فإن قيل: ما فائدةُ قوله تعالى في وصف الاصنام ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [١٦ / ٢١] بعد قوله تعالى «أَمْوَاتٌ»؟

قلنا: فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة كالنُّطَف والبَيْض والأجساد الميتة، وذلك أبلغ في موتها؛ كأنه قال: أمواتٌ في الحال غيرُ أحياءٍ في المآل.

الثّاني: أنه ليس وصفاً لها، بل لِعُبّادها، معناه: وعبادها غير أحياء القلوب.

الثالث: أنه إنما قال: «غير أحياء» ليعلم أنه أراد: أموات في الحال

(٨) النور: ٢٤/٤٥

لأنها ستموت، كما في قوله تعالى[٩]: ﴿إنَّك مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُوْنَ﴾.

فإن قيل: كيف عاب الأصنام أو عبادتها بأنهم لا يعلمون وقت البعث فقال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُوْنَ أَيَّانَ يُبْعَثُوْنَ﴾ [١٦/٢١] والمؤمنون الموحّدون كذلك؟

قلنا: معناه وما تشعرُ الأصنام متىٰ تُبعث عُبّادها وقت بعثهم لا مفصّلاً ولا مجملاً، لأنهم ينكرون البعث بخلاف الموحّدين؛ فإنهم يشعرون وقت بعثهم مُجملاً أنّه يوم القيامة، وإن لم يشعروه مفصلاً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيْرُ الأَوَّلِيْنَ﴾ [١٦/٢٤] كيف يعترفون بأنّه من عند الله بالسُّؤالِ المُعاد في ضمن الجواب، ثم يقولون هو أساطير الأولين؟

قلنا: قد سبَق مثلُ هذا السؤال، وجوابه في سورة الحِجر في قوله تعالى[١٠]: ﴿يَا أَيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ القيامَة، ومِنْ أَوْزَارِ الَّذِيْنَ يُضِلُّوْنَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [١٦/٢٥] وقال في موضع آخر[١١]: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى﴾.

قلنا: معناه: ومن أوزارِ إضلال الذين يُضلّونهم، فيكون عليهم وزر كُفرهم مباشرةً، ووزر كُفر مَنْ أضلوه تسبيباً.

ونظير هاتين الآيتان الأخريان في قوله تعالى[١٢]: ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ

---

(٩) الزمر: ٣٩/٣٠
(١٠) الحجر: ١٥/٦
(١١) الزمر: ٣٩/٧
(١٢) العنكبوت: ٢٩/١٢

كَفَرُوا لِلَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيْلَنَا ولنحمل خطاياكم - إلى قوله تعالى - . . . وأثقالاً مع أثقالهم﴾.

وجوابُهما: مثل جواب هاتين الآيتين.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [١٦/ ٤٠] الآية، على أن المعدوم شيء، ويدلّ على أن خطاب المعدوم جائز؛

والأوّل: منتفٍ عند أكثر العلماء؛

والثاني: منتفٍ بالإجماع.

قلنا: أما تسميته شيئاً فمجاز باعتبار ما يُؤول إليه، ونظيره قوله تعالى(١٣): ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيْمٌ﴾؛ وقوله تعالى(١٤): ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُوْنَ﴾.

وأما الثّاني: فإن هذا خطاب تكرير، يظهر به أثر القُدرة، فيمتنع أن يكون المخاطب به موجوداً قبل الخطاب، لأنه يكون بالخطاب فلا يسبقه بخلاف خطاب الأمر والنهي.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [١٦/ ٤٩] كيف لم يُغَلِّب العقلاء من الدواب على غيرهم كما في قوله تعالى(١٥): ﴿وَالله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾ . . . الآية، ثم وصف ما لا يعقل بخصوصه بلفظ «من» وهو الحية والأنعام.

وهُنا: لو قال «مَنْ في السموات وَمَن في الأرض» لا يلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه وتَعْيينه بلفظ «من» المجموع.

(١٣) الحج: ٢٢/ ١
(١٤) الزمر: ٣٩/ ٣٠
(١٥) النور: ٢٤/ ٤٥

قلنا: لأنّه أراد عموم كلّ دابـة وشمولها فجـاء بـ «مَـا» التي تعم النوعين، ويشملها، ولـو جـاء بـ «مَنْ» لخص العقـلاء.

فإن قيـل: قولـه تعالـى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [١٦/ ٦١] يقتضي أنه لو آخذ الظّالمين بظلمهم لأهـلك غيرَ الظالمين من الناس، ولأهلك جميع الدواب غير الناس، ومؤاخذة البَريء بظلم(*) الظالم لا تَحْسُنُ بالحكيم.

قلنـا: المُـراد بالظلـم هنـا الكُفـر، وبالـدابة الـدابة الظّـالمة وهـي الكافـر، كـذا قـاله ابنُ عبـاس.

وقيـل: معنـاه لـو أهـلك الآبـاء بكفـرهم لم يكـن الأبنـاء.

الثاني: أنّه لـم لا يجـوز أن يهلك الجميع بشـؤم ظُلـم الظـالمين مبالغـةً في إعـدام الظُّلم، ونفي وُجـود أثـره حتّىٰ لا يوجـد بعـد ذلك من بقيّـة الناس ظلـم موجب للإهلاك، كمـا وجـد من الّذين أهلكهم بِظُلمهم. ودليـل جـواز ذلك ما وُجِـدَ في زمن نُوح ـ عليـه الصّلاة والسـلام ـ فـإنه أهـلك بشؤم ظـلم قوم نـوح دوابّ الأرض إلا مـن نجـا في السفينـة، فـلم يبق علىٰ ظهـر الأرض دابّة.

وكـذا قـال تعـالى(١٦): ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، ثم إذا فعـل ذلك للحكمـة والمصلحة التي اقتضت فعلـه عـوّض البريء في الآخـرة ما هـو خير وأبقىٰ.

الثالث: أن كل إنسـان مكلّف فهو ظـالم إمّـا لنفسه أو لغيره، لأنه لا يخلو عن ذنبٍ صغير أو كبير. فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضاً.

(*) في (ب) بسبب ظلم الظالم.

(١٦) الأنفـال: ٨/ ٢٥.

لأنه إنّما خلق الدوابّ لمصالح الناس، فإذا عُدِم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها.

فإن قيل: لا نسلّم أن غير الإنسان من الحيوان مخلوقٌ لمصالح الإنسان وحده لأنّه كان مخلوقاً قبل خلق الإنسان بالنقل عن كتب الشريعة وغيرها، وقد جاء مصرّحاً به في الحديث من باب الخلق من جامع الأصول(١٧).

[أو قيل]: سلّمنا أنه مخلوق لمصلحة الإنسان، لكن هلاك غير الإنسان معه يخفف عنه ألم المصيبة، لا سيما إذا كان الهالك معه من جنسه. ولهذا قيل: «المُصِيبة إذا عمّت طابت».

[أو قيل]: سلّمنا أن إهلاك غيره معه مؤلم له، لكن لو كان إهلاكه معه لأنه خلق لمصلحته فأهلك تبعاً له لاستغنائه عنه أو لزيادة الإيلام فالنّباتُ أيضاً خُلق لمصلحته علىٰ قولكم فَلِمَ كان إهلاك الحيوان عقوبة للإنسان أولىٰ من إهلاك النّبات؛ ولم يقل: ما ترك عليها من دابة ونبات، أو من شيء؟

قلنا: الجوابُ عن الأوّل قوله تعالى(١٨): ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾؛ وخلقه قبل الإنسان لا ينفي خلقه لمصلحة الإنسان كما يعدّ عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والنبات لأولادهم وأولاد أولادهم قبل وجودهم.

وعن الثاني: أنّا لا ندّعي أنه يهلك مع الإنسان بل قبله لتؤلمه مشاهدة هلاك محبوبه ومألوفه.

وعن الثالث: أن المراد ما ترك عليها من دابة بواسطة منع المطر فيعدم النبات، ثم يعدم بواسطة عدمه غير الإنسان من الحيوان، ثم يعدم الإنسان، كذا جاء في تفسير هذه الآية، والآيةِ الّتي في آخر سورة

---

(١٧) في جامع الأصول.

(١٨) البقرة: ٢/ ٢٩.

فـاطر[١٩]، وهـذا الترتيب أبلغُ في العـذاب، وأعظمُ في العِقـاب، من تقديم إهـلاك الحيـوان على النبات، لأنّ الإنسان إذا بقي حيـوانه بلا عـلف أوجعُ له ممّا إذا بقي عـلفه بلا حيـوان.

فإن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ مِنَ الجِبَـالِ بُيوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ﴾ [١٦/٦٨] ولم يقـل: «في الجبـال وفي الشجـر» والاستعمال إنّمـا هـو بـ (في)، يقـال: اتّخـذ فـلان بيتـاً في الجبـل، أو في الصحـراء، ونَحْو ذلك.

قلنــا: قـال الـزمخشري[٢٠] إنما أتىٰ بلفظـة «من» لأنّه أراد معنىٰ البعضية، وأن لا تبنىٰ بيوتها من كل جبـل وكل شجـر، ولا في كـل مكان من الجبـل والشجـر.

وأنـا أقــول: إنّمـا ذكـره بلفظـة «من» لأنه أراد كـون البيت بعض الجبـل وبعض الشجـر كما يشاهـد، ويـرىٰ من بنـاء بيوت النحـل لا أنه متخـذ من طين أو عيـدان في الجبـل والشجـر كما تتّخـذ الطيـور، فلـو أتىٰ بلفظـة «في» لم تـدل عـلى هـذا المعنىٰ، ونظيره قولـه تعـالى[٢١]: ﴿ وَتَنْحِتُوْنَ الجِبَـالَ بُيُوتـاً ﴾.

فـإن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ وَاللَّـهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [١٦/٧٢] وأزواجنا ليست من أنفسنا لأنّهن لو كـن من أنفسنا لكنّ حـراماً عـلينا، فإن المتفـرّعـة من الإنسان لا يحـلّ له نكاحها؟

قلنــا: المـراد بهذا أنّه خـلق آدم، ثم خـلق منه حَوّاء، كمـا قـال تعـالى[٢٢]: ﴿ لَقَدْ جَـاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ .

---

(١٩) فاطر: ٣٥/٤٥، ﴿ وَلَو يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّـاسَ بِمَـا كَسبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِها مِنْ دَابَّـةٍ وَلكِنْ يُؤَخِـرُهُمْ إلى أَجَـلٍ مُسَمّىً فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإنَّ اللَّه كانَ بِعبَادِهِ بَصِيْـراً ﴾.

(٢٠) الكشاف ٢: ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢١) الأعراف: ٧/٧٤.

(٢٢) الأنفـال: ٩/١٢٨.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً ولا يَسْتَطِيعُوْنَ ﴾ [١٦/٧٣] عبّر عن الأصنام بالواو والنون وهما من خصائص من يعقل؟

قلنا: كان في من يعبدونه من دون الله من يَعقل كعُزَير، وعِيسىٰ والملائكة ـ عليهم السلام ـ فغَلَّبهم.

فإن قيل: لِمَ أفرد الله في قوله «مَا لا يَمْلِكُ» ثم جمع في قوله «ولا يستطيعون»؟.

قلنا: أفْرَدَ نَظراً إلىٰ لفظ «ما» ، وجَمَع نظراً إلىٰ مَعناها، كما قال تعالىٰ[٢٣]: ﴿ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ والأَنْعَامِ ما تَرْكَبُون . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهورِهِ ﴾، فأفرد الضمير نظراً إلىٰ لفظ «ما» وجمع الظهور نظراً إلىٰ معناها.

فإن قيل: ما فائدةُ نَفي استطاعة الرِّزق بعد نفي ملكه والمعنى واحد؛ لأنّ نفي ملكِ الفِعل نفي للاستطاعة، والرِّزقُ هنا اسم مصدر بدليل إعماله في (شيئاً)؟

قلنا: ليس في «يَستطيعون» ضمير مفعول هو الرِّزق، بل الاستطاعة منفيّة عنهم مطلقاً، معناه: لا يملكون أن يرزقوا، ولا استطاعة لهم أصلاً في رزق أو غيره لأنّهم جماد.

الثاني: أنه لو قدر فيه ضمير مفعول علىٰ معنىٰ «ولا يستطيعونه» كان مقيّداً أيضاً علىٰ اعتبار كون الرزق اسماً للعين، لأن الإنسان يجوز له أن لا يملك الشيء، ولكن يستطيع أن يملكه لوجود الأهلية والقدرة علىٰ اكتساب ملكه، بخلاف هؤلاء، فإنهم لا يملكون ولا يستطيعون أن يملكوا.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿ مَمْلوكاً ﴾ [١٦/٧٥] بعد قوله

(٢٣) الزخرف: ٤٣/١٢ ـ ١٣.

﴿ عَبْـداً ﴾، وما فـائدة قولـه ﴿ لا يَقْـدِرُ عَلـىٰ شَيْءٍ ﴾ بعـد قوله ﴿ مَمْلوكـاً ﴾. ؟

قلنـا: لفظ العبـد يصلح للحرّ والمملوك، لأن الكلّ عبيدُ الله تعـالى، قـال الله تعـالى[٢٤] ﴿ وَوَهَبْنـا لِـدَاوُودَ سُلَيْمـانَ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوّابٌ ﴾.

فقال: ﴿مملوكـاً﴾ ليتميّز عن الحـر، وقـال: ﴿لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيءٍ﴾ ليتميز عن المأذون والمكاتب، فإنهما يقـدران عـلى التصـرّف استقـلالاً.

فإن قيـل: المضـروب بهما المثـل اثنـان، وهمـا المملوك والمـرزوق رِزقاً حسناً، فظـاهِـرُه أن يقـال: «هـل يستويان» فكيف قـال تعـالى ﴿ هـل يَستَوُون ﴾ [١٦/ ٧٥]؟

قلنـا: لأنّه أراد جنس الممـاليك، وجنس المالكين، لا مملـوكاً معينـاً.

الثاني: أنـه أجرىٰ الاثنين مجرىٰ الجمـع.

الثالث: أن (من) تقـع على الجمع.

ولقـائل أن يقـول علىٰ الوجـه الثالث يلـزمه منه أن يصير المعنىٰ: ضـرب الله مثـلاً عبـداً مملوكـاً، وجمـاعة مالكين هـل يستوون، وإنه لا يحسن مقابلـة الفـرد بالجمـع في التمثيل.

فإن قيـل: «أوَ» في الخبـر للشَّـكّ، والشكُّ علىٰ اللّه تعـالى مُحَـال، فما معنىٰ قولـه تعالىٰ: ﴿ إلّا كَلَمْحِ البَصَـرِ أَوْ هُوَ أَقْـرَبُ ﴾ [١٦/٧٧].

قلنـا: قيـل «أو» هنـا بمعنىٰ «بل» كمـا في قوله تعـالى[٢٥]: ﴿ إلىٰ مِئَـةِ أَلْفٍ أَوْ يَـزِيْـدُوْنَ ﴾؛ وقولـه[٢٦]: ﴿ فَهِيَ كالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وقولـه[٢٧] ﴿ فَكـانَ قَـابَ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنىٰ ﴾.

---

(٢٤) صٓ ٣٨/٣٠.
(٢٥) الصّافّات ٣٧/١٤٧.
(٢٦) البقرة: ٢/٧٤.
(٢٧) النجم: ٥٣/٩.

ويـرد عـلىٰ هـذا أنَّ «بـل» للإضـراب، والإضـراب رجـوعٌ عن الإخبـار، وهـو علىٰ الله تعـالىٰ محـال.

وقيــل: هـي بمعنىٰ الـواو في هـذه الآيات.

وقيــل: «أو» للشـكّ في الكـل، لكن بالنسبـة إلينـا لا إلـىٰ الله تعـالى، وكـذا في قولـه تعـالى: ﴿ فَكانَ قَـابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنىٰ ﴾ يعني بالنسبة إلـىٰ نظـر النبي ﷺ.

قـال الـزجّاج: ليس المُـراد أنّ الساعـة تأتي في أقـرب من لمـحِ البصَـر، ولكـنّ المـراد وصف قـدرة الله تعـالىٰ عـلىٰ سُـرعة الإتيـان بها متىٰ شاء.

فإن قيــل: كيف قـال تعـالىٰ ﴿ سَرَابِيْلَ تَقِيكُمُ الحَـرَّ ﴾ [١٦/٨١] ولم يقـل: «والبرد» مع أنّ السرابيل وهي الثياب تلبس لـدفع الحـرّ والبرد، وهـي مخلـوقة لهما.

قلنــا: حـذف ذكـر أحـدهما لدلالـة ضـدّه عليه كمـا في قولـه تعـالىٰ[٢٨] ﴿بِيَدِكَ الخَيْرُ﴾ ولم يقـل: «والشّرّ»، وكما في قول الشاعـر[٢٩]:

ومــا أَدري إذا يَمَّمْتُ أَرَضــاً أريــدُ الخَيْـرَ أيّهمــا يَلِيني[٣٠]

أي: أريـد الخير لا الشـرّ، أو أريـد الخير وأَحـذر الشـرّ.

فإن قيــل: فلـم كان ذِكـر الخير والحـر أولـىٰ من ذكر الشّر والبرد؟

قلنــا: لأن الخير مطلـوب العبـاد من ربهم ومـرغوبهم إليه، أو لأنه أكثر وجـوداً في العـالم من الشـر، وأمـا الحـر فلأن الخطـاب بالقـرآن أوّل ما وقـع

(٢٨) آل عمران: ٣/٦.
(٢٩) هـو المثقب العبدي.
(٣٠) ديوان المثقب العبدي (٢١٢) وروايته: «يمّمتُ وَجهاً».

مع أهـل الحجـاز والوقاية من الحـر أَهَمُّ عندهم؛ لأنّ الحـر في بلادهم أشـدّ من البرد.

فإن قيـل: كيف قـال تعـالىٰ ﴿ يَعْرِفُوْنَ نِعْمَةَ الله ثُمّ يُنكِرُونَها، وأكْثَرُهُمُ الكَافِرُوْنَ ﴾ [١٦/٨٣] مع أنهم كلّهم كافـرون؟

قلنـا: قـال الحسن: المـرادُ بالأكثر هنـا الجميع، وفي هـذا نظـر، لأنّ بعض الناس، لا يجـوّز إطـلاق اسم البعض عـلىٰ الكل لأنه ليس لازمـاً، بخـلاف عكسـه.

فإن قيـل: ما فـائدة قول المشركين عنـد رؤية الأصنـام ﴿ رَبّنا هؤلاء شُرَكاؤنَا الَّـذِيْنَ كُنّا نَدْعُو مِن دُوْنِكَ ﴾ [١٦/٨٦] والله تعـالى عـالمٌ بذلك؟

قلنـا: لمّـا أنكـروا الشِّرك بقولهم[٣١]: ﴿ والله رَبّنا ما كنـا مشـركين ﴾، عـاقبهم الله بإصمـات ألسنتهم، وأنطق جـوارحهم فقـالوا عنـد معاينـة آلهتهم: «ربنـا هؤلاء شركاؤنا» أي قـد أقررنا بعـد الإنكـار، وصـدقنا بعـد الكـذب طلباً للرَّحمـة، وفـراراً من الغضب، فكان هـذا القـول عـلىٰ وجـه الاعتراف منهم بالـذّنب، لا عـلى .وجه إعـلام من لا يعلم.

الثاني: أنّهم لما عاينـوا عظم غضب الله تعالىٰ وعقوبتـه قـالوا: «ربّنـا هـؤلاء شركاؤنا» رجـاء أن يُلزم الله تعـالىٰ الأصنـام ذنوبهم لأنهم كانوا يعتقـدون لها العَقـل والتمييز فيخفّ عنهم العـذاب.

فإن قيـل: لِمَ قـالت الأصنـام للمشركين ﴿ إِنّكُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴾ [١٦/٨٦] وكـانُوا صادقين فيما قالوا؟

قلنـا: إنمـا قـالت ذلك لتظهر فضيحتهم؛ وذلك أنّ الأصنـام كانت

(٣١) الأنعام: ٦/٢٣.

(٣٢) مريم: ١٩/٨١ - ٨٢.

جماداً لا تعرف من يعبدها، فلم تعلم أنهم عبَدوها في الدّنيا فظهرت فضيحَتُهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم! فنظير هذا قوله تعالىٰ ﴿ وَ اتَّخذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيكُونوا لَهُمْ عِزّاً. كلا سَيَكْفُرون بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونونَ عَليهِمْ ضِدّاً ﴾.

فإن قيل: إذا كان القرآنُ تبياناً لكي شيء من أمور الدين، فمن أين وقع بين الأُمّة في أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض؟

قلنا: إنّما وقع الخلاف بين الأُمّة لأن كل شيء يُحتاج إليه من أمور الدين، ليس مُبَيّناً في القرآن نصّاً، بل بعضه مبين نصاً وبعضه مُستنبطٌ بَيانُه منه بالنظر والاستدلال، وطرق النظر والاستدلال مختلفة؛ فلذلك وقع الخلاف.

فإن قيل: كثيرٌ من أحكام الشريعة لم يُعلم من القرآن نصاً ولا استنباطاً كعدد ركَعات الصّلوات، ومقادير ديات الأعضاء، ومدّة السَّفر، والمَسْح والحيض، ومقدار حَدّ الشرب ونصاب الزّكاة وما أشبه ذلك مما يطول ذكره.

قلنا: القرآنُ تبيانٌ لكلّ شيءٍ من أمور الدين لأنه نصّ على بعضها، وأحال علىٰ السُّنّة في بعضها بقوله تعالىٰ[٣٣] ﴿ وَمَا آتاكمُ الرَّسُولُ فَخذُوهُ، وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾؛ وقوله تعالىٰ[٣٤] ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ ﴾ وأحال علىٰ الإجماع أيضاً بقوله[٣٥]:

علىٰ الإجماع أيضاً بقوله[٣٥]: ﴿وَيَتَّبعْ غَيْرَ سَبِيْلِ المُؤْمِنِيْنَ نُوَلّهِ ما تَوَلَّى ونصلهِ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيْراً﴾؛ الآية. وأحال على القياس أيضاً بقوله[٣٦]:

(٣٣) الحشر: ٥٩/٧.
(٣٤) النجم: ٥٣/٣.
(٣٥) النساء: ٤/١١٥.
(٣٦) الحشر: ٥٩/٢

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾؛ والاعتبار والنظر والاستدلال، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن، فصح كونه ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [٨٩/١٦].

فإن قيل: كيف وحّدت القدم، ونكرت في قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [٩٤/١٦] ولم يقل: القدم أو الأقدام، وهو أشد مناسبة لجمع الأيمان؟

قلنا: وحّدت ونكّرت لاستعظام أن تزول قدم واحدةٌ عن طريق الجنّة، فكيف بأقدام كثيرة؟

فإن قيل: «من» تتناول الذكر والأنثىٰ لغة ويؤيده قوله تعالى(٣٧): ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ...﴾ الآية وقوله تعالى(٣٨): ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾؛ الآية، وقوله(٣٩): ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ وقوله تعالى(٤٠): ﴿وَلله عَلَىٰ النَّاسِ حَجُّ البَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾؛ ونظائره كثيرة.

فكيف قال تعالى هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالحاً مِن ذَكَرٍ أو أُنثىٰ﴾ [٩٧/١٦]؟

قلنا: إنّما صرّح بذكر النوعين هنا لسبب اقتضىٰ ذلك، وهو أن النّساء قلن: ذكر الله تعالى الرجال في القرآن بخير، ولم يذكر النساء بخير، فلو كان فينا خيرٌ لذكرنا به فأنزل الله تعالى(٤١): ﴿إِنّ المُسْلِمِيْنَ والمُسْلِمَاتِ والمُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، وأنزل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً

(٣٧) الأنعام: ١٠٦/٦
(٣٨) الزلزلة: ٨/٩٩
(٣٩) البقرة: ١٨٥/٢
(٤٠) آل عمران: ٩٧/٣
(٤١) الأحزاب: ٣٥/٣٣

مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى﴾ [١٦/٩٧] فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [١٦/٩٧] وقد رأينا كثيراً من الصُّلحاء والأتقياء قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن، وأنواع البلاء، اعتبْر بالأمثلِ فالأمثلِ إلى الأنبياء؟

قلنا: المرادُ بالحياة الطيِّبة: الحياة في القناعة.

وقيل: في رزق يوم يوم.

وقيل: في التّوفيق للطاعات.

وقيل: في حلاوة الطاعات.

وقيل: بالرّضا بالقضاء.

وقيل: بالقضاء.

وقيل: المراد الحياة في القبر كما قال تعالى[٤٢]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وقيل: المراد به الحياة في الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقيّة لا موت بعدها، دائمة في النَّعيم المقيم.

والظاهر: أنّ المراد به الحياة في الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [١٦/٩٧] وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة كما قال[٤٣]: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِيْنَ﴾ [١٦/١٠٧] وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافِرين؛ فهداهم الله تعالى إلى الإيمان؟.

---

(٤٢) آل عمران: ٣/١٦٩. وذكر العلماء وجوهاً أُخَر؛ انظر مثلاً: القرطبي ١٠:١٧٤.
(٤٣) آل عمران: ٣/١٤٨

قلنـا: المـراد بهـذا الكافرون الـذين عـلم الله تعـالى أنهم يَمُوتون على الكفر، ويؤيّده ما بعد ذلك من الآيتين.

فـإن قيل: ما معنىٰ إضـافة النفس إلى النـفس في قـوله تعـالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [١٦/١١١] والنفسُ ليس لها نفس أُخـرىٰ؟

قلنـا: النفس اسمٌ للجوهَـر القائـم بـذاته المتعلّق بالجـسم تعلق التَّدبير.

وقيل: هو اسمٌ لجـملة الإنسان، لقـوله تعـالى(٤٤): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ وقـوله تعـالى(٤٥): ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيْهَا أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ﴾ [النَّفْسُ] أيـضاً اسمٌ لعين الشيء وذاته، كما يقـال: نفسُ الذهـب والفـضة محـبوبة، أي عينهما وذاتهما. فكأنه قـال: يوم يأتي كل إنسان يجـادلُ عن ذاته لا يهـمّه شأنُ غيره، كلٌّ يقول: نفسي! نفسي!؛ فاختلف معنى النَّفسين.

فإن قيل: كيف قـال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهـا لِبَاسَ الجُوْعِ﴾ [١٦/١١٢] ولم يقـل: فكسَاها الله لبـاس الجوع؛ والإذاقة لا تناسب اللباس، وإنـما يناسبه الكسوة؟

قلنـا: الإذاقـة تناسـب المستعـار له وهـو الجـوع من حـيث إنّ الجـوع يقتضي الأكـل، فيقتضي الرِّزق، وإن كـانت لا تناسب المُستعـار وهـو اللباس. والكسوة تناسب المستعـار له وهـو الجـوع. وكلاهـما من دقائق البيان، يسمىٰ الأول منهـا «تجـريد الاستعـارة» والشـاني: ترشيح الاستعـارة.

فجـاء القرآن العزيز في هذه الآيـة بتجـريد الاستعـارة وقد ذكرنا تمام هذا في كتابنا المسمى «رَوْضـة الفَصاحـة». ولبـاس الجوع والخـوف استعارةٌ لِمَا

---

(٤٤) آل عـمران: ٣/١٨٥
(٤٥) المائـدة: ٥/٤٥

ظَهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصِّفرة والنُّحول، فهو كقوله تعالى[٤٦]: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ استعار اللباس لما يظهر على المتّقي من أثر التقوىٰ.

وقيل: إن فيه إضماراً تقديرُه: فأذاقها الله طعم الجوع، وكساها لباس الخوف.

(٤٦) الأعراف: ٢٦/٧

سورة الإسراء

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ [١٧/١] ولم يقل: بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيّه ونحو ذلك، مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله؟

قلنا: إنما سمّاه عبداً في أرفع مقاماته وأجلّها وهو هذا، وقوله تعالى[١]: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، لئلا تغلط فيه أمّته وتضلّ كما ضلت أمّة المسيح به فدعَتْه إلَهاً.

وقيل: لئلا يتطرّق إليه الكِبْرُ والعُجْب.

فإن قيل: الإسراء لا يكونُ إلا بالليل فما فائدة ذكر اللّيل؟

قلنا: فائدته أنه ذكر منكّراً ليدلّ على قِصَرِ الزّمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع، مع أنه كان من مكّة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير يدلّ على البَعْضِيّة، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة «مِنَ اللَّيْلِ» أي بعض الليل، كقوله تعالى[٢]: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [١٧/٧٩] فإنه أُمِر بالقيام في بعض الليل.

فإن قيل: أيّ حكمة في نقله عليه الصلاة والسلام من مكّة إلى بيت المقدس، ثم العُروج به من بيت المقدس إلى السّماء، وهلا عُرِجَ به من مكّة إلى السماء دفعةً واحدة؟

قلنا: لأن بيت المقدس محشرُ الخَلائق. فأراد الله أن تطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه.

---

(١) النّجم: ٥٣/١٠

الثاني: أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء فأراد الله تعالى أن يشرّفهم بزيارته عليه الصلاة والسلام.

الثالث: أنه أُسري به إلى بيت المقدس ليشاهد من أحواله وصفاته ما يخبر به كفّار مكّة صبيحة تلكَ اللّيلة فيدلّهم إخبارُه بذلك مُطابقاً لِمَا رَأوا أو شاهَدُوا على صِدقه في حديث الإسراء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [١٧/١] ولم يقل: باركنا عَلَيه أو باركنا فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد، وحوله، خصوصاً المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد البركة الدُّنيوية بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه.

وقيل: أراد البركة الدّينيّة، فإنه مقرُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومُتَعَبَّدُهم، ومهبط الوحي والملائكة. وإنما قال تعالى: «باركنا حوله» لتكون بركته أعم وأشمل فإنه أراد بـ «ما حوله» ما أحاط به من أرض الشام وما قاربه منها وذلك أُوسع من مقدار بيت المقدس، ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركاً فيه بالطريق الأَوْلىٰ بخلاف العكس.

وقيل: المراد بالبركة الدّنيوية والدّينية ووجههما ما مَرّ.

وقيل: المراد: باركنا حوله من بركة نشأت منه فعَمّت جميع الأرض، لأنّ مياه الأرض كلّها أصل انفجارها من تحت الصَّخرة التي في بَيت المقدس.

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [١٧/٣] بما قبله، ومناسبته له؟

قلنا: معناه لا تتّخذوا من دوني رَبّاً فتكونوا كَفُورين، ونُوْح كان عبداً شكوراً، وأنتم ذرّيةُ مَنْ آمن به، وحُمِلَ معه، فتأسَّوْا به في الشكر، كما تأسّى به آباؤكم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْأَتُمْ فَلَهَا﴾ [١٧/٧] ولم يقل: «فعليها» كما قال تعالى(٢): ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا﴾؟

قلنا: قيل: اللام هنا بمعنىٰ «علىٰ» كما في قوله تعالى(٣): ﴿وَتَلَّهُ لِلجَبِيْنِ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَيخِرُّوْنَ للأَذْقَانِ﴾ [١٧/١٠٩].

وقيل: معناه: فلها رجاء الرحمة، أي: فلها مخلص بالتّوبة والاستغفار.

والصّحيح: أن اللام هنا على بابها، لأنها للاختصاص، وكل عامل مختصّ بجزاء عمله حسنه ـ كان ـ أو سيئه، وقد سبق مثل هذا مُستوفىٰ في آخر سورة البقرة في قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [١٧/١٠٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [١٧/١٢] وقال في قصة مريم وعيسىٰ عليهما السلام(٤): ﴿وَجَعَلْنَاها وابْنَهَا آيَةً للعَالَمِيْنَ﴾ و(٥): ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾.

مع أن عيسى عليه السلام كان وحده آيات شتّى؛ حيث كَلَّم

---

(٢) الجاثية: ٤٥/١٥

(٣) الصافّات: ٣٧/١٠٣

(٤) الأنبياء: ٢١/٨١

(٥) المؤمنون: ٢٣/٥٠

النّاس في المهد، وكان يُحيي الميت، ويُبرىء الأكمه والأبرص، ويخلقُ الطير إلى غير ذلك من الآيات، وأمه وحدها كانت آية حيث حملت من غير فَحْل؟

قلنا: إنما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما، ولم يتمّ إلا بهما، وهي ولادة ولد من غير فحل. بخلاف الليل والنهار، والشمس والقمر.

الثاني: أن الآية محذوفة إيجازاً واختصاراً تقديره «وجعلناها آيةً وابنها آيةً، وجعلنا ابن مريم آية، وأُمّهُ آية».

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [١٧/١٢] والإبصار من صفاتِ ماله حياة، والمراد بآية النهار، إمّا الشمس أو النّهار نفسه، وكلاهما «غير مبصرة»؟

قلنا: المُبصرة في اللغة بمعنىٰ المضيئة، نقله الجوهري.

وقال غيره: معناه بيّنة واضحة مضيئة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾.

الثاني: معناه مُبْصَراً بها إن كانت الشمس، أو فيها إن كانت النهار، ومنه قوله تعالى(٧): ﴿وَالنَّهَار، مُبْصِراً﴾ أي مبصراً فيه، ونظيره قولهم: ليل نائم، ونهار صائم، أي يُنام فيه ويُصام فيه.

الثالث: أنه فعل رباعي منقول بالهمزة عن الثلاثي الذي هو بَصُر بالشيء أي علم به، فهو بصير: أي عالم.

معناه: أنّها تجعلهم بصراء فيكون: أبصره بمعنىٰ بصره، وعلى

(٦) النّحل: ١٣/٢٧
(٧) يونس: ٦٧/١٠

هٰذا حَمل الأَخفش قوله تعالى(٨): ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُم آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾؛ أي تبصرهم فتجعلهم بصراء.

الرابع: أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقُدرة، وهو متحرك بإرادته في امتثال أمر الله تعالى كمايتحرك الإنسان.

فإن قيل: ما الفائدة في ذكر عدد السنين مع أنه لو اقتصر على قوله: «لِتَعْلَمُوا» دخل فيه عدد السنين، أو هو من جملة الحساب؟

قلنا: العدد كأنه موضع الحساب، كبدن الإنسان موضع الطب، وأفعال المكلفين موضع الفقه، وموضع كل علم مغاير له، وليس جزءاً منه، كبدن الإنسان ليس جزءاً من الطبّ، ولا أَفعال المكلفين جزءاً من الفقه، فكذا العدد ليس جزءاً من الحساب، وإنما ذَكر عدد السنين وقدّمه على الحساب لأن المقصود الأصلي من محو آية الليل وجعل آية النهار مُبصرة علم عدد الشهور والسنين؛ ثم يتفرّع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدد والآجال.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾؛ وقال في موضع آخر: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِيْنَ﴾؟

قلنا: مواقف القيامة مختلفة، ففي موقف يكل الله تعالى حسابهم إلى أنفسهم، وعلمه محيط به؛ وفي موقف يحاسبهم هو.

وقيل: هو الذي يحاسبهم لا غير، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْباً﴾ أي يكفيك أنك شاهدعلى نفسك بذنوبها، عالم بذلك،

(٨) النمل: ١٣/٢٧. وقرأ عليّ بن الحسين (رض) وقتادة: مُبْصَرَة؛ وهي نحو مجبنة ومبخلة؛ أي مكاناً يكثر فيه التبصر. نقله الزمخشري. وفي الجامع: قال الأخفش: ويجوز مَبْصَرة؛ وهو مصدر.

(٩) الأنبياء: ٤٧/٢١

فهو توبيخٌ وتقريع، لا أنّه تفويض لحساب العبد إلى نفسه.

وقيل: من يريد مُناقشته في الحساب يحاسبه بنفسه، ومن يريد مسامحته فيه يَكِلُ حسابه إليه.

فإن قيل: قولهُ تعالى(١٠): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ﴾ يرد ما جاء في الأخبار أن في يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمَدْيُون(١١)، ويزاد في حسنات رَبِّ الدَّين والشَّخص الذي اغتِيب، فإن لم يكن لهما حَسنات يوضع عليهما من سَيِّئات خَصْمهما، وكذلك جاء في سائر المظالم.

قلنا: المراد من الآية: أنها لا تحمله اختياراً، ردّاً على الكافرين من حيث قالوا(١٢): ﴿قَالُوا لِلَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيْلَنا وَلْنَحمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾؛ الآيتان(١٣)، والمراد مِن الخَبر أنها تحمله كرهاً، فلا تنافي بينهما، وقد سبق هذا مَرّةً في آخِر سُورة الأنعام.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفَسَقُوا فِيْهَا﴾ [١٧/١٦] وقال في آية أُخرىٰ(١٤): ﴿قُل إنَّ الله لا يَأْمُر بالفَحْشَاءِ﴾.

قلنا: فيه إضمار تقديره: أمرناهم بالطاعة ففسقوا.

قال الزجاج: ومثله قوله: أَمَرْتُهُ فعَصاني، وأمرْتُه فخالفني، لا يُفهم منه الأمر بالمعصية، ولا الأمر بالمخالفة.

---

(١٠) الأنعام: ٦/١٦٤

(١١) يقال فيه: مديون، ومَدِين.

(١٢) العنكبوت: ٢٩/١٢

(١٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وقَال الَّذِيْنَ كَفَرُوا لِلَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا ولْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَما هُم بِحامِلِيْنَ مِن خَطَايَاهُمْ مِن شَيءٍ إنَّهُم لَكَاذِبُوْنَ. ولَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وأثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُوْنَ﴾: [العنكبوت: ٢٩/١٢-١٣].

(١٤) الأعراف: ٧/٢٨

الثاني: أن معناه كَثَّرْنَا مُترفيها، يقال: أَمَرْتُه وآمَرْتُه بالقصر والمدّ بمعنىٰ كَثّرته، وقد قرىء بهما(١٥)، ومنه الحديث(١٦): «خير المال مهرة مأمورة، وسكّة مأبورة» أي كثيرة النّتاج والنّسل.

الثالث: أن معناه أُمَّرنا مُترفيها بالتشديد، يقال: أمّرت فلاناً بمعنىٰ أمرته أي جعلته أميراً، فمعنىٰ الآية: سلّطناهُم بالإمارة. ويعضدُ هذا الوجه قراءةمن قرأ «أَمَّرْنَا» بالتشديد.(١٧).

وقال الزمخشري(١٨): لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففَسَقُوا لأنّ صرف ما لا دليل عليه في اللفظ غير جائز، فكيف تقدير حذف ما قام الدليل في اللفظ على نقيضه؟ وذلك أن قوله «فسقوا»، يدلُّ على أَنّ المأمور به المحذوف هو الفِسق، وهو كلام مُستفيض، يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ، لا يُفهم منه إلا أنّ المأمور به القيام والقعود والقراءة بخلاف قولهم: أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني؛ حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة، لأن ذلك منافٍ للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر وينافيه مأموراً به. فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا مَنْوِيٍّ، والمتكلم بمثل هذا لا ينوي لأمره مأموراً به بل كأنه قال:

كان منّي أمرٌ فلم يكن منه طاعة، أو فكانت منه مخالفة؛ كما تقول: مُرْ زيداً يُطِعْكَ، وكما تقول: فلان يأمر وينهىٰ، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويضر وينفع؛ فإنك لا تنوي فيه مفعولاً.

---

(١٥) معجم القراءات القرآنية (٣: ٣١٣).

(١٦) أورده في النهاية (أ ب ر)، وهو في اللسان أيضاً. والسكّة: الطريقة المصطفة من النّخل؛ والمأبورة الملقّحة. أراد: خير المال: نتاج أو زرع.

(١٧) معجم القراءات القرآنية (٣: ٣١٣).

(١٨) الكشّاف (٢: ٤٤٢) ونقل المؤلّف هٰهنا معنىٰ كلام الزمخشري.

فإن قيل: علىٰ هذا حقيقة أمرهم بالفِسق أن يقول لهم افْسُقوا! وهذا لا يكون من الله تعالى فلا يقدّر الفِسْق محذوفاً ولا مأموراً به.

قلنا: الفِسق المحذوف المقدّر مَجازٌ عن إترافهم، وصب النعم عليهم صَبّاً أفضىٰ بهم إلى جعلها ذريعةً إلى المعاصي، ووسيلة إلى اتّباع الشهوات، فكأنهم أُمِرُوا بذلك لمّا كان السبب في وجوده الإتراف، وفتح باب النعم.

فإن قيل: لم لا يكون ثُبوت العلم بأنّ الله تعالى لا يأمرُ بالفحشاء، وإنّما يأمر بالطاعة والعدل والخير دليلاً على أن المراد: أمرناهم بالطاعة ففَسَقُوا؟

قلنا: لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مُريداً من مخاطبه علم الغيب، لأنه أضمر ما لا دلالة عليه في اللفظ، بل أبلغ لأنه أضمر ما في اللفظ ما يُناقضه ويُنافيه وهو قوله «فَفَسقوا» فكأنه أظهر شيئاً وادّعىٰ إضمار نقيضه، فكان صَرْف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز هو الوجه.

هذا كله كلام الزّمخشري، ولا أعلم أحداً من أئمّة التفسير صار إليه غيره، ثم إنه أيّده فقال: ونظير أُمَر، «شاء» في أنّ مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه، تقول: لو شاء فلانٌ لأَحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك. تريد: لو شاء الإحسان لأحسن، ولو شاء الإساءة لأساء. فلو ذهبت تُضمر خلاف ما أظهرت، وتعني: لو شاء الإساءة لأحسن إليك، ولو شاء الإحسان لأساء إليك، وتقول: دلّت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان دائماً أو من أهل الإساءة دائماً، فتترك الظّاهر المنطوق به، وتضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سَداد.

فإن قيل: على الوجه الأول: لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة لما كان مخصوصاً بالمُترفين، لأن أمر الله تعالى بالطاعة عامّ للمُترفينَ وغيرهم.

قلنا: أمر الله تعالى بالطاعة وإن كان عاماً، ولكن لمّا كان صلاح الأمراء والرؤساء وفسادهم مستلزماً لصلاح الرعية وفسَادها غالباً، خصهم بالذكر. ويؤيد هذا ما جاء في الخَبَر: صلاح الوالي صلاح الرعيّة، وفَساد الوالي فسَادُ الرَّعيّة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العَاجِلَةَ﴾ [١٧/١٨] الآية يدل على أن من لم يزهد في الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار، والأمر بخلافه.

قلنا: المراد مَنْ كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدُّنيا لا غير، ومثل هذا لا يكون إلا كافراً أو منافقاً ولهذا قال ابن جرير[١٩]: هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد فأمّا من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة فكيف يكون مذموماً مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكليّة، وعن جميع ما فيها لا يُتصوّر في حق البشر ولو كانوا أنبياء، فَعُلِمَ أن المراد ما قلنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [١٧/٢٠] أي ممنوعاً، ونحن نرىٰ ونشاهد في الواقع أنّ واحداً أعطاه قناطير مقنطرة، وآخر منعه العطاء حتى الدّانق والحبة؟

قلنا: المراد بالعطاء هنا الرِّزق، والله تعالى سوّى في ضمان الرزق وإيصاله بين البَرّ والفاجر، والمطيع والعاصي، ولم يمنع الرزق عن

(١٩) تفسير الطبري (١٥: ٤٤) ونقل المؤلّف معنىٰ كلام ابن جرير الطبري.
(٢٠) في (أ) مقامات الأملاك.

العاصي بسبب عصيانه، فلا تفاوت بين العباد في أَصل الرزق، وإنما التفاوت بينهم في مَقادِير الأملاك.

فإن قيل: كيفَ منعَ الله تعَالى الكُفّار التوفيق والهداية، ولم يمنعهم الرزق؟!

قلنا: لأنّه لو منعهم الرّزق لهلكوا، وصار ذلك حجةً لهم يوم القيامة بأن يقولوا: لو أُمهلتنا ورَزقتنا لبقينا أحياء فآمَنّا.

الثاني: أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة فيتعطل معنى اسمه (الحليم) عن معناه، لأن الحليم هو الذي لا يعجلّ بالعقوبة على من عصاه.

الثالث: أن منع الطعام والشراب من صِفات البخلاء، الأَخسّاء، والله تعالى مُنَزّهٌ عن ذلك.

وقيل: إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل، وعدل الله تعالى عامّ، وهبة التوفيق والهداية فضل، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ما فائدةُ قوله: «عندك» في قوله تعالى: ﴿إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ﴾ [١٧ / ٢٣].

قلنا: فائدته أنهما يكبران في بيته وكنفه ويكونان كَلًّا[٢١] عليه لا كافل لهما غيره، وربّما تولى منهما من المشاقّ ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنا﴾ [١٧/٣٢] ولم يقل: ولا تزنوا؟

(٢١) الكَلُّ: الذي هو عِيَال وثِقْل، يقال صار فلانٌ مُكِلًّا أي ذا قَراباتٍ.
- وفي (ب) كلاهما عليه.

قلنـا: لو قـال: «لا تزنوا» كان نهـياً عن الزنـا لا عن مقدّماته كاللمـس والمعانـقة والقبلة، ونحـو ذلك، ولمـا قـال: «ولا تقربوا الزنـا» كـان نهـياً عنه وعن مقدّمـاته لأن فعـل المقدمات قُربـانٌ[٢٢] للزّنـا.

فـإن قيل: الإشـارة بقـوله تعـالى: ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كـانَ سيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّـكَ مَكْرُوهـاً﴾ [١٧/٣٨] إلى مـاذا؟ على قراءة التنوين[٢٣].

قلنـا: الإشـارة إلى «كـل ما هو منهيٌّ عنه من جـميع ما ذكر من قوله تعـالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّـكَ أَلّا تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ...﴾ [١٧/٢٤] الآيـة لا إلى جـميع ما ذكـر، فـإن فيه حَسناً وسيئاً[٢٤].

وقـال أبو علي: هـو إشارة إلى قـوله تعـالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ...﴾ ومـا بعده لأنـه لاحسـن فيه.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿تَسبّحُ لَهُ السَّمٰـواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فيهـنَّ﴾ [١٧/٤٤] وقـوله: «ومَنْ فِيهـن» يتناول الآدميّين كـلهم، والمراد به العُمـوم كما هو مقتضىٰ الصّيغة بـدليل تأكيده بـقوله تعـالى بعده: ﴿وَإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ والتّسـبيح هو التنزيه من كـل ما لا يـليق بصفـات جـلاله وكـماله؛ والكـفّار يُضيفون إليه الرُّوحَ والوَلـد والشّريـك، وغير ذلك فـأين تسْبيحـهم؟

قلنـا: الضـمير في قـوله تعـالى: «وَمَنْ فيهـن» راجـع إلى السموات فقـط.

وقيل: إنـه راجـع إلى السموات والأرض. والمراد بقـوله تعـالى: «ومن

---

(٢٢) قربـان مصـدر من مصـادر فعـل (قَرُب) يقـال: قَرُبَ قرباً وقُرباناً (بـضم القـاف) وقِرباناً (بـكسر القـاف).

(٢٣) قـرأ ابن كـثير ونـافع وأبو عـمرو: «كَانَ سَيِّئـةً» بالتنويـن وانـظر معجـم القراءات القرآنية (٣: ٣٢٢).

(٢٤) تـراجع الآيـات من ٢٤ إلى ٣٧ من السُّورة.

فيهـن» يعني من المؤمنين فيـكون عامّاً أريـد به الخـاص. وعلىٰ هـذا يـكون المـراد بالتسبيح المسنـد إلى «من فيهـن» التّسبيح بلسـان المَقـال.

الثـالث: أن المراد به التَّسبيح بلسـان الحـال حيث يدلّ على وجـود الصّانـع وعـظيم قدرته ونهـاية حـكمته، فكأنهـا تنطق بـذلك وتنزهه عما لا يـجوز عليه، ولا يـليق به من السُّوء.

ويؤيـده قـولـهُ تعـالى بعــده: ﴿وَإِنْ مِـنْ شَيْءٍ إِلاّ يُـسَبِّــحُ بِحَـمْدِهِ﴾ [١٧/٤٤] والتسبيح العامّ لجـميع الموجودات إنـما هـو التسبيح بـلسان الحـال.

فـإن قيل: لو كـان المـراد هـو التّسْبيح بـلسان الحـال لمَا قـال: ﴿وَلَكِنْ لا تَفْقَهُـوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ﴾ [١٧/٤٤] لأنَّ التَّسبيح بلسانِ الحـال مفقوهٌ لنا، أي: مفهـوم ومعـلوم.

قلنـا: الخـطاب بقـوله تعـالى: «ولكـن لا تفقهـون تسبيحهـم» للكفّـار، وهـم مع تسبيحهـم بلسانِ الحـال لا يفقهـون تسبيح الموجودات على مـا ذكرنـا من التّفسيـر لأنهـم لمّا جَعـلوا للهِ شركـاء وزوجـاً وولداً، دل ذلك على عـدم فهـمهم تسبيح الموجودات وتنزيههـا، وعـدم إيـضاح دلائـل الوحـدانية لهـم لأن الله تعـالى طبـع على قـلوبهـم.

فـإن قيل: «من فيهـن» وهـم الملائكـة والثقـلان تُسَبّح حـقيقة؛ والسمـوات والأرض والجـمادات تسبح مجـازاً فـكيف جـمع بين إرادة الحـقيقة والمجـاز في لـفظ واحـد وهو قـوله تعـالى: ﴿تسبّح﴾؟

قلنـا: التَّسـبيح المجـازي بلسـان الحـال حـاصلٌ من الجـميع، فيُحْمل عليه دَفْعـاً لـما ذكرتـم من المحـذور.

فـإن قيـل: كيفَ قـال تعـالى: ﴿يَـوْمَ يَـدْعُـوكُمْ فَتَسْتَجِيْبُـوْنَ

بِحَمْدِهِ﴾ [١٧/٥٢] والمستعمل الشائع «دعاه فاستجاب لأمره أو بأمره» أي أجاب.

قلنا: قال ابن عباس المراد بقوله تعالى «بحمده»: بأمره.

وقال سعيد بن جبير: إذا دعَا الله الخلائقَ للبعث يخرجون من قُبورهم، وهم ينفضون التّراب عن رؤوسهم، ويقولن: سُبحانك اللهم وبحمدك.

وقال غيره: وهم يقولون(٢٥): ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾؛ فعلى هذا تكون الباء بمعنى «مع» كما قوله تعالى(٢٦): ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾، وقوله تعالى(٢٧): ﴿وَسَبِّح بِحَمْدِهِ﴾.

فإن قيل: كيف أجمل ذكر الأنبياء كلّهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيّيْنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [١٧/٥٥] ثم خص داوود بالذكر فقال: ﴿وَآتَيْنا دَاوُوْدَ زَبُوْراً﴾ [١٧/٥٥]؟

قلنا: لأنه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء وهو الرّسالة والكِتابة والخَطابة، والخِلافة والمُلك، والقَضاء في زمنٍ واحد، قال الله تعالى(٢٨): ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾ وقال(٢٩): ﴿يَا دَاوُودُ إنّا جعلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾.

الثاني: أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَد فَضّلنا بعضَ النَّبيين على بَعْضٍ﴾ إشارة إلى تفضيل محمد ﷺ، وقوله: ﴿وَآتَيْنَا داوُوْدَ زَبُوراً﴾ دلالة على وَجه تفضيله، وأنّ أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داوود عليه

(٢٥) الزمر: ٣٩/٧٤
(٢٦) المؤمنون: ٢٣/٢٠
(٢٧) الفرقان: ٢٥/٥٨
(٢٨) صٓ: ٣٨/٢٠
(٢٩) صٓ: ٣٨/٢٦

الصلاة والسلام وإليه الإشارة بقوله تعالى(٣٠): ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

قلنا: يجوزُ أن يكون الزّبور من الأعلام التي تستعمل بالألف واللام، وبغيره كالعباس والفضل والحسن والحسين ونحوها.

الثاني: أنه نكرة لأنّه أراد: وآتينا داوود بعض الزبور وهي الكُتب.

الثالث: أنه نكرة لأنّه أراد به ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزُّبُور فسمّي ذلك زبوراً لأنّه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً، فقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ..﴾ [١٧/١٠٦] الآية، وقال(٣١): ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ وأراد به سورة يوسف عليه السّلام وقال: ﴿وقرآن الفَجْرِ﴾ [١٧/٧٨] أي القرآن المتلوّ في سورة الفَجر.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ [١٧/٥٦] مُغْنٍ عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [١٧/٥٦] لأنهم إذا لم يستطيعوا كشفَ الضُّرّ، لا يستطيعون تحويله لأن تحويل الضر نَقْلُه من محلّ وإتيانُه في محل آخر. ومنه تحويل الفِراش والمتَاع ونحوهما. وكشفُ الضرّ مجرد إزالته ومن لا يقدر على إزالته وحدها، فكيفَ يقدر على الإزالة مع الإثبات؟. والمُراد بالآية كشف الفقر والمرض والقحط ونحوها؟

قلنا: التّحويل له معنيان.

أحدهما: ما ذكرتم؛

والثاني: التّبديل، ومنه قولهم: حوّلت القميصَ قباءً(٣٢)، والفضّة

(٣٠) الأنبياء: ٢١/١٠٥

(٣١) يوسف: ١٢/٣

(٣٢) القَباء: نوعٌ من الملابس.

خاتماً. وأُريد بالتبديل هنا الكشف لأنّ في الكشف المنفيّ في الآية تبديلاً، فإن المرض متى كشف تَبَدّل بالصحة، والفقر متىٰ كشف تَبَدّل بالغنىٰ، والقحط متىٰ كشف تَبَدّل بالخصب، وكذا جميع الأَضداد، فأَطلق التبديل وأراد به الكشف، إلا أنّه لم يرد به كشف الضرّ لئلا يلزم التّكرار بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة؛ يعني:

فلا يستطيعون كشف الضُّرّ عنكم ولا كَشفاً ما. ولهذا لم يقل: ولا تحويله. وهذا الجواب مما فتح الله تعالى عَلَيَّ من خزائن جوده. ونظيره ما ذكرنا في سورة النّحل، في قوله تعالى(٣٣): ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دونِ الله ما لا يَمْلِكُ لَهُم رِزْقاً من السَّمٰواتِ والأَرضِ شَيئاً، ولا يَسْتَطِيْعُونَ. . .﴾.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنا أَن نُرْسِلَ بالآيات إلاّ أنْ كَذّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [١٧/ ٥٩] الآية فيها أسئلة:

أوّلها: أن الله تعالى لا يمنعه عَمّا يريده مانع؛ فإن أراد إرسال الآيات كيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها كان وجود تكذيبهم وعدمه سواء وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة.

الثاني: أن الإرسال يتعدّى بنفسه، قال الله تعالى(٣٤): ﴿إنّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ﴾ فأي حاجة إلى الباء؟

الثالث: أنّ المراد بالآيات هنا ما اقترحه أهلُ مكّة على رسول الله ﷺ من جَعل الصَّفا ذَهباً، وإزالة جبال مكة، ليتمكّنوا من الزراعة وإنزال كتاب مكتوب من السَّماء، ونحو ذلك. وهذه الآيات ما أرسلت إلا إلى الأَوّلين، ولا شهدوها فكيف كَذّبوها؟

---

(٣٣) النحل: ١٦/ ٧٣
(٣٤) الأَعراف: ٧/ ٥٩

الرابع: أنّ تكذيب الأوّلين لا يمنع إرسالها إلى الآخرين لجواز أن يكذّب الآخرون.

الخامس: أيّ مناسبة وارتباط بين صدر الآية، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [١٧/٥٩].

السادس: ما معنىٰ وصف الناقة بالإبصار؟

السّابع: أنّ الظّلم يتعدىٰ بنفسه، قال الله تعالى(٣٥): ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾؛ فأيّ حاجة إلى الباء، وهلا قال: «فظلموها» يعني بالعقر والقتل؟

الثامن: أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بالآياتِ إلاّ تَخْوِيْفاً﴾ [١٧/٥٩] يدل على الإرسال بها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ﴾ يدل على عدم الإرسال بها.

قلنا: الجواب **عن الأوّل**: أنّ المنع مجازٌ عبّر به عن تَرك الإرسال بالآيات، فكأنه قال تعالى: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون.

وعن الثاني: أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به لا إلى المرسل، لأنّ المرسل محذوف، وهو الرّسول تقديره: وما منعنا أن نرسل الرّسول بالآيات.

والإرسال يتعدّىٰ إلى المرسل بنفسه، وإلى المرسل به بالباء، وإلىٰ المرسل إليه بإلىٰ، قال الله تعالى(٣٦): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ إلىٰ فِرْعَوْنَ﴾.

(٣٥) النساء: ٤/١١٠
(٣٦) هود: ١١/٩٦

وعن الثالث: أن الضمير في قوله تعالى: «بها» عائد إلى نفس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المُقترحة كأنّه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحها أهل مكة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة؛ يريد: المائدة والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم.

وعن الرابع: أنّ سنّة الله تعالى: في عباده أن من اقْتَرح على الأنبياء آيَةً وأُتوه بها فلم يؤمن عَجّل الله هلاكه. والله تعالى لم يُرد هلاك مشركي مكة، لأنّه تعالى عَلِمَ أنه يولد منهم من يؤمن، أو لأنّه قضى وقدّر في سابق علمه بقاء من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فلو أرسل بالآيات التي اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم. وحكمتُه اقتضت عدمَ إهلاكهم؛ فلذلك لم يُرسل بها. فيصير معنىٰ الآية: ومامنعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كَذَّب بالآيات المقترحة الأَوَّلون فأُهلكوا، فربّما كذّب بها قومك فأُهلكوا.

وعن الخامس: أنَّه تعالى لمّا أخبر أن الأَوّلين لمّا كذبوا بالآيات المقترحة عَيّن منها واحدةً وهي ناقة صالح عليه الصلاة والسلام لأنّ آثار ديارهم المهلكة في بلاد العرب قريبةٌ من حُدودهم يُبصرها صادرهم، وواردهم.

وعن السادس: أن معنىٰ «مبصرة»: دالّة؛ كما يقال: الدّليل مُرشدٌ وهادٍ.

وقيل: مُبْصَراً بِها كما يُقال: ليل نائم، ونهار صائم أي ينام فيه، ويصام فيه.

وقيل: معناه مبصرةً، يعني أنها تبصر الناس صحة نبوّة صالح ـ عليه

السلام ـ. ويعضد هذا قراءة من قرأ «مَبْصَرة» بفتح الميم والصاد، أي تبصرة(٣٧).

وقيل: مبصرة صفة لآية محذوفة، تقديره: آية مبصرة أي مضيئة بينة.

وعن السابع: أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى النّاقة، بل معناه: فظلموا أنفسهم بقتلها أو بِسَببها.

وقيل: الظُّلم هنا الكفر، فمعناه: فكفروا بها. فلمّا ضَمَّنَ الظلم معنىٰ الكُفر عَدّاه تَعْدِيَتَه.

وعن الثامن: أن المراد بالآيات ثانياً العِبَر والدلالات، لا الآيات التي اقترحها أهل مكة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرْآنِ﴾ [١٧/ ٦٠] وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القُرآن.

الثاني: أنّ معناه: الملعون آكِلُوها، وهم الكَفرة.

الثالث: أن الملعونة بمعنىٰ المذمومة، كذا قاله ابن عباس، وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى(٣٩): ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوْمِ طَعَامُ الأَثِيْمِ﴾؛ وبقوله تعالى(٤٠): ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطِيْنْ﴾.

---

(٣٧) وهي قراءة قتادة (معجم القراءات القرآنية ٣: ٣٢٧).

(٣٨) في القرطبي(١٠/١٨١): «فَظَلَمُوا بِهَا» أي ظلموا بتكذيبها. وقيل: جَحَدُوا بها وكفروا أنّها من عند الله فاستأصلهم الله بالعَذاب.

(٣٩) الدخان: ٤٤/٤٣

(٤٠) الصافات: ٣٧/٦٤

الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروهٍ أو ضارّ: ملعون، وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها.

الخامس: أن اللعن في اللغة هو الطرد، والإبعاد، فالملعونُ هو المطرود عن رحمة الله تعالى المُبْعَد عَنها لأنّها في قَعر جهنم، وهذا الإبعاد والطرد مذكورٌ في القرآن بقوله تعالى(٤١): ﴿إنَّها شَجَرةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيْمِ﴾.

وقال ابن الأنباري: سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل.

فإن قيل: كيف خصّ أصحابَ اليمين بقراءة كتابهم بقوله تعالى: ﴿فَمن أوتي كتابه بيمينه، فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ [٧١/١٧] ولِمَ خَصّهم بنفي الظّلم عنهم بقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُظْلَمُوْنَ فَتِيْلاً﴾ [٧١/١٧] مع أنّ أصحاب الشّمال يقرؤون كتابهم ولا يظلمون أيضاً؟

قلنا: إنما خصّ أصحاب اليمين بذكر القراءة لأنّ أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتُبهم من الفضائح، والقبائح أَخذهم من الحَياء والخَجل والخَوف ما يُوجب حُبْسَةَ اللّسان، وتتعتع الكلام، والعجز عن إقامة الحروف فتكون قراءتهم كلا قراءة!

وأما أصحاب اليمين فأَمْرُهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة، وأثبتها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتىٰ يقول القارىء لأهل المحشر(٤٢): ﴿هاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُظْلَمُوْنَ فَتِيْلاً﴾ فهو عائدٌ إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين.

(٤١) الصّافات: ٦٤/٣٧

(٤٢) الحاقة: ١٩/٦٩

الثاني: أنّه عائد إلى أصحاب اليمين خاصّة؛ وإنّما خصّهم بذلك لأنهم يعلمون أنّهم لا يُظلمون، ويعتقدون ذلك بخلاف أهل الشمال فإنهم يعتقدون أو يظنون أنّهم يُظلمون، ويعضدُ هذا الوجه قوله تعالى(٤٣): ﴿وَمَن يَعْمَل مِن الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخافُ ظُلماً ولا هَضْماً﴾.

فإن قيل: كيف قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَد عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤلاءِ﴾ [١٧/١٠٢] يعني الآيات: ﴿إلَّا رَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [١٧/١٠٢] يعني بَيّنات وحججاً واضحات؛ وفرعون لم يعلم ذلك لأنه لو علم ذلك لم يقل: ﴿إنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوْسَىٰ مَسْحُوراً﴾ [١٧/١٠١] أي مخدوعاً، أو قد سُحرت، أو ساحِر: مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال؛ بل كيف يؤمن به، وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضلّه، وحال بينه وبين الرشاد؟ ولهذا قرأ عَلِيٌّ رضِي الله عنه(٤٤): لَقد عَلِمْتُ ـ بضمّ التاء ـ وقال(٤٥): «والله ما عَلِمَ عَدُوّ الله ولكنّ موسى هو الذي علم». واختار الكسائي وثعلب قراءة عليّ ونصَراها بأنه لمّا نسب موسى إلى أنه مسحور أعلمه بصحّة عقله بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾.

قلنا: معناه: لقد علمتَ لو نظرتَ نظراً صحيحاً.

أو: لقد علمتَ نظراً إلى الحجّة والبُرهان، ولكنّك معانِدٌ مكابرٌ تخشى فوات دعوى الإلٰهيّة لو صدَّقتني. فكان فرعون ممّن أضلّه الله على علم(٤٦). ولهذا لمّا بلغ ابنَ عبّاس قراءةُ عليٍّ رضي الله عنهما، ويمينُه

(٤٣) طٰه: ١١٢/٢٠
(٤٤) معجم القراءات القرآنية (٣: ٣٤٠)
(٤٥) العبارة في القرطبي ١٠: ٣٣٧
(٤٦) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهَهُ هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون﴾ الجاثية: ٢٣/٤٥

احتجّ بقوله تعالى(٤٧): ﴿وَجَحَدُوا بِهـا واستَيْقَنَتْهَـا أَنْفُسُهُـمْ ظُلْمَاً وَعُلُوّاً﴾.

فإن قيل: كيف قال موسى عليه السَّلام: ﴿وَإِنِّـيْ لأَظُنُّـكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ وموسى كان عالماً بذلك لا شكّ عنده فيه؟

قلنا: قال أكثر المفسّرين: الظنُّ هنا بمعنى العِلم، كما في قوله تعالى(٤٨): ﴿الَّذِيْنَ يَظُنُّوْنَ أَنَّهُـمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾.

وإنما أتى بلفظ الظنّ ليعارض ظنّ فرعون بظنّه؛ كأنه قال: إن ظننتني مسحُوراً فأنا أظنك مثبوراً. والمثبور: الهالك، أو المصروفُ عن الخير، أو الملعون، أو الخاسر.

فإن قيل: كيف كرّر الإخبار بالخُرور؟

قلنا: كرّر ليدلّ على تكرار الفعل منهم.

الثاني: أنه كرّر لاختلاف الحالين، وهما خرورُهم في حال كونهم ساجدين، وفي حال كونهم باكين.

الثالث: أنه أراد بالخرور الأوّل: الخرور في حال سماع القُرآن، أو قراءته؛ وبالخرور الثاني الخُرور في سائر الحالات وباقيها.

فإن قيل: الحَمْدُ إنّما يكونُ على نعمة أنعم الله بها على العبد كما في قوله تعالى(٤٩): ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾(٥٠) ﴿الحمدُ لله

---

(٤٧) النّمل: ١٤/٢٧. قراءة العامة: علمتَ بفتح التاء خطاباً لفرعون، وقرأ الكسائي بضم التاء وهي قراءة علي (رض) فبلغت ابن عباس (رض) فقال إنها «لَقَدْ عَلِمْتَ» (بالفتح) واحتجّ بقوله تعالى ﴿وجحدوا بها...﴾ ونسب فرعون إلى العناد. وراوي قراءة الضم عن عليّ مجهول لا يُعرف. (ملخص عن القرطبي ٣٣٧/١٠).

(٤٨) البقرة: ٤٦/٢

(٤٩) فاطر: ٣٤/٣٥

(٥٠) الأعراف: ٤٣/٧

الَّذِي هَدَانَا﴾(٥١) ﴿الحَمْدُ لله الذِّي خَلَقَ السَّماوَاتِ والارضَ﴾ لأَنّ فيهما من المنافع لنا ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصىٰ. فأيُّ نعمةٍ حصل لنا من كون الله لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكُ في الملك ولا ناصر حتى قال: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدَاً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وكَبِّرْه تَكْبِيْراً﴾ [١٧/١١١].

قلنا: النعمة في ذلك أن الملك إذا كان له ولدٌ وزوجةٌ وعبيد فإنّما ينعم على عبيده بما فضل عن ولده وزوجته وإذا لم يكن له ولدٌ وزوجة كان جميع إنعامِه وإحسانِه مَصْرُوفاً إلى عبيده. فكانَ نفيُ اتخاذ الولد مقتضياً مزيد الإنعام عليهم.

وأمّا نفيُ الشريك فلأنه يكون أقدر على إنعامه على عبيده لعدم المُزَاحِم.

وأما نفيُ النَّاصِر فلأنّه يدلّ على القوّة والاستغناء. وكلاهما يقتضي القدرة على زيادةِ الإنعام(٥٢).

(٥١) الأنعام: ٦/١.

(٥٢) في القرطبي: هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنَّصارى والعرب في قولهم أفذاذاً (كل واحد على حدة): عزير وعيسى والملائكة ذرية الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعالى الله عن أقوالهم.

سورة الكهف

فإن قيل: قولُه تعالى: ﴿قَيِّماً﴾ [٢/١٨] بمعنى مستقيماً، وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ [١/١٨] مُغنٍ عن قوله (قَيّماً) لأنه متى انتفى العِوَجُ ثبَتت الاستقامة؛ لأنّ العوجَ في المعاني كالعِوَج في الأعيان. والمُراد به هُنا، نفيُ الاختلافِ والتّناقض في معانيه، وأنه لا يخرجُ منه شيء عن الصَّواب والحكمة.

وقيل: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ؛ تقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيّماً، ولم يَجعل له عوجاً.

قلنا: قال الفَرّاء: معنى قوله تعالى: (قَيّماً): قائماً على الكُتب السّماوية كُلّها مُصّدقاً لها، شاهداً بصحّتها، ناسخاً لبعضِ شرائعها. فعلى هذا لا يكونُ تكرارٌ فيه، وعلى القول المشهور: يكون الجمعُ بينهما التأكيدُ سواء قُدّر[1] ﴿قَيّماً﴾ مقدّماً أو أُقِرّ في مَرتبته. ونُصِب بفعلٍ مضمر تقديره: «ولكنْ جعلَه قَيّماً». ولا بدَّ من هٰذا الإضمار أو من التقديم والتّأخير، وإلّا يصيرُ المَعنى: ولم يجعلْ له عِوَجاً مُستقيماً؛ والعوجُ لا يكونُ مستقيماً.

فإن قيل: اتّخاذُ الله تعالى ولداً مُحال، فكيفَ قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [٥/١٨] وإنّما يَستقيمُ أن يُقالَ: فلانٌ ماله عِلم بكذا: إذا كان ذلك الشّيء ممّا يعلَمُه غيرُه أو ممّا يصحّ أن يعلم، كقولنا: زيدٌ ماله علمٌ بالعربيّة، أو بالحِساب، أو بالشّعر ونحو ذلك.

قلنا: معناهُ: مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ لأنّه ليسَ مِمّا يُعلم لاستحالتِه.

---

(١) كلمة (قدّر) من (ب)، وسَقطت من (أ) بسهوٍ من الناسخ.

وهذا لأنّ انتفاءَ العِلم بالشّيء تارةً يكونُ للجَهْل بالطَّريق المُوصِل إليه، وتارةً لأنّه في نفسِه مُحالٌ لا يَستقيمُ تعلّمُ العلمِ به. وما نحن فيه مِنْ هذا القَبِيل.

فإن قيل: كيفَ قال تَعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُم لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ [١٨/ ١٢] وهو عالمٌ بذلك في الأزل؟

قلنا: معناه: لِنَعْلَم ذلك علمَ مُشَاهدةٍ كما علمناهُ علمَ غَيب(٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم﴾ [١٨/ ١٩]. ولم يقُل: وَاحِدُكم.

قلنا: لأنّه أراد: فَرْداً منهم أيّهم كان، ولو قال: واحِدَكم، لدَّل على بعثِ رئيسهم ومُقَدَّمهم: فإنَّ العرب تقول: رأيت أَحدَ القوم: أي فرداً منهم ولا تقول: رأيت واحدَ القَوم إلا إنْ أرادَت المُعَظَّم المُقَدَّم.

فإن قيل: كيف جاءَ تعالى بسِين الاستقبال في الفعل الأول دون الآخرين(٣) في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ [١٨/ ٢٢] الآية.

قلنا: أراد دخول الفعلين الآخرين في حكم الأول بِمُقتضى العطف؛ فاقتصر على ذكر السّين في الأول إيجازاً واختصاراً. كما تقول: «زيد قد يخرج ويركب» تريد: وقد يركب(٤).

فإن قيل: كيف دخلت الواو في الجملة الثالثة دون الأوّلين وهي قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُم كَلْبُهُمْ﴾ [١٨/ ٢٢].

---

(٢) في القُرطبي (١٠: ٣٦٤): «لنعلم» عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته، وهذا على نحو كلام العرب؛ أي، لنعلم ذاك موجوداً؛ وإلاّ فقد كان الله تعالى علم أيُّ الحِزْبَين أحصى الأمد.

(٣) ورد السؤال وجوابه في الكشاف ٢: ٤٧٨

(٤) زاد الزمخشري وجهاً آخر؛ وهو أن يُراد بـ (يَفْعَلُ) معنى الاستقبال الذي هو صالحٌ له.

قلنا: قال بعضُ المفسّرين(٥) هي :واو الثَّمانية! وقد ذكرنا مثلها في آخر سُورة التَّوبة(٦).

وقال الزَّجّاج: دخولُ هذه الواو وخروجُها سواء في صفة النكرة فجاء القرآن بهما.

وقال غيره: الواو مُرَادَةٌ في الجُملتين الأُوليين وإنّما حُذفت فيهما تخفيفاً، وأُتِيَ بِها في الجُملة الثّالثة دلالةً على إرادتها فيهما.

ويرد على هذا القول أنه لو كان كذلك لكانت مذكورةً في الجُملة الأولى محذوفةً في الجملة الثّانية والثالثة لِيدلّ ذِكرُها أَوّلاً على حَذفها بعد ذلك كما سبَق في سِين الاستقبال.

وقال الزّمخشري(٧) وغيرُه: هي الواو التي تدخُل على الجُملة الواقعة صفةً للنّكرة، كما تدخلُ على الصفّة الواقعة حالاً من المَعرفة، تقول: «جاءَني رجلٌ ومعه آخَر» ومررتُ بزيدٍ وفي يده سَيف» ومنه قوله تعالى(٨): ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُوم﴾ وفائدتها توكيدُ لصوقِ الصّفة بالمَوصوف، والدّلالة على أنّ اتّصافَهُ بها أمرٌ ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الّذين قالوا: ﴿سَبعةٌ وثَامِنُهُم كَلبُهُمْ﴾ [٢٢/١٨] قالوه عن ثباتِ علمٍ وطُمأنينة نفس، ولم يَرْجُموا بالظنّ كَمَا رَجم غيرهم. والدليل عليه أنَّ الله تعالى أَتْبع القولين الأَوّلين قوله: ﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾ [٢٢/١٨] وأُتبع القول الثّالث قوله: ﴿مَا يَعلَمُهُمْ إِلاّ قَلِيلٌ﴾ [٢٢/١٨].

(٥) هو ابن خالويه، وجماعةٌ من المفسّرين (ينظر ما لخصه القرطبي هنا).
(٦) ينظر ما سبق في سورة التوبة: في تفسير المؤلف، وتنظر حواشي التحقيق.
(٧) قاله في الكشاف ٢: ٤٧٨ ـ ٤٧٩
(٨) الحجر: ٤/١٥

وقال ابن عباس: وقعت الواو بقطع العَدد أي لم يبق بعدها عِدّةُ عَادٍ يُلتفت إليها[٩] وثبتَ أنّهم سبعةٌ وثامِنُهم كلبهم على القَطع والبتات.

وقال الثَّعلبيّ[١٠]: هذه واو الحُكم والتّحقيق؛ كان الله تعالى حكى اختِلَافهم فتَمّ الكلام عند قوله (سبعة) ثم حكم بأنّ ثامنَهم كلبُهم، باستيفائه الكلام. فحقّق ثبوتَ العَدد الأَخير؛ لأنّ الثامن لا يكونُ إلاّ بعد السبعة. فعلى هذا يكون قوله (وثامنهم كلبهم) من كلام الله تعالى: حقيقةً أو تَقديراً.

ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [١٨/٢٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [١٨/٢٢] يَدُلُّ على بَقَاءِ الإبهام، وعدم زَوال اللَّبس بهذه الواو..

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [١٨/٢٧]

وقال في موضع آخر[١١]: ﴿وَإِذا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾؛ ويلزم من تبديل الآية تبديل الكلمات؟ فكيف الجمعُ بينهما؟.

قلنا: معناه الأول لا مُغَيِّرَ لِلقُرآن من البَشر وهو جوابٌ لقولهم للنبي عليه الصلاة والسَّلام: ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدّله!

الثاني: أنّ معناه: لا خُلف لِمَواعيده ولا مغيّر لِحُكْمِه، ومعنى الثاني: النَّسخ والتبديل من الله تعالى. فلا تنافِي بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُر﴾ [١٨/٢٩] إباحة وإطلاقٌ للكفر.

---

(٩) سقطت الكلمة من (أ)، وهي في (ب) إليه: وأثبت عبارة الكشّاف.
(١٠) تسمّى عند بعضهم واو ثمانية؛ كما سبق.
(١١) النَّحل: ١٦/١٠١.

قلنا: قال ابن عبّاس: معناه: فمَن شاء ربكم فليؤمن، ومنْ شاء فليكفُر؛ يعني: لا إيمان ولا كفرَ إلاّ بمشيئته.

الثاني: أنّه تهديدٌ ووعيد(١٢).

الثالث: أنّ معناه: لا تنفعُون الله بإيمانكم ولا تضرّونه بكفركم، فهو إظهارٌ للغَنَاءِ(١٣) لا إطلاقٌ للكُفر.

فإن قيل: لبسُ الأساور في الدُّنيا عيبٌ للرّجال ولهذا لا يلبسها مَن لبس الذّهب والحرير من الرّجال، فكيف وعدَها الله تعالى المؤمنين في الجَنّة؟

قلنا: كانت عادةُ ملوكِ الفُرس والرّوم لبسَ الأساور والتّيجان مخصُوصين بها دون مَنْ عَداهم، فلذلك وعدَها الله المُؤمنين في الجَنّة لأنهم مُلوك الآخِرَة.

فإن قيل: كيف أفرد تعالى الجَنّةَ بعد التثنية فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ [١٨/ ٣٥]؟

قلنا: أفردَها ليدلّ على الحصر، معناه: ودخل ما هو جَنّته لا جَنّةَ له غيرها ولا نَصيبَ له في الجنّة التي وُعِدَ المتقون، بل ملكه في الدُّنيا هو جَنّته لا غير؛ ولم يقصد جنَةً معيّنة فيهما بل جِنس(١٤) ما كان له.

فإن قيل: كيف قال الأخُ المؤمن لأخيه: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ [١٨/ ٣٨] وهذا تعريض. فإنّ أخاه مشركٌ وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشّرك بل الكفر، وهو قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [١٨/ ٣٦]؟

---

(١٢) في تفسير القرطبي: ليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر؛ وإنّما هو وعيد وتهديد، أي: إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجَنّة.

(١٣) في (أ) للمعنى.

(١٤) في (ب): خير.

قلنا: إشراكُ أَخيه الذي عرَّض له به هو اعتقادهُ أن زكاءَ جنّته ونَماءَها بحوله وقُوّته؛ ولهذا قال له: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ﴾ [١٨/ ٣٩]؛ ولهذا قال هو أيضاً لمّا أَصْبَح: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيْهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيْ أَحَداً﴾ [١٨/ ٤٢]، اعْتَرف بالشِّرك.

فإن قيل: ما فائدة (أَنا) في قوله: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا﴾ [١٨/ ٣٩].

قلنا: (أنا) في مثل هذا الموضع يُفيد حصر الخَبر في المُخبر عنه. ومنه قوله تعالى(١٥): ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ وقوله(١٦): ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾ ونظائرُه كثيرة.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [١٨/ ٤٣] وكذلك كُلّ ما أَشبهه مما جاء في القرآن العزيز:

﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيكونوا لَهُمْ عِزّاً﴾(١٧).
﴿والَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾(١٨).
﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيْرٍ﴾(١٩).

كيف تحقيق معناه؟

قلنا: (دون) تُستعمل في كلام العرب بمعنى (غير) كقولهم: لفلانٍ مالٌ دون هذا، و: مِن دون هٰذا، أي غير هذا؛ ونظيرهُ قوله

---

(١٥) طه: ١٢/٢٠
(١٦) طه: ١٤/٢٠
(١٧) مريم: ٨١/١٩
(١٨) الزُّمر: ٣/٣٩
(١٩) التوبة: ١١٦/٩

تَعـالى(٢٠): ﴿وَلَهُـمْ أَعْمَالٌ مِن دُوْنِ ذٰلِكَ﴾ أي من غيره.

وتُستعـمل أيـضاً بمعنى (قـبل) كقـولهم: المدينةُ دونَ مكّـة أي قبلهـا. و: من دُونِه خَرْطُ القَتـاد(٢١)، و: لا أقـوم من مَجـلسي دُون أن تجـيء، و: لا أُفارقـك دون أن تُعـطيني حـقّي.

ومـا أَعـلم أنّهـا جـاءَت في القـرآن العـزيـز بمعنـى «قَبـل» بـل بمعنى «غَـير» فقط(٢٢).

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿هُنَـالِكَ الوَلَايَةُ للهِ الحَقِّ﴾ [١٨/٤٤] يعني في يـوم القيامة، أو في مقَـام الآخـرة، والولايـة: بـكسر الواو: السُّلطان والمُـلك وبفتـح الواو التَّوَلّي والنُّـصرة، وكـلّ ذلك لله تعـالى في الدُّنيـا والآخـرة، يُعِزّ مَن يّـشاء ويُـذلّ من يـشاء، ويَنْصُـرُ من يـشاء ويَخْذُل من يـشاء، يَتَوَلّـى مَن يـشاء بحـراسته وحِـفظه؛ فمـا فـائدة تخـصيص يـوم القيامة؟

قلنـا: فـائدته أَنَّ الدعاوى المَجَـازِيّـة كـثيرة في الدُّنيـا(٢٣)، ويـوم القيـامة تنقـطع كلهـا ويَسْلَمُ المُـلك لله تعـالى عن كُـلّ مُنـازع.

وقَد سَبق مثل هـذا السؤال في سورة الأنعـام في قـوله تعـالى: ﴿قولُه الحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ﴾.

فـإن قيل: كـيفَ قـال تعـالى: ﴿هُـوَ خَيرٌ ثَواباً وخَيْر عُقْباً﴾ [١٨/٤٤] أيّ عاقـبة وغير الله تعـالى لا يُثيب ليـكون الله تعـالى خـيراً منه ثَواباً؟

قلـنا: هٰـذا على الفَرض والتّقـدير؛ معنـاه: لو كـان غيرُه يُثيب لكـان

(٢٠) المؤمنـون: ٢٣/٦٣

(٢١) القتـاد: شجـر شـاكٍ (ذو شـوك) صـلب، يـصعب خَرْطُه (أخـذ ورقـه): فشوكـه مثـل الإبـر. وقـولهـم: «من دون ذلك خَرْطُ القتـاد» مَثَلٌ ذكـره في اللسان. (ق ت د).

(٢٢) رصد في معجم ألفاظ القرآن معاني (دون)؛ وأثبت في جُملتها معنى (قـبل). ومنه في سورة السَّجدة: ٣٢/٢١: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُوْنَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾.

(٢٣) من مثـل صـفة المـلك، والرَّحـمة، والرِّزق...

ثوابُه أفـضل ولكانَت طاعتَهُ أَحْمـدَ عاقـبةً وخـيراً من طاعـةِ غيره(٢٤).

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [١٨/٤٧] بـلفظ المـاضي ومـا قـبله مُـضارعـان وهـمـا قـوله تعـالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَـالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [١٨/٤٧] أيْ: لا شيءَ عليها(٢٥) يسترُهـا كمَا كـان في الدُّنيـا؟

قلنـا: للدّلالة عَلى أَن حـشَرهـم كـان قبل التَّسـيير وقـبلَ البُروز؛ لِيُعايِنُوا تـلكَ الأَهـوال والعَظـائم، كأنّـه قـال: وحَـشرناهُم قـبل ذلك.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿مَا لِهٰـذا الكِتَـابِ لا يُغَـادِرُ صَغِيْـرَةً ولا كَبِيْرَةً إلاّ أَحْصَاهَـا﴾ [١٨/٤٩] مع أنـه أخـبر أن الصّغائر تُكَفَّر باجْتِنَـاب الكَبَائر بقـوله تعـالى(٢٦): ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُـمْ سَيِّئاتِكُم﴾.

قلنا الآيـة الأولى في حَقّ الكافـرين بـدليل قـوله تعـالى: ﴿فَتَرى المُجْرِمِـيْنَ﴾ [١٨/٤٩] والمـراد بهـم هـنا: الكافـرون، كـذا قـاله مجـاهد، وقـال غيره: كـلّ مجـرم في القرآن فالمـراد به الكافـر، والآيـة الثـانـية المُـراد بهـا: المؤمنـون، لأنّ اجتِنَـاب الكبـائر لا يَكُونُ متحـقّقاً مـع وجـود الكـفر.

الثـاني: لو ثـبتَ أَنّ المـراد بالمجـرم مطلق المُذنـب، لـم يَـلزم التّناقض لجـواز أن يـكتب الصّغائـر ليشاهـدها العبدُ يـوم القيامة، ثـم تكفّر عنه، فيعـلم قدرَ نِعمـة العَفـو؛ فـإن أكثـر ذنوب العبد يَنساها، خـصوصاً الصَّغائر.

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿إلاَّ إبْلِيْسَ كَـانَ مِنَ الجِنِّ﴾ [١٨/٥٠] يـدلُّ على أنـه من الجِنّ، وقـوله تعـالى في موضع آخـر(٢٧):

(٢٤) في (أ) هنـا: بَلغ مقابـلةً.
(٢٥) في (ب): لا شيءَ فيهـا.
(٢٦) النسـاء: ٤/٣١
(٢٧) وردت في الآيـة ٣٤ من سورة البقـرة، والآية ٦١ من سورة الإسـراء.

﴿وَإِذْ قُلْنَا للمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيْسَ﴾.

يَدُلّ على أَنّه مِنَ المَلَائكة، فكيف الجمعُ بينهما؟

قلنا: فيه قولان:

أحدهما: أنه من الجنّ حقيقةً؛ عملاً بظاهر هذه الآية، ولأن له ذريّةً، قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَخِذُونَه وَذُرِّيته أَوْلِيَاءَ مِن دُوْنِي﴾ [١٨/ ٥٠]. والملائكة لا ذريّة لهم. ولأنّه أكفرُ الكفرة، وأفسقُ الفسقة؛ والملائكة معصومون عن الكبائر؛ لأنّهم رُسل الله، وعن المَعاصي مطلقاً؛ لأنهم عقول مجرّدةٌ بغير شهوة؛ ولا معصية إلا عن شهوة. ويؤيّده قَوْلُه تعالى(٢٨): ﴿لَا يَعْصُوْنَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾. وقال تعالى(٢٩): ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُوْنَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لَا يَفْتُرُوْنَ﴾ فكيف يكون إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع؟! فعلى هذا يكون استثناؤه من الملائكة استثناءً من غير الجنس، أو يكون استثناءً من جِنس المأمورين بالسجود لا من جِنس الملائكة؛ ويكون التقدير: وإذْ قلنا للملائكةِ وإبليسَ: اسجُدوا لآدم؛ فسجدوا إلاّ إبليس. كما تقول: أمرتُ إخوتي وعبدي بكذا فأطاعوني إلا عبدي، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلاً فيهم إلاّ من حيث شَملهم الأمر بالفِعل معهم، فهذا كذلك.

القول الثاني: أنّه كان من الملائكة قبل أن يعصِيَ الله، فلمّا عصاه

---

(٢٨) التحريم: ٦٦/ ٦

(٢٩) في سورة الأنبياء ٢١/ ١٩ - ٢٠: ﴿وَلَهُ مَنْ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَته وَلَا يَسْتَحْسِرُوْنَ. يُسَبِّحُوْنَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لَا يَفْتُرُوْنَ﴾.

- وقوله تعالى: ﴿لا يستحسرون﴾ أي لا يكلّون ولا يتعبون؛ مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب.

- وقوله تعالى: ﴿لا يفترون﴾ أي لا يسكنون عن نشاطهم في تنزيه الله تعالى وتعظيمه وطاعته، فذلك سجيّةٌ فيهم.

مسخَه شيطاناً. رُوي ذلك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. فيكون معنى قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾ [١٨/ ٥٠] بمخالفته، فيكون (كان) بمعنى: صار.

وقيل: معناه: كانَ من الجِنّ في سابق علم الله تعالى.

وهذان القولان يدلّان على أنّه كان من الملائكة قبل المَعصية.

ورُوي عنه أيضاً أَنه كان من خُزّان الجنة؛ وهم جماعة من الملائكة يسمّون الجن، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿مِنَ الجِنِّ﴾ [١٨/ ٥٠] أي: من المَلائكة الذين هم خُزّان الجنة، ففسقَ عن أُمر ربّه بمخالفته. فيكون استثناءً من الجنس.

وقال: الزمخشري في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إلّا إبلِيْسَ﴾ [١٨/ ٥٠] هو استثناءٌ متّصل؛ لأنه كان جِنّياً واحداً بينَ أَظْهُر الأُلوف من الملائكة مغموراً بهم فَغُلِّبُوا علَيه في قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾.

قلت: وفي هذا التّعليل نظر. ثم قال: بعده: ويجوز أن يُجْعَلَ مُنقَطِعاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُوْنَه وذُرِيَّتَه أَوْلِيَاء مِنْ دُوْنِي﴾ [١٨/ ٥٠] والأَولياء: الأَصدقاء والأحباب، وهم ضِدّ الأَعداء. ويؤيده قوله تعالى(٣٠): ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

وليس من الناس أحد يحبّ إبليس وذريّته ويُصادِقُهم؟

قلنا: المُراد بالموالاة هنا: إجابة النّاس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي، ويوسوسون في صُدورهم، وطاعتهم إياهم بالمُوَالاة مجازٌ عن هذه الآية.

---

(٣٠) الكهف: ١٨/ ٥٠

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَيَوْمَ يَقُوْلُ نَادُوْا شُرَكَائِيَ الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَهُمْ﴾ [١٨/٥٢]: أي فلم تُجِب الأصنامُ المشركين فنفى عن الأصنام النُّطق؟ وقال الله تعالى في سورة النَّحل[٣١] ﴿وإذا رَأَى الَّذين أَشركوا شُركاءَهم قَالوا: ربَّنا هٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِيْنَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُوْنِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾. يعني فكذَّبتهم الأصنام فيما قالوا فأثبت لهم النطق، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى هنا: نادوا شُركائي الذين زعمتم: أي نادوهم للشّفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم. فدعوهم فلم يُجيبوا لذلك فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشَّفاعة ودَفع العذاب، وفي سورة النَّحل: أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين في دَعوى عبادتهم؛ فلا تَناقُضَ بين المنفيّ والمُثبت.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا ﴿شُركائي﴾ [١٨/٥٢]. وقال[٣٢]: ﴿شُرَكَاءَهم﴾؟

قلنا: قوله تعالى شركائي معناه. في زَعمكم واعتقادكم، ولهذا قال: «شركائي الَّذين زعمتم» أو أخرجه مخرج التهكّم بهم. كما قالَ المُشركون للنبي عليه الصلاة والسلام[٣٣]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُوْنٌ﴾. وقوله تعالى شركاءهم: يعني آلهتهم التي جَعلوها شركاء. فأضافها إلى الله تعالى لجعلهم إيّاها شركاء له. وأضافها إليهم لجعلهم إيّاها شركاء، والإضافة تصح بأدنى مُلابسة لفظيّة ومعنوية، فصحّت الإضافات.

---

(٣١) النحل: ١٦/٨٦

(٣٢) النحل: ١٦/٨٦

(٣٣) الحجر: ١٥/٦

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿نَسِيَا حُوْتَهُمَا﴾ [٦١/١٨]. والنّاسي إنما يوشع وحده بدليل قوله لموسى عليه السلام معتذراً: ﴿فَإنِّي نسيتُ الحوتَ﴾ [٦٣/١٨]. أي قصة الحوت وخبره: ﴿وَما أنسانِيهِ إلاّ الشَّيطانُ أن أذكره﴾ [٦٣/١٨].

قلنا: أُضيف النسيان إليهما مجازاً، والمراد: أحدهما.

قال الفراء: نظيره قوله تعالى(٣٤): ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللّؤلُؤُ والمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من البحر المِلح لا من العَذْب.

وقيل: نَسِي موسى عليه السلام تفقّد الحوت ونسي يُوشع أن يخبره خبره؛ وذلك أنه كان حوتاً مملوحاً في مِكْتَلٍ(٣٥) قد تزَوّداه فلمّا أصابه من ماء عين الحَياة رشاش حَيي وانْسَلَّ من المِكتل وسلك في البحر، ويوشع يراه، وكان موسى قد ذهب لقضاء حاجته. فعزَم يوشع أن يُخبره بما رأى من أمر الحوت، فلمّا جاء موسى. نسي أن يُخبره، ونسيَ موسى تفقّد الحوت والسؤال عنه.

فإن قيل: هذا التّفسير يدل على أن النِّسيان من يوشع أو منهما كان بعد حَياة الحوت وذهابه في البحر، وظاهر الآية يدلُّ على أنّ النسيان كان سابقاً على ذهابه في البحر متصلاً ببلوغ مجمع البحرين لقوله تعالى: ﴿فَلَمّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوْتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيْلَهُ في البَحْرِ سَرَبا﴾ [٦١/١٨].

قلنا: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ تقديره: فلمّا بلغَا مجمعَ بينهما اتّخذ سبيله في البحر سَرباً فنَسِيا حوتهما.

(٣٤) الرحمن: ٢٢/٥٥
(٣٥) المِكْتَلُ: وعاء، وهو في اللسان: الزَّبِيْلُ الذي يُحْمَلُ فيه التّمر أو العنب إلى الجَرين. أو هو شبه الزَّبيل يسع خمسة عشر صاعاً.

فإن قيل: كيف ينسى يوشع مثل هذه الأُعجوبة العظيمة في مدّة يسيرة بل في لحظة، واستمرّ به النسيان يومه ذلك وليله إلى وقتِ الغَد من اليوم الثاني؛ ومثل ذلك لا يُنسَىٰ مع تَطاوُل الزمان؟؛ كيف وقد كان الله جَعَل فقدان الحوت علامةً لهما على وجدان الخضر عليه السلام، على ما نُقل أن موسى سأل الله تعالى علامةً على موضع وجدانه؛ فأُوحى إليه أَنْ خُذْ معكَ حُوتاً في مِكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ؟

قلنا: سببُ نِسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المُعجزات من موسى عليه السَّلام واستأنسَ بها فكان إلفُه لمثلها من خَوارق العاداتِ سَبباً لقلّة اهتمامه بتلك الأُعجوبة وعدم اكتراثهِ لها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها﴾ [١٨/٧١] بغير فاء، وفي قوله: ﴿حَتى إذا لقيا غلاماً فقَتَلَهُ﴾ [١٨/٧٤] بالفاء؟

قلنا: جعل حذفها جزاءً للشرط فلم يحتج إلى الفاء، كقولك: «إذا ركب زيد الفرس عقره» وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء؛ قال: أَقتلت؟ كقولك: إذا ركب زيد الفَرس فعقره؛ فقال له صاحبه: أعقرته؟

فإن قيل: فكيف خُولف بين القَضيّتين؟

قلنا: لأنّ خرقَ السفينةِ لم يتعقب الركوب وقتلُ الغلام تعقب لقاءَه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصّة الغُلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ [١٨/٧٤]، وفي قصّة السَّفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ [١٨/٧١]؟

قلنا: قيل: «إمراً» معناه: منكرا، فعلى هذا لا فَرْق في المَعنى؛ لأنّ

النُّكر والمُنكر بمعنى واحد.

وقيل: الإِمْرُ العجب أو الداهية. وخرق السفينة كان أعظم مِن قتل نفسٍ واحدة؛ لأنّ في الأول إِهْلَاكَ[٣٦] كثيرين.

وقيل: النّكر أعظم من الإمر، فمعناه: جئت شيئاً أنكر من الأوّل؛ لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا يُمكن تداركه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة السَّفينة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ [١٨/ ٧٢] وفي قصة الغلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ [١٨/ ٧٥]؟

قلنا: لقصد زيادة المُواجهة بالعتاب على رفض الوصيّة مرة ثانية، وللتّنبيه على تكرر ترك الصّبر والثّبات.

فإن قيل: ما فائدةُ إعادة ذكر الأهل في قوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ [١٨/ ٧٧] وهَلّا قال: استطعماهُم لأنّه قد سَبق ذكرُ الأهلِ مرةً؟

قلنا: فائدةُ إعادته التوكيد لا غير.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يُرِيْدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [١٨/ ٧٧] نسب الإرادة إلى الجَماد، وهي من صفات مَن يعقل؟

قلنا: هذا مجازٌ بطريق المُشَابهة، لأنّ الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض والسُّقوط شابَهَ من يعقل ويريد في تهيّئه للسُّقوط، فظهرت منه هيئة السّقوط كما يظهر ممّن يعقل ويُريد. فنسبت إليه الإرادة مجازاً بطريق المُشَابهة في الصورة. وقد أضافت العرب أفعال العُقّلاء إلى ما لا يعقل مجازاً[٣٧].

---

(٣٦) في (ب) هلاك كثيرين.

(٣٧) قال القرطبي في تفسير الآية الكريمة: «يريد أن ينقض» أي قَرُب أن يسقط، وهذا مجازٌ وتوسّع؛ وقد =

قـال الشاعر[٣٨]:

يـريدُ الرمـح صـدرَ أَبـي بَراءٍ ويعـدِل عَنْ دمـاءِ بَني عقيـل

وقـالَ حـسَّـان[٣٩]:

إنَّ دهـراً يَلُفّ شَـملي بِجُمْـلٍ لـزمـانٌ يَـهُـمُّ بـالإحـسـانِ!

ومن أَمثـالهم[٤٠]: تَمَرّد مـاردُ، وعَزّ الأَبْلَق.

ومنـه قـوله تعـالى[٤١]: ﴿وَلَمَّـا سَكَتَ عَنْ مُوْسَىٰ الغَضَبُ﴾.

وقـوله[٤٢]: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْـرُ﴾.

وقـوله[٤٣]: ﴿قَـالَتَـا أَتَيْنَا طَائِعِيْنَ﴾؛ ونظائـره كـثيرة.

فـإن قيل: لأيّ سببٍ لم يـفارقه الخـضر عليه الصّلاة والسـلام عند الاعتـراض الأَوّل والثّـاني وفـارقَ عند الثّـالث؟

قلنـا: لوجهـين: **أَحـدهما**: أن موسى عليه السلام شـرط على الخـضر تركـه مصاحـبته على تقدير وُجـود الاعتراض الثالث وقـد وجـد فكان راضياً به.

الثـاني: أنّ اعتراض مُوسى في المّـرة الأُولى والثانية كـان تورّعاً وصلابةً في الدّين، واعتـراضه في المـرة الثالثة كـان لهـوى نفسه وشـوةِ بـطنهِ؛ فأعقـبه هـواه هـوانـاً!

= فسّره في الحـديث بقوله: «مائله» فكـان فيه دليل على وجـود المجـاز في القُرآن؛ وهـو مذهبُ الجمهور. وجـميع الأفعـال التي حقُّها أن تكون للحيّ الناطق متى أُسنـدت إلى جـمادٍ أو بهيـمة فـإنّمـا هي استعارة.. وهـذا في كـلام العرب وأشعارهـم كثير.

(٣٨) من شواهـد المفسّرين؛ وهـو في القرطبي: ١١/٢٦

(٣٩) البيـت في ديوان حـسّان (١: ٥١٧).

(٤٠) جمهـرة الأمـثال (١: ٢٥٧).

(٤١) الأعـراف: ٧/١٥٤

(٤٢) محـمد: ٤٧/٢١

(٤٣) فصّـلت: ٤١/١١

فإن قيل: قوله: ﴿فأَردتُ أن أَعِيْبَهَا﴾ [٧٩/١٨] علّته خوف الغَضْب، فكان حقّه أن يتأخر عن علّته فلم قدّم عليها؟

قلنا: هو متأخّر عنه لأن علّة تَعْيِيبها، أو علّة إرادته تَعْيِيبها: خوفُ الغَصْب؛ وخوفُ الغصْب سابق؛ لأنّه الحاملُ للخضر عليه السلام على ما فَعله. وفي قراءة أُبيّ وعبد الله(٤٤): «كلَّ سفينةٍ صالحة» ولا بدّ من إضمار هذه الزيادة على قراءة الجمهور: وإلّا لم يُفد الخوف(٤٥).

فإن قيل: الشمس في السّماء الرابعة وهي بقدر كُوّة الأرض مئة وستين مرة وقيل مئة وخمسين مرة، وقيل مئة وعشرين، فكيف تَسعها عين الأرض حتى أخبر الله تعالى عن أنّه وجدها تغرب في عين حمئة أو حامية على اختلاف القراءتين؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾ [٨٦/١٨] أي في زَعمه وظنّه كما يرى راكب البحر إذا لجَّ فيه وغابت عنه الأَطراف والسَّواحل، أنّ الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه. فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان من جهة الغرب فوجد عيناً حَمِئَةً واسعةً عظيمة فَظَنَّ أَن الشمس تغربُ فيها.

فإن قيل: ذو القرنين كان نبيّاً أو تَقيّاً حكيماً على اختلاف القَولين.

قلنا: الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصُومين عن ظَنّ الغلط والخطأ، وإن كانوا معصُومين عن كَبائر الذُّنوب.

ألا ترى إلى ظنّ موسى عليه السلام فيما أنكره على الخضر عليه السلام في القضايا الثّلاث وظنه أنه يرى الله تعالى في الدُّنيا وهو من كبائر

(٤٤) معجم القراءات القرآنية (٤: ٧).

(٤٥) في (أ) و(ب): لم يفد (بالياء التحتيّة) أي لم يفد الأَمْرُ الخوف.

(*) كذا في المخطوطتين. وانظر ما كتبه ابن حمير الأموي في: (تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء) ففيه أجوبة شافية (طبع بتحقيقنا في دار الفكر بدمشق).

الأنبياء(*). وكذلك يُونس عليه السلام على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله(٤٦): ﴿وَذَا النُّون إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وكان الواقع بخلاف ظنّه.

الثاني: أن الله تعالى قادرٌ على تصغيرِ جِرْمِ الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض بحيث تسع عينُ الماء عينَ الشمس. فلِمَ لا يجوزُ أن يكون قد وقَع ذلك ولم يُعلم به لقصور عِلمنا عن الإحاطة بذلك؟

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿يَا ذَا القَرنَين إِمّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِم حُسناً﴾ [١٨/٨٦].

يدلُّ على أنّه كان نبيّاً لأنّ الله تعالى خاطبه.

قلنا: من قال إنه ليس نبيّاً يقول: هذا الخطاب له كان بواسطة النبيّ الموجود في زمانه كما في قوله تعالى(٤٧): ﴿يَا بني إسرائيل﴾ وما أشبه ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا في حَقّ الكفار:

﴿فَلاَ نُقِيْمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾ [١٨/١٠٥]. أي فلا ننصب لهم ميزاناً لأنّ الميزان إنما يُنصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات، والكافِرُ لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى(٤٨): ﴿وَقَدِمْنَا إِلى ما عَمِلُوا فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾، وقال في موضع آخر(٤٩): ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، أي فمسكنه النار، فأثبت له ميزاناً.

قُلنا: معنى قولِهِ تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾ [١٨/١٠٥] أي لا يكون لهم عندنا قدرٌ ولا خَطر لِخسّتهم وحقارتهم ولو كان معناه ما

(٤٦) الأنبياء: ٢١/٨٧
(٤٧) البقرة: ٢/٤٠ (وغيرها).
(٤٨) الفرقان: ٢٥/٢٣
(٤٩) القارعة: ٨/٨ ـ ٩

ذكـرتم يـكون المـراد بـقوله تعـالى: ﴿وَأَمَّـا مَنْ خَفَّت موازينِـه. فأُمُّـهُ هَاويـة﴾ من غـلبت سيّئاتُه على حسناته مـن المؤمنين فـإنه يسكن في النـار ولكن لا يخـلد فيهـا بـل بقدر مـا تَتمحّـضُ عنـه ذُنوبه. فلا تَنافي بينهـما.

سورة مريم
عليها السَّلام

فإن قيل: النّداء: الصَّوت والصِّياح، قال: ناداه نِدَاءً أي: صاحَ به، فكيف وصفه تعالى بكونه ﴿خَفِيًّا﴾ [١٩/٣]؟

قلنا: النّداء هنا الدُّعاء؛ وإنّما أَخفاه؛ ليكون أقرب إلى الإخلاص، أو لئلا يلزم على طلب الولد بعد الشّيخوخة، أو لئلا يعاديه بنو عمّه ويقولوا: كره أن نقوم مقامه بعده، فسأل ربّه الولد.

كذلك **فإن قيل**: كيف قال تعالى: ﴿يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [١٩/٦] والنبي لا يورث لقوله عليه الصلاة والسلام[١]: «نحنُ - معاشرَ الأَنبياء - لا نُورث، ما تَرَكْنَاهُ صَدقة».

قلنا: المراد بقوله يرثني، أي يرثني العلم والنبوة، ويرث من آل يعقوب الملك، وقيل: الأخلاق، فأجاب الله تعالى إلى وراثة العلم والنبوة والأخلاق دون الملك، فالمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يورث المال» ويؤيّده قوله: «ما تَرَكْنَاهُ صدقة»[٢].

ويعقوب هنا أَبُو يوسف. وقيل لا بل هو أَخُو زكريّا. وقيل لا بل هو أَخو عِمران الذي هو أَبُو مريم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ من آلِ يَعْقُوبَ﴾ [١٩/٦] فعدّى الفعل في الأَوّل بنفسه، وفي الثّاني بحرف الجرّ، وهو واحد.

---

(١) وردَ في مسند الإمام أحمد (٢: ٤٦٣) بصيغة: «إنَّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركتُ بعدُ مؤونةُ عاملي ونفقة نسائي صَدَقة».

(٢) في الكشاف ٢: ٥٠٣ «المراد بالإرث إرث الشرع والعلم لأن الأنبياء لا تورث المال. وقيل يرثني الحبورة - وكان حَبْراً - ويرث من آل يعقوب المُلك».

قلنا: يقال وَرِثَهُ وَوَرِثَ مِنْه. فجمَع بين اللُّغتين. وقيل «من» هنا للتبعيض لا للتَّعدية؛ لأنّ آل يعقُوب لم يكونُوا كلّهم أنبياء ولا عُلَماء.

فإن قيل: كيف طلب الولد بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [١٩/٥] أي ولداً صالحاً، فلمّا بشّره الله تعالى به بقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾.. الآية [١٩/٧] استبَعد ذلك وتعجَّب منه وأنكره بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [١٩/٨] الآية.

قُلنا: لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد بل لِيُجَاب بما أُجيب به فيزدادَ المُوقنون إيقاناً ويرتدعَ المُبطلون. وإلّا فمعتقَد زكريّا أوّلاً وآخِراً كان على مِنهاج واحد في أنّ الله تعالى غنيٌّ عن الأسبابِ.

الثاني: أنّه قال ذلك تعجّبَ فَرحٍ وسُرور لا تعجبَّ إنكارٍ واستبعاد.

الثالث: قيل إنه قال ذلك استفهاماً عن الحالة التي يَهبه الله تعالى فيها الوَلدِ أيهبُه في حالةِ الشّيخوخة، أم يردُّه إلى حالةِ الشَّباب ثم يهبه؟ ولكن هذا الجواب لا يناسب ما أُجيب به زكريا عليه السلام بعد استفهامه.

فإن قيل: كيف طلب العلامة[٣] على وجود الولد بعد ما بشّره الله تعالى به، أكان بعده شَكّ بعد بشارة الله تعالى في وجوده حتى طلب العلامة؟

قلنا: إنما طلب العلامةَ على وُجُود الحمل ليبادر إلى الشّكر ويتعجّل السرور، فإن الحمل لا يظهر في أوّل العُلوق بل بعد مدّة، فأرادَ معرفته أول ما يُوجد، فجعل الله تعالى آيةَ وجودِ الحَمل عجزَهُ عن الكلام وهو سويّ الجَوارح ما به خَرَسٌ ولا بَكَم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحمن مِنْكَ إِن كُنْتَ

---

(٣) يشير إلى الآية العاشرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾.

تَقِيًّا﴾ [١٩/ ٨] وإنَّما يُتَعَوَّذُ من الفَاسِق لا من التَّقِي؟!

قلنا: معناه إن كنت ممّن يتقي الله ويَخشاه فستنتهي عَنّي بتعوُّذي بِهِ منك، فمعنى أُعُوذ: أحصل على ثَمرة التَّعَوُّذ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه كان في زمانها رجلٌ اسمُه تَقِيّ ولم يكنْ تَقِيّاً؛ بل كان فاجِراً فظنته إيّاهُ، فتعوذت منه، والقول الأَوّل هو الذي عليه المحقّقون. وقيل هو على المُبَالغة معناه إني أتعوّذ منك إن كنت تقيّاً. قالوا: ونظير هذا ماجاء في الخبر(٤): «نِعْمَ العَبْدُ صُهَيب لو لم يَخف الله لم يَعْصِه» معناه: أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عِصيان فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى؟ وفي قراءة أُبَيّ، وابن مسعود: إلاّ أن تكونَ تَقِيّاً.

فإن قيل: اتفق العلماء على أن الوَحي لم ينزل على امرأةٍ ولم يرسل جبريل عليه السلام برسالة إلى امرأة قط؛ ولهذا قالوا في قوله تعالى(٥): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ إنه كان وحي إلهام، وقيل: وحي مَنام؛ فكيف قال تعالى هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوْحَنَا﴾ [١٩/ ١٧] وقال: ﴿إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّك﴾ [١٩/ ١٩].

قلنا: لا نسلّم أَن الوحي لم ينزل على امرأةٍ قَطّ، فإنّ مُقاتلاً قال في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَينا إلى أُمّ موسى أَن أَرضعيه﴾ إنَّهُ كان وَحْياً بواسطة جِبريل عَليه السَّلام، وإنَّما المُتَّفق عليه بين العُلماء أَنّ جبريل عليه السلام لم ينزل بوحي الرّسالة على امرأة؛ لا بمطلق الوحي. وهنا لم ينزل على مَريم بوحي الرِّسالة بل بالبِشارة بالوَلَد؛ ولهذا جاءها على صُورة البشر فتَمَثّل لها بَشراً سَوِيّاً.

---

(٤) هو صُهيب الرّومي، الصحابيّ الجليل.

(٥) القصص: ٧/٢٨

فـإن قيل: ما وجْهُ قـراءة الجُمهـور[٦]: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [١٩/١٩] والواهـب الولد بواسطـة النّفخ في الرّوع فالإضـافة إليه بواسـطة السببية للولد هـو الله تعـالى لا جـبريل عليه السّلام؟

قلنـا: قـال ابن الأنباري ومعنـاه: إنّما أنـا رسول ربـك يـقول لـك أرسـلت رسـولي إليـك لأهـب لك. فـتكون حـكاية عن الله تعـالى لا مـن قَول جـبريل عليه السلام. فـيكون فعل الهَبَةِ مُسنـداً إلى الله تعـالى لا إلـيه.

الثـاني: أنّ معنـاه لأكـون سبباً في هِبَةِ الولد بواسـطة النّفخ في الرّوع فـالإضـافة إليه بواسطة السَّبَبية.

فـإن قيل: كيف قـالت ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ [١٩/٢٠] مع أنـه وصـف مؤنـث؟

قلنـا[٧]: قـال ابن الأنـباري: لمّـا كـان هـذا الوصـف غالباً على النّسـاء وقَلَّمـا تقـول العرب «رجـل بَغِيّ» لم يلحـقوا به علامة التّأنيث إجـراءً له مجـرى «حـائض» و«عاقر». وقـال الأزهـريّ: لا يُقـال رجـلٌ بَغِي بـل هو مُختصّ بالمؤنّـث ولام الكلمـة يـاء يـقال: بَغت تبغي. وهي فَعُول عند المُبرّد، أصلهـا: بَغُوْي قُلِبت الواو يـاء وأُدغمـت، وكُسِرت الغَين إتباعاً. فهـي كصَبُور وشـكور في عـدم دُخـول اليـاء.

وقـال ابنُ جِنّي في كتـابه: هي فَعِيل؛ ولو كـانت فعـولاً لقيل بَغُوّ، كـما قيل: هـو نَهُوٌّ عن المُنكـر، ثـم قيل هـي فَعِيل بمعنى فـاعل، فهـي كقـوله تعـالى[٨]: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ﴾. وقـال الأخـفش هـي مثل: ملحـفةٌ

---

(٦) وقـرأ ورش عن نـافع: «لِيَهبَ لَكِ» على معنى أرسلني الله ليهب لك. قـال القرطبي: ويحـتمل «ليهـب» بـلا هـمز أن يـكون بمعنى المهـموز، ثـم خُفِّفت الهـمزة.

(٧) يـراجع في ذلك تفسير البحـر المحـيط (٦: ١٨١).

(٨) الأعـراف: ٥٦/٧

جـديدٌ؛ فجعلهـا بمعنى فَعُول. وقيل إنّـما لم يـقل بَغِيّـة مُراعـاةً لبقيّة رُؤوس الآيـات.

فـإن قيل: مـا كان حُـزن مريم وقـولها: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰـذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ [١٩/٢٣] لفقد الطّعـام والشراب حـتى تسلّى بالسَّرِيّ والرُّطَبِ بـل كـان لخـوف أن يَتّهـمها أهلُهـا بِفعـل الفاحـشة.

قلنـا: كـان حُـزنهـا لمجـموع الأَمْرَيـن، وهـو ما ذكرتـم: وجـدت مكانها الّذي وَلدت فيه فإنّـه لم يـكن فيه طعامٌ ولا شـراب ولا مـاء تتطهّر بـه، فـكانَ إجـراءُ النّهـر في المـكان اليـابِس الـذي لم يُعهـد فيه مـاء وإخـراج الرُّطب من الشّجـرة اليابسة دافعاً لِجِهَتَي الحُـزن. أمّـا دافع الجَـدب فظاهـر وأمّـا دافع حـزن التهـمة فمن حـيث أنهـما مُعجـزتـان تدلاّن قومهـا على عِصمتهـا وبَرَاءتهـا (من السُّوء)(٩) وأنّ الله تعـالى قد خَصَّهـا بأمور إلَهـيّة خـارجة عن العَادة خـارقة لهـا. فتبين لهـم أنّ ولادتها من غير فَحـل ليس بِبدع من شأنها ولا بعيد في قُـدرة الله تعـالى المُخْرِج في لحـظةٍ واحـدةٍ للرُّطَبِ الجَنِيّ من النَّخـلة اليابسـة(١٠) والمُجـرِي للمـاء بغتةً في مكـان لم يُعهـد فيه.

فـإن قيل: كـيف أمرهـا جـبريل عليه السلام إذا رأت إنسـاناً أن تكلّمـه بعد النّـذر بالسّكوت، بـقوله: ﴿فإمّـا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَـداً﴾[١٩/٢٦] الآيـة وذلك خُلْفٌ في النَّـذر؟

قلنـا: إنـما أَمرهـا بـذلك لأنّـه تـمام نـذرهـا فـإنّهـا لم تـكن مأمورةً بنـذر مُـطلق السكوت حـتى لا يندرج فيه الكـف عن الذّكـر والتسبيح والدُّعـاء ونحـوهـا بـل بنذر السكوت عن تـكليم الإنـسي. وإذا كـان تـمام نذرهـا

(٩) «من السُّوء» عبارة من (أ) فـقط.
(١٠) من هنـا إلى آخـر العبارة من (ب) فقط.

بقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ اليومَ إنسِيّاً﴾ [١٩/٢٦] لا تكونُ مكلّمة للإنسي بعد تَمام النَّذر.

فإن قيل: كيف قالَ تعَالى: ﴿مَن كانَ في المهدِ صَبياً﴾ [١٩/٢٩]. وكُلّ أَحدٍ كانَ في المهدِ صَبِيّاً؟

قلنا: «كان» هنا زائدة، و«صبيّاً» منصوب على الحال لا على أنه خبر كان، تقديره: كيف نكلّم مَنْ فِي المهد في حال صباه، وقيل: «كانَ» بمعنى: وقع وَوُجِد، و«صبيّاً» منصوبٌ على الوجه الذي مرَّ.

فإن قيل: خطاب التّكليف في جميع الشَّرائع إنّما يكون بعد البلوغ أو بعد التَّمييز على فعل المأمور به، وعيسى عليه السلام كان رضيعاً في المهد، فكيف خُوطب بالصّلاة والزّكاة حتى قال: ﴿وَأَوْصَانِي بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ ما دُمْتُ حَيّاً﴾ [١٩/٣١]؟

قلنا: تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتّمييز. وعيسى عليه السلام كان واجداً للعقل والتّمييز التام في تلك الحالة فتوجّه نَحْوه الخطاب أن يفعلهما إذا قدر على ذلك؛ ولهذا قيل إنّه أُعطي النّبوة في صِباه أيضاً.

فإن قيل: الزّكاة إنما تجب على الأغنياء، وعيسى عليه السلام لم يزل فقيراً لابس الكساء مدّة مقامه في الأرض، وعلم الله تعالى ذلك من حاله فكيف أوصَاهُ بالزّكاة؟

قلنا: المُراد بالزكاة تزكيةُ النّفس وتطهيرُها من المعاصي، لا زكاة المال.

---

(١١) ﴿وَأَوْصَانِي بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ﴾ أي لأؤدّيها إذا أدركني التكليف، وأمكنني أداؤهما. ـ اختاره القرطبي، وقال إنه على القول الأخير الصحيح.

فإن قيل: كيف جاء «السَّلام» في قصة يحيى منكّراً، وفي قصة عيسى عليه السلام مُعَرّفاً؟

قلنا: قد قيل إن النكرة والمعرفة في مثل هذا سواء، لا فرق بينهما في المَعنى.

الثاني: أنه سبق ذكره في قصة يحيى عليه السلام مرّة؛ فلما أُعيد ذكره أُعيد مُعّرفاً كقوله تعالى[١٢]: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً، فعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ كأنّه قال: ذلك السلام الموجّه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجّه إليَّ.

فإن قيل: كيف تكون اللام والألف في السّلام للعهد، والأول سلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام، والثّاني سلامٌ من عيسى عليه السلام على نفسه؟

قلنا: التعريف راجع إلى ماهِيّة السَّلام ومواطنه لا إلى كَونه وارداً من عند الله تعالى.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿واذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيْمَ﴾ [١٩/٤١] وما أشبهه، ومثل هذا إنما يُستعمل إذا كان المأمور مختاراً في الذكر وعدمه كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتاباً: اذكُرني في الكِتاب، أو اذْكُر فلاناً في الكتاب. والنبيّ عليه الصلاة والسلام ما كان لَهُ سبيلٌ من الزّيادة أو النّقصان في الكتاب لِيوحي بمثل ذلك؟

قلنا: هذا على طريق التأكيد في الأمر بالإبلاغ كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فُصول الرّسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ.

فإن قيل: الاستغفار للكافر لا يجوز، فكيفَ وعَدَ إبراهيمُ عليه

(١٢) المزمّل: ١٦/٧٣

السلام أباه الاستغفارَ له بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [١٩/٤٧].

قلنا:) معناه سأسأل الله لك توبةً تَنالُ بها مغفرة، يعني الإسلام. والاستغفارُ للكافِر، بهذا الطّريق جائزٌ، وهوأن يُقال: اللَّهُمّ وَفِّقه للإسلام أو: اللهمّ تُبْ عَليه، واهْدِه، وأرشِدْهُ، وما أشبه ذلك.

الثاني: أنّه وعَده ذلك بناءً على أنّه سيستغفر له بعد الإسلام.

الثالث: أنه وعَده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافِر، فإنّ تحريم ذلك قضيةٌ شرعية إنّما تُعرف بالسَّمع، لا عقليّة! فإنّ العقل لا يَمنع من ذلك.

فإن قيل: الطّور وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال، فكيف قال تعالى: ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ [١٩/٥٢]؟

قلنا: خاطب الله تعالى العَرَب بما هو معروفٌ في استعمالهم، فإنّهم يقولون عن يَمين القِبلة وشمالها، يعنُون ما يلي يمين المُستقبل لها وشماله؛ لأنّ القبلةَ لا يَدَ لهَا ليكون لها يمين وشمال، وهذا اتّساعٌ منهم في الكلام لعدم اللَّبس. فالمرادُ بالأيمن هنا، ما عَن يمين موسى عليه السلام من الطُّور. ولأنّ النّداءَ جاءه من قِبَلِ يمينه، هذا إذا كَانَ الأيمن ضد الأيسر، من اليمين. وإن كان من اليُمن وهو البركة من قولهم: يَمن فلانٌ قومَه فهو يامِن، أي كانَ مباركاً عليهم، فلا إشكال، لأنّه يصيرُ معناه: من جانب الطور المُبَارك

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاه هَارُوْنَ نَبِيًّا﴾ [١٩/٥٣] وهارون كانَ أكبر من موسى عليه السلام فما مَعنى هبته له؟

قلنا: معناه أنّ الله تعالى أنْعَم على موسى عليه السَّلام بإجابته

دعـوته فيه حيثُ قـال(١٣): ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْراً مِنْ أَهْلِيْ هَارُوْنَ﴾ الآيـة؛ فقال(١٤): ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيْكَ﴾ فالمـراد بالهِبة جَعْلُه عضداً له ونـاصراً ومُعِينـاً. كـذا فسره ابنُ عبـاس رضي الله عنهمـا.

فـإن قيل: كـيف وصـف تعـالى النَّبِيّين المذكورين في قـوله تعـالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّين من ذُرِّيةِ آدَم﴾ الآيـة [١٩/٥٨] بـقوله: ﴿إِذَا تُتلَى عَلَيْهِم آياتُ الرَّحـمٰنِ خَرُّوا سُجَّـدا وَبُكـيًّا﴾ [١٩/٥٨]. والمـراد بآيـات الرحـمن القرآن، والقرآن لم يُتـل على أحـد من الأنـبياء المذكورين؟

قلنـا: آيـاتُ الرَّحـمن غير مخـصوصة بالقرآن، بـل كـل كتـابٍ أنزله الله تعالى ففيه آياته، ولو سلّمنا أن المراد بها القرآن، فنقول: إن المراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجْتَبَيْنَا﴾ [١٩/٥٨] محـمد ﷺ وأُمـته.

فـإن قيل: قوله تعـالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِـمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوفَ يَلْقَون غَيًّا * إِلاَّ مَن تَـابَ وَآمَنَ﴾ [١٩/٥٩]. يـدل على أن تـركَ الصلاة وإضاعتهـا كُفرٌ، لأنَّـه شرط في توبـة مضيعهـا الإيـمان.

قلنـا: قـال ابن عبـاس رضي الله عنهـما: المـراد بهؤلاء الخـلف هـنا: اليهـود، تركـوا الصلاة المفروضـة وشـربوا الخَمْرَ واستَحـلّوا نكـاح الأخـت من الأب.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿إِنَّـهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأتِيّاً﴾ [١٩/٦١] ولم يـقل: آتياً، كـما قـال:(١٥) ﴿إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لآتٍ﴾.

قلنـا: المـراد بوعـده هنا موعـده وهو الجـنة وهي مأتيّةٌ، يأتيهـا أولياؤه.

(١٣) طٰه: ٢٠/٣٠
(١٤) القصص: ٢٨/٣٥
(١٥) الأنعـام: ٦/١٣٤

الثـاني: أن «مَفْعـولاً» هـنا بمعنى «فـاعـل» كمـا في قـولـه تعـالى(١٦): ﴿حِجَـابَاً مَسْتُوراً﴾ أي سـاتراً.

فـإن قيل: قوله تعـالى: ﴿تِلْكَ الجَنَّـةُ الَّتي نُورِثُ مِن عِبَادِنَـا مَن كَانَ تَقِياً﴾ [١٩/٦٣] وقـولـه تعـالى(١٧): ﴿وَجَـنَّةٍ عَرْضُهـا السَّمٰـواتُ والأَرْضُ أُعِدَتْ للمُتَّقِيْنَ﴾؛ يـدل من حـيث المفهـوم أَنّ غيرَ المتّقين لا يدخـلون الجـنة؛

قلنـا: المـراد بالتَّقْوى هـنا، التّقـوى عن الشِّرك، وكـل المؤمنـين سواءٌ في ذلك.

فـإن قيل: مـا معنى «انفـطار السَّمٰـوات، وانشِقـاق الأَرض، وخُـرور الجـبال من دَعـوتهـم الولد للهِ تعـالى، ومن أَيـن تؤثّـر الكلمةُ في الجَمادات؟

قلنـا: إنّ الله تعـالى لعلّه قـال: كـدت أن أفعـل هـذا بالسموات والأرض والجـبال عند وُجـود هـذه الكـلـمة غضباً على قـائليها، لولا حِـلمي وإمهـالي و إنّـي لا أعجّـل بالعقوبة، كـما قـال عز وجـل(١٨): ﴿إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّموات والأَرض أَنْ تَزُولا﴾ يعني أن تخـر على المشركين، وتنشق الأرض بهـم، ويـدل على هـذا قـوله تعـالى في آخـر الآيـة(١٩): ﴿إِنَّـهُ كَانَ حَلِيْمَاً غَفُوراً﴾.

الثـاني: أن يـكون استِعـظاماً لقـبح هٰـذه الكلـمة وتصويراً لأثرهـا في الدِّين وهـدمها لأَركـانه وقواعـده، وإن مثـال ذلك الأَثـر في المحسُوسـات أن يـصيب هٰـذه الأجـسام العظيمة التي هـي قوام العـالم ما تنفطر منه وتنشق وتخـر.

---

(١٦) الإسراء: ١٧/٤٥
(١٧) آل عـمران: ٣/١٣٣
(١٨) فـاطر: ٣٥/٤١
(١٩) فـاطر: ٣٥/٤١

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا في صِفة الشّرك: ﴿تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾ [١٩/٩٠].

وهذا يَدُلُّ على قُوة كلمة الشّرك وشدّتها، وقال تعالى في سورة إبراهيم عليه السّلام في صِفة كلمة الشِّرك: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرةٍ خبيْثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَها مِنْ قَرَارٍ﴾ والمُرَادُ بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما أو بالشجّرة الخبيثة شجرة الحَنظل. كذا قالَهُ رَسُول الله ﷺ، وهذا يَدُلّ على ضعفِ كلمة الشّرك وتَلاشيها واضمحلالها فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: وُصِفت كلمة الشّرك في سورة إبراهيم عليه السلام بالضَّعف وهنا بالقُبح، فهي في غايةِ الضّعف وفي غاية القُبح والفَظاعة فلا تنافِيَ بينهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُم﴾ [١٩/٩٤]؟ والإحصاء: العدد على ما نَقله الجَوهريّ أو الحصر على ما نقله بعضُ أئمّة التفسير كما سَبق ذِكرُه في سورة إبراهيم عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوها﴾ فإن كان الإحصاءُ العَدَّ فهو تكرار؛ وإن كان الحصر فَذِكْرُهُ مُغنٍ عن ذِكر العَدّ لأنَّ الحَصْرَ لا يَكونُ إلا بعد معرفة [٩٤/ب].

قلنا: الإحصاء قد جاء بمعنى العِلم أيضاً، ومنه قولهُ تعالى(٢٢): ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً﴾ أي: علم عَدد كُلّ شيء.

---

(٢٠) إبراهيم: ٢٦/١٤

(٢١) إبراهيم: ٣٤/١٤

(٢٢) الجن: ٢٨/٧٢

وقـول الشاعـر:[٢٣]

وكُـن لِلَّذي لم تحـصِه متعـلّماً وأَمّـا الـذي أحـصيتَ منـه فعَلِّمِ

وهـو المـراد هـنا؛ فـيصير المعنى: لقد علمهـم؛ أي: عـلم أفعـالهـم وأقـوالهـم، وكُلّ ما يتعلَّق بذواتهـم وصفاتهـم وعدهـم.

فـلا تـكرار ولا استغنـاء عن ذِكـر العَدّ.

(٢٣) أي كن إمّا معلّماً (لما تُتقن) أو متعلّماً (لما لا تعرف).

سُورَةُ طه
عَلَيْهِ السلام

فإن قيل: كيفَ حكى الله تعالى قول مُوسى عليه السلام لأهله عند رُؤية النار في هذه السُّورة، وفي سورة النمل، وفي سورة القصص، بعبارات مُختلفة؛ وهذه القضيّة لم تَقع إلا مرّةً واحدة. فكيفَ اختلفَت عباراتُ مُوسى عليه السَّلام؟

قلنا: قد سبق في سورة الأعراف[1] في قصّة مُوسى عليه السلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور ثَمَّ هو الجوابُ هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [٢٠/١٦] ظاهرُ نهيِ اللفظ: نهيُ من لا يُؤمن بالسَّاعة عن صَدِّ موسى عليه السلام عن الإيمان بها؛ والمقصودُ هو نهيُ موسى عن التكذيب بها. فكيف تنزيله؟

قلنا: معناه كُن شديد الشّكيمة في الدِّين، صليبَ المَعْجَم[2] لئلا يطمع في صَدّك عن الإيمان بها مَن لا يؤمن بها. وهذا كقولهم: «لا رأيتُك هنا»؛ معناه: لا تَدْنُ مني، ولا تقرب من حضرتي لئلا أَراك، ففي الصُّورتين: النَّهيُ متوجّهٌ إلى السَّبب، والمرادُ به: النَّهي عن السّبب؛ وهو القرب منه والجلوس بحضرته، فإنه سبَب رؤيته؛ وكذلك لين موسى عليه السلام في الدّين وسلاسة قيادهِ سببٌ لصدّهم إياه.

فإن قيل: ما فائدة السؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا

---

(١) يراجع تفسير المؤلف رحمه الله لسورة الأعراف.
ـ والإشارة هنا إلى الآية (١٠) من سورة طه: ﴿... فقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً...﴾.

(٢) إذا عُجِم (اختُبر) وُجِد صليباً (قويّاً شديداً).

مُوسَىٰ﴾ [٢٠/١٧] وهو أعلم بما في يده جملة وتفصيلاً؟

قلنا: فائدته: تأنيسُه وتخفيفُ ما حصلَ عندَه من دَهشة الخطاب وهيبة الجَلال وقت التكلم معه، كما يرى أَحدنا طفلاً قد داخلَتْه هيبة وإجلال وخوف، وفي يده فاكهة أو غيرها فيلاطفه أو يُؤانسه بقوله: ما هذا في يدك؟ مع أَنّه عالم به.

الثاني: أنه أرادَ بذلك أَن يُقرّ موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخاً في قلبه، فلا يحوم حوله شكّ إذا قلبها ثعباناً أَنها كانت عصا ثم انقلبت ثُعباناً بقدرة الله تعالى، وأن يتقرّر في نفسه المُباينة البعيدة بين المقلوب عنده والمقلوب إليه فيثبته على القدرة الباهرة.

ونظيرُه أَن يريك الزّرّاد زُبْرَةً[٣] من حديد ويقول لك ما هٰذه؟ فتقول زُبْرَة من حديد، ثم يريك بعد أيّام درعاً سابغةً مسرودة ويقول: هذه هي تلك الزُّبرة صَيّرتُها إلى ما تراه من عجيبِ الصَّنعة وأنيق السَّرْد!

فإن قيل: كيف زاد موسى عليه السلام على حرف الجواب وليس ذلك من سِيمة البلغاء خصوصاً في مُخاطَبة المُلوك؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّهُ لما قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [٢٠/١٨] سُئل سؤالاً ثانياً، فقيل: ما تَصْنَعُ بها؟ فأجاب: بباقي الآية.

الثاني: أنه إنما عَدَّد فوائدها وبيَّن حاجته إليها خوفاً من أن يؤمر بإلقائها كما أُمِرَ بإلقاء النَّعلين.

الثالث: أنّه ذكر ذلك لئلاّ يُنسَب إلى العَبَث في حَمْلها.

---

(٣) الزُّبرة: القطعة من الحديد.
ـ والزرّاد الذي يصنع الزرد، ويسردُ الدُّروع.

فـإن قيل: قد نُـقل أنهـا كانت تضيء له بالليل، وتدفع عنه الهـوامّ وتُثـمر له إذا اشْتَهَى الثّمار بِغَرْسِهَـا في الأرض من ساعتهـا، ويركـزهـا فينبع المـاءُ من مَركـزهـا فـإذا رفعهـا نـضب، وكـان يستقي بهـا فتطولُ بـطول البـئر وتقصرُ بـقِصرِهـا. فهـلاّ عَدّد هٰـذه المنافع؟

قلنـا: كـرِه أن يشتغل عن سَـماع كـلام الله تعـالى بتفصيل منافعهـا ففصّل البعض وأجـمل الباقي بقـوله: ﴿وَلِيَ فِيْهَـا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [٢٠/١٨] والله أعـلم بـما أجـمله.

الثاني: أنّه ذكر المنَافع التي هي ألزم له، وحاجته إليها أمسّ، وإن كانت المنافع التي أجملها أَعجب وأغرب.

فـإن قيل: قـد ذكـر الله تعـالى عَصَا مُوسى عليه السّلام بـلفظ الحـيّة العظيمـة والثُّعبـان والجـانّ، وبين الثعبان والجـان تنافٍ، لأن الجـان: الحـيّة الصغيرة، كـذا قـاله ابنُ عَرفـة، والثّعبان: الحـية العظيمة كـذا نقلَه الأزهـريّ عن الزجّـاج وقُـطرب.

قلنـا: أراد بهـا في صُورة الثعبـان العظيم وخِـفّة الحـية الصغيرة وحـركتها: ولهـذا قـال[٤]: ﴿فَلَمَّـا رآهـا تَهْتَزَ كأَنَّهـا جَانٌّ...﴾ الآيـة.

الثـاني: أنّهـا كانت في أوّل انقلابهـا تنقلب حـيّة صغيرةً صـفراء رقيقة ثم تتورّم ويتزايـد حَجْمُهـا حـتى تصير ثعباناً. فأراد بالجـان أوّل حـالها، وبالثعـبان مَآلهـا.

فـإن قيل: مـا فائدة قـوله تعـالى: ﴿إِذْ أَوْحَـيْنَا إِلى أُمِّـك ما يُوْحَـىٰ﴾ [٢٠/٣٨] وهـذا لا بيـان فيه؟

---

(٤) النّـمل: ٢٧/١٠

قلنـا: فـائدته الإشارة إلى أنـه ليس كـلّ الأمـور مِمّـا يوحـى إلى النسـاء كالنبوة ونَحْـوهـا، بـل بعضهـا.

الثـاني: أنـه للتأكيد، كقـوله تعـالى(٥): ﴿فَغَشَّاهَا ما غَشَّى﴾ فكأنـه قـال: إذا أَوْحَيْنَا إلى أُمّـك إيحـاءً.

الثـالث: أنـه أبهـمه أَوّلاً للتفخيم والتعظيـم ثم بَيّنه وأوضحـه بـقوله تعـالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيْهِ﴾. . . الآيـة [٢٠/٣٩].

فـإن قيل: كـيف قدّم هـارون على موسى في قـوله تعـالى: ﴿فأُلقِيَ السَّحَرةُ سُجَّـداً قَالُوا آمنَّـا بِرَبِّ هَارُوْنَ وَمُوْسَى﴾ [٢٠/٧٠] وَهَـارون كـان وزيراً لموسى عليه السَّلام وتَبعـاً له، قـال الله تعـالى(٦): ﴿وَجَعَلْنَـا مَعَهُ أَخَـاهُ هَارُوْنَ وَزِيْراً﴾.

قلنـا: إنّـما قـدمه لـيقع موسى مؤخّـراً في اللفظ فتتناسب الفَواصـل أعنـي رُؤوس الآيـات.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿لاَ يَمُوْتُ فِيْهَـا وَلاَ يَحْيَا﴾ [٢٠/٨٤] والمَوتُ والحَـياةُ في صِـفات الإنسان نَقِيضان، فـكيف يرتفعـان؟(*)

قلنـا: المـراد لا يـموتُ فيهـا موتاً يستـريح به، ولا يـحيا حـياةً تنفعه ويستلذّ بهـا!

الثـاني: إن المُـراد لا يَمُوت فيهـا موتاً متّـصلاً، ولا يحيـا حـياةً متّـصلة بـل كلّمـا مـاتَ من شِدّة العَـذاب أُعيدَ حَيًّا ليـذوق العَذّاب، هـكذا سبعـين مـرّة في مقـدار كـلّ يوم من أَيّـام الدُّنيـا.

---

(٥) النّجـم: ٥٣/٥٤

(٦) الفرقـان: ٢٥/٣٥

(*) أي هما نقيضان، وهذا يقتضي أن يرتفع أحدهما بثبوت الآخر، فكيف يرتفعان معاً؟

فإن قيل: الخوفُ والدهشة واحدٌ في اللّغة، فكيف قال تعالى: ﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [٢٠/٧٧].

قلنا: معناه: لاتَخاف درَكاً: أي لحاقاً من فرعون، ولا تخشى غَرقاً في البَحر، كما تقول: لاتَخاف زيداً ولا تَخاف عَمْراً، ولو قُلت: ولا عَمراً، صحَّ وكان أوجَز. ولكن إذا أَعدت الفِعْلَ كان آكد.

وأمّا في الآية فلمّا لم يكن مفعول الخَشية مذكوراً ذكر الفعل ثانياً ليكون دليلاً عليه، وخُولِفَ بينَ اللّفظين رعايةً للبلاغة.

وقيل: معناه: لا تخاف دركاً على نفسِك ولا تخشى دركاً على قومك. والأوّل عندي أحسن.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ [٢٠/٧٩] مُغنٍ عن قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ [٢٠/٧٩] ومُفيد فوق فائدته فكيف ذكر معه؟

قلنا: معناه: وما هداهم بعدما أضلهم، فإن المضل قد يهدي بعد إضلاله.

الثاني: أن معناه: وأضلّ فرعون قومه وما هدى نفسه.

الثالث: أن معناه: وأضلّ فرعون قومه عن الدِّين وما هداهم طريقاً في البحر.

الرابع: أن قوله «وما هدى» تهكّمٌ به في قوله لقومه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُم إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

فإن قيل: كيف قال تَعالى: ﴿يَا بَنِي إِسرائيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِن عَدوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكم جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ [٢٠/٨٠] أضاف المُواعدة إليهم، والمُواعدة

(٧) غافر: ٤٠/٢٩

إنما كانت لموسى عليه السَّلام، واعَده الله تعالى جانبَ الطّور الأيمن لإتيانه التَّوراة.

قلنا: المواعدة وإن كانت لموسى عليه السلام، ولكنّها لمّا كانت لإنزال كتاب بسبب بني إسرائيل وفيه بيانُ شريعتهم وأحكامهم وصلاحُ مَعاشهم ومَعادهم، أُضيفت المُوَاعدة إليهم بهذه المُلاَبَسة والاتّصال.

فإن قيل: قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَومِكَ يَا مُوْسىٰ﴾ [٢٠/٨٣] سؤال عن سبب العَجَلة، فإنّ موسى عليه السلام لمّا واعده الله تعالى إنزال التوراة عليه في جانب الطور الأيمن وأراد الخروجَ إلى ميعاد ربِّه اختار من قومه سَبعين رجلاً يصحبونه إلى ذلك المكان، ثم سبقهم شوقاً إلى ربّه وأمرهم بلحاقه؛ فعُوتبَ على ذلك. وكان الجواب المطابق أن يقول: طلب زيادة رضاك، أو الشّوق إلى لقائك ونجز وعدك. فكيف قدّم ما لا يُطابق السّؤال وهو قوله: ﴿هُمْ أُوْلآءِ عَلَى أَثَرِي﴾ [٢٠/٨٤]؟

قلنا: ما واَجَهَهُ به ربّه تضمن شيئين: إنكار العَجلة في نفسها والسّؤال عن سببها. فبدأ موسى عليه السلام بالاعتذارِ عمّا أنكره عليه بأنه لم يُوجد منه إلا تقدّم يسيرٌ لا يُعتدّ به في العادة كما يتقدّم المُقَدَّمُ جماعته وأتباعه، ثم عقّب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضىٰ﴾ [٢٠/٨٤].

فإن قيل: أليس أئمّة اللّغة قالُوا: العِوَجُ؛ بالكَسر؛ في المَعاني، وبالفتح(٨) في الأَعيان، ولهذا قال ثَعلب: وتقول: في الأَمر والدِّين عِوَج وفي العصا ونحوها: عَوج، والجبال والأرض عَيْنٌ، فكيف صَحّ الكسْرُ في قوله تعالى: ﴿لاَ تَرَى فِيْهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ [٢٠/١٠٧]؟

---

(٨) يعني العَوَج هنا.

قلنا: قال ابنُ السّكيت: كلُّ ما كانَ ينتصبُ كالحائط والعُود قيل فيه عَوَج بالفَتح، والعِوَجُ ما كان في أَرض، أو زمن، أَو معاش، فعَلى هذا لا إشكال.

الثاني: أنّه أرادَ به نَفيَ الاعوجاج الذي يُدرَك بالقياس الهندسي ولا يدرك بحاسّة البصر، وذلك اعوجاج لاحقٌ بالمعاني؛ فلذلك قال فيه «عِوَج» بالكسر.

وممّا يُوضح هٰذا أنَّك لو سَوّيت قطعة أرض غاية التّسوية بمقتضى نظرِ العَين بموافقة جَماعة من البُصَراء واتّفقتم على أنّه لم يبق فيها اعوجاج قطّ ثم أمرت المهندسين أَنْ يَعتبروها بالمقاييس الهندسية، لوجدوا فيها عوجاً في غيرِ موضع، ولكنّه عوجٌ لا يُدرك بحاسّة البصر.

فنفَى الله تعالى ذلك العِوَج الذي لَطُف ودَقّ عن الإدراك، فكان لدقّته وخفائِه ملحقاً بالمعاني!

فإن قيل: إن الله تعالى أَخبر أَنّ آدم عليه السَّلام نسي عهد الله ووصِيّته وأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [٢٠/١١٥] وإذا كان فعلَ ذلك ناسياً، فكيف وصفه بالعِصيان وبالضَّلال بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّه فغَوى﴾ [٢٠/١٢١] وعاقَبه عليه بأعظم أَنواع العُقوبة وهو الإخراجُ من الجَنّة؟

قلنا: النِّسيان هنا بمعنى «التَّرك» كما في قوله تعالى(٩): ﴿إِنّا نَسِيْنَاكُمْ﴾ أَي: تركناكم في العذاب، وقوله تعالى(١٠): ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُم﴾ فمعناه: أَنه ترك عهد الله ووَصِيَّته، وكيف يكون من النِّسيان الذي هو ضِدُّ الذِّكر وقد جَرى بينه وبين إِبليس من المُناظرة والمُجادلة

(٩) السّجدة: ٣٠/١٤

(١٠) التوبة: ٩/٦٧

في أَكل الشّجرة فُصُول كثيرة؛ منها قوله تعالى[١١]: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾... الآية فكيف يبقى مع هذا نِسيان؟!.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا من الجَنَّة فَتَشْقَى﴾ [١١٧/٢٠] ولم يقلّ: فتشقيا؛ والخطّاب لآدم وحَوّاء عليهما السّلام؟.

قلنا: لوجوه: **أحدها:** أَنّ الرجل هو قَيّم أهله وأَميرهم، فشقاؤه يتضمن شقاءهم كما أنّ سعادته تتضمن سعادتهم. فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمنّاً له.

الثاني: أنه إنّما أَسنده إليه دونها للمُحَافظة على الفاصلة.

الثالث: أنه أراد بالشَّقاءِ الشَّقاءَ في طلب القُوت وإصلاح المعاش وذلك وظيفة الرجل دون المرأة، قال سعيد بن جبير: أُهبِط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرثُ عليه ويمسح العرق عن جبينه، فذلك شقاؤه.

فإن قيل: هل يجوز أن يقال كان آدم عاصياً غاوياً أَخْذاً من قوله تعالى: ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ [١٢١/٢٠]؟

قلنا: يجوزُ أن يقال عصَى آدم كما قال الله تعالى، ولا يجوز أن يقال: كان آدم عاصياً لأنّه لا يلزم من جَواز إطلاق الفِعل جوازُ إطلاق اسم الفاعل، ألا ترى أنه يجوزُ أن يُقال: تبارك الله، ولا يجوزُ أن يقال: الله مُتَبارك، ونَحْو ذلك. ويجوز أن يُقال: تابَ الله على آدم ولا يجوز أن يقال: الله تائب. ونظائره كثيرة...

فإن قيل: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفيّةٌ لا مَدْخَل للقياس فيها؛ ولهذا يُقال: الله عَالِمٌ ولا يقال عَلاّمة، وإنْ كان هذا اللّفظ أبلغَ في الدلالة

(١١) الأعراف: ٢٠/٧

على معنى العِلم. فأمّا أسماءُ البَشر وصِفاتهم قياسية فَلِمَ لايُجْرى فِيها على القِياس المطّرد؟

قلنا: هذا القياس ليسَ بمطّرد في كلام البَشر أيضاً، ألا ترى أنهم قالوا: ذَرْهُ وَدَعْهُ، وفلان يَذرُ ويَدعُ؛ ولم يقولوا منهما وَذَرَ ولا وَاذَرَ ولا وَدَعَ ولا وَادَعَ، فاستعملوا مِنهما الأمر والمُضارع فقط.

ولِقائلٍ أن يقول: هذا شاذٌّ في كلام البشر وناذر، فلا يُترك لأجله القياسُ المطّرد بل يجري على مُقتضى القِياس.

فإن قيل: كيفَ قال تَعالى: ﴿وَمَنْ أعرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [٢٠/١٢٤] أيْ عن موعظتي أَو عن الغُفران فلَمْ يُؤمن به وَلَمْ يتبعهُ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكاً﴾ [٢٠/١٢٤] أي حياة في ضيقٍ وشدّة. ونحْن نَرى المُعرِضين عن الإيمان والقرآن في أخْصب معيشةٍ وأَرغَدِهَا؟!

قلنا: قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: المُراد بالمعيشة الضَّنْك: الحياةُ في المعصية وإن كان في رَخاءٍ ونعمة، ويُروى عن النبي ﷺ أنّها عَذابُ القَبر.

الثاني: أن المراد بها عيشة في جهنم في الآخرة.

الثالث: أن المراد بها عيشة مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى في سورة النحل[١٢]: ﴿مَن عَمِلَ صَالِحَاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَة﴾.

فكل ما ذَكرناه في تفسير الحياة الطيّبة فضدّه وارد في المعيشة الضَّنْك.

فإن قيل: أيُّ كلمةٍ هِيَ الكلمة التي سَبقت من الله تعالى فكانت

(١٢) النحل: ١٦/٩٧

مانعة من تعذيب هذه الأُمّة في الدُّنيا عذاب الاستئصال حتى قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً﴾ [٢٠/١٢٩]؟

قلنا: هي قوله تعالى(١٣): «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي».

ويرد عليه أنّه لا اختِصاص لهذه الكلمة لهذه الأُمّة.

وقيل: هي قوله تعالى(١٤) للنبي ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فيهِمْ﴾، وقيل في قوله تعالى(١٥): ﴿وَمَا أَرْسَلنَاكَ إِلّا رَحْمَةً للعَالَمِيْمن﴾ يعني لعالمي أُمته بتأخير العذاب عنهم. وفي الآية تقديم وتأخير تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى وهو الأجل الذي قَدَّرَ الله تعالى به العالم وأَهله إلى انقضائه، لكان العذاب لزاماً، أي لازماً لهم كما لزم الأُمم الّتي قبلهم.

فإن قيل: أصحاب الصراط السَّوِي والمهتدون واحدٌ، فما فائدة التّكرار في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُوْنَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّراطِ السَّوِيّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [٢٠/١٣٥]؟

قلنا: المراد بأصحاب الصّراط السَّوِي: السَّالِكُون الصّراط المستقيم السّائرون عليه، والمُراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل. وقيل: أَصحاب الصّراط السوي هم الّذين ما زالوا على الطريق المستقيم؛ والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطَّريق المُستقيم ثمّ صاروا عليه؛ وقيل: المراد بأَصحاب الصّراط السّوي أَهل دين الحقّ في الدّنيا والمراد بمن اهتدي المهتدون إلى طريق الجنّة في العُقْبىٰ، فكأنّه قال: فستعلمون من المُحِقّ في الدُّنيا والفائز في الآخرة.

---

(١٣) في الحديث القدسي، وهو في مسند الإمام أحمد (٢: ٢٤٢).
(١٤) الأنفال: ٨/٣٣
(١٥) الأنبياء: ٢١/١٠٧

سُوْرَةُ الانْبِيَاء
عليهم الصلاة والسلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [٢١/١] وصفه بالقُرب، وقد مضىٰ من وقتِ هذا الإخبار أكثرُ من سِتّ مئةِ عام ولم يوجد يومُ الحساب بعد؟.

قلنا: معناه أنّه قريب عند الله تعالى وإن كان بعيداً عند الناس، كما قال تعالى(١): ﴿إنَّهم يَرَوْنَهُ بَعِيْداً وَنَرَاهُ قَرِيْباً﴾؛ وقال تعالى(٢): ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ﴾(٣)؛ و﴿وَإِنَّ يَوْمَاً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّوْنَ﴾.

الثاني: أن معناه أنَّه قريب بالنسبة إلى ما مَضى من الزّمان كما قال عليه الصلاة والسَّلام(٤): إنَّ مثلَ ما بَقِيَ من الدُّنيا في جنب ما مَضى كمثلِ خَيْطٍ في ثوب.

الثالث: أنّ المراد به قُرب حساب كُلّ واحدٍ واحدٍ في قبره إذا مات. ويؤيّده قولُه عليه الصلاة والسَّلام(٥): مَن مات فقد قامَت قيامَتُهُ.

الرَّابع: أن كُلَّ آتٍ قريب وإن طالتْ أُوقاتُ استقبالِه وترقّبه. وإنما البعيد الذي وُجِدَ وانْقَرض؛ ولهذا تقولُ النّاس إذا سافروا من بلدٍ إلى بلد بعدَما ولّوا ظهورهم البلدَ الأَول: الثاني أقرب؛ وإنْ كان أبعدَ مسافة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ

---

(١) المعارج: ٧٠/٧
(٢) الحجّ: ٢٢/٤٧
(٣) الحج: ٢٢/٤٧
(٤) انظر مسند الإمام أحمد ٣: ١٩، ٦١؛ وفتح الباري ١١: ٣٥٠.
(٥) في كشف الخفا ٢: ٣٨٦

مُحْدَثٍ﴾ [٢١/٢] والذكر الآتي من الله تعالى هو القرآن، وهو قديم لا مُحْدَث؟

قلنا: المراد مُحْدَثٌ إنزالُه.

الثاني: أنّ المراد به ذكرٌ يكون غير القرآن من مواعظ الرّسول ﷺ وغيره: ونسبه إلى الله تعالى لأنّ موعظة كلّ واعظٍ بإلهامه وهدايته.

الثالث: أنّ المراد بالذكر: الذّاكر، وهو الرّسول ﷺ ويؤيده قولهُ تعالى في سياق الآية: ﴿هَلْ هٰذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [٢١/٣] وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿إلاَّ اسْتَمَعُوه﴾ [٢١/٢] أي إلا استمَعُوا ذكره أي موعظته.

فإن قيل: النّجوى: المُسَارَّة، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجوى﴾ [٢١/٣]؟

قلنا: معناه بالغُوا في إخفاء المسرة بحيث لم يفطن أحد بِتَنَاجِيهم ومُسَارَّتهم تفصيلاً ولا إجمالاً، فإنّ الإنسان قد يرى اثنين يتسارّان فيعلم، من حيث الإجمال أنهما يتساران وإن لم يعلم تفصيل ما يتسارّان به. وقد يتسارّان في مكان لا يَراهُما أحد.

فإن قيل: كيف قال تعالى لِمُشركي مكّة: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ﴾ [٢١/٧] يعني فاسألوا أهل الكتاب عمّن مضى من الرُسل هل كانُوا بشراً أم ملائكة؛ مع أنّ المُشركين قالوا(*): ﴿لَنْ نُؤمِنَ بِهٰذا القُرآنِ وَلا بالّذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟!

قلنا: هم وإن لم يُؤمنوا بكتاب أهل الكتاب، ولكن النقل المُتَواتر من أَهلِ الكتاب في القضيّة العقليّة يُفيد العلم لِمَنْ يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُوْنَ﴾ [٢١/١٩]

(*) سبأ: ٣٤/٣١.

والاستحسار مبالغةُ في الحُسور وهو الإعياء، فكانَ الأبلغ في وَصْفِهم أن ينفي عنهم أدنى الحُسور أو مُطلقه لا أقصاه؟

قلنا: إنّما ذكر الاستِحسار إشارةً إلى أنّ ما هُم فيه من التّسبيح الدائم والعبادة المُتّصلة، توجب غايةَ الحُسور وأقصاه.

فإن قيل: قوله تعالى في وصف الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُوْنَ﴾ [٢١/٢٦] إلى قوله تعالى ﴿مُشْفِقُوْنَ﴾ [٢١/٢٨] يدلّ على أنهم لا يَعْصُون الله تعالى كما جاء هذا مصرّحاً به في قوله تعالى[٤]: ﴿لَا يَعْصُوْنَ الله مَا أَمَرَهُمْ﴾ فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى، فَلِمَ يخافون، حتّى قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُوْنَ﴾ [٢١/٢٨]؟

قلنا: لمّا رأوا ما جَرى على إبليس وعلى هارُوتَ ومارُوت من القَضاء والقَدر خافُوا مثل ذلك.

الثاني: أن زيادة معرفتهم بالله تعالى وقُربهم في محلّ كرامته، يوجب مزيدَ خوفهم؛ ولهذا قال أهلُ التّحقيق: «مَن كان بالله أعرف كان من الله أخْوَف، ومن كان إلى الله أقرب كان من الله أرهب» وقال بعضهُم: يا عجباً من مُطيعٍ آمِنٍ، ومن عاصٍ خائف!

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰواتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [٢١/٣٠] وهم لم يروا ذلك؟

قلنا: أولم يعلموا ذلك بإخبار من قبلهم أو بوروده في القُرآن الذي هو مُعجزة في نفسه. ونظيرهُ قوله تعالى للنبيّ ﷺ[٥]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمواتِ والأَرْضِ﴾.، وقوله تعالى[٦]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي

(٤) التّحريم: ٦٦/٦
(٥) النور: ٢٤/٤١
(٦) النور: ٢٤/٤٣

سَحَاباً﴾ . . . الآية. ونظائره كثيرة.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [٢١ / ٣٠] مع أنَّ الملائكة أحياء والجن أحياء، وليسُوا مخلوقين من الماء، بل من النُّور والنَّار، كما قال تعالى[٧]: ﴿وَخَلَقَ الجانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ﴾ وكذا آدم مخلوقٌ من التّراب، وناقة صالح مخلوقة من الحَجر؟

قلنا: المُراد به البَعض، وهو الحيوان كما في قوله تعالى[٨]: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ﴾ وقوله تعالى[٩]: ﴿وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ ونظائره كثيرة.

الثاني: أنَّ الكلَ مخلوقون من الماء ولكن البعض بواسطة، والبعض بغير واسطة، ولهذاقيل إنّه خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء وخلق الجن من نار خلقها من الماء، وخلق آدم من تراب خلقه من الماء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [٢١/٣٧] بعدَ قوله: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [٢١/٣٧] وكأنه تكليفُ ما لا يُطاق؟

قلنا: هذا كما ركب فيه الشَّهوة وأمره أن يغلبها لأنّه أعطاه القُدرة التي يستطيع بها قَمْع الشَّهوة والعَجلة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا يَسمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُوْنَ﴾ [٢١/٤٥] مَع أنَّ الصمّ لا يسمعون الدعاء إذا مَا يُنْذَرُوْنَ؟

قلنا: اللاّم في الصُّمّ إشارة إلى المُنذرين السّابق ذكرهم بقوله

(٧) الرحمن: ١٥/٥٥
(٨) النمل: ٢٣/٢٧
(٩) يونس: ٢٢/١٠

تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أُنْذِرُكُمْ بالوَحْيِ﴾ [٢١/٤٥] فهي لام العهد لا لام الجِنس[١٠].

فإن قيل: كيف قال إبراهيم عليه الصَّلاة والسّلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذا﴾ [٢١/٦٣]؛ أحال كسرَ الأصنام على الصّنم الكبير، وكان إبراهيم هو الكاسِر لها؟

قلنا: قاله على طريق الاستِهزاء والتهكّم بهم لا على طريق الجد.

الثاني: أنّه لما كان الحامل له على كسرها اغتياظُه من رُؤيتها مصفُوفة مرتّبة للعبّاد مبجّلة معظّمة، وكان اغتياظه من كَبِيْرها أعظم لمزيدِ تعظيمهم له أَسند الفعل إليه كما يُسند إلى سببه وإلى الحامل عليه.

الثالث: أنّه أسنده إليه معلّقاً بشرط منتفٍ لا مُطلقاً تقديره: فعَله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألُوهم!

فإن قيل: كيف صحَّ مخاطبةُ النَّار بقوله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً على إبْرَاهِيْمَ﴾ [٢١/٦٩] والخِطَابُ إنَّما يكون مع من يعقل؟

قلنا: خطاب التّحويل والتّكوين لا يختصُّ بمن يَعقل، قال تعالى[١١]: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبي مَعَهُ﴾ وقال تعالى[١٢]: ﴿فَقَالَ لَهَا وَللأَرْضِ ائتيا طَوْعَاً أو كَرْهاً﴾ وقال تعالى[١٣]: ﴿وَقِيْلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعي﴾.

فإن قيل: كيف وصَف تعالى الأَنبياء بكونهم من الصَّالحين بقوله تعالى: ﴿وَإسْماعيلَ وإدرِيْسَ وَذَا الكِفْلِ...﴾ الآية [٢١/٨٥] مع أَنّ أكثر

---

(١٠) يريد مَنْ أصمّ الله قلبه وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة. وقد قرىء «ولا يُسْمَعُ الصُّمُّ» وقرىء: «ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ».
(١١) سبأ: ٣٤/١٠
(١٢) فُصلت: ٤١/١١
(١٣) هود: ١١/٤٤

المؤمنين صالحون خصوصاً في الزّمن الأول؟

قلنا: معناه أنّهم من الصالحين للإدخال في الرّحمة الّتي أُريد بها النُّبوة على ما فسّره مُقاتل، أو الجَنّة على ما فسّره ابنُ عَبَّاس رضي الله عنهما؛ ويؤيد ذلك قول سليمان عليه السلام[١٤]: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ﴾ أي الصّالحين للعمل المَرْضِي الذي سَبَق سُؤاله.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَالَّتي أحصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنَا فِيْهَا مِن رُوحِنَا﴾ [٢١/٩١] وقال في سُورة التَّحريم[١٥]: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيْهِ مِنْ رُوْحِنَا﴾.

قلنا: **حيثُ أَنَّث**: أراد النَّفْخَ في ذَاتِها، وإن كان مبدأ النَّفخ من الفَرَج الّذي هو مَخرج الولد، أو جَيْب دِرْعها؛ على اختلافِ القولين؛ لأنه فُرجة؛ وكلُّ فُرجة بين شَيئين تُسَمّى فَرْجاً في اللغة؛ وهذا أَبلغُ في الثَّناءعَلَيها؛ لأنّها إذا مَنعت جيبَ دِرعها مِمّا لا يحلُّ؛ كانت لنفسِها أمنع. **وحيث ذكّرَ**: فظاهرٌ[١٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهم لا يَرْجِعُوْنَ﴾ [٢١/٩٥] يدلّ على أنه يجب أن يرجعوا لأَنّ ما حرم أن لا يوجد وَجَب أَن يُوجد، فكيفَ معنى الآية؟.

قلنا: معناها: وواجب على أَهل قريةٍ عَزمنا على إهلاكهم أَو قدّرنا إهلاكَهم أَنّهم لا يرجعون عن الكُفر إلى الإيمان، أَو أَنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدُّنيا؛ فالحرامُ هنا بمعنى الوَاجِب، كذا قاله ابن عباس

(١٤) النمل: ٢٧/١٩

(١٥) التحريم: ٦٦/١٢

(١٦) حيث أَنَّث: ﴿فَنَفَخنا فيها﴾ وحيثُ ذكّر: ﴿فَنَفَخْنَا فِيه﴾.

رضي الله عنهما، ويؤيده قول الشاعر(١٧):

فإنَّ حراماً لا أرى الدَّهرَ باكياً   عَلى شَجوه إلاَّ بكيتُ عَلى عَمْرِو

أو قيل: لفظ الحرام على ظاهره، و «لا» زائدة، والمعنى ما سبق ذكره والحُرمة هنا بمعنى البلوغ؛ كما في قوله تعالى(١٨): ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقوله تعالى(١٩): ﴿إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِيْنَ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [٢١/١٠١] وقال في موضع آخر(٢٠): ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ووارِدُها يكونُ قَريباً منها لا بعيداً؟!

قلنا: معناه مبعدون عن ألمها وعَذابها مع كونهم وارِديها.

أو معناه: مُبعدون عنها بعد وُرودها بالإنجاء المذكور بعد الوُرود، فلا تنافيَ بينهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٢١/١٠٧] مع أنّ النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين الّذين ماتُوا على كُفرهم، بل نقمة لأنّه لولا إرسالُه إليهم ما عُذّبوا بِكُفرهم؛ لقوله تعالى(٢١): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِين حتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾؟.

قلنا: كانَ رحمةً للكافرين أيضاً من حيث إنّ عذاب الاستئصال أُخِّرَ عنهم بسببه.

---

(١٧) الشعر للخنساء في تفسير القرطبي ١١/٣٤٠؛ وقافيته: «على صَخْرِ»؛ وهو أخُوها. وفي (أ) و(ب) معاً: على عَمْرو.

- وليس البيت في الدّيوان - طبعة بيروت ١٨٨٩؛ ولا في طبعة مصر ١٣٢، ولا في طبعة بيروت ١٩٦٩، ولا في طبعة صادر.

(١٨) القصص: ٢٨/١٢.

(١٩) الأعراف: ٧/٥٠

(٢٠) مريم: ١٩/٧١

(٢١) الإسراء: ١٧/١٥.

الثاني: أنّه كان رحمةً عامّة من حيث إنّه جاء بما يُسعدهم إن اتّبعوه، ومَن لم يتبعه فهو الّذي قَصَّر في حقِّ نفسه وضَيّع نفسه من الرحمة. ومثله عليه الصلاة والسلام كمثل عينٍ عذبةٍ فجّرها الله تعالى فسقى ناسٌ زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا، وفَرّط ناسٌ في السّقي منها فَضُيِّعُوا، فالعين في نفسها نعمةٌ من الله للفريقين ورحمة وإن قصَّرَ البعضُ وفرّط.

الثالث: أنّ المراد بالرّحمة: الرحيم وهو عليه الصلاة والسلام كان رحمةً للفريقين. ألا ترى أنّهم لما شجُّوه يوم أُحد وكسَروا رَباعِيَتَهُ حتى خرَّ مغشيّاً عليه فلما أفاق قال(٢٢): اللّهم اهْدِ قَومي فإنّهم لا يَعْلَمُون؟

فإن قيل: كيف قال تعالى هُنا: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقرِيبٌ أَمْ بَعِيْدٌ مَا تُوعَدُون﴾ [١٠٩/٢١] مع إخباره تعالى إيّاهم بِقُربِ الساعة بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وَنَحْوهما؟

قلنا: معناه ما أُدري أن العذاب الذي تُوعدون به وتُهَدَّدُون به ينزل بكم عاجلاً أو آجلاً. وليس المراد به قيام السّاعة.

ويَرِدُ على هذا الجواب أنه قريبٌ على كِلا التّقديرين(٢٥)؛ لأنّه إن كان قبل قيام السّاعة فظاهر، وإن كان بعدَ قيام الساعة، فهو كالمُتّصل بها لسُرعةِ زمن الحساب، فيكون قريباً أيضاً.

---

(٢٢) في كتب الحديث والسير والمغازي أن رسول اللهِ صلّىٰ الله عليه وسلّم حين أذن بالرحيل عن الطّائف في خُطة من خططه قيل: يا رسول الله ادْعُ لله على ثقيف فقال: «اللهم اهْدِ ثقيفاً» وفي رواية: اللهم اهد ثقيفاً وائتِ بهم.
- ينظر زاد المعاد في هدي خير العباد (مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية) ٣: ٤٩٧، وإحالات التحقيق.

(٢٣) النحل: ١/١٦

(٢٤) القمر: ١/٢٤

(٢٥) في (أ): على تقدير، وفي (ب) على: كل التقدير؛ واثبتّ ما ترى.

فإن قيل: إذا كان المُؤمنون يعتقدون أن الله تعالى لا يحكم إلا بالحق فما فائدة الأمر أو الإخبار المتعلّق بقوله تعالى: ﴿رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ﴾ [٢١/١١٢]؟

قلنا: ليس المراد بالحقّ هنا ما هو نقيضُ الباطل بل المراد به ما وعده الله تعالى إيّاه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، ووعْدُه لا يكونُ إلّا حقاً، فكأنّه قال: عجّل لنا وعْدَك وأَنجزه. ونظيره قولُه تعالى[٢٦]: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ﴾.

الثاني: أنه تأكيدُ لِما في التّصريح بالصّفة من المبالغة وإن كانت لازمةً للفِعْل. ونظيرُه في عَكسه من صِفَة الذّمّ، قوله تعالى[٢٧]: ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

---

(٢٦) الأعراف: ٨٩/٧

(٢٧) آل عمران: ١١٢/٣

سُورَة الحج

فإن قيل: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ﴾ [١/٢٢] يدلّ على أنّ المعدومَ شيء؛

قلنا: الآيةُ مشعرةٌ أن المراد: أنها إذا وُجدت كانت شيئاً لا أنّها شيءٌ الآن، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿عَظِيم﴾ مع أنّ المعدوم لا يُوصف بالعَظيم.

فإن قيل: كيف قال تعالى أوّلاً: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ [٢/٢٢] بلفظ الجمع ثم أفرد فقال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ [٢/٢٢]؟

قلنا: لأنّ الرُّؤية ـ أوّلاً ـ عُلّقت بالزلزلة فجعل الناس كلهم رائين لها، وعلّقه آخراً بكون الناس على هيئة السّكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى في حقِّ النَّضْر بن الحارث: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٣/٢٢] [٨/٢٢] إلى أن قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبيل الله﴾ [٩/٢٢] وهو ما كان غرضه في جِداله الضّلال عن سبيل الله؛ فكيف علّل جداله به وما كان أيضاً مُهتدياً حتى إذا جادل خرجَ بالجدال من الهُدى إلى الضَّلال؟

قلنا: هذه لام العاقبة والصَّيرورة وقد سبق ذكرها غير مرة. ولمّا كان الهُدى مُعَرّضاً له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجِدال بالباطل جُعِلَ كالخارجِ من الهُدى إلى الضَّلال.

فإن قيل: الضرّ والنَّفع منفيّان عن الأصنام مُثبتان لها في الآيتين[١] فكيف التوفيق بينهما؟

---

(١) إشارة إلى الآيتين ١٢ و١٣ من السُّورة.

قلنا: معناه يعبد من دون الله ما لا يضرّه بنفسه إن لم يعبده ولا ينفعه بنفسه إن عبده، ثم قال الله تعالى: يعبد من يضره الله بسبب عبادته. وإنّما أضاف الضّرر إليه لحصوله بسببه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ مِن نَفْعِهِ﴾ [١٣/٢٢] يدل على أنّ في عبادة الصنم نفعاً وإن كان فيها ضرر.

قلنا: معناه أقرب من النّفع المنسوب إليه في زَعمهم وهو اعتقادهم أنّه شفيع لهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُوْنَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [٣٩/٢٢] أي بسبب كونهم مظلومين، ولم يبيّن ما الشّيء الذي أذن لهم فيه؟

قلنا: تقديره: أُذِنَ للذين يقاتلون بالقتال. وإنّما حذف لدلالة «يقاتلون» عليه، ولدلالة الحال أيضاً؛ فإن كفار مكة كانوا يؤذون المُؤمنين بأنواع الأذى، وهُم يستأذنون النبيّ عليه الصّلاة والسّلام في قتالهم، فيقول: لم يُؤْذَنْ لي في ذلك، حتّى هاجر إلى المدينة، فنزلت هذه الآية، وهي أوّل آيةٍ نزلت في الإذن في القتال، فنسخت سبعين آيةً ناهيةً عن القِتال(٢)؛ كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكان المأذون فيه ظاهراً لكونه مترقّباً منتظراً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ﴾ [٣٩/٢٢] مع أنّهم ما كانُوا يقاتِلُون قبل نُزول هذه الآية؟

قلنا: مَعناه أُذِنَ للَّذين يُريدون أن يقاتِلُوا؛ أسماهم «مُقَاتِلين»

---

(٢) يُنظر كتاب «أسباب النّزول» للواحدي ص ٢٥٨

مجازاً باعتبار ما يؤولون إليه كما في النظائر، وقرىء «يُقَاتَلُوْنَ» بفتح الرّاء؛ ولا إشكال على تلك القراءة(٣).

فإن قيل: كيف صحّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلّاَ أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنا اللهُ﴾ [٢٢/ ٤٠]؟

قلنا: هو استثناء منقطعٌ؛ تقديره: ولكن أُخرجوا بقولهم: ربّنا.

الثاني: أنّه بمنزلة قول الشاعر(٤):

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفهم بهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكَتائِبِ

تقديره: إن كان فيهم عيب فهو هذا؛ وهذا ليس بعيب؛ فلا يكون فيهم عيب!

فإن قيل: أيُّ مِنّة على المُؤمنين في حِفظ الصّوامع والبِيَع عن الهَدم حتى امتَنَّ عليهم بذلك في قوله: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية [٢٢/ ٤٠]؟

قلنا: المِنّة في ذلك أنّ الصّوامع والبِيَع والكَنائس في حَرم المسلمين وحِراستِهم وحِفظهم لأنَّ أَهلها ذِمَّةٌ للمسلمين.

الثاني: أنّ المراد به لهدمت صَوامِعُ وَبِيَعٌ في زمن عيسى عليه السلام، وصلوات أي كنائس في زَمن موسى عليه السَّلام، ومساجِدُ في زمن النبي عليه الصّلاة والسلام. فالامتِنانُ على أَهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوْسَىٰ﴾ [٢٢/ ٤٤] ولم يقل «وقومُ موسىٰ» كما قال تَعالى فيما قبله.

---

(٣) قرأ «يُقاتِلون» بكسر التاء: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب. (معجم القراءات القرآنية ٤: ١٨٥).
(٤) هو النابغة الذبياني (ديوانه ٤٤).

قلنا: لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنّما كذَّبه غيرُ قومِه وهُم القِبط.

الثاني: أن يكونَ التّنكير والإبهام للتفخيم والتّعظيم؛ كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كلّ قوم رسولَهُم «وَكَذِّبَ مُوْسَى» أيضاً، مع وضوح آياته وعِظَم معجزاته فما ظنك بغيره؟!

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿القُلوب الَّتِيْ في الصُّدُوْرِ﴾ [٢٢/٤٦]؟

قلنا: هو تأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وقوله تعالى(٥): ﴿يَقُوْلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ وما أَشْبَه ذلك.

الثاني: أنّ القلب يُستعمل بمعنى العَقل؛ ومنه قوله تعالى(٦): ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ في أحد القولين، فكان التّقييد مفيداً على قول من يَزعم أن العَقل في الرّأس.

فإن قيل: المغفرة إنّما تكون لمن لا يعمل الصّالحات والحَسنات فكيف قال تعالى: ﴿فَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [٢٢/٥٠]؟

قلنا: المراد بالعمل الصَّالح هنا الإخلاص في الإيمان قال الكلبيّ كل موضعٍ جاء في القرآن(٧): ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالمرادُ بِه الإخلاص في الإيمان. فيصيرُ المعنى: فالَّذِيْنَ آمَنُوا عن إخلاصٍ تُغفر لهم سيئاتهم.

فإن قيل: ما الفَرْق بين الرَّسول والنَّبي مع أنّ كليهما مرسَل بدليل

(٥) الفتح: ٤٨/١١

(٦) ق: ٥٠/٣٧

(٧) النّساء ٤/١٧٣ (وآيات أُخر).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ [٢٢/٥٢]؟

قلنا: الفرقُ بينهما أن الرسول من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من جُمِع له بين المُعجزة وإنزال الكتاب عليه، والنبيّ فقط من لم ينزل عليه كتابٌ وإنما أُمر أن يدعو أُمّته إلى شريعةِ مَن قبله.

وقيل: الرسول من كانت له معجزةٌ من الأنبياء، والنبيُّ من لم يكن له منهم مُعجزة، وفي هذا نظر. وقيل الرّسول: من كان مبعوثاً إلى أُمّة، والنبي فقط من لم يكن مبعوثاً إلى أحد مع كونه نبيّاً، والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضماراً تقديره: وما أرسلنا من رسول ولا أَنبأنا من نبيٍّ، أو: ولا كان من نبيّ. ونظيرهُ قول الشاعر(٨):

ورأيتُ زوجك في الوَغى متقلّداً سَيْفاً ورُمْحا

أي: ومعتقلاً رُمحاً، أو: حاملاً رُمحاً.

فإن قيل: أين المَثلُ المضروبُ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثلٌ﴾ [٢٢/٧٣] والمذكور بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ الله...﴾ [٢٢/٧٣] إلى آخره ليس بِمثل بل كلامٌ مبتدأ استقلَّ بنفسهِ؟

قلنا: الصّفة أو القصّة الغريبة أو المُستحسنة تُسمى مَثلاً ومنه قوله تعالى(٩): ﴿مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوقَدَ نَاراً﴾ فالمعنى: بَيَّنتُ صفَةً وهي عجزُ الصَّنم عن خَلقِ الذُّباب واستنقاذه ما يُسلبه.

(٨) هو عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ؛ احتج به القرطبي في الجامع بهذه الرّواية في (٦: ٩٥) وبرواية: «يا ليت زَوجك قد غَدا...» في (١: ١٩١).
- والبيت في ديوانه (٣٢).
(٩) البقرة: ٢/١٧

وقيل: هو إشارة إلى قوله تعالى[١٠]: ﴿مَثَلُ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوْتِ﴾ وإنَّما أَبْهَمه هنا لأنهم كانُوا لا يُصغون إلى سَماع القرآن؛ ولهذا قالُوا[١١]: ﴿لا تسمَعُوا لهذا القرآن والغَوْا فيه﴾ وكانوا يحبّون الأمثال، فذكر لفظَ المثَل استِدْراجاً لهم إلى سَماعِ القرآن والإصغاء إليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا جعلَ عَلَيْكُمْ في الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [٢٢/٧٨] معَ أَنّ قَطع اليد التي تُساوي خمسة آلاف درهم بسببِ سرقة عشرة دراهم حَرجٌ في الدِّين، وكذا رَجْمُ المُحصن بسبب الوطْءِ مرّة واحدة، ووجوب صوم شَهرين متتابعين بسبب إفطار يومٍ واحد، والمخاطرة بالنَّفس والمال في الحج والغَزْو. كل ذلك حَرَجٌ بَيّنٌ؟

قلنا: المُراد بالدِّين، كلمة التَّوحيد؛ فإنها تكفّر شركَ سبعين سَنة. ولا يتوقف تأثيرُها على الإيمان والإخلاص سبعين سنة ولا على أن يكونَ الإتيان بها في بيت الله أو في زمانٍ معيّن.

وقيل: المرادُ أَنّ كل ما يقع فيه الإنسان من الذُّنوب والمَعاصي يجدُ له مخرجاًفي الشّرع بتوبةٍ أو كفّارةٍ أو رُخصة.

وقيل: المُراد به فتحُ باب التّوبة للمُذنبين، وفتح أبواب الرُّخَص للمعْذُورين، وشرعُ الكفارات والأَرْشِ والدِّيات.

وقيل: المُراد به نَفْيُ الحرجَ الذي كان على بني إسرائيل من الضَّرر والتّشديد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيْمَ﴾ [٢٢/٧٨] وإبراهيم عليه السلام لم يكن أباً للأمّة كلها؟

---

(١٠) العنكبوت: ٢٩ /٤١

(١١) فُصّلت: ٢٦/٤١.

قلنـا: هـو أبُو رسـول الله ﷺ؛ فـكان أباً لأمّـته؛ لأنَّ أمـة الرسـول بمنزلة أولادِه من جهـةِ العَـطف والشّفاعـة. هـذا إن كـان الخـطاب لعامّـة المسلـمين، وإن كـان للعـرب خاصة، فإبراهيمُ أَبُو العرب قاطبة.

فـإن قيل: مـتى سَمّانـا إبـراهيم عليه السلام المُسلمين من قـبلُ حـتى قـال الله تعـالى: ﴿هُوَ سَمَّـاكُمُ المُسْلِمِـينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [٢٢/ ٧٨]؟

قلنـا: وقْتَ دعائِه عند بنـاءِ الكَعـبة حـيث قـال(١٢): ﴿رَبَّـنَا وَاجْعَلْنَـا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّـتِنَـا أُمَّـةً مُسْلِمَـةً لَكَ﴾. فـكلّ من أَسـلمَ من هـذه الأمـة فهـو ببركـة دعـوة إبـراهيم عليه الصلاة والسـلام. وهـذا السؤال سئلتُ عنـه في المنـام وأَجـبت عنه بهـذا الجـواب في المنـام، إلهـاماً من الله سُبحـانه وتعـالى.

(١٢) البقـرة: ١٢٨/٢.

سُورَةُ المُؤمِنون

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُوْنَ. إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ [٢٣/٥، ٦] وحِفظ الفرج إنمّا يعدى بـ: عن لا بـ: على، يُقال: فلان يحفظ فرجه عنِ الحرام ولا يقال على الحَرام؟

قلنا: «على» هنا بمعنى (عن) كما في قول الشاعر[1]:

إذا رَضِيَتْ عليَّ بَنُو قُشَيرٍ لعمرُ اللهِ أَعْجَبني رِضَاها!

الثاني: أنّه متعلق بمحذوفٍ تقديرُه: فلا يرسلونَها إلاّ على أزواجهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [٢٣/٦] ولم يقل: أو مَن ملكت أيمانهم، مع أنّ المُراد مَنْ يعقل؟

قلنا: لأنّه أراد من جِنس العقلاء ما يجري مَجرى غير العقلاء وهم الإناث[2].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُوْنَ. ثُمّ إِنَّكُم يَوْمَ

---

(١) الشعر للقُحيف العُقَيلي (اللسان: ر ض ي)، وبعده.

ولا تنبُو سيوف بني قشير ولا تمضي الأسنّة في صَفاهَا

قال في اللسان: عدّاه بـ (على) لأنه إذا رضيت عنه أحبّتْهُ وأقبلت عليه، فلذلك استعمل (على) بمعنى (عن). قال ابن جني: وكان أبو عليّ الفارسي يستحسن قول الكسائي في هذا، لأنه لمّا كان (رضيتُ) ضد (سخطت) عدّى رضيت بـ (على) حملاً للشيء على نقيضه كما يُحمل علي نظيره.

(٢) «قوله تعالى ﴿إلا على أزواجهم﴾ قال الفَراء: أي من أزواجهم اللاّتي أحلّ الله لهم لا يجاوزون. (أو ما ملكت أيمانُهم) في موضع خفض على أزواجهم. و(ما) مصدريّة» من القرطبي ١٢: ١٠٦، وأصله في معاني القرآن للفرّاء ٢: ٢٣١

القِيَامَةِ تُبْعَثُوْنَ﴾ [٢٣/١٥، ١٦] كيف خصّ الإخبَار عن البَعث الَّذِي أنكروه. والظَّاهر يَقتضي عكسَ ذلك؟

قلنا: لمّا كان العطفُ يقتضي الاشتراك في الحكم استُغني به عن إعادة لفظ اللاّم المُوجبة لزيادةِ التّأكيد، وهو أقوى والحاجة إليه أمَسّ.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَشَجَرةً تَخْرُجُ مِن طُوْرِ سَيْنَاءَ﴾ [٢٣/٢٠] والمراد بها شجرة الزّيتون وهي تخرج من الجَبل الذي يُسمّى طور سيناء؟

قلنا: إنّ أصل شجرة الزيتون من طُور سيناء نُقلت إلى سائر المَواضع.

وقيل: إنّما أُضِيفت إلى ذلك الجبل لأنّ خُروجها فيه أكثرُ من خُروجها في غيره من المواضع.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُوْلُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [٢٣/٧٠] خبر عن كفار مكّة، فكيف قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بالحَقِ﴾ [٢٣/٧٠] أي بالتّوحيد أو بالقرآن: ﴿وَأَكثرُهم للحق كَارِهُوْن﴾ [٢٣/٧٠] ولم يقل: وكلّهم، مع أنّ (كلّهم) كانُوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم: ﴿بِهِ جِنَّة﴾ [٢٣/٧٠].

قُلنا: كان فيهم مَنْ تَرك الإيمان به أَنَفَةً واستنكافاً من توبيخ قومه كيلا يقولُوا: تَرك دين آبائه؛ لا كراهةً للحقّ، كما يُحْكى عن أَبي طالب وغيره.

فإن قيل: كيف جَمع الله تعالى فقال: ﴿رَبِّ ارْجِعُوْنِ﴾ [٢٣/٩٩] والمخاطَبُ واحِدُ وهو الله تَعالى؟

قلنا: هو جمع للتفخيم والتّعظيم؛ كقوله تعالى[٣]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحيي المَوْتَىٰ﴾ وأشباهه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُوْنَ﴾ [٢٣/١٠١] وقال تعالى في موضع آخر[٤]: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسائَلُوْنَ﴾؟

قلنا: يوم القيامة مقدارُه خمسون ألف سنة، ففيه أحوالٌ مختلفة ففي بعضها يتساءلون وفي بعضها لا يَنطقون لشدّة الهَول والفَزع.

(٣) يٓس: ١٢/٣٦
(٤) الصّافات: ٢٧/٣٧

سُورة النور

فإن قيل: كيف قُدّمت المرأة في آيةِ حدِّ الزِّنا، وقُدِّم الرجل في آية حَدّ السَّرقة(*)؟

قلنا: لأن الزّنا إنّما يتولد من شهوة الوقاع، وشهوة المرأة أقوى وأكثر، والسّرقة إنما تتولد من الجَسارة والجُرأة والقُوّة وذلك في الرجل أكثر.

فإن قيل: فكيف قدّم الرجل في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أو مُشْرِكةً، والزَّانيةُ لا يَنكِحُها إلا زَانٍ أو مُشْرِكٌ﴾ [٢٤/٣]؟

قلنا: لأن الآية الأولى سِيقت لعقوبتهما على ما جَنيا، والمرأة هي الأصل في تلك الجِنَاية لِمَا ذكرنا، والآية الثّانية سِيقت لذكر النّكاح والرجل هو الأصل فيه عُرفاً لأنه هو الرّاغب والخاطِب والبَادِىءُ بالطلب بخلاف الزنا؛ فإن الأمر فيه بالعكس غالباً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿الزَّانِي لا ينكحُ إلاّ زانيةً أو مشركةً﴾ [٢٤/٣] أي لا يتزوج، ﴿والزانيةُ لا ينكِحها إلا زانٍ أو مُشركٌ﴾ [٢٤/٣] ونحن نرى الزّاني ينكِحُ عُفيفةً ومُسْلِمَةً، والزّانيةُ ينكِحها العفيفُ والمسلمُ؟

قلنا: قال عكرمة: نزلت هٰذه الآية في بَغايا مُوسِرات كنَّ بمكة وكانت بُيوتهن تسمّى في الجاهلية المَواخِير، وكان لا يدخل عليهن إلا زانٍ من أهل القِبلة أو مُشركٌ من أهل الأوثان. فأراد جماعةٌ من فقراء المُهاجرين أن ينكحوهنّ فنزلت هذه الآية زَجْراً لهم عن ذلك.

(*) يشير إلى الآية (٢) من سورة النُّور، وإلى الآية (٣٨) من سورة المائدة.

فإن قيل: ما فائدة دخول «من» في غَضّ البصر دون حفظ الفَرج في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أَبصارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [٢٤/٣٠]؟

قلنا: فائدته الدّلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفَرج. ولهذا يحلّ النظر في ذَوات المحارَم والإماء المُستعرضات إلى عدّة من أعضائهن[١] ولا يحلّ شيءٌ من فُروجِهِنّ.

فإن قيل: لأيّ حكمة تركَ الله تعالى ذكر الأَعمام والأخوال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [٢٤/٣١] يعني الزّينة الخفيّة ﴿إِلَّا لِبُعولَتِهِنَّ﴾ [٢٤/٣١] الآية وهُم من المحارم، وحكمهم حكم من استُثني في الآية؟

قلنا: سُئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلا يصفها العمّ عند ابنه وهو ليس بمَحْرمٍ لها، وكذا الخال فَيُفضي إلى الفتنة؛ والمعنى فيه أَنّ كل من استثني يشترك في المَحْرَمِيَّة [هو وابنه] إلا العمّ والخال. وهذا من الدّلالات البليغة على وُجوب الاحتياط في سَترهن. ولقائل أن يقول: هذه المفسدة مُحتملة في آباءِ بُعولتهن لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر وهو ليس بِمَحرم لها، وأبو البعل أيضاً يغضّ على قولهم: إن كل من استثني يشترك هو وابنه في المحرمية.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتياتِكُمْ على البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ [٢٤/٣٣] مع أَنّ إكرَاههنّ على الزّنا حرام في كل حال؟

قلنا: لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يُكرهون إماءَهم على الزّنا مع إرادتهن التحصن فورد النّهيُ عن صِفة السبب وإن لم يكن بشرط فيه.

(١) في (أ): إلى عضو من أعضائهنّ.

الثـاني: أنَّـه تعـالى إنـما شـرط إرادة التحـصّن لأن الإكـراه لا يُتَصَوّر إلا عند إرادة التحـصّن؛ لأن الأَمَـة إن لـم تُـرد التحـصّن فـإنها تَزني بالطبع، لأن إرادتهـا للجماع مستمرّة في جـميع الأحـوال طبعاً ولا بـد له من أحـد الطرفين.

الثـالث: أنّ «إنْ» بمعنىٰ «إذْ» كـما في قـوله تعـالى(٢): : ﴿وَذَرُوا مـا بَقِيَ مِنَ الرِّبـا إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ وقـوله(٣): ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كنتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾.

الرابع: أن في الكـلام تقديماً وتأخـيراً تقـديره: وانكحـوا الأيـامىٰ منكم والصـالحين من عبادكم وإمـائكم إن أردن تحـصناً، ويـبقىٰ قـوله تعـالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهـوا فتياتِـكم على البِغَاء﴾ [٢٤/٣٣] مطلقاً غير معلق.

فـإن قيل: كـيف مثّل الله تعـالى نوره أي معرفتـه وهُـداه في قـلب المؤمـن بنور المِصبـاح في قـوله تعـالى: ﴿مَثَـلُ نُورِهِ كَمِشْكَـاةٍ فيهـا مِصْبَاحٌ﴾ [٢٤ / ٣٥] ولم يمثّـله بنور الشمـس مع أنّ نُورهـا أَتَمّ وأكـمل؟

قلنـا(٤): المقصود تمثيلُ النّـور في القلب والقلب في الصدر والصدر في البدن، كالمصـباح وهو الضّوء أو الفتيلة في الزُّجـاجة والزجـاجة في الكُوّة التي لا مَنفـذ لهـا. وهـذا التّمـثيل لا يَستقيم إلاّ فيمـا ذكـر.

الثـاني: أنّ نـور المعرفة الآن يتوقـف على اجتماعهـا كالذّهـن، والفهـم، والعقل، واليَقـظة، وانشراح القـلب وغير ذلك من الخـصال الحـميدة؛ كـما أنّ نـور القِنديل يتوقّـف على اجـتماع القِنديل والزَّيت والفَتيـلة وغير ذلك.

الثالث: أنّ نور الشمس يُشرق متوجهاً إلى العالم السُّفليّ لا إلى العـالم

(٢) البقـرة: ٢/٢٧٨
(٣) آل عـمران: ٣/١٣٩
(٤) في (ب): الحـاجة المقصود تمثيل...

العلوي؛ ونـور المعرفة يشرق متوجّهـاً إلى العـالم العُـلوي كنـور المصباح.

الرابع: أنّ نـور الشـمس لا يشرق إلا بالنهـار ونـور المعرفة يـشرق بالليل والنهـار كنـور المصبـاح.

الخـامس: أن نـور الشـمس يعمّ جـميع الخـلائق، ونـور المعرفة لا يـصل إليه إلا بعضهـم كنـور المِصـباح الموصُوف.

فـإن قيل: هَبْ أنّـه تعـالى لم يمثّله بنور الشمس لِمَا ذَكرتـم فـكيف لم يمـثله بنور الشّمـع مع أنّـه أتمّ وأكمـل وأشرفُ من نـور المِصـباح؟

قلنـا: إنّـما لم يمثلـه تعـالى بنور الشّمـع لأنّ في الشمع غشّاً لا محـالة بخـلاف الزّيـت الموصوف. فـلو مثّله تعـالى بنور الشّمع لتطاوَلِ المُنافـق المغشوش إلى استحـقاق نصيبٍ في المعرفة!

الثـاني: أنـه تعـالى إنـما لم يمثّله بنور الشمع لأنّـه مخـصوصٌ بالأغنيـاء بخـلاف نـور المعرفة فـإنّـه في الفقـراء أغلب.

فـإن قيل: التّجـارة تشملُ الشّراء والبيع، فـما فـائد عـطف البَيع عليهـا في قـوله تعـالى: ﴿لاَ تُلْهِيْهِـمْ تِجَـارةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله﴾ [٢٤/٣٧]؟

قلنـا: قيـل: التّجـارة هـي الشّراء والبيع الـذي يـكون صناعة للإنسَان، ومقصوداً به الرّبح وهو حرفة الشخص الذي يسمىٰ تاجراً والبيع أعم من ذلك.

وقيل: المـراد بالتّجـارة هنـا مبادلة الآخـرة بالدُّنيـا كـما في قـوله تعـالى(٥): ﴿أُولئكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدٰى فَمـا رَبِحَتْ تِجَـارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ﴾.

والمـراد بالبيع مبادلة الدّين بالدُّنيـا كـما في قوله تعالى(٦): ﴿فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُوا البَيْعَ﴾.

(٥) البقـرة: ٢/١٦
(٦) الجمعة: ٦٢/٩.

وقيل: إنّما عطف البيع على التّجارة لأنه أراد بالتّجارة الشراء إطلاقاً لاسم الجِنس على النوع.

وقيل: إنما عطفه عليه للتّخصيص والتّمييز من حيثُ إنه أبلغ في الإلهاء لأن البيع الرابح يتعقّبه حُصول الرّبح بخلاف الشّراء الرابح فإن الرِّبح فيه مظنونٌ مع كونه مُترقَّباً مُنتظراً.

وقيل: التّجارة مخصوصةٌ بأهل الجلب بخلاف البيع.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ من مَاءٍ﴾ [٢٤/٤٥] ونصفُ الدوابّ ليسَ مخلوقاً من الماء كآدم عليه السلام وناقة صالح وغيرهما؟

قلنا: المراد بهذا الماء، الماء الذي هو أصل جميع المخلوقات. وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الأشياء جوهرة ونظر إليها نظرة هيبة فاستحالت ماءً فخلق من ذلك الماء جميع الموجُودات. وقد سبق مثلُ هذا السؤال في قوله تعالى[٧]: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ﴾.

فإن قيل: إذا كان الجواب هذا فما فائدة تخصيص الدّابّة بالذكر أو تخصيص الشيء الحَيّ؟

قلنا: إنّما خصّ بالذكر لأَنّ القُدرة فيه أظهر وأعجب منها في الجَماد وغيره.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [٢٤/٤٥] وقال تعالى: ﴿مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [٢٤/٤٥] وهي هُنا ممّا لا يعقل؟

---

(٧) الأنبياء: ٢١/٣٠

قلنا: لمّا كان اسمُ الدابّة يتناول المميّز وغيره، غَلَّبَ المميّز على غيره فأجرى عليه لفظه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [٢٤/٤٥] وذلك إنما يسمىٰ زَحفاً لا مَشْياً ولا يسمىٰ مَشْياً إلا ما كَان بِالقوائم؟

قلنا: هو مجازٌ بطريق المُشَابهة كما يقال مَشى هذا الأمر وفلان لا يتمشى له أمر وفلان ماشِي الحال.

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى بالاستئذان الأَطفال الّذين لم يَبْلُغوا الحلم بقوله تعالى: ﴿وَالّذِيْنَ لَم يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ [٢٤/٥٨] أي من الأحرار؟.

قلنا: هو في المعنى أَمرٌ للآباء والأُمَّهات بتأديبِ الأطفال وتهذيبهم لا للأَطفال.

فإن قيل: كيف أباح تعالى للقَواعد من النِّساء وهُن العَجائز التجرّد من الثياب بحضرةِ الرجال بقوله تعالى: ﴿وَالقَواعِدُ مِنَ النِّساء﴾ [٢٤/٦٠] الآية؟.

قلنا: المراد بالثِّياب هنا الجلباب والرّداء والقناع الّذي فوق الخمار لا جميع الثياب. وقوله تعالى: ﴿غَيرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بزِينَةٍ﴾ [٢٤/٦٠] أي غير قاصدات بوضع الثّياب الظاهرة إظهار زينتهن ومحاسِنهن، بل التَّخَفُّف. ثم أَعقبه بالتعفّف بترك الوضع خيرٌ لهُنّ.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُم أَن تأكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [٢٤/٦١] مع أَنّ انتفاء الحرج عن أَكل الإنسان من بيته معلومٌ ولا شكّ فيه ولا شُبهة؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿من بيوتكم﴾ أي من بُيوت أولادكم لأن ولد الرجل بَعضه، وحكمه حكم نفسه؛ فلهذا عبّر عنه به. وفي

الحديث(٨) أنّ أطيب ما يأكل الرّجُل من كسبه، وإن ولده من كَسْبِه. ويؤيّد ذلك أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد.

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيوتِكُمْ﴾ [٦١/٢٤] أي تأكلوا من بيوتكم من مال أولادكم وأزواجكم الّذين هم في بُيوتكم ومن جُملة عيالكم.

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿من بيوتكم﴾ البيوت التي تسكنونها وهم فيها عيالٌ لغيرهم كبيت ولد الرجل وزوجه وخادمه ونَحْو ذلك.

فإن قيل: معنى السَّلام هو السَّلامة والأمن، فإذا قال الرجل لغيره: السلام عليك، كان معناه سلمتَ مني وأمنت، فما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَاً فَسَلِّموا على أَنْفُسِكُمْ﴾ [٢٤/ ٦١]؟

قلنا: المُراد به: فإذا دخلتم بيوتكم فسلّموا على أهلكم وعيالكم.

وقيل معناه: إذا دخلتم المَساجد أو بيوتاً ليس فيها أَحَدٌ فقولوا: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين؛ يعني من رَبّنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِيْنَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [٢٤/٦٣] وإنّما يقال: خالف أَمْرَه؟

قلنا: عن زايدة: كذا قاله الأخفش.

الثاني: أن فيه إضماراً تقديره فليحذر الّذين يُخالفون الله ويُعرضون عن أمره.

أو ضَمّن المخالفة معنىٰ الإعراض، فعدّاه تعديته.

---

(٨) أخرج الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ أطيب ما أكل الرّجلُ من كسبه، وإن ولده من كسبه». المسند ٣١/٦

سُورَةُ الفُرْقَان

فإن قيل: الخَلْقُ هو التّقدير ومنه قوله تعالى[1]: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي تقدّر، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيْراً﴾ [٢٥/٢] فكأنه قال تعالى: وقدَّر كل شيء فقدَّره تقديراً؟

قلنا: الخَلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث، فمعناه: وأوجد كلّ شيءٍ مقدَّراً مُسوًّى مُهيأً لما يَصلُحُ له، لا زائداً على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ولا ناقصاً عن ذلك.

الثاني: أن معناهُ: وقدّرَ له ما يُقيمه ويصلحه.

أو: وقدّر له رِزقاً وأجلاً وأحوالاً تَجْري عليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في صفة الجَنَّة التي وُعِدَ المتقون: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيْراً﴾ [٢٥/١٥] وهي ما كانت بَعْدُ وإنما تكونُ كذلك بعد الحَشْرِ والنَّشْرِ؟

قلنا: إنّما قال «كانت» لأنّ ما وعد الله تعالى فهو في تحقّقه كأنّه قد كان.

أو معناه: كانت في عِلم الله مكتوبةً في اللّوح المحفوظ: إنها جَزاؤهم ومصيرهم.

فإن قيل: ما فائدةُ تأخير الهوىٰ في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [٢٥/٤٣] والأصل: اتّخذ الهوىٰ إلٰهاً، كما تقول: اتّخذ الصَّنم معبوداً؟

---

(١) المائدة: ٥/١١٠

قلنا: هو من باب تقديم المفعول الثاني على الأوّل كما تقول: علمتُ مُنطلقاً زيداً، لفضلِ عنايتك بانطلاقه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ أَو يَعْقِلُوْنَ﴾ [٢٥/ ٤٤]؟

قلنا: قد مرّ هذا السُّؤال، وجوابُه في قوله تعالى(٢): ﴿قَدْ جَاءَهُمْ بالحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُوْنَ﴾.

فإن قيل: كيف شبَّههم ـ سبحانه ـ بالأنعام في الضّلال بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إلاّ كالأَنْعَامِ﴾ [٢٥/ ٤٤] مع أنّ الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبّحه بدليل قوله تعالى(٣): ﴿وَإِن مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ﴾ وقوله تعالى(٤): ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ﴾؟

قلنا: المُراد بتشبيههم بالأنعام: في الضّلال عن فَهم الحق، ومعرفة الله تعالى بواسطة دعوةِ الرَّسُول ﷺ.

الثّاني: أنّ المراد تشبيههم في الضّلال والعمىٰ عن أمر الدِّين بالأنعام في ضلالها، وعَماها عن أمر الدُّنيا.

فإن قيل: إنْ كانُوا كالأنعام في الضَّلال فكيفَ قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [٢٥/ ٤٤] وإن كانوا من الأنعام، فكيف قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إلّا كالأَنْعَامِ﴾ [٢٥/ ٤٤] وإن كانوا كالأنعام في الضلال، وأضلّ منها أيضاً، فكيف يجتمعُ الوَصفان؟.

---

(٢) المؤمنون: ٢٣/ ٧٠
(٣) الإسراء: ١٧/ ٤٤
(٤) الجمعة: ٦٢/ ١

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُم إلا كالأنعام﴾ التشبيه في أصل الضلال لا في مِقداره. **والثاني**(*): يُقال لمقداره.

وقيل: المُراد بالأول التّشبيه في المقدار أيضاً، ولكنّ المراد بالأوّل طائفة، وبالثّاني طائفة أُخرى. ووجه كونهم أضلّ من الأنعام أن الأنعام تنقادُ لأربابها التي تعرفها، وتتعهَّدُهَا، وتعرف من يُحسن إليها ممّن يسيء إليها، وتطلبُ ما ينفعها، وتجتنبُ ما يضُرّها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءَة الشّيطان الذي هو عدوٌّ لهم، ولا يطلبون الثّواب الذي هو أعظمُ المَنافع، ولا يتّقُون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارّ والمَهالِكِ، ولا يهتدون للحقّ الذي هو المَشْرَعُ المبين، والعَذب الرَّوِيّ.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ [٢٥/٤٨] كيف ذكَّر الصّفة، والموصوف مؤنث، ولم يؤنّثها كما أنثها في قوله(٥): ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ﴾؟

قلنا: إنما ذَكّرها نظراً إلى معنىٰ البَلدة وهو البَلَدُ والمكان لا إلى لفظِها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً، ونُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ [٢٥/٤٩] ،إنزاله موصوفاً بالطُّهورية، وتعليل ذلك بالإحياء والسَّقي يتعين بأن الطهورية شرطٌ في حصول تلك المصلحة كما تقول: حملني الأمير على فرسٍ سابق لإصِيْدَ له الوحش؛ وليس كذلك.

(*) يعني في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [٢٥/٤٤].

(٥) يس: ٣٦/٣٣

قلنـا: وصفُ الطّهـورية ذُكِرَ إكـراماً للأنـاسي الذين مَشْرَبُهُـمْ من جُـملةِ المصـالح التي أُنـزل لهـا المـاء، وإتـماماً للنّعـمَةِ والمِنَّـة عليهـم، لا لكونهِ شَرطاً في تحـقيق تـلك المَصـالح والمَنافع؛ بخـلاف النّظير، فـإنـه قـصد بـكونه سـابقاً الشرطية، لأنّ صـيد الوحـش على الفَرس لا يتمّ إلا بهـا.

فـإن قيل: كـيف خَصّ تعـالى الأنعـام بـذكر السّقي دون غيرهـا من الحَـيوان الصَّامـت؟

قلنـا: لأنّ الطّير والوحـش تبعدُ في طـلب المـاء، ولا يعوزهـا الشُّرب بخـلاف الأنعـام.

الثـاني: أَن الأَنعام قنية الأناسي؛ وعامّة منافعهم متعلقةٌ بها، فكان الإنعـامُ بِسَقْي الأَنعـام، كالإنعـام بِسَقْي الأَنـاسِيّ؛ فـلذلك خـصّهـا بالذكر.

فـإن قيل: كـيف قَدّم تعـالى إحـياءَ الأَرض وسقَي الأَنعـام على سَقْي الأَنـاسِي؟

قلنـا: لأنّ حـياة الأَنـاسِيّ بِحـياة أَرضهـم وأنعامهـم، فقدّم ما هو سبَبُ حـياتهـم ومَعاشِهـم.

الثـاني: أَنّ سـقي الأَرض بـماء المـطر سابقٌ في الوجود على سَقي الأَنـاسِيّ.

فـإن قيل: كـيف وَجْهُ صِحّـة الاستثنـاء في قـوله تعـالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إلاَّ مَنْ شَاءَ أَن يَتَّخِـذَ إلىٰ رَبِّهِ سَبِيْلاً﴾ [٢٥/٥٧]؟

قلنـا: هـو استثنـاء مُنقـطع؛ تقديره: لكنْ مَن شـاء أن يتّخـذ إلى ربّـه سبيلاً فأنا أدلّه على ذلك وأهديه إليه. **وقيل**: تقديرُه: لكنْ من شـاء أن يتخذ إلى رَبِّه سبيلاً بإنـفاق مـاله في مَرْضاتِهِ فليْفعل ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هُنا: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ﴾ [٥٧/٢٥] أي أجْراً، لأن «مِن» لتأكيد النّفي وعمومه، وقال تعالى(٦): ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَودَّةَ فِي القُرْبىٰ﴾؛ فأثْبَت سُؤالَ الأَجر عليه؟

قلنا: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى(٧): ﴿قُل مَا سأَلْتُكُمْ مِن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ أي إن أجري إلا علىٰ الله ، رواه مقاتل والضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والصحيح الذي عليه المحقّقون: أنها غيرُ منسوخة بل هو استثناء من غير الجِنْس، تقديره: لكنّي أذكركم المودّة في القربىٰ.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا للمُتَّقِيْنَ إِمَاماً﴾ [٧٤/٢٥] ولم يقل: أئمة؟

قلنا: مراعاة لفواصل الآيات.

وقيل: تقديره واجعَلْ كلّ واحد منّا إماماً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُلقَّوْنَ فِيْهَا تَحِيَّةً وسَلَاماً﴾ [٧٥/٢٥] وهما بمعنى واحد، ويؤيده قوله تعالى(٨): ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم(٩): «السَّلام تحيَّةُ أهلِ الجنّة فِي الجَنَّة»؟

قلنا: قال مقاتل: المُراد بالتحية سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسّلام أن الله تعالى سلّمهم مما يخافون، وسلّم إليهم أمرهم.

(٦) الشورى: ٢٣/٤٢
(٧) الأنعام: ١٩٠/٦
(٨) الأحزاب: ٤٤/٣٣
(٩) في مسند الإمام أحمد ٤: ٣٨١.

وقيل: التحيّة من الملائكة، أو من أهل الجنة، والسلام من الله تعالى عليهم، لقوله تعالى(١٠): ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رَحِيْمٍ﴾

وقيل: التحيّةُ من الله تعالى لهم بالهدايا والتّحف، والسَّلام بالقول. وقيل: التحيّةُ: الدُّعاء بالتَّعمير، والسَّلامُ: الدَّعاءُ بالسَّلامة؛ فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم عن بعض، أو يلقون ذلك من الله تعالى فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كل آفة.

(١٠) يس: ٥٨/٣٦

سُوْرَةُ الشعَرَاء

فإنْ قيل: كيف قال تَعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِيْنَ﴾ [٢٦/٤] والأعناق لا تعقل؟

قلنا: قيل أَصل الكلام فظلّوا لها خاضعين؛ فأقحمت الأعناق لبيان موضِع الخُضوعِ؛ ونزل الكلام على أَصله، كقولهم: ذهبت أهل اليمامة، كأن «الأهل» غير مذكور، ومثلهُ قول الشاعر[١]:

رأتْ مَرَّ السِّنين أَخَذْنَ مِنّي كما أَخَذَ السِّرارُ من الهلالِ!

ولمّا وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو من صفات العقلاء جمعت جمع العُقَلاء، كقوله تعالى[٢]: ﴿والشَّمْسَ والقَمَر رأَيتُهُمْ لِي ساجِدِيْنَ﴾.

وقيل: الأَعناقُ: رؤساء النّاس ومُقَدَّمُوهم؛ شُبّهوا بالأعناق، كما قيل لهم: الرؤوس، والنَّواصي، والوُجوه.

وقيل: الأعناق: الجَماعات، يقال: جاءني عنق من النّاس، أي جماعة.

وقيل: إنّ ذلك لمراعَاةِ الفواصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾ [٢٦/١٦] فأَفْرَد، وقال في موضع آخر[٣]: ﴿إِنّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾؟

قلنا: الرَّسُول يكون بِمعنىٰ المُرسَل، فيلزم تثنيته.

---

(١) هو جرير كما في تفسير القرطبي: ١٣/٩٠ ـ ولم أجد البيت في ديوانه.
(٢) يوسف: ١٢/٤
(٣) طه: ٢٠/٤٧

ويكون بمعنىٰ: الرسالة، التي هي المصدر فيوصف به الواحد والاثنان، والجماعة، كما يوصف بسائر المصادر.

والدليل على أنه يكون بمعنىٰ الرسالة قول الشاعر:

لقد كذَب الواشُون ما بُحْتُ عِندهم بسرٍّ ولا أَرسلتهُمْ برسولِ

أي: برسالة.

فإن قيل: كيف قال مُوسىٰ عليه السلام معتذراً عن قتل القِبطيّ: ﴿فَعَلْتُها إِذاً وأَنا مِنَ الضَّالِّيْنَ﴾ [٢٦/ ٢٠] والنَّبيُّ لا يكون ضالاًّ؟

قُلنا: أراد به من الجاهلين، وكذا قراءة ابن مسعود.

وقيل: من المُخطئين، لأنّه ما تَعَمَّدَ قتله، كما يقال: ضلّ عن الطّريق إذا عدَل عن الصَّواب إلى الخطأ.

وقيل: من النّاسِين، كقوله تعالى(٤): ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرىٰ﴾.

فإن قيل: كيف قال فِرعون: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِيْنَ﴾ [٢٦/٢٣] ولم يقل: «ومَن ربُّ العالمين»؟

قلنا: هو ـ كان ـ أعجميّ القَلب عن معرفةِ الله تعالى؛ منكِرٌ لوجوده؛ فكيف ينكَرُ عليه العُدول عن «من» إلى «ما»؟

الثاني: أنَّ «ما» لا تختصُّ بغير المُميّز، بل تُطلق عليهما، قال الله تعالى(٥): ﴿فَانكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ وقال تعالى(٦): ﴿وَلَآ أَنتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

---

(٤) البقرة: ٢/٢٨٢
(٥) النساء: ٤/٤
(٦) الكافرون: ١٠٩/٤

فإن قيل: كيف قال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبُّ السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما إن كُنتُمْ مُوقِنِيْنَ﴾ [٢٦/٢٤] علّق كونه تعالى ربَّ السموات والأرض وما بينهما بشرط كونِ فرعون وقومه مُوقنين؛ وهذا الشرط مُنتفٍ والرُّبوبية ثابتةٌ، فكيفَ صحَّ التّعليق؟

قلنا: معناه: إن كنتم موقنين أنّ السموات والأرض موجودة، وهٰذا الشَّرط موجود.

الثاني: أنّ «إنْ» نافية لا شرطية.

فإن قيل: ذكر السموات والأرض قد استوعب ذِكر المخلوقات كلّها فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُم الأَوَّلينَ﴾ [٢٦/٢٦] وقوله: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ﴾ [٢٦/٢٨]؟

قلنا: أعاد ذِكرها تخصيصاً لها، وتمييزاً لأنّ أقرب المنظور فيه مِن العاقل نفسه، ومَنْ وُلد منه، ومَنْ شاهد وعاينَ مِنَ الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة، ومن حال إلى حال، ومن وقت ولادته إلى وقت وفاته.

ثم خَصّ المشرق والمغرب لأنّ طُلوع الشّمس من أَحدهما، وغُروبها في الآخر، على تقديرٍ مُستقيمٍ في فُصول السَّنة، وحساب مُسْتَوْفىً أظهر ما يستَدلُّ بِهِ علىٰ وُجودِ الصَّانع. ولِظهورِه انتقل خليلُ الله عليه الصّلاة والسّلام إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإِحْيَاءِ والإماتة، فَبُهِتَ الَّذي كَفَر(٧).

فإن قيل: كيف قال أَوّلاً: ﴿إن كُنْتُمْ مُوقِنينَ﴾ [٢٦/٢٤] وقال آخراً: ﴿إن كُنتم تَعْقِلُونَ﴾ [٢٦/٢٨]؟

---

(٧) الإشارة هنا إلى ما في سورة البقرة: ٢/٢٥٨: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إبراهِيْمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ الله المُلْكَ إذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي ويُمِيْتُ قال أنا أُحْيِي وأُمِيْتُ قال إبراهيمُ فإنَّ الله يَأتي بالشَّمسِ مِنَ المشرِقِ فأْتِ بها مِنَ المَغْرِب فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ والله لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ﴾؛ وفي التفاسير أن الذي حاج إبراهيم عليه السلام هو النّمروذ ملك زمانه.

قلنا: لاَيَنَهُم، ولاطَفَهُم أوّلاً، فلمّا رأىٰ عِنادهم وإصرارهم خاشَنهم، وعارَض قوله: ﴿إنّ رَسُولكُم الّذي أرسل إليكُمْ لَمجْنُونٌ﴾ [٢٦/ ٢٧] بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ [٢٦/ ٢٨].

فإن قيل: «لأَسْجُنَنّك» أخصَرُ من قوله: ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِيْنَ﴾ [٢٦/ ٢٩] فكيف عدل عنه؟

قلنا: كان مراده العهد، فكأنه قال: لأجعلنك واحداً ممّن عرفتَ حالهم في سِجني. وكان فرعونُ ـ عليه اللّعنة ـ إذا سجَن إنساناً طرَحه في هوّةٍ عميقة جدّاً مُظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع. فكان ذلك أوجعَ من القتل وأشدّ نِكاية.

فإن قيل: قصّة موسى عليه السلام مع فرعون والسّحرة ذكرت في سورة الأعراف، ثم في سورة طٰه، ثم في هذه السورة، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص؟

قلنا: فائدته تأكيدُ التّحدّي، وإظهار الإعجاز، كما أنّ المبارز إذا خرج من الصفّ قال: نَزالِ! نَزالِ! هل من مُبارز؟ هل من مُبارز؟ مكرّراً ذلك. ولهذا أسمى الله القرآن[٨] ﴿مَثاني﴾ لأنّه تثنّت فيه الأخبار والقصص[٩].

الثاني: أن أصحاب النبي ﷺ كان بعضُهم حاضرين، وبعضهم غائبين في الغزوات، وكانوا يحبّون حضور مهبط الوحي، فكانوا إذا

(٨) الحجر: ١٥/٨٧، (وفي الزّمر: ٣٩/٢٣).

(٩) أورد المفسّرون وجوه معاني (المثاني) والمقصود بها. فقيل هي السّبع الطول، وسمّيت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنّيت فيها. وقيل: المثاني القرآن كله. وقيل له مثاني لأن الأنباء والقصص ثنّيت فيه.
(ينظر مثلاً القرطبي ١٠: ٥٥).

رجعـوا من غزوهـم أكرمهـم الله تعـالى في بعض الأوقـات بإعـادة الوَحـي تشريفاً لهـم وتفضيلاً.

فـإن قيل: كـيف كـرّر الله تعـالى ذكر قـصة موسى عليه السلام أكثـر من قصص غيره من الأنـبياء؟

قلنـا: لأنّ أحـواله كـانت أشـبه بأحـوال النبي ﷺ من أحـوال غيره منهـم، في إقـامـة الحجج، وإظهـار المُعجـزات لأهـل مصـر، وإصـرارهـم على تكذيبه، والجـفاء عليه، كـما كـان حـال النبي ﷺ مع أهـل مـكّة.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿فَلَمّـا تَرَاءَىٰ الجَمْعَانِ﴾ [٢٦/٦١] والتّرائي (تَفاعُـل) من الرُّؤيـة، فيقتضي وجـود رؤيـة كـل جـمع الجـمع الآخـر. والمنقول أنهـم لم يَروا بعضهـم بعضاً؟

قلنـا: التّرائي يستعمـل بمعنىٰ التّداني والتقابـل أيـضاً، كـما قـال عليه الصلاة والسلام(١٠): «المُؤمن والكافر لا يتراءَيـان» أي لا يَتَدانيـان، ويقـال: دُوْرُنـا تَتراءَى، أي تتقارب وتتقابل.

فـإن قيل: كـيف قـال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [٢٦/٨٠] ولم يـقل: «إذا أَمرضنـي»؟

قـلنا: لأنـه في معرض الثّنـاء على الله تعـالى وتعـديد نعمـه، فأضـاف إليه الخَـير المحـض حـفظاً للأدب وإن كـان الكـلّ مُضـافاً إليه. ونظيرُه قـول الخـضر عليه السَّلام(١١): ﴿فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيْبَهَـا﴾؛ وقـوله(١٢): ﴿فَأَرَادَ رَبُّـكَ أَن يَبْلُغَـا أَشُدَّهُـمَا﴾.

---

(١٠) حـديث.
(١١) الكهـف: ١٨/٧٩
(١٢) الكهـف: ١٨/٨٢.

فإن قيل: هذا الجوابُ يَبطل بقوله[١٣]: ﴿وَالَّذِي يُمِيْتُنِي﴾ [٢٦/٨١] وبقوله[١٣]: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا﴾.

قلنا: إنما أضاف الموت إلى الله تعالى لأنه سبب لقائه إياه، وانتقاله إلى دار كرامته، فكان نعمةً من هذا الوجه.

وقيل: إنّما أضاف المَرض إلى نفسه لأن أكثر الأمراض تَحدث بتفريطِ الإنسان في مطاعِمه ومَشارِبه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُوْنَ﴾ [٢٦/٨٨] والمال الذي أنفق في طاعة الله ورسوله وسبيله ينفع، والولد الصالح ينفع، والولد الذي مات صغيراً يَشفع، وشواهد ذلك كثيرةٌ من الكتاب، والسنة خصوصاً قوله عليه الصلاة والسلام[١٤]: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...» الحديث؟

قلنا: المُراد بالآية أنّهما لا ينفعان غير المؤمن، فإنّه يأتي بقلبٍ سليم من الكفر، والمراد بهما مال لم ينفق في طاعة الله تعالى وولد بالغ غير صالح.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِيْنَ﴾ [٢٦/٩٠] أي قُرّبت، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تُحَوّل؟

قلنا: معناه: وأَزلف المُتّقون إلى الجنة، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة: «قَرُبت مكّة منّا».

وقيل: إنّها كانت محجوبةً عنهم فلمّا ارتفعت الحجُب بينهم وبينها، كان ذلك تقريباً لها.

---

(١٣) الكهف: ١٨/٨١

(١٤) في الفتح الكبير ١/١٥٤ برواية: «إذا مات الإنسان...».

فإن قيل: كيف جمع الشّافع، ووحّد الصّديق في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُم مِن شافِعِيْنَ، ولا صَدِيْقٍ حَمِيْمٍ﴾ [٢٦/١٠١]؟

قلنا: لكثرة الشُّفعاء في العادة، وقلّة الصديق: ولهذا رُوي أنّ بعض الحكماء سُئل عن الصّديق فقال: «هو اسم لا معنىً له»! أراد بذلك عِزّة وُجوده.

ويجوز أن يُراد بالصديق الجمع، كالعَدُوّ.

فإن قيل: كيف قرن بين الأنعام والبَنِين في قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُمْ بأَنْعامٍ وَبَنِيْنَ﴾ [٢٦/١٣٣]؟

قلنا: لأن الأنعامَ كانت من أعزّ أموالهم عندهم، وكان بنوهم هم الذين يُعينونهم على حِفظها، والقيام عليها، فلهذا قَرَن بينهما.

فإن قيل: قولُه تعالى: ﴿أَوَعَظْتَ أَم لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِيْنَ﴾ [٢٦/١٣٦]؛ وكان «أم لم تَعِظْ» أخصَر فكيف عدل عنه؟

قلنا: معناه: سَوَاءٌ علينا أَفَعَلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلاً، وهذا أبلغُ في قلّة اعتدادهم بوعظه من قوله: «أم لم تعظ».

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا من النّادِمِيْنَ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ﴾ [٢٦/١٥٧] كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على خِيانتهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام(١٥): «النَّدَمُ تَوبةٌ»؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما ندموا حين رأوا العذاب، وذلك ليس وقت التوبة، كما قال تعالى(١٦): ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ للَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئاتِ﴾ الآية.

---

(١٥) في مسند الإمام أحمد ١:٢٤٣ و٤٣٣.
(١٦) النساء: ٤/١٨

وقيـل: كـان نـدمهـم نـدم خوف من العقاب الداخـل لا نـدم توبـة، فـلذلك لم ينفعهـم.

فـإن قيل: كـيف طلب لوط عليه السّلام تنجيته من اللّواط بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُوْنَ﴾ [٢٦/ ١٦٩] واللواط كـبيرة، والأنـبياء معصومـون من الكبـائر؟

قلنـا: مـراده: رب نجّـني وأهـلي من عُقـوبة عمَلهـم، أو من شُؤمـه. والدَّليل علىٰ ذلك ضمّـه أهـله إليه في الدّعـاء، واستثنـاء الله تعـالى امرأتـه في قَبُول الدَّعـوة.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى في قـصة شعيب عليه السلام: ﴿إِذْ قَـال لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [٢٦/ ١٧٧] ولـم يـقل «أخـوهم» كـما قـال في حـق غيره هـنا، وكـما قـال في حـقه في موضع آخـر؟.

قلنـا: لأنـه هـنا ذكر مع أَصحـاب الأَيـكة، وهـو لـم يـكنْ منهـم، وإنّـما كـان من نَسـل مَدْيَن. كـذا قـاله مقاتـل.

وفي الحـديث أن شعيباً أَخـا مَدْيَـن أُرسـل إليهـم، وإلى أصحـاب الأَيـكة.

وقـال ابن جـرير الطَّبري: أهـل مَدْيَن هـم أصحـاب الأَيـكة، وعـلىٰ هـذا يـكون حـذفُ (الأَخ) تخـفيفاً.

فـإن قيل: ما الفَرْقُ بـين حَـذف الواو في قـصة صالح، وإثباتهـا في قـصة شُعـيب عليهـما السـلام في قـولهم: ﴿مَـا أَنْـتَ إِلاّ بَشَـرٌ مِثْلُنَـا﴾ [٢٦/ ١٨٦]؟

قلنـا: الفرق بينهـما أن عند إثـبات الواو: المقصودُ مَعنـيان كـلاهما مُنافٍ للرسـالة عِندهـم: التّسخـير، والبَشريـة؛ وعنـد حـذف الواو المقصودُ

معنىً واحد منافٍ لهما وهو كونه مسخّراً، ثم قدّروا[١٧] التسخير بالبشرية. كذا أجاب الزمخشري[١٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الكَهنة والمتنبّئة كشِقّ، وسُطَيح، ومُسَيلمة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [٢٦/٢٢٣] بعد ما قضىٰ عليهم، أن كل واحد منهم ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٢٦/٢٢٢] والأفّاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر، ويلزم من هذا أن يكون كلّهم كذابين؛ فلا أقلّ من أن يكون كلهم كذابين؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى: ﴿وأكثرهم﴾ عائد إلى الشياطين لا إلى كلّ أفاك.

(١٧) انتهت العبارة في (ب) هنا، ولم ترد الكلمتان الأخيرتان.

(١٨) عبارة الكشاف (٣: ١٢٧): «إذا أدخلت الواو فقد قُصِد مَعْنَيان كلاهما منافٍ للرّسالة عندهم: التسخير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسخراً ولا يجوز أن يكون بشراً. وإذا تركت الواو فلم يقصد إلاّ معنىً واحد وهو كونه مسخّراً. ثم قرّر بكونه بشراً، مثلهم».

سُوْرَةُ النمْل

فإن قيل: ما فائدة ذكر الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُبِيْنٍ﴾ [٢٧/١]؟

قلنا: فائدته التّفخيم له، والتعظيم كقوله تعالى(١): ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

فإن قيل: العطف يقتضي المُغَايرة، فكيف عطف «الكتاب المُبين» على «القرآن»، والمراد به القرآن؟.

قلنا: قيل إن المراد بالكتاب المبين: اللوح المحفوظ، فعلىٰ هذا لا إشكال، وعلى القول الآخر نقول: العَطف يقتضي المغايرة مطلقاً إما لفظاً أو معنىٰ، بدليل قول الشّاعر(*):

فَأَلْفَىٰ قولها كذباً ومَيْناً.

وقولهم: جَاءني الفقيه والظريف؛ والمغايرة لفظاً ثابتة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿زَيَّنّا لَهُمْ أَعْمَالَهُم﴾ [٢٧/٤] وقال في موضع آخر(٢): ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؟

قلنا: تَزيينُ الله تعالى لهُم الأَعمال بخلقِه الشّهوةَ والهوىٰ، وتركيبهما فيهم، وتزيين الشّيطان بالوسوسة والإغواء، والغُرور والنّميمة. فصحت الإضافتان.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿سَآتِيْكُمْ﴾ [٢٧/٧]. وفي سورة

---

(١) القمر: ٥٤/٥٥

(*) هو عديّ بن زيد العبادي، والبيت في ديوانه (١٨٣) وصدرُهُ: «فَقَدَّدَتِ الأَديمَ لِرَاهِشَيْهِ».

(٢) الأنفال: ٨/٤٨

طه(٣): ﴿لَعَلّي آتِيْكُمْ﴾؛ وأحدهما قطع والآخر تَرجٍ، والقصّة واحدة؟

قلنا: قد يقول الراجي إذا قَوِيَ رجاؤه سأفعل كذا، أو سيكون كذا؛ مع تجويزه الخَيْبَة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَنْ بُوْرِكَ مَنْ في النَّارِ﴾ [٢٧/٨] مع أنه لم يكن في النار أحد، بل لم يكن المرئيّ ناراً، وإنّما كان نوراً في قول الجمهور.

وقيل: كان ناراً ثم انقلبت نوراً؟

قلنا: قال ابن عباس والحسن رضي الله عنهم معناه: قُدّس مَنْ ناداه مِنَ النّار، وهو الله عز وجل لا عَلىٰ معنىٰ أن الله تعالى يحلّ في شيء، بل على معنى أنْ أسمعه النداء من النار(٤).

الثاني: أن «من» زائدة، والتقدير بورك في النار وفيمن حولها، وهو موسى عليه السلام أو الملائكة.

الثالث: أن معناه بورك من في طلب النّار وهو موسىٰ عليه السلام.

فإن قيل: إنما يقال: بارك الله في كذا، ولا يقال بارك الله كذا.

قلنا: قال الفرّاء: العرب تقول: باركَه الله، وبارك له، وبارك فيه، وبارك عليه؛ بمعنى واحد؛ ومنه قوله تعالى(٥): ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وفي لفظ التحيات: وبارك على محمد وعلى آل محمد.

فإن قيل: كيف وجه صحّة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُوْنَ. إلاّ مَنْ ظَلَمَ﴾ [٢٧/١٠ ـ ١١] الآية؟

قلنا: فيه وجوه:

---

(٣) طه: ٢٠/١١

(٤) زيد هنا في الأصلين: في زعمه.

(٥) الصافات: ٣٧/١٣

أحـدها: أنه استثنـاء منقـطع بمعنى: «لكـنْ».

الثّـاني: أنّهُ استِثنـاء متّـصل؛ كـذا قـاله الحسن وقتـادة، ومقـاتل، ومعنـاه: إلا من ظلم منهـم بارتكـاب الصغيرة كآدم ويونـس، وداوود، وسليمـان، وإخـوة يـوسف، وموسـى وغيرهـم عليهـم الصلاة والسلام، فـإنّـه يخـاف ممّا فعله، مع علمه «أنـه غفور رحـيم»، فيكون تقدير الكلام: إلا من ظَلَمَ منهم فإنّه يخـاف ممّن ظُلِمَ، ثـم بدّل حَسناً بعد سوء فـإني غفور رحـيم. ولهـذا قـال بعضهـم: إن هنـا وقفاً على قوله تعـالى: ﴿إلا من ظلم﴾ وابتداء الكـلام الثـاني محـذوف كـما قدَّرنـا.

الثـالث: أن «إلا» بمعنىٰ «ولا» كـما في قـوله تعالى(٦): ﴿لِئَلَّا يكُوْنَ للنَّـاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّـةٌ إلاّ الَّذِيْنَ ظَلَمُـوا مِنْهُـمْ﴾؛ أي: ولا الَّذين ظلموا منهـم.

الـرابع: أن تـقديره: «إني لا يخـاف لـدي المرسـلون ولا غير المرسلين إلا من ظـلم» الآيـة.

فـإن قيل: كيـف قـال سُلَيمـان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنـا﴾ [١٦/٢٧] و ﴿أُوْتِيْنَـا﴾ [١٦/٢٧] بنـون العظـمة، وهـو من كـلام المتكبّرين؟

قلنـا: لم يـرد بـه نـون العظمـة، وإنـما أراد بـه نون الجـمع، وعنىٰ نفسه وأبـاه.

الثّـاني: أنّـه كـان ملكـاً مع كـونه نبياً فراعىٰ سياسة المـلك، وتكلّـم بـكلام المُـلوك.

فـإن قيل: كـيف حـلّ له تعذيبُ الهـدهد حـتى قـال: ﴿لأُعَذِّبَنَّـهُ عَذَاباً شَدِيْداً﴾ [٢١/٢٧]؟

---

(٦) البقرة: ١٥٠/٢.

وينظر للتفصيل، مثلاً، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦١/١٣ وكتاب: (تنزيه الأنبياء لابن حمير الأموي) لموضوع ارتكاب الصّغيرة وتنزيه أنبياء الله عنها ناهيك عن الكبيرة.

قلنـا: لَعل ذلك أُبيح له خـاصة كـما خُصّ بفهـم منطِق الطَّير، وتسخـيره له، وغير ذلك.

فـإن قيل: كيف استعظَم الهُدهُـد عَرشَها مع مـا كان يـرىٰ مِن مـلك سليمـان حـتىٰ قـال: ﴿وَلَهـا عَرْشٌ عَظِيْمٌ﴾ [٢٧/٢٣]؟

قلنـا: يجـوز أنـه استصغر حـالها بالنسبـة لحـال سُلَيمـان، فاستعظـم لهـا ذلك العَرْش.

الثـاني: أنّـه يجـوز أن لا يـكون لسليمـان مثـله، وإن عَظُمَـت مملكـته في كـلّ شيءٍ كـما يـكون لبعضِ الأُمَـراء شـيء لا يـكون للمـلك مثـله.

فـإن قيل: كـيف قـال الهُـدهد: ﴿وَأُوْتِيَتْ مِن كُلِّ شيءٍ﴾ [٢٧/٢٣] مع قـول سليمـان: ﴿وَأُوتيـنا مِن كُلّ شَيْءٍ﴾ [٢٧/١٦] فـكأنـه سـوّى بينهما؟

قلنـا: بينهـما فرقٌ، وهـو أنّ الهُـدهد أراد بـه: وأُوتـيت من كـلّ شيءٍ من أسبـاب الدّنيا؛ لأنّه عطفه على الملك، وسليمان أراد به، وأوتينـا من كـل شيء من أسبـاب الدِّين والدُّنيا، ويؤيّد ذٰلك عطفه على المُعجزة وهي منطق الطير.

فـإن قيل: كـيف سوَّى الهُـدهد بين عرشهـا، وعرش الله تعـالى في الوصـف بالعِظَـم حـتى قـال: ﴿وَلَهـا عَرْشٌ عَظِيْمٌ﴾ [٢٧/٢٣]؟

قلنـا: بين الوصفـين بونٌ عـظيم، لأنـه وصـف عرشهـا بالعظم بالنسبـة إلى عُـروش أبنـاء جِنسهـا من المـلوك، ووصـف عرش الله تعـالى بالعِظـم بالنسبـة إلى مـا خَـلق من السمـوات والأرض، ومـا بينهـما.

فـإن قيل: قـوله تعـالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمّ تَوَلّ عَنْهُـمْ فانْظُرْ ماذَا يَرْجِعُوْنَ﴾ [٢٧/٢٨] إذا توَلَّى عنهـم كيف يعـلم جـوابهـم؟

قلنـا: معنـاه ثـم تَولَّ عنهـم مُستتراً من حيـث لا يَرونـك، فانظُر ماذا يَرجعـون.

قلنـا: إن فيه تقديماً وتأخيراً، تقديره: فانظُرْ ماذا يرجعـون ثم تولّ عنهـم.

فـإن قيل: كـيف استجـازَ سُليمـان عليه السلام تقديم اسمِـه في الكتـاب على اسم الله تعـالى حـتى كتـب فيه: ﴿إنّـه مِن سُلَيمـان، وإنّـه بِسم الله الرَّحْمٰـنِ الرَّحـيم﴾ [٢٧/ ٣٠]؟

قلنـا: لأنّـه عرف أنّهـا لا تعـرف الله تعـالى وتَعـرف سليمـان، فخـاف أن تستخـفّ باسم الله تعـالى إذا كـان أوّل مـا يقع نظرهـا عليه، فجعـل اسمه وقايةً لاسم الله تعـالى.

وقـيل: إن اســم سليمـان كـان على عُنوانـه، واسم الله تعـالى كـان في أوّل طيّـه.

فـإن قيل: كيف يجوز أن يكون آصف(٧) ـ وهـو كـاتب سليمـان عليه السلام ووزيره، وليس بِنبيّ ـ يقدر على ما لا يقدر عليه النبيّ، وهـو إحضارُ عرش بلقيس في طرفة عين؟

قـلنا: يجـوز أن يُخَصّ غيرُ الرّسول بكـرامةٍ لا يـشاركه فيهـا الرّسول كـما خُصّت مريـم بأنّهـا كـانت تُرزق من فاكهـة الجنّـة؛ وزكـريا لم يُرزق منها. وكـما أنّ سليمان عليه السلام خَرج مع قومـه يستَقُـون فرأى نـملةً مُستلقيةً على ظهرهـا رافعـةً قوائمهـا إلى السّماء تَستقي فقـال لقـومه: ارْجعـوا فقد سُقيتـم بدعوةِ غَيركـم، ولـم يـلزم من ذلك فضلُهـا على سُليمان عليه السلام.

(٧) قـال القرطـبي: أكثر المفسّرين على أنّ الـذي عنـده علمٌ من الكتـاب: اصـف بن برخـيا... وكـان صدّيقاً يحـفظ اسم الله الأعـظم الـذي إذا سئل به أعـطى، وإذا دُعـي به أجـاب. (الجـامع ١٣/ ٢٠٤).

وقد قيل: إنّ النبيّ عليه الصّلاة والسلام، كان إذا أراد الخروج إلى الغَزاة قال للفُقراء المهاجرين والأنصار: ادعوا لنا بالنُّصرة، فإنّ الله تعالى ينصرنا بدعائكم، ولم يكونوا أفضل منه عليه الصلاة والسلام، مع أن كرامة التَّبع من جملة كرامات المَتْبُوع من وجهٍ آخر.

وقالوا: العلم الذي كان عنده[٨] هو اسمُ الله الأعظم فدعا به فأجيبَ في الحال..

وقيل: هو يا حيُّ يا قيوم.

وقيل: يا ذا الجَلال والإكرام.

وقيل: يا الله يا رَحْمٰن.

وقيل: يا إلٰهنا، وإله كُلِّ شيءٍ إلهاً واحداً، لاإله إلا أنت.

فمن أخلص النيّة ودعا بهذه الكلمات كلها مع استجماع شرائط الدُّعاء المعروفة، فإنّه يجابُ لا محالة.

فإن قيل: كيف قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [٢٧/٤٤] وهي إنّما أسلمت بعده على يده لا معه، لأنه كان مُسلماً قبلها؟

قلنا: إنّما عدلت عن تِلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة، فلم ترَ أن تذكُرَ عبارةً تدلّ على أنّها صارت مولاةً له بإسلامها على يده، وإن كان الواقع كذلك.

فإن قيل: كيف يكونون صادقين[٩]، وقد جحدوا ما فَعلوا فأَتوا بالخبر على خلافِ المُخبر عنه؟

---

(٨) أي عند آصف. وينظر كتاب: الدّعاء المأثور وآدابه للطرطوشي: ٨٦ ـ ١٠٤ طبع دار الفكر.

(٩) يشير إلى قوله تعالى علىٰ لسان ثمود قوم صالح: ﴿قَالُوا: تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [٢٧/٤٩].

قلنا: كأنّهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البَيانين ثم قالوا: ﴿ما شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [٢٧/٤٩] يعنون ما شهدناه وحده، كانوا صادقين لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلاّ اللهُ﴾ [٢٧/٦٥] ونحن نعلم الجنّة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب؟

قلنا: معناه لا يعلم الغيب بلا دليلٍ إلاّ الله، أو بلا معلّم إلا الله، أو جميع الغَيب إلا الله.

وقيل: معناه لا يعلم ضمائر أهلِ السّموات والأرض إلاّ الله.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ [٢٧/٦٦] أو «أَدْرَكَ» علىٰ اختلافِ القِرَاءَتين[١٠]، هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا؟ وكيف مطابقة هذا الإضراب لما قبله، ومطابقته لما بعده من الإضرابين؟ وكيف وصفهم بنفي الشّعور، ثم بكمالِ العِلْم، ثم بالشكّ، ثم بالعمى؟

قلنا: مرجعُ الضّمير في قوله تعالى: ﴿بَل ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ هو الكُفّار فقط.

وفيما قبله جميع من في السموات والأرض. وقوله تعالى: ﴿بل ادّارَك﴾معناه بل تتابَع وتَلاحق واجْتَمع كقوله تعالى[١١]: ﴿إِذَا ادّارَكُوا فِيْهَا جَمِيْعاً﴾ وأصله تدارك، فأُدغمت التاء في الدال.

وقوله تعالى: «بل ادّارَكَ» معناه: بل كمل وانتهىٰ.

---

(١٠) قُرِىء «ادّراك» و «أَدْرَكَ».
(١١) الأعراف: ٣٨/٧.

وقـال ابن عـباس: يـريد ما جهـلوه في الدّنـيا علـموه في الآخـرة.

وقـال السُّدّي: يـريد اجـتمع عليهـم يوم القيامة، فـلم يـشكوا ولـم يختلفوا.

وقـال مقاتـل: يـريد علـموا في الآخـرة ما شكُّـوا فيـه وعـموا عنه في الدنيا.

وقوله تعـالى: ﴿بَل هُـمْ فِي شَكٍّ مِنْهَـا﴾ [٢٧/٦٦] معنـاه: بـل هـم اليـوم في شـك من السّاعـة ﴿بَلْ هُمْ مِنها عَمُوْنَ﴾ [٢٧/٦٦] جـمع عَمٍ وهـو الأعـمىٰ القـلب. ومطابقـة الأول لمـا قبله أنّ الـذين لا يـشعرون وقـت البَعـث لمّـا كـانوا فريقين: فريـق منهـم لا يعـلمون وقـت البعث مـع عـلمهم أنـه يُوجـد لا محـالة وهـم المؤمنـون، وفـريق منهـم لا يعـلمون وقـته لإنكـارهـم أصـل وجـوده؛ أفـرد الفريق الثـاني بالـذكر بـقوله تعـالى: ﴿بـل ادّارك عِلْمُهُـمْ فِي الآخِرَةِ﴾ تأكيداً لنـفي عِلمهـم بهـا في الدُّنـيا، كأنـه تعـالى قـال: بـل فريقٌ منهـم لا يعلَمُون شيئاً من أَمـرِ البعـث في الدُّنيـا أصـلاً، ثـم أضـرب عن الإخـبار بتتابع عِلمهـم وتلاحُقِـه بحـقيقة البَعـث في الآخـرة إلى الإخـبار عن شكّهـم في الدُّنيـا في أمـر البعث والسَّاعـة، ثـم أضـرب عنه إلى الإخـبار عن عمٰـى قلوبهـم في أمـر البعث والساعة مع قـيام الأدلّة الشرعية على وجُودهـا لا محـالة.

وأمـا وصفُهـم بنفي الشُّعـور، ثـم بـكمال العـلم، ثـم بالشكّ، ثـم بالعَمٰـى، فـلا تناقـض فيه لاخـتلاف الأزمـنة، أو لاخـتلاف متعلّقـات تـلك الأمـور الأربعـة، وهـي الشعـور، والعـلم، والشك، والعـمى.

فـإن قيل: قَـضاءُ الله تعـالى وحُـكمهُ واحـدٌ فَمـا معنىٰ قـوله تعـالى: ﴿إِنَّ رَبَّـكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ [٢٧/٧٨] وهـو بمنزلة قـوله: إنّ ربـك يقضي بقـضائه ويحـكم بحـكمه؟

قلنا: معناهُ بما يحكم به، وهو عَدلُه المعروف المألوف، لأنّه لا يقضي إلا بالعَدل، فسمّي المحكوم حكماً.

وقيل: معناه بحِكمته، ويدلُّ عليه قراءة من قرأ «بحِكَمِهِ» جمع حِكمة[١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [٢٧/٨٦] ولم يُراعِ المقابلة بقوله: والنَّهار لِيُبْصِرُوا فيه؟

قلنا: راعى المقابلة المعنويّة دون اللفظية؛ لأن معنى «مبصراً»: ليبصروا فيه. وقد سبَق ما يشبهُ هذا في قوله تعالى[١٣]: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرةً﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ [٢٧/٨٦] مع أنّ في ذلك علاماتٍ على وحدانيّة الله تعالى لجميع العقلاء؟

قلنا: إنما خصّهم بالذِّكْر لأنهم هم المُنتفعون بها دون غيرهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [٢٧/٨٧] ولم يقل: فَيَفْزَعُ، وهو أظهر مناسبة؟

قلنا: أراد بذلك الإشعار بتحقّق الفزع وثُبوته، وأنه كائنٌ لا محالة، لأنّ الفعل الماضي يدل على الوجود والتحقّق قطعاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِيْنَ﴾ [٢٧/٨٧] أي صاغِرين أذلّاء بعد البَعث، مع أنّ النبيّين والصِّدّيقين والشُّهداء يأتون عزيزين مكرّمين؟

---

(١٢) معجم القراءات القرآنية ٤: ٣٦٩.

(١٣) الإسراء: ١٧/٥٩

قلنا: المراد به صَغارُ العبوديّة والرقّ، وذلّهما لا ذُلّ الذنوب والمعاصي، وذلك يعمّ الخلق كلّهم، ونظيرُه قوله تعالى[١٤]: ﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمٰوَات والأَرْضِ إلاّ آتِي الرَّحْمٰن عَبْداً﴾.

(١٤) مريم: ٩٣/١٩.

سُوْرَةُ القَصَص

فإن قيل: ما فائدةُ وحي الله سُبحانه وتعالى إلى أُم موسى بإرضاعه، وهي تُرضعه طبعاً سواء أُمِرَت بذلك أم لا؟

قلنا: أَمَرَهَا بالرّضاعة ليألف لبنها فلا يقبَل ثدي غيرها بعد وُقوعه في يد فِرعون، فلو لم يأمُرها بإرضاعه ربّما كانت تسترضعُ له مرضعة فيفوت ذلك المقصود.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيْهِ فِي اليَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ [٢٨/٧] والشرطُ الواحدُ إذا تعلّق به جزاءان صدق قولُنَا إذا وجد هذا الشرط وجد هذا الجزاء؛ أيهما شئت، ويَلزم من هذا صدق قوله تعالى: «فإذا خفت عليه... فلا تخافي» وأنه يشبه المتناقض؟

قلنا: فإذا خِفت عليه من القَتْل فأَلقيه في البَحر، ولا تخافي عليه من الغَرق. ولا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما الفَرق بين الخوف والحزن حتىٰ عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [٢٨/٧]؟

قلنا: الخوفُ غمّ يصيب الإنسان لأَمرٍ يتوقّعه في المُستقبل(١)، والحزَن غمّ يصيبُه لأمرٍ قد وَقع ومضى.

فإن قيل: كيف جعل موسى عليه السلام قتله القبطي الكافر من عمل الشَّيطان، وسمّاه ظُلماً لنفسِه، واستغفر منه؟.

قلنا: إنّما جعله من عمل الشيطان لأنه قتله قبل أن يُؤذن له في قتله، فكان ذلك ذَنباً يَستغفر منه مثلُه. قال ابن جريج: ليس لنبيٍّ أن يقتلَ ما لم يُؤمر.

---

(١) يُنظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ـ بتحقيقنا ـ (طبع دار الفكر المعاصر ـ ودار الفكر): ٣٢٨.

فإن قيل: موسى عليه السلام ما سقىٰ لابنتي شعيب طلباً للأجر، فكيف أجابَ دَعْوَتَهَا لما قالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [٢٨/ ٢٥]؟

قلنا: يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البرّ والمعروف ابتداءً لا على سبيل الأجر، وإنْ سَمَّتْه هي أجراً. ويؤيد هذا ما رُوي أنه لما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيعُ ديننا بطلاع الأرضِ ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً، حتى قال له شعيب عليه السلام: هذه عادَتُنا مع كلّ من ينزلُ بِنا.

فإن قيل: كيف قال له شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [٢٨/ ٢٧]. ومثل هذا النكاح لا يصحّ لجهالة المنكُوحة، والنبيّ لا ينكح نكاحاً فَاسِداً، ولا يعتدّ به؟!

قلنا: إنما كان ذلك وَعداً بنكاحٍ مُعَيَّنَةٍ عند الواعِد، وإن كانت مجهولةً عند الموعود، ومثله جائز، ويكون التّعيين عند إنجازِ الوَعد كما وقعَ منه.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [٢٨/ ٣٢] فجعل الجناحَ هنا مضموماً، وقال تعالى في سورة طَه[٢]: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ فجعل الجناح مضموماً إليه، والقصّة واحدة؟

قلنا: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة طَه ما بين العَضُد إلى الإبط من اليد اليُسرىٰ، فلا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؟

قلنا: لما هرب من الحيّة أمره الله تعالى أن يضم إليه جناحه

(٢) طَه: ٢٠/٢٢.

ليذهب عنه الفزع، وإنما قال تعالى ﴿من الرّهب﴾ لأنه جعل الرهب الذي أصابه عِلّة، وسبباً لما أُمِرَ به من ضم الجناح.

قال مجاهد: كلّ من فزع من شيء فضمّ جناحه إليه ذَهب عنه الفَزع.

وقيل: حقيقة ضمّ الجناح غير مُرادةٍ بل هو مَجازٌ عن تسكين فزع وتثبيت إيحاش.

قال أبو عليّ: لم يرد به الضمّ بين شيئين، وإنّما أَمره بالعزم والجد في الإتيان، بما طلب منه، ومثله قولهم: «اشدد حيازيمك للموت» وليس فيه شدٌّ حقيقة.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير؛ تقديره: وَلّىٰ مُدبِراً من الرّهب.

فإن قيل: أيّ فائدة تُفيد تصديق هارُون لموسىٰ عليه السلام حتىٰ قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ [٢٨/٣٤]؟.

قلنا: ليس مراده بقوله: «يُصَدّقني» أن يقول له صَدقت في دَعوة الرّسالة، فإن ذلك لا يُفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدّقونه مع وجود تلك الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة، بل مُراده أن يلخّص حُجَجه بلسانه، ويبسُط القولَ فيها ببيانه، ويجادِلَ عَنه بالحق فيكونَ ذلك سبباً لتصديقه.

ألا ترىٰ إلىٰ قوله ﴿ وَأَخِي هَارُون هو أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً، فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدّقُنِي ﴾ [٢٨/٣٤]وفضل الفصاحةِ إنما يحتاج إليه لِمَا قُلنا، لا لقوله: صَدَقْتَ!، فإنّ سحبان وائل، وباقِلاً في ذلك سَواء![٣].

فإن قيل: قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِب الغَرْبِيّ إذْ قَضَيْنَا إلى مُوسىٰ الأَمْرَ ﴾ [٢٨/٤٤] أي أحكمنا إليه الوحي، مُغنٍ عن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِيْنَ ﴾ [٢٨/٤٤] أي من الحاضرين عند ذلك.

(٣) سحبان وائل مضربِ المثل في الفَصَاحة، وباقل مضرب المثل في العِيِّ.

قلنا: معناه: وما كنت من الشّاهِدين قِصّته مع شُعيب؛ فاختَلفت القضِيّتان.

فإن قيل: كيفَ قال تَعالىٰ: ﴿ إنّ اللّه لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِيْنَ ﴾ [٢٨ / ٥٠] وكم رأينا من الظّالمين بالكفر، والكبائر مَنْ قد هداه اللهُ للإسلام والتوبة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سُورة المائدة[٤].

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿وَرَأَوُا العَذَابَ لَو أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُوْنَ﴾ [٢٨/٦٤] وإنّما يرىٰ العذاب من كان ضالاً لا مُهتدياً؟

قلنا: جواب (لو) محذوف تقديره: ورأوا العذاب؛ لو أنّهم كانوا مهتدين لَمَا اتبعوهم، أو: لما رَأوا العذاب.

فإن قيل: كيف قال تعالى في آخر آية اللّيل ﴿ بِضياءٍ أَفَلا تَسْمَعُوْنَ ﴾ [٢٨/٧١]، وقال في آخر آية النهار: ﴿ بِلَيلٍ تَسكُنُونَ فِيْهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [٢٨/٧٢]؟

قلنا: السَّماع والإبصار المذكوران لا تعلّق لهما بظلُمة الليل، ولا بضياء النهار، فلذلك لم تقرن الأبصار بالضياء، وبيانه أن معنىٰ الآيتين: أفلا تسمعون القرآن سماع تدبّر وتأمل، فتستدلّوا بما فيه من الحجج علىٰ توحيد الله تعالى، أفلا تُبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة؟

فإن قيل: كيف وجْهُ صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلّا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ ﴾ [٢٨/٨٦]؟

قلنا: قال الفرّاء هو استثناءٌ منقطعٌ تقديرُه: ولكنْ أُلقي إليك رحمةً من ربك، أي للرّحمة[٥].

---

(٤) في التعليق علىٰ الآية (٥١) من سورة المائدة (٥).
(٥) والآية تامّة: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلقىٰ إِليكَ الكِتَابُ إِلّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلا تكونَنَّ ظَهِيراً لِلكَافِرِيْنَ﴾.

سـورة العنكبـوت

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحامِلِيْنَ مِن خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ﴾ [٢٩/١٢] ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ، وأَثقالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [٢٩/١٣]؟

قلنا: معناه وما الكافرون بحاملين شيئاً من خطايا المؤمنين التي ضَمِنوا حملها، وليحملنّ الكافرون أثقال أنفسهم وهي ذُنوب ضلالهم، وأثقالاً مع أثقالهم وهي ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفّار، لا خطايا المُؤمنين التي نفى عنهم حَملها.

وقد سبق نظير هذا بقوله تعالى[1] ﴿وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾، في آخر سورة الأنعام، وفي سورة بني إسرائيل.

فإن قيل: ما فائدة العُدول عن قوله تعالى: تسع مئةٍ وخَمسين، إلى قوله تعالى: ﴿أَلْفَ سَنةٍ إلاّ خَمسِيْنَ عَاماً﴾ [٢٩/١٤] مع أنّ عادة أهل الحساب هو اللّفظ الأول؟

قلنا: لمّا كانت القصّة مسوقةً لتسليةِ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذكر ما ابتُلِي به نُوح ـ عليه السلام ـ من أمّته، ومكابَدته من طول مصابرتهم كان ذِكرُ أقصىٰ العَدد الذي لا عِقْدَ أكثرُ منه في مرَاتب العدد أفخمَ وأعظمَ، وأفضىٰ إلىٰ الغَرض المقصود.

وفيه فائدة أخرى وهي نفيُ وهم إرادة المجاز بإطلاق لفظ تسع المائة والخمسين علىٰ أكثرها، فإن هذا الوهم مع ذكر الألف والاستثناء منتفٍ، أو هو أبعد.

---

(١) الأنعام ٦/١٦٤، والإسراء ١٧/١٥.

فإن قيل: كيف جاء المُمَيِّز أَوَّلاً بالسَّنة، وثانياً بالعام؟

قلنا: لأن تكرار اللّفظ الواحد مجتَنَبٌ في مذهب الفُصَحاء والبلغاء إلا لغرضِ تفخيمٍ أو تهويلٍ أو تنويهٍ ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف نكّر الرّزق ثم عَرّفه في قوله تعالىٰ: ﴿ إنّ الّذِيْنَ تَعْبُدونَ مِن دُون اللّهِ لا يملِكُون لكُمْ رِزقاً، فابتَغُوا عندَ اللّهِ الرِّزْقَ ﴾ [٢٩/١٧]؟

قلنا: لأنّه أراد أنهم لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كلّه، فإنه هو الرزّاق وحده، لا يرزق غَيْرُه.

فإن قيل: كيف أضْمَر اسمَه تعالىٰ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيروا في الأَرْضِ فانْظُروا كَيْفَ بَدأَ الخَلْقَ ﴾ [٢٩/٢٠] ثم أظهره في قوله تعالى: ﴿ ثُمّ الله يُنشِئُ النّشْأَة الآخِرَةَ ﴾ [٢٩/٢٠]؟

قلنا: إنّما عدل إلىٰ ما ذكرنا لتأكيد الإخبار عن الإعادة التي كانت هي المنكر عندهم بالإفصاحِ باسمه تعالىٰ في ذكرها، وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنيا ﴾ [٢٩/٢٧] في معرض المَدح، أو في معرض الامتِنان، وأجر الدّنيا منقطعٌ بخلاف أجر الآخرة فإنّه النعيمُ الباقي، فكان أولىٰ بالذكر؟

قلنا: المُراد به: وآتيناه أَجْرَه في الدُّنيا مضموماً إلى أجره في الآخرة من غير أن ننقص عن أجر الآخرة شيئاً.

قال ابنُ جَرير(٢): وإليه الإشارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإنّهُ في الآخِرَةِ

(٢) هو الإمام الطبري، ينقل عن تفسيره.

لَمِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴾ [٢٩/٢٧] يعني لـه في الآخـرة جـزاء الصالحين وافيـاً كامـلاً، وأجـره في الدنيا قيل: هـو الثّناء الحَسن من النّاس والمحبّة من أهـل الأديان كلها.

وقيــل: هو البرَكـة التي بارك الله فيه وفي ذريتـه.

فإن قيــل: كيف قـالوُا: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُـوا أَهْـلِ هٰـذهِ القَرْيَةِ ﴾ [٢٩/٣١] يعنـون مدينـةَ قوم لـوط ـ عليـه السـلام ـ ولم يقولـوا: «تلك القـريـة» مع أنّ مـدينة قوم لـوط كانت بعيـدةً عن موضع إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ غـائبة عنـه وقتَ هـذا الخطـاب؟

قلنــا: إنّمـا قـالوا «هٰـذهِ القـريةِ» لأنهـا كانت قـريبةً حـاضـرةً بالنسبـة إليهـم، وإن كانت بعيـدةً بالنسبـة إلىٰ إبراهيم عليه السلام.

فإن قيــل: كيفَ قـالوا: ﴿ أَهْـلِ هٰـذهِ القَرْيَةِ ﴾ [٢٩/٣١] ولم يقولوا: أهـل هـذه القـرىٰ، مع أن مـدائن قـوم لـوط كانت خمْساً فأهلكـوا منها أربعـاً؟

قلنــا: إنما اقتَصَـرُوا في الذكـر عـلىٰ قـريةٍ واحـدة لأنها كانت أكبر وأقـرب، وهي «سَدُوم» مدينـة لـوط فجعَلـوا ما وراءها تَبعـاً لها في الـذكر.

فإن قيــل: كيف قـال تعـالىٰ ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِـرِيْنَ ﴾ [٢٩/٣٨] أي: ذوي بصـائر، يقـال: فـلان مستبصرٌ؛ إذا كان عـاقلاً لبيبـاً صحيح النظـر، ولـو كانوا كـذلك لما عَـدلُوا عن طـريقِ الهُـدىٰ إلىٰ طـريقِ الضَّلال؟

قلنــا: معنـاه وكانـوا مستبصرين في أُمور الـدنيا.

وقيــل: مَعنـاه وكانـوا عـارِفين الحقَّ بوضـوح الحُجج، والـدّلائل، ولكنّهم كانوا يُنكرونه متابعةً للهوىٰ لقوله تعالىٰ[٣]: ﴿وَجَحدُوا بها واستَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهم ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾.

(٣) النمـل: ٢٧/١٤.

وقيـــل: معنـاه وكانـوا مُستبصـرين لو نظـروا نظـر تدبّر وتفكـرّ.

فإن قيل: كيف قال تعالَى ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ﴾ [٢٩/ ٤١] وكل أحـد يعلم أَنَّ أضعفَ بيوتٍ تتخِذُها الهوامّ بيتُ العنكبوت؟

قلنــا: معنـاه: لـو كانـوا يعلمـون أنّ اتخّـاذهم الأصنـام أوليـاء من دون الله مثـل اتخـاذ العنكبـوت بيتـاً!

فإن قيـــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ وَلاَ تُجادِلُـوا أَهْلَ الكِتَـابِ إلاّ بالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاّ الَّـذِيْنَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ﴾ ، وكـلّ أهـلِ الكتـاب ظالمـون لأنّهم كافـرون، ولا ظلم أشـدّ من الكفـر، ويؤيّده قولـه تعـالى(٤) ﴿ والكـافِـرُوْنَ هُمُ الظّالِمُوْنَ﴾؟

قلنـــا: المـراد بالظلم هنـا الامتنـاع عن قَبُـول عقـد الـذمّه، وأداء الجـزية، أو نقض العهد بعـد قبولـه .

الثاني: أن هـذه الآية منسوخةٌ بقوله تعـالىٰ(٥): ﴿ قَـاتِلُوا الّـذِيْنَ لا يُؤمِنُوْنَ باللّهِ وَلاَ بِاليَـوْمِ الآخِـرِ﴾؛ الآيـة(٦).

فإن قيـــل: مـا فـائدة قَولـه تعـالَىٰ: ﴿ وَلاَ تَخُطُّـهُ بِيَمِيْنِكَ ﴾ [٢٩/ ٤٨]؟

قلنـا: فائدته تأكيدُ النفي كما يقال في الإثبات للتأكيد: هـذا الكتابُ ممّا كتبه فلانٌ بيـده وبيمينه، ورأيت فلاناً بعيني، وسمعت هٰذا الحـديث بأُذنـي، ونحـو ذلك.

فإن قيـــل: كيف قـال تعـالىٰ: ﴿ وَالّـذِيْنَ جـاهَدُوا فِينـا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

(٤) البقـرة ٢/ ٢٥٤.
(٥) التوبة: ٩/ ٢٩.
(٦) ذكـر هـذا الوجـه القرطبي ١٣/ ٣٥٠، ونبّه على أبي بكـر بن العـربي في (أحكام القـرآن). ـ وتعرف آية سورة التوبة بآية السيف.

سُبُلنا﴾ [٦٩/٢٩] والمعلوم أنّ المجاهدة في دين الله أو في حق الله مع النّفس الأمّارة بالسوء أو مع أعداء الله كل ذلك إنما يكون بعد تقدّم الهداية من الله تعالىٰ فكيف جَعل الهداية من ثمرات المجاهدة؟.

قلنا: معناه والّذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها.

وقيل: لنهديّنهم طريق الجنة.

وقيل: معناه والذين جاهدوا لتحصيل درجةٍ لنهدينهم إلى درجة أخرىٰ أعلىٰ منها. وحاصله: لنزيدنّهم هدايةً وتوفيقاً للخيرات كقوله تعالى(٧): ﴿وَالّذِيْنَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾، وقوله تعالى(٨): ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً﴾.

وقال أبو سليمان الداراني: معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا.

وعن بعض الحكماء: من عمل بما علم وُفقّ لِمَا لا يَعلم.

وقيل: إن الّذي نَرى من جهلنا بما لا نَعلم، فهو من تقصيرنا فيما نعلم!

---

(٧) محمّد: ١٧/٤٧.
(٨) مريم: ٧٦/١٩

سورة الروم

فإن قيل: كيف ذكَّر الضّمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [٢٧/٣٠] والمرادُ به الإعادةَ لسبق قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُه ﴾ [٢٧/٣٠]؟

قلنا: معناه ورجْعُه أو رَدُّه أهونُ عَليه، فأعاد الضمير علىٰ المعنىٰ لا علىٰ اللفظ، كما في قوله تعالىٰ[١]: ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾؛ أي بلداً أو مكاناً.

فإن قيل: كيف أُخّرت الصلة في قوله تعالى: ﴿ وَهُو أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [٢٧/٣٠] وقُدمّت في قوله[٢]: ﴿ هُوْ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾؟

قلنا: لأن هناك قصد الاختصاص، وهو مجرد اللام، فقيل «هو علي هين» وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هِمٍّ وعاقر[٣]، وأما هنا فلا معنىٰ للاختصاص فجرىٰ على أصله؛ كيف، والأمر مبنيّ على ما تفعل الناس مِن أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصّلة لَتَغَيَّر المعنى.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالىٰ في السُّهولة سواء، وإنما تتفاوت في السّهولة والصُّعوبة بالنسبة إلىٰ قدرتنا؟

قلنا: معناه وهو هيّن عليه، وقد جاءَ في كلام العرب أفعل بمعنىٰ اسم الفاعِل من غير تفِضيل[٤]، ومنه قولهم في الأذان: الله أكبر؛ أي «الله

---

(١) الفرقان: ٢٥/ ٤٩.
(٢) مريم: ٩/١٩.
(٣) الهِمُّ: الشيخ الكبير الفاني.
(٤) هذا المقصد، وشواهده الشعرية في القرطبي ١٤/٢٠ ـ ٢١.

كبير» في قول بعضهم، قال الفرزدق[٤]:

إن الّذي سَمك السَّمَاءَ بَنى لَنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة؛ وقال مَعْنُ بن أَوس المُزَني[٥]:

لَعمرك ما أدري وإنّي لأوجَلُ عَلَىٰ أيِّنا تعدُو المنيّةُ أوّلُ!

أي: وإني لَوَجِلٌ... وقال الآخر[٦]:

أصبحتُ أمنحك الصّدود وإنّني قَسماً إليك مع الصُّدود لأمْيَلُ

أي لمائل... وقال آخر[٧]:

تمنىٰ رجالٌ أن أموت وإن أَمُتْ فتلكَ سبيلٌ لست فيها بأوْحَدِ!

أي بواحد.

الثاني: أن معناه، وهو أهونُ علَيه في تقديركم وحكمكم، لأنكم تزعمون، وتعتقدون فيما بينكم أنّ الإعادة أهونُ من الابتداء؛ كيف، وأن الابتداء من ماء، والإعادة من تُراب، وتركيب الصُّورة من التّراب أهون عندكم.

الثالث: أن الضَّمير في قوله تعالى: «عليه» راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالىٰ، معناه: أنه لا صعوبة على المخلوق فيه، ولا بطء لأنّه يُعاد دفعةً واحدة؛ بقوله تعالى[٨]: ﴿ كُنْ فَيَكُون ﴾؛ وفي الابتداء خَلْقُ نطفةٍ ثم نقل إلى علقة، ثم إلى مضغة ثم إلى عِظام ثم إلى كسوة اللحم.

---

(٤) ديوان الفرزدق ٢: ٧١٤.
(٥) ديوان معن بن أوس: ٩٣.
(٦) لم نعرفه.
(٧) لم نعرفه.
(٨) البقرة ١١٧/٢ (ومواضع أُخر في الكتاب العزيز).

الرابع: أنّ الابتـداء من قبيل التّفصيـل الـذي لا مُقتضىٰ لوجـوبه، والإعـادة من قبيل الواجب لأنها لا بد منها لجـزاء الأعمـال، وجزاؤها واجبٌ بحكم وَعـده سبحانه.

فإن قيل: كيف معنىٰ قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً﴾ [٣٩/٣٠] على اختلافِ القِراءَتَيْنِ بالقصر والمدّ؟

قلنا: قال الحَسَنُ: المراد به الرِّبا المُحَرَّم لدافعي الرِّبا لا لآخذيه؛ معناه: وما أَعطيتم أَكَلَةَ الرِّبا من زيادة لتربو وتزكو في أموالهم، فَلَا تَرْبو عند الله ولا يبارك فيها؛ فهو نظير قوله تعالى(٩): ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِـي الصَّدَقَاتِ﴾ لا فرق بينهما.

وقـال ابن عبـاس والجمهور: المُراد به أن يهب الـرجل غيره هبـةً أو يهـدىٰ إليـه هـديّةً علىٰ قصـد أن يعوّضه أكبرَ منها، قـالوا ولَيس في ذلك أجـرٌ ولا وِزر، وإنّمـا سَمّـاه ربا لأنّه مـدفوعٌ لاجتـلابِ الـرِّبا، وهـو الزيـادة، فكان سبباً لها فسمّي باسمها، ومعنىٰ قـراءة المَدّ ظاهر(١٠).

وأمّـا قـراءة القَصْرِ فمعناهـا وما جِئتم أي ما فعلتم من إعطـاءِ ربا؛ كمـا تقول: : أتيت خطـأً، وأتيت صواباً؛ أي فعلت. وقوله تعـالى: ﴿ فَأولٰئِكَ هُمُ المُضْعِفُوْنَ ﴾ [٣٩/٣٠] أي ذَوُو الإِضعـاف من الحَسنات، وهـو التفـاتٌ عن الخِطابِ إلى الغيبة.

فـإن قيــل: مـا فـائدة قولـه تعـالى: ﴿ من قَبْلِهِ ﴾ [٤٩/٣٠] من بعد قوله: ﴿ مِن قَبْلِ أن ينزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ [٤٩/٣٠]؟

قلنــا: فـائدَته: التـأكيد كما في قولـه تعـالى(١١): ﴿ فَسجَد الملائكةُ كلهم أجمعون ﴾.

(٩) البقرة ٢٧٦/٢
(١٠) قُرىء: «وما أَتيتم» و«ما آتيتم».
(١١) الحجر: ١٥/٣٠ (و: صَ: ٧٣/٣٨).

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ﴾ [٣٠/٥٤] والضعف صفة الشيء الضّعيف، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصّفة مع علمنا أنه إنّما خلق من عَيْن(١٢) وهي الماءُ والتُّراب لا من صِفَةٍ؟!

قلنا: أطلق المصدر وهو الضّعف، وأراد به اسم الفاعل وهو الضَّعيف، كقولهم: رجل عدل أي عادل ونحوه، فمعناه من ضعيفٍ وهو النُّطفة.

وقيل: معناه على ضعف فـ«من» بمعنىٰ «علىٰ».

كما في قوله تعالىٰ(١٣): ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِن الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا ﴾، والمراد به ضعف جثّة(١٤) الطفل حَالَ طُفولته.

فإن قيل: كيف قال تعالى ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إلى يَوْمِ البَعْثِ ﴾ [٣٠/٥٦] وإنّما هـمُ لبثوا في الأرَض في قُبورهم؟

قلنا: معناه لقد لبثتم في قُبوركم زماناً في عِلم كتابِ الله تعالى أو في خَبر كتابِ الله.

وقيل: معناه في قضاء الله.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير تقديره: وقال الذين أُوتوا العلم في كتاب الله: لقد لبثتم إلىٰ يوم البَعث، وأراد بالذين أُوتوا العلم في كتا ب الله الذين عَلِمُوه وفَهِمُوا قوله تعالى(١٥): ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ ﴾.

فإن قيل: كيف قال تَعالى هنا: ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُوْنَ ﴾ [٣٠/٥٧]

---

(١٢) يعني من مادّة.

(١٣) الأنبياء: ٢١/٧٧.

(١٤) الجثة والجسم بمعنًى.

(١٥) المؤمنون ٢٣/١٠٠.

وقـال تعـالىٰ في موضع آخـر[١٦]: ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِيْنَ ﴾؛ فجعلهم مـرّة طـالبين للإعتـاب ومـرة مطلوبـاً منهم الإعتـاب؟

قلنـا: معنىٰ قـوله تعـالىٰ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُوْنَ﴾ أي ولا هُم يقالـون عثراتهم بالـردّ إلىٰ الـدُّنيـا.

ومعنىٰ قولـه تعـالى: ﴿ وإن يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ من المُعْتَبِيْنَ ﴾ أي: وإن يستقيلوا فما هُم من المُقَالين.

هـذا ملخّص الجـواب وحاصلـهُ، وقـد أوضحنـا معنـاه في شـرح غـريب القـرآن.

(١٦) فصّلت: ٤١/٢٤.

سورة لُقْمَان

فإن قيــل: كيف يحـلّ سمـاع الغِنـاء بعـد قوله تعـالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيْثِ ﴾ [٣١/٦] الآية. وقـد قـال الواحـدي في تفسِيره[1] «الوَسيط»: أكثرُ المفسّرين علىٰ أنّ المراد بـ«لَهْوِ الحديث» الغناء؟.

وروى هـو أيضـاً عن النبي ـ عليه الصلاة والسـلام ـ حـديثـاً مسنـداً أنّه قال[2]: «والّـذي نفسِي بيـده ما رَفع رجـلٌ قطُّ عقيرته فتغَنّىٰ إلا ارْتَدَفَهُ شيطانان يضـربان بأرجلهمــا علىٰ ظهـره وصـدرِه حتىٰ يسكت».

وقـال سعيد بن جبير، ومجـاهـد، وابن مسعود رضي الله عنهم: لهـو الحـديث هـو ـ والله! ـ الغنـاء، واشتراء المغنيّ والمغنّيـة بالمـال.

وروى أيضـاً حـديثـاً آخـر عن النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ مسنداً أنه قال في هذه الآية[3] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيث﴾: اللعب والباطـل؛ كثير النفقة سمح فيه لا تطيبُ نفسه بدرهم يتصـدق به.

وروى أيضـاً حـديثاً مُسنـداً عن النبي ﷺ أنه قـال[4]: من مـلأ مسامعـه من غنـاء لم يؤذن له أن يسمع صوت الـروحانيين يوم القيامـة، قيـل: ومـا الرْوحـانيون قـال: قـرّاءُ أَهـلِ الجنـة.

---

(١) بدأ صدور هذا الكتاب في أجزاء.

(٢) أثبته بلفظ مقـارب في الجـامع لأحكام القـرآن ١٤/ ٥٠ ـ ٥١، وقـال إنه من زيادة رواها الثعلبي والـواحدي من حديث أبي أمامة؛ وكان قد قـال: روى الترمـذي عن أبي أمـامة عن رسول الله ﷺ قـال: لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهنّ ولا خير في تجارة فيهنّ وثمنهنّ حـرام. في مثـل هـذا أنزلت هـذه الآية: «ومن الناس من يشتري لهو الحـديث ليضلّ عن سبيل الله» الآية. قـال أبو عيسى الترمذي: هـذا حديث غريب إنما يروى من حـديث القاسم عن أبي أمامة. والقاسم ثقة وعليّ بن يزيد يضعّف في الحـديث.

(٣) في حديث ابن عمر (رض) في هذه الآية: ومن الناس... إنّما ذلك شراء اللعب والباطل (الدر المنثور ٥: ١٦٠).

(٤) أورده القرطبي، وقال إنه من حـديث أبي موسى الأشعري، قـال: خـرّجه الترمذي الحكيم أبو عبـد الله في نوادر الأصول.

قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كل من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللّفظ وردَ بالاشتراك، لأنّ هذا اللفظ يُذكر في الاستدلال والاختيار كثيراً.

وقال قتادة: حسب المرء من الضّلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحقّ. هذا كله نقله الواحدي(*) ـ رحمه الله ـ وكان من كِبار السّلف في العِلم والعمل.

وقال غيره: قال ابنُ عبّاس وابنُ مَسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ: المراد بلهو الحديث: الغناء.

وعن الحسن مثله، وعنه: أنّه كلّ ما ألهىٰ عن الله.

وفي معنىٰ ﴿ يَشْتَرِي ﴾ قولان:

أحدهما: أنّه الشراء بالمال.

الثاني: أنه الاختيار؛ كما مَرّ.

وقيل: الغناء مَنفدةٌ للمال، مفسدَةٌ للقلب، مَسخطة للربّ.

قلنا: جوابُه أنّهم يؤوّلون هذه الآية ونظائرها وهذه الأحاديث ونظائرها فيصرفونها عن ظاهرها متابعةً لِلهوىٰ، وميلاً إلى الشهوات. ولو نظروا بعقولهم فيما ينشأ عن جمعيّات(٥) السَّماع في زماننا هذا من المفاسد لعلموا حُرمته بلا خلاف بين المُسلمين، فإن شروط إباحة السَّماع عند من أَباحه لا تجتمعُ في زماننا هذا على ما هو مسطورٌ في كتب المشايخ وأرباب الطّريقِ. ولو اشتغلنا بتفصيل مفَاسدِهِ وعدد شروطه عند مَنْ أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا.

(*) وله أكثر من كتاب في التفسير، وقد نصّ المؤلف رحمه الله على استفادته من (الوسيط).
(٥) يعني المجتمعات التي يجري فيها الغناء.

فإن قيل: كيف وَقع قوله تعالىٰ ﴿ووَصَّيْنا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [١٤/٣١]... الآيتان في أثناءِ وصيّة لقمان لابنِه. وما الجامع بينهما؟

قلنا: هي جملةٌ وقعت معترضة عى سَبيل الاستطراد تأكيداً لِما في وصيّة لُقمان مِن النَّهي عن الشِّرك.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [١٤/٣١] كيف اعترض بين الوصيّة ومفعولها؟

قُلنا: لّما وصَّىٰ بالوالدين ذكر ما تُكابده الأمّ خاصة وتعانية من المَشاقّ والمتاعب تخصيصاً لها بتأكيد الوصية وتذكيراً بعظيم حقّها بإفرادها بالذكر.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ(٦) لمن قال له من أبَرّ؟ قال: أُمّك، ثم أمك، ثم أمك. ثم قال بعد ذلك: ثمُ أباك.

فإن قيل: كيف قال تعالى ﴿إنّ أنكرَ الأصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِير﴾ [١٩/٣١] فجمع الأصوات وأفرد صوت الحمير؟

قلنا: ليس المُراد ذكر صوت كلّ واحدٍ من آحاد هذا الحديث حتىٰ يجمع، وإنما المراد أن كلّ جنس من الحيوان الناطق له صوت، وأنكرُ الأصوات من هذه الأجناس صوتُ هذا الجِنس فوجب إفرادُه.

فإن قيل: قوله تعالىٰ: ﴿وَلو أنّ ما فِي الأَرْضِ من شَجرةٍ أقلامٌ﴾ [٢٧/٣١]، يطابقه: «وما في الأبحر من ماء مداد» فكيف عَدل عنه.؟

قلنا: استغنىٰ عن ذكر المداد بقوله تعالى ﴿يمدّه﴾ [٢٧/٣١] لأنه من قولك: مدّ الدَّواة وأمَدَّها، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدَّواة، والأبحر السبعة

---

(٦) مسند الإمام أحمد ٥:٣ و ٥.

مملوءة مداداً أبداً صبّاً لا ينقطعُ، فصار نظير ما ذكرتم.

ونظيره قوله تعالىٰ(٧): ﴿ قُل لَو كانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي . . . ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ ﴿ مِنْ شَجَرةٍ ﴾ [٣١/٢٦] ولم يقل «مِن شجرٍ»؟

قلنا: لأنّه أرادَ تفصيل الشّجر، وتقصيّها شجرةً شجرةً حتىٰ لا يبقىٰ من جِنس الشجرة شجرة إلا وقد بُرِيَت أقلاماً.

فإن قيل: «الكلماتُ» جمع قِلّةٍ، والمقصود التَّعظيم، والتفّخيم، فكان جمعُ الكثرة وهو الكَلِمُ أشدَّ مناسبة.

قُلنا: جَمع القلّة أبلغ فيما ذكرتم من المقصود، لأن جمع القلة إذا لم يُغن بتلك الأقلام، وذلك المداد فكيف يغني جمعُ الكثرة؟

فإن قيل: في قوله تعالىٰ: ﴿ إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [٣١/٣٤] الآية، كيف أضاف العلم إلى نفسِه في الأُمور الثّلاثة، من الخمسة المُغَيَّبات، ونفى العلم عن العباد في الأَمرين الآخرين، مع أن الأمور الخمسة في اختصاص الله تعالى بِعلمها، وانتفاء علم العباد عنها؟

قلنا: إنما خصّ الأُمور الثلاثة الأُول بالإضافة إليه تعظيماً لها وتفخيماً لأَنَّها أَجلّ وأَعظم، وإنما خصّ الأمرين الآخرين بنفي علمهما عن العِباد لأنهما من صفاتهم وأحوالهم، فإذا انتفىٰ عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عَداهُمَا من الأمور الخمسةِ أَوْلىٰ.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [٣١/٣٤] ولم يقل: «بأي وقت تموت» وكلاهما غير معلوم، بل نفي العلم

(٧) الكهف: ١٨/١٠٩.

بالزّمان أَوْلىٰ لأن من الناس مَن يدّعي علمه وهم المنجمّون، بخلاف المكان، فإنّ أحداً لا يَدّعي عِلْمَه.

قلنا: إنّما خصّ المكان بنفي عِلمه لوجهين:

أحدهما أنّ الكون في مكان دون مكان في وُسع الإنسان واختياره، فيكون اعتقادُه علم مكان المَوت أقرب بخلافِ الزّمان.

الثاني: أن للمكان تأثيراً في جَلبِ الصّحّة والسّقم بخلاف الزمان، أو تأثير المكان في ذلك أكثر.

سُورَة السجْدَة

فإن قيل: كيف قال تعالى هُنا: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلىٰ الأَرْضِ ثمّ يَعْرُجُ إِليهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ أَلفَ سَنةٍ مِمّا تَعُدُّون﴾ [٣٢/٥].

وقال في سورة المَعارج[1]: ﴿تَعْرُجُ المَلائكةُ والرُّوْحُ إِلَيْهِ في يَومٍ كانَ مِقْدارُه خمسِيْنَ أَلفَ سنَةٍ﴾؟

قلنا: المراد بالأول مسافة عُروج الملك من الأرض إلى السَّطح الأعلى من السّماء الدُّنيا، وذلك أَلفُ سنة: خمس مئة سنة مسافة ما بين السماء والأرض، وخمس مئة سنة مسافة سمك سماء الدنيا.

والمراد بالثاني: مَسافة عُروجِ الملائكة من الأرض إلى العَرْش.

الثّاني: أنّ المراد به في الآيتين يوم القيامة ومقداره ألفُ سنة في حساب أهل الدُّنيا لقوله تعالى[2]: ﴿وإنّ يوماً عِنْدَ رَبّك كأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّوْنَ﴾. ومعنى قوله تعالى: ﴿خَمْسِيْنَ أَلفَ سنةٍ﴾ أي لو تولّى فيه حساب الخَلق غيرُ الله تعالى.

الثالث: أنه كألف سنةٍ في حَقّ عوامّ المُؤمنين وكخمسينَ ألف سنة في حقّ الكافرين لشدّة ما يُكابدون فيه من الأهوال والمِحَن، وكساعةٍ من أيّام الدُّنيا في حقّ خواصّ المُؤمنين. ويؤيّده ما روي أنّه قيل: يا رسول الله: يومٌ مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله! فقال: والذي نفسي بيده إنّه ليخفّف على المُؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصَلّيها في الدُّنيا.

---

(١) المعارج: ٧٠/٤

(٢) الحجّ: ٢٢/٤٧

ورُوِيَ أَنَّ ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن هاتين الآيتين فقال: يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، وإني أكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾ [٣٢/٧] أوّل كل شيء على اختلاف القراءتين ومُقتضى القراءتين[٢] أن لا يكون في مخلُوقات الله تعالى شيءُ قبيح، والواقع خلافه ولو لم يكن إلا الشّرور والمعاصي فإنَّهَا مخلوقةُ لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أَنّها قبيحة؟ قبيحة؟

قلنا: «أَحْسَنَ» بمعنىٰ أَحْكَمَ وأَتْقَنَ.

الثاني: أَنّ فيه إضماراً تقديره: أَحْسَن إلىٰ كل شيء خَلقه، وهذا الجواب يَخُصُّ قراءَة فتح اللاّم.

الثالث: أَنّ أحسن بمعنىٰ عَلِمَ، كما يقال: فلان لا يُحسن شيئاً أي: لا يعلم شيئاً. وقال عليّ رضي الله عنه: قيمة كُلّ امرءٍ ما يُحسنه؛ أي ما يعلمه، فمعناه: أنه علم خلق كلّ شيء، أو علم كلّ شيء خلقه، ولم يتعلمه من أحد.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿مِن سُلالَةٍ مِن ماءٍ مَهِيْنٍ﴾ [٣٢/٨] وقال في موضع آخر[٣]: ﴿سُلالَةٍ مِن طينٍ﴾.

قلنا: المذكور هنا صفةُ ذريّة آدم. والمذكور هناك صفةُ آدم عليه السّلام يعلم ذلك من أَوّل الآيتين[٤]؛ فلا تَنافي.

---

(٢) قُرِىء: ﴿خَلَقَهُ﴾ و: ﴿خَلْقَهُ﴾.

(٣) المؤمنون: ٢٣/١٢

(٤) وهما: ﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الإِنْسَانِ من طِيْنٍ * ثم جعَلَ نَسْلَهُ من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهِيْنٍ﴾.

فـإن قيل: كيف قـال تعـالى: ﴿وَنَفَخَ فِيْهِ مِن رُوحِهِ﴾ [٣٢/٩] والله مُنَزَّهٌ عن الروح؟

قلنـا: معنـاه ونفخَ فيه من رُوحٍ مُضـافَةٍ إلى الله تعـالى بالخَلْقِ والإيجـادِ، لا بِوَجْـهٍ آخَـر.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّـاكُمْ مَلَكُ المَوْت﴾ [٣٢/١١] وقـال في موضع آخـر[٥]: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ وقـال تعـالى في موضع آخـر[٦]: ﴿اللهُ يَتوفَّىٰ الأنْفُسَ حينَ مَوْتِهَا﴾؟

قلنـا: الله هو المتوَفِّي بِخَلْقِ الموت، وأَمْرِ الوسائط بِنَزْعِ الرُّوح. والملائكـةُ المتوفُّون أعـوانُ مَـلك الموت وهـم يجـذبون الرُّوح من الأظافـر إلى الحُـلقوم، ومَـلَكُ المـوت يتناوَلُ الرُّوح من الحُـلقوم، فصحـّت الإضـافات كـلّهـا.

فـإن قيل: كيفَ قـال تعـالى: ﴿إنَّـما يُؤمِنُ بآيَاتِنَـا الَّذِيْنَ إذَا ذُكِّـرُوا بِهَـا خَرُّوا سُجَّـداً﴾ [٣٢/١٥] الآيـة وليس المؤمنـون مُنْحَصِريـن فيمن هـو موصوفٌ بهذه الصِّـفة، ولا هٰـذه الصِّفـة شرطٌ في تحـقيق الإيـمان؟

قلنـا: المُرَادُ بقـوله تعـالى: «ذكّروا بهـا» أي وُعِظُوا، أو المـرادُ بالسجـود الخُـشوع والخُـضوع والتّواضع في قَبُول الموعـظة بآيـات الله تعـالى، وهـذه الصِّـفة شرطٌ في تحـقيق الإيمـان، ونـظيره قـوله تعـالى[٧]: ﴿إنَّ الَّذِيْن أُوْتُـوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذَا يُتْلَى عَلَيْهِـمْ يَخِرُّوْنَ لِلأذْقَـانِ سُجَّـداً﴾.

---

(٥) الأنعـام: ٦/٦١
(٦) الزمـر: ٣٩/٤٢
(٧) الإسـراء: ١٧/١٠٧

سُورَةُ الأَحْزَاب

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ﴾ [١/٣٣] ولم يقل: «يا محمد» كما قال تعالى(١): ﴿يَا مُوْسَىٰ﴾، ﴿يَا عِيْسَىٰ﴾(٢)، ﴿يَا دَاوُد﴾(٣). ونحو ذلك؟

قلنا: إنَّما عدل عن نِداته باسمه إلى نداته بالنَّبيّ والرّسول إجْلالاً له وتعظيماً، كما قال له(٤): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ...﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسول بَلِّغ...﴾(٥).

فإن قيل: لو كان ذلك لِمَا ذَكَرْتُم لَعَدَلَ عن اسمِه إلى نَعْتِهِ في الإِخْبَارِ عنه، كَمَا عَدَلَ في النِّداء؛ ولم يَعْدِل عنه في قوله تعالى(٦): ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾(٧).

قلنا: إنَّما عَدَلَ عَن نعته في هذين المَوْضِعَيْن لِتَعْلِيم النَّاسِ أنَّهُ رَسولُ الله وتَلقِينِهِمْ أن يُسَمُّوهُ بذلكَ ويَدْعُوه به؛ ولذلك ذَكَرَهُ بنفسه لا باسمِهِ في غير هٰذين الموضعيْن من مَوَاضِعِ الإخبَار كمَا ذَكَرهُ في النِّدَاء(٨): ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ...﴾، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ...﴾(٩)، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي

---

(١) طٰه: ١١/٢٠ (ومواضع أخر من الكتاب الكريم).
(٢) المائدة: ١١٦/٥
(٣) صٓ: ٢٦/٣٨
(٤) التحريم: ١/٦٦
(٥) المائدة: ٦٧/٥
(٦) الفتح: ٢٩/٤٨
(٧) آل عمران: ١٤٤/٣
(٨) التوبة: ١٢٨/٩
(٩) الفرقان: ٣٠/٢٥

رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [٣٣/٢١]، ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوْهُ﴾(١٠)، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [٣٣/٦]، ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [٣٣/٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُوْنَ باللهِ والنَّبِيِّ﴾(١١). ونظائرُهُ كثيرةٌ.

فإن قيل: ما فائدةُ ذكر الجَوْفِ في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾ [٣٣/٤]؟

قلنا: قد سبق مِثْلُ هذا السُّؤالِ في جوابِهِ في سُورَةِ الحَجِّ فِي قولِهِ تعالى(١٢): ﴿وَلَكِنْ تَعْمَىٰ القُلُوبُ الَّتِي في الصُّدُوْرِ﴾.

فإن قيل: مَا مَعنىٰ قَولِهِم: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي»(*)

قلنا: أرادوا أن يقولوا: «أَنْتِ عَلَيَّ كَبَطْنِ أُمِّي» فَكَنَّوْا عَنِ البَطْنِ بالظَّهْرِ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهما: أَنَّهُ عَمُودُ البَطنِ؛ ويُؤَيِّدُهُ قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَجِيْءُ بِهِ أَحَدُكُمْ عَلى عَمُودِ بَطْنِهِ» أيْ: على ظَهْرِه.

الثاني: أَنَّ إتيان المَرأة مِنْ قِبَلِ ظَهْرِها كان مُحَرَّماً عِنْدَهُم، وكانوا يَعْتَقِدُونَ بأنَّها إذا أُتِيَتْ مِن قِبَلِهِ جاءَ الوَلَدُ أَحْوَلَ؛ فكان المُطَلِّقُ في الجاهليّةِ إذا قصَدَ تَغليظَ الطَّلاقِ قال: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي».

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ [٣٣/٦]، فجعل أزواج النَّبي ﷺ بمنزلة أُمَّهاتِ المُؤمنين حُكماً، ومَا جَعَل النَّبي بمنزلة أبيهم حُكْماً، كما قال تعالى: ﴿مَا كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجالِكُم﴾ [٣٣/٤٠]؟

---

(١٠) التوبة: ٩/٦٢

(١١) المائدة: ٥/٨١

(١٢) الحج: ٢٢/٤٦

(*) المظاهرة من النّساء والظِّهار أن يقول الرجل لامرأته: هي عليَّ كظهر ذات رحم، أو هي عليه كظهر أمّه. وكانت العرب تطلق نساءها بهذه الكلمة. ولما جاء الإسلام نهَوا عنه وأوجبت الكفّارة على مَنْ ظاهر من امرأته.

قلنا: أراد الله تعالى بقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أنَّ أُمَّتَهُ يَدْعُونَ أزواجَهُ بأَشْرَفِ الأسماء، وأَشْرَفُ أَسْمَاءِ النِّساء (الأمّ)، وأشرفُ أسماءِ النبيّ ﷺ (رسول الله)، لا (الأبُ).

الثاني: أنَّه تَعالى جعَلهنّ أُمَّهات المُؤمنين تحريماً لهُنَّ عليهم؛ إجلالاً وتعظيماً له عليه الصَّلاة والسلام، كيلاَ يطمع أحدٌ في نِكاحِهِنَّ. فَلَوْ جعلَ النَّبي ﷺ أباً للمؤمنين لكَان أباً للمؤمناتِ أيضاً فلَمْ يَحِلَّ لَهُ نِكاحُ امرأةٍ مِنَ المؤمناتِ، وذلك يُنَافِي إجلالهُ وتعظيمه. وقد جعله أعظم من الأبِ في القرب والحُرْمةِ بقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [٦/٣٣] فجعله أقرب إليهم من أنفسهم وأحبَّ. وكثيرٌ من الآباء يَتبرأ من ابنهِ، ويتبرأُ منه ابنُهُ، وليس أحدٌ يتبرَّأُ من نَفْسِه.

فإن قيل: كيفَ قدّمَ النَّبيَّ ﷺ على نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذنا من النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ ومُوسَىٰ وعِيْسَىٰ بنِ مَرْيَمَ﴾ [٧/٣٣]؟

قلنا: لأنَّ هذا العطف من باب عَطف الخاصِّ على العامّ الَّذي هُوَ جُزْءٌ مِنْهُ، لِبَيَانِ التَّفضيلِ والتَّخْصيص بِذكرِ مشاهيرِ الأنبياءِ وذَراريهم؛ فلمّا كان النَّبي ﷺ أَفْضَلَ هؤلاء المُفَضَّلين قُدِّم عليهم. وفي الميثاقِ المأخوذِ قولان، أحَدُهما: أنه تعالى أخذ مِنْهُم الميثاقَ يومَ أَخَذَ الميثاقَ أن يُصَدِّقَ بعضُهُم بَعضاً؛

والثاني: أنَّهُ تعالى أَخَذَ منهم الميثاقَ أَنْ يُوَحِّدوا الله ويَدعوا إلى توحيدِهِ وَيُصَدِّق بعضُهُم بَعْضاً.

فإن قيل: كيف قُدِّم عليه نُوحٌ عليهما الصلاة والسلام، في نظيرِ هذه الآية، وهي قولُهُ تعالى[١٣]: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نوحاً والَّذِي أَوْحَينا إِلَيْكَ﴾؟

---

(١٣) الشورى: ١٣/٤٢

قلنـا: لأنَّ تـلك الآيـة تَسْتَعِدُّ لِوَصْفِ دينِ الإسلام بالأصـالةِ والاستقـامة؛ كأنَّـهُ قـال: شَرَعَ لَكُمُ الدِّينَ الأَصيلَ الـذي بُعِثَ عليه نوحٌ عليه السَّلام في العهـد القديم، وبُعِثَ عَليه مُحَـمَّـدٌ ﷺ في العَهْدِ الحَدِيثِ، وبُعِثَ عَلَيْهِ مَنْ تَوَسَّطَهُـمَا مِنَ الأَنـبياءِ المشاهِيْرِ؛ فكـانَ تقديمُ نُوحٍ أَشدَّ مُنَاسبةً للمقصودِ مِنْ سَوْقِ الآيـة.

فـإن قيل: مـا فائدةُ إعادة أَخـذِ الميثـاق في قـوله تعـالى: ﴿وَأَخَذْنَـا مِنْهُـم مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ [٣٣/٧]؟

قلنا: فائدتُهُ التَّأكيدُ ووصف الميثاق المذكور أَوَّلاً بالجـلالة والعِظم استعارةً من وصفِ الإِحْرامِ به. وقيل: إنَّ المُرَادَ بالميثاقِ الغَلِيظِ اليَمينُ بالله العظيمِ على الوفاءِ بِمَا حُمِّلوا؛ فلا إعادةَ؛ لاختلافِ الميثاقَيْنِ.

فـإن قيل: كـيف قـال الله تعـالى في وصف حَـالِ المُؤْمنين الـذي امتنَّ عليهـم فيها: ﴿وَبَلَغتِ القُـلوب الحَنَاجِرَ﴾ [٣٣/١٠]، وَلَو بلغـتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ لَمَاتوا وَلَمْ يَبْقَ لِلامْتِنَـانِ وَجْهٌ؟

قُلَنـا: قـال ابنُ قُتَيْبَةَ: «معنـاهُ: كادَت القلوبُ تبلُغُ الحَنَاجِرَ مِنَ الخَوْفِ؛ فهُوَ مثلٌ في اضْطِرَابِ القُـلوبِ وَوَجيبهـا». وردَّهُ ابنُ الأَنـباريّ؛ قـال: «العَرَبُ لا تُضْمِرُ (كَادَ)، ولا تَعْرِفُ مَعْنَاهُ مَـا لَمْ يُنْطَقْ بِهِ». وقـال الفرّاء: «معنـاهُ أَنَّهُـمْ جَبُنُوا وضَرَعُوا، والجَبَانُ إذا اشتدّ خـوفُهُ انتفخَـت رِئته فرَفَعَتْ قَلْبَهُ إلى حَنْجَرَتِهِ، وهـي حرفُ الحُلْقُومِ وأَقصاه، وكـذا إذا اشتدَّ الغَضَبُ أو الغَمّ، وهـذا المعنى مَرْوِيٌّ عنِ ابنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ الله عنهُـما، ومِنْ هُنَـا قِيلَ للجبَان: انْتَفَخَ سَحْرُه(*).

فـإن قيل: كيفَ عَلَّقَ الله تعـالى عَذَابَ المُنَافِقِينَ بِمَشِيئَتِهِ بقـولِهِ سُبْحَـانَه: ﴿وَيُعَذِّبُ المُنَافِقِينَ إنْ شَاءَ﴾ [٣٣/٢٤]، وعَذَابُهُـمْ مُتَيَقَّنٌ مَقْطُوعٌ بِهِ

(*) السَّحْرُ: ما التزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن. ويقال للجبان ولمن تعدّى طوره: انتفخ سَحْرُه.

لِقَوْلِهِ تَعالى(١٤): ﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾؟

قلنا: معناهُ: إن شاء تعذيبَهم بإماتَتِهِمْ على النِّفَاقِ. وقيل: معناهُ: إن شاءَ ذَلكَ، وقد شاء.

فإن قيل: ما حقيقةُ قَولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [٢١/٣٣]؟

قلنا: فيه وجهانِ: **أَحدُهما**: أَنَّهُ نَفْسُهُ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ؛ أي: قُدوَةٌ. والأُسوَةُ اسمُ المُتَأَسّىٰ بهِ؛ أي: المُقْتَدَى بِهِ، كما تَقُولُ: في البيضَةِ عِشْرُونَ مَنّاً(١٥) حديداً؛ أي: هي في نفسِهَا هذا المقدار.

الثاني: أنَّ فيه خَصْلَتَيْنِ حقْها أَنْ يُؤتَسىٰ بها وَتُتَّبَع، وهي: مُوَاسَاتُهُ بِنَفْسِه أصحابَهُ، وصَبْرهُ على الجِهَادِ وَثَباتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ حينَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وشُجَّ وَجْهُه.

فإن قيل: كيفَ أَظْهَرَ تعالى الاسمَيْنِ مَع تَقَدُّمِ ذِكْرِهِمَا فِي قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذا ما وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ﴾ [٢٢/٣٣]؟

قلنا: لِئَلاَّ يكُونَ الضَّميرُ الوَاحِدُ عن الله تعالى وغيره.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصفِ بني قُرَيْظَةَ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ وأَرْضاً لم تَطَؤُوهَا﴾ [٢٧/٣٣]، والله تعالى إِنَّمَا مَلّكَهُمْ أَرْضَهُمْ بَعْدَ مَا وَطِئُوها وظَهروا عليها؟

قلنا: معناه: «ويورثكم»، بِطريق وَضْعِ الماضي موضع المستقبل، مبالغةً في تحقيق الموعود، وتأكيداً.

---

(١٤) النساء: ١٤٥/٤

(١٥) المَنّ: مكيال.

الثاني: أنَّ فيه إضماراً تقديره: «وأرضاً لم تَطؤوها سيُورِثُكُمْ إيَّاها» يعني أرضَ مكّة، وقيل: أرض فارس والروم، وقيل: أرض خيبر، وقيل: كلّ أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة.

الثالث: أن معناه: وأورثكم ذلك كلّه في الأزل، بكتابته لكم في اللّوح المحفوظ.

فإن قيل: كيف خصَّ الله تعالى نساءَ النَّبي ﷺ بتضعيف العقوبة على الذَّنْبِ والمَثُوبَةِ في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ...﴾ الآيتان [الأحزاب ٣٣/ ٣٠]؟

قلنا: أمَّا تضعيف العقوفة فَلأَنَّهنَّ يُشاهِدْنَ مِنَ الزّواجر الرّادعة عن الذّنوب ما لم يُشاهد غيرهنّ.

الثاني: أنّ في معصيتهنّ أذىً لرسول الله ﷺ وَذَنْبُ مَنْ آذىٰ رَسولَ الله ﷺ أعظم من ذَنْبِ غيره. والمُرَادُ بالفاحشةِ النُّشوزُ وسوء الخُلُق؛ كذلك قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.

وأما تضعيف المَثُوبةِ فَلأَنَّهنّ أَشْرَفُ مِن سائرِ النِّساءِ؛ بقربهنّ من رسول الله ﷺ؛ فكانت الطّاعة منهنّ أَشرَفَ، كما كانت المعصيةُ منهنَّ أَقْبَحَ. ونظيرُ ذلك الوَزيرُ والبَوّابُ في طاعتهما للملك ومعصيتهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [٣٣/٣٢]، وَلَمْ يَقل: كواحِدَةٍ مِنَ النِّساء؟

قلنا: قد سبق هذا مرَّةً في آخر سورة البقرة، في قوله تعالى[١٦]: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

---

(١٦) البقرة: ٢/ ٢٨٥

فإن قيل: كيف أَمَرَ الله تعالى نساءَ النبيِّ ﷺ بالزّكاة في قولِه تعالى: ﴿وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ﴾ [٣٣/٣٣] ولَم يملِكْنَ نِصَاباً حَوْلاً كاملاً؟

قُلنا: المُراد بالزّكاة هنا الصَّدَقةُ النّافِلَةُ، والأَمْرُ أَمْرُ نَدْبٍ.

فإن قيل: ما الفَرق بين المُسلمِ والمؤمِنِ حتّى عَطَفَ أَحَدَهما على الآخر في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ المُسْلِمِيْنَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِيْنَ والمُؤمِنَاتِ...﴾ [٣٣/٣٥]؟

قلنا: المُرادُ بالمسلمِ: المُوَحِّدُ بلسانِه؛ والمؤمنِ: المُصَدِّقُ بقلبه.

فإن قيلَ: كيف قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحمّد أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [٣٣/٤٠] مع أنّه كان أباً للطّاهر والطيّب والقاسم وإبراهيم؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ يُخْرِجُهم مِنْ حُكْمِ النَّفي مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أنهمّ لم يبلغوا مبلغ الرّجال، بل ماتوا صِبياناً.

والثّاني: أنّه أضاف الرّجالَ إليهم، وهم كانُوا رجالَه لا رجالَهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [٣٣/٤٠]، وعيسىٰ عليه السَّلام ينزل بعده وهو نبيّ؟

قلنا: معنى كونه خاتم النَّبيِّينَ أَنَّهُ لا يُنَبَّأُ أَحَدُ بعدَه، وعيسىٰ مِمّن نُبِّىءَ قَبْلَهُ، وحين ينزلُ ينزلُ عاملاً بِشَريعة محمّد عليه الصلاة والسَّلام، مُصلِّياً إلى قِبلتِهِ كأَنَّهُ بَعْضُ أُمَّتِهِ.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [٣٣/٤٣] معناهُ يرحمكم ويغفر لكم؛ فما معنى قوله: ﴿وَمَلائكَتُهُ﴾ [٣٣/٤٣]، والرَّحمةُ والمغفرةُ منهم مُحالٌ؟

قلنا: جُعِلُوا ـ لكَوْنِهِمْ مُسْتَجَابِي الدّعوةِ بالرَّحمة والمغفرة ـ كأنَّهم

فاعلو الرَّحمةِ والمغفِرة؛ ونظيرُهُ قولهم: «حيَّاك الله»؛ أي: أحياك وأبقاك، و«حيًّا زيْدٌ عَمْراً» أي: دَعا له بأن يحييه الله اتّكالاً منه على إجابة دعوته؛ ومثله قوله تعالى: ﴿إنَّ الله وَمَلاَئكتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبيِّ﴾ [٥٦/٣٣].

فإن قيل: قد فُهِمَ مِن قوله تعالى: ﴿إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِدَاً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً. وَدَاعِيَاً إلى الله...﴾ [٤٦/٣٣] أنَّه مأذونٌ له في الدّعاء إلى الله سبحانه؛ فما فائدةُ قوله تعالى: ﴿بإذنِهِ﴾؟

قُلنا: معناهُ: بتسهيلِهِ وبتيسيره؛ وقيل معناه: بأمرِهِ، لا أنَّكَ تدعوهم من تلقاء نفسك.

فإن قيل: كيف شبّه الله تعالى النَّبيَّ ﷺ بالسِّراج دون الشَّمْس، والشَّمسُ أتَمُّ وأكمل؟

قلنا: قيل: إنَّ المراد بالسِّراج هنا الشّمس، كما قال تعالى(١٧): ﴿وَجَعَل الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾؛ وقيل: إنَّما شبَّه بالسِّراج لأنَّ السِّراج يتفرّع ويتولّد منه سُرُجٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ، بخلاف الشَّمْس؛ والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام تفرّع منه بواسطة إرشاده وهدايته جميعُ العلَمَاءِ، مِن عَصرِهِ إلى يومنا هذا وهَلُمَّ جَرّاً إلى يوم القيامة؛ وقيل: إنما شبّهه بالسِّراج لأنَّه بعثه في زمان يُشْبِهُ اللَّيْلَ بِظُلُمَاتِ الكُفر والجهل والضَّلال.

فإن قيل: كيف شبّه تعالى بالسّراج دون الشَّمع، والشّمع أشرف، ونوره أتمّ وأكمل؟

قلنا: قد سبق الجواب عن مثل هذا في قوله تعالى(١٨): ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فيهَا مِصْباحٌ﴾.

(١٧) نُوح: ١٦/٧١
(١٨) النور: ٣٥/٢٤

فإن قيل: كيف خصّ تعالى المؤمناتِ بعدم وجوب العدّة في الطَّلاق قبل المسيسِ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثم طَلَّقْتُمُوهُنَّ...﴾ [٤٩/٣٣] الآية، مع أنَّ حكم الكتابيّة كذلك أيضاً؟

قلنا: هذا خرج مخرج الأغلب، والأكثر لا يخصّص.

فإن قيل: كيف أَفْرَدَ سبحانهُ العَمَّ وَجَمَعَ العَمَّاتِ، وأَفْرَدَ الخالَ وجَمَعَ الخالاتِ في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وبناتِت خَالَاتِكَ﴾ [٥٠/٣٣] والمَعهود في كلام العرب مقابلةُ الجمع بالجَمع؟

قلنا: لأنَّ العَمَّ اسمٌ على وَزْنِ المصدرِ الَّذي هُوَ الضَّمّ ونحوُهُ، وكذا الخال على وَزنِ الغَال ونحوِهِ؛ فيستوي فيه الفرد والتّثنية والجمع بخلاف العَمّة والخالة؛ ونظيره قوله تعالى[١٩]: ﴿خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصَارِهِمْ﴾.

فإن قيل: هٰذا الجوابُ منقوضٌ بقوله تعالى في سورة النور[٢٠]: ﴿أَوْ بُيُوْتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوْتِ أَخْوَالِكُم﴾.

قلنا: العَمُّ والخالُ ليسا مصدرين حقيقةً، بل على وزانِ المصدر؛ فاعتبر هنا شبههما بالمصدر، وهناكَ حقيقتهما؛ عملاً بالجهتين، بخلاف السَّمع، فإنَّه لمّا كان مصدراً، ما جاءَ قطّ في الكتاب العزيز إلّا مُفْرداً.

فإن قيل: كيف ذكر سُبحانه الأَقارب في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ...﴾ [٥٥/٣٣] الآية، ولم يذكر العمَّ والخال،

(١٩) البقرة: ٧/٢
(٢٠) النور: ٦١/٢٤

وحُكْمُهُمَا حكمُ مَنْ ذَكَرَ في رفع الجناح؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السُّؤال وجوابه في سورة النُّور في قوله تعالى[٢١]: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ الآية؛ فالأوْلىٰ أن تَسْتَتِرَ المرأةُ عندَ عَمِّها وخَالِها لئلاَّ يَصِفَ محاسِنَها عند ابنِهِ فيُفْضِي إلى الفِتْنَةِ.

فإن قيل: السَّادةُ والكُبَرَاءُ بمعنىٰ واحد، فكيفَ عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [٣٣/٦٧]؟

قلنا: هو من باب عطف اللَّفظ على اللَّفظ المُغاير له مع اتّحادِ معناهما، كقولهم: فلانٌ عاقلٌ لَبيبٌ، و: هذا حَسَنٌ جَميلٌ، وقول الشَّاعر[٢٢]:

* مَعَاذَ الله مِنْ كَذِبٍ وَمَيْنِ *

فإن قيل: المُرَادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ [٣٣/٧٢]، فكيف قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [٣٣/٧٢]، وفعُول مِن أوزانِ المُبالغةِ، فيقتضي تكرُّرَ الظُّلمِ والجَهْلِ منه، وإنَّهُ مُنْتَفٍ؟

قلنا: لمّا كان عظيمَ القَدْرِ رفيعَ المَحَلِّ كانَ ظُلْمُهُ وَجَهْلُهُ أقْبَحَ وأفحشَ؛ فقامَ عِظَمُ الوَصْفِ مَقَامَ الكَثْرَةِ. وقد سبق نظير هذا في سورة آل عمران في قوله تعالى[٢٣]: ﴿وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾. وقيل: إنَّما سَمّاه ظَلُوماً جَهولاً لِتَعَدِّي ضَرَر ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ إلى جميع النَّاسِ، فإنَّهُمْ أُخْرِجُوا من الجنّةِ بِوَاسِطتِهِ، وسُلِّط عليهم إبْلِيسُ وَجُنُودُه.

---

(٢١) النور: ٢٤/٣١
(٢٢) المين: الكذب.
(٢٣) آل عمران: ٣/١٨٢

سُورَةُ سَبَأ

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إلى مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرضِ﴾ [٣٤/٩]، ولم يقل: إلىٰ ما فَوْقَهُمْ وَمَا تَحتهم من السَّماء والأرض؟

قلنا: «ما بين يدي الإنسان» هُوَ كُلُّ شيء يقع نظره عليه من غير أن يحوّل وجهه إليه؛ و«ما خلفه»: هو كلّ شيء لا يقعُ نظَرُهُ عليه حتىٰ يحوِّلَ وَجهَه إليه؛ فكان اللَّفظ المذكور أعمَّ ممَّا ذَكَرْتُم.

فإن قيل: هلَّا ذَكَرَ سُبحانَهُ الأَيمانَ والشَّمائِلَ هنا كما ذكرها في قوله تعالى[١]: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾؟

قُلْنَا: لأنَّه وَجَدَ هنا ما يُغني عن ذكرها، وهو لفظُ العُموم وذِكْرِ السماء والأرض؛ ولا كذلك ثَمّ.

فإن قيل: كيف استجاز سليمان عليه السَّلام عَمَلَ التَّماثيل، وهي التَّصاوير[٢]؟

قلنا: قيل إنَّ عمل الصُّوَر لم يكن مُحَرّماً في شريعته. ويجوز أن يكون صَوَّر غير صور الحيوان كالأشجار ونحوها، وذلك غير مُحَرَّم في شريعتنا أيضاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ

---

(١) الأعراف: ٧/١٧

(٢) إشارة إلى قوله تعالى (الآية ١٣): ﴿يَعْمَلُوْنَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيْبَ وَتَماثِيْلَ وجِفَانٍ كالجَوابِ وقُدُورٍ راسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيْلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.
ـ والتماثيل جمع تمثال: وهو كل ما صُوِّر على مِثل صورة من حيوانٍ أو غير حيوان.

جَنَّتان﴾ [١٥/٣٤] ولم يقل: «آيتانِ جَنَّتَانِ» وكلُّ جَنَّةٍ كانت آيةً؛ أي: علامةً على توحيد الله تعالى؟

قلنا: لمَّا تَمَاثَلَتَا في الدّلالة، واتَّحدت جِهَتُهَا فيهما؛ جَعَلَهُ آيةً واحِدَةً؛ ونَظِيْرُهُ قَوْلُهُ تعالى(٣): ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيةً﴾.

فإنْ قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ﴾ [٢٢/٣٤]؛ أي: الَّذين زعمتموهم آلهةً مِن دونِ الله، مع أنَّ المشركين ما زعموا غيرَ الله إلهاً دونَ الله، بل مع الله، على وَجْهِ الشّركة؟

قلنا: النَّصّ لا يدلُّ على زعمهم حَصْرَ الإلْهِيّةِ في غير الله أصلاً، بل توهّم ذلك؛ ولَوْ دَلَّ، فنقول: فيه تقديم وتأخير، تقديره: قل ادعوا الَّذين من دون الله زعمتم أنَّهم شركاء الله.

فإن قيل: ما معنىٰ التَّشكِيْك في قولِهِ تعالى: ﴿وَإنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ﴾ [٣٤/٣٤]؟

قلنا: قيل إنَّ (أَوْ) هُنَا بمعنىٰ (الواو) في الموضعَيْن؛ فيصير المعنى: نحن على الهدىٰ وأنتم في الضَّلال.

وقيل: معناه: وإنّا لَضالُّون أو مُهْتَدُون، وإنّكم كذلك؛ وهو من التعريض بضلالهم، كما يقول الرّجل لصاحبه إنْ أَراد تكذيبَهُ: والله إنَّ أَحَدَنا لَكَاذِب!، ويعني به صاحِبَهُ.

فإن قيل: كيف قالت الملائكة عليهم السّلام في حقّ المشركين: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُوْنَ الجِنَّ﴾ [٤١/٣٤] وَلَم يُنْقَل عن أَحدٍ من المُشركين أنّه عَبَدَ الجِنَّ؟

---

(٣) المؤمنون: ٥٠/٢٣

قلنا: معناه: بل كانوا يُطيعون الشَّياطينَ فِيما يأمرونَهم به من عبادتنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ [٣٤/٤١] أي أكثر المشركين مُصَدِّقونَ بالشَّياطين فيما يخبرونهم به من الكذب أَنَّ المَلاَئكة بَنَاتُ الله.

سُورَةُ فَاطِر

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [٣٥/٩] كيف جاء «فتُثِيرُ» مُضارعاً دونَ ما قبلَهُ وما بعدَه؟

قُلْنَا: هو مُضارع وُضِعَ موضعَ الماضي كما في قوله تعالى(١): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ...﴾.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ [٣٥/١١]؟

قلنا: معناه: وما يُعَمَّرُ مِنْ أَحَدٍ، وإنَّما سَمَّاهُ مُعَمَّراً بما هو صائرٌ إليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٣٥/٢٤] وَكَمْ أُمَّةٍ كانت في الفترة بين عيسىٰ ومحمّد عليهما الصَّلاةُ والسَّلام ولَم يَخْلُ فيها نذيرٌ؟

قُلنَا: إذا كانت آثار النِّذارة باقيةً لَمْ تَخْلُ من نذير، إلى أن تَنْدَرِسَ، وحين اندرست آثار نذارة عيسىٰ بعث الله محمَداً عليهما الصَّلاة والسَّلام.

فإن قيل: كيف اكتفىٰ سبحانه بذكر النَّذير عن البَشير في آخر الآية، بعد سَبْقِ ذكرْهما في أوّلها؟

قلنا: لمّا كانت النِّذارة متبوعة بالبِشارة لا مَحَالة، استغنىٰ بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما.

---

(١) الأحزاب: ٣٣/٣٧

فإن قيل: ما الفرق بين «النَّصَبِ» و«اللُّغُوب»[٢] حتّى عَطَفَ أَحَدهما على الآخر؟

قُلْنا: «النَّصَبُ»: المَشَقَّةُ والكُلْفَة، و«اللُّغوب» الفتور الحاصل بسبب النَّصَبِ، فهو نتيجةُ النَّصَبِ، كذا فرَّق بينهما الزَّمخشري[٣]، ويرد على هذا أن يكون انتِفَاءُ الثَّاني معلوماً مِن انتفاءِ الأوَّل.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [٣٥/٣٧] مع أنَّهُ يُوْهِمُ أَنَّهُمْ يعملونَ صالحاً غيرَ الصَّالح الّذي عَمِلُوه، وهم ما عملوا صالحاً، بل سيِّئاً؟

قلنا: هم كانوا يحسبون أَنَّهم على سيرةٍ صالحةٍ، كما قال تعالى:[٣] ﴿وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، فَمَعْنَاهِ: غير الَّذِي كُنَّا نَحسَبُهُ صالحاً فنَعمله.

---

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الحمدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذي أَحَلَّنا دارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ﴾.

(٣) الكشاف ٣: ٣١٠ وفيه: «فإن قلت ما الفرقُ بين النَّصبِ واللغوب قلت: النَّصبُ: التعب والمشقّة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له، أمَّا اللُّغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النَّصب؛ فالنصب نفسُ المشقة والكلفة، واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة».

(٣) الكهف: ١٨/١٠٤

سُورَةُ يٰس
عَلَيْهِ السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى أوّلاً: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُوْنَ﴾ [٣٦/١٤]، وقال سبحانهُ ثانياً: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُوْنَ﴾ [٣٦/١٦]؟

قُلنا: لأنَّ الأولَ ابتداءُ إخبارٍ، فلم يَحْتَجْ إلى التَّأكيدِ باللَّام؛ بخلافِ الثّاني، فإنّه جوابٌ بَعْدَ الإنكارِ والتَّكذيبِ[1]، فاحتاج إلى التَّأكيدِ.

فإن قيل: كيفَ أضاف الفَطْرَ إلى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَطَرَنِي﴾ [٣٦/٢٢] وأضاف البعثَ إليهِمْ بقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ [٣٦/٢٢] مَع عِلمِهْ بأَنَّ الله تعالى فطَرَهُ وَفَطَرَهُمْ، وَسوفَ يبعثُهُ ويَبعثُهُم؛ فَهَلَّا قال: «فَطرنَا، وإليه نرجع» أو «فَطَرَكُمْ وإليه تُرْجَعُوْنَ»؟!

قلنا: لأنَّ الخَلْقَ والإيجادَ نعمةٌ من الله تعالى تُوْجِبُ الشُّكْرَ، والبَعْثُ بعدَ الموت وَعيدٌ وتهديدٌ يُوجِبُ الزَّجْرَ؛ فكانَ إضافتُهُ النِّعْمَةَ إلى نَفْسِهِ أَظْهَرَ في الشُّكْرِ، وإضافَتُهُ البَعْثَ إلَيْهِم أَبْلَغَ فِي الزَّجْرِ.

فإن قيل: كيف نفىٰ سبحانه الإدراكَ عن الشَّمْسِ للقمر دون عَكْسِهُ وهو: «لا القمر ينبغي له أن يدركَ الشمس»؟

قُلنا: لأن سير القمر أسرع، فإنَّهُ يَقْطَعُ فَلَكَهُ في شهرٍ، والشَّمس لا تقطع فلكَهَا إلاَّ في سَنَةٍ، فكانت الشَّمسُ جديرةً بأن تُوصَفَ بنفيِ الإدراكِ لِبُطءِ سَيْرِها، والقَمَرُ خليقاً بأَن يُوصَفَ بالسَّبْقِ لِسُرْعَةِ سَيْرِهِ، هذا سؤال

(١) فإن أصحاب القرية: ﴿قالُوا ما أَنْتُمْ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُوْنَ﴾ [٣٦/١٥].

(٢) الكشّاف ٣: ٣٢٤، وسؤاله: «فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟».

الزَّمخشري وجَوَابُه؛ ويرد عليه أنّ سرعة سير القمر تناسِبُ أن يُنفىٰ الإدراك عنه؛ لأنَّهُ إذا قيل: «لا القملأ ينبغي له أن يدرك الشّمس» مع سرعة سَيْرِهِ، عُلِمَ بالطريق الأولى أنّ الشَّمْسَ لا ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ مع بُطء سيرها. فأما إذا قِيْلَ: «لا الشَّمس يَنْبَغِي لها أن تُدرِكَ القمرَ»، أَمْكَنَ أن يُقَالَ: إنَّما لم تُدْرِكْهُ لِبُطْءِ سيرها. فأَمَّا القَمَرُ فيجوزُ أن يُدْرِكَهَا لِسُرْعَةِ سَيْرِه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ [٤١/٣٦] أي: لأهل مكّة ﴿أَنَّا حَمَلْنَاهُمْ وَذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [٤١/٣٦] أي ذُرّيَّة أهل مكّة، أو ذرّيّة قوم نوح عليه السَّلام ﴿فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [٤١/٣٦] والذُّرِّيَّةُ اسمٌ للأولادِ، والمحمولُ في سفينةِ نوحٍ عليه السَّلام آباءُ أهلِ مَكَّةَ لا أولادُهُمْ؟

قُلْنَا: الذُّرِّيَّة مِنَ الأَضْدَادِ؛ تُطْلَقُ على الآباءِ وعلىٰ الأولَادِ، بدليلِ قوله تعالى[٣]: ﴿إنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ ونُوْحاً وآلَ إبراهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، وَصَفَ جَميعَ المذكورينَ بِكَوْنِهِمْ ذُرِّيَّةً، وبعضُهُم آباء وبعضُهُم أبناء؛ فَمَعْنَاهُ: حملنا آباءَ أهلِ مكّة، أو حملنا أَبْنَاءَهم؛ لأنَّهم كَانُوا في ظُهور آبائهم المحمُولينَ.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيَقُوْلُوْنَ مَتَىٰ هذا الوَعْدُ إن كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ [٤٨/٣٦] يعنُونَ الوَعْدَ بالبعث والجَزاء، والوَعدُ كانَ واقِعاً لا مُنْتَظَراً؟

قلنا: معناه: متىٰ إنجازُ هذا الوعد وصِدقُه، بِحَذْفِ المُضافِ أو بإطلاقِ اسمِ الوَعْدِ على المَوْعُوْدِ، كـ «ضَرْبِ الأَمير» و«نَسْج اليَمَن»[٤].

---

(٣) آل عمران: ٣٤/٣

(٤) المقصود النقد (المضروب) بأمر الحاكم، و(نَسِيج اليمن أو المَنْسُوج في اليمن).

فـإن قيل: قولُهُمْ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَـا﴾ [٥٢/٣٦] سُؤالٌ عن البَاعِث فـكيف طابَقَهُ ما بَعْدَه جواباً؟

قلنـا: بَعَثَكم الرَّحـمن، أي وَعَدَكُـم البَعث وأَنْبَأَكُمْ بِهِ الرُّسُل؛ إلاَّ أَنَّـهُ جِـيء به على هـذه الطريقةِ تَبكِيتاً لهـم وتَوْبِيخـاً

فـإن قيل: كـيف قـال تعالى في صفـةِ أهـلِ الجـنَّة: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ [٥٦/٣٦] والظِّلُّ إنَّـما يَكُونُ حـيثُ تـكونُ الشَّمسُ، ولهـذا لا يُقـالُ لِمَـا في اللَّيلِ ظِلٌّ، والجـنَّةُ لا يـكون فيهـا شـمس لقولِهِ تعـالى(٥): ﴿لَا يَرَوْنَ فِيْهَـا شَمْسَاً وَلَا زَمْهَرِيْراً﴾؟

قلنـا: ظلّ أشجـار الجـنّة من نـور العَرْشِ لئلاّ يبهـرَأبـصار أهـل الجَنّـةِ، فإنَّـهُ أعـظم من نـور الشمس، وقيـل: من نُور قنـادِيلِ العَرْشِ.

فـإن قيل: كـيف سمَّـى سبحـانَهُ نُطْقَ اليَدِ كـلاماً ونُطْقَ الرِّجـلِ شهـادةً في قـوله تعـالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَـا أَيْدِيْهِـمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [٦٥/٣٦]؟

قلنـا: لأَنَّ اليَد كـانت مُبـاشرةً والرِّجْـل حـاضِرَةً، وقَولُ الحـاضِرِ على غَيْرِه شهـادة، وقـولُ الفاعـل على نفسِـه ليسِ بشهـادة، بـل إقـرارٌ بِمَا فَعَلَ. قـلتُ: وفي هـذا الجَوَابِ نَظَرٌ.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [٦٩/٣٦] مع أَنَّهُ عـليه الصَّلاةُ والسَّلام قد رُوِيَ عنه ما هـو شِعـر، وهـو قوله عليه الصلاة والسلام(٦):

* أَنَـا النَّبِـيُّ لَا كَـذِبْ *
* أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُـطَّلِبْ *

---

(٥) الإنسان: ١٣/٧٦

(٦) ممّا قـاله ﷺ يوم حُنَين (القرطبي ٥٢/١٥).

وقـوله عليه الصّلاة والسَّلام(٧):

* هل أنتِ إلاّ إصْبَعٌ دَمِيتِ *

* وَفِي سبيل الله مَا لَقِيتِ *

قُلنا: هـذا لـيس بشعرٍ؛ لأَنَّ الخـليل لم يعُدَّ مشطور الرَّجـزِ شعراً؛ وقـوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «هـل أَنت إلاّ إصبَعٌ دميت» من مشطور الرَّجـز؛ كـيف وقد رُوِيَ أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام قال: «دَمِيَتْ» و«لَقِيَتْ» بفتح الياء وسكون التاء؟ ولكنَّ الرَّاوي حرَّفَهُ فصَار شعراً(٨)!

الثـاني: أَنَّ حـدَّ الشعر: قـولٌ موزونٌ مقفّىً مقصودٌ به الشِّعـر؛ والقصدُ مُنْتَفٍ فيما رُوِيَ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فكـانَ كَـمَا يَتّفـق وُجُـودُهُ في كـلِّ كـلامٍ منثورٍ من الخُطَبِ والرَّسائلِ، ومُحـاورات النَّـاس، ولا يَعُدُّهُ أَحـدٌ شعراً.

فـإن قيل: كيف قـال تعالى: ﴿مِمَّـا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [٣٦/٧١] والله تعـالى مُنَزَّهٌ عن الجَارِحَةِ؟

---

(٧) ورد في القرطبي ـ وغيره من التفاسير والتواريـخ والسِّير ـ بكسر التاء (الجـامع ١٥/٥٢).

(٨) على رواية القافية المطلقة (دَمِيْتِ) فهـو من الرَّجـز ووزنـه مستفعلن مستفعلن مُتَفْعِل (= فعولـن) وعـلى رواية (دَمِيَتْ) بالتقييد فهـو من الكـامل: ووزنـه: مُتْفاعلن مُتْفَاعِلنْ مُتَفَـا (= فَعِلُن).

ـ وأحـقُّ من كـلام المصنـف أن يـقال مـثل ما في تفسير القرطبي من أن إصـابته ﷺ الوزن أحـياناً لا يوجـب أنّـه يعلم الشعر، وكـذلك مـا يأتي أحياناً من نـثر كـلامه ما يدخُـل في وزن كقوله: «هلْ أنت إلا . . .» وقوله: «أنا النبي لا كذب» فقد يأتي مثل ذلك في آيـات القرآن، وفي كـلِ كـلام، وليس ذلك شعراً ولا في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون﴾. . .

وقـال: على أنَّ الأخـفش قـال في قـوله ﷺ: «أنـا النبي لا كـذب» لـيس بشعر. وقـال الخـليل في كتـاب العين: إن مـا جـاء من السجـع على جـزءين لا يـكون شعراً. . . وهـذا الشعر إذا روي مُعْرباً (غير مقيّد القافية) خـرج عن الشّعر.

ـ والرَّجـز في ديوان عبد الله عن رواحـة من أرجـوزة.

ـ ونـاقش ابن رشيق هـذه المسألة وقـال هـذا ليس بشعر لأنـه لم تتوفر فيه النيـة لنظـم الشعر (العمـدة ١: ٣٤٥).

قلنا: هو كنايةٌ عن الإنفراد بخلق الأنعام والاستبداد به من غير شريكٍ ولا معينٍ، كما يُقال في الحُبِّ وغيره من أعمالِ القلب: «هٰذا مِمّا عملَتْهُ يَدَاكَ»! ويُقال لمن لا يدَ له: «يَدَاكَ أَوْكَتَا»(٩)، وكذا قوله تعالى(١٠): ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

فإن قيل: كيف سمَّى قولَهُ: ﴿مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٣٦/٧٨] مثلاً، وليس بمَثَلٍ، وإنَّما هو استفهامُ إنكارٍ؟

قلنا: سَمَّاهُ مثلاً لِمَا دَلَّ عليه مِن قصَّةٍ عجيبةٍ شبيهةٍ بالمَثَلِ، وهو إنكارهُ(١٢) لِقُدْرَةِ الله تعالى على إحياءِ المَوْتَىٰ، مع أَنَّ العَقْلَ والنَّقْلَ: كِلَاهما(١٣) يشهَدُ بقدرتِهِ على ذلك.

---

(٩) هذا مَثَل، وتمامه: يداك أوكتا وفوك نفخ!

(١٠) صٓ: ٣٨/٧٥

(١١) والآية تامّةً: ﴿وَضَرب لنا مثلاً ونسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحيي العِظَامَ وهيَ رَمِيمٌ﴾...

(١٢) الإشارة إلى الإنسان الذي جاء إلى النبي ﷺ بعظم بالٍ وقال: يا محمّد أترى أن الله يُحيي هذا بعدما رَمّ؟ فقال النبي ﷺ: «نعم ويبعثك الله ويُدخلك النار» فنزلت هذه الآية (القرطبي ١٥: ٥٨).

(١٣) في (أ) و (ب) كلاهما؛ ويتوجه الكلام على أنها مبتدأ خبره الجملة الفعليّة بعده.

سُوْرَةُ الصّافّاتِ

فـإن قيل: كيف جـمع تعـالى المشارق هـنا، وثنّاهـما في سورة الرَّحـمن[1]؟ وكـيف اقتصرَ هـنا على ذكر المشارق، وذَكَـرَ ثمَّ المغربين أيـضاً، وكـذلك أيضاً ذكرَ المغَارِبَ مع المشارق مجـموعَيْنِ في قـوله تعـالى[2]: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ وذكَرَهـما مُفْرَدَيْنِ في قـوله تعـالى[3]: ﴿قَـالَ: رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَـا إن كُنْتُـمْ تَعْقِلُوْنَ﴾؟

قلنـا: لأن القرآن نـزلَ بلغةِ العَرَبِ، عـلى المعهـود من أساليب كـلامهـم وفنونـه، ومن أساليب كـلامهـم وفنونه الإجـمالُ والتَّفصيلُ والبَسْطُ والإيجـازُ، فأجمَلَ تـارةً بقـوله تعـالى[4]: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ﴾، أراد مشرقي الصّيف والشّتـاء ومغربهـما، على الإجـمال؛ وفَصَّل تـارةً بقـوله تعـالى[5]: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارقِ والمغارب﴾، أرادَ جَمْعَ مَشَارِقِ السَّنَةِ وَمَغَارِبِهَـا، وهـي تزيد على سبع مـئة؛ وبَسَطَ مرّةً بـقوله تعـالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارقِ والمغارِبِ﴾، وأوجـزَ واختَصَر مرّةً بـقوله تعـالى: ﴿وَرَبُّ المَشَارِقِ﴾ [٣٧/٥] لـدلالـة المـذكور، وهـو المشارق، على المحـذوف، وهو المغارب؛ وكـانت المشارق أَوْلىٰ بالذِّكرِ لأنهـا أشْرَفُ، إمّـا لكَوْنِ الشُّروقِ سابقاً في الوجـود على الغـروب أو لأنَّ المشارقِ منبع الأنـوار والأضـواء.

فـإن قيل: كـيف خصَّ سبحـانَهُ سَمَـاءَ الدُّنـيا بقـولِهِ تعـالى: ﴿إِنَّـازَيَّنَّـا

---

(١) إشـارة إلى قـوله تعـالى: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وربُّ المغربين﴾ [الرحـمن: ١٧/٥٥].
(٢) المعارج: ٤٠/٧٠
(٣) الشعـراء: ٢٨/٢٦
(٤) الرحـمن: ١٧/٥٥
(٥) المعارج: ٤٠/٧٠
(٦) الصّافات: ٥/٣٧

السَّمَاءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ [٦/٣٧] مع أنَّ غير سماء الدُّنيا مُزَيَّنة بالكواكب أيضاً؟

قلنا: وإنما خصَّها بالذِّكرِ لأنَّا نحنُ إنَّما نرىٰ سماءَ الدُّنيا لا غير.

فإن قيل: كيف وَجْهُ قِراءة الضَّمِّ في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ [١٢/٣٧] وهي قراءة عليّ وابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم(٧)، واختيارُ الفَرّاء. والتعجُّب رَوْعَة تعتري الإنسانَ عند استعظام الشّيء، والله تعالى لا تَجُوز عليه الرَّوعة؟

قلنا: أراد بالتعجّب الاستعظامَ، وهو جائز من الله تعالى، كما استعظَمَ كَيْدَ النِّساء وإنكار الكُفّار(٨) مُعْجِزَاتِ الأنبياء.

الثاني: أنّ معناه: «قُلْ يا محمّد: بَلْ عَجِبتَ» وكان شُرَيْح يقرأ بالفتح ويقول: إنّ الله تعالى لا يعجبُ من شيء، وإنَّما يعجب مَنْ لا يَعلم؛ فقال إبراهيم النّخعي: إنّ شُرَيحاً كان يُعجِبُهُ عِلْمُه، وعَبْدُ الله أعلمُ منهُ وكان يقرأ بالضّم؛ يريدُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الزّجّاج: وإنكارُ هٰذه القِراءة غلط؛ لأنّ العَجب من الله تعالى خلافُ العَجب من الآدميّين، ونظيره قوله تعالى(٩): ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ وقوله تعالى(١٠): ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾، وما أشبهه. وفي الذي وقع وقع منه العجب قولانِ أحدُهما: كفرُهم بالقرآن، والثّاني: إنكارُهم البَعثَ(١١).

فإن قيل: كيف مدح سُبحانه نُوحاً عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنينَ﴾ [٨١/٣٧] مع أنّ مرتبة الرُّسُلِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ المُؤمنين؟

---

(٧) معجم القراءات القرآنية ٥: ٢٣١
- وينظر في تعريف التعجب: التوقيف على مهمّات التّعاريف: ١٨٤
(٨) في (أ) وإنكار الفجّار.
(٩) آل عمران: ٥٤/٣
(١٠) التّوبة: ٧٩/٩
(١١) ذكر المقاصد السابقة القرطبي بشيء من تفصيل ١٥/٦٨ ـ ٧٠

قلنا: إنَّما مدحه بذلك تنبيهاً لنا على جلالة محلّ الإيمان وشرفه وترغيباً في تحصيله والثّبات عليه والإزديادِ منهُ؛ كما قال تعالى في مدح إبراهيم عليه السَّلام(١٢): ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [٣٧/٨٨] والنظر يُعَدَّى بإلى؛ قال الله تعالى(١٣): ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلى الجَبَلِ﴾ وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلى آثَارِ رَحْمَةِ الله﴾؟

قلنا: (في) هنا بمعنىٰ (إلى)، كما في قوله تعالى(١٥): ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

الثاني: أنَّ المرادَ به نَظَرُ الفِكْرِ لا نظرُ العَيْنِ، وَنَظَرُ الفِكْرِ إنَّما يُعَدَّى بـ(في)؛ قال الله تعالى(١٦): ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمواتِ والأرضِ﴾، فَصَارَالمعنىٰ: فَفَكَّرَ في علم النّجوم، أو في أحوال النُّجوم.

فإن قِيلَ: كيف استجاز إبراهيم عليه السَّلام أن يقول: ﴿إنِّي سَقِيمٌ﴾ [٣٧/٨٩] وَلَمْ يكنْ سقيماً؟

قلنا: معناه «سأسقم» كما في قوله تعالى(١٧): ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ﴾، فهو من مَعاريض الكلام؛ قالَهُ ليتخلّف عنهم إذا خرجوا إلىٰ عيدهم فيكيدَ أَصنامَهُم. وقال ابنُ الأنباري: أَعْلَمَهُ الله تعالى أنَّهُ يَمْتَحِنُهُ بالسّقم إذا طلع نجم كذا، فلمّا رآه علم أنَّهُ سيسقم. وقيل: معناه: «إنّي سقيمُ القلب

(١٢) البقرة: ٢/١٣٠
(١٣) الأعراف: ٧/١٤٣
(١٤) الروم: ٣٠/.
(١٥) إبراهيم: ١٤/٩
(١٦) الأعراف: ٧/١٨٥
(١٧) الزمر: ٣٩/٣٠.
- معاريض الكلام: أن تورّي بشيء عن شيء؛ وهي من التعريض: خلاف التصريح.

عليكم إذ عبدتم الأصنام وتكهّنتم بنجوم لا تضرّ ولا تنفع». وقيل إنّه عَرَضَ له مَرَضٌ، وكان سقيماً حقيقةً.

وقال الزمخشري(١٨): قد جَوَّز بعضُ النّاس الكذب في المكيدة في الحرب والتَّقِيّة وإرضاء الزّوج والصُّلح بين المُتخاصمين والمتهاجرين. قال: والصَّحيح أنّ الكذبَ حرام إلّا إذا عَرَّض ووَرَّىٰ، وإبراهيم عليه السّلام عَرَّضَ بقولِهِ وورّىٰ؛ فإنَّهُ أراد أنَّ مَنْ في عُنقِه الموتُ سقيم؛ كما قِيل في المَثَلِ(١٩): «كفىٰ بالسَّلامَةِ داءً»، وقال لبيد(٢٠):

وَدَعَوْتُ ربِّي بِالسَّلاَمَةِ جَاهِداً ... لِيُصحَّنِي فَإذا السَّلاَمَةُ دَاءُ

ورُوي أنَّ رجلاً مات فجأَةً فاجتمع عليه النّاس، وقالوا: مات وهو صحيح، فقالَ أعرابيّ: أصحيحٌ مَن المَوْتُ في عُنُقِهِ؟!

فإنْ قِيلَ: ألا يجوزُ النّظر في عِلم النّجوم مع أنَّ إبراهيم عليه السلام قد نظر فيهِ وحكمَ منه؟

قُلْنَا: إذا كان المنجمّ كإبراهيم عليه السّلام في أنّ الله تعالى أراه ملكوت السّمٰوات والأرض أُبِيحَ لَهُ النَّظَرُ في علم النّجوم والحكم منه.

فَإِنْ قِيلَ: قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِاليَمينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّون ﴾ [٣٧/٩٣ ـ ٩٤] أي يُسرِعون، يَدُلُّ على أنّهم عرفوا أَنَّهُ هو الكاسِرُ لَهَا؛ وقوله تعالىٰ في سورة الأنبياء(٢١): ﴿ قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَـٰذا بِآلِهَتِنَا ﴾ وما بَعْدَهُ يَدُلُّ علىٰ أَنَّهُمْ ما عرفوا أَنَّهُ الكاسِرُ لها، فَكيفَ التّوفيقُ بَيْنَهُمَا؟

قُلْنَا: يجوز أن يكون الّذي عرفه وزفّ إليهِ بعضُهُمْ، والّذي جَهِلَهُ

(١٨) الكشّاف ٣: ٣٤٤. والمؤلف يلخصّ عنه، وينقل.
(١٩) المصون في الأدب: ١٥٠، وكتاب البلاغة للمبرّد: ٩٠.
(٢٠) البيت لعمروبن قميئة في ديوانه: ٢٠٤، ولم يرد في ديوان لبيد.
(٢١) الأنبياء: ٢١/٥٩.

وسأله عنه بعضٌ آخر، ويجوزُ أنَّ الكلَّ جهلوه وسألوا عنه، فلمّا عرفوا أنَّهُ الكاسِرُ لَهَا زفّ إليهِ كُلُّهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: ما معنىٰ قوله عليه السّلام: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [٩٩/٣٧]؟

قُلْنَا: معناه: «إلىٰ حيث أمرني ربّي بالمُهاجَرَةِ» وهو الشام؛ وقيل: «إلىٰ طاعةِ ربّي ورضاه» وقيل: «إلىٰ أرض ربّي». وإنَّما خَصَّها بالإضافة إلى الله تعالىٰ تشريفاً لها وتفضيلاً؛ لأنّها أرضٌ مُقَدَّسَةٌ مُبارَكٌ فيها للعالَمين، كما في قوله تعالىٰ(٢٢): ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾، وقولِهِ تعالىٰ(٢٣): ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: ما معنىٰ قوله عليه السّلام: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ [٩٩/٣٧] وهو كان مهتدياً؟

قُلْنَا: معناه: «سَيُثَبِّتُنِي على ما أنا عليه مِنَ الهُدَى ويزيدني هدى» وقيل معناه: «سَيَهْدينِ إلىٰ الجَنَّةِ» وقيل: «إلىٰ الصَّواب في جميع أَحوالي»؛ ونظيرُهُ قول موسىٰ عليه السّلام(٢٤): ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: كيف شاوَرَ إبراهيم وَلَدَهُ عليه السّلام في ذَبْحِهِ بقَوْلِهِ: ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [١٠٢/٣٧] مع أنّه كان حتماً علىٰ إبراهيم؛ لأنّه أُمِرَ بِهِ؛ لأنَّ معنىٰ قولِهِ: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [١٠٢/٣٧] أنَّهُ أُمِرَ بِذَبْحِهِ في المنام، ورُؤيا الأنبياء حَقٌ؛ فإذا رأوا شيئاً في المنام فَعَلُوهُ في اليقظة، كذا قاله قَتَادةُ؛ والدليل على أنَّ معناه كان وَحياً بالأمرِ بالذَّبحِ

(٢٢) الجن: ١٨/٧٢.
(٢٣) الفرقان: ٦٣/٢٥
(٢٤) الشعراء: ٦٢/٢٦.

قولُهُ: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [١٠٢/٣٧]؟.

قُلْنـا: لم يُشَاوِرْهُ ليرجعَ إلىٰ رأْيِهِ في ذلك، ولكن ليعلم ما عنده من الصبر فيما نَزَل به مِن بَلاَءِ الله تعالىٰ فَيُثَبِّتَ قدمَه إن جَزِعَ ويأْمَنَ عليهِ الزَّلَلَ إن صَبَرَ وسلَّمَ، وليعلم القضيّةَ فَيُوَطِّنَ نَفْسَهُ علىٰ الذَّبْحِ وَيُهَوِّنَهُ عليها، فيلقىٰ البلاءَ وهو كالمُستأْنِسِ به ويكتسب الثّوابَ بالانقيادِ لأَمرِ اللّهِ تعالىٰ قَبْلَ نزولِهِ، وليكون سُنّةً في المُشاوَرةِ، فقد قيل: لو شاورَ آدمُ الملائكةَ في أكْلِ الشَّجرةِ لَمَا فَرَطَ منهُ ذلك.

فإنْ قِيلَ: كيفَ قيلَ لهُ: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [١٠٥/٣٧] وإنَّما يكون مُصدِّقاً لها لَوْ وُجِدَ منه الذَّبْحُ؛ ولَمْ يُوجَد؟

قُلْنـا: معناه: «قد فَعَلْتَ غايةَ ما في وُسْعِكَ مِمّا يَفْعَلُهُ الذَّابحُ من إلقاءِ وَلَدِكَ وإمرار الشَّفْرَةِ علىٰ حَلْقِهِ» ولكنَّ الله تعالى منعَ الشَّفْرَةَ أن تقطَعَ؛ وقيل: إن الّذي رآه في المنام مُعَالَجَةُ الذَّبْحِ فقط، لا إراقةُ الدّمِ، وقد فَعَلَ ذلكَ في اليقظة؛ فكانَ مُصدِّقاً للرُّؤْيا.

فإنْ قِيلَ: أينَ جَوَاب (لَمَّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [١٠٣/٣٧]؟

قُلْنـا: قيل: هو محذوفٌ تقديرُهُ: «استبْشَرَا وَاغْتَبَطَا وَشَكَرَا للّهِ تعالىٰ علىٰ ما أنعَم بِهِ عليهما من الفداء» أو تقديرُهُ: «سَعِدَا وأُجْزِلَ ثَوَابُهُمَا» وقيل الجوابُ هو قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ [١٠٤/٣٧] والوَاوُ زائدةٌ[٢٥]، كما في قول أمرىء القيس[٢٦]:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحىٰ بِنَا بَطْنُ خبت ذِي قِفَافِ عَقَنْقَلِ

(٢٥) أي في قوله تعالى «وناديناه» لتصلح أن تكون جواباً.

(٢٦) ديوان امرىء القيس: ١٥

أي: «فلمّا أجزنا ساحة الحيّ انتحىٰ» كذا نقله ابن الأنباري في شرحه(٢٦).

فَإِنْ قيلَ: كيف قال تعالى في آخر قصّة إبراهيمَ عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٠١/٣٧] وفي غيرها من القصص قبلَها أو بعدَها ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؟

قُلْنَا: لمَّا سَبَقَ في قصّة إبراهيم عليه السّلام مرّةً: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٠٥/٣٧] طَرَحَهُ في الثّاني تخفيفاً واختصاراً واكتفاءً بذكره مرّةً بخلاف سائر القصص.

فَإِنْ قِيلَ: كيف قال تَعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [١٣٣/٣٧ ـ ١٣٤] وَهو كانَ من المُرْسَلينَ قبلَ التَّنْجِيَةِ؟

قُلْنَا: قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ لا يتعلّق بما قبلَهُ، بل يتعلّق بمحذوف تقديره: «اذكُرْ لهم يا مُحَمّد إِذْ نَجَّيْناهُ» أو: «وأنعمنا عليهِ إذ نجّيناهُ»، وكذا السؤالُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [١٣٩/٣٧ ـ ١٤٠].

فَإِنْ قِيلَ: كيف قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [١٤٤/٣٧] و(أو) كلمةُ شَكٍّ، والشَّكُّ علىٰ الله مُحال؟

قُلْنَا: قيل: (أو) هُنَا بمعنىٰ (بل)، فَلاَ شَكَّ. وقيل: بمعنىٰ (الواو) كما في قوله تعالى(٢٧): ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالىٰ(٢٨): ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾، وقيل معناه: أو يزيدونَ في تقديركم، فلو رآهم أحد منكم فقال: «هُم مئة ألفٍ أو يزيدون» فالشّكُّ إنّما دَخَلَ في حكايةِ قولِ

(٢٦) شرح القصائد السبع الطِّوال: ٥٥.
(٢٧) النساء: ٤٣/٤ (والمائدة ٦/٥).
(٢٨) المرسلات: ٦/٧٧.

المَخْلُوقين؛ ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعالىٰ(٢٩): ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: ما فائدةُ تكرار الأمرِ بالتَّوْلِيةِ والإبصار(٣٠)؟

قُلْنا: فائدتُهُ تأكيد التّهديد والوَعيد.

فَإِنْ قِيلَ: كيف قال تعالىٰ أوّلاً: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [١٣٥/٣٧] ثمّ قال ثانياً ﴿وَأَبْصِرْ﴾ [١٧٩/٣٧]؟

قُلْنا: طَرَحَ ضَمير المفعول تخفيفاً واختصاراً واكتفاءً بِسَبْقِ ذِكْرِهِ مرّةً؛ وقيل: معنىٰ الأوّل: «وأبصِرْهم إذا نزلَ بهم العذاب» ومعنىٰ الثّاني: «وأبصرِ العذابَ إذا نزلَ بهم» فلا فَرْقَ بينهما في المعنىٰ.

---

(٢٩) النجم: ٩/٥٣.

(٣٠) يشير المؤلّف إلى قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ، فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ، وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [١٧٣/٣٧ ـ ١٧٩].

سُورَةُ صَ

فَإِنْ قِيلَ: أَينَ جوابُ القَسَمِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿صٓ وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [٣٨/١]؟

قُلْنَا: فيه وُجوهٌ، أَحَدُها أَنَّه لمّا ذكرَ حرفاً من حُروفِ المُعْجَمِ علىٰ سبيلِ التَّحدِّي والتَّنبيهِ على الإعجاز، كما قيلَ في كلِّ سورةٍ مُفْتَتَحةٍ بحرفٍ أتبعه القَسَمُ محذوفَ الجواب، لدلالةِ التَّحدِّي عليه، كأنَّهُ قال: «أقسمتُ بصاد والقرآنِ ذي الذِّكْرِ إنَّهُ لَكَلَامٌ معجِزٌ»؛

الثاني: أنَّ (صَ) خَبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ على أنَّه اسمٌ للسورة، كأنَّهُ قال: «هذه ص» يعني: هذه السورة التي أعْجَزَتِ العربَ والقرآنِ ذي الذِّكْرِ؛ كما تقول: «هذا حاتمٌ والله» تريد: هذا هُو المشهورُ بالسَّخاءِ والله؛

الثالث: أنَّ جوابَ القسم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [٣٨ / ٣] وأَصلُهُ: «لَكَمْ أَهْلَكْنا» فلمّا طال الكلامُ حُذِفَتِ اللاّمُ تخفيفاً، كما في قوله تعالى[1]: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا..... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾.

الرّابع: أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [٣٨/٦٤] هو جواب القَسَمِ، وهو قول الكسائي؛ قال الفرّاء: وهذا لا يستقيم في العربيّة لتأَخُّرِهِ جدّاً عَنِ القَسَمِ[2].

فَإِنْ قِيلَ: مَا وَجْهُ المُنَاسَبَةِ والارتباط بين قولِهِ تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [٣٨/١٧] وبينَ قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [٣٨/١٧]؟

قلنا: وَجْهُ المُنَاسبَةِ بينهما أنَّهُ أَمَره أن يتقوّىٰ على الصَّبْرِ بِذِكْرِ قُوَّةِ داوود عليه السّلام علىٰ العِبادة والطّاعة؛

---

(١) الشمس: ٩١/١ ـ ٩.

(٢) لهذا الكلام تفصيل في كتب التفسير؛ لخّصه القُرطبي ١٥: ١٤٣ ـ ١٤٤.

الثّـاني: أنَّ المعنىٰ: «عَرِّفْهُمْ أَنَّ داوودَ عليهِ السّلام، مَعَ كَرَامتِهِ وشُهْرَةِ طـاعَتِهِ وعِبَـادَتِهِ التي منها صَوْم يَوْم دون يوم، وقيـامُ نِصْفِ الليـل، كَانَ شـدِيدَ الخَـوْفِ مِن عَذابي، ولا يزالُ باكيـاً مُسْتَغْفِـراً؛ فكيفَ حـالُ هـؤلاء مع أفعـالِهِمْ؟!».

فَـإِنْ قِيــلَ: كيف قـال المَلَكان لمّـا دخـلاً على داوود عليه السّلام: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [٣٨/٢٢] والملائكـة لا يُوجَد منهم البغي والظُّلْم؟ وكيفَ قـالَ: ﴿ إِنَّ هَـذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [٣٨/٢٢] وَلَمْ يكُنْ كمـا قـال؟

قُلْنَـا: إنّمـا قـال ذلك عـلىٰ طـريق العَـرض والتَّصوير للمسألة(٣)، ومثـلُ ذٰلك لا يُعَدُّ كَذِبـاً، كمـا تقول في تصوير المسائل: «زيد له أربعون شاة، وعمـرو له أربعون ـ وأنت تُشير إليهما ـ فَخَلَطاها، وحـالَ عليها الحول، كم يجب فيها؟» وليس لهما شيء؛ وتقـول: «لي أربعون شـاةً، ولكَ أربعون شـاةً، فَخَلَطْنَاها» ومـا لَكُما شيء.

فـإن قِيـلَ: كيف حكم داوود عليه السَّلام عـلى المُـدَّعى عليه بكونه ظالمـاً قبـلَ أن يسمع كـلامَه؟

قلنـا: لم يحكم عليه إلاّ بعـدَ اعترافِـهِ، كـذا نَقلـه السُّدّي، إلاّ أنَّـهُ حـذفَ ذِكْـرَ الاعترافِ في القصّةِ اختصـاراً لـدلالة الحـال عليه، كمـا تقول العـرب: «أمـرتُهُ بالتّجـارةِ، فكسبَ الأموال» أي: فاتَّجـر فكسب الأموال.

فَإِنْ قِيـلَ: ما معنىٰ تكـرار الحبّ في قوله عليه السّلام: ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ ﴾ [٣٨/٣٢] وما معنىٰ تعديتِهِ بِـ (عَنْ)(٤)، وظـاهرُهُ: «أَحْبَبْتُ حُبّـاً مِثْلَ حُبِّ الخير» كمـا تقول: «أحببتُ حبَّ زيد» أي: أحببـتُ مثـلَ حـبّ زيد؟

(٣) يعني على سبيل التّمثيل؛ والافتراض النّظـري لتقريب المسألة.

(٤) وذلك في قوله تعالىٰ على لسـان سليمان: ﴿إِنّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي﴾ [٣٨/٣٢].

قُلْنــا: (أحببتُ) في الآية بمعنىٰ (آثَرْتُ) كمـا يَقولُ المُخَيَّرُ بين الشيئين: «أحببتُ هـذا» أي: آثَرْتُهُ، وقـد جـاء (استحبّ) بمعنىٰ (آثَر)؛ قـال الله تعـالىٰ(٥): ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـاهُمْ فاسْتَحَبُّوا العَمَىٰ عَلَىٰ الهُـدَىٰ ﴾؛ أي: آثَرُوهُ؛ لأنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئاً فقـد آثَـرَهُ عـلىٰ غيره، و (عَنْ) بمعنىٰ (عـلىٰ)، كمـا في قوله تعالىٰ(٦): ﴿ وَمَنْ يَبْخَـل فَإِنَّمَـا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فيصير المعنىٰ: «إنِّي آثَرْتُ حُبَّ الخيرِ عـلَىٰ ذِكْـرِ رَبِّي».

الثـاني: وهـو اختيـار الجـرجانيّ صاحـبِ معـاني القـرآن ـ «إنِّي أحببتُ» بمعنـىٰ (قعـدت) و (تأخّـرت) مأخوذٌ من: «أحـبَّ الجـملُ» إذا بَرَكَ، ومنه قـول الشّاعـر(٧):

وَعنـك إليها مُقلتـاهـا وجيـدُهـا فَمَلَّتْ كَمَـا مَلَّ المُحِبُّ على عَمـد

فالمُحبِ هنـا الجَمَلُ، والعَمَـدُ: عِلَّـةٌ تكـون في سنـام الجمـل، وكلُّ مَنْ تركَ شيئاً يجب أن يفعله فقد قعـد عنه؛ فتأويلُ الآية: «إنِّي قعـدتُ عن ذكـرِ ربِّي لِحُـبِّ الخَيْرِ» فيكـون انتصـاب (حُبَّ) عـلىٰ أنَّهُ مفعولٌ لـه.

فإنْ قِيلَ: كيف قال سليمان عليه السّلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْـدِي ﴾ [٣٨/٣٥] وهٰـذا يُشْبِهُ الحَسَدَ والبُخْـلَ بِنِعَمِ الله تعـالىٰ عـلىٰ عبيـدِهِ بما لا يضُـرُّ سليمانَ عليهِ السَّـلام؟

قُلْنـا: قـال الحسن وقتـادة ـ رضي الله عنهما: المـراد به «لا يَنبغي لأحـدٍ أَنْ يَسْلُبَـهُ منِّي في حيـاتي» كمـا فعـلَ الشَّيطانُ الـذي لبس خاتمه وجلس على كُرسيّـه(٨).

---

(٥) فصّلت: ٤١/١٧.

(٦) محمّـد: ٤٧/٣٨.

(٧) عَمِدَ الجمـل: أي ورم سنامُهُ من عضّ القتَب (خشبة الرّحـل) وانْحلَس وانشدخ.

(٨) تنقـل كتب التفسير كلامـاً طـويلاً في هـذا الموضوع، وكـذا كتب التواريخ وقصص الأنبياء. ينظر مثلاً القرطبي ١٥: ١٩٨ ـ ٢٠٥ وكتاب: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء.

الثّـاني: أَنَّ الله تعـالىٰ يعلَمُ أَنَّهُ لا يقـوم غيرُهُ من عبـاده بمصـالح ذلكَ الملك، واقتضت حكمـتُهُ تخصيصَهُ بهِ، فأَلْهَمَهُ أن يسألـه تخصيصَهُ به.

الثـالث: أنَّهُ أراد بذلك ملكـاً عظيمـاً، فعبَّرَ عنه بتلكَ العِبَـارةِ، ولم يقصـد بذلكَ إلاَّ عِظَمَ المُلْكِ وسَعَتَه؛ كمـا تقول: «لـفلانٍ مـا ليسَ لأحـدٍ مِنَ الفَضْـلِ أو من المـال» وتريد بذلك عِظَمَ فَضْلِهِ أَو مالِهِ، وإن كانَ في النَّاسِ أَمثـالُهُ.

فَـإِنْ قِيـلَ: كيفَ قـال تعـالىٰ في وَصْفِ أَيُّوبَ عليـه السَّـلام: ﴿ إِنَّـا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ [٤٤/٣٨] مع أنَّ الصَّبْرَ هـو تركُ الشَّكْوىٰ مِن أَلَم البَلْوَى ـ على ما قيل ـ وهـو قَدْ شَكَـا؟

قُلْنَـا: الشَّكْوى إلىٰ الله تعـالىٰ لا تُنَافِي الصَّبْرَ، ولا تُسَمَّى جَزَعـاً؛ لِمَـا فيها مِن إِظْهَارِ الخُضُوعِ والعُبُودِيّةِ للَّهِ تعـالىٰ والافتقـار إليه، ويُؤيِّدُهُ قولُ يعقوب عليـه السَّـلام(٩): ﴿ إِنَّمَـا أَشْكُو بَثِّـي وَحُزْنِي إِلَى الله ﴾ مع قولِهِ(١٠): ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ وقولُهم: «الصبر تركُ الشَّكوىٰ» يعني إلى العبـاد.

الثّـاني: أَنَّهُ عـليهِ السَّـلامُ إنّمـا طَلَبَ الشِّفَـاءَ مِنَ الله تعـالىٰ بعـد ما لم يبق منه إلاّ قـلبه ولسانـه خِيفَـةً عـلىٰ قـومِهِ أن يَفْتِنَهُـمُ الشَّيْطـانُ بـما كـانَ يُوَسْوِسُ إليهم بهِ ويقولُ: «إنَّهُ لو كان أيّوبُ نبيّـاً لَمَا ابتُلِيَ بما هـو فيهِ، وَلَدَعا إلى [الله] تعـالىٰ بكشفِ ضُـرِّه».

وروي أنَّهُ عـليه السَّـلام قـال في مُناجـاتِهِ: «إلهي قـد عَلِمْتَ أَنَّهُ لم يخـالف لسـاني قلبي، ولم يتبع قلبي بصـري، ولم يُلْهِنِي ما ملكَتْ يميني، ولم آكُلْ إلاّ ومعي يتيمٌ، وَلَمْ أَبِتْ شَبعـانَ، ولا كاسياً، ومعي جـائع أَو عُـريان» فكشَفَ اللَّهُ تعـالىٰ ضُرَّه.

(٩) يوسف: ٨٦/١٢
(١٠) يوسف: ١٨/١٢.

فَإنْ قِيلَ: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [٣٨/٧٨] يدلُّ علىٰ أَنَّ غايةَ لعنةِ الله تعالى لإبليسَ هيَ يومُ القِيامَةِ، ثمّ تنقَطع.

قُلْنا: كيف تنقطع وقد قال تعالىٰ[١١]: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ - يعني يَوْمَ القيامةِ - ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ ﴾ وإبليسُ أَظْلَمُ الظَّلَمَةِ؛ ولكنَّ مُرَادَهُ في الآيةِ أنَّ عليهِ اللَّعَنَةَ في طول مُدَّةِ الدُّنيا، فإذا كان يومُ القيامةِ اقْتَرَنَ لَهُ باللَّعْنَةِ مِن أنواعِ العَذابِ ما يَنْسىٰ عندَهُ اللَّعْنَةَ، فكَأَنَّهَا انْقَطَعَتْ.

(١١) الأعراف: ٧/٤٤.

سُوْرَةُ الزمَر

فَـإن قِيـلَ: كيف قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[1] [٣٩/٣] وكم من كاذب كفّار قد هـداه الله تعـالى وأسلمَ وصَدَقَ؟

قُلْنَـا: معنـاه: لا يهديهِ إلى الإيمـان ما دام على كُفْرِه وكَـذِبه، وقيـل: معنـاه: لا يهديه إلى حُجّةٍ يلزم بها المؤمنين.

فَـإن قِيـلَ: كيف يصلح قوله تعـالى: ﴿ لَـوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَـدَاً لَاصْطَفىٰ مِمَّـا يَخْلُـقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [٣٩/٤] ردّاً عـلىٰ مَن ادّعىٰ أنّ له ولـداً، وإبطـالاً لـذلك، مع أنَّ كلّ مَنْ نسب إليـهِ وَلـداً قـال إنَّهُ اصطَفَـاهُ من خَلْقِـه بِجَعْلِهِ وَلـداً؛ فاليهود يدّعـونَ أَنَّهُ عُزَيرٌ، والنَّصـارىٰ يدّعـونَ أنَّهُ المسيحُ، وطائفـةٌ مِن مُشرِكي العـرب يدّعـونَ أنَّ الملائكـةَ بنـاتُ الله؟

قُلْنَـا: هـذا إن جُعِلَ ردّاً على اليهود والنّصـارى كـانَ معنـاه: «لاصطفىٰ الـولدَ مِنَ الملائكـةِ لا مِنَ البَشَرِ» لأنَّ الملائكـةَ أَشْرَفُ مِنَ البَشَرِ بلا خـلافٍ بيـنَ اليهـود ولا بينَ النَّصـارىٰ؛ وإن كـانَ ردّاً عـلىٰ مُشْرِكـي العـرب كان معنـاهُ: «لاصطفىٰ ولـداً مِنْ جنسٍ يَخْلُقُ كلَّ شيءٍ يريدُه» ليكونَ ولـدُه موصوفـاً بِصِفَتِهِ، ولم يصطفِ من الملائكـة الـذين لا يقـدرونَ على إيجـادِ جَنَاحِ بعَوُضَةٍ؛ ولا يرد على هـذا خَلْقُ عيسىٰ عليـه السّـلامُ الطَّيْرَ؛ لأنَّه ليس يُعَـدُّ خَلْقاً؛ أو لأنَّهُ بمعنىٰ التقـدير مِنَ الـطين ثُمَّ الله تعـالَى يَخْلُقُهُ حيـواناً بِنَفْخِ عيسىٰ عليه السّـلام؛ إظهـاراً لِمُعْجِزَتِهِ.

فَـإنْ قِيـلَ: كيفَ قـال تعـالىٰ: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [٣٩/٦] وَخَلْقُ حـوّاءَ مِنْ آدَمَ عليـه السّـلام سابقٌ عـلىٰ خَلْقِنَـا منـهُ، فكيفَ عَطَفَهُ عَلَيْهِ بِكَلِمَةِ (ثُمَّ)؟

قُلْنَـا: (ثُمَّ) هنـا للعطف في الإخبـار، لا في الإيجـاد؛ كمـا تقول

(١) قال في تنزيه القرآن عن المطاعن: لا يهديه إلى الثّواب في الآخـرة.

لصاحبكَ: «أعطيتُكَ اليومَ كذا، ثمَّ أعطيتُكَ أَمْسِ أَكْثَرَ مِنْهُ» أي: ثُمّ أُخْبِرُكَ بكذا؛ ومنه قول الشاعر:

إنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قد سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

الثاني: أنّ (ثُمَّ) متعلِّقة بمعنىٰ (واحدةٍ) وعاطفةٌ عليها لا علىٰ (خَلَقَكُمْ) فمعناه: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وُجِدَتْ وأُفرِدَت بالإيجاد، ثُمَّ شُفِعَتْ بِزَوْجٍ.

الثّالث: أنَّ (ثُمَّ) علىٰ ظاهِرِها[٢]؛ لأنَّ الله تعالَىٰ خَلَقَ آدمَ ثمّ أَخرجَ أولادَهُ مِن ظهرِهِ كالذَّرّ، وأخذَ عليهمُ الميثاقَ، ثمَّ ردّهم إلى ظَهْرِهِ، ثمَّ خَلَقَ منه حَوَّاءَ؛ فالمُرَادَ بقولِهِ تعالىٰ ﴿خَلَقَكُمْ﴾ خَلْقُنَا يومَ أَخَذَ الميثاقَ دُفعةً واحدةً، لا هذا الخلقُ الذي نحن فيهِ الآنَ بالتَّوالُدِ والتّناسُلِ.

فَإِنْ قِيلَ: كيف قال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ [٦/٣٩] مع أنَّ الأنعامَ مخلوقة في الأرض لا مُنَزَّلَةٌ مِنَ السَّماءِ؟

قُلْنَا: قيل إنَّ الله تعالىٰ خَلَقَ الأزواجَ الثَّمانيةَ في الجنّةِ، ثمّ أنزلها علىٰ آدمَ بعدَ إنْزَالِهِ إلىٰ الأرض.

الثاني: أنّ الله تعالى أنزل الماء من السّماء، والأنعام لا تُوجَدُ إلاّ بوجود النبات، والنّبات لا يوجَدُ إلاّ بوجودِ الماء؛ فكأنّ الأنعامَ مُنَزَّلةٌ مِنَ السَّماءِ؛ ونَظِيرُهُ قولُهُ تعالىٰ[٣]:﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾؛ وإنّما أنزل الماءَ الذي لا يوجَدُ القُطْنُ والكَتَّانُ والصُّوفُ إلاّ به.

---

(٢) ثُمَّ من حروف النَّسق (العطف) لا يُشَرّك ما بعدها بما قبلها إلاّ أنّها تبيّن الآخر من الأول. قال الزجاج: «ثمّ» لا تكون في العطوف إلا لشيءٍ بعد شيء.
(٣) الأعراف: ٢٦/٧.

فَإِنْ قِيلَ: كيف قَالَ تعالىٰ في وَصْفِ الذي جاء بالصّدق وَصدّق به: ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٣٩/٣٥] مع أنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يكفِّر عنهم سَيِّىءَ أعمالِهِمْ ويجزيهم بِحَسَنِهَا أيضاً؟

قُلْنَا: قد سبقَ مثل هذا السُّؤال وجوابه في سورة التَّوْبة.

فَإِنْ قِيلَ: كيف قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ [٣٩/٤٤] مَع أَنَّهُ جاءَ في الأخبار أنَّ للأنبياء والعلماءِ والشّهداءِ والأطْفَالِ شفاعةً يومَ القيامةِ؟

قُلْنَا: معناهُ: إنَّ أحداً لا يملكُهَا إلّا بتَمْليكٍ، كما قال تعالىٰ[٤]. ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ ﴾ وقالَ تَعالىٰ[٥] ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: كيف ذكَّرَ الضَّميرَ في (أُوْتِيتُهُ) وهو للنِّعمةِ في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْم ﴾ [٣٩/٤٩].

قُلْنَا: إنَّمَا ذَكَّرَهُ نَظَراً إلىٰ المعنىٰ؛ لأنَّ معنىٰ ﴿ نِعْمَةً مِنَّا ﴾: «شيئاً مِنَ النِّعمةِ وقِسْماً منها» أو لِأَنَّ النعمةَ والأنعامَ بمعنًى واحِدٍ.

فَإِنْ قِيلَ: كيف قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُم ﴾ [٣٩/٥٥] والقرآنُ كُلُّهُ أَحْسَنُ؟

قُلْنَا: معناه: «واتَّبِعوا أَحْسَنَ وَحْيٍ ـ أَو كِتابٍ ـ أُنْزِلَ إليكم مِنْ رَبِّكم» وهو القُرآن كلُّه؛ وقيل: أَحْسَنُ القرآنِ الآياتُ المُحْكَمَاتُ؛ وقيل: أَحْسَنُهُ كلُّ آيةٍ تَضَمَّنَتْ أمراً بطاعةٍ أو إحْسَان. وقد سبق نظيرُ هذه الآيةِ في سورة

(٤) البقرة: ٢/٢٥٥.
(٥) الأنبياء: ٢١/٢٨.

الأعراف في قوله تعالى(٦) : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ والأجْوِبَةُ المذكورةُ ثَمَّ تصلحُ هنا وكذا الأجوبةُ المذكورة هنا تَصْلُحُ ثمَّ؛ إلاّ الجوابَ الأوَّلَ.

فَإن قِيلَ: كيف قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ... ﴾ [٣٩/٦٥] مع أنَّ المُوحىٰ إليهم جماعة، ولمّا أُوحي إلى مَنْ قبلَهُ لم يكن في الوَحْيِ إليهم خطابُه.

قُلْنَا: معناه: «ولقد أُوحيَ إلىٰ كلّ واحدٍ منكَ ومنهم: لَئِن أشركتَ....».

الثاني: أنَّ فيهِ إضماراً تقديره: «ولقد أُوحيَ إليكَ وإلى الذينَ مِن قبلكَ التوحيدُ» ثمّ ابتدأ فقالَ: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ...».

الثالث: أنَّ فيه تقديماً وتأخيراً تقديرُهُ: «ولقد أُوحيَ إليكَ: لَئن أَشْرَكْتَ... وكذلكَ أوحيَ إلى الّذينَ مِن قبلكَ».

فَإنْ قِيلَ: كيف عبّر سبحانَهُ عن الذهاب بأهل الجنّة والنار بلفظِ (السَّوْق) وفيهِ إهانَةٌ؟

قُلْنَا: المراد بِسَوْقِ أَهْلِ النار طَرْدُهُمْ إليها بالهَوَانِ والعُنْفِ، كما يُفْعَلُ بالأُسارىٰ والخارجينَ علىٰ السلطان إذا سيقوا إلىٰ حَبْسٍ أَو قَتْلٍ؛ والمُرَادُ بِسَوْقِ أَهْلِ الجنَّةِ سَوْقُ مَرَاكِبِهِمْ حثّاً وإسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرّضوان، كما يفْعَلُ بِمَنْ يُشَرَّفُ وَيُكَرَّمُ مِنَ الوافِدِينَ علىٰ السُّلطانِ؛ فَشَتَّانَ ما بَيْنَ السَّوْقَيْنِ.

فَإنْ قِيلَ: كيف قال تعالىٰ في صفةِ النار: ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [٣٩/٧١] بغير وَاوٍ، وفي صفة الجنّة: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [٣٩/٧٣] بالواو؟

---

(٦) الأعرف: ٧/١٤٥.

قُلْنَـا: فيـه وُجـوهٌ، أَحـدُها أَنَّهَا زائدة؛ قـاله الفـرّاء وغيره.

الثـاني: أَنَّهـا واوُ الثمانيـة، وأبواب الجنّـة ثمـانية.

الثالث: أَنَّها واو الحـال؛ معنـاه: «جـاؤوها وفُتحت أبوابها قبـل مجيئهم» بخـلافِ النـارِ، فَإِنَّها إنَّمـا فُتِحَتْ عند مجيئهم، والحِكمـةُ في ذلك مِن وُجُـوهٍ:

أَحَدُها: أن يستعجِلَ أهـل الجنّـةِ الفـرح والسـرور إذا رأَوُا الأبـوابَ مُفَتّحـةً؛ وأهـل النـار يأتونَ النّـارَ وأبوابُهَا مغلقـة ليكـونَ أشـدَّ لِحَرِّهـا.

الثـاني: أنَّ الـوقوف على البـاب المُغْلَقِ نوعُ ذُلٍّ وهَـوَانٍ، فَيُصـرف عنـه أهـلُ الجنّـةِ لا أهـل النـار.

الثالث: أنَّ الكـريم يُعَجِّـلُ المَثُوبةَ ويؤَخِّـرُ العقوبـة، فلـو وجـد أهـلُ الجنّـةِ بابَهَا مُغْلَقـاً لأَثَّـرَ انتظـارُ فَتْحِهِ في كَمَـالِ الكَـرَمِ ، بِخِلَافِ أَهْـلِ النّـارِ.

سُوْرَة غَافِر

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قال تعالىٰ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٤٠/٤] مع أنّ الّذين آمنوا أيضاً يُجادِلونَ فيها، هل هي منسوخة أم مُحكمة؟ وهل فيها مَجاز أم كلّها حقيقة؟ وهل هي مخلوقة أم قديمة؟ وغير ذلك.

قُلنا: المُراد: الجِدَال فيها بالتكذيب، ودفعها بالباطل، والطعن بقصد إدحاض الحقّ وإطفاء نور الله تعالى. ويدلُّ عليه قوله تعالى عقيبه: ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ [٤٠/٥].

فإن قِيل: ما فائدةُ قوله تعالى في وصف حَمَلة العرش: ﴿وَيُؤْمِنُوْنَ به﴾ [٤٠/٧] ولا يَخْفى على أحدٍ أنّ حملة العرش مؤمنون بالله تعالى؟

قُلنا: فائدته إظهار شَرَف الإيمان، وفضله، والتّرغيب فيه كما وصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح والإيمان في غير موضعٍ من كتابه كذلك. وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى[١]: ﴿ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِيْنَ آمنوا﴾.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [٤٠/١١] كيف صَحّ أن يسمى خلقُهم أَمواتاً إماتة؟

قُلنا: هذا كما تقول: سبحان من صغّر جسمَ البعوضة، وكَبرَّ جسم الفيل. وكما تقول للحفّار: ضيّقْ فم الركيّة(*) ووسّعْ أسفلها؛ وليس فيها نقلٌ من كبرٍ إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، ولا من سعة إلى ضِيقَ ولا من ضيق إلى سعة؛ وإنما أردت الإنشاء على تلك الصّفات.

---

(١) البلد: ٩٠/١٧.

(*) الركيّة: البئر.

والسَّببُ في صحّته أنّ الصِّغر والكبر جائزان معاً على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما. وكذلك الضيق والسعة. فإن اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكّن منهما على السواء، فقد صرف المصنوع عن الجائز؛ فجعل صرفه عنه كنقله منه.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿ لا يَخْفَىٰ علىٰ اللَّهِ مِنهُم شَيء ﴾ [٤٠/١٦] بيان وتقرير لبروزهم في قوله تعالىٰ ﴿ يَوْمَ هُمْ بارِزُوْنَ ﴾ [٤٠/١١] والله تعالىٰ لا يخفىٰ عليه منهم شيء برزوا أم لم يبرزوا.

قلنا: معناه لا يخفىٰ على الله منهم شيءٌ في اعتقادِهم أيضاً، فإنّهم كانُوا في الدنيا يتوهّمون أنهم إذا تستَّروا بالحِيطان والحجب لا يراهم الله!

ويؤيده قوله تعالىٰ(٢): ﴿وَلٰكِنْ ظَنَنْتُم أنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا تَعْمَلُوْنَ ﴾.

فإن قيل: كيف قال المؤمن في حق موسىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿ وَإن يكُنْ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [٤٠/٢٨] مع أنه صادق في زعم القائل لهذا القول في نفس الأمر أيضاً، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميعُ ما وعدهم؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن لفظة «بعض» صلة.

الثاني: أنها بمعنىٰ «كلّ»، كما في قول الشاعر(٣):

إنّ الأُمور إذا الأحداث دَبّرها دون الشّيوخ ترىٰ في بعضِها خَللا

(٢) فصّلت ٤١/٢٢.
(٣) دون الشيوخ أي قبلهم، وبدلاً عنهم. والمعنى: «ترى فيها كلّها خَللاً». وقول المؤلف: بعض صلة أي زائدة.

ومنه قـول لبيـد[٤]:

أولم تكن تَـدري نَـوارُ بـأنّني وصّـالُ عقـدِ حبـائـل جَـذّامُهـا
تَـرّاك أمكنـةٍ إذا لـم أرضهـا أو يرتبط بعضَ النّفوسِ حِمامُها

قلت: ولقـائل أن يقول: إن لفظـة «بعض» في البيتين على حقيقتها، وكنىٰ لبيـد ببعض النفوس عن نفسه، كأنه قـال: أتركها إلى أن أموت.

كـذا فَسّـره ابن الأنبـاري، علىٰ أن أبا عُبيـدة قـال[٥]: إن «بعضـاً» في الآية بمعنىٰ «كل»، واستدل ببيت لبيـد.

وأنكـر الزَّمَخْشَرِيّ عـلى أبي عُبَيـدة هـذا التفسير. عـلى أنَّ غير أبي عُبَيـدة قـد قـال في قَوله تعـالى ـ حكـايةً عن عيسىٰ ـ عليه السّـلام ـ لأمّته[٦] ﴿وَلِأُبَيِّنَ لكُم بَعْضَ الّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيه﴾ أن «بعضاً» فيه بمعنىٰ «كُلّ»[٧].

الثالث: أنها على أصلها.

ثم في ذلك وجهـان:

أحـدهما: أنه وَعـدهم النّجـاة إن آمنـوا، والهـلاكَ إن كَفـروا. فذكـر لفظة (بعض) لأنهم عـلىٰ إحـدىٰ الحـالتين لا محـالة.

الثـاني: أنه وعـدهم عـلىٰ كُفـرهم الهـلاك في الدنيـا بعض الـذي يعـدكم.

---

(٤) ديوان لبيد: ٣١٣.
(٥) نقله ابن الأنبـاري في شرح القصـائد السبع الطـوال الجاهليـات: ٥٧٣.
وفيه: «قوله: بعض النفوس، أراد نفسه، لأنّ نفسه بعض أنفس الناس. وقـال أبو عبيدة: معنـاه كل النفوس لأن الموت لا ينزل ببعض النفوس ولكنه ينزل بالنفوس كلها».
(٦) الزخـرف: ٤٣/٦٣.
(٧) قـال الزمخشري: (٣: ٥٩٥) إنما بُعث (عيسى عليه السلام) ليبيّن لهم ما اختلفـوا فيه مما يعنيهم من أمر دِينِهم.

الـرابع: أنه ذكـر البعض بطـريق التبرك، والتلطف، وإمحاض النّصيحـة من غير مُبالغـة ولا تأكيـدٍ ليسمعوا منه ولا يتهّموه فيردّوا عليـه، وينسبـوه إلـىٰ ميـلٍ ومُحَـاباة لموسىٰ ـ عليه السـلام ـ كأنه قـال: أقـلّ ما يصيبكم البعض وفيـه كِفـاية، ونظيرُه قـولُ الشّاعـر(٨):

قد يُدرك المتأنّي بعضَ حاجتِهِ   وقد يكون من المستعجل الزَّلَلُ (٩)

فقـد أبان فضـل المتأنيّ عـلىٰ العجلـة بما لا يقـدر الخصم عـلىٰ دفعـه ورده، والوجـهُ الـرابّعُ هـو اختيـار الزمخشري.

فـإن قيـل: التولّي والإدبـار واحـد فما فـائدة قولـه تعـالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّـونَ مُدْبِرِيْنَ﴾ [٤٠/٣٣].

قلنـا: هـو التأكيد كقولـه تعـالى(١٠): ﴿فَخَـرَّ عَليهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾. ونظائـره كـثيرة.

الثاني: أنه استشـارة لحميتهم، واستجلاب لأنفسهم لما في لفظِ: «مُـدبرين» من التّعريض بذكـر الدُّبر، فيصير نظير قولـه تعـالىٰ(١١): ﴿وَيُوَلُّـونَ الدُّبُرَ﴾.

فـإن قيـل: مـا فـائدة التكـرار في قولـه تعـالىٰ: ﴿لَعلّي أَبْلَغُ الأَسبابَ أَسبـابَ السَّمٰوات﴾ [٤٠/٣٧] وهـلاّ قال: «لعـلي أبـلغ أسباب السموات» أي أبوابها وطرقهـا؟

قلنـا: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمـاً لـذاته، وتعظيماً لمكانه. فلمـا أراد تفخيم ما أمـل بلوغـه من أَسبـابِ السّموات أبهمها ثم أوضحها.

(٨) هو القطامي: والبيت في ديوانه (٢٥).
(٩) رواية الديوان: وقد يكون مع المستعجل الزَّلل.
(١٠) النحـل ١٦/٢٦.
(١١) القمر ٥٤/٤٥.

فإن قيل: مثلُ السّيئةِ: سيّئة؛ فما معنىٰ قوله ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزىٰ إلّا مِثْلَها﴾ [٤٠/٤٠].

قلنا معناه: أن جزاء السّيئة له حسابٌ وتقديرٌ لئلا يزيد على المِقدار المُستحق.

فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقديرٍ وحساب كما قال تعالىٰ في آخر الآية(١٢).

فإن قيل: قوله تعالى(١٣): ﴿مَن جَاءَ بالحَسنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ يُنافي ذلك، قلنا: لمنع النُّقصان لا لمنع الزّيادة كما قال تعالى(١٤): ﴿لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوا الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وقَال الَّذِيْنَ في النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [٤٠/٤٩] ولم يقل: «وقال الذين في النار لخزنتها»؟

قلنا: لأن في ذكر جهنّم تهويلاً وتفظيعاً.

وقيل: إنّ جَهنم هي أبعد النار قعراً، وخزنتها أعلىٰ الملائكة الموكلين بالنار مرتبة، فإنما قصدهم أهل النار بطلب الدعاء منهم لذلك.

فإن قيل: كيف قال المُشركون ﴿بَل لَم نَكُنْ ندعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً﴾ [٤٠/٧٤] مع قولهم(١٥) ﴿هٰؤلاء، شُرَكَاؤنَا الَّذِيْنَ كُنّا نَدْعُو مِنْ دُوْنِكَ﴾؟

قلنا: معناه أَن الأصنام التي كنّا نعبدها لم تكن شَيئاً لأنّها لا تَضُرّ ولا تنفع!

---

(١٢) ﴿... ومَنْ عَمِلَ صالحِاً مِن ذكرٍ او أُنْثىٰ وهو مؤمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُوْنَ فِيْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(١٣) الأنعام: ٦/١٦٠.

(١٤) يونس: ١٠/٢٦

(١٥) النّحل: ١١/٨٦.

الثّاني: أنهم قالوا كذباً وجُحوداً، كقولهم(١٦): ﴿ واللَّهِ رَبِّنَا ما كُنّا مُشركيْنَ ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ ﴿ وَعَلىٰ الفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ﴾ [٤٠/٨٠] ولم يقل: «وفي الفلك» كما قال تعالى(١٧): ﴿ احْمِلْ فِيها مِن كُلٍّ زَوْجَيْن اثْنَيْنِ ﴾.

قلنا: مَعنىٰ الوعاء، ومعنىٰ الاستعلاء كلاهما صحيحٌ في الفُلك، لأنه وِعاءٌ لمن يكون فيه، وحمولة لمن يستعليه، فلما صحَّ المعنيان، استقامت العِبَارتان معاً.

(١٦) الأنعام: ٦/٢٣.
(١٧) هود: ١١/٤٠

سُورَةُ فُصّلَتْ

فإن قيـل: ما فـائدة زيادة «من» في قولـه تعـالىٰ: ﴿ وَمِنْ بَيْننا وبينكَ حِجـابٌ ﴾ [٥/٤١] مع أن المعنىٰ حـاصل بقوله «وبيننا وبينـك حجـاب»؟

قلنـا: لـو قيـل كـذلك لكان المعنىٰ أن حجـاباً حـاصلاً وسط الجِهتين، وأمّـا بزيادة «مِنْ » معنـاه: أن الحجـابِ ابتداؤه مِنّـا ومنـك، فالمسافـةُ المتوسّطة بيننا وبينك مستوعبةٌ بالحجـاب لا فـراغ فيهـا.

فإن قيـل: قوله تعـالى: ﴿ أَئِنّكُمْ لَتَكْفُرْونَ بالّـذي خَلَق الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [٩/٤١] إلى قـونه تعـالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ في يَوْمَيْنِ﴾ [١٢/٤١] يدلّ عـلى أن السموات والأرض وما بينهـما خُـلقت في ثمانيـة أَيّـام(١). وقـال تعـالىٰ في سورة الفُرقـان(٢): ﴿الّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما في سِتَّـة أَيّـامٍ﴾. فكيفَ التّوفيقُ بَيْنَهُما؟

قُلنـا: معنىٰ قولـه تعـالىٰ في أربعة أيام في تتمّـة أربعـة أيام، لأن اليومين اللَّذَيْن خلق فيهما الأرض من جملـة الأربعـة.

أو معنـاه: كل ذلك في أربعـة أيام، يعني خـلق الأرض ومـا ذكـر بعضه فصـار المجموع ستّة، وهـذا لا خـلاف فيه بين المفسّرين.

فـإن قيـل: السّموات وما فيهـا أعظم من الأرض وما فيها بأضعافٍ مضاعفـةٍ فَمـا الحكمـةُ في أن الله ـ تعـالى خلَق الأَرضَ وما فيها في أربعةِ أيام، والسموات وما فيها في يومين؟

قلنـا: لأنّ السموات وما فيها من عـالم الغيب، ومن عـالم الملكوت، ومن

---

(١) وفي الآية ١٠ ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيّـامٍ سَواءً للسَّائِلِينَ﴾.
(٢) الفرقـان: ٥٩/٢٥.

عـالم الأمـر، والأرض وما فيها من عـالم الشهادة والملك والخَلْقِ، والأوّل أسـرع من الثـاني.

ووجهٌ آخـر: وهـو أنّه فعـل ذلك ليعلـم أن الخلق علىٰ سبيل التّدريج والتّمهيـل في الأرض وما فيها لم يكن للعجـزِ عن خَلْقِها دفعـةً واحـدة بل كان لمصـالح لا تصلحُ إلاّ بذلك، ولهـذه الحكمـة خَلق العـالم الأكبر في ستة أيام، والعـالم الأصغر وهو الإنسان في ستّـة أشهر.

فإن قيـل: كيف قـال تعـالى في وصف أهـل النار: ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فالنَّـارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [٤١/٢٤] مع أنهم إن لم يصبروا عـلى عـذاب النـار وجـزعوا فالنـار مثوىً لهم أيضـاً؟.

قلنــا: فيـه إضْمَـارٌ تقديـره: فإن يصبروا أو لا يصبروا فالنّـار مثوىً لهم عـلىٰ كل حـال، ولا ينفَعُهم الصبر في الآخـرةِ كما ينفع في الـدنيا، ولهـذا قيـل[٣]: «الصَّبر مِفتـاحُ الفرج»، وقيـل[٤]: «مَن صَبَر ظفـر».

الثّاني: أنّ هـذا جـوابٌ لقول المُشركين في حثّ بعضهم لبعض على إدامـة عبـادة الأصنام[٥]: ﴿ أَن امْشُوا واصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾؛ فقـال الله تعـالى: فإن يصبروا ـ يعني ـ على عبادة الأصنـام في الدنيـا فالنـار مثوىً لهـم في العُقبىٰ.

فإن قيــل: كيف قـال تعـالى: في وصف الكُفّـار ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَسْوأَ الَّـذِي كانُوا يَعْمَلُـوْنَ﴾ [٤١/٢٧] أي بأَسوإِ أعمالهم مع أنهم يجزون بِسَيِّءِ أَعمالِهم أيضـاً؟

---

(٣) أورده الميداني في (مجمع الأمثال ١: ١٤٨) في الأمثـال المولّدة من حـرف الصاد.
(٤) هـو أيضـاً من الأمثـال المولّدة الشائعة، الجـارية مجرى الحكمة.
(٥) صٓ: ٣٨/٦.

قلنـــا: قد سبق نظير هٰذا السّؤال في آخـر سورة التّوبة، والجـواب الأول هنـاك يصلح جواباً هنـا.

فإن قيـــل: ما فائدة قوله تعالى: «وَلَا لِلْقَمَرِ» بعد قوله ﴿ لا تَسْجُدوا لِلشَّمْسِ ﴾ [٤١/٣٧] وهـو مُستفاد من الأَوّل بالطريق الأولىٰ؟

قلنـــا: فائدته ثُبوت الحكم بأقوىٰ الدليلين؛ وهـو النَّص.

سورة حمٓ عٓسٓقٓ[1]

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وإلى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [٤٢/٣] بلفظ المُضارع، والوحيُ إلىٰ مَن قبله ماضٍ؟

قلنا: قال الزّمخشري[2]: قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادةً، وسنَّة للّه تعالى، وهذا لا يوجد في لفظِ الماضي.

قلت: ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضي كما في قوله تعالى[3] ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أو بإضمار وأَوْحَىٰ إلى الذين من قبلك.

فإن قيل: ماذا يرجع الضمير في وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [٤٢/١١]؟

قلنا: معناه: في هذا التدبير، أو في الجعل المذكور، وقيل: في الرحم الذي دل عليه ذكر الأزواج.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [٤٢/١١] وظاهره يقتضي إثبات المثل ونفي مثل المثل، كما يقال: ليس كدار زيد دار فإنه يقتضي وجود الدّار لزيد؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنّ المِثْل في لغة العرب كنايةٌ عن الذّات ومنه قولهم: مِثلي لا يقال له كذا، ومثلك لا يليق به كذا؛ فمعناه ليسَ كَهُوَ شَيء.

الثاني: أن الكاف زائدة للتأكيد، والمعنىٰ ليسَ مثله شيء.

---

(١) وتسمّى: الشورى.

(٢) الكشاف ٣: ٤٥٩.

(٣) الجاثية ٤٥/٢٦.

الثالث: أن (مثل) زائده فيصير المعنىٰ ليس كهو شيء كما مَرّ في الوجه الأَوّل.

والفرقُ بين الوَجهين أن المِثل في الوجه الأول كنايةٌ عن الذات، وفي الوجه الثالث زائدٌ مطروح كأنه لم يذكر.

فإن قيل: ما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبىٰ ﴾ [٢٣/٤٢] ولم يقل: «إلاّ مودّةً في القُربىٰ» أي القرابة، أو «إلا المودة لِلقربىٰ»؟

قلنا: جُعلوا محلاً للمودّة، ومغزًى لها للمبالغة كأنه قال: إلا المودّة الثابتة المُستقرة في القُربىٰ. كما يقال: لي في فلان مودَّة، ولي فيهم هوًى وحُبٌّ شديد.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السّمٰواتِ والأَرضِ ومابَثَّ فِيهما مِنْ دَابَّةٍ﴾ [٢٩/٤٢] والدواب إنّما هي في الأرض فقط؟

قلنا: فيهما بمعنىٰ فيها باعتبار إطلاق لفظ التّثنية على المُفرد كما في قوله تعالى[٤] ﴿ يَخْرُجُ مِنهما اللُّؤلُؤ والمَرْجَان ﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو المِلح.

وقيل: إن الملائكة لهم دبيبٌ مع طيَرانهم أَيضاً وهم مبثُوثون في السَّماء، ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فبتقييده بالأَرض، يدلّ علىٰ وجود الدابّة في غير الأرض من حيث المفهوم.

فإن قيل: كيف قدّم سبحانه الإناث علىٰ الذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثاً ويَهبُ لِمن يشاءُ الذُّكُورَ﴾ [٤٩/٤٢] مع تقديمهم عليهنّ، ثم رَجع فقدَّمَهُم عليهن، ولِمَ نكرّ الإنَاث وعَرّف الذكور؟

قلنا: إنما قدم الإناث لأن الآية سيقت لبيان عظمة ملكه، ونفاذِ

---

(٤) الرحمن ٢٣/٥٥.

- قول المؤلف: «المِلح»: يعني من الماء المِلْح لا العذب.

مشيئته، وأَنّه فاعلٌ ما يشاء لا ما يشاء عبيده، فكان ذكر الإناث اللاَّتي من جملة ما يَشاؤه لا ما يشاء عبيده أهمّ، والأهمّ واجب التقديم، فلذا قدّمَهُن وأَخّر الذكور. ولذلك المعنىٰ تدارك تأخيرَهم وهم أَحِقّاء بالتّقديم بتعريفهم، لأنّ التعريف تنويهٌ وتشهيرٌ كأَنّهُ قال:

«ويهب لمن يشاء الفُرسان الأَعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد» ثم أعطىٰ بعد ذلك كلا الجِنسين حَقّه من التقديم والتأخير، فعرَّفَ أن تقديمَهُنّ لم يكن لِتَقَدُّمِهِنّ، ولكن لمقتضىٰ آخر[٥] فقال تعالىٰ: ﴿ ذُكْرَاناً وإنَاثاً ﴾ [٤٢/٥٠] كما قال[٦]: ﴿ إنّا خَلَقْناكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ ﴾ وقال[٧]: ﴿ فَجَعل مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثىٰ ﴾.

فإن قيل: كيف يقال: إن الله تعالىٰ كلّم محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة المِعراج مواجهةً بغير حجاب ولا واسطة، وقد حصر الله تعالى تكليمه للبشر في طريق الوحي، وهو الإلهام، كما كلم أمّ موسىٰ ـ عليه السلام ـ، والإسماع من وراء حجاب، كما كلم موسىٰ ـ عليه السلام ـ وإرسال الرَّسُول[٨]، كما كلّم الأنبياء عليهم السلام؟

---

(٥) هذه المسألة من الكشاف ٣: ٤٧٥؛ وهي ثمّة أكثر وضوحاً، قال: «فإن قلت: لِمَ قَدَّم الإناث أوّلاً على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ، ثم رجع فقدّمهم، ولِمَ عَرَّف الذكور بعدما نكر الإناث؟ قلت: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى، وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السّابقة عنده، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيّته، وذكر قسمة الأولاد فقدّم الإناث، لأن سياق الكلام أنه فاعلٌ ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الأناث اللاتي من جملة ما [لا] يشاؤه الإنسان أهمّ، والأهمّ واجبُ التقديم، وَليليَ (؟) الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء وأخرّ الذكور، فلمّا أخّرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقّاء بالتقدّم بتعريفهم، لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقّه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدّمهنّ ولكن لمقتضى آخر فقال ﴿ ذكراناً وإناثاً ﴾ كما قال ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ و ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ... الخ.

(٦) الحجرات: ٤٩/١٣.

(٧) القيامة: ٧٥/٣٩.

وإِرسـال **الرَّسُول**(٨)، كما كلّـم الأنبيـاء عليهـم السـلام؟

قلنــا: قيــل: المـراد بالـوحي الأول هنـا الإشارة ومنه قولهم: وحي العين، ووحي الحاجب أي إشارتهما، وقوله تعـالىٰ(٩): ﴿ فَأَوْحىٰ إليهمْ أنْ سَبِّحُوا﴾. فتكليمه لمحمـد ـ عليه الصلاة والسـلام ـ ليلـة المعـراج كان مواجهة بالإشـارة.

فـإن قيــل: في قولـه تعـالى: ﴿ ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَـابُ وَلا الإِيْمَـانُ ﴾ [٤٢/٥٢] كيف ما كان يعلـم الإيمـان قبـل أن يوحَـى إليه، والإيمـان هو التّصـديق بوجـود الصّـانع، وتوحيـده، والأنبيـاء ـ عليهم الصـلاة والسـلام ـ كانوا مؤمنين بالله تعـالىٰ قَبْـل أَنْ يُوحـىٰ إليهـم بِأَدِلَّـةِ عقولهم؟

قلنــا: المـراد بالإيمـان هنـا شرائع الإيمـان وأحكـامه كالصَّـلاةِ والصَّوم ونحوهما.

وقيــل: المـرادُ به الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتّوحيد وهي: «لا إِلَه إلا الله، محمد رسول الله». والإيمـان بهذا التّفسير إنما عُلّمه بالـوحي لا بالعقـل، كمـا عُلِّم الكتـاب ـ وهو القُـرآن ـ به.

(٨) يعني المَلَك (رسولاً إلى المبعوث من بني آدم).
(٩) مريم: ١١/١٩.

سُوْرَةُ الزخْرُف

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إنّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيًّا﴾ [٤٣/٣] ولم يقل: «قلناه أو أنزلناه» والقرآن لَيس بمجعول، لأنّ الجَعل هو الخلق، ومنه قوله تعالى(١): ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقوله تعالى(٢): ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثىٰ﴾؟

قلنا: الجَعْلُ أَيضاً هنا بمعنى القول؛ ومنه قوله تعالى(٣): ﴿وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ﴾؛ وقوله تعالى(٤): ﴿وَجَعَلُوا للهِ أَنداداً﴾؛ أي قالوا، وَوَضَعُوا لا أَنَّهم خَلَقُوا، كذلك هنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَن أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا﴾ [٤٣/٤٥] والنبيّ عليه الصلاة والسلام ما لَقِيَهُم ليسألهم؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديره: واسأَلْ أَتْبَاعَ مَنْ أَرسلنا قبلك.

الثاني: أنّه مجازٌ عن النَّظر في أَدْيانِهم والبحثِ على مِللهم هل فيها ذلك؟

الثالث: أَنّ النبي عليه الصلاة والسلام حُشِرَ له الأَنبياء عليهم الصلاة والسلام ليلةَ المِعْرَاج فلقيهم، وأَمّهم في مسجد بيت المَقْدِس، فلمّا فرَغ من الصَّلاة نزلت عليه هذه الآية، والأنبياءُ حاضرون لديه فقال: لا أَسأل وقد كُفِيت.

وقيل: إنّه خطاب له، والمُراد به أُمّته(*).

---

(١) الأنعام: ٦/١
(٢) القيامة: ٧٥/٣٩
(٣) النحل: ١٦/٥٧
(٤) إبراهيم: ١٤/٣٠
(*) وللكلام تفصيل في أسباب النزول وكتب التفسير كالقرطبي ١٦: ٩٣-٩٤.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيْهِمْ من آيةٍ إلّا هي أَكبرُ من أُخْتِهَا﴾ [٤٣/٤٨] يعني الآيات التّسع التي جاءَ بها موسى عليه السلام، فإنْ كان المراد به أنّ كل واحدة منهن أكبر ممّا سواها لزمَ أن تكون كلمة واحدة فاصلة ومعقولة.

وإن كان المراد أن كلّ واحدة منهن أكبر من أُخت معيّنةٍ لها فإنها هي الكبرىٰ وأنها هي الصُّغرىٰ؟

قلنا: المراد بذلك أنهن موصوفات بالكبر لا يكدن يَتفاوتْنَ فيه؛ ونظيرُهُ بيت الحماسة(٥):

مَنْ تَلْقَ منهم تقُلْ لاقيتُ سَيِّدهم
مثل النُّجوم التي يَسرِي بها السَّارِي

فإن قيل: كيفَ قال عيسى عليه السلام لأمته: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيْهِ﴾ [٤٣/٦٣] والنبيُّ المبعوثُ إلى أُمّته يبيّن لهم كل ما يختلفون فيه؟

قلنا: كانوا يختلفونَ فيما بينهم من أُمرِ الدّيانات، وفيما يَعنيهم من أُمور أُخرى، فكان يبيِّن لهم الشّرائع والأحكام خاصّةً(٦).

وقيل: إن البعض هنا بمعنىٰ الكل، كما سبق في سورة المؤمن في قوله تعالى(٧): ﴿وإنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بعضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ بعد قوله ﴿بَغْتَةً﴾ [٤٣/٦٦] أيْ فجأة؟

---

(٥) هو للعَرَنْدس، أحد بني أبي بكر بن كلاب، من قطعة في مدح بني عمرو الغَنويّين. (حماسة أبي تمّام ٢: ٢٦٨).

(٦) في الكشّاف ٣: ٤٩٥: «فإن قلتَ: هلاّ بيّن لهم كل الذي يختلفون فيه لا بعضه؟ قلتُ: كانوا يختلفون في الدّيانات، وما يتعلّق بالتكليف، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبّدوا بمعرفته والسؤال عنه. وإنما بُعثَ ليبيّن لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم».

(٧) غافر: ٤٠/٢٨ وتسمّى سورة المؤمن.

قلنا: فائدته أنّها تأتيهم وهم غافِلُون مشغولون بأمور دنياهم، كما قال تعالى[٨]: ﴿مَا يَنْظُرونَ إلاّ صَيْحَةً واحدةً تأخُذُهُمْ وَهُم يَخِصِّمُوْنَ﴾[٩].

فلولا قوله: «وهم لا يَشْعُرون» جاز أن تأتيهم بغتةً وهم فَطِنون حَذِرُونَ، مستعدّون لها.

فإن قيل: كيف وصف سبحانه أهل النار بكونهم: ﴿فِيْهِ مُبْلِسُوْنَ﴾[١٠] [٤٣/٧٥] والمبلس هو الآيس من الرَّحمة والفَرج، ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [٤٣/٧٧] فطلبوا الفَرج بالمَوت؟

قلنا: تلك أزمنةٌ متطاولة، وأحقاب مُمتَدّة، فتختلفُ فيها أَحوالهُم، فيغلب عليهم اليَأس تارةً فيسكتُون، ويشتدّ ما بِهم من أَلمِ العذاب تارةً فيستغيثون!

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [٤٣/٨٤] ظاهرهُ يقتضي تَعَدُّدَ الآلهة، لأن النكرة إذا أعيدت تعددت كقولك: له عليّ درهم ودرهمٌ، وأنتِ طالقٌ وطالق. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَين.

قلنا: الإِلَٰهُ هُنا بمعنى المعبُود بالفعل كما في قوله تعالى[١١]: ﴿وَهُوَ الله فِي السَّمٰوات وَفِي الأَرض﴾ فصار المعنىٰ: وهو الَّذي هو في السَّماء معبودٌ وفي الأرض معبودٌ؛ والمغايرةُ ثابتة بين معبودتيه في السّماء، ومعبودتيه

(٨) يَس: ٣٦/٤٩

(٩) قال في صفوة البيان: ٥٦١ (أي ما ينتظرون «إلا صيحةً واحدةً» هي نفخة الصَّعق التي يموتُ بها أهل الأرض. «تأخذُهم» أي تقهرهم «وهم يخصّمون» أي يتخاصمون ويتنازعون فيما انهمكوا فيه من شؤون الدُّنيا، غافلين عن الآخرة).

(١٠) أي في عذاب جهنّم.

(١١) الأنعام: ٦/٣

في الأرض، لأنّ المعبودية من الأُمور الإضافية، فيكـفي في تغايُرهـا التَّغايـر من إحـدىٰ الطرفين فـإذا كـان العَابد في السّماء غير العابد في الأرض صـدق أن معبوديـته في السماء غير مبعوديته في الأرض مـع أنّ المعبود واحـد.

سورة الدُّخَان

فإن قيل: الخلافُ بين النبيّ ﷺ ومُنكري البعث إنّما كان في الحياة بعد الموت لا في الموت، فكيف قال تعالى: ﴿إنَّ هٰؤُلاء لَيَقُولونَ. إنْ هِيَ إلاّ مَوْتَتُنَا الأُولىٰ..﴾ [٤٤/٣٥ - ٣٦] ولم يقل: «إن هي إلا حياتنا الأولى» كما قال تعالى في موضع آخر[1]: ﴿إنْ هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنْيا﴾؟

وما معنى وصف الموتةِ بالأُولىٰ كأنّهم وُعِدوا موتةً أُخرىٰ حتىٰ نفَوها وجَحَدُوها، وأثبتوا المَوتة الأولىٰ؟

قلنا: لما وُعِدُوا موتةً تكون بعدها حياة، نَفوا ذلك، كأنّهم قالوا: لا يقع في الوجود موتة يكون بعدها حياة إلا ما كُنّا فيه من موتِ العَدَم، وبَعْثِنَا منهُ إلى حياة الوُجود.

وقيل: إنّهم نَفَوْا بذلك الموتة الثانية في القبر بعد إحيائهم لسؤال مُنكر، ونكير.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى: ﴿ثُمّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ من عَذَابِ الحَمِيمِ﴾ [٤٤/٤٨] والعذاب لا يُصَبّ وإنما يُصبُّ الحميم، كما قال تعالى في مواضع أُخر[2]: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤوسِهِمُ الحَمِيْمُ﴾.

قلنا: هو استعارةٌ ليكونَ الوعيدُ أَهْوَل وأَهْيَب، ونظيرُه قوله تعالى[3]: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

وقوله تعالى[4]: ﴿أَفْرِغْ علينَا صَبْراً﴾، وقول الشاعر:

---

(١) المؤمنون: ٢٣/٣٧

(٢) الحج: ٢٢/١٩

(٣) الفجر: ٨٩/١٣

(٤) البقرة: ٢/٢٥٠

صُبَّتْ عَلَيهِـم صُروفُ الدَّهْرِ مِن صَببِ(٥)!

فـإن قيل: كيف وعد الله تعالى أهـل الجـنّة لبسَ الإستـبرق وهـو غليظُ الديباج مع أن لبـس الغليظِ من الدّيبـاج عند السّعـداء من أهـل الدُّنيـا عيبٌ ونقص؟

قلنـا: كـما أن رقيق ديباج الجنّة وهو السّنـدس لا يـماثل رقيق ديبـاج الدُّنـيا إلا في الاسـم فقـط فـكذلك غليظُ دِيباج الجنّة.

وقيل: إن السّندس لباس السّادة من أهـل الجـنّة والإستبَرق لباسُ العبيد والخـدم إظهـاراً لتفاوُتِ المَراتـب.

فـإن قيل: كيف قـال تعالى في وصف أهل الجـنّة: ﴿لا يذقون فيهـا الموت إلا الموتـة الأولى﴾ [٥٦/٤٤] مع أن الموتـة الأولى لم يذوقُوها في الجـنة؟

قلنـا: قـال الزجّـاج والفَرّاء «إلّا» هـنا بمعنى «سـوىٰ». كـما في قـوله تعـالى: ﴿إلّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. وقـوله تعـالى: ﴿إلّا مـا شاء رَبُّـكَ﴾.

الثـاني: أنّ «إلّا» بمعنىٰ «بَعْدَ» كـما قـال بعضُهـم في قـوله تعالى: ﴿إلا مَا قَدْ سَلَفـ﴾.

الثـالث: : أنّ السُّعـداء إذا حـضَرتهـم الوفاة كُشِفَ لهُم الغِـطاء، وعُرِضَـت عليهم منازِلَهـم ومَقاماتهم في الجـنّة وتلذّذوا في حـال النَّزْعِ بِرَوْحِهَـا ورَيْحـانِها فكأنّهُـم ماتُوا في الجـنَة، وهـذا قـول ابن قُتَـيبة.

---

(٥) في القرطبي :٤٩/٢: فصبَّ عليهـم أي أفْرَغ عليهم وألقى، يقـال صَبَّ على فـلانٍ خِلعـةً أي: ألقاهـا عليه.

(٦) النساء: ٢٣/٤

(٧) هود: ١٠٧/١١

سورة الجاثية

فإن قيل: كيف طابق الجواب السّؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلاّ أَنْ قَالُوا ائتوا بآبَائِنَا إن كُنْتُم صادِقِيْنَ، قُلِ الله يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيْهِ﴾ [٤٥/ ٢٥ ـ ٢٦]؟

قلنا: وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرّون به من أنّ الله تعالى هو الذي أحياهم أولاً ثم يُميتهم. ومَن كان قادراً على ذلك كان قادراً على جَمعهم يوم القيامة؛ فيكونُ قادراً على إحياء آبائهم.

فإن قيل: كيف أضاف الكتاب إلى الأُمّة، وإليه، في قوله تعالىٰ: ﴿كُلّ أُمَّة تُدْعىٰ إلى كِتَابِهَا﴾ [٤٥/ ٢٨] ثم قال تعالى: ﴿هٰذا كِتَابُنَا﴾ [٤٥/ ٢٩]؟

قلنا: الإضافة تصحُّ بأدنى ملابسة، وقد لابَسهم الكتاب بكون أعمالهم مُثبتة فيه؛ ولابَسه بكونه مالكه، وكونه أَمَرَ مَلاَئِكَتَهُ أن يكتُبوا فيه أعمالهم.

سورة الأحقاف

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِيْنَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُم أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾ [٤٦/١٦] مع أن حَسَن ما عملوا يُتقبَّلُ عنهم أيضاً؟

قلنا: «أحسن» هنا بمعنىٰ «حسن»، وقد سبقَ نظيره في سورة الروم.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الفريقين: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا﴾ [٤٦/١٩] مع أنّ أهل النار لهم دَركات لا درجات؟

قلنا: الدّرجات هي الطّبقات من المراتب مطلقاً من غيرِ اختصاص.

الثاني: أنّ فِيه إضماراً تقديره: ولكلّ فريقٍ درجاتٌ أو دركات ممّا علموا إلا أنه حذَفه اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

فإن قيل: كيفَ طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿فَأتنا بِمَا تَعِدُنا إن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ قالَ إِنّما العِلْمُ عِنْدَ اللهِ﴾ [٤٦/٢٣]؟

قلنا: طابقه من حيث إنّ قولهم ذلك استعجال العذاب الذي توعّدهم به بدليلِ قوله تعالى بعده: ﴿بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ فقال لهم: لا علم لي بوقتِ تعذيبكم بل الله هو العالمُ به وحده.

فإن قيل: كيفَ قال تعالى في وصف الرّيح: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [٤٦/٢٥] وكم من شيءٍ لم تُدَمّره؟

قلنا: معناه تدمر كل شيء مَرّت بهِ من أموالِ قوم عادٍ وأملاكهم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾[٤٦/٣١] ولم يقل: «يغفر لكمْ ذُنوبَكُمْ»؟

قلنا: لأنّ مِن الذُّنوبِ ما لا يُغْفَرُ بالإيمان كمَظالم العِباد ونحوها(١).

---

(١) في فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: «إنّ من الذنوب ما لا يغفره الإيمان».

سورة محمد
عليه الصلاة والسلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [٤٧/٣] ولم يسبقه مثَل؟

قلنا: معناه كذلك يبيّن الله للناس أمثال حسناتِ المُؤمنين وسيّئات الكافرين.

وقيل: أراد به أنه جعل اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكفّار، واتباع الحقّ مثلاً لِعَمل المُؤمنين.

أو أنّه جعل الإضلال مَثلاً لخيبةِ الكفّار، وتكفير السيّئات مثلاً لِفَوز المؤمنين.

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق الشُّهداء بعدما قتلوا في سبيل الله ﴿سَيَهْدِيْهِمْ﴾ [٤٧/٥] والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعده؟

قلنا: معناه سيهدِيهم إلى مُحاجَّةِ مُنكر ونَكير.

وقيل: سيهديهم يوم القيامة إلى طريقِ الجَنّة.

فإن قيل: ما معنىٰ قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الّتي وُعِدَ المُتَّقُوْنَ فِيها أنْهارٌ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ﴾ [٤٧/١٥]؟

قلنا: قال الفَرّاء: معناه: مَن كان في هذا النّعيم كمَن هو خالدٌ في النّار؟

وقال غيره: تقديره: أمِثَالُ الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ فحذف منه ذلك كله إيجازاً واختصاراً.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ للنبي ﷺ: ﴿ فاعْلَمْ أنّهُ لا إلَهَ إلاّ هُوَ ﴾

[١٩/٤٧] وهـو عـالمٌ بذلك قبـل أن يوحىٰ إليه وبعـده؟

قلنـا:

معنـاه اثْبُتْ عـلى ذلكَ العِلم .

وقـال الزجّـاج: الخطـاب له ـ عليه الصـلاة والسَّلام ـ، والمـرادُ بهِ أُمتـه كمـا ذكـرنا في أوّل سورة الأحـزاب(١).

(١) قـال الماوردي: فيه ـ وإن كان الرسـول عـالماً بالله ـ ثلاثة أوجه:

أحدها: يعني اعلمْ أن الله أعلمك أنْ لا إلَه إلاّ الله.

الثاني: ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً.

الثالث: يعني: فاذكر أنْ : لا إلَه إلاّ الله. فعبَّر عن الذكـر بالعلم، لحدوثه عنه.

(نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٦ : ٢٤١).

سُورة الفَتح

فإن قيـل كيف جَعـل سبحانه فتح مكّة علّـةً للمغفـرة، فقـال تعـالىٰ: ﴿ إنّا فَتحْنَـا لكَ فتحاً مُبينـاً ليغفـرَ لكَ الله ﴾ [٤٨/١]؟

قلنـا: لم يجعلْهُ علّة للمغفـرة بل لاجتمـاع ما وَعـده من الأمور الأربعـة وهي: المغفـرة، وإتمـام النّعمـة، وهـداية الصّراط المستقيم، والنّصـر العزيز. وقَبْـلَ الفَتح لم يكن إتمامُ النّعمة، والنّصر العـزيز، حـاصلاً؛ وإن كان الباقي حـاصلاً.

ويجـوز أن يكـون فتح مكـةّ سبباً للمغفـرة من حيث أنّه جِهـادٌ للعـدوّ.

فـإن قيـل: قوله تعـالى: ﴿ ما تَقَدَّم من ذنبكَ وَمَا تَأَخَّـرَ ﴾ [٤٨/١] إنْ كان المـرادُ بما تأخـرّ: ذنبـاً يتأخّـر وجـودُه عن الخِطـاب بهذه الآية فهو معـدومٌ عند نزولها، فكيفَ يغفـر الذنب المعـدوم؟ وإن كان المـراد به ذنبـاً وُجِـدَ قبـل نُزولها فهو متقـدّمٌ فكيف سمَّاه متأخّـراً؟

قلنـا: قيـل المـراد بما تقـدّم قصّة حَـارِثَة، وبمـا تأخـرّ قصـة امرأة زيد.

وقيـل: المـراد بما تقـدّم ما فَـرط منـه قبـل النبوّة، وبمـا تأخـرّ: ما فـرط منه بعـدَها. . .

وقيـل المـراد بما تقدّم ما وُجِـد منـه وبمـا تأخـرّ ما لم يُوجـد؛ على معنى أنّـه موعود بمغفرته على تقدير وجوده أو على معنى المُبَالغـة؛ كقولهم:

«فلان يضـربُ من يَلقـاه ومَن لا يـلقاه» بمعنى يضـربُ كلّ واحـد؛ كـذا هـذا معنـاه: ليغفـر لك اللّهُ كلَّ ذَنب.

فالحـاصلُ أنّ الـذنب المتأخّـر متقـدّمٌ عـلى نُزول الآية وإن كان متأخّـراً بالنسبةِ إلى شيء آخـر قبله، أو متأخـر عن نزولها وهـو مَوْعـود بمغفرتـه، أو على طريق المبالغـة كما بيّنـا.

فإن قيـل: ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ [١/٤٨]، وهو مهديٌّ إلى الصّراط المستقيم، ومهديّ به أمّته أيضاً؟

قلنا: معناه ويزيدك هُدًى.

وقيل: معناه: ويهديك صراطاً مُستقيماً في كل أَمر تحاوله.

فإن قيل: كيف يقال إن الإيمان لا يقبَلُ الزّيادة والنّقصان؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ لِيَزْدادُوا إِيْمَاناً مَعَ إيمانِهِمْ ﴾ [٤/٤٨].

قلنا: الإيمان الذي يقال إنّه لا يقبل الزيادة ولا النقصان هو الإقرار بوجودِ اللّهِ تعالى، كما أنّ الألوهيّة لا تقبل الزّيادة والنُّقصان. فأمّا الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التّصديق فيزيد لأنّهم بسبب السّكينة التي هي الطمأنينة ومزيد اليقين كلّما نزلت فريضةٌ وشريعة صَدّقوا بها فازدادوا تصديقاً مع تصديقهم.

فإن قيل: ما فائدة قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأهلها ﴾ [٢٦/٤٨] بعد قوله تعالى: ﴿ وَكانُوا أَحَقَّ بِهَا ﴾ [٢٦/٤٨]؟

قُلنا: قيل الضمير في (بها) لكلمة التّوحيد، وفي (أهلها) للتّقوى، فلا تكرار.

فإن قيل: ما وجه دُخول التعليق بمشيئة الله في إخباره سبحانه وتعالىٰ حين قال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللَّهُ ﴾ [٢٧/٤٨]؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنّ «إنْ» بمعنىٰ «إذْ» كما في قوله تعالىٰ[١]: ﴿ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إن كُنْتُمْ مُؤمِنِيْنَ ﴾.

الثاني: أنه استثناءٌ من الله تعالىٰ فيما يعلم تعليماً لعبادِه أن يَستَثْنُوا[٢] فيما لا يَعْلَمُون.

---

(١) البقرة ٢٧٨/٢.

(٢) أي أن يقولوا: إن شاء الله أو ما شابه ذلك من التّعليق.

الثالث: أنه علىٰ سبيل الحكاية لرؤيا النبي عليه الصلاة والسلام: فإنه رأى أن قائلاً يقول له ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحَرامَ إن شاءَ اللَّهُ آمِنِيْنَ ﴾.

الرابع: أنّ الاستثناء متعلّقٌ بقوله تعالىٰ ﴿آمِنِيْنَ﴾، فأمّا الدخولُ فليس فيه تَعليق.

فإن قيل: ما فائدةُ قوله تعالى ﴿ لا تَخَافُوْنَ ﴾ بعد قوله ﴿ آمِنين ﴾؟

قلنا: معناه «آمِنين» في حال الدُّخول، لا تخافُونَ عَدُوّكم أن يخرجكم منه في المُستقبل.

فإن قيل: قوله تعالىٰ: ﴿لِيَغِيْظَ بِهِم الكُفَّار﴾ [٤٨/٢٩] تعليل لماذا؟

قلنا: لمّا دل عليه تشبيههُم بِالزَّرْعِ في نمائهم وقُوّتهم، كأنه قال: إنما كثّرهم وقوّاهم ليغيظ بهمُ الكفّار.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وأَجْراً عظيماً ﴾ [٤٨/٢٩] وكلّ أصحابِ النبي ﷺ موصوفُون بالإيمان والعمل الصالح كغيرهما من الصِّفات الحميدة التي ذكرها الله تعالىٰ في هذه فما معنىٰ التّبعيض هنا؟

قلنا: (من) هنا لبيان الجِنس لا للتَّبعيض، كما في قوله تعالى[٣] ﴿ اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ ﴾.

(٣) الحج: ٢٢/٣٠.

سورة الحُجرات

فإن قيل: كيف قال تَعالىٰ: ﴿يا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا﴾ [٤٩/١] والمراد به نَهيهم أن يتقدموا علىٰ رسول الله ﷺ بقولٍ أو فعل لا أن يقدّموا غيرهم؟

قلنا: «قَدّم» هنا لازمٌ بمعنىٰ تَقَدّم[١]؛ كما في قولهم: بَيَّنَ وتَبَيَّنَ، وفكّر وتَفَكَّر، ووقَفَ وتَوَقَّف، ومنه قول الشاعر[٢]:

إذا نحنُ سِرنا سَارَتِ النّاسُ خَلْفَنا

وإن نحنُ أَوْمأنَا إلىٰ النّاسِ وَقَّفُوا!

أي توقفوا.

وقيل: معناه لا تُقَدِّمُوا فِعلاً قبل أمر رسول الله ﷺ.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالىٰ: ﴿ولا تَجْهَرُوا لَهُ بالقَوْلِ﴾ [٤٩/٢] بعد قوله سبحانه ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيّ﴾ [٤٩/٢]؟

قلنا: فائدته تحريمُ الجَهر في مُخَاطبته وإن لم يتضمّن رفع صوتهم على صوته، وهذا غيرُ مستفاد من النَّهي الأول.

الثاني: أن المرادَ بالثّاني النهي عن مخاطبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ باسمِه نحو قولهم: يا محمد! ويا أحمد! فهو أمرٌ لهم بتوقيره وتعظيمه في المخاطبة، وأن يقولوا: يا رسول الله، يا نَبِيَّ اللّه، ونحو ذلك، ونظيرُه قوله تعالى[٣]: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بينَكُم كدُعاءِ بعضِكُمْ بَعْضاً﴾.

(١) قرأ الضحّاك ويعقوب الحضرمي: ﴿تَقَدَّموا﴾ وقرأ الباقون ﴿تُقَدِّمُوا﴾.

(٢) هو جميل بن معمر (جميل بثينة)؛ وسمع الفرزدق البيتَ فقال أنا أحقُّ به (من جهة المعنى والمقصد الفخري القبلي)؛ فهو ثابت في ديوان جميل، ويروى ـ لهذا السبب ـ للفرزدق والخبر مشهور، ينظر مثلاً (العمدة لابن رشيق ١: ٢١٨ وسماه إغارَةً).

(٣) النور: ٢٤/٦٣

فإن قيـل: كيف قـال: ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [٤٩/٢] مع أن الأعمـال إنما تحبط بالكُفـر لا بغيره من المعاصي، ورفعُ الصّوت في مجلسِ النبيّ ﷺ ليس بِكُفـر؟ وقـد رُوِيَ أنّ الآية نزلت في أبي بكـر وعمـر(٤) ـ رضي الله عنهما ـ لمـا رفعـا أصواتهما بين يدي رسـول الله ﷺ.

وروي أنّها نزلت في ثابت بن شَمّـاس(٥) وكان جَهْوَرِيَّ الصَّوت؛ فـرُبَّمـا تأذّىٰ رسـولُ الله ﷺ بصـوته.

قلنـا: معنـاه لا تستخفّوا به، فإنّ الاستخفاف به ربّمـا أدّىٰ خَطَوُهُ إلىٰ عمـده، وعَمْدُه كفـرٌ يُحبِط العَمـل.

وقيـل: حبـوط العمـل هنـا مجـاز عن نقصـان المنزلة وانحطـاط المـرتبة.

فـإن قيـل: مـا وجْهُ الارتبـاط والتعلق بين قوله تعـالىٰ: ﴿ ولكنّ اللَّهَ حَبَّبَ إليكُمُ الإيْمَـانَ ﴾ [٤٩/٧] وبيـن ما قبلـه؟

قلنـا: معنـاه فاتركُـوا عـادة الجاهليـة، فإن الله تعـالىٰ لم يترككم عليها، ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمـان.

وقيـل: معنـاه فتثبّتُوا في الأُمـور كمـا يليق بالإيمـان، فإن الله حبّب إليكم الإيمـان.

فإن قيـل: إن كان الفُسُوق والعصيان بمعنًى واحـدٍ فما فـائدة الجمع بينهما؟

وإن كان العصيانُ أعمّ من الفُسوق فَذِكْـرُه مُغْنٍ عن ذكـر الفُسوق لدخـولهِ فيه فمَا فـائدةُ الجمعُ بينهما؟

(٤) «رفعـا أصواتهما ـ رضي الله عنهما ـ عنـد النبيّ ﷺ حين قـدم وفد بني تميم ـ عَـام الوُفود ـ فأشار أحدهما بالأقـرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخـر برجـل آخـر . . .» إلى آخر الخبر، وانظره مفصّـلاً في القرطبي ١٦/٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٥) ويعـرف بـ خطيب رسول الله ﷺ.

قلنا: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المراد بالفُسوق هنا الكذب، وبالعِصيان بقيّة المعاصي. وإنما أفرد الكذب بالذكر لأنّه سبب نزول الآية.

فإن قيل: كيف يقال: إن الإيمانَ والإسلام بمعنًى واحد، والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولكن قُولوا أَسْلَمْنا ﴾ [٤٩/ ١٤]؟

قلنا: المنفيُّ هنا الإيمان بالقَلب، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمّا يَدْخُلِ الإِيْمَانُ فِي قُلوبِكُمْ ﴾ [٤٩/ ١٤] يعني لم تصدّقوا بقلوبكم، ولكن قولوا أسلمنا، أي استَسْلمنا وَانْقَدْنَا خوفَ [القتل والسَّبي].

ولا شك في الفَرق بين الإيمان والإسلام بهذا التَّفسير، والذي يدَّعي اتّحادهما لا يريد به أنّهما حيث استعملا كانا بمعنىٰ واحد، بل يريد به أنّ أحد معاني الإيمان هو الإسلام.

فإن قيل: كيف يُقال إنّ العمل ليس من الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّما المُؤمِنُونَ الَّذِيْنَ آمَنُوا باللَّهِ ورَسُوله ثمّ لَمْ يَرْتَابُوا وجاهَدُوا بأَموالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ في سَبِيْلِ الله أولئك هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [٤٩/ ١٥]؟

قلنا: معناه إنما المؤمنون إيماناً كاملاً كما في قوله تعالى(٦): ﴿ إِنّما يَخْشَىٰ اللَّهِ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ وقوله ـ عليه الصلاة والسلام(٧) ـ: «المُسلم مَنْ سَلِمَ المُسلمون من لسانه ويديه»، وقولهم(٨): الرّجل من يصبرُ علىٰ الشّدائد.

ويرد علىٰ هٰذا الجواب أن المنفيّ في أول الآية عن الأعراب نفسُ الإيمان لا الإيمان الكامل، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد ذلك الإيمان الكامل، بل نفس الإيمان.

---

(٦) فاطر ٣٥/ ٢٨.
(٧) مسند الإمام أحمد ٢: ١٦٠ و١٦٣ و١٨٧ ومواضع أُخَر.
(٨) أي الرَّجُل الحَقُّ، أو الرجل حقّ الرجولة.

سُوْرَةُ قٓ

فإن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: ﴿قٓ وَالقُرْآنِ المَجِيْدِ﴾ [٥٠/١].

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنّه مُضمر تقديره: إنَّهُمْ يبعثون بعد الموت.

الثّاني: أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنهم﴾ [٥٠/٤] واللام محذوفة لطول الكلام؛ تقديره: لقد عَلِمْنَا، كما في قوله تعالى(١): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾.

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفظُ مِن قوْلٍ﴾ [٥٠/١٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَحَبَّ الحَصِيْدِ﴾ [٥٠/٩] وأراد بهِ: الحبّ الحصيد؛ فأضاف الشّيء إلى نفسه، والإضافة تَقتضي المُغَايرة بين المُضافِ والمضافِ إليه؟

قلنا: معناه: وحبّ الزَّرع الحصيد، أو النبت الحصيد.

الثاني: أن إضافة الشيء إلى نفسه جائزةٌ عند اختلاف اللَّفظين كما في قوله تعالى(٢): ﴿حَقّ اليَقِيْن﴾ و﴿حبل الوريد﴾[٥٠/١٦] و(٣): ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾، و(٤) ﴿وَعد الصدق﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمالِ قَعِيْد﴾ [٥٠/١٧] ولم يقل: «قعيدان» وهو وصف للمَلكين اللَّذَيْنِ سَبَق

---

(١) الشمس: ٩١/٩
(٢) الواقعة: ٥٦/٩٥
(٣) يوسف: ١٢/١٠٩
(٤) الأحقاف: ٤٦/١٦

ذكرهما بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّىٰ الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [٥٠/١٧]؟

قلنا: معناه عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد؛ إلا أنه حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر(٥):

نحنُ بما عِنْدَنا وأنْتَ بِمَا عِندكَ راضٍ، والرّأيُ مختلفُ!

وقال آخر(٦):

رَماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بَريئاً ومن أُجْلِ الطَّوِيّ رَمَاني(٧)!

الثاني: أن (فَعِيلًا) يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع قال الله تعالى(٨): ﴿وَالملائكة بَعْدَ ذٰلك ظَهيرٌ﴾.

وقيل: إنّما لم يقل «قعيدان» رعايةً لفواصل السُّورة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَلْقِيا﴾ [٥٠/٢٤] والخطاب لواحد، وهو «مالك» خازنُ النّار؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: ما قاله المبرّد، أن تثنية الفاعل أُقيمت مقام تثنية الفِعل للتّأكيد باعتبار اتّحادهما حكماً؛ فكأنه قال: أَلْقِ، أَلْقِ. ونظيرُه قول امرىء القيس(٩):

«قِفا نبك......» أي: قِفْ، قِفْ.

---

(٥) يُنسب البيت إلى عمرو بن امرىء القيس الخزرجيّ - جدّ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه - وإلى قيس بن الخطيم (انظر خزانة الأدب ١٠: ٢٩٥ و ٤٧٦، وديوان قيس بن الخطيم: ١١٥).

(٦) هو ابنُ أحمر، وهو ثابت في ديوانه: ١٨٧؛ ويُنسب إلى غيره.

(٧) يقول «رماني بأمر أنا ووالدي بريئان منه، من أجل ما بيني وبينه من الخصام في الطِويّ» (وهو البئر). ينظر كتاب (الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم) لابن السيّد البطليوسي: ٧٧ - ٨٨ ط دار الفكر.

(٨) التحريم: ٦٦/٤

(٩) من مطلع معلّقته المشهورة؛ ديوانه: ٨.

الثاني: أنّ العرب أكثر ما يُرافق الرّجل منهم اثنين، فكَثُرَ على ألسنتهم خطاب الاثنين، فقالوا: يا خليليَّ... ويا صاحبيَّ، وقِفَا، وَأَسْعِدا، وعُوجا، ونحو ذلك. قال الفَرّاء: سمعتُ ذلك من العرب كثيراً، قال: وأنشدني بعضهم(١٠):

فقلتُ لصَاحِبي لا تَحْبِسَانا بنزعِ أُصُولِه، واجتزَّ شِيْحَا

فقال: لا تَحْبِسَانا؛ والخطابُ لواحدٍ بدليل قوله: لصاحبِي، وقوله: واجتَزّ.

وأنشدني أبو ثوبان(١١):

فإن تَزْجُراني يا ابن عَفّان انزَجِرْ وإنْ تَدَعاني أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا

وقال امرؤ القيس(١٢):

خليليَّ مُرّا بي على أُمّ جُندبِ نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المعذَّبِ

ثم قال(١٣):

ألم تَرَ أنّي كلّما جئتُ طارقاً وجدتُ بها طِيباً وإن لم تَطَيَّبِ

الثالث: أنّه أمرٌ للملكين اللّذين سبَق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سائِقٌ وشَهِيْدٌ﴾ [٢١/٥٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيْدٍ﴾ [٣١/٥٠]. ولم يقل: «غير بعيدةٍ» وهو وصف للجنّة؟

(١٠) روي في معاني القرآن للفرّاء ٣: ٧٨

(١١) في معاني القرآن: أبو ثروان.

(١٢) ديوان امرىء القيس: ٤١

(١٣) ديوان امرىء القيس: ٤١

قلنا: لأنه على زِنة المصدر كالرَّنين والصَّليل؛ والمصادرُ: يستوي الوصف بها المذكر والمؤنث.

أو على حذف الموصوف، أي مكاناً غير بعيد، وكلا الجَوابَين للزّمخشري(١٤).

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيْدٍ﴾ [٥٠/٣١] بعد قوله تعالى: ﴿أُزْلِفَت﴾ بمعنى قُرِّبت؟

قلنا: فائدته التأكيد كقولهم: هو قريبٌ غير بعيد، وعزيزٌ غير ذليل(١٥).

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ في ذلك لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [٥٠/٣٧] وكلّ إنسان له قلب بل كل حيوان؟

قلنا: المراد بالقلب هنا العَقل(١٦)، كذا قاله ابنُ عباس رضي الله عنهما.

قال ابن قتيبة: لـمّا كان القلبُ موضعاً للعقل كنّىٰ به عنه.

الثاني: أن المراد لمن كان له قلب واعٍ لأنّ من لا يَعي قلبُه فكأنّه لا قلب له(١٧)، ويؤيّد ذلك قوله تعالى(١٨): ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيْراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ....﴾ الآية.

---

(١٤) الكشاف ٤: ١٠

(١٥) وهذا أيضاً للزمخشري.

(١٦) في معاني القرآن ٣: ٨٠

(١٧) قاله الزمخشري؛ وتتمة العبارة من غير الكشّاف.

(١٨) الأعراف: ٧/١٧٩

سورة الذّاريات

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إنّما تُوْعَدُوْنَ لَصَادِقٌ﴾ [٥١/٥] الصّادق وصفُ الواعد لا وصف الوَعد؟

قلنا: قيل: صادق بمعنىٰ مصدوق، كـ(١): ﴿عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ و(٢): ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾.

وقيل: مَعْنَاه لصِدْق، فإن المصدرَ قد جاء علىٰ وزن اسم الفاعل، كقولهم: قُمت قائماً، وقولهم: لَحِقَتْهُ اللاّئمة أي اللّوم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إنّ المُتَّقِيْنَ في جَنَّاتٍ وعُيُونٍ﴾ [٥١/١٥] والمتّقون لا يكونون في الجنّة في العيون؟

قلنا: معناه أنهم في الجِنان، والعيون الكثيرة محدقةٌ بهم من كل ناحية، وهم في مجموعها لا في كلّ عينٍ.

ونظيره قوله تعالى(٣): ﴿إنّ المُتَّقِيْنَ في جَنَّاتٍ وَنَهرٍ﴾ لأنه بمعنىٰ أنهار إلاّ أنّه عَدل عنها رعاية للفواصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وتَرَكْنَا فِيْهَا آيةً لِلَّذِيْنَ يَخَافُوْنَ العَذَابَ الأَلِيْمَ﴾ [٥١/٣٧] أي في قرى قوم لوط عليه السلام وقرىٰ قوم لوط عليه السلام ليست موجودة فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا: الضّمير في قوله تعالى «فيها» عائد إلى تلك النّاحية والبُقعة، لا إلى مَدائن قوم لوط.

الثاني: أنّه عائدٌ إليها، ولكن «في» بمعنى «من» كما في قوله

---

(١) الحاقّة: ٦٩/٢١
(٢) الطارق: ٨٦/٦
(٣) القمر: ٥٤/٤٥

تعـالى[٤]: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ في كـل أُمـةٍ شَهِيْداً﴾ وقـوله[٥]: ﴿وَارْزُقُوهُـمْ فِيْهَـا﴾.

ويؤيّـد هـذا الوجـه مجيئه مصرّحاً به في سُورة العنكـبوت بلفـظ (من) قـوله تعـالى[٦]: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَـا مِنْهَـا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾. ثـم قيل: الآيـة آثارُ منازلهم الخربـة؛ وقيل: هـي الحجـارةُ الّتي أبقاهـا الله تعـالى حتّى أدركها أوائلُ هٰـذه الأُمّـة.

وقيل: هي الماءُ الأسود الـذي يخرجُ من الأرض.

فـإن قيـل: كـيف قـال تعـالى: ﴿وَمِنْ كُـلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَـا زَوْجَـيْنِ﴾ [٥١/٤٩] أي صنفين، مـع أن العرش والكرسـي واللوح والقـلم لم يخـلق منه إلا واحـداً؟

قلنـا: قيـل: معنـاه ومن كـل حَـيوان خَلَقنـا ذكراً وأُنـثىٰ.

وقيل: ومن كـل شيء تشاهِدُونـه خلقنـا صِنفين: كالليل والنهـار، والصّيف والشتـاء، والنـور والظلمة، والخـير والشـر، والحـياة والموت، والبَرّ والبحـر، والسَّمـاء والأرض، والشمس والقـمر، ونحـو ذلك.

فـإن قيل: كـيف قال تعالى هـنا: ﴿فَفِرُّوا إلى الله﴾ [٥١/٥٠]، وقـال سبحـانه في موضع آخـر[٧]: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ﴾.

قلنـا: معنى قـوله تعـالى: «فَفِرُّوا إلى الله» أي الجَؤُوا إليه بالتَّوبـة.

وقيل: معناه فِرُّوا من عُقوبـته إلى رحـمته[٨] ومعنـى قـوله: «ويحذّركم الله نَفْسَهُ» أي يخوّفكم الله عـذاب نفسه، أو عقـاب نفسه.

---

(٤) النحـل: ١٦/٨٩

(٥) النسـاء: ٤/٥

(٦) العنـكبوت: ٢٩/٣٥

(٧) آل عـمران: ٣/٢٨

(٨) وفي القرطبي، أيضاً: فِرُّوا من معاصِيه إلى طاعـته.

وقال الزجّاج: معنى «نفسه» أي «إيّاه» كأنه تعالى قال: «ويُحذركم الله إيّاه» كما قال سبحانه: ﴿يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ﴾(٩) أي إيّاه، فظهر أنّه لا تناقضَ بينَ الآيتين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾ [٥٦/٥١] وإذا خلقهم للعبادة كان مريداً لها منهم؛ فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنّه عامٌّ أريد به الخاص، وهم المؤمنون؛ بدليل خروج البعض منهم، كقوله تعالى(١٠): ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾؛ ومن خُلق لجهنّم لا يكون مخلوقاً للعبادة.

الثاني: أنه على عُمومه، والمراد بالعبادة التَّوحيد، وقد وَحَّده الكل يوم أخذ المِيثاق(١١). وهذا الجواب يخصّ الإنس، لأن أخذ الميثاق مخصوصٌ بهم بالآية.

وقيل: معناه إلاّ ليكونوا عَبِيداً لي.

وقيل: معناه إلا ليذلّوا لي، ويخضعوا وينقادوا لِمَا قضيتُهُ وقَدَّرْتُه عليهم، فلا يخرج عنه أَحدٌ منهم.

وقيل: معناه إلا ليعبدون إن اختاروا العبادَة لا قسراً وإلجاءً.

وقيل: «إلا ليعبدون» العبادَةَ المُرادة في قوله تعالى(١٢): ﴿وَلله يَسْجُدُ

---

(٩) الأنعام: ٥٢/٦
(١٠) الأعراف: ١٧٩/٧
(١١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ، وأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧].
(١٢) الرعد: ١٥/١٣

مَنْ فِي السَّمٰـوَاتِ والأَرضِ طَوْعَاً وَكَرْهـاً﴾، والعموم ثابـت في الوجـوه الخـمسة.

فـإن قيل: ما فـائدة قـوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيْدُ أَن يُطْعِمُوْنِ﴾ [٥١/٥٧] بعد قـوله تعالى: ﴿مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ﴾؟

قلنـا: مـا أُريد منهم من رِزق لأَنفسهـم، ومـا أُريـد أن يطعمون أي أن يطعموا عَبِيدي.

وإنّـما أضـاف تعـالى الإطعامَ إلىٰ ذاتِهِ المقدسّـة لأن الخـلق عيالُه وعبيدُه، ومن أطعـمَ عيالَ غيره فكأنّـه أطعـمه. ويـؤيده ما جـاء في الحـديث الصّحيح[١٣]: «إن الله عـز وجـل يـقول يـوم القيامة يـا ابنَ آدم استطعَمْتُكَ فـلم تُطعِمْني» أي استطعمـكَ عَبـدي فـلم تُطعـمه.

(١٣) صحيح مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب: ص ١٩٩٠ من حديث طويل

سُورَةُ الطُّور

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِيْنٍ﴾ [٥٢/٢٠] مع أنّ الحُور العِين في الجنّة مملوكاتُ ملكَ عَين لا ملك نِكاح؟

قلنا: معناهُ قرنّاهُم بهنّ، من قولهم: زوجت إبلي، أي قرنت بعضهاإلى بعض، وليس من التّزويج الذي هو عقد النكاح، ويؤيده أن ذلك لا يعدّى بالباء بل بنفسه يقال: زَوّجه امرأةً، ولا يقال: بامرأة.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [٥٢/٢١] أي مرهونٌ في النار بعمله؟

قلنا: قال الزّمخشري(١)، كأنّ نفس كل عبد رهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذي هو مطالَبٌ به كما يرهن الرجل عبده بدَيْنٍ عليه، فإن عمل صالحاً فكّها، وخلّصها، وإلا أَوْبَقها.

وقال غيره: هذه جملةٌ من صفات النار وقعت معترضة في صفات أهل الجنة، ويؤيّده ما رُوِيَ عن مقاتل أنه قال: معناه: كل امرىءٍ كافر بما عَمِلَ من الكُفر، مرتهن في النار. والمؤمن لا يكون مرتَهناً، كقوله تعالى(٢): ﴿كلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ إلاّ أَصْحَابَ اليَمِيْن في جَنَّاتٍ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق النبي عليه الصّلاة والسلام: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ [٥٢/٢٩]، وكل أحدٍ غيره كذلك لا يكون كاهناً ولا مجنوناً بنعمة الله تعالى؟

قلنا: معناه فما أَنتَ بحمد الله وإنعامه عليك بالصِّدق والنبوّة بكاهنٍ ولا مجنون؛ كما تقول الكفار.

---

(١) الكشّاف: ٤: ٢٤

(٢) المدّثر: ٣٨/٧٤

وقيل: الباء هنا بمعنىٰ (مع)، كما في قوله تعالى[٣]: ﴿تَنْبُتُ بالدُّهْنِ﴾، وقوله تعالى[٤]: ﴿فَتَسْتَجِيْبُوْنَ بِحَمْدِهِ﴾، ويقال: أكلت الخبزَ بالتَّمْر، أي معه.

فإن قيل: ما معنى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٥٢/٤٨]؟

قلنا: معناه التفخيم والتعظيم، والمراد: بحيث نَرْعَاك ونحفظك. ونظيره في معنى العَين قوله تعالى[٥]: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ ونظيره في الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى[٦]: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وقوله تعالى[٧]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَاماً﴾.

---

(٣) المؤمنون: ٢٠/٢٣
(٤) الإسراء: ٥٢/١٧
(٥) طه: ٣٩/٢٠
(٦) القمر: ١٤/٥٤
(٧) يس: ٧١/٣٦

سُورَةُ النَجم

فإن قيل: الضّلال والغواية واحدة فما فائدة قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوىٰ﴾ [٥٣/٢]؟

قلنا: قيل إن بينهما فرقاً لأنّ الضَّلال ضد الهُدىٰ. والغيّ ضد الرشد، وهما مختلفان مع تقاربهما.

وقيل: معناه: ما ضلّ في قوله، ولا غوىٰ في فعله، ولو ثبتَ اتّحادُ معناهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنىٰ.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [٥٣/٩] أتى بكلمة الشّك، والشّكّ مُحالٌ علىٰ الله؟.

قلنا: «أو» هنا للتّخيير لا للشك، كأنه قال سبحانه: إن شِئتم قدّروا ذلك القرب بقاب قوسين، وإن شئتم قدّروه بأدنى منهما.

وقيل: معناه: بل أدنىٰ.

وقيل: هو خطابٌ لهم بما هو معهودٌ بينهم.

وقيل: هو تشكيكٌ لهم لئلاّ يعلموا قدر ذلك القُرب. ونظيره قوله تعالى[1]: ﴿فَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ ألفٍ أو يَزِيْدُوْنَ﴾.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّىٰ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [٥٣/٢٠] من رُؤية القلب لا من رؤية البصر، فأين مفعولها الثاني؟

قلنا: هو محذوفٌ تقديره: أفرأيتموها بنات الله وأنداده؟؛ فإنّهم كانوا يزعمون أن الملائكة، وهنّ الأصنام، بناتُ الله عز وجل!

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [٥٣/٢٠] فَوَصَفَ الثّالثة بالأُخرىٰ، والعرب إنّما تصف بالأُخرىٰ الثّانية لا الثّالثةَ؟ فَظَاهِرُ اللّفظ

---

(١) الصافات: ٣٧/١٤٧

يقتضي أن يكون قد سبق ثالثةً أولى، ثم لحقها الثالثة الأخرى لتكون ثالثتان.

قلنا: الأُخرى نعتٌ للعُزّى تقديره: أفرأيتم اللات والعُزّى الأخرى، ومناة الثالثة؛ لأنها ثالثة الضمير في الذكر، وإنما أُخّر الأخرى رعاية للفواصل كما قال(٢): ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ولم يقل أُخَرَ؛ رعايةً للفواصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [٥٣/٢٨] أي لا يقومُ مقام العلم مع أنه يقوم مقامَ العِلم في صُور القياس؟

قلنا: المراد به الظن الحاصل من اتّباع الهوىٰ دون الظن الحاصل من النظر والاستدلال، ويؤيده قوله قُبَيل هذا: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الْأَنْفُسُ﴾ [٥٣/٢٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [٥٣/٤٠]، وقد صحّ في الأخبار وصُول ثوابِ الصَّدَقة والقراءة، والحجّ وغيرها إلى المَيت؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما أنها منسوخةٌ بقوله تعالى(٣): ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، معناه: أنه أدخل الأبناء الجنّة بصلاحِ الآباء، قالوا: وهذا لا يصحُّ، لأن الآيتين خبر ولا نسخَ في الخبر.

---

(٢) طه: ٢٠/١٨

(٣) الطور: ٥٢/٢١

ـ ورواه القرطبي عن ابن عباس (رض) في الجامع لأحكام القُرآن ١٧/١١٤

الثـاني: أنّ ذلك مخـصوص بـقوم إبـراهيم وموسى عليهـما السلام، وهـو حكايةُ ما في صحـفهم. وأمّـا هٰـذه الآيـة: فلهـا ما سعـت، ومـا سعى لهـا.

الثـالث: أنّـه عـلى ظاهـره، ولكن دعاءَ ولدِه وصديقِه وقَرابَتِهـما، وَصَدَقَتِهِمَـاا عنه من سَعْيِه أيـضاً بواسـطة اكتسابِه للقرابـةِ أو للصَّداقة أو المَحَبَّة سن النـاسِ بـسبب التقوىٰ والعمـل الصالح.

فـإن قيل: كيـف قـال تعـالى بعد تعديدِ النِّقَمِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّـكَ تَتَمَـارىٰ﴾ [٥٣/٥٥]. والآلاء: النعـم؟.

قلنـا: إنما قـاله سبحانـه بعد تعديده النعم والنِّقَمِ، والنِّقَمُ نِعَمٌ لما فيهـا من الزَّواجـر والمواعـظ، فمعنـاه: بأي نِعَمِ ربّـك الدالّة على وحـدانيته تتشكّـك يـا وليد بن المغيـرة؟!

سُورَةُ القَمَر

فإن قيل: ما فائدة إعادة التكذيب في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [٩/٥٤] وهلاّ قال تعالى: «كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا»؟

قلنا: معناه كذّبوا تكذيباً بعد تكذيب.

وقيل: التّكذيب الأول منهم بالتّوحيد، والثاني بالرِّسالة.

وقيل: التَّكذيب الأول منهم لله تعالى، والثاني لرسوله عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف ماء الأرض والسَّماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ [١٢/٥٤] ولم يقل: «فالتقى الماءان»؟.

قلنا: أرادَ به جِنس المياه.

فإن قيل: الجَزاءُ إنّما يكون للكافِر، لا للمكفور فكيف قال تعالى: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [١٤/٥٤]؟

قلنا: جزاءً مفعول له، فمعناه: فتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان سبب إغراقهم جزاء لله تعالى لأنّه مكفور به فحذف الجار، وأوصل الفِعل بنفسه[1] كقوله تعالى[2]: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ والجزاء يُضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر.

الثاني: أنّه نوح عليه السلام إمّا لأنه مكفور به بحذف الجار كما مَرّ؛ من الكفر الذي هو ضدّ الإيمان؛ أو لأنّ كل نبيّ نعمة من الله تعالى

---

(١) أي عَدّاه بنفسه.

(٢) الأعراف: ١٥٥/٧

على قومه، ومنه قوله تعالى(٣): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ رحمَةً للعَالَمِيْنَ﴾ وقال رجل للرّشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنىٰ هذا؟ فقال: أنت نعمةٌ حَمدت الله تعالى عليها! فكأنه قال جزاءً لهذه النعمة المكفُورة، وكفران النعمة يتعدَّى بنفسه، قال الله تعالى(٤): ﴿وَلاَ تَكْفُرُوْنِ﴾.

الثالث: أن «مَنْ» بمعنىٰ «ما» فمعناه جزاءً لِما كان كُفِرَ من نعم الله تعالى على العموم، وقرأ قتادة(٥): كَفَرَ، بالفتح؛ أي جَزاءً للكَافِرين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَعْجَاز نَخْلٍ مُنْقَعِر﴾ [٥٤/٢٠] أي مُنقطع ولم يقل :مُنقعرة.

قلنا: إنما ذكر الصّفة لأنّ الموصوف ـ وهو النخل ـ مذكر اللّفظ، وليسَ فيه علامة تأنيث؛ فاعتبر اللفظ، وفي موضع آخر اعتبر المعنى، وهو كونه جمعاً فقال(٦): ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة﴾ وَنَظِيْرهما قوله تعالى(٧): ﴿لآكِلُوْنَ مِن شجرٍ مِن زَقُّومٍ فمالِئُونَ مِنْهَا البُطُوْنَ، فَشَارِبُوْنَ علَيْهِ مِنَ الحَمِيْمِ﴾.

وقال أبو عبيدة: النَّخل يذكّر ويؤنّث فجمع القرآن اللُّغتين.

وقيل: إنما ذكّر رعايةً للفواصل(*).

---

(٣) الأنبياء: ١٠٧/٢١

(٤) البقرة: ١٥٢/٢

(٥) قرأ (كَفَرَ) قتادة، ويزيد بن رومان، وعيسى، ومجاهد، وحميد. (معجم القراءات القرآنية ٧: ٣٤).

(٦) الحاقّة: ٧/١٩

(٧) الواقعة: ٥٢/٥٦

(*) في حاشية سورة القمر بخط مغاير:
«قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْتَربتِ السَّاعَةُ﴾ يعني دنا قيام السّاعة. إن خروج النبيّ ﷺ كان من علامات الساعة. و﴿وانْشَقَ القَمَرُ﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ علامة لنبوّته فانشق القمر نصفين».

سُوْرَةُ الرحْمن

فإن قيل: أيّ مناسبة بين رَفع السماء، ووضع المِيزان، حتّىٰ قرن بينهما(١)؟.

قلنا: لما صدّر هذه السُّورة بتعديد نعمه تعالى على عَبيده، ذكر من جُملتها وضعَ المِيزان الّذي به نظام العالم وقوامه لا سيما أن المراد بالميزان العَدْلُ في قول الأكثرين، والقُرْآن في قَول، والعَقل في قول، وكلّ ما يُعرف بِهِ المَقادِيْرُ في قول: كالمِيزان والمِكيال والذّراع ونحْوها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيْزَانِ﴾ [٨/٥٥] أي لا تُجَاوِزُوا فيه العدل، يُغْنِي عَمّا بعده من الجملتين(*)؛ فما فائدتها؟

قلنا: المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص، وأمر بالتوسط الذي هو إقامة الوزن بالقسط، ونهى عن الطريقين المذكورين.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كالفَخّار﴾ [١٤/٥٥] وهو الطّين اليابِسُ الذي لم يُطبخ، ولكن له صَلصلة أي صوتٌ إذا نُقِر، وقال تعالى في موضع آخر(٢): ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وقال تعالى(٣): ﴿مِنْ طِيْنٍ لَازِبٍ﴾، وقال(٤): ﴿مِن تُرَابٍ﴾.

قلنا: الآيات كلّها متّفقة في المعنىٰ، لأن الله تعالى خلَقه من تراب جعَله طيناً، ثم من حَمإٍ مسنون، ثم صلصالاً.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيْزَانَ﴾ [الرحمن: ٧/٥٥].

(*) يعني بالجملتين قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾ [الرَّحمٰن: ٩/٥٥].

(٢) الحجر: ٢٦/١٥

(٣) الصافات: ١١/٣٧

(٤) آل عمران: ٥٩/٣

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ﴾ [١٧/٥٥] فكرر ذكر الرب، ولم يكرره في سورة المعارج(٥) بل أفرده فقال تعالى(٦): ﴿رَبّ المَشْرِق والمَغْرِب لا إلَه إلاّ هُوَ﴾.

قلنا: إنما كرّر ذِكْرَ الربّ تأكيداً، وكان التّأكيد بهذا الموضع أليقُ منه بذينكَ الموضعين، لأنه موضع الامتنان وتقدير النعم، ولأن الخطاب فيه مع جِنسين وهما الإنس والجن.

فإن قيل: بعض الجمل المذكورة في هذه السورة ليس من النّعم كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [٢٦/٥٥] وقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَّارٍ ونُحاس فَلا تَنْتَصِرَانِ﴾ [٣٥/٥٥] فكيفَ حَسُنَ الامتنانُ بعدها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٣٦/٥٥]؟

قلنا: من جملة الآلاء دفعُ البلاء، وتأخيرُ العِقَاب، فإبقاءُ من هو مخلوقٌ للقيامة نعْمة، وتأخير العذاب عن العصاة أيضاً نعمة، فلهذا امتنّ علينا بذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّها الثَّقَلانِ﴾ [٣١/٥٥] والله تعالى لا يشغله شيء؟

قلنا: قال الزجاج: الفَراغُ في اللغة علىٰ ضربين:

أحدهما: الفراغ من شُغل.

والآخر: القصدُ للشَّيء، والإقبالُ عَلَيه. وهو تهديدٌ ووعيد. ومنه قولُهم: سأَتَفَرّغ لِفُلان، أي سأجْعَلُه قصدي. فمعنىٰ الآية سنقصد لِحسابكم وعِقابكم.

(٥) قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِربِّ المَشَارِقِ والمَغارِبِ إنَّا لَقَادِرُوْنَ﴾ [المعارج: ٤٠/٧٠].

(٦) هذه الآية من سورة المزّمّل: ٩/٧٣

فإن قيل: كيفَ وعد سبحانه الخائف جَنَّتَيْنِ؟

قلنا: لأن الخطاب للثَّقلين، فكأنّه قيل:

لكلّ خائفين من الثَّقلين جنتان، جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني.

وقيل: المراد به أن لكل خائفٍ جنتين؛ جنّةً لفعل الطّاعات، وجنةً لِتَرْك المَعاصي.

وقيل: جنّة يُثاب بها، وجنّة يُتَفَضَّل بها عليه زيادة كقوله تعالى(٧): ﴿لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوا الحُسْنىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي: الجنة وزيادة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [٥٥/٥٦] ولم يقل تعالى: «فيهما»، والضَّمير للجنتين؟

قلنا: الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنَّتين، والعينين، والفاكهة، وغيرها ممّا سبق ذكره.

وقيل: هو للجنّتين، وإنّما جَمعه لاشتمال الجنتين على قصُورٍ ومَنازل.

وقيل: الضَّميرُ للمنازل والقُصور التي دل عليها ذِكر الجنَّتين.

وقيل: الضَّمير عائدٌ إلى الفُرش لأنها أقرب. وعلى هذا القول (في) بمعنىٰ (على) كما في قوله تعالى(٨): ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُوْنَ فِيْهِ﴾.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [٥٥/٥٦] أي لم يفتضّهن. ونساءُ الدّنيا لا تفتضّهنّ الجانّ أيضاً؛ فما فائدة تخصيص الحُور بذلك؟

---

(٧) يونس: ١٠/٢٦

(٨) الطور: ٥٢/٣٨

قلنا: مَعناه أنّ تلك القاصِرات الطّرف إنسيّات للإنس وجنّيات للجِنّ فلم يَطْمِث الإنسيّات إنسيّ، ولا الجنّيات جِنّي. وفي هذه الآية دليلٌ على أنّ الجِن يُواقعون ما يُواقعُ الإنسان.

وقيل: فيهما دليل على أنّ الجنيّ يغشىٰ الإنسية في الدنيا.

سُوْرَةُ الوَاقِعَة

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُوْنَ السَّابِقُوْنَ﴾ [٥٦/١٠]؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنّه تأكيد مقابلٌ لِمَا سبقه من التأكيد في أصحاب المَيْمنة، وأصحاب المشأمة، كأنه قال: والسَّابقون هـمُ المعروف حالهم المشهور وصفُهم. ونظيرهُ قول أبي النَّجم[1]:

أنا أبو النجم وشعري شعري[2]

الثاني: أنّ معناه: السّابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمته وكرامته.

ثم قيل: المراد بهم السّابقون إلى الإيمان من كل أمّة.

وقيل: الذين صلّوا إلى القبلتين.

وقيل: أهل القرآن.

وقيل: السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله.

وقيل: الأنبياء.

فهذه أقوال خمسة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَطُوْفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُوْنَ﴾ [٥٦/١٧] مع أنّ التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان في الجنة، بل كل أهل الجنة مخلّدون؛ لا يَشِيْبُون، ولا يهرمون بل يبقىٰ كل واحد أبداً على صفته التي دخل عليها الجنة؟

---

(١) هو أبو النّجم العِجلي الرّاجز.

(٢) مجموع شعره: ٩٩

قلنـا: معنـاه أنهـم لا يتحـوَّلُون عن شـكل الولدان وهيـئة الوَصَـافة(٣).

وقيل: مُفـرطون.

وقيل: مَسْتُورون. ولا إشكـال على هٰـذين القَوْلين.

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى: ﴿لَآكِلُوْنَ مِن شَجَـرٍ مِن زَقُّـوْمٍ. فَمَـالِئُوْنَ مِنْهَـا البُطُـونَ. فشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحَمِيْمِ﴾ [٥٦/٥٢ ـ ٥٤] فأنّـث ضـمير الشجـر، ثم ذكّـره؟

قلنـا: قـد سبق جوابُه في سُورة القَمـر.

فـإن قيـل: كيـف قـال تـعـالى: ﴿نَـحْنُ خَـلَقْنَـاكُـمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُوْنَ﴾ [٥٦/٥٧] أي: فهَـلّا تصدقون، مع أنّهـم مُصَدِّقـون بـدليل قـوله تعـالى(٥): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُـمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ اللهُ﴾.

قلنـا: هـم وإن كانوا مصدّقيـن بألسنتهـم، إلا أنهـم لمّـا كان مذهـبهـم خـلافَ ما يقتضيه التّصديق، فكأنّهـم يكَذّبون به.

الثـاني: أنّـه تخـصيصٌ على التّصْديق بالبَعـث بعد الموت بالاستـدلال بالخَـلق الأوّل، فكأنّـه تعالى قـال: هـو خـلقكم أولاً باعتـرافـكم فـلا يمتنع عليه أن يعيدكـم ثانياً فهـلا تصدقون بـذلك؟

فـإن قيل: كـيف قـال تعـالى في الزّرع: ﴿لَو نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ [٥٦/٦٥] باللّام. وقـال تعالى في الماء: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجَـاً﴾ [٥٦/ ٧٠] بغير لام؟

قلنـا: الأَصـل أن تُذْكَـر اللام في المَوضعـين إذ لا بدّ منهـا في جـواب

---

(٣) يقـال: وَصَفَ الغلامُ وَصافةً: بـلغ حـدّ الخـدمة. والاسم الوصافة والإيصـاف.
(٤) يُنـظر تفسير سورة القـمر.
(٥) الزخـرف: ٤٣/٨٧

(لو) إلاّ أنها حُذفت في الثانِي اختصاراً.

أو هي منوبة بدلالة الأولى عَلَيها.

الثاني: أنّ هذه اللام لامُ التّأكيد فذكرت مع المطعوم دون المشروب لأنّ المطعوم مقدّمٌ وجوداً ورتبة، لأنّه إنَّما يحتاج إلى الماء تبعاً له، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب. فلمّا كان الوعيد بفقد المطعوم أشدَّ وأصعبَ أكّد تلك الجملة مبالغةً في التهديد.

فإن قيل: التَّسبيح: التّنزيه من السُّوء، فما معنى «باسم» في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيْمِ﴾ [٥٦/٦٩]؛ فهلّا قال: «فَسبِّحْ ربَّك العظيم»؟.

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن الباء زائدة، والاسم بمعنى الذات فصار المعنىٰ ما قلتم.

الثاني: أن الاسم بمعنى الذكر، فمعنى «فسبح باسم ربك»: [فسبح بذكر ربّك][٦].

الثالث: أن الذكر فيه مُضمر، فمعناه: فأحدث التّسبيح بذكر اسم ربك.

الرابع: قال الضحّاك معناه: فَصلّ باسم ربّك، أي افتتح الصّلاة بالتكبير.

فإن قيل: إذا كان القُرآن صفةً من صفات الله تعالى قائمة بذاته المقدسة، فكيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيْمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُوْنٍ﴾ [٥٦/٧٨] أي: اللّوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القَولين؟

قلنا: معناه: في كتابٍ مكنُون، ولا يلزمُ من كتابة القرآن في الكتاب

(٦) في (ب): فمعناه: فسبِّحْ بذِكر رَبّك العظيم.

أن يكونَ القُرآن حَالّاً في الكتاب؛ كما لو كتَبَ إنسانٌ على كفّه ألف دينار، ولا يلزم منه وجودُ ألفِ دينارٍ في كفّه؛ وكذا لو كتب على كفه: «العرش» أو «الكرسي»، وكذا قال الله تعالى في قصّة النبي عليه الصلاة والسلام(٧): ﴿يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيْلِ﴾.

الثاني: لو كان حالّاً في المصحف: فإما أن يكون جميعه حَالّاً في مصحفٍ واحد، أو في كل مُصحف، أو في كل مصحفٍ بعضه. ولا سبيل إلى الأول: لأنّ المصاحف كلّها سواء في الحكم وفي كتابته فيها، ولأن البعض ليس أولىٰ بذلك من البَعض.

ولا سبيل إلى الثّاني، وإلّا لزم تعدّد القُرآن وأنّه متّحد.

ولا سبيل إلى الثّالث، لأن كلّه مكتوب في كل مصحف، ولأن هذا المصحف ليس أولى بهذا البَعض من ذلك المصحف؛ وكذا الباقي.

فثبَت أنّه ليس حالّاً في شيءٍ منها بل هو كلامُ الله تعالى وكلامُه صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بِهِ لا تُفارقه.

فإن قيل: فإذا لم تُفارقه فكيف سَمّاه تعالى منزلاً، وتنزيلاً، وقال سبحانه(٨): ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِيْنُ﴾ ونظائره كثيرة، وإذا فَارقَهُ وباينه يكون مخلوقاً لأن كل مباين له فهو غيره، وكل ما هو غيره فهو مخلوق؟

قلنا: معنى إنزاله أنه سبحانه وتعالى علّمه لجبريل فحفظه، وأمره أن يعلِّمه للنبي عليه الصلاة والسلام وأمره أن يعلِّمه لأُمّته مع أنّه لم يزل، ولا يزال صفةً لله تعالى قائمةً به لا تُفارقه.

---

(٧) الأعراف: ١٥٧/٧

(٨) الشعراء. ١٩٣/٢٦

سُورَةُ الحَدِيد

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ﴾ [٨/٥٧] ثم قال سبحانه: ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ [٨/٥٧]؟

قلنا: معناه إن كنتم مؤمنين بموسىٰ وعيسىٰ فإنّ شريعتهما تَقتضي الإيمان بمحمّد عليه الصلاة والسلام.

الثاني: إن كنتم مُؤمنين بالميثاق الذي أَخذه عليكم يوم أُخرجكم من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام.

الثالث: أنّ معناه: أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه، ويَتْلُو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين، والحجج؛ وقد ركّبَ الله تعالى فيكُم العقول ونصبَ لكم الأدلّة، ومكّنكم من النَّظَرِ، وأَزاحَ عِلَلَكُمْ، فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما، فإنّ هذا الموجب لا يزيد عليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي منكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [١٠/٥٧] ولم يذكر مع مَنْ لا يستوي، والاستواء لا يتمّ إلا بذكر اثنين، كقوله تعالى(١): ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الخَبِيْثُ وَالطَّيِّبُ﴾، و﴿لا يَسْتَوِيْ أَصْحَابُ النَّارِ وأَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾(٢)؟

قلنا: هو محذوف، وتقديره: ومن أنفق وقاتَل من بعد الفتح، وإنّما حذف لدلالة ما بعده عليه.

فإن قيل: كيف يقال: إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجة الصّدِّيقين، والله تعالى قد حكم على كل مؤمن بكونه صِدّيقاً بقوله تعالى:

---

(١) المائدة: ١٠٠/٥

(٢) الحشر: ٢٠/٥٩

﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا بالله وَرَسُوْلِهِ أُولئك هُمُ الصِّدِّيْقُوْنَ﴾ [٥٧/ ١٩]؟

قلنا: قال ابن مسعود، ومجاهد رضي الله عنهما كل مؤمنٍ صِدِّيق.

الثاني: أن الصِّديق هو الكثير الصدق، وهو الذي كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلّهم.

وقد رُوي عن الضحاك أنها نزلت في ثمانية نفر سبَقُوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام، وهم: أبو بكر وعثمان، وعلي، وحمزة بن عبد المطلب، وطلحة، والزبير، وسعد، وزيد، وأُلْحِقَ بهم عمر فصاروا تسعة.

فإن قيل: كيف وصف سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء(٣)، ومنهم من لم يُقتل؟

قلنا: معناه أنه جَمْعُ شهيد بمعنى شاهد، فمعناه أنهم شاهِدُون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان.

الثالث: أنّه مبتدأ منقطع عمّا قبله لا معطوفٌ عليه؛ فمعناه: والشّهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿سابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [٥٧/ ٢١] والمُسابَقة من المفاعلة التي لا تكون إلا بين اثنين كقولك: سابق زيدٌ عمراً؟

قلنا: قيل معناه سارِعُوا مسارعةَ المسابقين لأقرانهم في المَيدان. ويؤيّد هذا القول مجيئُه بلفظ المُسَارعة في سورة آل عِمران(٤).

---

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّدِّيقون والشهداء عند ربّهم﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٩].

(٤) في آل عمران: ٣/ ١٣٣: ﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ﴾.

وقيل: سابِقُوا مـلك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال التي توصلكم إلى الجنة.

وقيل: سابقوا إبليس قبل أن يَصُدّكم بغروره وخداعه عن ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ والأَرْضِ﴾ [٥٧/٢١] وقال في سورة آل عمران(٥): ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰواتُ والأَرْضُ﴾؛ فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة، وكعرض السموات السَّبع؟

قلنا: المراد بالسَّماء جِنس السموات، لا سماء واحدة؛ كما أن المراد بالأرض في الآيتين جِنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السَّمٰوات السّبع، والأرضين السبع.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، ولا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [٥٧/٢٣] ولا أحد يملك نفسه عند مضرّةٍ تناله أن لا يحزن، ولا عندَ منفعةٍ ينالُها أن لا يفرح، ولْيَرْجِعْ كلُّ واحدٍ مِنّا في ذلك إلى نفسه؟

قلنا: ليس المراد بذلك الحزن والفَرح الذي لا ينفك عنه الإنسان بطبعه قَسْراً وقَهراً، بل المرادُ به الحُزن المخرج لصاحبه إلى الذُّهول عن الصَّبر والتَّسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصَّابِرين، والفَرح المُطغي المُلْهِي عن الشكر، نعوذ بالله منهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ﴾ [٥٧/٢٥] والميزان لم ينزل من السماء؟

قلنا: قيل المراد بالميزان هنا العدل.

وقيل: العقل.

---

(٥) آل عمران: ٣/١٣٣

وقيل: السّلسلة التي أُنزلها الله تعالى على داوود عليه السلام.

وقيل: هو الميزان المعروف، أنزله جبريل عليه الصلاة والسلام إلى نوح عليه السلام، وقال له: مُرْ قومكَ يَزِنوا به.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله، وآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [٢٨/٥٧] مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله؟

قلنا: معناه: يا أيها الذين آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ آمنوا بمحمد؛ فيكون خطاباً لليهود والنصارى خاصة، وعليه الأكثرون.

وقيل: معناهُ: يا أيّها الّذين آمنوا يومَ الميثاق(٦) اتقوا الله، وآمنوا برسوله اليوم.

وقيل: معناه يا أيها الذين آمنوا بالله في العلانية باللسان اتقوا الله، وآمنوا برسوله في السر بتصديق القلب.

---

(٦) يعني الميثاق الذي أَخَذَهُ الله منهم؛ وذلك قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا بَلَىٰ...﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧].

سُورَةُ المُجَادَلَة

فـإن قيل: لأيّ معنىً خصّ الله تعـالى الثلاثة والخَمسة بالذّكـر في النّجـوىٰ دون غيرهـما من الأعـداد[1]؟

قلنـا: لأنّ قوماً من المنافـقين تخـلّفوا لِلتَّناجـي على هـذين العددين مُغَايظةً للمؤمنـين، فنـزلت الآيـة على صفـةِ حـالهـم، تعريـضاً بهـم وتسميعاً لهـم، وَزِيْدَ فيهـا ما يتناول كلَّ مُتَناجيين غير تـلك الطائفـتين، وهـو قوله تعـالى: ﴿وَلاَ أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ﴾ [٥٨/٧].

فـإن قيل: مـا فائدة قـوله تعـالى: ﴿وَيَحْلِفُـونَ عَلَىٰ الكَذِبِ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٥٨/١٤].

قلنـا: فائـدتُهُ الإخبارُ عن المنافـقين أنّهـم يحـلفونَ أنّهـم ما سبقوا رسول الله ﷺ وأصحـابه مع اليهـود كاذبينَ مُتعمِّدين الكـذب، فهـو اليمينُ الغَمُوسُ فـكان ذلك نهايةً في ذمّهـم.

---

(١) في الآيـة السّابعة من السُّورة، وفيها: ﴿. . . ما يكونُ من نَجْوَىٰ ثلاثةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهمْ ولا خَمْسَةٍ إلاّ هُوَ سادِسُهم ولا أَدْنَىٰ من ذَٰلِكَ ولا أَكْثَرَ إلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُـوا. . .﴾ الآيـة.
ـ وفي الجامع لأحكام القرآن (١٧ : ٢٩٠): نزل ذلك في قـوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرّاً فأعلمَ الله أنّـه لا يخـفى عليه ذلك؛ قاله ابنُ عَبّـاس. وقـال قتـادة ومجاهـد: نزلت في اليهـود.

سورة الحشر

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [٩/٥٩] والإيمانُ ليس مكاناً لِيُتَبَوَّأَ، لأنَّ معنىٰ التَّبَوّىء اتخاذُ المكانِ منزلاً؟

قلنا: فيه إضمارٌ تقديرُهُ: وأَخْلِصُوا الإيمانَ، كَقَوْلِ الشاعر(١):

«عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بَارداً»
أي وسقيتها ماءً بارداً

الثاني: أنّه علىٰ ظاهره بغير إضمار، ولكنه مجاز، فمعناه أنهم جعلوا دار الهجرة لذلك، وهي المدينة.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ [١٢/٥٩] بعدَ الإخبار بأنّهم لا ينصرونهم، وحرفُ الشّرط إنّما يدخلُ علىٰ ما يُحْتَمَلُ وجودُه وعَدمُه؟

قلنا: معناه: وَلَئِنْ نصروهم علىٰ الفَرَضِ والتقدير كقولِهِ تعالى(٢) للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ وقوله تعالىٰ(٣): ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾؛ والله تعالىٰ كما يَعْلَمُ ما يكونُ قبلَ كونه، فهو يعلمُ ما لا يكونُ أنّه لو كان كيفَ يكون.

فإن قيل: ما معنىٰ قوله تعالىٰ للمؤمنين ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي

---

(١) وتمامُه (كما في اللسان: علف):
عَلَفْتُهَا تبناً وماءً بارداً   حَتَّى شَتَتْ هَمَّالةً عَيْنَاهَا
وقائلُهُ مجهول، وهو من شَوَاهِدِ النحو، يستشهدون به علىٰ جواز حذف الفعل إذا كان مفهوماً مِنَ السياق؛ أو أنَّ الشَّاعِرَ ضمَّنَ الفعل (عَلَفْتُها) معنىٰ أعطيتُها (مغني اللبيب ٢: ٧٠٣).
(٢) الزمر: ٦٥/٣٩.
(٣) الأنبياء: ٢٢/٢١.

صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [١٣/٥٩] أي: في صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولَيْن.

وظاهرُه لأنتم أشد خوفاً من الله، فإن كان «مِنَ الله» متعلقاً بـ «أَشَدّ» لَزِمَ ثبوتُ الخَوْفِ لله تعالى، كما تقول: زيد أشدّ خوفاً في الدار من عمرو، وذلك محال.

وإن كان «مِنَ الله» مُتعلِّقاً بـ «الخَوْف» فأين الذي فُضِّلَ عليه المُخَاطَبُون؟

وأيضاً فإن الآية تقتضي إثباتَ زيادةِ الخوف للمؤمنين وليس المرادُ ذلك باتفاق المفسّرين؟

قلنا: «رَهْبَة» مصدرُ «رُهِبَ» مبنيّاً لما لم يسم فاعله، فكأنَّه قيل: «أشدُّ مَرْهُوبيَّة» يعني أنكم في صدورهم أَهْيَبُ من الله فيها(*)، كذا فسّره ابنُ عبّاس فيهما؛ ونظيره قولك: زيدٌ أشدُّ ضرباً في الدار من عمرو، يعني مضروبيّة.

فإن قيل: كيف يستقيمُ التفضِيلُ وهم ما كانوا يرهبونَ الله؛ لأنهم لو رَهِبوه لتركوا النفاقَ والكُفْرَ؟

قلنا: معناه أنَّ رهبتَهُمْ في السّر منكم أشدُّ من رهبتهم من الله التي يظهرونَها لكم. وكانوا يُظهرونَ للمؤمنين رهبةً شديدةً من الله تعالىٰ.

فإن قيل: كيف قال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ الله﴾ [١٦/٥٩] وهو لا يخاف الله تعالى، لأنه لو خافَهُ لَمَا خَالَفَهُ، ثم أضلَّ عبيدَه؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال في سورة الأَنْفَال، وجوابُه.

(*) في فتح الرحمن: «أهيب من كون الله فيها» على التفسير والتوضيح.

فإن قيـل: ما فـائدة تنكير «النَّفْسِ» و«الغَـدِ» في قولـه تعـالىٰ ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَـدٍ ﴾ [١٨/٥٩]؟

قلنـا: أَمَّا تنكيرُ «النفس» فلاستقلال الأَنْفُسِ النَّواظـر فيمـا قَدَّمْنَ للآخـرة؛ [كأَنَّهُ قـال]: ولتنظـر نفسٌ واحـدةٌ في ذلك. وأين تلك النفس؟!

وأمّـا تنكيرُ الغـدِ فَـلِعِظَمِهِ وإبهـامِ أَمْرِه، كأنه قـال: لِغَـدٍ لاَ يُعْـرَفُ كُنْهُهُ لِعظمِهِ!!

فإن قيـل: كيف قـال تعـالىٰ: ﴿ لِغَـدٍ ﴾ وأراد يومَ القيامـة، و«الغَدُ» عبـارةٌ عن يومٍ بَيْنَنَـا وبينَهُ ليلـةٌ واحـدةٌ؟

قلنـا: «الغَدُ» له مفهومان:

أحدهما: ما ذكرتم.

والثـاني: مُطْلَقُ الزَّمانِ المُسْتَقْبَلِ، ومنه قولُ الشاعر(٤):

وَأَعْلَمُ مَا في اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ   وَلكنَّني عَنْ عِلْمِ مَا في غَدٍ عَمي

وأرادَ بِهِ مُطلقَ الزَّمـانِ المستقبلِ، كمـا أرادَ بالأَمَسْ مُطْلَقَ الزَّمـان المـاضي، فصـار لكلِّ واحِـدٍ منهما مفهومان؛ ويُؤيِّدُهُ أيضـاً قوله تعـالىٰ(٥) ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾.

وقيـل: إنمـا أُطلَقَ عـلىٰ يومِ القيامـة اسمَ «الغَـدِ» تقريبـاً له، كقولـه تعـالىٰ(٦): ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾، وقوله تعـالى(٧): ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَـرِ أَوْ هُوَ أَقْـرَبُ ﴾ فكأنّه قـال تعـالىٰ: إنّ يومَ القيامـة لِقُرْبهِ يُشْبِهُ ما ليسَ بينَكم وبينَهُ إلاّ ليلـةٌ واحـدةٌ؛ ولهـذا رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ

(٤) هـو زهير بن أبي سلمىٰ، والبيت في ديوانه: ٣٥.
(٥) يونس: ٢٤/١٠.
(٦) القمر ١/٥٤.
(٧) النَّحـل ٧٧/١٦.

قـال[٨]: «اعْمَـلْ لِلَيْلَـةٍ صَبِيحَتُهَا يَوْمُ القِيَـامَةِ» قـالوا: أراد بتلك الليلـة ليلـةَ الموت.

فـإن قيل: ما معنىٰ قـوله تعـالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَـا هَـذَا القُـرآنَ عَلَى جَبَـلٍ﴾ [٥٩/٢١]؟

قلنـا: معنـاه أنَّـه سبحـانه لـو جعـلَ في جَبَلٍ ـ عَلَىٰ قَسَاوَتِهِ ـ تَمييزاً كما جَعَلَ في الإِنسانِ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ القُرْآن لَتَشَقَّقَ خَشْيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَـالىٰ، وَخَوْفاً أَنْ لا يُؤَدِّيَ حَقَّهُ في تعظيمِ القـرآنِ.

والمقصـودُ توبيخُ الإنسانِ عـلىٰ قَسْـوةِ قلبـه، وقلَّـةِ خُشُوعِـه عندَ تِلَاوةِ القـرآن، وإعـراضُهُ عن نذيرِ قوارِعِه وزواجِـرِه.

فَـإن قيـل: ما الفـرق بين «الخالـق» و«البارىء» حتّى عطف أحدهما على الآخـر[٩]؟

قلنـا: الخـالق: هو المُقَدِّرُ لِمَـا يُوجِـدُه؛ والبـارىء: هـو المُمَيِّزُ بعضَهُ عن بعض بالأشكال المختلفة.

وقيـل: الخـالق: المبـدىء، والبـارىء: المعيـد

---

(٨) في البحر المحيط ٨: ٢٥٠ قيـل: عبرّ عن الآخـرة بالغـد كأن الدُّنيا والآخـرة: نهاران يومٌ وغـد.
(٩) يعني قوله تعـالى: ﴿هُوَ الخالقُ البارىءُ المُصَوِّر...﴾ [٥٩/٢٤].

سُورَةُ المُمْتَحِنَة

فإن قيل: مِن ماذا استُثنِيَ قوله تعالىٰ ﴿إلَّا قَوْلَ إبْراهيمَ لِأَبيهِ﴾ [٦٠/٤]؟

قلنا: من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٠/٤] لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذي حكاه عنه وعن أتباعه وأشياعه لِيَقْتَدُوا به فيه، ويتخذوه سنة يستنُّون بها، واستثنىٰ سبحانه استغفارَهُ لأبيه، لأنَّه كان مَوْعدة وعدها إياه.

فإن قيل: فإن كان استغفارُه لأبيه، أو عدُه لأبيه بالاستغفار، مستثنىً من الأسوة، فكيف عطف عليه قولَه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [٦٠/٤] وهو لا يصحُّ استثناؤه، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ[1]: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾؟

قلنا: المقصودُ بالاستثناء هذا الجملةُ الأولىٰ فقط، وما بعدها ذُكِرَ لأَنَّهُ مِنْ تمام كلام إبراهيم عليه السلام لا بقصد الاستثناء، كأنه قال: أنا أستغفر لك، وما طاقتي إلا الاستغفار.

فإن قيل: ما فائدةُ قوله تعالىٰ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [٦٠/١٢] ومعلومٌ أنَّ النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يأمُرُ إلا بمعروف، فَهَلَّا اقتصر علىٰ قوله تعالىٰ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾؟

قلنا: فائدتُهُ سُرْعَةُ تَبَادُرِ الأفهام إلىٰ قُبْحِ المعصية منهنَّ لَوْ وَقَعَتْ من غيرِ توقُّفِ الفَهْم علىٰ المقدّمة التي أوردتم في السؤال.

---

(١) الفتح: ٤٨/١١.

سورة الصَّفّ

فإن قيل: ما فائدة «قد» في قوله ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [٦١/٥]؟

قلنا: فائدتها التأكيدُ[١]، كأنَّه قال: وتعلمون علماً يقيناً لاشُبْهَةَ لكم فيه؛ هذا جواب الزمخشري[٢].

وقال غيره: فائدتها التكثير لأن «قد» مع الفعل المضارع تارةً تأتي للتقليل، كقولهم: إن الكذوب قد يصدق؛ وتارة تأتي للتكثير كقول الشاعر[٣]:

قد أعسفُ السّارح المجهول معسفةً في ظل أعطفَ يدعو هامة اليومِ

وإنما يُمْتَدَحُ بِمَا يكْثُرُ وجودُهُ منه لا بما يَقِلّ.

فإن قيل: كيف قال عيسىٰ عليه السلام ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [٦١/٦] ولم يقل: «مُحَمَّد» ومحمد أشهرُ أسماءِ النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام؟.

قلنا: إنما قال ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ لأنَّهُ مذكورٌ في الإنجيلِ بعبارةٍ تفسيرُهَا «أحمد» لا «محمد» وإنما كان كذلك لأنّه كان اسمُهُ في السماء «أحمد» وفي الأرضِ «محمّد» فنزلَ في الإنجيل اسمُهُ السماويّ.

وقيل: إن «أحمد» أبلغُ في معنىٰ الحَمْدِ مِنْ «محمّد» من جهة كونِهِ مبنيّاً علىٰ صفةِ التفضيلِ الذي هو التكثير.

---

(١) انظر «مُغْنِي اللبيب» ١: ١٩٠ من أجل مَعَاني «قَدْ».

(٢) الكشاف ٤: ٩٨.

(٣) يقال: فلان هامة اليوم أو غَدٍ أي يموتُ في يومه أو في غده؛ ويقال ذلك للشيخ إذا أسنّ، والمريض إذا طالت علّته، والمحتقر لمدّة الآجال.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـذا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [٦/٦١] ولم يقل سبحانه «هـذه»، والمشار إليه «البَيِّنَاتُ» وهي مؤنثة؟.

قلنا: معناه هـذا الذي جئت به فالإشارة إلىٰ المأتيّ به.

فإن قيل: ما وجه صِحَّةِ التشبيهِ(٤)، وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسىٰ ـ عليه السلام ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللَّهِ ﴾ [١٤/٦١].

قلنا: التشبيه محمول علىٰ المعنىٰ، تقديره: كونوا أَنْصَارَ اللَّهِ كما كان الحواريون أنصاراً لعيسىٰ ـ عليه السلام ـ حين قال لهم: من أنصاري إلىٰ الله؟

(٤) يعني في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللَّهِ... ﴾ [٦١: ١٤].

سُورَةُ الجُمُعَةِ

فإن قيل: كيف قالَ تعالىٰ ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٦٢/٩] والسَّعْيُ: العَدْوُ، وَالعَدْوُ إِلَىٰ الجُمُعَةِ وإلى كلِّ صلاةٍ مكروهٌ؟

قلنا: المراد بالسعي القَصْدُ.

وقال الحَسَنُ(١): ليس هو السعي علىٰ الأقدامِ ولكنه علىٰ النِّيَّات والقلوب، ويؤيد قول الحسن، قوله تعالىٰ(٢): ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ وقولُ الدّاعي في دعاء القنوت «وَإِلَيْكَ نَسْعَىٰ وَنَحْفِدُ» وليسَ المرادُ به العَدْوُ والإسراعُ بالقَدَمِ.

فإن قيل: كيف قال تعالىٰ ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ [٦٢/١١] والمذكور ثنتانِ: اللَّهْوُ وَالتِّجارةُ؟

قلنا: قد سبق جوابُ هذا في سورة التوبة في قوله(٣) عزّ وجلّ ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والذي يريده هنا ما قاله الزجاج، معناه: وإذا رأوا تجارةً انفضّوا إليها، أو لهواً انفضُّوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه.

وقرأ ابنُ مسعود(٤) «إِلَيْهِمَا» بضمير التَّثنِيَة.

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٨: ١٠١).
(٢) النجم: ٥٣/٣٩.
(٣) التّوبة: ٩/٣٤.
(٤) ذكر هذه القراءة في البحر المحيط ٤: ٢٦٩ ولم يسمّ صاحبها. ونقلها في معجم القراءات القرآنية غُفلاً أيضاً ٧: ١٤٨.

سـورة المنـافقين

فـإن قيــل: مـا فـائدةُ قولـه تعـالىٰ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ [٦٣/١]؟

قلنــا: لـو قـال تعـالىٰ: «قَالُوا نَشْهَدُ: إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» لَكانَ يُوهِمُ أنَّ قولهم هـذا كـذبٌ، وليس المـراد أنَّ شهادتَهُم هـذه كـذبٌ، بل المـرادُ أَنَّهم كاذبون في غير هـذهِ الشهادةِ...

وقـال أكثـر المفسرين: إنَّه تكـذيبٌ لهم في هـذه الشهادة، لأنَّهم أضمـروا خـلافَ ما أظهروا، ولم يعتقـدوا أنَّهُ رسـولُ اللَّهِ بقلوبهم، فسمَّاهم كاذبين لـذلك. فعـلىٰ هـذا يكـونُ ذٰلكَ تكذيباً.

فـإن قيــل: المنافقون مَا بَرِحُوا عـلىٰ الكُفْـرِ، فكيفَ قـال تعـالىٰ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ [٦٣/٣]؟

قلنــا: معنـاهُ ذلكَ الكـذبُ الـذي حَكَمَ عليهم به أو ذلك الإخبـارُ عنهم بأنَّهم ﴿ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٦٣/٢] بسبب أنَّهم آمنـوا بألسنتهم، ثم كفـروا بقلوبهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [٦٣/٣] كمـا قـال تعـالى[١] في وصفهم ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ... ﴾ .... الآية.

فإن قيــل: كيفَ قـال تعـالىٰ ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ العَدُوُّ ﴾ [٦٣/٤]، ولـم يقـل: «هِيَ العَدُوّ»؟

قلنــا: «عليهم» هـو ثاني مفعولَيْ «يَحْسَبُونَ»، تقـديرُه «كُلَّ صيحـةٍ

---

(١) البقـرة-[٢/١٤] وتمامُ الآية ﴿ ... قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾.

واقعةً عليهم» أي لِجُبْنِهِمْ وهَلَعِهِمْ، فالوقفُ علىٰ قوله تعالى «عليهم»؛ وقَوْلُهُ سبحانه ﴿ هُمُ العَدُوُّ ﴾ ابتداءُ كَلَامٍ.

وقيل: إنَّ المفعولَ الثانيَ هو قولهُ تعالىٰ ﴿ هُمُ العَدُوُّ﴾ ولكنَّ تقديرَهُ: «يَحْسَبُونَ أَهْلَ كُلِّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ». والأوَّلُ أَظْهَرُ بَذَلِكَ، بِدَليلِ عَدَمِ نَصْبِ العَدُوّ.

سُـورَةُ التغَابُنِ

فـإن قيـل: كيفَ قـالَ تعـالىٰ ﴿ فَمِنْكُم كَافِرٌ ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [٢/٦٤] قَدَّمَ الكافِرَ في الـذِّكـر؟

قلنـا: الـواو لا تُعطي رُتْبَـةً، ولا تقتضي ترتيبـاً كمـا قـال تعـالىٰ[١] ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾؛ وقـال تعـالىٰ[٢]: ﴿ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَـابُ النَّـارِ وَأَصْحَـابُ الجَنَّةِ ﴾. وقـال سبحانه[٣] ﴿ فَمِنْهِمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بَالخَيْرَاتِ ﴾، وقـال تعـالىٰ[٤]: ﴿يَهَـبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُـورَ ﴾، وقـد ذكـرنا في الآيـة الأخيرة معنىٰ آخـرَ في موضعِها.

فـإن قيـل: قوله تعـالىٰ[٥]: ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ اللَّهُ ﴾ [٦/٦٤] يُوهِمُ وُجوبَ القَوْلِ، وَالاستغنـاءُ معنـاه: بَعْدَ مجيءِ رسلِهم إِلَيْهِمْ؛ واللَّهُ تعـالىٰ لَمْ يَزَلْ غنيّـاً.

قلنـا: معنـاه: وَظَهَرَ استغنـاءُ اللَّهِ سبحانَهُ عن إيمانهم وعبادتهم، حيث لم يلجئْهم إلى الإيمـانِ، ولم يضطرّهم إليه مع قـدرتِه تعـالىٰ عـلىٰ ذلك.

فإن قيـل: كيف قـال تعـالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [١١/٦٤] مع أنّ الهدايةَ سابقةٌ عـلىٰ الإيمـانِ لأنّـهُ لـولا سَبْقُ الهـدايةِ لَمَـا وُجِـدَ الإيمـانُ.

قلنـا: ليسَ المـرادُ به «يَهْدِ قَلْبَهُ للإيمـانِ» بـل المـرادُ به «يَهْدِ قلبَهُ لليقينِ

---

(١) هـود: ١٠٥/١١.
(٢) الحشر: ٢٠/٥٩.
(٣) فـاطر: ٣٢/٣٥.
(٤) الشورى: ٤٩/٤٢.
(٥) تمام الآية: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَـاتِ فَقَـالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا، فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا، واسْتَغْنَىٰ اللَّهُ، واللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

عنـدَ نزولِ المصائب، فَيُعْلَمُ أنَّ ما أَصَابَهُ لم يكُنْ لِيُخْطِئه، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ».

الثـاني: «يَهْدِ قَلبَهُ لِلرِّضىٰ وَالتَّسليمِ عِنْدَ نُزُولِ المَصَائِبِ».

الثـالث: «يَهْدِ قلبَهُ لِلاسْتِرْجَـاع»[٦].

الـرابع: «يَهْـدِ قَلْبَهُ» أي: يجعلـه مِمَّنْ إذا ابْتُلِيَ صَبـَرَ، وإذا أنعمَ عليه شكَرَ، وإذا ظُلِمَ غفَرَ.

الخـامس: «يَهْدِ قلبَهُ لاتِّبـاعِ السُّنَّـةِ إذَا صَحَّ إيمانُهُ» وَقُرِىءَ: ﴿ يَهْدَأْ قَلْبُهُ ﴾ بِفَتْحِ الدَّالِ وَبِالهَمْزِ، مِنَ الهُدُوءِ[٧]، وَهُوَ السُّكُونُ فمعنـاه: ومن يؤمن بالله إيماناً خالصـاً سَكَنَ قَلْبُه، يطمئنّ عنـد نزول المصائب والمِحَنِ، ولا يحـزن ولا يقلق.

---

(٦) يعني «يَهْدِ قَلْبَهُ إذا نزلت به مصيبةٌ إلىٰ قول: إنَّا للَّهِ وَإنَّا إلَيْـهِ رَاجِعُونَ».

(٧) قـرأ بها عـكرمة، وعمـرو بن دينـار، ومـالك بن دينـار: معجم القـراءات القـرآنية: ١٦١/٧.

سورة الطلاق

فإن قيل: كيفَ قالَ تعالىٰ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [٦٥/١] أَفْرَدَ الخطابَ أَوَّلاً ثُمَّ جَمَعَهُ ثانياً؟

قلنا: أفْرَدَ سبحانه النبيَّ صلى الله عليه وسلم أولاً بالخطابِ لأنَّه إمامُ أُمَّتِه وقُدْوَتُهُم إظهاراً لِتَقَدُّمِهِ ورياسته وأنَّه وحدَهُ في حُكْمِ كُلِّهِم وسادٌّ مَسَدَّ جميعهم.

الثاني: أن معناه: «يا أيُّها النبيُّ قل لِأُمَّتِكَ إذا طَلَّقتم النِّساءَ...».

فإن قيل: كيفَ قال تعالىٰ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [٦٥/ ٢ ـ ٣] ونحن نرىٰ كثيراً من الأتقياء مُضَيَّقاً عليهم رزقُهُم؟

قلنا: معناه «يجعل له مَخْلصاً من هموم الدُّنْيا والآخرة» وعن النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال[1]: «مَخْرَجاً مِنْ شُبُهَاتِ الدُّنيا، وَمِنْ غَمَرَاتِ المَوْتِ، وَمِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ القِيَامَةِ».

وقال ابن عباس: رضيَ اللَّه عنهما: «ينجيهِ مِنْ كلّ ذَنْبٍ في الدُّنيا والآخرة».

والصَّحيحُ أنَّ هذه الآية عامَّةٌ، والله تعالىٰ يجعلُ لكلِّ مُتَّقٍ مَخْرَجاً مِنْ كلِّ ما يَضيقُ عَلىٰ مَنْ لا يَتَّقي؛ وَلهذا قالَ النبيُّ عليهِ الصَّلاة وَالسّلام «إِنِّي لأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفَتْهُمْ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّه... ﴾ » وَجَعَلَ يَقْرَؤُهَا وَيُعيدُهَا.

---

(١) ورد هذا القول عن ابن عباس «رضي الله عنهما» في القرطبي: ١٨/١٦٠.

وأمَّـا تَضْيِيقُ رِزْقِ الأَتْقِيَـاءِ فَهُوَ مَعَ ضِيقِهِ وقِلَّتِهِ يأتيهم مِنْ حَيْثُ لاَ يُؤَمِّلُونَ وَلاَ يَرْجُـونَ، وَتَقْليلُـه لُطْفٌ ورحمَةٌ لِيَتَوَفَّرَ حَظُّهُمْ فِي الآخـرَةِ، وَيَخِفَّ حِسَابُهُمْ وَلِتَقِـلَّ عَوائِقُهُـم وَعَـلائقهُمُ عَنِ الاشتغَـالِ بِمَوْلاَهُم، وَلاَ يَشْغَلهم الرَّخَـاءُ والسَّعَةُ عَمَّـا خُلِقُوا لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ؛ ولهـذا اختـارَ الأنبيـاءُ وَالأوليـاءُ وَالصِّدِّيقُونَ الفَقْرَ عـلىٰ الغِنَىٰ.

فـإن قيـل: كيفَ قـالَ تعـالىٰ: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [٣/٦٥] أي: ومن وثق به فيما نَابَهُ كفـاه الله تعـالىٰ ما أهمَّـه، وقـد رأينـا كثيراً مِنَ النَّـاسِ مِمَّنْ يَتَوَكَّل عـلىٰ اللَّهِ تعـالىٰ في بعضِ أُمورِه وَحَـوائجِـهِ، ولا يكفيـهِ اللَّهُ سُبْحانَهُ هَمَّهَا.؟

قلنـا: مُحَـالٌ أَنَّهُ يَتَوَكَّلُ عـلىٰ اللَّهِ حَقَّ التَّوكُّلِ، ولا يكفيه هَمَّه؛ بل رُبَّمـا قَلِقَ وضَجِرَ، واسْتَبْطأ قضـاءَ حَاجَتِهِ بقلبهِ أو بِلسَانِهِ أيضـاً، فَفَسَـدَ تَوَكُّلُـهُ، وإليه الإشـارَةُ بِقـولِـهِ تعـالىٰ ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [٣/٦٥]، أي: نافذُ حُكْمُهُ، يبلغُ ما يريدُهُ ولا يفوتُهُ مُـرادٌ، ولا يُعْجِزُهُ مَطْلُـوبٌ وبقوله تعـالىٰ ﴿ قَدْ جَعَـلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [٣/٦٥] أي: جعـل لكلّ شيءٍ مِنَ الفَقْـرِ وَالغِنَىٰ وَالمَرَضِ والصِّحَّـةِ وَالشِّـدَّةِ وَالرَّخـاء، ونحوِ ذلكَ أَجَـلاً وَمُنْتَهـىً ينتهـي إلـيهِ لا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ، ولا يتأخـر.

فإن قيـل: كيف قـال تعـالىٰ: ﴿ وَاللَّائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [٦٥/ ٤] عَلَّقَـهُ بِشَكِّنَـا، مَع أَنَّ عِدَّتَهُنَّ ذَلِكَ، سَوَاءٌ وُجِـدَ شَكُّنَـا أَمْ لاَ؟

قلنـا: المـراد بالشَّكِّ الجَهْلُ بمقـدارِ عِـدَّةِ الآيِسَـةِ وَالصَّغيرةِ؛ وَإِنَّمـا علَّقَهُ بِهِ لأنَّه لَمَّـا نَزَلَ بَيَانُ عِـدَّةِ ذَوَاتِ الأَقْـرَاءِ في سُورَةِ البَقَـرَةِ قـالَ بعضُ الصَّحـابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم: قَدْ بقِيَ الكِبَـارُ وَالصِّغـارُ، وَلاَ نَدْرِي كَمْ عِدَّتُهُنَّ،

(٢) الأقراء جمع القُرء وتأتي لمعنى الحيض، ولمعنى الطُهر من الحيض. والمقصود بذوات الأقراء النساء اللواتي بلغن سن الحيض ولم ييأسن بانقطاعه.

فَنَزَلَتْ هَـذِه الآيَـةُ عَلىٰ هَـذا السَّبَبِ، فَلِـذَلِكَ جَـاءَتْ مُقَيَّـدَةً بِالشَّكِّ وَالجَهْلِ (٣).

فَـإِنْ قيـلَ: إِذَا كَانَتِ المُطَلَّقَةُ طـلاقاً بَائنـاً يَجِبُ لَهَا النَّفَقَةُ عِنْدَ بَعْضِ العُلَمَـاءِ، فما فـائدة قوله تعـالىٰ ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُـوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [٦٥/ ٦] عِنْدَ ذَلِكَ القَائِلِ؟.

قلنـا: فَائدتُـهُ لئـلاّ يتوهَّـم أَنَّه إذا طَالَتْ مُدَّةُ الحَمْلِ بَعْدَ الطَّلاقِ حَتَّىٰ مُـدَّةِ عِـدَّةِ الحَامِـلِ سَقَطَتِ النَّفَقَـةُ؛ فَنُفِي هـذا الوَهْمُ بِقَوْلِهِ تَعَـالىٰ ﴿ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾.

فـإن قيـلَ: كيفَ قـالَ تعـالىٰ هُنـا ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْـراً ﴾ [٦٥/٧] وقـال في موضع آخـر(٤) ﴿ إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْـراً ﴾؛ فكيف التوفيقُ بَيْنَهُمَا؟

قلنـا: المـرادُ بقولِهِ تعـالىٰ «مَعَهُ» بَعْـدَهُ؛ لِأَنَّ الضِّـدَّيْنِ لاَ يَجْتَمِعَـانِ.

فـإن قيـل: كيفَ قـالَ تعـالىٰ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَـاهَا حِسَـاباً يَسِيراً، أَوْ عَذَّبْنَـاهَا عَـذَاباً نُكْـراً ﴾ [٦٥/٨] فَنَسَبَ «العُتُوَّ» إليها، وقـال تعـالىٰ: «فَحَاسَبْنَـاهَـا وَعَذَّبْنَـاهَا» وَالعَذَابُ المُتَرَتِّبُ عَلى الحِسَابِ يَكُـونُ في الآخِـرة لا في الـدُّنيـا؟

قلنـا: «عَتَـا أَهْلُهَا» وإِنَّمـا جِيءَ بِه(٥) عَلَىٰ لَفْظِ الماضي تَحْقِيقاً لَهُ وَتَقْرِيراً؛ لأنَّ المُنْتَظَرَ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ تعـالىٰ وَوَعيدِهِ آتٍ لاَ مَحَالَةَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ فَكَأَنْ قَدِ(٦)، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالى(٧): ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

(٣) ينظر كتاب أسباب النزول للواحدي: ٣٥٦ ـ ٣٥٧
(٤) الشّرح: ٩٤/٥.
(٥) قوله «به» أي بلفظ «فحاسبناها وعذَّبناها».
(٦) أي: فَكَأَنْ قَدْ كانَ.
(٧) الأعـراف: ٧/٥٠.

سُورَةُ التحْرِيم

فَإنْ قِيلَ: قَولُهُ تَعالَىٰ[1] ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٦/٤] إن كانَ المرادُ بهِ الفردَ، فأيُّ فردٍ هُوَ؟

وأيضاً فإنه لا يناسبُ مقابلةَ «المَلاَئكةِ» الذين هم جمعٌ، و[إن] كَانَ المرادُ به الجمعَ، فهَلَّا كانَ مكتوباً في المصحف بالواو[2]؟

قلنا: هو فرد أراد به الجمع، كقولك: لا يفعَلُ هذا الفعلَ الصّالحُ من الناس؛ تريد الجنس، كقولك: لا يفعله مَنْ صلح منهم، وقوله تعالىٰ[3] ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ وقوله تعالىٰ[4]: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾، وقوله تعالى[5] ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾. ونظائره كثيرة.

الثاني: أنّهُ يجوزُ أن يكونَ جمعاً، ولكنّه كُتِبَ في المصحفِ بغيرِ واوٍ على اللَّفْظِ كما جَاءَت ألفاظٌ كثيرةٌ في المصحف علىٰ اللَّفْظِ دون اصطلاح الخَطِّ.

فإن قيل: كيفَ قالَ تَعالى ﴿وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [٦٦/٤] ولم يقل: «ظُهُرٌ» وهو خَبَرٌ عَنِ الجَمْعِ، وهم الملائكة؟

قلنا: هو فرد وُضِعَ مَوْضِعَ الجمع، كما سبق.

الثّاني: أنّهُ اسمُ على وَزْنِ المَصْدَرِ، كَالذَّمِيل، وَالدَّبِيب، والصَّليل، فَيَسْتَوي فيهِ الفردُ والتثنيةُ والجمعُ.

---

(١) تمام الآية: ﴿... وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالمَلاَئكةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظهيرٌ﴾.

(٢) أي: «وَصَالِحُو المؤمنين» ونقله في (فتح الرحمن) كما هو. ومثله في القرطبي ١٨: ١٨٩ وأصله في الكشاف ٤: ١٢٧.

(٣) العصر: ١٠٣/٢.

(٤) الحاقة: ٦٩/١٧.

(٥) غافر: ٤٠/٦٧.

الثّـالث: [أَنَّ] «فعيلًا» يَسْتوي فيـه الـواحـدُ والاثنـانِ والجَمْعُ بدليلِ قولهِ تعـالى(٦): ﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾.

فـإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ...﴾ [٦٦/٤] تعظيمٌ للملائكة ومُظَاهَرَتِهِمْ، وقد تقدَّمَتْ نُصْرَةُ الله تعـالىٰ وجبريل وصالح المُؤْمِنِينَ، ونصرُ الله سبحانه أعظم.

قلنـا: مُظـاهَـرَةُ الملائِكَـةِ مِن جُمْلَـةِ نُصْـرة اللّهِ تعـالىٰ، فَكَأَنَّهُ فَضَّـلَ نُصْرَتَهُ بهم عَلَىٰ سـائِرِ وُجُـوهِ نُصْـرَتِهِ، لِفَضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ، ولا شَكَّ أَنَّ نُصْـرَتَهُ بِجميعِ الملائكـة أعظم مِن نُصْـرَتِهِ بجبريلَ وَحْـدَه، أو بصـالحِ المؤمنين.

فَـإن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجـاً خَيْراً مِنْكُـنَّ مُسْلِمـاتٍ مُؤْمِنَـاتٍ... ﴾ [٦٦/٥] إلىٰ آخـر الآيـة، فَأَثبتَ الخيريّة لَهُنَّ باتّصَافِهِنَّ بهذِهِ الصّفـات، وإنَّمـا تثبت لهنَّ الخيريّة بهذه الصّفـات لو لم تكن تلكَ الصّفـات ثابتـة في نسـاء النبيّ ﷺ، وهي ثابتـة فيهنّ؟

قلنـــا: المُـرَاد به: خيراً منكنَّ في حفظ قلبـه ومتابَعَةِ رضاه مَعَ اتِّصَافِهِنَّ بهـذه الصّفـات المشتركة بينكنّ وبينهنّ.

فَإنْ قيـــلِ: كيف أُخْلِيَت الصّفـات كلُّها عن الـواو، وأُثبِتَت بينَ «الثَّيِّبَـاتِ» و «الأَبكـار».

قلنـــا: لأنهنّ صِفَتَانِ مُتَنَافِيَتـانِ لا تَجتَمِعـانِ فيهنَّ اجتمـاعَ سَائِر الصِّفـات، فلم يكن بُدٌّ مِنَ الـوَاو. وَمَن جَعَلَهَا وَاوَ الثَّمَانِيَةِ فقد [خلط] بينهما؛ لأنَّ وَاوَ الثَّمَانيـة لا يفسـد الكلام بحذفِهَا بِخَـلَافِ هـذه.

فَـإن قيـلَ: هـذه الصِّفـات إنَّمـا ذُكِـرَت في مَعْرِضِ المـدح، فأيُّ مَدْحٍ في كَوْنِهِنَّ ثَيِّبَاتٍ؟

---

(٦) ق: ٥٠/١٧.
ـ وهو في الكشّاف ٤: ١٢٧.

قلنـا: الثيِّب مَدْحٌ مِنْ وَجهٍ، فإنَّ الثيِّب أَقْبَلُ للحَبَلِ بالطِّفْلِ وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً وعقلاً. والبَكَارَةُ مَدْحٌ من وَجْهٍ، فإنَّها أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ وأَكْثَرُ مُدَاعَبَةً وَمُلاَعَبَةً.

فإن قيل: مَا فَائِدَةُ قولهِ تعالى ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون ﴾ [٦/٦٦] بعد قوله سبحانه ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾؟

قلنا: قيل: المُرَادُ بالأمر الأوَّل الأَمْرُ بالعبادات والطَّاعات، وبالأمر الثَّاني الأمرُ بتعذيب أهل النَّار.

وقيل: هو تأكيدٌ.

فَإِنْ قيل: كيف قالَ تعالى ﴿ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ [٨/٦٦] ولم يقل سبحانه: «نصوحةً»؟

قلنا: لأنّ «فَعُولاً» مِن أوزانِ المبالَغَةِ التي يستوي في لفظها الذكور والإناث، كقولهم: امرأةٌ صبُورٌ وشكورٌ، ونحوهما.

فَإِنْ قِيلَ: مَا فائدةُ قوله تعالى: ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [١٠/٦٦] بعد قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾.

قلنا: فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضَافَةَ التَّشريف والتخصيص، كما في قوله تعالى[٧] ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ ﴾ وقوله تعالى[٨] ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وَهُوَ مُبالَغَةٌ في المعنىٰ المقصود، وهو أنّ الإنسان لا ينفَعُهُ إلاَّ صَلاَحُ نَفْسِهِ لا صَلاَحُ غَيْرِه، وإن كانَ ذٰلِكَ الغَيْرُ في أعلىٰ مَرَاتِبِ الصَّلاحِ والقُرْبِ مِنَ الله تعالى.

فَإِن قيلَ: كيف قال تعالى ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [١٢/٦٦] وَلم يقل سبحانه: «مِنَ القانتات».

---

(٧) الفرقان: ٦٣/٢٥.
(٨) الفجر: ٢٩/٨٩.

قلنـــا: معنـاه: وكانت من القوم القانتين؛ أي: المطيعين للّه تعـالى؛ وقيـــل: إنَّ اللّه تعـالىٰ لَمَّـا تَقَبَّلَهَا في النَّـذْرِ(٩) وَأَعْطَاهَا مَرْتَبَةَ الـذُّكُـورِ الّـذين كانَ لا يصلُحُ النَّذْرُ إلَّا بِهِمْ عَامَلَها مُعَامَلَـةَ الـذُّكـورِ في بَعْضِ الخِطـابِ إشارةً إلىٰ ذلكَ، فقـالَ تعـالى(١٠) ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ وَقـال تعـالىٰ ﴿ وكانَتْ مِنَ القانِتِيْنَ ﴾.

(٩) إشـارة إلى قوله تعـالى ﴿ إذْ قَالَتِ امـرأة عُمْرَانَ رَبِّ إنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا في بَطْني مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي، إنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَلِيمُ. فَلَمَّاوَضَعَتها قالَتْ رَبِّ إنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثىٰ واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الـذَّكَرُ كالأُنثىٰ، وَإنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَم، وإنِّي أعيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ. . . ﴾ [آل عمران: ٣/٣٥ - ٣٧].

(١٠) آل عمران: ٣/٤٣.

سُـورَةُ المُلْك

فَـإن قِيــلَ: مَـا فائدةُ تقـديم «المَوْتِ» على «الحيـاة» في قوله تعـالى ﴿ الَّـذِي خَلَقَ المَوْتَ والحيـاةَ ﴾ [٦٧/٢]؟

قلنــا: إنَّمـا قـدّم سبحانه «الموت» لأنَّهُ هُوَ المخلوقُ أوَّلاً؛ قـال ابنُ عبّاس رضي اللَّه عنهما: أراد به خَلْقَ «الموتِ» في الدنيا، و«الحياةِ» في الآخـرة، ولـو سَلِمَ أنَّ المـراد به «الحياة» في الدنيـا، فالموت سابقٌ عليها، لقوله تعـالى[1]: ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يِمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم ﴾.

فإن قيــل: كيف قـال: ﴿ مَا تَرَىٰ في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ [٦٧/٣] مع أنّ في خلقِه سبحانَه تفاوُتاً عظيماً؛ فإنَّ الأضـدادَ كُلَّها من خلقِـه عـزَّ وجَـلّ، وهي مُتفاوِتة، والسمٰوات أيضـاً مُتَفَاوِتَةٌ في الصِّغَرِ والكِبرِ والارتفاعِ وغيرِ ذلك؟

قلنــا: المـراد بالتفاوُت هنا الخَلَلُ والعَيْبُ والنُّقْصَانُ في مَخْلُوقِهِ تعـالى، الـذي هـو السمٰوات، ويؤيّدُهُ قوله تعـالى ﴿ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ [٦٧/٣] أي: مِن شُقوقٍ وَصُدُوعٍ في السماء.

فَإن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ [٦٧/١٦] واللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعـالى ليسَ في السماء ولا في غير السَّماء؛ بل هُوَ سبحانَهُ مُنَزَّهٌ عن كلّ مكانٍ؟

قلنــا: معنـاه: مَنْ مَلَكُوتُهُ في السماءِ، لأنَّها مسكَنُ ملائِكتِـهِ، ومَحَـلُّ عَرْشِـهِ وكُرْسيِّهِ واللَّوْحِ المحفوظِ، ومنها يُنَزِّلُ أَقْضِيَتَهُ وَكُتُبَهُ وأوامِرَهُ ونَوَاهِيَـهُ، الثـاني: أَنَّهُمْ كانـوا يعتقـدون التَّشبيهَ وأنَّـهُ تعـالىٰ في السَّماء، فخُوطِبُوا على حَسَبِ اعتقادِهم[2].

---

(١) البقرة: ٢/٢٨.

(٢) عن الكشاف (٤: ١٣٨).

سُـورَةُ القَلَـمْ

فَـإن قيــل: كيف قـال تعـالى ﴿ولا يَسْتَثْنُونَ﴾ [١٨/٦٨٩] أي: ولا يقولون: إن شاء الله فَسَمّىٰ الشَّرْطَ استثنـاءً؟

قُلْنـا: إنَّمـا سمّـاه استثناءً لأنَّه في معنـاه، فإنَّ معنىٰ قولكَ: «لأخْرُجَنَّ إن شـاءَ الله»، و«لا أخـرج إلَّا أن يشـاءَ اللَّهُ» واحِـدٌ. وقـال عكـرمة(١): المُـرَادُ به حقيقةُ الاستثناء؛ أي أنَّهم لا يستثنونَ حَقَّ المساكين؛ والجمهورُ علىٰ الأوَّل.

فـإن قيــل: كيف سمّىٰ أَوْسَطُهُمُ الاستثناءَ تسبيحـاً ، فقـالَ ﴿أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُـونَ﴾ [٢٨/٦٨] أي، لولا تستثنون؟

قلنــا: إنَّمـا سمّاهُ تسبيحـاً لاشتراكهما في معنىٰ التعظيم؛ لأنَّ الاستثناء تفويضٌ إليه وإقـرارٌ بأنَّهُ لا يقـدرُ أحـدٌ أن يفعَلَ فعـلاً إلّا بمشيئتِهِ سبحانه، والتسبيحُ تنزيهٌ عَنِ السُّـوء.

الثـاني: أنَّهُ كان استثناؤهم قول: سبحانَ اللَّهِ!

الثـالث: أنَّ معنـاه: لولا تنزّهـونَ أنفسَكُمْ وأموالكم عـن حَـقِّ الفقـراء.

فَإن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿وَيُدْعَون إِلَىٰ السُّجُودِ﴾ [٤٢/٦٨] ولا تكليف في دار الآخـرة؟

قلنــا: لا يُدْعَوْنَ إليـه تكليفـاً وَتَعَـبُّداً، ولكنْ تَوْبيخـاً وتعنيفـاً على تَرْكِهِ في الـدُّنيـا.

فـإن قيــل: كيف قـال تعـالى ﴿وَقَـدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ﴾ [٤٣/٦٨] وَهم كانوا إنَّمـا يُدْعَوْنَ إلىٰ الصَّـلاة، فالمُرَادُ بالآيـة دُعَاؤُهـم إلىٰ

---

(١) تفسير القرطبي (١٨: ٢٤١).والكشّاف (٤: ١٤٤).

الجماعـاتِ بالأذانِ ، والمُؤَذِّنُ إِنَّمَـا يقولُ: «حيَّ عـلىٰ الصَّلاَةَ»؟

قلنــا : عَبَّرَ سبحانَهُ عن الصَّـلاةِ بالسُّجود؛ لأنَّهُ من أركانها، بَلْ مِنْ أَعظم الأركان وغـايتها؛ كما عَبَّرَ عنها بالرُّكـوعِ (٢) وبالقُـرْآن(٣).

فـإن قيــل: كيف قـال تعـالىٰ ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [٦٨/٤٣] أي: صحيحون، مع أنَّ الصّحّة ليست شَرْطاً لوجـوب الصّـلاة؟

قلنــا: وُجـوبُ الخـروجِ إلىٰ الصَّـلاةِ بالجَمَاعَـةِ هُـوَ المُـرَادُ.

(٢) عَبَّرَ سبحانَهُ عن الصَّلاةِ بالرُّكُوع في قَوْلِهِ ﴿ تَراهُمْ رُكّعـاً سُجَّداً ﴾ الفتح /٢٩ ـ وفي غيرها أيضاً.

ووردت كلمة القرآن بمعنى الصّلاة في قوله تعـالى ﴿ إنَّ قُرآن الفَجْرِ كانَ مشهوداً ﴾ الإسـراء ١٧/ ٧٨.

سُورَةُ الحَاقّة

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قال تعالى ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ [٦/٦٩] ولم يقل: صَرْصَرَةٍ، كما قال ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ [٦/٦٩] وَهُوَ صفةٌ لِمُؤَنَّثٍ، لأنها الشَّدِيدةُ الصَّوْتِ، أو الشَّديدةُ البَرْدِ؟

قلنا: لِأَنّ «الصَّرْصَرَ» وَصفٌ مَخْصُوصٌ بالرِّيحِ لا يُوصَفُ به غيرُها، فأشْبَهَ بابَ: حائض، وطامث، وحامل؛ بخلافِ «عاتية» فإنَّ غير الريح من الأسماء المؤنثة تُوصَف به.

فإن قيل: كيف قال تعالى ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فيها صَرْعَىٰ ﴾ [٧/٦٩] أي: في تلك الليالي والأيّام، والنبيّ عليه الصَّلَاة والسَّلامَ ما رآهم فيها ولا يَرَاهم فيها؟

قلنا: ﴿ فيها ﴾ ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ تعالى ﴿ صَرْعَىٰ ﴾ لا لقولِهِ تعالى ﴿ فَتَرَى ﴾ والرُّوية هنا مِن رؤية العلم والاعتبار؛ فصار المعنىٰ: فتعلمهم صرعىٰ في تلك الليالي والأيام بإعلامنا، حتىٰ كأنّك تشاهدهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ فَإِذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [١٣/٦٩] إلىٰ قَوْلِهِ سبحانه ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ... ﴾ [١٨/٦٩] والمراد بها النفخة الأُولىٰ، وهي نفخة الصَّعْقِ، بدليلِ ما ذكر بعدها مِن فَسَادِ العَالَمِ العُلويّ والسُّفْليّ، والعَرْضُ إنَّما يكونُ بَعْدَ النفخة الثانية، وبين النفختين من الزمان ما شاء اللَّهُ تعالى، فكيف قال سبحانه ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضون ﴾.

قلنا: وُضِعَ اليومُ مَوْضِعَ الوَقتِ الواسع الذي يقع فيه النفختان وما بعدهما.

فإن قيل: كيف قال ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [٢٠/٦٩]؟

قلنا: معناهُ: «تَثَبَّتُّ» والظّنُّ يُطْلَقُ بمعنىٰ اليقين، كما في قوله

تعالى[1] ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصفِ أهل النار ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليومَ هَهُنَا حَمِيمٌ. وَلاَ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ غِسْلِين ﴾ [٦٩/٣٥ - ٣٦] وقال سبحانَهُ في مَوْضِعٍ آخر[2] ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ وفي موضع آخر[3] ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ وفي موضع آخر[4]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّها الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ﴾ وفي موضع آخر[5]: ﴿أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؟

قلنا: معناه: إلاّ من غسلين وما أَشْبَهَهُ، أو: وُضِعَ الغِسلينُ مَوْضِعَ كلِّ طَعَامٍ مَرَّ ذِكْرُه.

فإن قِيل: كيف قال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم ﴾ [٦٩/ ٤٠] يعني أنَّ القرآنَ قولُ جبريلَ عليه الصّلاة والسّلام، مع أَنَّهُ قولُ اللّٰهِ تعالىٰ لا قول جُبْرِيل؟

قلنا: الأكثرون على أنَّ المرادَ به النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمعنى أنَّهُ يقولُ ويتكلّم به على وَجه الرّسالة من عند اللّٰه تعالى لا من تلقاء نفسه كما تزعمون.

فإن قِيلَ: كيف قال تعالى ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [٦٩/٤٧] فوصَفَ الفَرْدَ بالجَمْعِ ؟

قلنا: قد سَبَقَ مثلُ هذا السُّؤال وجوابه في آخر سورة البقرة.

---

(١) البقرة: ٢/٤٦.
(٢) الغاشية: ٨٨/٦.
(٣) الدخان: ٤٤/٤٤.
(٤) الواقعة: ٥٦/٥١ ـ ٥٣.
(٥) البقرة: ٢/١٧٤.

سُورَة المَعَارج

فَإِن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [٧٠/ ١٩] وتفسيرُهُ ما بَعْدَه(١)، والإِنسانُ في حَالِ خَلقِهِ ما كانَ مَوْصُوفاً بهذِهِ الصِّفات؟

قلنا: هَلُوعاً حَالَ مقدرته؛ فالمعنىٰ: مُقَدَّراً فيه الهَلَعُ؛ كما في قَوْلِهِ تعالى(٢): ﴿ مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ ﴾ وَهُمْ لَيْسُوا مُحَلِّقِينَ حَالَ الدُّخُولِ(٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى أوَّلاً ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [٢٣/٧٠] ثمّ قال تعالى ثانياً ﴿ وَالَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [٣٤/٧٠] فهل بينهما فرق؟

قلنا: المُرَادُ بالدَّوَامِ عَلَيْهَا المُوَاظَبَةُ والمُلازَمَةُ أبداً؛ وقيل: المُرَادُ بِهِ سكونُهُم فيها بِحَيْثُ لا يلتفتونَ يميناً ولا شمالاً، واختارَهُ الزَّجَّاج؛ وقيل: اشتقاقُهُ مِنَ «الدَّائم» بمعنىٰ «السَّاكن» كَمَا جاءَ في الحديث أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام نَهَىٰ عن البَوْلِ في الماءِ الدَّائِم(٤).

قُلْتُ: وقَوْلُهُ تعالى ﴿ على ﴾ يَنْفِي هذا المعنىٰ، فإنَّهُ لا يُقَالُ: هُوَ علىٰ صلاتِهِ سَاكِنٌ، بل: هُوَ في صلاتِهِ سَاكِنٌ. والمُرَاد بالمُحَافَظَةِ عليها أداؤُها على أكملِ وُجُوهِهَا جامعةً لجملة سُنَنِهَا وآدابِهَا؛ فالدوامُ يرجع إلى نفسِ الصَّلاةِ، والمُحَافَظَةُ: إلى أَحْوَالِها.

---

(١) يعني قَوْلَهُ تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً. إِلاَّ المُصَلِّين... ﴾ [٧٠/٢٠ - ٢١ - ٢٢].

(٢) الفتح: ٤٨/٢٧.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ ... لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ... ﴾ [الفتح ٤٨/٢٧].

(٤) في الفتح الكبير من حديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ «نهى أن يُبَال في الماء الرَّاكد» (٢٦٩/٣) وفي النهاية واللسان: نهى أن يبال في الماء الدائم ثم يتوضأ منه؛ وهو الماء الراكد الساكن من فعل دام يدوم إذا طال زمانه، وسكن.

سُـورَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصلاَةُ وَالسلاَمُ

فَـإِن قيــل: كيف قـال تعـالى: ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَـلٍ مُسَمًّى ﴾ [٧١/٤] فـإن كانَ المُرَاد به تأخيرُهم عن الأَجَلِ المُقَدَّرِ لهم في الأَزَل فَهُوَ مُحَـالٌ؛ لقَوْلِهِ تعـالى(١) ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّـرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَـاءَ أَجَلُهَا ﴾ وقولِهِ تعـالى ﴿ إِنَّ أَجَـلَ اللَّهِ إِذَا جَـاءَ لا يُؤَخَّـرُ ﴾ [٧١/٤] وإن كانَ المُرَادُ بِهِ تأخيرُهم إلى مَجِيءِ الأَجَلِ المُقَـدَّرِ لَهُمْ في الأَزَلِ ، فما فائدةُ تخصيصِهِمْ بهذا، وهم وَغَيْرُهُمْ في ذٰلك سَـواءٌ، عـلىٰ تقـدير وُجـودِ الإيمـانِ مِنْهُمْ وَعَدَمِ وُجُودِهِ؟

قلنــا: معنـاه: ويؤخّـركم عن العـذاب إلىٰ منتهىٰ آجـالِكم ـ عـلىٰ تقدير الإيمـان ـ فلا يُعَذّبكم في الدُّنيـا كمـا عـذّب غيركم من الأُمم الكافـرة.

الثـاني: أنَّ اللَّه سبحـانه وتعـالى قضىٰ أَنَّهُمْ [إن] آمَنُـوا عَمَّرَهم أَلفَ سَنَـةٍ، وإن لم يؤمِنُوا أَهلكَهُمْ بالعَذَابِ لِتَمـامِ خَمْسِ مئةٍ، فقيـل لهم: آمِنْـوا يُؤَخِّرْكُمْ إلىٰ ذلـكَ الأَجَـلِ المُسَمَّـىٰ.

فَـإِنِ قيـل: كيف أمـرهم بالاستغفـار، والاستغفـارُ إنَّمـا يصحّ من المؤمن دونَ الكافـر؟

قلنــا: معنـاه: استغفِرُوا رَبَّكُم من الشِّرْكِ بالتَّـوْحيـد.

فـإن قيــل: كيف قـالَ تعـالىٰ ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتـاً ﴾ [٧١/١٧] والحيوانُ ضـدّ النَّبَـات، فكيف يطلق عـلىٰ الحيوان أَنَّـهُ نَبَـاتٌ؟

---

(١) المُنَافِقُون: ٦٣/١١.

قلنا: هو استعارةٌ للإنشاءِ والإخراج من الأَرض، بواسطة آدمَ عليه السَّلام.

فإن قيل: كيف دعا نوحُ عليه السَّلام على قَوْمِهِ بقوله ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ ضَلاَلاً﴾ [٢٤/٧١] مع أنَّه أُرْسِلَ إليهم ليهديَهُم ويُرْشِدَهم؟

قلنا: إنَّما دَعَا عَلَيْهِمْ بِذلِكَ بَعْدَما أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(٢).

فإن قيل: كيف قال ﴿وَلاَ يَلِدُ إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [٢٧/٧١] وَصَفَهُمْ بالفجورِ والكفرِ في حالِ ولادَتِهِمْ وهم أطفالٌ، وكيف علم أنَّهم لا يلدون إلاَّ مَنْ يَفْجُرُ ويكفُرُ إذا بَلَغَ.

[قلنا]: إنَّما علم ذلك بإعلامِ اللَّهِ سبحانَهُ وتَعَالى.

---

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَأُوحِيَ إلىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانوا يَفْعَلُون﴾ [هود ٣٦/١١]

سُــورَةُ الجِـنّ

فـإن قِيـلَ: كيف قـال تعـالى ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّـا قَـامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ [٧٢/١٩] وَلم يقـل سبحانه: «رسـول اللَّه» أو «نبيّ اللَّه» والمُرَاد به النبيّ عليه الصّـلاة والسَّـلام؟

قلنــا: لأَنَّـهُ عليه الصَّـلاة والسَّـلامُ لم يكن في ذلكَ المقـام مُـرْسَـلاً إليهم، بَل اتَّفَقَ مُرُورُهم به وجَوَازُهم عليه، فَلَوْ قال تعالى «رسُول الله» أو «نبيُّ اللَّهِ» لأَوْهَمَ ذلِكَ قَصْـدَ أَدَاءِ الـرِّسَـالة إليهم.

فـإن قيــل: كيف قـال تعـالى ﴿ قُلْ إِنْ أَدْري أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَـداً ﴾ [٧٢/٢٥] مع أنَّ الأَمـد اسمٌ للغـايةِ، والغـايةُ تكـونُ زمانـاً قريبـاً وزمـاناً بعيـداً، ويؤَيِّـدُهُ قوله تعـالى(١) ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَـداً بعيـداً ﴾؟

قلنــا: أَرادَ بالقـريب : الحـالَ ، وبَالمَجْعُولِ لَهُ الأَمَدُ: المُؤَجَّـلَ، سواءٌ أَكانَ الأَجَـلُ قَـرِيباً أم بعيـداً.

---

(١) آل عمـران: ٣/٣٠.

سُــورةُ المُزمِـل

فَـإِنْ قِيـلَ: مَا معنىٰ وَصفِ القـرآن بِالثِّقَـلِ في قَوْلِهِ تعـالى ﴿ إِنَّـا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيـلاً ﴾ [٧٣/٥]؟

قلنــا: فيه وُجـوهٌ؛ أَحَـدُها: أَنَّهُ كانَ يثقُلُ نزولُ الـوحي عـلىٰ النبيّ ﷺ، حتّىٰ يعـرق عَـرَقاً شـديداً في اليَوْم الشَّاتي(١).

الثَّـاني: أَنَّ العمـل بما فيه مِن التكاليف ثقيـلٌ شَاقّ.

الثَّـالث: أنَّهُ ثقيلٌ في الميزانِ يَوْمَ القيامة.

الـرّابع: أنَّهُ ثقيـلٌ عـلىٰ المُنَافِقِينَ.

الخـامس: أنَّـهُ كلامٌ لَهُ وَزْنٌ ورَجَحَانٌ(٢) كما يُقَالُ للـرَّجُلِ العـاقل: هـو رزينٌ راجح.

السَّـادس: أنَّـهُ لَيْسَ بِسَفْسَافٍ؛ لأنَّ السَّفْسَافَ مِنَ الكـلام يكـونُ خفيفـاً.

فَـإِن قِيلَ: كيفَ قَـال تعـالى: ﴿ السَّمَـاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ [٧٣/١٨] وَلم يقـل سبحـــانه «مُنْفَطِـرةٌ به» والسمـاءُ مُؤَنَّثَةٌ؟

قُلْنَــا: هـو عـلىٰ النَّسَـبِ، أي: ذاتُ انفطـار؛ وقيـل: ذَكَّـرَ السَّمـاءَ عَـلى معنىٰ السَّقْفِ؛ وقيــل: معنـاه: السَّمـاءُ شيءٌ مُنْفَطِـرٌ به، وقيـل: السَّمـاء تُذَكَّـرُ وتُؤَنَّث.

---

(١) في الموطّأ وغيره أنه عليـه السّلام سئل: كيف يأتيك الـوحي فقـال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجَرْسِ وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قـالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عـرقاً.

ينظـر القرطبي ٢٠/٣٩.

(٢) يقال: رُجْحَان ورَجَحَان.

فإن قيل: كيف قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، عَلِمَ أَن لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ [٧٣/ ٢٠] ولم يقل تعالى: «أَنْ لَنْ تُحْصُوهُمَا» أي: لن تعْرِفُوا تحقيقَ مَقَادير سَاعاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ؟

قلنا: الضَّمير عائدٌ إلى مَصْدَرِ يُقَدِّرُ، مَعْنَاهُ: لَنْ تُحْصُوا تَقْدِيرَهُمَا.

سورة المدثّر - عليه السلام -

فَإن قيل: ما فائدة قوله تعالىٰ: ﴿ غَيْرُ يَسِيْرٍ ﴾ [١٠/٧٤] بعد قوله سبحانه: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الكَافِرِينَ ﴾ [١٠/٧٤].

قلنا: قيل[١]: معناه أنه «عسير» لا يرجىٰ أن يرجع يسيراً كما يُرْجَىٰ تَيْسِيرُ العَسِير مِنْ أمورِ الدّنيا.

وقيل: إنَّه تأكيدٌ.

فإن قيل: ما فائدةُ التكرار في قولهِ تعالىٰ ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [٢٨/٧٤] ومعناهُمَا وَاحِدٌ؟

قلنا: معناه لا تُبْقِي للكفّار لحماً، ولا تذر لهم عظماً.

وقيل: معناه لا تبقيهم أحياءً، ولا تذرهم أمواتاً.

فإن قيل: كيفَ قالَ تعالى ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣١/٧٤] وما سبق مِنْ وَصْفِهم بالاستيقانِ وازديادِ الإيمانِ[٢] دَلَّ علىٰ انتفاءِ الارتيابِ. والجمل كُلُّهَا متعلِّقةٌ بعدد خَزَنَةِ النَّار؟

فالمعنىٰ: لِيَسْتَيْقِنَ الَّذين أُوتوا الكتابَ أَنَّ ما جاءَ بِهِ محمّدٌ عَلَيْه الصّلاة والسّلام حَقٌّ، حَيْثُ أَخْبَرَ عن عَدَدِ خَزَنَةِ النّار بمثل ما في التَّوراة، ويزداد الّذين آمنوا مِن أهلِ الكتابِ إيماناً بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام والقرآنِ، حيث وَجَدوا ما أخبرهم به مُطابقاً لما في كتابِهم.

---

(١) قاله الزمخشري في الكشاف ٤: ١٨١.

(٢) يعني قولَهُ تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلاَئِكَةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذينَ آمَنُوا إيماناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالمُؤْمِنُونَ... ﴾ [المدَّثِّر: ٣١/٧٤].

قلنــا: فَـائدتُه التَّأْكيـدُ، والتَّعـريضُ أيضـاً بحـالِ مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الشَّـاكِّين، وهم الكـافرون والمنافقون، فمعنـاه: وَلَا يرتاب هـؤلاء كما ارتابَ أُولئك.

فـإن قيــل: كيفَ قـال تعـالىٰ ﴿ مَـاذَا أَرادَ اللَّهُ بِهـذا مَثَـلاً ﴾ يعني حَصْـرَ عَـدَدِ الخزنـة في تسعةَ عَشَر، وليس ذلك بِمَثَـلٍ؟

قُلْنَـا: هـو استعارةٌ مِنَ المِثـالِ المضـروبِ مِمَّـا وَقع غريبـاً وبديعـاً في الكـلام، استغراباً منهم لِهـذا العَدَدِ، واستبعاداً له؛ والمعنى: أيُّ شيءٍ أرادَ اللَّهُ بهـذا العـدد العَجَبِ، وأيَّ حِكمـةٍ قَصَدَ في جَعْلِ الخـزنة تسعةَ عَشَرَ لَا عشرينَ؟

الثـاني: أنَّ المَثَلَ هنـا بمعنىٰ الصِّفَـة، كمـا في قوله تعـالى[٣]: ﴿ مَثَـلُ الجَنَّـةِ الَّتي وُعِـدَ المُتَّقُون ﴾ فالمعنى: مـاذا أراد اللَّه بهذا العـددِ صفـةً للخَزَنةِ.

فـإن قيــل: كيف طـابَقَ قولُهُ تعـالى ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [٢٦/٧٤] وهـو سؤالٌ للمجـرمينَ قولَهُ تعـالى ﴿ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ المُجْـرِمينَ ﴾ [٤٠/٧٤] وهـو سؤالٌ عنهم، وإنما المُطَابقُ الظاهِـرُ «يَسْأَلونَ المجـرمين: ماسلككم في سقر» أو «يَتَسَاءَلُـونَ عَنِ المجرمينَ ماسلكهم[٤] في سقر» أي يسأل أهـل الجنة بعضُهم بعضاً عن أهـل النار؟

قلنــا: قولـه تعـالىٰ ﴿ مَاسَلَكَكُمْ ﴾ ليس بياناً للتَّساؤل عنهم، وإنّما هـو حكايةُ قولِ المشركينَ عنِ المجرمينَ، فالمسؤولونَ من أهـل الجنّـة أَلْقَوْا إلى السَّائِلين مَا جَرَىٰ بينهم وبين المجرمين، وذلكَ أنَّ المؤمنينَ إذا أَخـرجَهُمُ اللَّه

(٣) الـرَّعـد: ٣٥/١٣.
(٤) في الأصلين: «ما سَلككم».

تعـالى مِن النَّارِ، بعـد ما عَذَّبَهُمْ بِقَـدَرِ ذُنوبِهم، وأدخلَهم الجنّةَ سَأَلَهُمْ بعضُ أصحـابِ اليمينِ عَنْ حـالِ المجـرمينَ وسَبَب تخليدِهم، فقـال المسؤولون: قلنا لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ في سَقَرَ﴾ الآية. وهٰؤلاءِ المؤمنون بعد إخراجهم من النّـار وإدخـالهم إلىٰ الجنّـة صـاروا أصحـابَ اليمين.

وقيــل: المـرادُ بأصحـاب اليمين الملائكـة.

وقيــل: الأطفـالُ لأنَّهم لا يرهبـون بذنوب، إذ لا ذنوبَ لهم.

سُورَةُ القِيَامَةِ

فإن قيل: ما معنىٰ قولِهِ تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [٧٥/١٨] والقارىءُ له علىٰ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام إنّما هو جبريلُ؟

قلنا: معناه فإذَا جمعناهُ في صَدْرِكَ؛ ويؤيِّدُهُ أَوَّلُ الآية ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [٧٥/١٩] أي: إنَّ علينا ضمَّه وجمعَهُ في صدرِك، فلا تَعْجَلْ بقراءَتِهِ قبلَ أَنْ يتمَّ حفظُه.

وقيل: إنَّما أُضِيفَتِ القراءَةُ إلىٰ اللَّهِ تَعالَى لأنَّ جبريلَ يقرؤُهُ بأمرِهِ، كما تُضَافُ الأفعالُ إلى المُلوكِ وَالأُمَرَاءِ بِمُجَرَّدِ الأَمْرِ مع أنّ المباشِرَ لَهَا أَعْوَانُهُم وأتباعُهُم.

فإن قيل: كيف قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [٧٥/٢٢ - ٢٣] والَّذي يوصَف بالنَّظرِ - الّذي هُوَ الإبصارُ وَالإدراكُ - إنَّما هوَ العَيْنُ دُونَ الوَجْهِ؟

قلنا: قيل إنَّ المرادَ بالوجوهِ هنا السُّعَدَاءُ وَأَهْلُ الوَجَاهَةِ يومَ القيامةِ، لا الوَجْهُ الَّذي هُو العُضْوُ، وَلَا أَرَىٰ هٰذا الجَوَابَ مُطابقاً لِقَوْلِهِ تعالى ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [٧٥/٢٤] لِأَنَّ العُبُوسَ وَالقُطوبَ إِنَّما يُوصَفُ بِهِ الوَجْهُ الَّذي هو العُضْوُ.

وَمِمَّا يؤيِّدُ هٰذا - أنَّ المرادَ بقولِهِ تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ الأَعْضَاءُ المَعْروفَةُ - قولُهُ تعالىٰ[١]: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾.

فإن قيل: النُّطْفَةُ المَنِيُّ، فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ تعالىٰ ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [٧٥/٣٧]؟

---

(١) المطفّفين: ٨٣/٢٤.

قلنــا: النُّطفـة اسْتُعْمِلَتْ هُنَا بمعنىٰ القَطْـرَةِ؛ لأنَّ النُّطْفَةَ تُطْلَقُ عـلىٰ المـاءِ القليـلِ والكثير، ومنـه الحَدِيثُ[٢]: «حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكبُ بَـيْنَ النُّـطْفَتَيْنِ لا يَخْشىٰ جَـوْراً» أرادَ بَحْـرَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ.

---

(٢) لَمْ يَرد في الكتب السّتّة، ووَرَدَ في البخاري (٨: ٥٦): «. . . وَاللّهِ لَيَتِمَّنَّ هـذا الأَمْرُ حتّىٰ يسيرَ الـرَّاكِبُ مِن صنعـاءَ إلىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا يخافُ إلاَّ اللّهِ والـذِّئبَ عـلىٰ غَنِمه، ولكنّكم تستعجِلُون». (طبعة دار الفكـر المصورة عن طبعة استانبول).

سُورَةُ الانْسَان

فإن قيل: كيف قال تعالى[1]: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ [٢/٧٦] فوصف المفردَ وهو «النُّطفة» بالجمع وهو «الأَمشاج»، لأنه جمع «مَشْجٍ»، والأَمْتِشَاجُ: الاختلاط، والمرادُ أنَّه مخلوقٌ مِن نطفةٍ مختلطةٍمِن ماءِ الرَّجُلِ وَالمرأةِ؟

قلنا: قالَ الزَّمَخشريّ[2]: «أَمْشَاج» لفظٌ مُفْرَدٌ لا جَمْعٌ، كقولهم: بُرمَةٌ أعشارٌ، وثَوْبٌ أَكبَاش[3]، وبُرْدٌ أهدامٌ[4]، وقال غيره: الموصوف به أجزاء النطفة وأبعاضها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿نَّبْتَلِيْهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيْعاً بَصِيراً﴾ [٢/٧٦] والابتلاء متأخّرٌ عن جعله سميعاً بصيراً؟

قلنا: قال الفَرّاء[5]: فيه تقديمٌ وتأخير؛ تقديره فجعلناهُ سميعاً بصيراً لِنَبْتَلِيه.

وقال غيرُه: معناه: ناقلين له من حالٍ إلى حالٍ: نُطفة ثم عَلَقة، ثم مُضغة، فسمّي ذلك ابتلاءً؛ استعارةً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قَوَارِيْرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ [١٥/٧٦] والقواريرُ اسمٌ لِمَا يُتّخذ من الزّجاج؟

قلنا: معناه أنّ تلك الأكواب مخلوقةٌ من فضّة وهي مع بياضِ الفضّة وحُسنها في صفاءِ القوارير وشَفيفها.

---

(١) من قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ...﴾.
(٢) الكشّاف ٤: ١٩٤
(٣) بُرْمَةٌ أعشار وثوبٌ أكباش: مِن برود اليمن.
(٤) في القاموس واللسان: الهِدْم: الثوب البالي، أو المرقّع؛ قال الفيروز آبادي: أو هو خاصّ بكساء الصُّوف، والجمع أهدام وهِدام.
(٥) معاني القرآن ٣: ٢١٤.

قال ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: لو ضَرَبْتَ فضة الدنيا حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم يُرَ الماء من وَرائها، وقواريرُ الجنّة من فضّة، ويُرىٰ ما فيها من ورائها.

فإنْ قيل: ما معنىٰ قوله تعالى: ﴿كَانَتْ قَوَارِيْرا﴾ [١٥/٧٥]؟

قلنا: معناه تكوّنت، فهو من قوله تعالى[٦]: ﴿كُنْ فَيَكُونْ﴾؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُها كافوراً﴾ [٥/٧٦].

فإن قيل: كيف شبّه تعالى الولدان باللُّؤلُؤ المَنْثُور[٧] دون المنظوم؟

قلنا: إنّما شبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور، لأنّه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذي لم يُثقب بعد؛ لأنه إذا ثقب نقصت مائيّتُهُ وصَفاؤه، واللؤلؤ الذي لم يُثقب لا يكون إلا منثوراً.

وقيل: إنّما شبّههم تعالى باللؤلؤ المنثور لأن اللؤلؤ المنثور على البساط أحسُن منظراً من المنظوم.

وقيل: إنّما شبههم سبحانه باللّؤلؤ المنثور لانتشارهم وانبثاثِهمْ في محاسنهم ومَنازلهم، وتقدّمهم في الخِدمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَطوف عليهم﴾ [١٩/٧٦] ولو كانوا وقوفاً صفّاً لَشُبِّهُوا بالمنظوم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [٢١/٧٦] مع أنّ ذٰلك في الدُّنيا إنّما هو عادةُ الإماء، ومَنْ في مرتبتهن؟

قلنا: القُرآن: أوّلُ مَن خُوطَب بهِ العرب، وكان من عادةِ رجالهم ونسائهم مِن بيت المملكة التحلّي بالذهب والفضّة منفردين ومجتمعين.

---

(٦) الأنعام: ٧٣/٦

(٧) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَيَطُوْفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُوْنَ إذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ [الإنسان ١٩/٧٦].

الثّاني: أن الاسم وإن كان مُشتركاً بين فضّة الدنيا والآخرة، ولكنْ شتّان ما بينهما، قال النبي ﷺ المِثقال[٨] من فضّة الآخرة خيرٌ من الدنيا وما فيها. وكذا الكلام في السُّندس والإستبرق وغيرهما مما وَعده الله تعالى في الجَنّة.

فإن قيل: أيُّ شَرف لتلك ـ بسقي الله تعالى عباده الشراب الطّهور فيها ـ مع أنّه في الدُّنيا سقاهم ذلك، بدليل قوله تعالى[٩]: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُراتاً﴾ وقوله تعالى[١٠]: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماء ماءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾.

قلنا: المُراد به في الآخرة سَقيهم بغير واسطة وشتّان بين الشّرابين، والآنيتين ـ أيضاً ـ.

فإن قيل: قولُه تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أو كَفُوْراً﴾ [٧٦/٢٤] الضّمير لِمُشركي مكّة بلا خلاف، فمَا معنىٰ تقسيمهم إلى الآثم والكَفُور، وكُلّهم آثِمٌ، وكلّهم كَفُورٌ؟

قلنا: المراد بالآثم عُتبة بن ربيعة، فإنه كان ركّاباً للمآثم، ثم مُتَعاطياً لأنواع الفسوق.

والمراد بالكَفُور الوليد بن المُغيرة، فإنه كان غالياً في الكُفر، شديد الشكيمة مع أن كليهما كافرٌ وآثم. والمراد به نَهْيُه عن طَاعَتِهم فيما كانُوا عليه من الكفر والضّلال.

فإن قيل: ما معنى النّهي عن طاعَةِ أحدهما[١١]، وهَلاّ نهىٰ عن طاعتهما؟

---

(٨) المثقال: مقدار من الوزن أيِّ شَيْءٍ كان من قليل أو كثير.
(٩) المرسلات: ٧٧/٢٧
(١٠) الحجر: ١٥/٢٢.
(١١) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثماً أو كَفُوراً﴾ [٧٦/٢٤].

قلنا: قال بعضُهم إن «أو» هنا بمعنى الواو كما في قوله تعالى(١٢): ﴿أوِ الحَوَايا﴾.

الثّاني: أنه لو قال تعالى: «ولا تطعهما» لجاز أن يطيع أحدهما، وأما إذا قيل: ولا تطع أحدهما كان مَنْهِياً عن طاعتهما بالضَّرورة.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [٢٨/٧٦] أي خَلْقهم، وقال تعالى في موضع آخر(١٣): ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيْفاً﴾؟

قلنا: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما والأكثرون: المراد به أنّه ضعيف عن الصّبر عن النساء، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأَمة كما سبق قبل هذه الآية.

وقال الزجّاج: معناه أنه يغلبُه هَواه وشهوته، فلذلك وُصِف بالضّعف.

وأما قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُم﴾ [٢٨/٧٦] فمعناه: ربطنا أوصالَهم بعضَها إلى بعض بالعروق والأعصاب؛ وقيل: المراد بالأَسْرِ العُصْعُصُ، فإنَّ الإنسانَ فِي القبر يصيرُ رُفاتاً إلّا عُصْعُصَهُ، فإنَّه لا يتَفَتَّت(١٤)؛ وقال مُجَاهِد: المراد بالأَسر مَخْرَجُ البَوْلِ والغَائط، فإنَّه يَسْتَرخي حتّى يخرج منه الأَذى، ثمّ ينقبض ويجتمع ويشتدّ بقدرة الله تعالى.

---

(١٢) الأنعام: ١٤٦/٦

(١٣) النساء: ٢٨/٤

(١٤) إشارة إلى قول رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابنِ آدَمَ تأْكُلُهُ الأَرضُ إلاَّ عُجْبَ الذَّنَبِ، فإنَّهُ مِنْهُ خُلِقَ ومنه يُرَكَّبُ» (مسند الإمام أحمد ٢: ٣٢٢).

سُوْرَةُ المُرْسَلاَت

فإن قيل: قولُهُ تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُوْنَ﴾ [٣٥/٧٧] ينفي وجودَ الاعتذار عنهم، لأنَّ الاعتذار إنَّما يكونُ بالنُّطقِ، فما فائدةُ نفي الاعتذارِ بَعْدَ نَفْيِ النُّطْقِ[١]؟

قلنا: معناه أنَّهم لا ينطِقونَ ابتداءً بعُذْرٍ مقبولٍ وحُجَّةٍ صحيحةٍ، ولا بعدَ أن يُؤْذَنَ لهم في ذلك، فإنَّ الأسيرَ والجانيَ الخائفَ قد لا ينطقُ لسانُهُ بعُذْرِهِ وحُجَّتِهِ ابتداءً لِفَرْطِ خَوْفِهِ وَدَهَشِهِ، ولكنْ إذا أُذِنَ له في إظهارِ عُذرِهِ وحُجَّتِهِ انْبَسَطَ فَانْطَلَقَ لِسَانُه؛ فكانت الفائدةُ في الآية الثَّانية نفيَ هذا المعنى؛ أي: لا ينطِقونَ بِعُذْرٍ ابتداءً، ولا بَعْدَ الإِذْنِ.

فإن قيل: قوله تعالى[٢]: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِيْنَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يَدُلُّ على وُجُودِ الاعتذار منهم، فكيف التوفيق بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا نَحْنُ فِيه؟

قلنا: قيل: المُرَادُ بتلك الآية الظالمونَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ.

ومَا نَحْنُ فيه: الكافرون. وآخِرُ تلك الآية[٣] يُضْعِفُ هذا الجَوَاب[٤].

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُم فَيَعتَذِرُونَ﴾ [٣٦/٧٧].

(٢) غافر: ٥٢/٤٠

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢/٤٠].

(٤) قال أبو حيّان في البحر المحيط (٧: ٤٧٠): يُحتمل أنّهم يعتذرون ولا تُقبل معذرتهم أو أنّهم لا معذرة لهم فَتُقبلَ.
وَيُنظر التفاسير المطولة وغيرها، مثل القرطبي، والبحر المحيط، والكشّاف، ويقارن بما قاله القاضي عبد الجبار في تفسير سورة التحريم في: **متشابه القرآن** (٢: ٦٥٩) عند قوله تعالى: ﴿يَا أيها الذين كَفَرُوا لا تعتذِرُوا اليوم إنّما تجزُون ما كنتُمْ تعمَلُون﴾ وكتاب: **تنزيه القرآن عن المطاعن:** في تفسير الآية المذكورة.

سُورَةُ النبأ

فإن قيل: كيف اتَّصل وارتبطَ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾ [٦/٧٨] بما قَبْلَه؟

قلنا: لمّا كان النَّبأُ العظِيم الذي يتَساءلون عنه هو البعث والنُّشور، وكانوا ينكرونه قيل لهم: ألم يَخلُق مَن وَعَد بالبعث والنشور هذه المخلوقات العظِيمة العجيبة الدالّة على كمال قُدرته، فما وجهُ إنكارهم على البعث؟

فإن قيل: لو كان النّبأ العظيم الذي يتساءلون عنه ما ذكرتم لما قال: ﴿الَّذِي هُمْ فِيْهِ مُخْتَلِفُوْنَ﴾ [٣/٧٨] لأنّ كفّار مكّة لم يختلفوا في أمر البعث بل اتفقُوا على إنكاره.

قلنا: كان فيهم مَن يقطع القَول بإنكاره، وفيهم مَنْ يَشُكُّ فيه ويتردَّد، فثبَتَ الاختلاف؛ لأنَّ جهة الاختلاف لا تَنحَصر في الجزم بإثباته والجزم بنفيه.

الثّاني: أنَّ بعضهم صَدَّق به فآمن، وبعضهم كذَّب به فبقي على كُفره؛ فثبت الاختلافُ بالإثبات والنَّفي.

الثالث: أنّ الضَّمير في «يَتَسَاءَلُوْنَ» وفي «هُمْ» عائدٌ إلى الفريقين من المُسلمين والمشركين؛ وكلُّهم كانوا يتَساءلون عنه لعِظَمِ شَأنه عندهم. فصدَّق به المُسلمون وأثبتُوه، وكذّب به المشركون ونَفَوْه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّه مَآباً﴾ [٣٩/٧٨] إن كان قولُه: «اتَّخذ إلى ربّه مآباً» جزاء الشرط و«شاء» وحده لا يصلحُ

شرطاً لأنّه لا يفيد بدون ذِكر مفعوله: وإن كان كلّ المذكور هو الشّرط فأين الجَزَاء؟

قلنا: معناه: فَمَن شاء النَّجاة من اليوم الموصوف اتّخذ إلى ربّه مرجعاً بطاعة.

الثاني: أن معناه: فمن شاء أن يتّخذ إلى ربّه مآباً؛ كقوله تعالى[١]: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي فمن شاء الإيمان فليؤمن ومن شاء الكفر فليكفُر.

(١) الكهف: ٢٩/١٨

سُورَةُ النّازِعَات

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ [١/٧٩]، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ [٢/٧٩] بلفظ التّأنيث، وكذا ما بعده، والكُلُّ أوصاف الملائكة، والملائكة ليسوا إناثاً؟

قلنا: هو قَسمٌ بطوائف الملائكة وفرقها. والطوائف والفِرَقُ مؤنّثة.

فإن قيل: أضاف الأبصار إلى القُلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوْبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [٧٩/٨-٩] أي: ذليلةٌ لِمُعايَنة العَذاب؛ والمراد بها الأَعْيُن بلا خلاف.

قلنا: المراد: أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى: ﴿يَقُوْلُوْنَ﴾ [١٠/٧٩].

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَأَراهُ الآيةَ الكُبْرىٰ﴾ [٢٠/٧٩] مع أنَّ موسى عليه السلام أراه الآياتِ بدليل قوله تعالى[١]: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وأَبىٰ﴾ وكل آية كانت كُبْرى؟

قلنا: الإخبار في هذه الآية عن أوّل خلافاته[٢]: العَصَا واليَد، فانطلق عليهما: الآية الكبرى لاتّحاد معناهما.

وقيل: أراد بالآية الكبرى: العَصَا لأنّها كانت المُقدّمة والأصل، والأُخْرَىٰ كانت كالتّبع لها لأنه كان يبقيها بيده، فقيل له: أَدخلْ يدك في جَيبك.

---

(١) طه: ٥٦/٢٠

(٢) الكلام في الموضعين على طُغيان فرعون وكُفره.

فَإِنْ قيل: كيف أضاف الليل إلى السَّماء بقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [٢٩/٧٩] مع أَنَّ الليل إنما يكونُ في الأرض لا في السَّماء؟

قلنا: إنَّما أضافه إليها لأنه أوّلُ ما يظهر عند غروب الشمس إنّما يظهر من أُفق السَّماء من موضع الغروب.

وأما قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [٢٩/٧٩] فالمُراد بِهِ ضوءُ الشمس بدليل قوله تعالى(٣): ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي ضوئها، فلا إشكال في إضافته إليها.

---

(٣) الشمس: ١/٩١

سُورَةُ عَبَس

فإن قيل: كيف قال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَة﴾ [٨٠/١١] ثم قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [٨٠/١٢] ولم يقل: ذكرها؟

قلنا: الضَّمير المؤنّث لآياتِ القُرآن أو لهذه السُّورة. والضَّمير في قوله: «ذَكَرَهُ» راجعٌ إلى القُرآن.

وقيل: إنه راجعٌ إلى معنى التذكرة، وهو الوعظ والتّذكير لا إلى لفظها.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [٨٠/٣١] روي أن عمر رضي الله عنه قرأ هذه الآية وقال: كلّ هذا قد عرفناه، فمَا الأَبُّ؟ ثم قال: هذا لعَمْرُ الله التَّكلُّف، وما عليك يا عُمَر ألا تدري ما الأَبُّ !ثم قال: اتّبعوا ما تَبَيَّنَ لَكم من هذا الكتاب وما لا فدَعوه.

وهذا يُشبه النّهي عن تتبُّع معاني القُرآن والبحث عن مُشكلاته.

قلنا: لم يُرِدْ بقوله ما ذكرت! ولكنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم كانت أكثر هممهم عاكفةً على العَمل. وكان الاشتغالُ بعلمٍ لا يُعمل به تَكلُّفاً عندهم. فأراد أن الآية مَسُوقَةٌ في الامتنان على الإنسان بِمَطعمه واستدعاء شكره.

وقد عُلِمَ من فَحوى الآية أنّ الأَبَّ بعض ما أنبته الله تعالى للإنسان مَتاعاً له ولأنعامه. وكأنَّه قال: عليكَ بما هو أهمُّ: وهو الشّكر على ما تَبَيَّن لك، ولم يُستكمل مِمّا عَدَّد من نعمه؛ ولا تتشاغَلْ عنه بطلب مَعْنىٰ الأَبِّ ومَعرفة النّباتِ الخَاصّ؛ أو اكْتَفِ بمعرفته جُمْلَةً إلى أنْ يَتبيّن لك في وقتٍ آخر.

وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنَّه سُئل عن الأَبِّ فقال أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أَرْضٍ تُقِلُّني إذن إذا قُلْتُ في كتاب الله تعالى بما لا عِلْمَ لي بهِ.

وأكثر المفسّرين قالوا: كُلّ ما تَرْعَاه البَهائم[1].

(١) ويُنظر القرطبي: ٢٢٣/١٩. وفيه كلمة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

سُوْرَةُ التكْوِير

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِذَا المَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [٨/٨١ ـ ٩] والسُّؤال إنّما يَحْسُنُ من القاتِل لا من المقْتُول؟

قلنا: سُؤالها لتبكيتِ قاتلها وتوبيخه بما تقولُ من الجَواب. وإنّما تقول: «قُتِلتُ بغير ذَنْبٍ»!

ونظيرهُ في التَّبكيت والتَّوبيخ قوله تعالى لعيسى عليه السَّلام[١]: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُوْنِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْ أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

فإن قيل: كيفَ قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [١٤/٨١] يوم القيامة؛ أَثْبَتَ العِلْمَ لنفسٍ واحدةٍ مع أنّ كُلَّ نفسٍ تعلم ما أحْضَرت يوم القيامة بدليل قولهِ تعالى[٢]: ﴿يَوْمَ تجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَراً﴾؟

قلنا: هذا ممّا أُريد به عكسُ مدلولهِ[٣].

ومثلُهُ كثيرٌ في كلام الله وكلام العَرب، كقوله تعالى[٤]: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ﴾ فإنَّ (رُبَّ) هنا بمعنى (كم) للتكثير. وقوله تعالى حكايةً عن موسى عليه السلام لقومِه[٥]: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُوْنَ أَنّي رَسُوْلُ الله إِلَيْكُمْ﴾ وقوله[٦]:

قد أترك القِرْنَ مُصْفَرّاً أَنَامِلُهُ   كأنّ أثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفرصادِ!

---

(١) المائدة: ١١٦/٥؛ والتوبيخ والتبكيت والتكذيب واقع على من ادَّعى ذلك؛ وقيل قُصد بهذا السّؤال تعريفه أن قومه غيّروا بعده وادّعوا عليه ما لم يقله.

(٢) آل عمران: ٣٠/٣

(٣) وقيل: المعنى: علمت كلّ نفس.

(٤) الحجر: ٢/١٥

(٥) الصف: ٥/٦١

(٦) الفِرصاد: التُّوت؛ شبّه الشاعر الدم بعصارته الحَمْراء. ومعنى مُجّت أي صُبغت. والقِرْن: المثيل المكافىء في الشجاعة.

ـ والبيت من قصيدة لعبيد بن الأبرص (ديوانه: ٤٩)؛ وتنظر حاشية التحقيق ثمّة.

سُورَةُ الانْفِطَار

فإن قيل: لأيّ فائدة ذكَرَ صِفَةَ الكَرَمِ دون سائر صِفَاتِه في قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾[٨٢/٦ - ٧]؟

قلنا: قال بعضُ العلماء: إنّما قال ذلكَ لُطفاً بعبده، وتلقيناً لَهُ حجّته وعُذره؛ يُقال: غرَّني كَرمُ الكريم.

وقال الفُضَيْل(١) لو سَأَلني الله تعالى هذا السُّؤال لقُلت: غَرَّني سُتورك المُرْخاة.

ورُوِيَ أَنَّ علِيّاً رضي الله عنه صاح بغلامٍ له مَرّاتٍ فلم يلبّه، ثم أَقبَلَ فقال: ما لك لم تُجِبْني؟ فقال: لِثقتي بحِلمك، وأَمنِي من عُقوبتك، فاستحْسَنَ جوابه وأَعْتَقَه(٢). ولهذا قالوا: من كرمِ الرَّجلِ سوءُ أَدَبِ غلمانه!

والحقُّ أَنّ الواجب على الإنسان ألاّ يغتَرّ بكرم اللّه تعالى وجودِه في خلقه إيّاه وإسباغه النّعمةَ الظاهرة والباطنة عليه فيعصيه ويكفر نعمه اغتراراً بتفضّله الأول؛ فإنّ ذَلكَ أَمرٌ منكر خارجٌ عن حَدّ الحكمة. ولهذا قال رسول الله ﷺ لمَّا قرأها: غَرّه جَهْلُه(٣). وقال عمر رضي الله عنه: غَرَّهُ حُمْقُهُ وَجَهْلُهُ.

وقال الحسن: غرّه - والله - شيطانُه الخبيث الذي زَيّن له المَعاصي، وقال له: افْعَلْ ما شئت فإنَّ ربَّكَ كريم!

---

(١) هو الفضيل بن عياض؛
وكلامه هذا في القرطبي ١٩/٢٤٥ - ٢٤٦

(٢) القرطبي: ١٩/٢٤٦

(٣) في القرطبي: ١٩/٢٤٥

فـإن قيل: كيـف قـال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾ [١٩/٨٢] والنُّـفوس تـملك الشَّفاعـة لمن شُفِّعـت، فقـد مـلكتْ شيئاً وهـو الشفاعـة؟

قلنـا: المنفيُّ ثبوتُ النُّصـرة بالمُـلك والسُّلطنـة؛ والشَّفاعـة ليـست بـطريق المـلك والسلطنـة، فلا تَدْخُـل في النّـفي؛ ويؤيِّـدُه قـوله تعـالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [١٩/٨٢].

وقـال مُقـاتل: المُـراد بالنَّـفس الثَّـانية: الكافِـرة؛ والأَصحّ أنّـه عـلى العُـموم في النَّفـسين.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

فإن قيل: فَهلّا قال: وإذا اكتالوا على النّاس [أو اتَّزنوا] يستوفون كما قال في مُقابِله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [٣/٨٣]؟

قلنا: لأنّ المطفّفين كانت عادتهم أنّهم لا يأخذونَ ما يُكَالُ ولا ما يُوزن إلّا بالمكيال؛ لأنّ استيفاء الزيادة بالمكيال كان أمكن لهم، وأهونَ عليهم منه بالميزان؛ وإذا أعطوا كالُوا أو وزنوا لتمكّنهم من البَخْسِ فيها.

فإن قيل: كيف فَسّر سِجّيناً بكتابٍ مرقوم فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّيْنٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [٨/٨٣ - ٩]. وكذا فسّر ﴿عِلّيين﴾ [١٨/٨٣] بهِ مَعَ أَن سِجّيناً اسمُ الأرضَ السَّابعة؛ أو هو فِعِّيل من السّجن، و «عِلّيين» اسمٌ للجَنّة، أو لأعلى الأمكنة، أو للسَّماء السّابعة، أو لسدرة المُنتهى.

قلنا: قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ وَصْفٌ لِكتاب الفُجّار ولِكتاب الأَبرار لا لِسِجّين وعِلّيين؛ تقديره: وهو كتابٌ مَرْقُوم.

سُوْرَةُ الانْشِقَاق

فإن قيل: أين جوابُ (إذا) في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [٨٤/١]؟

قلنا: فيه وجوهٌ:

أحدها: أنّه متروكٌ؛ لتكرّر مِثله في القرآن.

الثاني: أنه: ﴿أَذِنَت﴾ [٨٤/٥] الثّانية؛ والواو فيها زائدة.

الثالث: أنه محذوفٌ، تقديره بعد قوله: ﴿وَحُقَّتْ﴾: بُعِثتم أو جُوزيتم أو لاقيتم ما عملتم، ودلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿فَمُلَاقِيْهِ﴾ [٨٤/٦].

الرّابع: أنَّ فيه تقديماً وتأخيراً، تقديره: «يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى رَبك كَدحاً فملاقيهِ إذا السَّماءُ انشقت».

سُوْرَةُ البُرُوج

فإن قيل: أين جَوَابُ القَسم: ﴿وَالسَّماءِ ذَاتِ البُرُوْجِ﴾ [١/٨٥]؟

قلنا: فيه وجوهٌ؛

أحدها: أنه مَتْرُوكٌ.

الثاني: أنّه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُوْدِ﴾ [٤/٨٥] أي لُعِنَ.

الثالث: أنّه قوله تَعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْدٌ﴾ [١٢/٨٥].

الرَّابع: أنه محذوفٌ، تقديره: لَتُبْعَثُنَّ، أو نحوه.

الخامس: أنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ فَتَنُوا المُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوْبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيْقِ﴾ [١٠/٨٥].

سُورَةُ الطّارِق

فـإن قيل: أين جَـواب القـسم في قـوله تعـالى: ﴿وَالسَّمـاءِ والطَّارِقِ﴾ [٨٦/١]؟.

قلنـا: ﴿إِنْ كُـلُّ نَفْسٍ لَمَّـا عَلَيْهَـا حَـافِظٌ﴾ [٨٦/٤]؛ فـإنّ (لمّـا) بالتّشـديد بمعنى (إلّا) فـيكون المعنى: مـا كُلُّ نفسٍ إلا عليهـا حـافظ.

و (لَمَا) بالتّخـفيف؛ «مـا» فيه زائـدة، و «إن» هـي المخـفّفة من الثقيلة، فـيكون المعنى: إنْ كـل نفسٍ لعليهـا حـافظ. والقَسمُ يُتَلَقّـى بـ «مـا» و بـ «إن».

فـإن قيل: مـا وجـهُ ارتبـاط قـوله تعـالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [٨٦/٥] بـما قـبله؟

قـلنا: وجـهُهُ أنّـه لـما ذكر أنّ عـلى كـل نفسٍ حـافظاً أتبعـه بوصيّة الإنسـان بالنّـظر في أوّل أمـره، ونشـأته الأُولى ليعـلم أنّـه مِن إنشـاء قـادر على إعـادته ومُجـازاته، فيعـمل ليـوم الإعـادة والجـزاء، فـلا يُمِلّ عـلى حـافِظه إلّا مـا يسرّه في عاقـبته.

فـإن قيل: مـا فـائدة الجـمع بين ﴿مَهِّـلْ﴾ و ﴿أَمْهِـلْ﴾ [٨٦/١٧] ومعناهـما واحـد؟

قلنـا: التأكيدُ، وإنّـما خُولِفَ[١] بيـن اللّفـظين طلباً للخِفّـة.

---

(١) في (ب) :خـالف.

سُورَةُ الاعْلَى

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ﴾ [٩/٨٧] مع أنه كان مأموراً بالذّكرى نَفعت أو لم تنفع؟

قلنا: معناه: إن نفعت؛

وقيل: معناه: قد نفعت.

وقيل: معناه: إن نفعت وإن لم تنفع؛ فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه. وذكر الماوردي أنّها بمعنى (ما) وكأنه أراد (ما) الظّرفيّة و(إنْ) بمعنى (ما) الظّرفية ليس بمعروف[1].

فإن قيل: كيف قال: ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيْهَا وَلَا يَحْيىٰ﴾ [١٣/٨٧] مع أنّ الحيوان لا يخلو عن الاتّصاف بأحد هٰذين الوصفين؟

قلنا: معناه: لا يموتُ موتاً يستريحُ به ولا يحيا حَياةً ينتفع بها[2]. وقال ابن جَرِير: تصعد نفسه إلى حلقومه ثم لا تفارقه فيموت ولا ترجع إلى موضعها من الجِسم فيحيا.

---

(١) في القرطبي: ٢٠/٢٠ أنه قاله ابن شجرة.

(٢) وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ألا ما لنفسٍ لا تموتُ فيَنْقضي عَناها ولا تحيا حياةً لها طعمُ

سُورَةُ الغَاشِيَة

فإن قيل: كيف قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ [٨٨/٢، ٣، ٤] مع أنّ جميع أبدانهم أيضاً تصلى النّار؟

قلنا: «الوَجْهُ» يُطلق ويراد به البَدن؛ كما في قوله تعالى(١): ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ﴾.

وقيل: المراد بالوجوه هنا الأعيان والرؤساء، كما يقال: «هؤلاء وجوه القوم»، و«يا وجه العرب» أي يا وجيههم. ويؤيّد هذا القول ما روي عن ابن عَبّاس رضي الله عنه أنه قال: المراد به الرُّهبان وأصحاب الصَّوامع.

فإن قيل: كيف يرتبط قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرونَ إِلى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [٨٨/١٧] بما قبله، وأيّ مناسبة بين السَّماء والأرضِ والجبال والإبل حتى جمع بينها؟

قلنا: لَمَّا وصف الله الجنّة بما وصفَ عجب من ذلك الكفّار فذكّرهم غرائب صُنعه.

وقال قتادة: لما ذكر ارتفاع سرر الجنّة(٢) قالوا: كيف نصعدها؟ فنزلت هذه الآية، والمعنى: أفلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار: كيفَ خُلِقَت للنُّهوض بالأثقال وحملها إلى البلاد البعيدة، وجُعلت تبرك حتى تحمل وتُركب عن قربٍ ويُسر ثمّ تنهض بما حملت. فليس في الدوابّ ما يُحمل عليه وهو باركٌ ويطيق النّهوض إلا الإبل(٣)، وسخّرت لكلّ من

---

(١) طه: ٢٠/١١١

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [٨٨/١٣].

(٣) في (أ): إلاّ هي.

قادها حتى الصبيّ الصَّغير. ولمّا جُعلت سفائنَ البَرّ أُعطيت الصَّبر على احتمال العَطش عشرة أيّام فصاعداً، وجعلت ترعى كل نباتٍ في البراري والمفاوز ممّا لا يرعاه سائر البهائم. وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركدن(٤) وغيرها ممّا هو أعظم من الجمل؛ لأنّ العرب لم يروا شيئاً من ذلك ولا كانُوا يعرفونه، ولأنَّ الإبل كانت أنفسَ أموالهم وأكثرها: لا تفارقهم ولا يفارقونها. وإنّما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء في أُوديتهم وبواديهم؛ فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم، وكثرة مُلابستهم ومُخالطتهم.

ومن فَسّر الإبلِ بالسَّحاب فإنّما قصد بذلك طلب المُنَاسبة بطريق شَبَهِ الإبل بالسّحاب في السَّير وفي الشكل أيضاً في بعض الأوقات، لأنّه أراد أن الإبل من أسماء السَّحاب حقيقة. وقد جاء في أشعار العرب تشبيه السَّحاب بالإبل كثيراً، وقد شبّهها ابن دريد أيضاً بالسَّحاب في قصيدته(٥).

وقرأ أُبيّ بن كعب وعائشة رضي الله عنها بتشديد اللاّم(٦).

قال أبو عمرو، وهو اسمٌ للسَّحابِ الذي يحملُ الماء.

---

(٤) في (أ) والكركند.

(٥) إذا كان المقصود من قصيدة ابن دريد مقصورته، فإن فيها تشبيهاً للسَّحاب بالإبل ومنه قوله (ديوانه: ١٢٨):

إذا ونت رعودُه حَدَا بها ... حادي الجنوب فَحَدَتْ كما حَدَا
كأنّ في أحضانه وبَرْكه ... بَرْكاً تداعى بَيْنَ سَجْرٍ ووَحى!

(٦) في معجم القراءات القرآنية (٨: ١٣١) «الإبِلّ» قراءة لأبي عمرو، والكسائي وأبي جعفر؛ وعلي وابن عباس (رضي الله عنهما)، ونقل عن مختصر ابن خالويه الإبلّ بتشديد اللام عن أبي عمرو، وقال مَنْ قرأ بالتشديد أراد السحاب.

ـ وقال في البحر المحيط (٨/٤٦٤): قرأ الجمهور (الإبل) بكسر الباء وتخفيف اللاّم، والأصمعي عن أبي عمرو بإسكان الباء (الإبْل)، وعليّ وابن عبّاس بشدّ اللام. ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي، وقالوا إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة.

سُورَةُ الفَجْرِ

فإن قيل: كيف نكّر اللّيالي العشر[1] دون سائر ما أقسم به، وهلاّ عرّفها بلام العهد؛ وهي ليالٍ معلومةٌ معهودةٌ، فإنها عشر ذي الحجّة في رأي الجمهور[2]؟

قلنا: لأنها مخصوصةٌ من بين جِنس اللّيالي العَشر بفضيلةٍ ليست لغيرها، فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس. وإنّما لم تعرّف بلام العهد لأنَّ التنكير أدلّ على التفخيم والتعظيم؛ بدليل قوله تعالى[3]: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحِدٌ﴾. ونظيره قوله تعالى[4]: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ فعرّفه ثم قال[5]: ﴿وَوَالِدٍ﴾ فَنكّره؛ والمُراد به آدمُ وإبراهيم، أو محمّد عليهم السَّلام، ولأنَّ الأَحْسَنَ أن تكون اللامات كلّها متجانسة ليكون الكلام أبعد عن الإلغاز والتعمية؛ وهي في الباقي للجنس.

فإن قيل: كيف ذمّ الله تعالى الإنسان على قوله: ﴿رَبِّيْ أَكْرَمَنِ﴾ [١٥/٩٠] مع أنه صادقٌ فيما قاله: لأن الله تعالى أكرمه بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ [١٥/٨٩]، كيف وإن هذا تحدّثٌ بالنّعمة[6] وهو مأمورٌ به[7]؟

قلنا: المراد به أن يقول ذلك مُفتخراً به على غيره، ومُتطاولاً به عليه معتقداً استحقاق ذلك على رَبّه كما في قوله[8]: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢/٨٩].
(٢) ينظر القرطبي مثلاً: ٣٨/٢٠ - ٣٩
(٣) النحل: ٢٢/١٦
(٤) البلد: ١/٨٩
(٥) البلد: ٣/٨٩
(٦) في (ب) حديث بالنّعمة.
(٧) يشير إلى قوله تعالى [الضحى: ١١/٩٣]: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

عِنْدِي﴾ ومستدّلاً به على عُلوّ منزلته في الدار الآخرة، وكلُّ ذلك منهِيٌّ عنه. فأمّا إذا قاله على وجْهِ الشكر والتحدّث بنعمة الله فليس بمذمومٍ ولا منهيّ عنه.

فإن قيل: كيف قال في الجملة الأُولى: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ [١٥/٨٩] ولم يقل في الجملة الثانية: «فأهانه»؟

قلنا: لأنّ بسط الرزق إكرام؛ لأنّه إنعامٌ وإفضالٌ من غير سابقة. وقبضُه ليس بإهانة؛ لأنّ تَرْكَ الإنعام والإفضال لا يكونُ إهانةً بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة. فإنّ المولى قد يكرم عبده وقد يُهينه، وقد لا يكرمه ولا يُهينه. وتضييق الرّزق ليس إلّا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزّائد ألا ترى أنّه يحسُن أن تقول: «زيدٌ أكرمني» إذا أهدى لكَ هَدِيَّة، ولا يحسنُ أن تقول: «أهانني» إذا لم يهدك.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [٢٢/٨٩] والحركة والانتقال لا يليق على الله لأنّه مُحَال[٩]؛ لأنهما من خواصّ الكائن في جهة؟

قلنا: قال ابن عَبّاس رضي الله عنه: معناه: وجاء أَمر رَبّكَ؛ لأن في القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى. ونظيره[١٠]: ﴿هَل يَنْظُرونَ إلّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾.

وقيل: معناه: وجاء ظهورُ رَبّك بضرورة معرفتِهِ يوم القيامة. ومعرفة الشيء بالضرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته.

فمعناه: زالت الشكوك، وارتفعت الشُّبهة كما ترتفع عند مجيء الشيء الذي كان يُشَكّ فيه.

(٨) القصص: ٧٨/٢٨.
(٩) في (أ) والحركة والانتقال على الله محال؛ لأنهما من خواصّ الكائنين في جهة.
(١٠) الأنعام: ١٥٨/٦؛ وينظر ما أورده القاضي عبد الجبّار في متشابه القرآن، وتنزيه القرآن عن المطاعن في تفسير الآيتين الكريمتين من سورتي الأنعام والفجر.

سُورَةُ البَلَد

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ [٣/٩٠] ولم يقلْ وَمَنْ وَلد؟

قلنا: لأنَّ في (ما) من الإبهام ما ليس في (مَنْ)، فقصد به التفخيم والتعظيم، كأنَّه قال: وأيَّ شيءٍ عجيبٍ غريبٍ ولد؟ ونظيره قوله تعالى[1]: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[2].

سُورَةُ الشّمْس

فإن قيل: كيف نكّر النّفس دون سائر ما أُقسم به؟

قلنا: لأنّه لا سبيل إلى لام الجنس، لأنّ نُفُوْسَ الحيوانات ـ غير الإنسان ـ خارجةٌ عن ذلك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وتَقْوَاهَا﴾ [٨/٩١].

ولا سبيل إلى لام العهد لأنَّ المراد ليس نفساً[3] واحدة معهودة.

وعَلَى قول مَنْ قَال إنّ المراد بها نفس آدم عليه السَّلام، فالتّنكير للتَّفخيم والتّعظيم كما سبَق في سُورة الفجر.

---

(١) آل عمران: ٣٦/٣

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [٧/٩١].

(٣) في (ب) ليس بنفسٍ.

سُورَةُ الليْل

فإن قيل: كيف قال: ﴿لا يَصْلاهَا إلاّ الأَشْقىٰ﴾ [١٠/٩٢] مع أن الشقيّ أيضاً يَصلاها؛ أي يقاسي حَرَّها وعذابها؟

قلنا: قال أبو عبيدة: الأَشقى هنا بمعنى الشقيّ، والمراد به كلّ كافر. والعرب تستعمل (أَفْعَل) في موضع (فاعل) ولا تريد به التفضيل، وقد سبق تقريرُ ذٰلك، والشواهد عليه في سورة الروم في قوله تعالى[١]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقال الزجّاج: هذه نارٌ موصوفة معيّنة، فهي دَرَكٌ مخصوص ببعض الأشقياء. ورُدَّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَىٰ﴾ [١٧/٩٢] والأَتقى يتجنَّب أَنواع نار جَهَنّم كلّها.

والمراد بالأَتقى هنا أبو بكر رضي الله عنه بإجماع المفسّرين. ولهذا قال الزمخشري[٢] إنّ الأشقى ليس بمعنى الشَّقِيّ بل هو على ظاهره؛ والمراد به أبو جهل وأُميّة بن خلف. فالآية واردة بين حالتي أعظم المؤمنين وأعظم المشركين[٣] فبولغ في صفتيهما المُتَناقضتين، وجُعِلَ هذا مختصاً بالصَّلى، كأَنّ النار لم تخلق إلا لوقود نصيبه منها[٤].

---

(١) الروم: ٢٧/٣٠
- ويُراجَع تفسير سورة الروم من هذا الكتاب.

(٢) الكشاف ٤: ٢٦٢

(٣) في الكشاف: «... عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين؛ فاريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين...». والمؤلف كثيراً ما ينقل الفكرة أو الرأي بتصرّف في العبارة، واختصار.

(٤) للمفسّرين كلامٌ وتفصيل عند قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاَهَا إِلَّا الأَشْقَىٰ﴾. وردٌّ بعضهم على تفسير الزّمخشري هذا، وما شابهه.
يراجع القرطبي ٨٦/٢٠ - ٨٨، و: الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف لناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري (طبع بهامش الكشاف) ٤: ٢٦١ - ٢٦٢

وجـاء قـوله تعـالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَـا الأَتْقَى﴾ [١٧/٩٢] الّذي على موازنـة ذلـك ومقابـلته مع أنّ كـل تقيّ يُجنبهـا.

قـال بعـض العلمـاء: وهـذه الآيـة تدلُّ على أن أبـا بـكر رضـي الله عنه أفـضَلُ الصَّحـابة بالتّقى. وقـال تعـالى(٥): ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَـاكُمْ﴾ وَإِذا كـان أَكـرمَ عند الله كـان أفـضَل.

(٥) الحجرات: ١٣/٤٩

سُورة الضحى

فَإن قيل: كيف وصفه عليه الصلاة والسلام بالضَّلال؛ ونبيُّنا نعوذ باللَّهِ أن يكونَ ضالاً ـ أي كافراً ـ لا قبل النبوّة ولا بعدها، والضَّالّ أكثر ما ورد في القرآن بمعنى الكافِر؟

قلنا: المراد به هُنا أنّه تعالى وجدَه ضالاً عن معالم النبوّة وأحكام الشريعة، فهداه إليها؛ هذا قول الجمهور.

الثاني: أنه ضلّ وهو صغير في شعاب مكةّ فردّه الله تعالى إلىٰ جَدّه عبد المطلب.

الثالث: أن معناه: ووجدك ناسِياً فهداكَ إلى الذكر، لأن الضلال جاء بمعنى النسيان، ومنه قوله تعالى[1]: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾[2].

فإن قيل: لو كان الضلال بمعنى النِّسيان لما جَمع بينهما في قوله تعالى[3] ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّيْ وَلَا يَنْسىٰ﴾.

قلنا: لا نَدّعي أنّه حيث ذُكِرَ بمعنى النِّسيان، فهو في تلك الآية بمعنى الخَطأ، وقيل بمعنى الغفلة.

الرّابع: أنّ معناه: ووجدك جاهلاً فعلّمك.

---

(١) البقرة ٢/٢٨٢.

(٢) وقيل: «ووجدك ضالاً» أي في قوم ضلال؛ فهداهم الله بك.

وقيل: ووجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها.

وقيل: ووجدك طالباً للقبلة فهداك إليها. ويكون الضلال في اللغة بمعنى الطلب، لأن الضال طالب.

وذكرت وجوهُ أُخر نقلها القرطبيّ (٢٠/ ٩٦ـ٩٨) وغيره.

(٣) طه ٢٠/٥٢.

فإن قيل: كيف مَنَّ عليه بإخراجه من الفقر إلى الغنىٰ بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [٨/٩٣] أي فقيراً. والعائل: الفقير؛ سواء كان لهُ عيال أو لم يكن؟

قلنا: قال ابن السّائب ـ واختاره الفرّاء ـ إنّه لم يكن غناه بكثرة المال ولكنّ الله تعالى أرضاه بما آتاه؛ ولم يكن له ذلك الرضا قبل النبوة؛ وذلك حقيقة الغِنىٰ، ويؤيّده قوله عليه الصّلاة والسّلام[٤]: «الغِنى غنى القلب».

وقال غيرُه: المراد به أنه أَغناه بمالِ خديجة رضي الله عنها عن مال أبي طالب؛ فالمرادُ به الإغناء بتسهيل ما لا بدّ منه وتيسيره، لا الإغناء بفضول المال التي لا تجامع صفة الفقر[٥].

---

(٤) في حديث أخرجه مسلم والبخاري وغيرهما، «ليس الغنى عن كثرة العَرَض إنما الغنى غنى النّفس» وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢: ٢٤٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) وقيلت وجوه آخر من التفسير (ينظر القرطبي ٢٠: ٩٩ - ١٠٠).

سورة: أَلَمْ نَشْرَح

فإن قيل: أي فائدةٍ في زيادة ﴿لَكَ﴾ [١/٩٤] و﴿عَنْكَ﴾[١] [٢/٩٤] والكلام تامٌّ بدونه؟[٢]

قلنا: فائدته الإبهامُ ثم الإيضاح[٣]، وهو نوع من أنواع البلاغة. فلما قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لك﴾ فُهِم أنّ ثمّة مشروحاً له، ثم قال ﴿صَدْرَكَ﴾ فأَوضح ما عُلِم منها؛ وكذا الكلامُ في ﴿عَنْكَ﴾.

فإن قيل: كلمة «مع» للمصاحبةِ والقِران، فما معنى اقتران العُسر واليُسر؟

قلنا: سبب نزول هذه الآية[٤] أنّ المشركين عَيَّروا رسول اللَّه، ﷺ، وأصحابه الفقر والضائقة التي كانوا فيها فوعدهم الله يُسراً قريباً من زمان عُسرهم. وأراد تأكيد الوعد بتسليتهم، وتقوية قلوبهم، فجعل اليُسْرَ الموعود كالمقارن للعسر في سرعه مجيئه.

فإن قيل: ما معنى قول ابن عَبّاس وابن مسعود رضي الله عنهما «لن

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ. ورَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [٢/٩٤ - ٤].

(٢) في الفصيح يقال: دونه.

(٣) ذكر الزركشي (الإيضاح بعد الإبهام) في جملة أساليب القرآن وفنونه البليغة، وقال إن الإيضاح بعد الإبهام يورد لِيُرَى المعنى في صورتين أو ليكون بيانُه بعد التشوّف إليه ليكون ألذّ للنفس وأشرف عندها، وأقوى لحفظها وذكرها.
البرهان في علوم القرآن ٢: ٤٧٧.

(٤) «إنّ اللَّه تعالى بَعَث نبيّه ﷺ مُقِلاًّ مُخِفّاً، فعيّره المشركون بفقره حتى قالوا له نجمع لك مالاً! فاغتمّ وظنّ أنهم كذّبوه لفقره، فعزّاه الله وعدّد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله ﴿فإنّ مع العسر يُسْراً﴾ أي لا يحزنك ما عيّروك به من الفقر. فإن مع ذلك العسرِ يُسْراً عاجلاً أي في الدنيا....»
عن القرطبي: ١٠٨/٢٠.

يغلب عسرٌ يُسْرَيْن». ويُروى عن النبيّ ﷺ أيضاً؟

قُلنا: هذا يُحمل على الظّاهر، وبناء على قُوَّة الرِّجال. وإنَّ وعد الله تعالى لا يُحْمَلُ إلا على أحسن ما يحتمله اللّفظ وأكمله. وأمّا حقيقة القول فيه فهو أنّه يحتمل أن تكون الجُملة الثّانية تأكيداً للأولى كما في تكرار قوله تعالى[٦]: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾، وما أشبهه في قولك: جاءني رجل، جاءني رجل؛ وأنت تعني واحداً بعينه في الجُملتين.

فعلى هذا يتحدّ العُسر واليُسر، ويكون تعريف العسر لأنه حاضر معهود، وتنكير اليسر لأنه غائب مفقود، أو للتفخيم والتعظيم.

ويُحتمل أن تكون الجملة الثانية وعداً مستأنفاً فيتعدّد اليُسر حينئذ على ما قيل.

ويؤكّد أن الجملة الثانية للتأكيد أنه ليس في مصحف عبد الله بن مسعود إلا مرّة واحدة.

فإن قيل: فإذا ثبت في قرآنه[٧] أنّه غير مكرّر فكيف قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في حَجَر لطلبه اليُسر حتى يدخل عليه. إنّه لن يغلبَ العسر يُسرين!

قلنا: كأنّه نزّل ما فيه من التّفخيم والتعظيم بالتنكير منزلة التّثنية، لأنّ المعنى يسراً وأيّ يُسر.

---

(٥) في القرطبي ١٠٨/٢٠ «والّذي في الخبر: لن يغلب عسرٌ يُسرين؛ يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنّما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا فأمّا يُسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال (إن مع العسر) وهو إخراج أهل مكة النبي ﷺ يُسراً وهو دخوله يوم فتح مكّة مع عشرة آلاف رجل، مع عزّ وشرف».

(٦) المرسلات ٥٥/٧٧ ومواضع أُخر من السُّورة.

(٧) يعني في نسخته.

وأَمّا مَن فسَّره بِيُسرين فإنّه قال: أَحد اليُسرين ما تيسَّر من الفتوح في زمن النبيّ ﷺ. **والثاني**: ما تيسّر بعده في زمن الخلفاء.

وقيل: هما يُسر الدُّنيا ويُسر الآخرة، كقوله تعالى[٨]: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوْنَ بِنَا إلاّ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما حُسن الظفر وحسن الثواب.

(٨) التوبة: ٩/٥٢

سُورَةُ التين

فَإن قِيل: كيف وجهُ صحّة الاستثناء في قوله: ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [٩٥/٦]؟

قلنا: قال الأكثرون: المُراد بالإنسان هنا الجِنس، وبردِّهِ أسفل سافلين: إدخالُه النَّار. فعلى هذا يكون الاستثناء مُتّصلاً ظاهر الاتّصال؛ ويكونُ قوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُوْنٍ ﴾ [٩٥/٦] قائماً مقام قوله: فلا نردّهم أسفل سافلين بالهرم والخَرَف.

وقيل: السَّافلون هم الضُّعفاء والزَّمْنىٰ والأطفال، والشيخ الهرم أسفل هؤلاء كلّهم؛ فعلى هذا يكونُ الاستثناء منقطعاً بمعنى (لكنْ) ومعنى قوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ ممنون ﴾ أي غير ممنون بالهرم والضعف الحاصل من الكبر ﴿ إلَّا الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في حال شبابهم وقوّتهم فإنهم إذا عجزوا عن العمل كُتب لهم ثواب ما كانوا يعملونه من الطّاعات والحسنات إلى وقت موتهم، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه(١): «مَنْ قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العُمر».

وقال بعض العلماء: ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في شبابهم وقوّتهم لا يُرَدُّون إلى الحُزن وأرذل العمر وإن عُمّروا طويلاً، وتمسّك بظاهر قول ابن عبّاس رضي الله عنه.

---

(١) في القرطبي: عن عاصم الأحول عن عكرمة قال: من قرأ القرآن... إلخ... (٢٠/١١٩).

سُوْرَةُ العَلَق

فإن قيل: أين مفعول ﴿ خَلَق ﴾ [٩٦/١] الأوّل؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: ألاّ يُقَدَّر له مفعول، بل يكون المُراد: الذي حصَل منه الخَلْق واستأثر به لا خالق سواه؛ كما في قوله تعالى[1]: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ في أحد الوجهين؛ وقولهم: فلان يُعطي ويمنع، ويَصِلُ ويقطع.

الثاني: خلق كل شيء؛ ثم أفرد الإنسان بالذكر تشريفاً له وتفضيلاً.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [٩٦/٢] على الجمع ولم يقل من علقة؟

قلنا: لأن الإنسان في معنى الجمع بدليل قوله تعالى[2]: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ. إلاّ الَّذِيْنَ آمَنُوا... ﴾ والجمع إنّما خُلق من علقٍ لا من علقة.

فإن قيل: هذا الجواب يردّه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ إن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ من تُرَابٍ ثمّ مِنْ نُطْفةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ... ﴾.

قلنا: المراد ثَمَّ: فإنّا خلقناكم إلىٰ خَلْقِنَا آباءكم من تراب، ثم خلقنا كلّ واحد من أولاده من نطفة.

وقيل: إنما قال ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ رعاية للفاصلة الأولى وهي ﴿خَلَق﴾.

---

(١) الملك: ٦٧/١٤.

(٢) العصر: ١٠٣/ ٢ ـ ٣

سورة القَدْر

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى ﴿ مِن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [٤/٩٧]، وتنزّلهم من الأمر لا معنى له؟

قلنا: (مِنْ) هنا بمعنى الباء؛ كما في قوله تعالى(١): ﴿ يَحْفَظُوْنَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ وقوله تعالى(٢): ﴿ يُلْقِي الرُّوْحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي بكلّ أَمرٍ قضاه اللّه تعالى في تلك السَّنة من ليلة القدر إلى مثلها تنزل الملائكة به من اللّوح المحفوظ إلى سَماء الدُّنيا، وقيل إلى الأرض.

---

(١) الرعد: ١١/١٣.
(٢) غافر: ١٥/٤٠.

سُورَةُ البَيِّنَة

فَإن قيل: المُراد بالرَّسُول هنا محمّد ﷺ بلا خلاف؛ قال: ﴿ رَسُوْلٌ من اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴾ [٢/٩٨] وظاهره يدلّ على قراءة المكتوب من الكتاب؛ وهو مُنتفٍ في حقه عليه الصلاة والسلام لأنه كان أُمّيّاً؟

قلنا: المُراد: يتلو ما في الصحف عن ظهر قلبه؛ لأنه هو المنقولُ عنه صلى الله عليه وسلّم بالتّواتر.

فإن قيل: ما الفرق بين الصحف والكتب حتى قال ﴿ صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴾؟

قلنا: ﴿ صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴾ من الشرك والباطل.

وقوله تعالى: ﴿ فِيْهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [٣/٩٨] أي مكتوباتٌ، مستقيمة ناطقة بالعدل والحقّ؛ يعني الآيات والأحكام.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ وَمَا تَفَرَّق الَّذِيْنَ أُوْتَوا الكِتَابَ إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جَاءَتْهُمُالبَيِّنَةُ ﴾ [٤/٩٨] أي النبيّ ﷺ والقرآن؟ والمُراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، وهم ما زالوا متفرّقين مختلفين يكفرّ كل فريق منهم الآخر قبل مجيء البَيِّنة وبعدها؟

قلنا: المراد به تفرقهم عن تصديق النبي ﷺ، والإيمان به قبل أن يُبعث فإنهم كانو ا مجتمعين على ذلك مُتّفقين عليه بإخبار التّوراة والإنجيل . فلمّا بُعث إليهم تفرّقوا، فمنهم مَنْ آمن ومنهم من كفر.

وقال بعض العلماء: المراد بالبيّنة ما في التَّوْراة والإنجيل من الإيمان بنبوّته، ويؤيد هذا القول أن أهل الكتاب أُفردوا بالذكر في هذا التفرّق من المشركين أيضاً بعدما جُمِعوا مع المشركين في أول السورة فلا بدّ أن يكون مجيءُ البيّنة أمراً يخصُّهم، ومجيء النبي ﷺ والقرآن العزيز لا يخصُّهم.

سُـورَةُ الزّلْزَلَـة

فـإن قيـل: ما معنى إضافة الزلـزال ـ الـذي هـو المصـدر ـ إلى الأرض، وهـلاّ قـال: زلـزالاً، كما قـال:(١) ﴿ كلاّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ وما أشبهه؟

قلنـا: معنـاه: الزلزال الـذي تَستوجبه في حكمة الله تعـالى ومشيئته في ذلك اليوم، وهو الـزلزال الـذي ليس بعده زلـزال. ونظيره قولك: أكـرم التقيَّ إكـرامه، و:أَهِن الفاسق إهانته؛ تريد: ما يستوجبانه من الإكـرام والإهـانة.

ويجوز أن يكـون المـراد بالإضـافة: الاستِغـراق؛ معنـاه: زلـزالها كلّه الـذي هو ممكـنٌ لها.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾ [٧/٩٩] على العموم وحـسنات الكافر مُحْبَطَةٌ بالكـفر، وسيّئات المؤمن مَعْفُوٌّ عنهـا مغفورةٌ باجتنـاب الكبـائر، فـكيف تثبت رُؤيـة كـلّ عامـلٍ جـزاءَ عـمله؟

قلنـا: معنـاه: فـمن يعمل مثقـال ذرة خـيراً من فريق السعداء، ومـن يعمـل مثقال ذرةٍ من فـريق الأشقيـاء لأنـه جـاء بعد قـوله: ﴿يَصْدُرُ النـاسُ أَشْتاتاً﴾ [٦/٩٩].

وذكـر مقاتـل أنهـا نـزلت في رجـلين من أهـل المدينة كان أُحـدهما يستقلّ أن يعطي الكسـرة أو التـمرة ويقـول إنـما نؤجـر على ما نعطيه ونحـن نحـبّه، وكـان الآخـر يتهـاون بالذنـب اليسير ويقـول: إنـما أُوعـد الله تعـالى النـار على الكبـائر!

---

(١) الفجـر: ٢١/٨٩

سُورَةُ العَادِيَات

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيْرٌ﴾ [١٠٠/١١] مع أنه خبير بهم في كل زمان، فما وجه تخصيص ذلك اليوم؟

قلنا: معناه: إن ربّهم يجازيهم يومئذٍ على أعمالهم، فالعلم مَجَازٌ عن المُجازاة؛ ونظيره قوله تعالى(١): ﴿أُولَئِكَ الَّذِيْنَ يَعْلَمُ اللهُ ما فِيْ قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: يجازيهم على ما فيها؛ لأنَّ علمه شامل جامعٌ قلوبَ كُلّ العبَاد؛ ويقرب منه قوله تعالى(٢): ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُوْنَ لا يَخْفىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

سُورَةُ القَارِعَة

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّت مَوَازِيْنُهُ﴾ [١٠١/٨] أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [١٠١/٩] أي: فمسكنه النار، وأكثر المؤمنين سيّئاتهم راجحةٌ على حسناتهم؟.

قلنا: قوله تعالى: «فأُمه هاوية» لا يدل على خلوده فيها، فيسكن المؤمن فيها بقدر ما تقتضيه ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنّة.

وقيل: المراد بخفّة الموازين خلّوها من الحسنات بالكلّية، وتلك موازين الكفّار.

---

(١) النساء: ٤/٦٣

(٢) غافر: ٤٠/١٦

سُورَةُ التكَاثُر

فـإن قيل: أين جـوابُ ﴿. . . لَوْ تَعْلَمُوْن. . .﴾ [١٠٢/٥]؟

قلنـا: هـو محـذوف تقديره: لو تعْلـمون الأمر يقيناً لشغلكـم ما تعـلمون عن التكاثـر والتّفاخـر. ثـم ابتدأ تعـالى الوعـيد الآخـر فقـال: ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيْمَ﴾ [١٠٢/٦].

فـإن قيل: كـل أحـد لا يخـلو عن نيـل نعيمٍ في الدنيا ولو مـرّة واحـدةً فـما النعـيم الـذي يُـسأل عنـه العبد؟

قلنـا: فيه سبعـة أقوال:

أحـدها: الأمـن والصحّـة.

الثـاني: أنـه المـاء البـارد.

الثـالث: أنّـه خُبز البُرّ، والماء العـذب.

الرابع: أنـه كـل مأكـول ومشروب لـذيذين.

الخـامس: أنـه الصحّـة والفراغ.

السـادس: أنـه كـل لذّةٍ من لـذات الدُّنيـا.

السابع: أنـه دوام الغَداء والعَشـاء.

وقيل: إنَّ السؤال خـاص للكفّـار؛ والصَّحـيح أنه عامٌّ في كـل إنسـان، وفي كـل نعـيم فالكـافر يُسأل توبيخـاً، والمؤمـن يُسـأل عن شكرهـا. ويؤيّـد

هـذا ما جـاء في الحـديث أنـه ﷺ قـال[١]: يقـول الله تعـالى: ثـلاث لا يُـسأل عبدي عن شكرهـنّ، وأسأله عمّـا سوى ذلك: بيـت يكنّـه، ومـا يـقيم به صـلبه من الطعـام، ومـا يواري به عورتـه من النـاس.

(١) ذكر أبـو نعـيم الحـافظ عن أبي عـسيب مولى رسول الله ﷺ قـال: خـرج علينـا رسول الله ﷺ ليـلاً فخـرجت إليه، ثـم مرّ بـأبي بـكر فـدعاه، فخـرج إليه، ثـم مرّ بعـمر فدعاه فخـرج إليه، فانـطلق حتّى دخـل حـائطاً لبعـض الأنصـار، فقـال لصـاحب الحـائط: أطعمـنا بسُراً، فجـاء بعذْق فوضعه فأكـلوا. ثـم دعا بـماءٍ فـشرب، فقـال: لَتُسْأَلُنَّ عن هـذا يـوم القيامة. فقـال: وأخـذ عـمر العذق فـضرب به الأرض حـتى تناثر البُسر أمـام رسـول الله ﷺ قـال: يـا رسـول الله: إنّـا لمسؤولون عن هـذا يـوم القيامة؟ قـال: «نـعم، إلاّ من ثـلاث: كـسرة يَسُدّ بهـا جَوْعَتـه، أو ثـوب يستـر به عَوْرَتـه، أو جُحـر يأوي فيه من الحـرّ والقُرّ».

ـ وفي القرطـبي كـلام طويل في تفسير الآيـة ومـا ورد فيهـا عن رسول ﷺ والصّحـابة رضـوان الله عليهـم، وعن غيرهـم. (القرطـبي ٢٠/١٧٥ ـ ١٧٨)

سُورَةُ العَصْر

فإن قيل: الاستثناء الذي في السورة لا يدلُّ على أن المؤمنين الموصوفين في رِبح، مع أنّ الاستثناء إنّما سيق لمدحهم بِمُضَادَّة حالِهم بحال من لم يتناوله الاستثناء؟

قلنا: الاستثناء إن لم يدلّ بصريحه على أنّهم في ربحٍ؛ ولكنّ اتّصافهم بتلك الصّفات الأربع الشريفة يدلّ على أنّهم في أعظم ربح، مع أنّا لو قَدّرنا أنهم ليسوا في ربحٍ فالمضادّة حاصلةٌ أيضاً لأنّهم ليسوا في خُسرٍ بمقتضى الاستثناء.

سُورَةُ الهُمَزَة

فإن قيل: ما الفَرقُ بين الهُمَزة واللُّمَزة؟

قلنا: قيل إنهما بمعنىً واحد، لا فَرْق بينهما؛ وإنّما الثاني تأكيدٌ للأوّل.

وقيل: إنهما مختلفان؛ فقيل: الهُمَزة: المغتاب، واللُّمزة: العَيّاب. وقيل: الهُمزَة: العياب في الوجه، واللّمزة: العيّاب في القفا.

وقيل: الهمزة: الطعّان في النّاس، واللّمزة: الطعّان في أنساب الناس.

وقيل: الهَمْزُ يكونُ بالعين، واللّمزة باللسان، وقيل عكسه فهذه ستّة أقوال.

سُورَةُ الفِيلِ

فإن قيل: ما معنى «الأبابيل» وهل هو واحدٌ أو جَمع؟

قلنا: معناها: جماعاتٌ في تفرقة؛ أي حَلقة حَلْقة.

وقيل: هي التي يتبع بعضها بعضاً.

وقيل: الكثيرة.

وقيل: المختلفة الألوان.

قال الفَرّاء[1] وأبو عبيدة: لا واحدَ لها، وقيل: واحدها: إبَّال وإبَّوْل وإبّيل[2].

---

(١) معاني القُرآن ٣: ٢٩٢

(٢): عن الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي فِرَقاً. وطيرٌ أبابيل، وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحِدُهُ: إبَّوْل ـ مثل عِجَّوْل ـ وقال بعضهم، وهو المبرّد، إبِّيل مثل سِكّين... وقيل في واحِدِهِ: إبَّال... وقال الفرّاء: لا واحد له من لفظه... وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها إبّالة (مشدّدة) وحكى الفرّاء: إبَالَة: مخففاً. وقيل: الأبابيل مأخوذ عن الإبل المؤبّلة، وهي الأقاطيع.
عن القرطبي: ٢٠/١٩٧ ـ ١٩٨

سُورَةُ قُرَيْش

فإن قيل: بِأَيِّ شيءٍ تتعلّق اللام في قوله تعالى: ﴿لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [١٠٦/١]؟

قلنا: قيل: إنّها متعلّقة بآخر السورة التي قبلها، أي «فجعلهم كَعَصْفٍ مأكول لإيلاف قريش» ويؤيّد هذا أنهما في مصحف أُبَيّ وضعا سورة واحدة بلا فصل.

والمعنى: أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فَيَهَابُوهُم ويحترموهم، فينتظم لهم الأمرُ في رحلتهم، ولا يجترىء أَحدٌ عليهم.

وقيل: معناه: أهلكهم لتألف قريش رحلة الشتاء والصّيف بهلاك من كان يهينهم ويمنعهم.

وقيل: إنها متعلّقة بما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذا البَيْتِ﴾ [١٠٦/٣].

والتقدير: فليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلاف رحلةِ الشّتاء والصّيف.

معناه: إنّ نعم الله عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة.

وقيل: هي لام التعجّب: معناه: «اعجبوا لإيلاف قريش». فكانت لقريش كل سنة رحلتان للتجار، بها معاشهُم: رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام.

ثم قيل: ﴿الإيلاف﴾ هنا مصدر بمعنى الإلف، تقول: آلَفْتُهُ إيلافاً، بالمدّ، كما تقول: أَلِفته إلفاً، بالقَصْرِ؛ كلاهما متعدّ إلى مفعول

واحد. فيكون معنى «لإيلاف قريش»: لإلِف قريش؛ أي لجعلهم راحلين.

وقيل: آلف بالمدّ متعدٍّ إلى مفعولين؛ يقال: آلف زيدُ المكان وآلف زيدٌ عمراً المكان.

فيكون معنى الآية: لإيلاف الله تعالى قريشاً الرّحلتين. فعلى هذا الوجه يكون المصدر مضافاً إلى المفعول؛ وعلى الوجه الأول، يكون مضافاً إلى الفاعل.

وأما تكرار المصدر في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ...﴾ [١٠٦/١-٢] فقيل إن الثاني بدل من الأول.

وقيل: إنه للتأكيد؛ كما تقول: أعطيتك المال لصيانة وجهك: صيانته عن ذُلّ السؤال.

سُورَةُ المَاعُون

فإن قيل: كيف تَوعَّد الله السَّاهِي عن الصَّلاة؛ والحديثُ يَنفي مُؤاخذته، وهو قولهُ ﷺ(١): «رُفِعَ عن أُمّتي الخَطأ والنسيان»؟

قلنا: المراد بالسَّهو هنا: التَّغافُل والتكاسل في أَدائها(٢) وقلّة الالتفات إليها؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشّطّار من المسلمين. وليس المراد ما يتّفق فيها من السهو بوسوسة الشيطان أو حديث النَّفس ممّا لا صنع للعبد فيه ولا اختيار، وهو المراد في الحديث. وكان النبيّ ﷺ يقع عليه السهو في صلاته، فضلاً عن غيره(٣). ولهذا قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ [١٠٧/٥] ولم يقل: في صلاتهم.

وعن أنس رضي الله عنه أنّه قال(٤): الحمد لله على أن لم يَقُلْ «في صلاتهم».

---

(١) في الفتح الكبير ٢: ١٣٥: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيانُ وما استكرهوا عليه» عن الطبراني الكبير.

(٢) قال تعالى في سورة النساء (٤: ١٤٢):
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ يُخَادِعُوْنَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذا قَامُوا إِلىٰ الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُوْنَ الله إِلاَّ قَلِيلاً﴾.
قال القرطبي: أي يصلّون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون، لا يرجون ثواباً ولا يعتقدون على تركها عقاباً؛ وفي صحيح الحديث: «إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصُّبح».

(٣) لأبي بكر بن العربي هنا كلام حَسنٌ، قال: وقد سها النبي ﷺ في صلاته والصحابة. وكل من لا يسهو في صلاته فذلك رجل لا يتدبّرها ولا يعقل قراءتها، وإنما همُّه في أعدادها، وهذا رجل يأكل القشور ويرمي اللبّ، وما كان النبيّ ﷺ يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها، اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يُقبل على وسواس الشيطان إذا قال له: اذكر كذا، اذكر كذا حتى يضل الرجل أن يدري كم صلّى». أحكام القرآن ٤: ١٩٨٣

(٤) رواه القرطبي ٢١٢/٢٠ عن عطاء.

سُورَةُ الكَوْثَر

فإن قيل: ما الكَوْثر؟

قلنا: فيه قولان:

أحدهما: وهو قول ابن عَبّاس، أنّه الخير الكثير: (فَوْعَل) من الكثرة، كقولهم رجل نَوْفَل أي كثير النَّفل. ومنه قول الشّاعر(١):

وأنت كثيرٌ يا ابن مروانَ طيّبٌ ... وكان أبوكَ ابنُ العقائل كَوْثَرا(٢)

وقيل لأعرابيّةٍ رجع ابنُها من السفر: بِمَ آبَ ابنك؟ فقالت: آبَ بكوثر(٣).

ولقد أعطى الله تعالى النبي ﷺ خيراً كثيراً: فإنّه آتاه الحكمة(٤) ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾؛ ومنهم من فسّر هذا الخير الكثير بالنبوّة؛

ومنهم من فَسّره بالعلم والحكمة؛

ومنهم من فسّره بالقرآن؛

والقول الثاني: أن الكوثر اسم نهر في الجنّة؛ وهو قول أكثر المفسّرين. وجاء في الحديث الصحيح أنه قال: بَيْنا أنا أسير في الجنّة فإذا بنهرٍ حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف؟ فقلت: ما هذا يا جبريل؟

---

(١) هو الكميت بن زيد الأسدي.
(٢) هو في مجموع شعره ٢: ٢٠٩
(٣) أي بمال كثير.
(٤) البقرة: ٢/٢٦٩

قال: هذا الكَوْثَر الذي أعطاك ربك. فضرب الملك بيده فإذا طيبه المسلك الأَذْفَر[٥].

وروي عن صفته أنه أحلى من العسل وأشدّ بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزُّبد: حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضّة عدد نجوم السَّماء، لا يظمأُ مَنْ شَرب منه أبداً.

(٥) الذَّفَر في أصل اللغة: شدّة ذكاء الرّيح من طيب أو نتن. وفي صفة الحوض: وطِينُه مسكٌ أَذْفَر، أي طيّب الرّيح. ومنه صفة الجنة: ترابها مسك أذفر.
ـ والحديث في الصّحاح، ينظر مثلاً مسند أحمد ١: ٢٣١ ـ ٢٣٢

سُورَةُ الكَافِرُون

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾ [١٠٩/٣] ولم يقل« مَنْ أعبد».

قلنا: فيه وَجهان:

أحدهما: أنه إنّما قال «ما» رعاية للمقابلة في قوله: ﴿لَآ أَعبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [١٠٩/ ٢].

الثاني: أن (ما) مصدريّة؛ أي لا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي.

وقال الزّمخشري[١]: إنَّما قال «ما» لأنّ المراد الصِّفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحقّ.

وقال غيره: «ما» في الكل بمعنى: الذي؛ والعائد محذوفٌ.

فإن قيل: ما فائدة التكرار؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: للتأكيد وقطع أطماعهم فيما طلبوه منه.

الثاني: أن الجملتين الأوليين لنفي العبادة في الحال، والجملتين الأُخريين في الاستقبال؛ فلا تكرار فيه.

وهذا قول ثعلب والزجّاج.

والخطاب لجماعة أعلمه الله تعالى أنّهم لا يؤمنون.

---

(١) الكشّاف ٤: ٢٩٣

وقال الزمخشري ما يَرُدُّ الوجه الثاني، وذلك أنّه قال: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أُريد به العبادة فيما يُستقبل؛ لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال؛ كما أنّ (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال[٢].

فالجملتان الأُولَيان لنفي العبادة في الاستقبال، والجملتان الأُخريان لنفي العبادة في الماضي.

فقولهُ: ﴿وَلَا أَنا عابِدٌ مَا عَبَدْتُم﴾ [١٠٩/٤] أي: ما عُهِدَتْ مِنّي عبادة الأصنام في الجاهليّة، فكيف يُرْجَىٰ مِنّي بعد الإسلام. وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عابِدُوْنَ مَا أَعْبُدُ﴾ [١٠٩/٥] أي: وما عبدتم في وقت مّا ما أنا على عبادته.

ويرد على قوله: «والجملتان الأُخريان لنفي العبادة في الماضي» أنّ اسم الفاعل المنوّن العامل عمل الفعل لا يكون إلّا بمعنى الحال أو الاستقبال.

و﴿عابد﴾ هنا عامل في (ما)، وكذلك ﴿عابدون﴾، وجوابُه: أنّه على الحكاية كما في قوله تعالى[٣]: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيْدِ﴾.

وأورد على هذا التّقدير سُؤالاً[٤].

فإن قيل: فهلّا قال: «ولا أَنتم عَابِدُون ما عبدت» وبلفظ الماضي كما قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم﴾ [١٠٩/٤]؟

قلنا: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثه، وهو كان يعبد الله تعالى قبل بعثه.

---

(٢) الكشّاف ٤: ٢٩٣

(٣) الكهف: ١٨/٨١

(٤) لم يورد الزمخشري هنا أي سؤال. وكأن المؤلف يمهد للسؤال التالي؛ وجعله على منهج الكتاب، «فإن قيل...».

ويـردُ ـ على هـذا التقدير ـ أن أعـظم العبادات: التوحـيد، وكـلّ الأنـبياء كانوا موحّـدين بعقولهـم قبل بعثهـم(٥).

وقـال بعضُ العلمـاء: إنّـما جـاء الكـلام مكرّراً لأنّـه ورد جَـواباً لسؤالهـم العبادةَ مُناوبةً. وكـان سُؤَالُهُمْ مُكَرَّراً؛ فـإنهم قـالوا: يـا محـمّد! تعبدُ آلهـتنا كـذا مدّة ونعبد إلَهَك كَذا مـدّة، ثـم تعبد آلهـتنا كـذا مُدّةً ونعبد إلٰهـك كـذا مُدّة، فوَرد الجَـوابُ مكـرّراً ليطابق السُّؤَال، وهـذا وجـهٌ حَسنٌ لطيفٌ.

(٥) في (أ) قبل البعثة.

سُورَةُ النصْر

فإن قيل: أيُّ مناسبةٍ بين الأَمر بالاستغفار وبين ما قبله؛ فإنّ مجيء الفتح والنَّصر والظفر يُناسب الشكر والحمد والاستغفار والتّوبة؟

قلنا: قال ابن عَبّاس رضي الله عنه[1]: لمّا نزَلت هذه السُّورة على النبي ﷺ أنّه قال: «نُعِيَتْ إليَّ نَفسِي».

وقال الحسن: أُعلم النبي ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأُمر بالتسبيح والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزِّيادة في العمل الصالح، فكان يُكثر من قوله: سُبحانك، اللهمّ اغفر لي، إنك أنت التوّاب.

وعن ابن عبّاس أن هذه السورة تسمّى سورة التَّوديع.

وروى أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها ستّين يوماً.

---

(١) لما نزلت هذه السورة بكى عمر والعبّاس، فقيل لهما: إنّ هذا يوم فرح فقالا: بل فيه نعي النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: صدقتما، نُعِيَتْ إليَّ نفسي.
ـ وما أورده المؤلف رحمه الله، وأخبار أُخر كثيرة في تفسير القرطبي: ٢٠/٢٢٩ ـ ٢٣٣.

سُوْرَةُ الحَطَب

فإن قيل: كيف ذكر الله تعالى ﴿أَبَا لَهَبٍ﴾ بكنيته دون اسمه مع أَنَّ ذلك إكرامٌ واحترام؟.

قلنا: فيه وجوه:

أَحدها: أنه يجوز أنه لم يُعرف له اسم، ولم يشتهر إلا بكنيته فذكره بما اشتهر به لزيادة التشهير بدعوة السّوء عليه.

الثاني: أَنّه نُقل أنه كان اسمُهُ: عبد العُزّى، وهو كان عبد الله لا عبد العُزّى، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع.

الثالث: أَنّه ذكره بكنيته لأن مصيره إلى النار ذات اللّهب، وإنما كُنّي بذلك لتلّهب وجنته وإشراقها[1].

---

(١) زاد في القرطبي وجهاً رابعاً وهو: أنّ الاسم أشرف من الكنية، فحطّه الله تعالى عن الأشرف إلى الأنقص: (٢٠/٢٣٦)

سُورَةُ الاخلَاص

فإن قيل: المشهورُ في كَلام العَرب أنَّ الأحدَ لا يُستعمل بعد الإثبات؛ يُقال: في الدّار واحدٌ؛ وما في الدّار أحد؛

وجاءَني واحدٌ، وما جاءَني أحد؛ ومنه قوله تعالى[1] ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وقوله[3]: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ وقوله[4]: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ وقوله[5]: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقوله[6]: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ فكيف جاء هُنا (أَحَد) في الإثبات؟

قلنا: قال ابنُ عَبّاس: لا فَرْقَ بين الواحد والأحد، واختاره أبُو عبيدة[7]. ويؤيّده قوله تعالى[8]: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ وقوله[9]: ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ وما أشبهه وإذا كانا بمعنىً واحدٍ لا يختصُّ أحدهما بمكانٍ دون مكان وإنْ غَلب استعمالُ أحدهما في النّفي والآخر في الإثبات.

ويجوز أن يكون العُدُول عن الغالب هُنا رعايةً لمقابلة ﴿الصَّمَدُ﴾.

---

(١) البقرة: ١٦٣/٢
(٢) يوسف: ٣٩/١٢، وغيرها.
(٣) التوبة: ٨٤/٩
(٤) البقرة: ١٣٦/٢، وآل عمران: ٨٤/٣
(٥) الأحزاب: ٣٢/٣٣
(٦) الحاقة: ٤٧/٦٩
(٧) مجازُ القرآن ٢: ٣١٦
(٨) الكهف: ١٩/١٨
(٩) يوسف: ٤/١٢

سُورَةُ الفَلَق

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [٢/١١٣] يتناول كلّ ما بعده، فما الفائدةُ في إعادته؟

قلنا: خصّ شرّ هذه الأشياء الثلاثة بالذِّكر تعظيماً لشرّها كما في عطف الخاصّ على العامّ تعظيماً لشرفه وفضله؛ أو: خصّها بالذكر لِخَفاء شرّها، وأنه يلحق الإنسانَ من حيث لا يشعر به؛ ولهذا قيل: شر الأعداء المُدَاجِي(١)؛ وهو الذي يكيد الإنسان من حيث لا يعلم.

فإن قيل: كيف عَرّف «النفّاثات» ونَكّر ما قَبْلها وما بعدها؟

قلنا: لأن كُلّ نَفّاثة لها شرٌّ، وليس كل غاسق ـ وهو اللّيل ـ له شرّ. وكذا ليس كل حاسد له شرّ، بل رُبّ حسدٍ محمود وهو الحسد في الخيرات. ومنه قوله ﷺ(٢): لا حَسد إلاّ في اثنتين . . . الحديث.

وقال أبو تمّام(٣):

وما حاسِدٌ في المكرماتِ بحاسِدِ

وقال(٤):

إنَّ العُلا حَسَنٌ في مثلها الحَسَدُ!

---

(١) داجى الرَّجُلَ: ساتره بالعداوة، وأخفاها عنه، فكأنه أتاه في الظُّلمة؛ قال الشاعر:
كلُّ يُداجي على البغضاء صاحبه ... ولن أُعالنهم إلا بما علنوا

(٢) رُوي في الصَّحيحين؛
وهو في الفتح الكبير ٣٤٣/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: وفيه «لا حسد إلاّ في اثنتين: رجل علّمه الله القرآن فهو يتلوه آناءَ الليل وآناء النهار فسمعه جارٌ له فقال: ليتني أُوتيت مثل ما أُوتي فلان فعملت مثل ما يعمل؛ ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحقّ فقال رجل ليتني أُوتيت مثل ما أُوتي فلان فعملت مثل ما يفعل».

(٣) ديوان أبي تمّام ٢: ٧٣.

(٤) ديوان أبي تمّام ٢: ٢١.

سُوْرَةُ الناس

فإن قيل: كيف خَصّ الناس بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاس﴾ [١/١١٤] وهو ربُّ كُلّ شيءٍ؟

قلنا: إنّما خصَّهم بالذكر تشريفاً لهم على غيرهم لأنّهم أهل العقل والتّمييز.

الثاني: أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنّه رَبُّهم ليعلم أنه هو الذي يُعيذ من شرّهم.

الثالث: أنّ الاستعاذة وقعت من شرّ الموسِوسِ إلى النَّاس بربهم الذّي هو إلٰهُهم ومعبودُهم، كما يستغيث بعضُ العبيد إذا اعتراه خطبٌ بسيِّده، ومخدومه، ووليّ أمره.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾ [٦/١٠٤] بيان الذي يوسوس على أن الشيطان الموسوس ضربان: جِنّي وَإِنْسِيّ كما قال تعالى[١]: ﴿شَيَاطِيْنَ الإِنْسِ وَالجِنّ﴾ أو بيانٌ للنّاس الّذينَ أُضيفت الوَسوسة إلى صدورهم، و﴿النَّاس﴾ المذكورة آخراً بمعنى الإنس.

قلنا: قال بعض أئمّة التفسير في المُراد:

المعنى الأوّل كأنه قال: من شرّ الوسواس الجِنّي، ومن شرّ الوسواس الإنسيّ؛ فهو استعاذةٌ بالله من شرّ المُوسوسين من الجنسين. وهو اختيار الزجّاج.

---

(١) الأنعام: ١١٢/٦

وفي هذا الوجه إطلاقُ لفظ الخَنّاس على الإنسِيّ؛ والنّقل أنه اسم جِنّي[٢].

وقال بعضهم: المراد: المعنى الثّاني: كأنه قال: من شرّ الوسواس الجنّي الذي يوسوس في صدور الناس جِنّيّهم وإنسيّهم. فسمّي الجِنّ ناساً كما سمّاهم «نَفَراً» و«رجالاً» في قوله تعالى[٣]: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾ وقوله تعالى[٤]: ﴿يَعُوْذُوْنَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ﴾ فهو استعاذة بالله من شرّ الوسواس الجنيّ الذي يوسوس في صدور الجِنّ كما يوسوس في صُدور الإنس. وهو اختيارُ الفَرَّاء[٥].

والمُراد بالجِنَّةِ هنا: الشَّياطين من الجِنّ على الوجه الأَوّل؛ ومُطْلق الجِنّ على الوجه الثانيَ؛ لأنَّ الشَّيطان منهم هو الذي يوسوِسُ لا غيره. ومطلقهم يُوَسْوَسُ إليه.

واختار الزمخشري الوجه الأول[٦]؛ وقال: ما أُحِقُّ أَن اسم الناس ينطلق على الجِنّ؛ لأن الجنّ سُمُّوا جِنّاً لاجتنانهم، أي: لاستتارهم والنّاس سُمُّوا ناساً، لظهورهم، من الإيناس وهو الإبصار؛ كما سُمُّوا بَشراً، لظهورهم؛ من البشرة. ولو صَحّ هذا الإطلاق لم يكن هذا المحلّ مناسباً لفصاحة القُرآن.

---

(٢) قيل إن الوسواس الخَنّاس ابنٌ لإبليس، نقله القرطبي في كلام طويل عن الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبّه؛ وقال بعده: وما أظنّه يصحّ؛ والله أعلم.
(٣) الجن: ١/٧٢
(٤) الجن: ٦/٧٢
(٥) معاني القرآن ٣: ٣٠٢
(٦) الكشاف: ٣٠٣/٤، وتصرّف المؤلف رحمه الله في عبارة الزمخشري تصرفاً يسيراً.

قـال: وأَجـود منه أنّ المراد بالنَّاس الأُولى[٧]: النَّـاسي كقـوله تعـالى[٨]: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾.

وكـقوله تعـالى[٩]: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّـاس﴾[١٠].

ثُمّ بَيَّـن بِـ: ﴿الجِنَّـة والنَّـاس﴾؛ لأنَّ الثَّقَلَيْن هـما الجِنْسَـان الموصُوفـانِ بِنـسيان حـقوقِ الله تعـالى.

والله أعـلم بالصـواب؛ وإليـه المَرْجِعُ والمآب.

---

(٧) يعني في قوله تعـالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّـاسِ﴾ [٥/١٠٤].

(٨) القـمر: ٥٤/٦

(٩) البـقرة: ٢/١٩٩

(١٠) يـعني على قـراءة من قـرأ (النَّـاسي). ينـظر معجـم القراءات القرآنـية ١: ١٥٤؛ في قـراءة لابن جُبَيْر.

الفهـرس

